المشرف

الدكتور ... عنه وكالة: المشرف

أوقع على تصويب الأخ الباحث للملاحظات

د. عاصم القريوتي


المملكة العربية السعودية

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

قسم الدراسات العُليا

شعبة العقيدة


# منهج الإمام الشوكاني في العقيدة

رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية العالية "الدكتوراه"


إعداد الطالب

عبد الله نومسوك

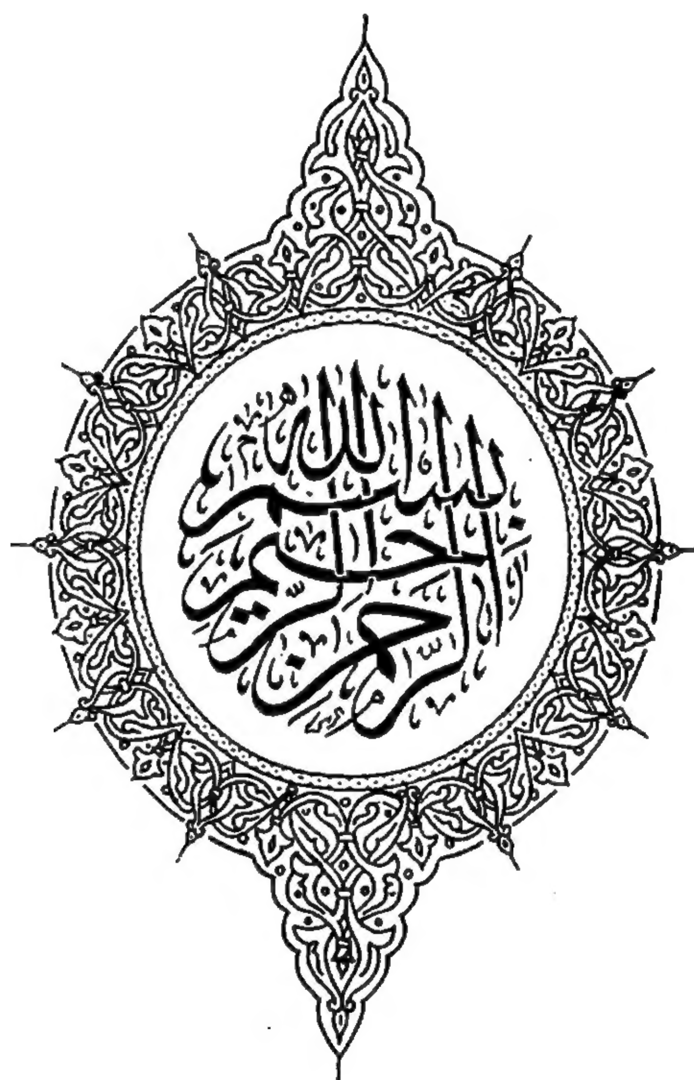
بإشراف

فضيلة الدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي

الأستاذ بقسم الدراسات العُليا



لعام ١٤١٢ هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

# المقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله.

(( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ))(١)

(( يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ))(٢)

(( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ))(٣) (+)

أمّا بعد، فإنّ علم العقيدة الإسلامية من أشرف العلوم وأجلّها، لأنّه العلم بالله تعالى، وآياته، وأسمائه، وصفاته، وحقوقه على عباده، وكذلك العلم بالنبوّات، وكلّ ما يتعلّق بأمور الآخرة من بعث وجنّة ونار ... الخ

وهذه هي المقاصد الثلاثة التي نزلت بها الكتب السماوية وأجمعت الرسل على الدعوة إليها.

قال تعالى: (( وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ))(٤)

(( ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ))(٥)

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٢. (٢) سورة النساء، آية ١. (٣) سورة الأحزاب، آية ٧٠.

(+) هذه الخطبة تسمّى خطبة الحاجة، وهي تشرع بين يدي كلّ حاجة، وهي مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخرجها مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/٥٩٣ - برقم ٨٦٨) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب الرجل يخطب على قوس (١/٦٥٩ برقم ١٠٩٧) تحقيق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، ط/ دار الحديث حمص، والنسائي في كتاب الجمعة، باب كيفية الخطبة (٢/١٠٥ برقم ١٤٠٤) ترقيم: عبد الفتاح أبو غدة، ط/ بيروت، وابن ماجة في كتاب النكاح، باب خطبة النكاح (١/٦٠٩ برقم ١٨٩٢) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. وغيرهم. وانظر تخريجها للشيخ الألباني بعنوان: خطبة الحاجة التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلّمها أصحابه.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٢٥. (٥) سورة النحل، آية ٣٦.

وقال تعالى ـ إشارة إلى اتفاق الرسل والكتب السماوية على إثبات اليوم الآخر ـ :

(( وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ))(١) وقال تعالى :

(( بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى ))(٢)

يقول الإمام الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ :

(( وأما مقاصد القرآن الكريم التي يكررها، ويورد الأدلة الحسية والعقلية عليها، ويشير إليها في جميع سوره وفي غالب قصصه وأمثاله فهي ثلاثة مقاصد، يعرف ذلك من له كمال فهم وحسن تدبر وجودة تصور وفضل تفكر : المقصد الأول: إثبات التوحيد، المقصد الثاني: إثبات المعاد، المقصد الثالث: إثبات النبوات ... ولا ريب أن من آمن بالله، وبما جاءت به رسله ونطقت به كتبه، فإن إيمانه بهذه الثلاثة المقاصد هو أهم ما يجب الإيمان به، وأقدم ما يتحتم عليه اعتقاده، لأن الكتب قد نطقت بها، والرسل قد اتفقت عليها اتفاقا يقطع كل ريب، وينفي كل شبهة، ويذهب كل شك . ))(٣)

وأنا أعتقد اعتقادا جازما أن المنهج الصحيح في فهم العقيدة الإسلامية هو منهج أهل السنة والجماعة الذي [سار عليه السلف الصالح وأصحابه من بعدهم والذي] تميّز بالوضوح، والبعد عن صور التأويل، والتشبيه، والتعطيل، والتشويه، وهذا المنهج هو الذي يجب السير عليه والعمل بمقتضاه في كل زمان ومكان، لمن أراد أن يسلك سبيل النجاة والفلاح، لأن أعداء الإسلام والمسلمين قد بذلوا كل ما يستطيعون لإبعاد المسلمين عن دينهم الحق وعقيدتهم السليمة كي يستطيعوا تحقيق أغراضهم الفاسدة .

فابن سبأ اليهودي(٤) الذي أدخل على المسلمين عقائد تشوه جمال دينهم وتحطم

---

(١) سورة الزمر : آية ٧١ . (٢) سورة الأعلى : آية ١٦ ـ ١٩ .

(٣) إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات: الشوكاني (ص ٣، ٤) ط ١/ دار الكتب العلمية .

(٤) هو عبد الله بن سبأ رأس الطائفة السبئية، وكانت تقول بألوهية علي، أصله من اليمن، كان يهوديا وأظهر الإسلام لتفريق كلمة المسلمين، وكان من غلاة الزنادقة، وكان يقال له : ابن السوداء، لسواد أمه، هلك سنة (٤٠ هـ) (انظر: ميزان الاعتدال: الذهبي ٢/١٤٠) تحقيق: علي محمد البجاوي وفتحية علي البجاوي، ط/ دار الفكر العربي، ولسان الميزان : ابن حجر (٣/٢٨٩) ط/ دار الفكر .

بنيانه، كان من أوّل أعداء المسلمين الذين بثّوا العقائد الفاسدة في صفوف المسلمين، الأمر الذي أصبح له الأثر الكبير على ما أصاب المسلمين فيما بعد من محن.

وقد تبع ابن سبأ أناس آخرون ساروا على نهجه في تحطيم كيان الأمّة الإسلامية بما يقومون به من أعمال فاسدة، أمثال الجعد بن درهم [1]، والجهم بن صفوان [2]، وبشر المريسي [3]، وغيرهم.

وقد حاول هؤلاء جميعا القضاء على الإسلام والمسلمين، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد تكفّل بحفظ هذا الدين، كما قال تعالى: (( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ )) [4]

وكما قال صلى الله عليه وسلم: (( لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ، لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك. )) [5]

وهذه الطائفة هم علماء السنّة وأتباعهم الذين هيّأهم الله تبارك وتعالى للردّ على كيد هؤلاء الحاقدين المفسدين، وتفنيد حججهم، وإبطال أدلّتهم، كالإمام أحمد والبخاري، وكشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهم، رحمهم الله جميعا.

ومن هؤلاء الأئمّة الأعلام المبرزين في القرن الثالث عشر الهجري الإمام محمد بن علي الشوكاني رحمه الله وأكرم في الجنة مثواه. فقد بذل حياته كلّها لخدمة العلم،

---

(١) هو الجعد بن درهم، أصله من خراسان، مبتدع ضالّ، زعم أنّ الله لم يتّخذ إبراهيم خليلا ولم يكلّم موسى، وقال بخلق القرآن، ونفي القدر، قتله خالد بن عبد الله القسري سنة (١١٨هـ) يوم النحر (انظر: ميزان الاعتدال: الذهبي ٣٩٩/١، والأعلام: الزركلي ١٢٠/٢ ط/ دار العلم للملايين.)

(٢) هو جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز، رأس الجهمية، وإليه ينتسبون، لأنّه أوّل من نشر المذهب، قال الذهبي: الضالّ المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرّا عظيما، قتله سلم بن أحوز سنة (١٢٨هـ) (انظر: ميزان الاعتدال: الذهبي ٢٤٦/١، والكامل: ابن الأثير ٣٤٣/٥ ط ٤/ دار الكتاب العربي، بيروت).

(٣) هو بشر بن غياث المريسي العدوي، معتزلي، عارف بالفلسفة، أخذ مقالة الجهم بن صفوان واحتجّ لها ودعا إليها، وإليه تنتسب الطائفة المريسية القائلة بالإرجاء، وقد ردّ عليه الإمام الدارمي (ت ٢٨٠هـ) في كتابه: النقض على البشر المريسي. هلك (٢١٨هـ) (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٥٦/٧ ط/ دار الكتب العلمية، وميزان الاعتدال: الذهبي ٣٢٢/١، والأعلام: الزركلي ٥٥/٢).

(٤) سورة الحجر: آية ٩.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ الخ (١٥٢٣/٣ برقم ١٩٢٠) واللفظ له، وأبو داود في كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤٥٢/٤ برقم ٤٢٥٤)، والترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في الأئمّة المضلّين (٤٣٧/٤ برقم ٢٢٢٩) تحقيق: كمال يوسف الحوت، وابن ماجة في المقدّمة، باب اتّباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥/١ برقم ١٠)، وأحمد في المسند (٢٧٨/٥، ٢٧٩) من حديث ثوبان مرفوعا.

ولا يشغله عنه أيّ أمر من الأمور، وقد ابتدأ في طلب العلم منذ نعومة أظفاره، وأقبل على العلماء في عصره وفي بلده اليمن يواكب على دروسهم، وأكبّ على كتب أهل العلم في فنون شتّى، يقرأها ويذاكرها، حتى نال في وقت مبكّر من عمره علوماً كثيرة وفنوناً مختلفة، وقد مارس التدريس قبل سنّ العشرين، وتصدّر للافتاء من نحو العشرين من عمره فما بعد ذلك[1]، واجتهد رأيه اجتهاداً مطلقاً غير مقيّد وهو دون الثلاثين[2]، وكانت مؤلّفاته تربو على (٢٧٠) مائتين وسبعين كتاباً وبحثاً ورسالة، ومعظمها لم يزل مخطوطاً[3].

وقد بارك الله في أوقاته وعمله فاستفاد منه خلق كثير في حياته، ولا زال طلاب العلم ينتفعون بمؤلّفاته القيّمة في التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والعقيدة، والتراجم، والتربية، وغير ذلك من فنون الشريعة.

وقد كان - رحمه الله - علماً من أعلام المجدّدين وزعيماً للحركة الاصلاح في المجتمع اليمني. وله عناية بالغة بالعقيدة الاسلامية حيث أفرد لها كتباً ورسائل متعدّدة، دعا فيها الى التوحيد الخالص من شوائب المنتشرة في المجتمع الاسلامي، والى محاربة البدع المختلفة من المتكلّمين وغلاة الشيعة والصوفية، والقبوريين وأمثالهم، كما دعا الى الاجتهاد وتحريك العقول، ونبذ التقليد والتعصّب الأعمى المقيت، وهذه الأمور واضحة في جميع مؤلّفاته.

وقد قال - رحمه الله - عند ترجمته لأحد علماء اليمن:

(( ولا ريب أنّ علماء الطوائف لا يكثرون العناية بأهل هذه الديار، لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له الا مجرّد التقليد لمن لم يطّلع على الأحوال، فانّ في ديار الزيدية من أئمّة الكتاب والسنة عدداً يجاوز الوصف، يتقيّدون بالعمل بنصوص الأدلّة، ويعتمدون على ما صحّ في الأمّهات الحديثية وما يلتحق بها من دواوين الاسلام المشتملة على سنّة سيّد الأنام (صلى الله عليه وسلم)، ولا يرفعون الى التقليد رأساً، لا يشوبون دينهم بشيئ من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيئ منها، بل هم على

---

(١) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٢/٢١٩) ط/ دار المعرفة.
(٢) انظر المصدر السابق (٢/٢٢٤).
(٣) انظر: الامام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم (ص ٢٢٩) ط/ مؤسسة الرسالة بيروت.

نمط السلف الصالح في العمل بما يدلّ عليه كتاب الله وما صحّ من سنة رسول الله، مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة، من نحو، وصرف، وبيان، وأصول، ولغة، وعدم إخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية، ولو لم يكن لهم من المزية إلا التقيّد بنصوص الكتاب والسنة وطرح التقليد فإنّ هذه خصيصة خصّ الله بها أهل هذه الديار في هذه الأزمنة الأخيرة، ولا توجد في غيرهم إلا نادراً .))[1]

قلت : وها أنا واحد ممن يهتمّ بأحد علماء هذه الديار وهو الشوكاني نفسه، ورأيت أن أقوم بدراسة علمية لمنهج هذا العالم الجليل في مباحث العقيدة، واستخرت الله سبحانه وتعالى، وشاورت في ذلك أهل العلم من مشايخنا الأفاضل في هذه الجامعة المباركة، فوجدت منهم استحساناً وتأييداً لهذا الموضوع، فعزمت أمري، وتوكّلت على الله، وجعلت عنوانه : منهج الإمام الشوكاني في العقيدة . للحصول على درجة : الدكتوراه : في العقيدة .

وكان من أسباب اختياري لهذا الموضوع الأمور التالية :

١ ـ إنّ الشوكاني من أشهر العلماء المتأخرين الذين لهم أثر بالغ في اليقظة الاسلامية المعاصرة .

٢ ـ إنّ من أبرز الجوانب التي ساهم الشوكاني في إصلاحه وبذل جهوده في الدعوة إليه هو جانب العقيدة .

٣ ـ رغبتي في إبراز هذا الجانب لهذا الامام الجليل، لأنّ إبرازه إبراز لعقيدة السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ مع بيان ما وقع منه من مخالفة لهم في بعض المسائل، وأسباب المخالفة إن وجدت .

٤ ـ إنّه لم يسبق أن كتب أحد عن الشوكاني في مجال العقيدة على وجه شامل[2]

---

(١) البدر الطالع : الشوكاني (٨٢/٢) .

(٢) هناك خمس رسائل علمية عن الامام الشوكاني :

١) الشوكاني المفسّر للدكتور ابراهيم توفيق أبوبكر الديب، رسالة دكتوراه، بكلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن، جامعة الأزهر، عام ١٩٧٧ م .

٢) الامام الشوكاني مفسّراً للدكتور محمد حسن بن أحمد الغماري، رسالة دكتوراه بكلية الشريعة، جامعة أمّ القرى عام ١٤٠٠ هـ ( ١٩٨٠م )

٣) القراءات في تفسير الشوكاني فتح القدير للدكتور أحمد بن عبد الله المقرئ رسالة ماجستير بالجامعة الاسلامية، شعبة التفسير، عام ١٤٠٤هـ ـ ١٤٠٥هـ .

===

حسب علمي .

هذا هو أهمّ الأسباب التي دفعتني الى اختيار هذا الموضوع الذي يشتمل على مقدّمة، وتمهيد، وبابين، وخاتمة .

أمّا المقدّمة فقد تناولت فيها الأسباب التي حملتني على اختيار هذا الموضوع، وخطّة البحث، والمنهج الذي اتّبعته فيه .

وأمّا التمهيد فقد عقدته للتعريف بالامام الشوكاني، وقد جعلته في ثلاثة فصول :

الفصل الأوّل: العصر الذي عاش فيه . وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأوّل: الحالة السياسية .

المبحث الثاني: الحالة الدينية والاجتماعية .

المبحث الثالث: الحالة العلمية .

الفصل الثاني: حياته الشخصية . وفيه المباحث التالية :

المبحث الأوّل: اسمه ونسبه .

المبحث الثاني: مولده ونشأته .

المبحث الثالث: أعماله .

المبحث الرابع: وفاته .

الفصل الثالث: حياته العلمية . ويشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأوّل: طلبه العلم .

المبحث الثاني: شيوخه وتلاميذه .

المبحث الثالث: مؤلّفاته .

المبحث الرابع: مذهبه وعقيدته .

---

===

٤) الامام الشوكاني حياته وفكره . للدكتور عبدالغني قاسم غالب الشرجي . رسالة دكتوراه بجامعة صنعاء، كلية التربية، عام ١٤٠٨ هـ .

٥) الامام الشوكاني وآراؤه الاعتقادية في الالهيّات بين السلف والزيدية . للباحث سعيد ابراهيم سيد أحمد . رسالة ماجستير بكلية الشريعة جامعة أمّ القرى عام ١٤٠٦هـ وقد اطّلعت على هذه الرسالة فوجدتها مقصورة على مباحث محدودة في العقيدة، وهي: الاستدلال على وجود الله، والصفات الالهية، وأفعال العباد، والرؤية . كما وجدت أنّ الباحث لم يعتمد في رسالته الّا على عدد قليل من مؤلّفات الشوكاني المطبوعة فضلا عن المخطوطة . فهناك كثير من كتب الشوكاني المطبوعة لم يرجع اليها الباحث مثل: أمناء الشريعة، وارشاد الثقات، وتحفة الذاكرين، ودر السحابة. والعقد الثمين، وغير ذلك .

وأمّا الباب الأوّل فقد خصّصته للحديث عن منهجه في الايمان بالله ، وقسّمته الى خمسة فصول :

الفصل الأوّل: في توحيد الربوبية . وفيه عدّة مباحث :

المبحث الأوّل: تعريف توحيد الربوبية .

المبحث الثاني: منهج الشوكاني في الاستدلال على وجود الله .

المبحث الثالث: منهج الشوكاني في الايمان بالقضاء والقدر .

الفصل الثاني: في توحيد الألوهية . وفيه عدّة مباحث :

المبحث الأوّل: تعريف توحيد الألوهية .

المبحث الثاني: عناية الشوكاني بتوحيد الألوهية وبيانه أنّه أساس الاسلام .

المبحث الثالث: العبادة وذكر جملة من أنواعها .

المبحث الرابع: التوسّل وأنواعه وكلام الشوكاني عليه .

الفصل الثالث: في توحيد الأسماء والصفات . وفيه عدّة مباحث :

المبحث الأوّل: تعريف توحيد الأسماء والصفات .

المبحث الثاني: منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات وتقرير الشوكاني له جملة .

المبحث الثالث: شبهة تتعلّق بما في التحف من عقيدته .

المبحث الرابع: أسماء الله الحسنى .

المبحث الخامس: ذكر جملة من الصفات التي ذكرها الشوكاني .

الفصل الرابع : في نواقض التوحيد . وفيه عدّة مباحث :

المبحث الأوّل: الشرك وأنواعه وكلام الشوكاني عليه .

المبحث الثاني: ذكر نماذج من الأعمال الشركية وكلام الشوكاني عليها .

المبحث الثالث: تحقيق شرك القبوريّين والوثنيّين وبيان أنّ شركهما واحد .

المبحث الرابع: البدع وكلام الشوكاني عليها .

الفصل الخامس : في تعريف الايمان وما يتعلّق به من مسائل . وفيه عدّة مباحث :

المبحث الأوّل: تعريف الايمان لغة وشرعا .

المبحث الثاني: بيان أهمّيّة الايمان .

المبحث الثالث: زيادة الايمان ونقصانه .

المبحث الرابع: العلاقة بين مسمّى الايمان والاسلام .

المبحث الخامس: حكم مرتكب الكبيرة .

وأمّا الباب الثاني فقد خصّصته للحديث عن منهج الشوكاني في الايمان بالنبوّات والمعاد . وقسّمته الى فصلين :

الفصل الأوّل: في الايمان بالنبوّات . وفيه عدّة مباحث :

المبحث الأوّل: تعريف النبوّة، والنبيّ، والرسول .

المبحث الثاني: حاجة البشريّة الى النبوّة .

المبحث الثالث: معنى الايمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

المبحث الرابع: التفاضل بين الأنبياء .

المبحث الخامس: اتّفاق الأنبياء والرسل على الغرض الواحد وتصديق بعضهم بعضا .

المبحث السادس: من صفات الأنبياء والرسل ووظائفهم .

المبحث السابع: الايمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وبشاراته في الكتب السابقة .

المبحث الثامن: من دلائل النبوّة .

المبحث التاسع: الايمان بالملائكة والكتب المنزّلة .

المبحث العاشر: الايمان بوجود الجنّ والشياطين .

الفصل الثاني : في الايمان بالمعاد واليوم الآخر . وفيه عدّة مباحث :

المبحث الأوّل: معنى الايمان بالمعاد وأدلّته .

المبحث الثاني: بيان اتّفاق الشرائع على اثبات المعاد .

المبحث الثالث: تقرير الشوكاني لمذهب السلف في المعاد وردّه على المنكرين .

المبحث الرابع: الايمان بأشراط الساعة .

المبحث الخامس: الايمان بعذاب القبر ونعيمه .

المبحث السادس: مستقرّ الأرواح .

المبحث السابع: الايمان بالنفخ في الصور .

المبحث الثامن: الايمان بالحشر، والموازين، والصراط .

المبحث التاسع: الشفاعة .

المبحث العاشر: الجنّة ونعيمها .

المبحث الحادي عشر: رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنّة .

المبحث الثاني عشر: النار وصفنا بها .

المبحث الثالث عشر: الجنة والنار باقيتان لا تفنيان .

وأمّا الخاتمة فقد عرضت فيها ملخّصاً موجزاً للنقاط الهامّة في هذا البحث .

وقد رسمت الخطّة على هذا الترتيب تمشّياً لما ذكره الشوكاني في بداية تفسيره لسورة الفرقان، قال: (( تكلّم سبحانه في هذه السورة على التوحيد لأنّه أقدم وأهمّ، ثمّ في النبوّة لأنّها الواسطة، ثمّ في المعاد لأنّه الخاتمة . ))(١)

هذا وقد كان منهجي الذي اتّبعته في إعداد هذه الرسالة ما يلي :

١ ـ قمت بجمع مؤلّفات الشوكاني رحمه الله تعالى من طرق مختلفة، واستطعت بحمد الله وتوفيقه أن أحصل على جميع مؤلّفاته المطبوعة وعلى معظم مخطوطاته التي تتعلّق بالبحث .

٢ ـ حصرت مباحث العقيدة التي اشتملت عليها كتب الشوكاني، وذلك بعد قراءة جميع ما تيسّر لي من كتبه المطبوعة والمخطوطة، ثم جمعت الأقوال التي تتعلّق بكلّ مبحث على حدة في بطاقات، وجعلت لها عنوانات تتناسب مع ما تدلّ عليه، ثم بيّنت ما تدلّ عليه من مسألة اعتقادية حسب جهدي ـ وهو جهد مقلّ ـ مستعينا في ذلك بأقوال أهل العلم الذين لهم جهود في توضيح العقيدة الاسلامية من علماء سلفنا الصالح .

٣ ـ تناولت الحديث عن رأي الشوكاني في كلّ مسألة من المسائل بالتفصيل الذي يليق بالمسألة مع ذكر موافقته لرأي السلف أو عدمها، وناقشته فيما خالف فيه مذهب السلف وجانبه فيه الصواب حسب فهمي وهو قليل .

ولا يتصوّر أنّ مناقشتي له محاولة للانتقاص من قدره ومكانته، لأنّي إنّما أنشد الحقّ الذي اجتهد الشوكاني في الوصول إليه . وقد قال الشوكاني نفسه وهو من أحسن ما قال:

(( إنّ الحقّ لا يعرف بالرجال، بل الرجال يعرفون بالحقّ، وليس أحد من العلماء المجتهدين والأئمة المحقّقين بمعصوم، ومن لم يكن معصوما فهو يجوز عليه الخطأ، كما يجوز عليه الصواب، فيصيب تارة ويخطئ أخرى، ولا يتبيّن صوابه من خطئه إلا بالرجوع إلى دليل الكتاب والسنة، فان وافقهما فهو مصيب، وان خالفهما فهو مخطئ، ولا خلاف في هذه

---

(١) فتح القدير : الشوكاني (٤/٦٠) ط ٢/ مصطفى البابي الحلبي .

الجملة بين جميع المسلمين أوّلهم وآخرهم ، سابقهم ولاحقهم ، كبيرهم وصغيرهم .))[١]

٤ ـ أحيانا أكرّر الكلام الوارد للشوكاني في أكثر من موضع ، وذلك لاشتماله على أكثر من مسألة من مسائل العقيدة ، فأضطرّ إلى إعادة الكلام وتكراره .

٥ ـ التزمت عند النقل من أيّ مرجع أو الاستفادة منه الإشارة إلى مؤلّفه ، وإلى رقم جزئه وصفحته ، بالإضافة إلى ذكر المحقّقين أو الطبعات لهذه المراجع في الغالب في أوّل ورودها وفي فهرس المصادر والمراجع آخر الرسالة ، هذا بالنسبة للمطبوعات ، أمّا المخطوطات فالتزمت الإشارة إلى مؤلّفها وإلى رقم ورقتها أو صفحتها بالإضافة إلى ذكر مكان وجودها ورقمها في التصنيف في أوّل ورودها وفي فهرس المصادر آخر الرسالة .

٦ ـ ضبطت الآيات القرآنية التي وردت في الرسالة ، وبيّنت مواضعها بذكر اسم السورة ورقم الآية .

٧ ـ عزوت الأحاديث التي وردت في الرسالة إلى مصادرها من كتب السنة المعتمدة بذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث مع الإشارة في الغالب إلى درجة الحديث من خلال أقوال المحدّثين إذا كان الحديث في غير الصحيحين أو أحدهما ، لأنّ مجرّد العزو إلى الصحيحين أو أحدهما معلم بالصحّة .

٨ ـ ترجمت للأعلام الذين ورد ذكرهم في الرسالة ما عدا المشهورين ، فإنّي لم أترجم لهم لعدم خفاء أحوالهم ، وذلك ككبار الصحابة ، والأئمّة الأربعة ، وأصحاب الكتب الستة ، وغيرهم .

٩ ـ عرّفت بالفرق والطوائف التي ورد ذكرها في الرسالة تعريفا موجزا .

١٠ ـ شرحت المفردات الغريبة التي وردت في الرسالة مستعينا في ذلك بكتب الغريب والمعاجم اللغويّة .

١١ ـ قمت بوضع فهارس علمية عامّة للرسالة تعين على الرجوع إلى المراد منها بيسر وسهولة ، وهي تشمل :

أ ـ فهرس الآيات القرآنية مرتّبا حسب سور القرآن .

ب ـ فهرس الأحاديث النبوية مرتّبا حسب الحروف الهجائية .

جـ ـ فهرس الآثار مرتّبا حسب الحروف الهجائية .

---

(١) شرح الصدور في تحريم رفع القبور : الشوكاني (ص ٣) ضمن الرسائل السلفية ، ط/ دار الكتب العلمية .

د - فهرس الأعلام المترجم لهم مرتّبا حسب الحروف الهجائية .

هـ - فهرس الفرق والطوائف مرتّبا حسب الحروف الهجائية .

و - فهرس المصادر والمراجع مرتّبا حسب الحروف الهجائية .

ز - فهرس الموضوعات . وقد بيّنت فيه أبواب الرسالة، وفصولها، ومباحثها، وما تتضمّنه من فروع وجزئيّات .

وبعد : فانّي أحمد الله تعالى حمد شاكر لنعمائه ، وأشكره وأثني عليه بما هو أهله ، لا أحصي ثناء عليه ، هو كما أثنى على نفسه ، فله الحمد والشكر كلّه حيث وفّقني لاختيار هذا الموضوع الذي شعرت بفائدته الكبيرة منذ أن بدأت فيه ، ذلك لأنّي قرأت وعرفت كثيرا من كتب العقيدة المفيدة والنافعة .

وبعد حمد الله وشكره أرى لزاما عليّ أن أعترف بالفضل لأهله ، وأن أشكر كلّ من مدّ لي يد العون في هذا البحث، مع اعترافي بالعجز عن تقديم الشكر الذي يكنّه في ضميري لهؤلاء في عبارات أسطرها، اذ لا توفيهم بعض حقّهم .

فأتقدّم بالشكر الجزيل الى فضيلة شيخي الأستاذ الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي الذي تفضّل بالاشراف على هذه الرسالة ، فلقد حظيت بنصحه وارشاده طوال اعدادها، وقد فتح لي قلبه فاستفدت الكثير من علمه وتوجيهه ، فالله أسأل أن يجزيه عنّي أحسن الجزاء، وأن يبارك في وقته وعمله .

كما لا يفوتني أن أتوجّه بالشكر الجزيل لسعادة القائمين على الجامعة الاسلامية ، لما يبذلونه من الجهود المتواصلة في خدمة العلم وطلّابه ، وأخصّ منهم معالي رئيس الجامعة الدكتور عبد الله بن صالح العبيد ، ورئيس قسم الدراسات العليا فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان. فجزاهم الله عنّي وعن العلم وأهله خير الجزاء .

وأخيرا أقدّم عظيم شكري وفائق احترامي لجميع الاخوة الذين ساعدوني وتعاونوا معي في اخراج هذا البحث الى حيز الوجود ، وأخصّ منهم الأخ الفاضل الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف الذي أفادني بما في مكتبته من مخطوطات الشوكاني .

فالله أسأل أن يتقبّل من الجميع تعاونهم ،وأن يوفّقنا وايّاهم الى كلّ خير ،وأن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم ،انّه وليّ ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين . وصلّى الله على محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم .

# باب تمهيدى
## التعريف بالإمام الشوكانى رحمه الله تعالى

ويشتمل على الفصول الآتية :

الفصل الأول : العصر الذى عاش فيه

الفصل الثانى : حياته الشخصية

الفصل الثالث : حياته العلمية

# الفصل الأول

## العصر الذى عاش فيه

ويشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : الحالة السياسية

المبحث الثانى : الحالة الدينية والإجتماعية

المبحث الثالث : الحالة العلمية

(( باب تمهيدي ))

## في التعريف بالإمام الشوكاني رحمه الله

## الفصل الأوّل: العصر الذي عاش فيه

### المبحث الأوّل: الحالة السياسية

عاش الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في الفترة الممتدة من أواخر القرن الثاني عشر وحتى نهاية النصف الأوّل للقرن الثالث عشر الهجريين ( ١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ ) وفي هذه الفترة كان العالم الاسلامي ممزّقاً الى دويلات وحوزات ملوك .

ففي المشرق كانت تتزعّمه ثلاث دول اسلامية ، وهي : الدولة العثمانية ، والدولة الصفوية في فارس، والدولة المغولية في الهند .

وكانت الدولة العثمانية منذ أوائل القرن الثاني عشر الهجري في حكم الزوال والانهيار ، بعد أن وصلت فتوحاتها أوربا ، وبلغت أوج سلطانها في القرن العاشر الهجري، وطمع الأوربيون المستعمرون بازالة هذه الدولة ، واتّفقوا على اقتسامها فيما بينهم وسمّوها باسم : الرجل المريض ، وبما أصاب هذه الدولة من ضعف ووهن أخذت تتخسر شيئاً فشيئاً في هذه الفترة حتى انقلبت الى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ، وقام كثير من الولاة والأمراء بالخروج عليها وتكوين حكومات مستقلّة مستبدّة لا تستطيع اخضاع من في حكمها من الزعماء هنا وهناك، فكثر السلب والنهب، وفقد الأمن .(1)

أمّا الدولة الصفوية الشيعية فهي أيضاً تعاني من الضعف وعدم الاستقرار ، وهي وان كانت تدّعي الاسلام فهي دولة رافضية على مذهب الامامية ، وكانت تغالي في الرفض حتى أنّها تحارب الدولة العثمانية التي تعتبر دولة سنّية في ذلك الزمان أشدّ الحرب، وكان الصراع مستمراً بينهما من الناحية العقدية . وقد انتهت هذه الدولة ( يعني الصفوية ) بمقتل نادرشاه أحد ملوكها عام ١١٦٠هـ واضطربت أحوال بلاد فارس، واستمرّ ذلك الاضطراب حتى قيام الدولة القاجارية عام ١٢٠٣هـ .(2)

---

(١) انظر: حاضر العالم الاسلامي، لوثروب (٢٥٩،٢٢/١) ط/ دار الفكر، وحاضر العالم الاسلامي، د/ جميل المصري (١/٩٦-١٠٣) ط/ الجامعة الاسلامية، والمجدّدون في الاسلام : د/عبد المتعال الصعيدي(ص ٤٤٦) ط/مكتبة الآداب القاهرة .

(٢) انظر: المجدّدون في الاسلام ، د/ عبد المتعال الصعيدي (ص ٤٤٧،٤٤٦) ، وأيضاً انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب خارج الجزيرة العربية ، محمد كمال جمعة (ص ٢٠،١٩ ) — والدولة القاجارية نسبة الى أغا محمد قاجار مؤسس الأسرة القاجارية، وقد تولت السلطة في فارس في فترة(١٧٧٩-١٩٢٦م) (انظر: الشعوب الاسلامية، د/عبد العزيز سليمان نوار ٢٣٥-٢٥٥،٢٥٧-٢٧٥،٤٩١-٤٩٩ ط/دار النهضة العربية ١٩٧٣م

وأمّا الدولة المغولية في الهند فقد وصلت الى حالة سيّئة من الضعف بسبب فساد ملوكها، وقد أدّى ذلك الى تعاون الهندوس وشركة الهند الشرقية (الانجليز) على تفتيتها الى دويلات متعدّدة، واستولوا عليها، وانتهت هذه الدولة عام ١٢٢١ هـ، وتحوّلت في النهاية الى مستعمرات انجليزية.[1]

ومثل هذا أحوال سائر البلاد الاسلامية، كما في المغرب الأقصى، وفي أواسط آسيا، وفي الصين وغيرها.[2]

وقد عاصر الشوكاني الكثير من الوقائع، فقد هوجمت البلاد الاسلامية في هذه الفترة من دول أوربا المستعمرة، من فرنسا تارة، ومن الانجليز تارة أخرى.

ومن تلك الوقائع ما سجّله في كتابه: البدر الطالع. من أحداث الحملة الفرنسية على مصر، قال: (( إنّ الرزيّة العظمى والمصيبة الكبرى والبلية التي تبكي لها عيون الاسلام والمسلمين هي استيلاء طائفة من الفرنج يقال لهم: الفرنسيس. على الديار المصرية جميعها، ووصولهم الى القاهرة، وحكمهم على من بتلك الديار من المسلمين، وهذا خطب لم يصب الاسلام بمثله. ))[3]

وأمّا اليمن (مسقط رأس الشوكاني) وهي جزء من الوطن الاسلامي الكبير، فلم تكن أحسن حالاً من بقية البلاد الاسلامية الأخرى في هذه الفترة التاريخية، كما أنّها أيضاً لم تكن أسوأ منها في بعض الوجوه، وقد كانت دولة مستقلّة من الدولة العثمانية لأكثر من القرنين من الزمن (منذ عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م)[4]

وأمّا في شمال الجزيرة العربية والحجاز فكانت حركة الامام محمد بن عبد الوهّاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦هـ) الاصلاحية تناضل لنشر عقيدة التوحيد، ولجمع كلمة القبائل المختلفة في شمال الجزيرة العربية والحجاز، ثمّ تأسّست الدولة السعودية المعتمدة على أسس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، ومن أهمّها اخلاص العبادة لله وحده، والقضاء على البدع والخرافات، وتوحيد البلاد على أساس من العقيدة الصافية، وتطبيق الشريعة، وظلّت

---

(١) انظر المجدّدون في الاسلام: د/عبد المتعال الصعيدي (ص ٤٤٦)، وانظر أيضاً حاضر العالم الاسلامي: د/ جميل المصري (١/٣٣٣ ـ ٣٣٩).

(٢) انظر: الدعوة الى الاسلام: توماس أرنولد (ص ٢٧٨، ٣٣٩، ٣٤٨، ٤٠١، ٤٠٢)، والمجدّدون في الاسلام: د/عبد المتعال الصعيدي (ص ٤٤٧ وما بعدها)

(٣) البدر الطالع: الشوكاني (٢/٨).

(٤) مائة عام من تاريخ اليمن الحديث: د/ حسين عبد الله العمري (ص ١٢) ط/ ١ دار الفكر، دمشق.

الدولة السعودية تزداد قوة واتساعاً في اتجاهات مختلفة، وقد دفع نجاحها القادة العثمانيين إلى أن يجردوا ضدها عدة حملات عسكرية، ومع أنهم فشلوا في كثير من تلك الحملات إلا أنهم نجحوا آخر الأمر في القضاء على تلك الدولة عن طريق حاكم مصر محمد علي باشا [1]، وذلك سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٨م. وبانتهاء الدولة السعودية الأولى دبت الفوضى في البلاد، خاصة في منطقة نجد، وضعف الأمن بدرجة كبيرة. فقامت محاولات لإعادة توحيدها، وبعد سبع سنوات تكللت المحاولات بالنجاح على يد الإمام تركي بن عبد الله آل سعود [2]، الذي اتخذ الرياض عاصمة لدولته الجديدة، واستطاع ذلك الإمام أن يوحد نجداً والمنطقة الشرقية، وظلت الدولة السعودية الثانية قائمة بدرجات مختلفة من القوة والضعف حوالي سبعين عاماً. [3]

وقد عاش الشوكاني – رحمه الله – في ظل حكم أربعة أئمة يمثلون الدولة القاسمية [4] في اليمن، وهم:

١ – المهدي العباس بن الحسن بن القاسم (١١٣١–١١٨٩هـ). وكانت سيرته حسنة، وقد نشر العدل، وقرب أهل العلم والفضل والتدبير، فكثرت في أيامه الخيرات. [5] وقد أثنى عليه الشوكاني كثيراً، ووصفه بأنه: (( من أفراد الدهر ومن محاسن اليمن. )) [6] وأنه: (( آخر من كان منهم نكالاً على القبوريين، وعلى القبور الموضوعة على غير الصفة المشروعة. )) [7]

وكان الشوكاني قد ولد في السنة العاشرة في حكم المهدي (١١٧٣هـ) ولم يمت المهدي إلا وقد كان عمره ستة

---

(١) محمد علي باشا ابن إبراهيم أغا بن علي مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، ألباني الأصل، عاش في فترة (١١٨٤–١٢٦٥هـ) له وقائع كثيرة في فترة حكمه لمصر. (انظر الأعلام للزركلي ٦/٢٩٨)

(٢) تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، إمام من أمراء نجد، كان شجاعاً حنكته التجارب فظفر، واسترد الرياض وأدخل في طاعته أكثر البلاد النجدية، وخوطب بالإمامة، اغتيل سنة (١٢٤٩هـ) (انظر الأعلام للزركلي ٢/٨٤، وشبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز له ١/٤٤، ٤٥).

(٣) انظر: محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، د/عبد الله الصالح العثيمين (ص ٦٣–٦٧ وأيضاً ١٠–١٢) ط/١، ١٤١١هـ.

(٤) نسبة إلى الإمام القاسم بن محمد (٩٦٧–١٠٢٩هـ) الذي ظهرت دعوته في القارة: وهي إحدى قرى إقليم الشرف، جنوبي صعدة. وكان عالماً له مصنفات، وجرت له خطوب وحروب وكروب قد اشتمل عليها كتاب سيرته (ترجم الشوكاني له في البدر الطالع ٢/٤٧–٥٠).

(٥) انظر: تاريخ اليمن: عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني (ص ٢٢٩، ٢٣٠) ط/٢ الدار اليمنية

(٦) البدر الطالع: الشوكاني (١/٣١١). (٧) الدر النضيد: الشوكاني (ص ٧٨) مكتبة الصحابة الإسلامية.

عشرها ما .(١)

٢ ـ الامام المنصور بالله علي بن عباس (١١٥١ ـ ١٢٢٤هـ) الذي تولّى الامامة عام (١١٨٩هـ) بعد وفاة والده المهدي العباس، واستمرّ في حكمه حتى توفّي عام (١٢٢٤هـ). وقد سلك مسلك الملوك، وجعل له ثلاثة وزراء، وولّاهم جميع الأمور، ولم يشتغل بشيء من أمور مملكته إلّا بالمعاشروا لاصلاحات في صنعاء وحولها من المحلّات المشهورة، وكان من دأبه الكرم والضيافات والتفقد لذوي الحاجات، واستمرّت امارته في سعادة وإقبال الى سنة (١٢١٦هـ)، ثم انتقضت بعض الأطراف، وملكت بعض السواحل، وخرج القبائل في صنعاء عن طاعته، وكثر منهم النهب والسلب والقتل وقطع الطرق، وحوصرت صنعاء محاصرة شديدة، وبلغ الطعام من الغلاء مبلغا عظيما .(٢) فساءت الأحوال السياسية والاقتصادية بشكل لم يسبق له مثيل، وتعدّدت أشكال الفوضى واضطراب حبل الأمن وسلامة الناس في كثير من المناطق .(٣)

وقد سجّل الشوكاني ـ رحمه الله ـ وقائع كثيرة حدثت في خلال حكم المنصور منها : ما حدث في آخر شهر رجب سنة (١٢٢٣هـ) من مواحشة بين وزير الامام الفقيه حسن بن عثمان العلفي الذي تمكّن تمكّنا كبيرا، وصارت الأمور مقرونة به، وبين أحمد بن الامام بسبب أمور تصدر في مقام الخليفة، وبسبب تقصيره في أرزاق الأجناد، وقد تزايدت الوحشة التي كان من أثرها تحرّك القبائل، فوثبوا على الطرق، ونهبوا الأموال، وسفكوا الدماء حول صنعاء، وطال ذلك، وأضرّ بالناس، وتقطّعت الطرق، فأرسل اليه أحمد بن الامام جماعة من الجند، وقبض عليه وعلى جماعة من قرابته، فعظم ذلك على الخليفة، وأراد استخلاصه، فأرسل أحمد جماعة من الجند، وأحاطوا بدار الخلافة، فوقع حرب بينهم .

وقد ساهم الشوكاني في حلّ هذه الأزمة، وتدخّل في هذا النزاع، فتمّ الاصلاح بين الجانبين على يده. قال: (( وأصلحت الأمر على أنّ سيدي أحمد يكون تدبير البلاد الامامية اليه، ويكون لوالده بمنزلة الوزير، ويبقى الوزير في اعتقاله .))(٤)

---

(١) نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف، محمد زبارة (٢/١٦) ط/ القاهرة ١٣٧٦هـ.

(٢) انظر: تاريخ اليمن، عبد الواسع بن يحيى الواسعي (ص ٢٣٠) .

(٣) انظر: مائة عام من تاريخ اليمن الحديث، د/ حسين عبد الله العمري (ص ١٥٠، ١٥١) .

(٤) البدر الطالع، الشوكاني (١/٤٦٦، ٤٦٧) .

وقد تولّى الشوكاني القضاء في عهد هذا الإمام، واستمرّ في عهد ولديه: المتوكّل على الله (١٢٢٤-١٢٣١هـ)، والمهدي عبد الله (١٢٣١-١٢٥١هـ)[1] وواجه في هذه الفترة مشاكل صعبة مختلفة، سياسية واقتصادية، وعانى بنفسه كثيره هجمات القبائل وحصارها صنعاء وغيرها من الحواضر اليمنية، فجاءت آراؤه متوحاة من المعاناة والمعاينة.

وقام بالأمر بعده المنصور ابنه:

٣ - الإمام المتوكّل على الله أحمد بن علي بن عباس (١١٧٠ - ١٢٣١هـ) وكانت البيعة له في الليلة التي مات فيها والده، وكان الشوكاني أوّل من بايعه، وتولّى قبض البيعة له من إخوته وأعمامه وسائر آل الإمام القاسم وجميع أعيان العلماء والرؤساء.[2]

وكان المتوكّل أحد حازماً عاقلاً يقرّب العلماء، وأصلح ما كان قد أفسده والده، وقد خرج على الدولة كثير من القبائل في عهده، فقام بنفسه بعدّة جولات وغزوات، يرافقه في معظمها الشوكاني. وقد أشاد الشوكاني في كتابه البدر الطالع بكثير من أعماله وانتصاراته ما لا يتّسع هذا المقام لذكره.[3] واستمرّ حكمه حتى توفّي سنة (١٢٣١هـ) ثمّ قام بالأمر ولده:

٤ - المهدي عبد الله (١٢٠٨ - ١٢٥١هـ) وقد تولّى الإمامة من عام (١٢٣١هـ إلى عام ١٢٥١هـ) وهو آخر من عاصر الشوكاني من الأئمة. وكان الشوكاني أوّل من بايعه عقب وفاة والده، ثمّ أخذ البيعة من جميع أمراء صنعاء وحكّامها، وجميع آل الإمام، وجميع الرؤساء والأعيان.[4]

يقول المؤرّخ اليماني عبد الواسع يحيى الواسعي[5]:

(( ومن ضعف سيرته أنّ الوزير بعد مدّة يسيرة يعزله ويعذّبه، فمن هنالك اختلّت المملكة وتعاقب الدولة الذهاب والهلكة، كلّما تولّى وزير نظر إلى مصلحة نفسه، ولم ينظر إلى مصلحة نظام الملك، مع حصول الإياس من البقاء فيما هو فيه، فيجمع له

---

(١) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٤٦٥/١). (٢) انظر المصدر السابق (٤٦٧،٧٩،٧٨/١).
(٣) انظر المصدر السابق (٧٩،٧٨/١) (٤) انظر المصدر السابق (٣٧٧،٣٧٦/١).
(٥) عبد الواسع بن يحيى الواسعي الصنعاني، عاش في فترة (١٢٩٥-١٣٧٩هـ): مؤرخ من العارفين بالحديث، زيدي، من أهل صنعاء، قام برحلة إلى الحجاز والشام ومصر، له كتب منها: تاريخ اليمن، سمّاه: فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، وكنز الثقات في علم الأوقات. ( انظر: الأعلام: الزركلي ١٧٨/٤).

ما لا على أيّ جهة كانت . والوزراء كانوا يعزلون مَن تحتهم من العمّال، وكلّ واحد من العمّال لا ينظر إلا الى مصلحة نفسه ، فبذلك اختلّ نظام الملك، وكلّ يوم الى ضعف، وكان من طريقة المهدي وعادته الاحتجاب، والميل الى الشهوات، واللذات، وسماع اللهو ، والتغافل عن الملك، وبهذه السيرة أخيفت السبل ونهبت الأموال .))(١)

ويجدر بي هنا أن أذكر شيئا من علاقة هذه الأئمة بأشراف مكة في الحجاز وبآل سعود في نجد .

أمّا أشراف مكة والحجاز فقد عاصر الشوكاني عددا منهم : الشريف مساعد بن سعيد (ت ١١٨٤هـ)، وولده سرور بن مساعد (ت ١٢٠٢هـ)، وغالب بن مساعد (ت ١٢٣١هـ)، وقد دارت بين الأخيرين والإمام المنصور مكاتبات طويلة تتعلّق بالغزو الفرنسي والانجليزي للبحر الأحمر، وكان الجواب عليها من قبل الشوكاني نيابة عن الإمام .(٢) فكانت العلاقة بين الجانبين ودّية وتعاونية في شتّى الميادين .

وأمّا آل سعود فقد تحدّث الشوكاني عنهم وأثنى عليهم كثيرا ، وقد وصفهم بأنّهم أقاموا الدين الحنيف في جميع البلاد التي فتحوها، وصار أهلها مقيمين لفرائض الدين، يصلّون، ويصومون، ويؤدّون الزكاة وسائر شعائر الاسلام ، بعد أن كانوا لا يعرفون من الاسلام شيئا، ولا يقومون بشيئ من واجباتها إلا مجرّد التكلّم بلفظ الشهادتين على ما في لفظهم بهما من عوج . وبالجملة فكانوا في جاهلية جهلاء، كما تواترت بذلك الأخبار إلينا، ثمّ صاروا الآن يصلّون الصلوات لأوقاتها، ويأتون بسائر الأركان الاسلامية على أبلغ صفاتها .(٣)

وكان الشوكاني معجبا بدعوة التوحيد التي قام بها الإمام محمد بن عبد الوهّاب (ت ١٢٠٦هـ) وقادة الدعوة من آل سعود ، والتي ابتدأت في بلدة ( الدرعية ) النجدية ، وتركّزت حول تصحيح جانب العقيدة ، بعد أن شاعت عقائد شركية تناقض مبدأ توحيد الله عزّوجلّ، فذكر الشوكاني انتشار هذه الدعوة وجنودها في جميع الديار النجدية ، والبلاد العارضية، والحساء، والقطيف، وفي كثير من البلاد الحجازية، وغالب جزيرة العرب .(٤)

---

(١) تاريخ اليمن، عبد الواسع بن يحيى الواسعي (ص ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) انظر خطابات الشريف غالب وردود الشوكاني عليها في البدر الطالع (٢/٨ – ٢٣) .

(٣) انظر البدر الطالع، الشوكاني (٢/٥)، وانظر ترجمته لسعود بن عبد العزيز النجدي في (١/٢٦٢، ٢٦٣) .

(٤) انظر المصدر السابق (١/٢٦٢) .

وكانت دولة الأئمة الزيدية تهادن هذه الحركة، فتبادل أنصارها المكاتبات والرسل، وقد قام الشوكاني الذي كان قاضياً ووزيراً ومستشاراً للدولة بدور بارز في تلك المكاتبات والمقابلات، قال عن ذلك – في صدد ترجمته لسعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود (١١٦٣ – ١٢٢٩هـ) – : (( وما زال الوافدون من سعود يفدون إلينا إلى صنعاء إلى حضرة الإمام المنصور، وإلى ولده الإمام المتوكل بمكاتيب إليهما بالدعوة إلى التوحيد، وهدم القبور المشيّدة، والقباب المرتفعة، ويكتب إليّ أيضاً مع ما يصل من الكتب إلى الإمامين، ثم وقع الهدم للقباب والقبور المشيّدة في صنعاء، وفي كثير من الأمكنة المجاورة لها، وفي جهة ذمار وما يتّصل بها .))[1]

وكان مما سجّله الشوكاني من أخبار الوفود والمكاتبات بين آل سعود والإمام اليمن ما ذكره في البدر الطالع قال: (( وفي سنة (١٢١٥هـ) وصل من صاحب نجد المذكور[2] مجلّدان لطيفان أرسل بهما إلى حضرة مولانا الإمام حفظه الله[3]، أحدهما يشتمل على رسائل لمحمد بن عبد الوهّاب، كلّها في الإرشاد إلى إخلاص التوحيد، والتنفير من الشرك الذي يفعله المعتقدون في القبور، وهي رسائل جيدة مشحونة بأدلّة الكتاب والسنة، والمجلّد الآخر يتضمّن الردّ على جماعة من المقصّرين من فقهاء صنعاء وصعدة، ذاكروه في مسائل متعلّقة بأصول الدين، وبجماعة من الصحابة، فأجاب عليهم جوابات محرّرة مقرّرة محقّقة تدلّ على أنّ المجيب من العلماء المحقّقين العارفين بالكتاب والسنة، وقد هدم عليهم جميع ما بنوه، وأبطل جميع ما دوّنوه، لأنّهم مقصّرون متعصّبون، فصار ما فعلوه خزياً عليهم وعلى أهل صنعاء وصعدة ..... وأرسل صاحب نجد مع الكتابين المذكورين بمكاتبة منه إلى سيدي المولى الإمام، فدفع حفظه الله جميع ذلك إليّ، فأجبت عن كتابه الذي كتبه إلى الإمام على لسانه بما معناه: أنّ الجماعة الذين أرسلوا إليه بالمذاكرة لا ندري من هم، وكلامهم يدلّ على أنّهم جهّال .....

ثم في سنة (١٢٢٢هـ) وصل إلينا جماعة من صاحب نجد سعود بن عبد العزيز، لبعضهم معرفة في العلم، ومعهم مكاتيب من سعود إلى الإمام المنصور بالله رحمه الله تعالى، وإليّ أيضاً، ثمّ وصل جماعة آخرون كذلك في سنة (١٢٢٧هـ) ثمّ وصل جماعة آخرون كذلك في سنة (١٢٢٨هـ)، ودار مع هؤلاء الواردين ومع غيرهم من المكاتبة ما لا يتّسع

---

(١) البدر الطالع، الشوكاني (١/٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) يقصد به عبد العزيز بن محمد بن سعود (١١٣٢–١٢١٨هـ).

(٣) يقصد به المنصور علي (١١٥١–١٢٢٤هـ).

المقام لبسطه.))[1]

هكذا وقد أدّى توسّع النفوذ السياسي لأتباع الإمام محمد بن عبد الوهاب، وإرسال دعاتهم إلى اليمن لنشر العقيدة السلفية إلى تأثيرها على أنحاء متعدّدة من اليمن.

## المبحث الثاني: الحالة الدينية والاجتماعية

عاصر الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ المذاهب والفرق والطوائف الدينية المختلفة، والتي كان له معها مواقفه الخاصّة، وفيما يلي أذكر تلك المذاهب ونقدمها بإيجاز:

### ١ ـ الزيدية

وهم فرقة من فرق الشيعة تنتسب إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. (( وكان زيد بن علي (٧٩ ـ ١٢٢هـ) بويع له بالكوفة في أيّام هشام بن عبد الملك[2]، وكان أمير الكوفة يوسف بن عمر الثقفي[3]، وكان زيد يفضّل علي بن أبي طالب على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتولّى أبا بكر وعمر، ويرى الخروج على أئمّة الجور، فلمّا ظهر بالكوفة في أصحابه الذين بايعوه سمع من بعضهم الطعن على أبي بكر وعمر فأنكر ذلك على من سمعه منه، فتفرّق عنه الذين بايعوه، فقال لهم: رفضتموني، فيقال إنّهم سمّوا الرافضة لقول زيد لهم: رفضتموني. وبقي في شرذمة، فقاتل حتى قتل.))[4]

والزيدية أقرب فرق الشيعة من أهل السنة، فمع أنّهم يرون أنّ عليًّا رضي الله عنه هو الأفضل، فإنّهم يرون صحّة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، تطبيقًا للقاعدة

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/٧، ٨).
(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان: من ملوك الدولة الأموية في الشام، بويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة (١٠٥هـ) توفّي (١٢٥هـ) (انظر: الكامل لابن الأثير ٥/٩٦، وتاريخ الطبري ٨/ ـ ٢٨٣).
(٣) يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم أبو يعقوب الثقفي، ولّاه هشام بن عبد الملك اليمن سنة (١٠٦هـ) ثم ولّاه العراق في (١٢٠هـ) وكان يسلك سبيل الحجاج في الأخذ بالشدة والعنف، قتل سنة (١٢٧هـ) (انظر وفيات الأعيان: ابن خلكان ٢/٣٦٠).
(٤) مقالات الإسلاميين: أبو الحسن الأشعري (١/١٣٦، ١٣٧) تحقيق/محمد محيي الدين عبد الحميد. وانظر: الفرق بين الفرق: البغدادي (ص ٢٥، ٢٦) ط/دار الآفاق الجديدة، والتبصير في الدين: الاسفراييني (ص ٣٠) تحقيق/كمال يوسف الحوت، والملل والنحل: الشهرستاني (١/٢٠٩) تحقيق/محمد سيد كيلاني، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الفخر الرازي (ص ٥٢) ط/دار الكتب العلمية، والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان: السكسكي (ص ٦٥) تحقيق/د. بسام علي سلامة العموش، ومجموع فتاوى: ابن تيمية (١٣/٣٦).

العامّة المشهورة لديهم وهي: جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل.[١] ومعنى ذلك أنّ عليّاً كان أفضل الصحابة إلا أنّ الخلافة فوّضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها.[٢] فلم يكفّروا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يرفعوا الأئمة إلى رتبة الإلهية أو إلى درجة النبيين.

(( وجوّزوا أن يكون كلّ فاطمي عالم زاهد شجاع سخيّ خرج بالإمامة يكون إماماً واجب الطاعة، سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين، وجوّزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال، ويكون كلّ واحد منهما واجب الطاعة. ))[٣]

ويستثنون منهم الجارودية[٤] الذين زعموا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نصّ على علي بن أبي طالب بالوصف لا بالتسمية، فكان هو الإمام من بعده، وزعموا أنّ من دفع عليّاً من هذا المكان فهو كافر، وأنّ الأمّة كفرت وضلّت في تركها بيعته.[٥] وهم بهذا الزعم من الروافض.

وانتشر مذهب الزيدية في اليمن على يد الإمام الهادي يحيى بن الحسين[٦] (٢٤٥ – ٢٩٨هـ) مؤسس دولة الشرفاء العلويين، وواضع أساس الفقه الهدوي في اليمن، فقد أقام دولتها في اليمن عام (٢٨٤ هـ)، واستمرّت دولتها إلى عام (١٣٨٢ هـ)[٧]

---

(١) انظر الملل والنحل: الشهرستاني (١٥٥/١)، وانظر أيضاً فرق الشيعة للنوبختي (ص ٢٠) ط/ دار الأضواء. ونسب النوبختي هذا القول إلى أوائل البترية، وهم فرقة من فرق الزيدية.

(٢) الملل والنحل: الشهرستاني (١٥٥/١). (٣) المصدر السابق (١٥٤/١، ١٥٥).

(٤) فرقة من الزيدية من الشيعة، وتوجد في اليمن بكثرة أيام الشوكاني، نسبت إلى أبي الجارود زياد بن المنذر الهمداني. نقل ابن النديم عن الإمام الصادق قال عنه: لعنه الله، فإنه أعمى القلب أعمى البصر. قال الحافظ ابن حجر: رافضي كذّبه يحيى بن معين، من السابعة، مات بعد سنة (١٥٠هـ) (انظر: الفهرست لابن النديم (ص٢٥٣) ط/ دار المعرفة، والتقريب لابن حجر (ص ٢٢١ برقم ٢١٠١) تحقيق/ محمد عوامة.)

(٥) انظر: فرق الشيعة للنوبختي (ص ٢١)، وانظر أيضاً: مقالات الإسلاميين للأشعري (١٤١/١)، والفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٢٢)، والتبصير في الدين للإسفراييني (ص ٢٨)، – والملل والنحل للشهرستاني (١٥٧/١، ١٥٨)، والبرهان للسكسكي (ص ٦٦، ٦٧)، ومنهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/٣).

(٦) يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الحسني العلوي الملقّب بالهادي إلى الحق ولد بالمدينة ونشأ فيها عالماً ورعاً، وصنّف كتباً كثيرة، وكان خروجه إلى اليمن عام (٢٨٠هـ) بدعوة أهلها، وقدم بها مذهب القرامطة والباطنية، فجاهدهم جهاداً شديداً، وقد بلغت وقعاته معهم إلى سبعين وقعة، وأكثر من ملك اليمن بعده من أئمة الزيدية هم من ذرّيته. توفّي (٢٩٨هـ) (انظر: تاريخ اليمن: عبد الواسع الواسعي (ص ١٧٨، ١٧٩)، ومعتزلة اليمن/ دولة الهادي وفكره: علي محمد زيد (ص ٧١ إلخ) ط/٢ دار الكلمة صنعاء.)

(٧) وقد تولّى منهم الإمامة (٦٧) إماماً، أوّلهم الهادي (٢٨٤هـ)، وآخرهم محمد بن أحمد البدر (١٣٨٢هـ) (انظر قائمة هؤلاء الأئمة ومدد حكمهم في كتاب: اليمن عبر التاريخ لأحمد حسين شرف الدين (ص ٢٤٥–٢٥٣) ط ٧٤ الرياض، وانظر أيضاً مائة عام من تاريخ اليمن الحديث للدكتور حسين بن عبد الله العمري (ص ١٧).

وكان أهل اليمن قبيل دخول المذهب الزيدي متمذهبين بالمذهبين المالكي والحنفي[١]، ثم أخذا في التلاشي عندما دخل المذهب الشافعي وانتشر في بعض مناطق اليمن الساحلية والجنوبية، واستقرّ فيها منذ منتصف القرن الرابع الهجري.[٢]

والمذهب الزيدي تميز من باقي مذاهب الشيعة بالحرّية الفكرية، والحثّ على الاجتهاد، بل إنّه - كما قال الشوكاني -: (( يحرّم التقليد على من بلغ رتبة الاجتهاد، وأوجب عليه أن يجتهد رأي نفسه، ولم يخصّ ذلك بمسألة دون مسألة.))[٣]

ولعلّ هذا سبب من أسباب ظهور عدد من الأئمة المجتهدين المتحرّرين الذين خالفوا مذهب الزيدية، واتّجهوا نحو مذهب أهل السنة، من أمثال: محمد بن الوزير اليماني[٤] (٧٧٥-٨٤٠هـ)، والحسن الجلال[٥] (١٠١٤-١٠٨٤هـ)، وصالح بن مهدي المقبلي[٦] (١٠٤٧-١١٠٨هـ)، ومحمد بن اسماعيل الأمير الصنعاني[٧] (١٠٩٩-١١٨٢هـ)، ومحمد بن علي الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ) الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذا البحث.

فإنّه - رحمه الله - درس هذا المذهب، وتفقّه عليه، إلا أنّه لم يلبث أن تخلّى عن

---

(١) انظر طبقات فقهاء اليمن، عمر بن علي الجعدي (ص ٧٩) تحقيق/ فؤاد سيد، دار الكتب العلمية.

(٢) انظر تاريخ اليمن الثقافي: أحمد حسين شرف الدين (ص ٣٦، ٣٧) ط/١٣٨٧هـ مطبعة الكيلاني الصغير، ومائة عام من تاريخ اليمن الحديث، د/حسين عبد الله العمري (ص١٧).

(٣) البدر الطالع: الشوكاني (١٣٥/٢).

(٤) أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن علي بن المرتضى اليماني من آل الوزير، كان من كبار حفاظ الحديث، والعلماء المجتهدين اليمانيين، له كتب مفيدة منها: العواصم والقواصم، وترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، وإيثار الحق. توفي (٨٤٠ هـ) (انظر البدر الطالع: الشوكاني ٨١/٢ - ٩٣، والأعلام: الزركلي ٣٠٠/٥).

(٥) الحسن بن أحمد بن محمد بن علي الحسيني العلوي المعروف بالجلال، فقيه عارف بالتفسير والعربية والمنطق. قال الشوكاني عنه: برع في جميع العلوم العقلية والنقلية، وصنّف التصانيف الجليلة، فمنها: ضوء النهار جعله شرحاً للأزهار للامام المهدي وحرّر اجتهاداته على مقتضى الدليل، ولم يعبأ بمن يوافقه من العلماء أو يخالفه، وله تكملة الكشف على الكشاف، وشرح الكافية في النحو. توفي (١٠٨٤هـ) (البدر الطالع: الشوكاني ١٩٢/١، والأعلام: الزركلي ١٨٢/٢).

(٦) صالح بن مهدي بن علي بن عبد الله المقبلي، مجتهد من أعيان الفقهاء، قال عنه الشوكاني: وهو ممن برع في جميع علوم الكتاب والسنة، وحقّق الأصولين والعربية والمعاني والبيان والحديث والتفسير، وفاق في جميع ذلك، وقد أكثر الحط على المعتزلة في بعض المسائل الكلامية، وعلى الأشعرية في بعض آخر، وعلى الصوفية في غالب مسائلهم، وعلى الفقهاء في كثير من تفريعاتهم، ولا يبالي إذا تمسّك بالدليل بمن يخالفه كائناً من كان. له مؤلفات مفيدة منها: العلم الشامخ، والمنار على البحر الزخار. توفي (١١٠٨هـ) (البدر الطالع: الشوكاني ٢٨٨/١، والأعلام: الزركلي ١٩٧/٣).

(٧) أبو ابراهيم عزّ الدين محمد بن اسماعيل بن صلاح الكحلاني ثم الصنعاني، المعروف كأسلافه بالأمير، مجتهد من بيت الامامة باليمن، أصيب بمحن كثيرة من الجهلاء والعوام. قال عنه الشوكاني: برع في جميع العلوم وفاق الأقران، وتفرّد برئاسة العلم في صنعاء.

التقليد والتمذهب، وأصبح لا يتقيد بفرقة من الفرق أو مذهب من المذاهب، بل اعتمد اعتمادا مباشرا على الكتاب والسنة، وأصبح من المجتهدين في البحث عن الحكم الشرعي والرأي العقائدي من خلال الأدلة والبراهين، ويتجلى ذلك في خروجه على المذهب الزيدي ومخالفته له في مسائل كثيرة، سيأتي ذكر بعضها عند الكلام عن مذهبه.

وقد واجه الشوكاني في سبيل ذلك صراعات من المتعصبين لهذا المذهب، وخاصة من الروافض، وتعرض لأذى كثير منهم، لأنهم - كما قال الشوكاني -: (( إذا بلغ بعض معاصريهم إلى رتبة الاجتهاد، وخالف شيئا باجتهاده جعلوه خارجا عن الدين. [1] وهكذا شأن غالب أهل اليمن مع علمائهم. ))[2] وبيّن الشوكاني أنّ ذلك ليست لمقاصد دينية، بل لمنافع دنيوية تظهر لمن تأملها، وهي أن يشيع في الناس أنّ من أنكر على أكابر العلماء ما خالف المذهب من اجتهاداتهم كان من خلّص الشيعة الذابّين عن مذهب الآل، وتكون تلك الشهرة مفيدة في الغالب لشيء من منافع الدنيا وفوائدها.[3]

ومما يحكي الشوكاني من الحوادث الجارية بينه وبين أهل عصره من الزيدية أنّه كان يذكر أحيانا في مواقف المتعصّبين ومجامع الجامدين بعض آراء المذهب المخالفة للدليل، قال: (( وأقلّ الأحوال أن أقول: استدلّ هذا بكذا، وفلان المخالف له بكذا، ودليل فلان أرجح لكذا، فما زال أسراء التقليد يستنكرون ذلك، ويستعظمونه لعدم الفهم به، وقبول طباعهم له، حتى ولّد ذلك في قلوبهم من العداوة والبغضاء ما الله به عليم. ))[4]

وذكر أنّ أحدهم إذا سمع قائلا يقول: قال رسول الله، أو يملي سندا فيقول: حدّثنا فلان عن فلان، قامت قيامته، وثار شيطانه، واعتقد أنّ هذا صنع أعداء أهل البيت، المنافين لهم بالعداوة المخالفين لهديهم. قال: (( فانظر ما صنع هذا الشيطان، فإنّ في نسبته للمشتغلين بالسنة المطهرة إلى مخالفة أهل البيت طعنا عظيما على أهل البيت، لأنّه جعلهم في جانب والسنة في جانب آخر، وجعل بينهما عنادا وتخالفا، ..... وحاشا لأهل البيت أن يكونوا كما قال فيهم، أحقّ الأمة باتّباع سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاهتداء بهديه والاقتداء بكلامه. ))[5]

---

==== وتظهر بالاجتهاد، وعمل بالأدلة، ونفر من التقليد، وزيّف ما لا دليل عليه من الآراء الفقهية وجرت له مع أهل عصره خطوب ومحن، له مؤلفات مفيدة منها: سبل السلام، وإرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، وتطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد، توفي (١١٨٢هـ) (البدر الطالع ٢/١٣٣-١٣٩)

(١) البدر الطالع للشوكاني (٢/١٣٥).

(٢) المصدر السابق (١/٢٩١).

(٣) انظر المصدر السابق (٢/١٣٥)

(٤) أدب الطلب للشوكاني (ص ٤٧) تحقيق/ محمد عثمان الخشت.

(٥) المصدر السابق (ص ٨٣، ٨٤).

## ٢ ـ الرافضة

تقدّم الكلام من سبب تسمية هذه الفرقة بالرافضة، وهم: جماعة غلاة الشيعة، وسمّوا بالشيعة لأنّهم شايعوا عليًّا رضوان الله عليه، ويقدّمونه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.[1] وهم فرق متعدّدة لا يتسع المقام هنا لذكرها.[2]

يقول العلّامة السكسكي الحنبلي[3] ـ رحمه الله ـ:

(( وأجمعت الرافضة على اثبات الامامة عقلا، وأنّ امامة علي وتقديمه ثابتة نصًّا، وأنّ الأئمة معصومون لا يجوز عليهم الغلط والسهو والخطأ، وأنكروا امامة المفضول والاختيار، وقالوا بتفضيل علي على سائر الصحابة، وأنّه الامام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبرّأوا من أبي بكر وعمر وكثير من الصحابة رضي الله عنهم، وقالوا إنّ الأمّة ارتدّت بتركها امامة علي رضى الله عنه.))[4] ويخالفهم في ذلك الزيدية كما أسلفنا.

وقد هاش الشوكاني ـ رحمه الله ـ الانحرافات والانطرابات والفتن التي أحدثتها الرافضة في عصره، فكان موقفه منهم موقفا شديدا، فقد حذّر منهم، ووضّح خطرهم، وكشف فضائحهم، في عديد من كتبه. واليك بعض النصوص التي تبيّن ذلك:

قال ـ رحمه الله ـ: (( انظر الرافضة، فانّك تجد أكثر ما لديهم، وأعظم ما يشتغلون به ويكتبونه ويحفظونه، مثالب الصحابة رضي الله عنهم المكذوبة عليهم، ليتوصّلوا بذلك الى ما هو غاية لديهم من السبّ والثلب لهم ـ صانهم الله وكبت مبغضيهم ـ ثم يعتبرون الناس جميعا بهذه المسألة، فمن وافقهم فيها فهو المسلم حقًّا المحق وان فعل ما فعل، ومن خالفهم في هذه المسألة فهو المبطل المبتدع وان كان على جانب من الورع وحظ من التقوى لا يقادر قدرها.))[5]

---

(١) انظر مقالات الاسلاميين: الأشعري (ص ٦٥).

(٢) انظر المصدر السابق (ص ٦٦ـ١٦٦)، والفرق بين الفرق: البغدادي (ص ١٥، ١٦، ٢٢ـ٥٤)، ـ والتبصير في الدين: الاسفراييني (ص٢٧ـ٤٣)، والملل والنحل: الشهرستاني (١/١٤٧ـ١٩١)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الرازي (ص ٥٢ـ٦٣)، والبرهان: السكسكي (ص ٦٥ـ٨٥).

(٣) عباس بن منصور بن عباس التريمي السكسكي اليمني، أبو الفضل، كان قاضيا في تعزّ (قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات) له كتاب: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان. توفّي (٦٨٣هـ) (انظر: هدية العارفين: للبغدادي ١/٤٣٧ ط/ استانبول ١٩٥١م ـ والأعلام: للزركلي ٣/٢٦٨).

(٤) البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان: السكسكي (ص ٦٥)، وانظر أيضا الملل والنحل: الشهرستاني (١/١٤٦).

(٥) أدب الطلب: الشوكاني (ص ٨٤، ٨٥).

وذكر أنّ هؤلاء الرافضة المتعصّبة يطلقون كلمة : ( سنّية ) على من يعادي عليّا ويوالي معاوية ، افتراء منهم على أهل العلم ، واجتراء على المسلمين، استصعب ذلك من استصعبه عندا طلاقه عليه في ألسن هؤلاء الذين هم بالدواب أشبه . قال : (( ولم أجد أهل ملّة من الملل، ولا فرقة من الفرق الاسلامية أشدّ بهتا، وأعظم كذبا، وأكثر افتراء من الرافضة ، فانّهم لا يبالون بما يقولون من الزور كائنا ما كان، ومن كان مشاركا لهم في نوع من أنواع الرفض وان قلّ كان فيه مشابهة لهم بقدر ما يشاركهم فيه (١)..... الى أن قال موضّحا خطرهم :

وهكذا من ألقى مقاليد أمره الى رافضي، وان كان حقيرا، فانّه لا أمانة لرافضي قطّ على من يخالفه في مذهبه ، ويدين بغير الرفض، بل يستحلّ ماله ودمه عند أدنى فرصة تلوح له ، لأنه عنده مباح الدم والمال، وكلّ ما يظهره من المودّة فهو تقية يذهب أثره بمجرّد إمكان الفرصة . ))(٢)

وأكّد الشوكاني أنّه لم يتحدّث من ذلك دون دليل، وانّما عن سابق تجربة وخبرة عرف بها أحوالهم ومقدار عداتهم لمن خالفهم ، فقال :

(( وقد جرّبنا هذا تجريبا كثيرا، فلم نجد رافضيا يخلص المودّة لغير رافضي، وان آثره بجميع ما يملكه، وكان له بمنزلة الخول(٣)، وتودّد اليه بكلّ ممكن . ولم نجد في مذهب من المذاهب المبتدعة ولا غيرها ما نجده عند هؤلاء من العداوة لمن خالفهم ، ثمّ لم نجد عند أحد ما نجد عندهم من التجرؤ على شتم الأعراض المحترمة ، فانّه يلعن أقبح اللعن، ويسبّ أفظع السبّ، كلّ من تجري بينه وبينه أدنى خصومة، وأحقر جدال، وأقلّ اختلاف . ))(٤)

وعلّل الشوكاني سبب هذا التجرؤ بأنّه يرجع الى تجرئهم على سبّ السلف الصالح فكانت نتيجته أن هان عليهم سبّ من عداهم ، قال :

(( ولعلّ سبب هذا ـ والله أعلم ـ أنّهم لمّا تجرّأوا على سبّ السلف الصالح ( رضوان الله عليهم ) هان عليهم سبّ من عداهم ، وقد يقع بعض شياطينهم في علي ( رضي الله عنه ) حردا عليه (٥) وغضبا له حيث ترك حقّه .....

---

(١) أدب الطلب : الشوكاني (ص ٨٧) . (٢) المصدر السابق ( ص ٩٥ ) .
(٣) الخول: اسم يقع على العبد والأمة ( مختار الصحاح : الرازي ص ٨١ مادة :خول.)
(٤) أدب الطلب : الشوكاني (ص ٩٥) .
(٥) الحرد بالتحريك : الغضب .( مختار الصحاح : الرازي(ص ٥٥ مادة : حرد.) .

وأمّا تسرّع هذه الطائفة الى الكذب، وإقدامهم عليه، والتهاون بأمره، فقد بلغ من سلفهم وخلفهم الى حدّ الكذب على الله وعلى رسوله وعلى كتابه وعلى صالحي أمّته، ووقع منهم في ذلك ما يقشعرّ له الجلد، وناهيك بقوم بلغ الخذلان بغلاتهم الى انكار بعض كتاب الله، وتحريف البعض الآخر، وانكار سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وجاوز ذلك جماعة من زنادقتهم الى اعتقاد الألوهية في ملوكهم، بل في شيوخ بلدانهم.))(١)

ثمّ كشف الشوكاني نقابهم وفضح حقيقتهم فيما يتظهّرون به من التشيع قائلا :

(( ولا غرو فأصل هذا المظهر الرافضي مظهر الحادوزندقة، جعله من أراد كيد الاسلام سترا له، فأظهر التشيع والمحبّة لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استجذابا لقلوب الناس، لأنّ هذا أمر يرغب فيه كلّ مسلم، وقصدا للتغرير عليهم، ثم أظهر للناس أنّه لا يتمّ القيام بحقّ القرابة إلا بترك حقّ الصحابة، ثم جاوز ذلك الى اخراجهم - صانهم الله - عن سبيل المؤمنين. ومعظم ما يقصده بهذا هو الطعن على الشريعة وابطالها، لأنّ الصحابة رضي الله عنهم هم الذين رووا للمسلمين علم الشريعة من الكتاب والسنة، فاذا تمّ لهذا الزنديق باطنا الرافضي ظاهرا القدح في الصحابة، وتكفيرهم، والحكم عليهم بالردّة، بطلت الشريعة بأسرها، لأنّ هؤلاء هم حملتها الراوون لها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فهذا هو العلة الغائية لهم، وجميع ما يتظهّرون به من التشيع كذب وزور، ومن لم يفهم هذا فهو حقيق بأن يتّهم نفسه ويلوم تقصيره.))(٢)

هذا موقف الشوكاني من الرافضة وأتباعهم، وهو موقف واضح ومتميز في جميع مؤلّفاته، وسيأتي مزيد التفصيل عند الكلام عن بدع الرافضة.(٣)

وقد سجّل الشوكاني - رحمه الله - وقائع كثيرة لهؤلاء الرافضة، مما يدلّ على الاضطراب والفوضى وعدم الاستقرار في ظلّ حكومة الأئمة الزيدية.

ومن أظهر الأحداث تلك الفتنة التي أثارتها الرافضة بصنعاء في سنة (١٢١٦هـ)(٤) كما يحكيه الشوكاني عند ترجمته للسيد يحيى بن محمد الحوثي (١١٦٠-١٢٤٧هـ).

وخلاصته: أنّ بعض أهل الدولة من الرافضة أقعد صاحب الترجمة على الكرسي الذي يقعد عليه أكابر العلماء المتصدّرون للوعظ، وأمره أن يملي على العامّة ( تفريج الكروب )

---

(١) أدب الطلب، الشوكاني (ص ٩٥، ٩٦).
(٢) المصدر السابق (ص ٩٦).
(٣) انظر صفحة ( ٤١٩ - ٤٢٣ ).
(٤) انظر تفصيل الحادث في البدر الطالع (٢/٣٤٤-٣٤٨)، وأدب الطلب (ص ٩٩ - ١٠٣).

وهو في مناقب علي (رضي الله عنه)، ولكن لم يتوقّف صاحب الترجمة على ما فيه، بل جاوز ذلك الى سبّ بعض السلف مطابقة لغرض من حمله على ذلك لقصد الاغاظة لبعض أهل الدولة المنتسبين الى بني أمية، فكان صاحب الترجمة يصرخ باللعن على الكرسي، فيصرخ معه من يحضر لديه من العامّة، وهم جمع جمّ، وليسوا ممن يرغب في العلم، فكان يرتجّ الجامع ويرتفع الصراخ، ومع هذا فصاحب الترجمة لا يفهم ما في الكتاب لفظاً ولا معنى، بل يصحّف تصحيفاً كثيراً، وكان في سائر الأيام يجتمع معهم ويملي عليهم على الصفة المذكورة في مسجد الامام صلاح الدين، فأراد أن يكون ذلك في جامع صنعاء الذي هو مجمع الناس ومحلّ العلماء والتعليم، لقصد نشر اللعن والثلب والتظاهر به، فلمّا بلغ ذلك الخليفة أبلغه أن يرجع الى مسجد صلاح الدين، فحضر العامّة تلك الليلة على العادة، فلمّا لم يحضر صاحب الترجمة في الوقت المعتاد ثاروا في الجامع، ورفعوا أصواتهم باللعن، ومنعوا من اقامة صلاة العشاء، ثم انضمّ اليهم سائر العامّة، فخرجوا من الجامع يصرخون في الشوارع بلعن الأموات والأحياء، وقد صاروا ألوفاً مؤلّفة، ثم قصدوا بعض بيوت الناس فرجموها، وأفزعوا فيها أطفالاً ونساء وهتكوا حرماً، وكان السبب في رجمهم البيوت أنّ صاحبها إمّا أن يكون أمويّ النسب، أو متظهّراً بالسنة، ولم يكن رافضياً لعّاناً، وقد حصل الخوف العظيم من ثورة العامّة، وطال التراود والمشاورة بين الخليفة والوزراء والأمراء، ثمّ استشار الخليفة الامام الشوكاني، فأشار عليه أنّ الصواب المبادرة بحبس جماعة من المتصدّرين في الجامع للتشويش على العوام وجماعة ممن يماثلهم، فقام الخليفة بتنفيذ ما طلبه في حبس هؤلاء .(١)

قال الشوكاني بعد سرد الحكاية : (( وبالجملة فهذه فتنة وقى الله شرّها بالحزم الواقع بعد أن وجلت القلوب، وخاف الناس، واشتدّ الخطب، وعظم الكرب .))(٢)

وذكر الشوكاني هنا ثلاثة من جهلاء الرافضة الذين عاصرهم والذين أثاروا فتناً عظيمة في صنعاء أيّام توليته القضاء وهم : صاحب الترجمة يحيى بن محمد الحوثي، والسيد اسماعيل بن عزّ الدين النعمي (١١٨٠–١٢٣٢هـ) وهو أشدّهم في ذلك، وقد وصفه الشوكاني بأنّه رافضي جلد، مع كونه جاهلاً جهلاً مركّباً، وفيه حدة تفضي به الى نوع من الجنون، وصار يجمع مؤلّفات من كتب الرافضة، ويمليها في الجامع على من هو أجهل منه، ويسعى في تفريق المسلمين، ويوهمهم أنّ أكابر العلماء وأعيانهم نواصب يبغضون علياً رضي الله عنه .

---

(١) انظر: البدر الطالع، الشوكاني (٢/٣٤٤–٣٤٨) .

(٢) المصدر السابق ( ٢/٣٤٨ ) .

والثالث: أحد عبيد الخليفة اسمه :ضرغام . ورأس ماله الاطّلاع على بعض كتب الرافضة المشتملة على السبّ للخلفاء وغيرهم من أكابر الصحابة ، فصار هذا يقعد في الجامع ويملي سبّ الصحابة على من هو أجهل منه .

قال الشوكاني: فهذه الأمور هي سبب ما قدّمنا ذكره .[1] أي حدوث الفتنة بين عوام الناس .

ومما جرى بين الشوكاني وبين الرافضة في عصره من الوقائع ما حكى عن نفسه قال :

(( ولمّا ألّفت الرسالة التي سمّيتها : ارشاد الغبي الى مذهب أهل البيت في صحب النبي .[2] ونقلت اجماعهم من ثلاث عشرة طريقة على عدم ذكر الصحابة بسبّ أو ما يقاربه ، وقعت هذه الرسالة بأيدي جماعة من الرافضة الذين بصنعاء المخالفين لمذهب أهل البيت، فجالوا وصالوا وتعصّبوا وتحزّبوا وأجابوا بأجوبة ليس فيها الّا محض السباب والمشاتمة ، وكتبوا أبحاثا نقلوها من كتب الامامية والجارودية ، وكثرت الأجوبة حتى جاوزت العشرين، وأكثرها لا يعرف صاحبه ، واشتغل الناس بذلك أيّاما، وزاد الشرّ ، وعظمت الفتنة ، فلم يبق صغير ولا كبير ولا امام ولا مأموم الّا وعنده من ذلك شيئ، وأعانهم على ذلك جماعة ممن له صولة ودولة ، ثمّ انّ تلك الرسالة انتشرت في الأقطار اليمنية ، وحصل الاختلاف في شأنها، وتعصّب أهل العلم لها وعليها،حتى وقعت المراجعة والمجاوبة والمكاتبة في شأنها في الجهات التهامية ، وكلّ من عنده أدنى معرفة يعلم أنّي لم أذكر فيها الّا مجرّد الذبّ عن أعراض الصحابة الذين هم خير القرون،مقتصرا على نصوص الأئمة من أهل البيت، ليكون ذلك أوقع في نفوس من يكذب عليهم ،وينسب الى مذهبهم ما هم منه برآء . ))[3]

## ٣ ــ المعتزلة

وهي فرقة من الفرق العقائدية المنحرفة ،مؤسسها واصل بن عطاء[4] ،وعمرو بن عبيد .[5]

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني(٣٤٧/٢) .

(٢) وهي ما زالت مخطوطة ( انظر مؤلّفات الشوكاني صفحة ٧١ ).

(٣) المصدر السابق (٢٢٣/١،٢٢٤) .

(٤) هو واصل بن عطاء البصري،أبو حذيفة :رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء المتكلّمين.قال عنه المسعودي:هو قديم المعتزلة وشيخها،وأوّل من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين. واليه تنسب طائفة الواصلية .توفّي(١٣١هـ)( انظر :ميزان الاعتدال:الذهبي ٣/٦ ،ولسان الميزان:ابن حجر ٢١٤/٦ ،وشذرات الذهب:ابن العماد الحنبلي ١٨٢/١) .

(٥) هو عمرو بن عبيد بن باب أبو عثمان البصري المعتزلي القدري.قال الخطيب:كان عمرو يسكن البصرة ،وجالس الحسن البصري،وحفظ عنه ،اشتهر بصحبته ،ثمّ أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة ،فقال بالقدر ،ودعا اليه ،واعتزل أصحاب الحسن.توفّي (١٤٤هـ)

وسمّوا معتزلة لاعتزالهم مجلس الحسن البصري[1]، وقيل لاعتزالهم منهج أهل السنة والجماعة، وقيل غير ذلك.[2]

ولهم أسماء أخرى منها: القدرية لنفيهم قضاء الله وقدره في معاصي العباد وإضافة خلقها إلى فاعلها، وأهل العدل والتوحيد لقولهم بهذين الأصلين.[3]

وافترقوا إلى فرق كثيرة يجمعها آراء وهي الأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[4]

ومن عقائدهم التي طبّقوها من هذه الأصول: نفي جميع الصفات عن الله عزّ وجلّ، ونفي الرؤية، والقول بأنّ القرآن مخلوق، وأنّ الله لم يخلق أفعال عباده، بل هم الخالقون لها، وأنّ الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب عليه رعاية مصالح العباد. ومنها القول بأنّ صاحب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين في الدنيا، وفي الآخرة خالد مخلّد في النار، ونفي شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر، ومنها جواز الخروج على السلطان وترك طاعتهم له، وتقديم الاستدلال بالعقل على النقل، وغير ذلك.[5]

---

==== وقيل غير ذلك. (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٦٢/١٢، وميزان الاعتدال: الذهبي ١٦٣/٤).

(١) هو الحسن بن أبي الحسن البصري، واسم أبيه يسار الأنصاري مولاهم. قال الحافظ ابن حجر: ثقة فقيه فاضل مشهور، وكان يرسل كثيرا ويدلّس، وهو رأس أهل الطبقة الثالثة (أي الطبقة الوسطى من التابعين) مات (١١٠هـ) (التقريب ١٦٠ برقم ١٢٢٧). ذكر الشهرستاني أنّه دخل عليه واحد وسأله عن حكم مرتكبي الكبائر، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل المجلس، يقرّر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنّا واصل. فسمّي هو وأصحابه معتزلة. (الملل والنحل ٤٨/١).

(٢) انظر: الفرق بين الفرق: البغدادي (ص ٩٨)، والتبصير في الدين: الاسفراييني (ص ٦٨)، والبرهان: السكسكي (ص ٤١).

(٣) البرهان: السكسكي (ص ٥٠)، وانظر أيضا الملل والنحل: الشهرستاني (٤٣/١).

(٤) انظر: معتزلة اليمن دولة الهادي وفكره: علي محمد زيد (ص ٢٣)، ودراسات في الفرق والعقائد الاسلامية: د/عرفان عبد الحميد (ص ١١٣) ط ١/مؤسسة الرسالة. وانظر معنى هذه الأصول الخمسة في كتاب: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي، وكتاب المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها للباحث المعاصر عواد بن عبد الله المعتق.

(٥) انظر: الفرق بين الفرق: البغدادي (ص ٩٤، ٩٥)، والتبصير في الدين: الاسفراييني (٦٣ ـ ٦٧)، والملل والنحل: الشهرستاني (٤٥/١)، والبرهان: السكسكي (ص ٥٠).

وقد اتفقت الزيدية مع المعتزلة [1] في هذه الأصول الخمسة ، ففي عصر الامام الهادي يحيى بن الحسين (٢٤٥ ـ ٢٩٨هـ) جعل الأصول خمسة كالمعتزلة تماما مع الغاء أحد أصولهم وهو : المنزلة بين المنزلتين. وابدله بأصل آخر يقول باثبات الامامة في آل البيت، وبذلك تصبح الأصول الخمسة عند الزيدية كما يلي : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واثبات الامامة في آل البيت .[2]

وتعتبر مؤلفات الهادي وجده القاسم الرسي من أقدم ما باليمن من مصادر علم الكلام المعتزلي .[3] وتصبح هذه الأصول الخمسة أصولا للزيدية ، والعمل بها في اليمن ظاهر ومتميز تحت ظل حكومة الأئمة الزيدية .

ولا شك أن الشوكاني ـ رحمه الله ـ خالف المعتزلة كما خالف الزيدية في عقائدهم المنحرفة ، وهذا واضح في كثير من مؤلفاته ، وقد وصفهم بأنهم ضلوا الطريق المستقيم وأخلوا من رام سلوكها .[4] وكان موقفه من علم الكلام موقفا متميزا، فقد نصح طالب العلم في كتابه : أدب الطلب بدراسة هذا العلم بعد اتقانه لأصول الفقه ، ودراسة مؤلفات المعتزلة والأشعرية والفرق الأخرى، وعدم الاقتصار على مؤلفات مذهبه ، حتى لا يقع في التقليد والنفور من العلم قبل معرفته ، وحتى لا يقع في العصبية وعدم الانصاف ومخاصمة أهل الكلام دون علم بمقولاتهم ومصطلحاتهم . قال ـ رحمه الله ـ :

(( فانه اذا فعل كل هذا عرف الاعتقادات كما ينبغي ، وأنصف كل فرقة بالترجيح أو التجريح على بصيرة ، وقابل كل قول بالقبول أو الرد على حقيقة ..... على أنه يتعلق بذلك فائدة وزيادة بصيرة في علوم أخرى، كعلم التفسير ، وعلم تفسير الحديث، فانك اذا بلغت الى ذلك علمت ما في العلم بهذا الفن من الفائدة ، لا سيما عند قراءة تفسير الكشاف وأمثاله ، فان في مباحثه من التدقيقات الراجعة الى علم الكلام ما لا يفهمها حق

---

(١) هناك كتب تعالج هذا الموضوع ، أذكر منها : الصلة بين الزيدية والمعتزلة للدكتور أحمد عبد الله عارف . تقديم الدكتور محمد عمارة . ط/ دار آزال بيروت. وقراءة في فكر الزيدية والمعتزلة للدكتور عبد العزيز المقالح ط/ دار العودة ، بيروت. والزيدية للدكتور أحمد محمود صبحي. ط/ الزهراء للاعلام العربي .

(٢) انظر قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة : د/ عبد العزيز المقالح (ص ١٩ ، ٢٠) ، ومعتزلة اليمن/ دولة الهادي وفكره : علي محمد زيد (ص ٢٢٢) .

(٣) معتزلة اليمن/ دولة الهادي وفكره : علي محمد زيد (ص ٢٠٣) .

(٤) انظر التحف في مذاهب السلف : الشوكاني (ص ٢) ضمن الرسائل السلفية .

الفهم إلا من عرف الفن واطّلع على مذاهب المعتزلة والأشعرية وسائر الفرق .))(١)

ولكنّ الشوكاني بجانب هذا النصح وصف تجربته الشخصية مع هذا العلم بالمرارة ، وأنّ من اشتغل بها دون التعمّق في علم الكتاب والسنة فانّ ذلك سيوصّله الى الحيرة ، وقد وجد أنّ مقالاته في نهاية الأمر ليست إلّا مجموعة من الخزعبلات ، وبناء على ذلك دعا طلّابه الى نهج السلف الصالح الذي يقوم على هجر المصطلحات الكلامية ، والتمسّك بالكتاب والسنة . فقال:

(( وإنّي أقول بعد هذا إنّه لا ينبغي لعالم أن يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، من الوقوف على ما تقتضيه أدلّة الكتاب والسنة ، وابراز الصفات كما جاءت ، وردّ علم المتشابه الى الله سبحانه ، وعدم الاعتداد بشيء من تلك القواعد المدوّنة في هذا العلم المبنيّة على شفا جرف هار من أدلّة العقل التي لا تعقل ، ولا تثبت إلّا بمجرّد الدعاوى والافتراء على العقل بما يطابق الهوى ، ولا سيّما اذا كانت مخالفة لأدلّة الشرع الثابتة في الكتاب والسنة ، فانّها حينئذ حديث خرافة ولعبة لاعب ، فلا سبيل للعباد يتوصّلون به الى معرفة ما يتعلّق بالربّ سبحانه ، وبالوعد والوعيد ، والجنة والنار ، والمبدأ والمعاد ، الّا ما جاءت به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وليس للعقول وصول الى تلك الأمور ، ومن زعم ذلك فقد كلّف العقول ما أراحها الله عنه ولم يتعبّدها به ، ..... فلا يستفاد من العقل ، بل من ذلك النقل الذي منه جاءت والينا به وصلت .))(٢)

ثمّ يوضّح موقفه من علم الكلام وتجربته معه فقال:

(( واعلم أنّي عند الاشتغال بعلم الكلام ، وممارسة تلك المذاهب والنحل ، لم أزدد بها إلّا حيرة ، ولا استفدت منها إلّا العلم بأنّ تلك المقالات خزعبلات ، فقلت اذ ذاك مشيرا الى ما استفدته من هذا العلم :

وغاية ما حصلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبّر

هو الوقف ما بين الطريقين حيرة فما علم من لم يلق غير التحيّر

على أنّني قد خضت منه غماره وما قنعت نفسي بدون التبحّر(٣)

وعند هذا رميت بتلك القواعد من حالق ، وطرحتها خلف الحائط ، ورجعت الى الطريقة المربوطة بأدلّة الكتاب والسنة ، المعمودة بالأعمدة التي هي أوثق ما يعتمد عليه عباد الله ، وهم الصحابة ، ومن جاء بعدهم من علماء الأمّة المقتدين بهم ، السالكين مسالكهم ، فطاحت

---

(١) انظر أدب الطلب ، الشوكاني (ص ١٤٥ ، ١٤٦) . (٢) المصدر السابق (ص ١٤٦) .
(٣) ذكر الشوكاني أيضا هذه الأبيات وتجربته مع هذا العلم في : كشف الشبهات عن المشتبهات (ص ٢٠) ، والتحف في مذاهب السلف (ص ٢٠) ضمن الرسائل السلفية .

الحيرة، وانجابت ظلمة العماية، وانكشفت ستور الغواية. ولله الحمد.))

ومع أنّ الشوكاني يذكر أنّ علم الكلام قد أورثه حيرة إلا أنه يعود فيذكر أنه لم يشتغل بهذا العلم إلا بعد رسوخ قدمه في أدلة الكتاب والسنة، وأنه يقدّر في نفسه أنه لو لم يكن لديه إلا مقالات علم الكلام وقواعده فما كان ليجد غير الحيرة، أمّا وقد ضرب بها وجه قائلها ودخل إلى تلك المسائل من الباب الذي أمر الله بالدخول منه فإنه كان في راحة من تلك الحيرة، وفي دعة من تلك الخزعبلات.(1)

قلت: وقد جرّب قبل الشوكاني عدد من أئمة المتكلّمين، فلم يجدوا في الخوض في هذا العلم إلا الاضطراب والحيرة، فأكرمهما الله بالتوبة عنه في آخر أعمارهم، أمثال الإمام الحرمين الجويني(2)، والغزالي(3)، والفخر الرازي(4)، وإمامهم أبي الحسن الأشعري الذي سأتحدّث عن مذهبه في الفقرة التالية.

---

(١) انظر أدب الطلب: الشوكاني (ص ١٤٦، ١٤٧).

(٢) هو عبد الملك بن يوسف بن محمد الجويني إمام الحرمين، أبو المعالي، أحد الأعلام البارزين في مذهب الأشاعرة، ترجم له ابن عساكر في عداد رجال الطبقة الرابعة من الأشاعرة (انظر تبيين كذب المفترى ص ٢٧٨)، له مؤلفات كثيرة منها: الإرشاد، والشامل، كلاهما في أصول الدين. توفي (٤٧٨هـ). قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا إمام الحرمين ترك ما كان ينتحله ويقرره، واختار مذهب السلف، وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو أني عرفت أنّ الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه. والآن إن لم يتداركني ربّي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أمّي – أو قال: عقيدة عجائز نيسابور. (نقض المنطق: ابن تيمية ص ٦١ تصحيح/محمد حامد الفقي)

(٣) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، فيلسوف متصوّف، له مصنّفات كثيرة أشهرها: إحياء علوم الدين، والمنقذ من الضلال. توفّي (٥٠٥هـ) وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم. قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا أبو حامد الغزالي مع فرط ذكائه وتألّهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوّف ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف والحيرة، ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث. ونقل عن ابن الصلاح قال: أبو حامد كثر القول فيه ومنه. فأمّا هذه الكتب – يعني المخالفة للحقّ – فلا يلتفت إليها، وأمّا الرجل فيسكت عنه، ويفوّض أمره إلى الله. (نقض المنطق ص ٥٥، ٦٠، وانظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤/١١١).

(٤) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي، الإمام المفسّر، عالم في الكلام والفلسفة، له مؤلفات عديدة منها: مفاتيح الغيب في التفسير، وشرح الأسماء الحسنى. توفّي (٦٠٦هـ) وقد رجع إلى مذهب السلف في آخر عمره. ومما قال: لقد تأمّلت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ... ثمّ قال: ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. (نقض المنطق ص ٦٠، ٦١، وانظر: البداية والنهاية: ابن كثير ١٣/٥٥).

وقد ذكر الشوكاني رجوع هؤلاء الأئمة إلى مذهب السلف في كتابه: إرشاد الفحول (ص ١٧٦، ١٧٧)، وكشف الشبهات عن المشتبهات (ص ١٩)، وأشار إليه في التحف في مذاهب السلف (ص ٣) ضمن الرسائل السلفية.

## ٤ ـ الأشاعرة

وهم طائفة من أهل الكلام، ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٣٠ هـ) الإمام المتكلّم المعروف. وكانت له ثلاثة أطوار، أوّلها: انتماؤه إلى المعتزلة، يقول بقولهم، ويأخذ بأصولهم، حتى صار إمامًا لهم. ثانيها: خروجه عليهم، ومعارضته لهم بأساليب متوسّطة بين أساليبهم ومذهب السلف، وقد سلك في هذا الطور طريقة عبد الله بن سعيد بن كلّاب[1]. والطور الثالث: انتقاله إلى مذهب السلف، وتأليفه في ذلك كتابه «الإبانة في أصول الديانة» وأمثاله، وقد أراد أن يلقى الله على ذلك[2].

وبناء على هذا فإنّ اللقب (الأشاعرة) ينصرف عند الإطلاق إلى أولئك الذين اتّبعوه في فترة انتسابه إلى ابن كلّاب، أمّا قبل ذلك فهو معتزليّ، وبعد توبته من عقيدة الاعتزال وملازمته لابن كلّاب فترة من الزمن رجع في آخر أيّامه إلى مذهب السلف، فالمنتسبون إلى الأشعرية الآن هم أصحاب الطور الثاني[3].

وهم في الجملة لا يثبتون من صفات الباري عزّ وجلّ إلّا سبعًا، لأنّ العقل دلّ على إثباتها، ويؤوّلون بقية الصفات بتأويلات عقلية كما سيأتي بيانه. ولو اتّبعوا الحقّ وأنصفوا لرجعوا إلى منهج السلف أهل السنة كما رجع إليه من ينتسبون إليه.

ومذهب الأشاعرة ينتشر في اليمن مع المذهب الشافعي في الفروع جنبًا إلى جنب، فالأشاعرة غالبًا ما يكونون شافعية المذهب، ويسود المذهب الأشعري في المناطق الساحلية باليمن، وفي منطقة الجنوب[4].

ويوجد صراع واختلاف بين الأشعرية والزيدية في شرقي اليمن وجنوبه، أدّى ذلك

---

(١) ويقال: عبد الله بن محمد بن كلّاب أبو محمد القطّان، من أهل بصرة. قال السكسكي: وكان نصرانيًا فأسلم وفارق قومه، وكان يقول هو وفرقته إنّه ليس لله كلام مسموع، وإنّ الذي أنزل على الأنبياء حكاية كلام الله، ليس فيه أمر ولا نهي، ولا خبر ولا استخبار، وإنّه ليس له كلمات، ولا في القرآن سور ولا آيات، ولا لغة من اللغات، بل هو شيء واحد يعبّر به عن ذلك. اهـ. توفّي (٢٤٥هـ) له كتاب الصفات، وخلق الأفعال، والرد على المعتزلة. (انظر البرهان: السكسكي ص ٣٦، ٣٧، وانظر الفهرست: ابن النديم ص ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) انظر تعليق محبّ الدين الخطيب على المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي (ص ٤٤) ط/ الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية بالرياض ١٤٠٩هـ، ومقدمة الدكتور عبد الله شاكر الجنيدي لكتاب: رسالة إلى أهل الثغر. لأبي الحسن الأشعري (ص ٦٣ـ٦٧) ط/ مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٩هـ، وانظر الإبانة في أصول الديانة. تحقيق/ د. فوقية حسين محمود حيث أشارت إلى أطواره الثلاثة في دراستها له، وذكرت أنّ الأوّل: من ولادته إلى سنّ العاشرة، والثاني: من سنّ العاشرة حتى تحوّله من الاعتزال وأخذه بعقائد السلف، والثالث: من وقت هذا التحوّل إلى وفاته. (ص ٢٨ ـ ٣٦).

(٣) انظر البرهان للسكسكي (ص ٣٧، ٣٨). (٤) انظر تاريخ اليمن الثقافي: أحمد حسين شرف الدين (ص ٩٤).

الى المصادمات الدموية ، وتحكم السيف في بعض الأوقات، والى الفرقة والانفصال، ولا يزال ذلك مصدر قلق بين الشمال والجنوب .(١)

ويظهر لي من خلال دراسة مؤلفات الشوكاني أنه خالف الأشعرية كما خالف الفرق الأخرى، غير أنه تأثر تأثرا قليلا من الأشعرية ،خاصة في كتابه : فتح القدير. في تأويل بعض الصفات، مع أنه اشتد الانكار عليهم في ذلك في كتابه : التحف في مذاهب السلف،وغيره. كما سيأتي بيانه .

٥ ـ الصوفية

وهي فرقة دينية أخلاقية فلسفية ،تقوم على الزهد في الدنيا والانصراف الى الروح ، وتعتمد على التأمل،والتعبد ،والتقشف،وما الى ذلك من المجاهدات والرياضات الروحية مما لم يستند الى دليل شرعي صحيح ، وذلك للوصول الى الغاية المنشودة ،وهي التجرد من الدنيا وما فيها، والاتصال بالذات الالهية والفناء فيها (٢)حسب زعمهم .

واختلفت آراء العلماء في دلالة كلمة ( الصوفية ،أو التصوف ) وفي سبب تسميتهم بها، لا يتسع هذا المقام لذكرها .(٣)

وللصوفية بدع كثيرة ابتدعوها في هذا الدين،لا زالت آثارها تغشى الأمة الاسلامية في كثير من بلدان المسلمين . وقد بينت هذه البدع وكلام الشوكاني عليها عند الحديث عن بدع الصوفية ، فلا حاجة لذكرها هنا .(٤)

وقد انتشرت الصوفية في اليمن بشكل محدود في الجزء الذي تقطنه الشافعية (٥)، وأغلبهم قبوريون، وللشوكاني ـ رحمه الله ـ جولة طويلة معهم ، خاصة في كتبه الثلاثة : شرح الصدور في تحريم رفع القبور، والدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد ، وقطر الولي على حديث الولي،أو ولاية الله والطريق اليها، بالاضافة الى رسالته المخطوطة : العوارم

---

(١) انظر تاريخ اليمن الثقافي،أحمد حسين شرف الدين(ص ٩٧)،وانظر أيضا غاية الأماني في أخبار القطر اليماني،يحيى بن الحسين (١/٢٣٢ـ٢٣٧) تحقيق د/سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة ١٩٦٨م .

(٢) انظر، أضواء على التصوف ، د/طلعت غنام (ص ٢٨) ط/عالم الكتب القاهرة .

(٣) انظر على سبيل المثال،التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي(ص ٢٨ـ٣٥) تحقيق/محمود أمين النواوي،ط/مكتبة الكليات الأزهرية ،والرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/٥٥٠ـ٥٥٧)تحقيق د/عبد الحليم محمود ،ومحمود بن شريف،ط/دار الكتب الحديثة ، وتلبيس ابليس لابن الجوزي(ص ١٦١ـ١٦٣)ط/دار الكتب العلمية ،ومجموع فتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية (٦/١١،٧) .

(٤) انظر صفحة( ٤٢٣ ـ ٤٣٨ )

(٥) انظر: تاريخ اليمن الثقافي: أحمد حسين شرف الدين (ص ١٢٠) .

الحدّاد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد .

فقد نقد الشوكاني ـ رحمه الله ـ في هذه الكتب سلوك الصوفية والقبوريين ومقاصدهم المنحرفة ، وما ابتدعوه في الدين من البدع المنكرة ، وبيّن المفاسد التي تترتّب عليها .

قال في صدد الكلام من اعتقادهم في الأموات : (( ..... ومن أنكر حمول النداء للأموات والاستغاثة بهم استقلالا فليخبرنا ما معنى ما نسمعه في الأقطار اليمنية من قولهم : يا ابن العجيل ، يا زيلعي ، يا ابن علوان ، يا فلان يا فلان ! وهل ينكر هذا منكر ، أو يشك فيه شاك ؟ وما عدا ديار اليمن فالأمر فيها أطمّ وأعمّ ، ففي كلّ قرية ميّت يعتقده أهلها وينادونه ، وفي كلّ مدينة جماعة منهم ، حتى إنّهم في حرم الله ينادون يا ابن عباس ، يا محجوب ، فما ظنّك بغير ذلك ، فلقد تلطف إبليس وجنوده أخزاهم الله تعالى لغالب أهل الملّة الاسلامية بلطيفة تزلزل الأقدام عن الاسلام ، فإنّا لله وإنّا اليه راجعون . ))(١)

وبالجملة فإنّ هذه الفرق المختلفة التي عاصرها الشوكاني ، وما وقع فيهم من الفساد والشرور والبدع والشركيات لها أثرها البعيد في ظهور الشوكاني وقيامه بالاصلاح ، فما كانت آراءه العلمية إلا دواء لأدواء عصره ، ولو بحثنا عن الأسباب والبواعث التي بعثته للمجاهرة بكلّ قول قاله لوجدنا الذي بعثه على المجاهرة فساد أهل عصره ، إمّا في السلوك ، وإمّا في العقائد ، كما أنّ لها أثرا سيّئا على الأحوال الاجتماعية والحياة العامّة ، بما حملته من الفرقة والانقسام ، والفتن والمنازعات بين القبائل ، وبما صاحبها من افشاء الجهل في الدين بين الناس .

وقد وصف الشوكاني ما وصل اليه أهل عصره من الجهل في أمور الدين ، والاهمال لما أوجبه الله عليهم من الفرائض ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصفا دقيقا ، فقد قسّمهم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل : رعايا يأتمرون بأمر الدولة وينتهون بنهيها .

وصفهم الشوكاني بأنّ أكثرهم ، بل كلّهم إلا النادر الشاذ لا يحسنون الصلاة ، ولا يعرفون ما لا تصلح إلا به ولا تتمّ بدونه من أذكارها وأركانها وشراطها وفرائضها ، بل لا يوجد منهم من يتلو سورة الفاتحة تلاوة مجزئة إلا في أندر الأحوال ، ومع هذا فالاخلال

---

(١) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني (ص٣٧) مكتبة الصحابة الاسلامية .

بهما والتساهل فيها قدماً رداً بهم وديدنهم . ثمّ يتلوها الصيام ، وغالب الرعايا لايصومون، وان صاموا ففي النادر من الأوقات وفي بعض الأحوال، فربّما لا يكمل شهر رمضان صوماً الّا القليل . وكثيراً ما يأتي هؤلاء الرعايا بألفاظ كفرية ، فيقول: هو يهوديّ ليفعلنّ كذا، وليفعل كذا، ومرتدّة تارةً بالقول وتارةً بالفعل وهو لا يشعر. وكثير منهم يستغيث بغير الله تعالى،من نبيّ،أو رجل من الأموات،أو صحابيّ،أو نحو ذلك .(١)

القسم الثاني: وهم أهل البلاد الخارجة عن أوامر الدولة ونواهيها .

وقد وصفهم الشوكاني بأنّهم أشدّ وأفظع من القسم الأوّل، فانّهم جميعاً لا يحسنون الصلاة ولا القراءة ، ومن يقرأ فيهم فقراءته غير صحيحة ،ولسان غير صالح ، وبالجملة فالفرائض الشرعية بأسرها من غير فرق بين أركان الاسلام الخمسة وغيرها مهجورة عندهم متروكة ، بل كلمة الشهادة التي هي مفتاح الاسلام لاينطق بها الناطق منهم الّا على عوض، ومع هذه ففيهم من المصائب العظيمة والقبائح الوخيمة والبلايا الجسيمة أمور غير موجودة في القسم الأوّل، منها :

١ـ انّهم يحكمون ويتحاكمون الى من لايعرف الّا الأحكام الطاغوتية منهم في جميع الأمور التي تنوبهم وتعرض لهم ،من غير انكار ولا حياء من الله ولا من عباده .

٢ـ غالبهم يستحلّ دماء المسلمين وأموالهم ولا يحترمها،ولا يتورّع عن شيئ منها .

٣ـ فيهم من آثار الجاهلية الجهلاء أشياء كثيرة يعرفها من تتبّعها، فمن ذلك اقسامهم بالأوثان التي كانت الجاهلية تعبدها .(٢)

أمّا القسم الثالث: فهم الساكنون في المدن،كأهل صنعاء وذمار .

وقد وصفهم الشوكاني بأنّهم وان كانوا أبعد الناس من الشر وأقربهم الى الخير لكنّ غالبهم وجمهورهم عامّة جهّال يهملون كثيراً مما أوجبه الله عليهم من الفرائض جهلاً وتساهلاً، فمن ذلك أنّهم يصلّون غالب الصلوات في غير أوقاتها، ويأتون بصلاة العشائين إمّا جمعاً في وقت الأولى أو في وقت الأخرى، ومع هذا فهم لا يحسنون أركان الصلاة ولا أذكارها الّا الشاذ النادر منهم ، ويتعاملون في بيعهم وشرائهم معاملات يخالفون فيها المسلك الشرعي، ويتكلّمون بالألفاظ الكفرية ، وينهمك كثير منهم في معاصي صغيرة وكبيرة ، وهم أقرب الناس الى الخير،وأسرعهم قبولاً للتعليم ،اذا وجدوا من

---

(١) الدواء العاجل في دفع العدوّ الصائل : الشوكاني (ص ٢٩،٣٠) ضمن الرسائل السلفية
(٢) انظر المصدر السابق (ص ٣٣،٣٤) .

يعزم عليهم هزيمة مستمرّة دائمة غير منقوضة في أقرب وقت كما يقع في ذلك كثيرا .(١)

وتحدّث الشوكاني عن واقع أهل عصره في إهمالهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال :

(( ومع هذه البلايا التي تصدر منهم ، والرزايا التي هم مصرّون عليها ، لا يجدون من ينها هم عن منكر ، ولا يأمرهم بمعروف ، وقد صار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ولاية منحصرا في ثلاثة أشخاص : عامل ، وكاتب ، وحاكم . ))

وتحدّث عن حالة كلّ واحد منهم وما هم عليه من ضلال فقال :

(( فأمّا العامل فلا عمل له إلّا في استخراج الأموال من أيدي الرعايا من حلّها ومن غير حلّها ، وبالحقّ وبالباطل ، وقد استعان على ذلك بعلماء السوء ... ولم يسمع على تطاول الأيّام وتعاقب السنين أنّ فردا من أفراد العمّال أمر الرعايا بما أوجب الله من الفرائض التي لا فسحة فيها ، كالصلاة والصيام ، أو نهاهم عن شيء من المنكرات التي يرتكبونها ، بل قد جرت عادة كثير من العمّال أن يأخذ في مقابل الصلاة(٢) شيئا من السحت وهكذا في الأشياء التي هي منكرات مجمع على تحريمها ، كالزنا ، والسرقة ، وشرب المسكرات ، إذا وقع بعض الرعية في شيء كان له العقوبة من العامل على ذلك أن يأخذ شيئا من مال من فعل ذلك ، بل وقوع الرعايا في هذه المعاصي أحبّ الأشياء إلى العامل ، لأنّه يفتح له ذلك باب أخذ الأموال ، فيتكاثر عنده السحت .

أمّا الكاتب فليس له من الأمر إلّا جمع ديوان يكتب فيه المظالم التي يأخذها العامل من الرعايا ، ولا تحقيق عليهم .

وأمّا ثالث الثلاثة وهو القاضي فهو عبارة عن رجل جاهل للشرع ، إمّا جهلا بسيطا أو جهلا مركّبا ..... لا يعرف حقّا ولا باطلا ، ولا معقولا ولا منقولا ، ولا دليلا ولا مدلولا ، ولا يعقل شيئا من أمور الشرع فضلا عن غيرها من أمور العقل ، ولكنّه اشتاق إلى أن يدعى قاضيا ويشتهر اسمه في الناس ، ويرتفع بين معارفيه وأهله ... فيذهب هذا الجاهل البائس إلى قطر من الأقطار الوسيعة ، فيأتي إليه أهل الخصومات أفواجا ، فيحكم بينهم بحكم الطاغوت ، وهو في الصورة حكم الشرع ... فينتشر عنه في ذلك القطر الواسع من الطواغيت ما تبكي عيون الإسلام ، وتتصاعد عنده زفرات الأعلام .....

وأمّا سائر ما هو موكول إلى قضاة الشرع من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ،

---

(١) انظر الدواء العاجل في دفع العدوّ الصائل ، الشوكاني (ص ٣٧) ضمن الرسائل السلفية .

(٢) لعل الصواب: ترك الصلاة .

والأخذ على يد الظالم، وارشاد الضال، وتعليم الجاهل، والدفع عن الرعية من ظلم من يظلمها،فلا يقدر هذا القاضي الشقي على شيئ من هذه الأمور، سواء أكان حقيراً أم كبيراً، بل غاية أمره ونهاية حاله أن يبقى في ذلك القطر يشاهد المظالم بعينيه، وقد ينفذها بقلمه،ويعين عليها بفمه،فهو في الحقيقة ضال مضل،لا همة ولا مطلب له إلا جمع الحطام من الخصوم تارة بالرشوة،وتارة بالهدية،وتارة بما هو شبيه بالتلصص، ثم يدافع عن المنصب الذي هو فيه ببعض من هذا السحت الذي يجمعه، ويتوسع في دنياه بالبعض الآخر.))(1)

وهكذا وصف الشوكاني لنا سوء حالة أهل عصره في المجتمع اليمني، وقد اعتبرها من أعظم الأسباب الموجبة لنزول البلايا عليهم،من تسليط الأعداء،وسفك الدماء،ومن ضيق المعاش،وتقطع كثير من أسباب الرزق،وعقر المكاسب حتى ضعفت أموال الناس وتجاراتهم ومكاسبهم. فاعتبروا يا أولي الأبصار،إن في هذا لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.(2)

المبحث الثالث: الحالة العلمية

خالفت الحالة العلمية كلاً من الحالة السياسية والحالة الدينية والاجتماعية، فعلى الرغم من أن عصر الشوكاني حافل بصراعات،وسادفيه الجمود والتقليد والجهل في عوام الناس،إلا أن اليمن كانت منتعشة في حركة التأليف، وكان المسجد بصفته المدرسة الأولى للقضاة والعلماء والأدباء مجالاً حيوياً ومؤثراً في المناظرات الفقهية والاجتهادية ، بل الأدبية واللغوية،وسائر شعب المعارف الانسانية ، ومن ثم فقد نبغ علماء وأدباء كبار في اليمن في حقبة تدنى فيها الفكر العربي الاسلامي، ولم يكن الامام الكبير الشوكاني إلا أحد هؤلاء العلماء النابغين من المتأخرين في هذه الفترة.(3)

ولعل من العوامل التي دفعت الى النشاط في حركة الكتابة والتأليف في هذه الفترة وجود الخصومات بين أصحاب المذاهب المختلفة من ناحية ، وبين المتعصبين للمذاهب والمنصفين المتحررين من ناحية أخرى، كما أن طبيعة المذهب الزيدي الذي يشترط توافر الاجتهاد في الأئمة والحكام كان عاملاً هاماً في استمرارية الفكري في فنون مختلفة ، ويعد الشوكاني ومن سبقه من المصلحين اليمنيين داخل اليمن أمثلة حية

---

(1) الدواء العاجل في دفع العدو الصائل: الشوكاني(ص ٣٠-٣٣)ضمن الرسائل السلفية.
(2) انظر المصدر السابق (ص ٢٧،٢٨،٣٥،٣٦) .
(3) انظر مائة عام من تاريخ اليمن الحديث:د/حسين عبدالله العمري(ص ١٦) .

لتواصل حركة الانتاج الفكري والعلمي .[١]

كما يعدّ كتاب الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. الذي انتهى من تأليفه سنة (١٢١٣هـ)[٢] موسوعة علمية أرّخت للمفكّرين والعلماء والأدباء وغيرهم منذ القرن الثامن وحتى عصر الشوكاني .

وقد بيّن - رحمه الله - دوافع تأليفه لهذا الكتاب فقال :

(( حداني ذلك ( القول بتوقّف الاجتهاد ) الى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم ممّا بلغني خبره الى عصرنا هذا، ليعلم صاحب تلك المقالة أنّ الله - وله المنة - قد تفضّل على الخلف كما تفضّل على السلف، بل ربّما كان في أهل العصور المتأخّرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقلّ نظيره من أهل العصور المتقدّمة، كما سيقف على ذلك من أمعن النظر في هذا الكتاب وحلّ من عنقه عرى التقليد ... ))[٣]

ومن العلماء الذين ساهموا في التصنيف والتأليف في عصر الشوكاني على سبيل المثال لا على سبيل الحصر في اليمن :

١) عبد القادر بن أحمد الكوكباني (١١٣٥ - ١٢٠٧هـ) من أحد شيوخ الشوكاني، له : شرح (نزهة الطرف في الجار والمجرور والظرف) للعلامة صلاح الدين الأخفش، وله : (فلك القاموس)، وله : حواش على (ضوء النهار)[٤].

٢) ابراهيم بن محمد اسماعيل بن صلاح الأمير (١١٤١ - ١٢١٣هـ) له: الفلك المشحون شرح أسماء من يقول للشيء كن فيكون، وشرح للأربعين الجوهرية، وله تفسير غريب الأسلوب سمّاه : مفاتيح الرضوان في تفسير القرآن بالقرآن .[٥]

٣) ولده علي بن ابراهيم بن محمد (١١٧٥ - ١٢١٩هـ) له مصنّفات منها: السرّ المصون في نكتة الاظهار والاضمار في أكثر الناس وأكثرهم لا يعلمون، ورسالة في تحريم تحلية السلاح بالذهب، وتأنيس أرباب الصفا في مولد المصطفى، وكتاب النفحات الربّانية والمحات الرحمانية في احراز خاتمة الصلات بابراز ضمائر الصلوات، والفتح الالهي بتنبيه اللاهي.[٦]

---

(١) انظر: الامام الشوكاني حياته وفكره، د/ عبد الغني قاسم الشرجي (ص ١٢٩) .

(٢) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٣٧٥/٢). (٣) المصدر السابق (٣/١) .

(٤) المصدر السابق (٣٦٠/١، ٣٦٦) . (٥) المصدر السابق (٤٢٣/١).

(٦) المصدر السابق (٤٢٠/١) .

٤) الحسن بن أحمد بن الحسين السياغي ثم الصنعاني (١١٨٠ ـ ١٢٢١هـ) له: شرح مجموع الامام زيد بن علي.[(١)]

٥) ابراهيم بن عبدالله بن اسماعيل الحوثي ثم الصنعاني (١١٨٧ ـ ١٢٢٣هـ) له: تراجم علماء القرن الثاني عشر.[(٢)]

٦) لطف الله بن أحمد بن لطف الله بن أحمد جحاف (١١٨٩ ـ ١٢٤٣هـ) من أحد تلامذة الشوكاني، ألف مؤلفات كثيرة، ومن أجلها: كتاب المرتقى، شرح به المنتقى لابن تيمية، وديباج كسرى فيمن تيسر من الأدب لليسرى، ودرر نحور الحور العين في سيرة المنصور علي وأعلام دولته الميامين، والعباب بتراجم الأصحاب، وقرة العين بالرحلة الى الحرمين، وفنون الجنون في جنون الفنون، وغير ذلك.[(٣)]

٧) الحسين بن يحيى بن ابراهيم الديلمي الذماري (١١٤٩ ـ ١٢٤٩هـ) له: العروة الوثقى في أدلة مذهب ذوي القربى، وله: الاقناع في الرد على من أحل السماع، ومنظومة في الأسماء الحسنى، ونظم نخبة الفكر لابن حجر وشرحها، ونظم المعيار في الأصول، في نحو ثنتي عشر مائة بيت على نحو نظم الشاطبية.[(٤)]

٨) محمد بن علي بن حسين العمراني (١١٩٤ ـ ١٢٦٤هـ) أحد تلامذة الشوكاني، له كتاب التاريخ، ترجم فيه أهل عصره، ومجالة ذوي الحاجة حاشية على سنن ابن ماجة، والتعريف بما في التهذيب من قوي وضعيف في رجال الحديث.[(٥)]

وعلى الرغم من وجود ازدهار فكري والأدبي في عصر الشوكاني فان البيئة العلمية في صنعاء قد غلبت عليها التقليد والتعصب، وكان أهلها يعارض العلماء المنصفين المؤثرين لنصوص الأدلة على أقوال الرجال، وهذا ـ كما قال الشوكاني ـ: (( شأن هذه الديار وأهلها، والعالم المنصف في غربة لا يزال يكابد شدائد، ويجاهد واحدا بعد واحد.))[(٦)]

ومن ناحية أخرى كان أهل العلم ـ كما وصفهم الشوكاني ـ (( يخافون على أنفسهم، ويحمون أعراضهم، فيكتمون عن العامة، وكثيرا منهم كان يصوّبهم مداراة لهم، وهذه الدسيسة هي الموجبة لافطهاد علماء اليمن، وتسلط العامة عليهم، وخمول ذكرهم، وسقوط مراتبهم، لأنهم يكتمون الحق، فاذا تكلم به واحد منهم وثارت عليه العامة صانعوهم

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢١٤/١). (٢) المصدر السابق (١٩/١).
(٣) المصدر السابق (٦٠/٢ ـ ٧١). (٤) المصدر السابق (٢٣٦/١).
(٥) المصدر السابق (٢١٠/٢) وأيضا الأعلام: الزركلي (٢٩٨/٦).
(٦) البدر الطالع: الشوكاني (٣٩٥/١) وانظر أيضا (١٩٣/١).

ودا هنوهم وأوهموهم أنّهم على الصواب، فيتجرأون بهذه الذريعة على وضع مقاديرالعلماء وهضم شأنهم.))(١)

هذا بالاضافة الى ما جبل عليه أهل عصره من غمط محاسن بعضهم لبعض،ودفن مناقب أفاظلهم (٢). وفي هذا وصفهم الشوكاني ـ عند ترجمته لصالح بن أبي الرجال (١٠٢٩ ـ ١٠٩٢هـ) صاحب كتاب مطلع البدور ومجمع البحور ـ فقال :

(( إنّ الزيدية مع كثرة فضلائهم ووجود أعيان منهم في كلّ مكرمة على تعاقب الأعصار، لهم عناية كاملة ورغبة وافرة في دفن محاسن أكابرهم وطمس آثار مفاخرهم ، فلا يرفعون الى ما يصدر من أعيانهم من نظم ، أو نثر ، أو تصنيف رأسا، وهذا مع توفّر رغباتهم الى الاطلاع على ما يصدر من غيرهم ، والاشتغال الكامل بمعرفة أحوال سائر الطوائف، والاكباب على كتبهم التاريخية وغيرها . واني لأكثر التعجّب من اختصاصهم بهذه الخطلة التي كانت سببا لدفن سابقهم ولاحقهم ، وغمط رفيع قدر علمائهم ،وفاظلهم ،وشاعرهم ،وسائر أكابرهم ، ولهذا أهملهم المصنّفون في التاريخ على العموم.))(٣)

قلت : ولعلّ هذا سبب من أسباب ضياع كثير من مخطوطات علماء اليمن، فانّ اهمال أهلها لهذا التراث حتى صار في وقت من الأوقات نهبا للمغامرين وغنيمة باردة لتجّار الآثار وعشّاق الحضارات .(٤) له أثر بالغ لضياع كثير من هذا التراث الثمين الذي لا يعتبر جزءاً من تراث الاسلام فحسب ولكن من تراث الانسانية جمعاء .(٥)

---

(١) البدر الطالع، الشوكاني (٢٣٤/١). (٢) المصدر السابق (٦١/٢) .

(٣) المصدر السابق (٥٩/١، ٦٠) .

(٤) انظر تاريخ اليمن الثقافي، أحمد حسين شرف الدين (ص ٣٩) .

(٥) وقد قدّر صاحب كتاب الامام الشوكاني حياته وفكره (ص ٢٢٩) عدد الأبحاث والرسائل المفقودة للامام الشوكاني وحده فبلغت ما لا يقلّ عن سبعين بحثا ورسالة .

# الفصل الثانى
## حياته الشخصيّة

ويشتمل على المباحث الآتية

المبحث الأول : اسمه ونسبه

المبحث الثانى : مولده ونشأته

المبحث الثالث : أعماله

المبحث الرابع : وفاته

## الفصل الثاني: حياته الشخصية (+)

### المبحث الأول: اسمه ونسبه

ذكر الشوكاني اسمه في ترجمته لنفسه فقال: (( محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني. ))(١) وذكر نسبه عند ترجمته لوالده حيث رفعه إلى أبي البشر آدم عليه السلام، فبدأه بـ ( علي بن محمد بن عبد الله ) ثم انتهى بالسلسلة إلى زيد ابن كهلان، بن سبأ بن يشجب، بن يعرب، بن قحطان، بن هود، بن عابر، بن سالخ، بن ارفخشد، بن سام، بن نوح، بن لمك، بن متوشلخ، بن أخنوخ، بن لود، بن مهائيل، بن قينان، بن أنوش، بن شيث، بن آدم وحوى سلام الله عليهما. ثم قال: (( وذكر المسعودي(٢) بعد ذلك أن أنساب اليمن تنتهي الى حمير وكهلان ابني سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وأن قحطان هو ابن عابر. قال: هذا هو المتفق عليه عند أهل الخبرة. ))(٣)

---

(+) من مصادر ومراجع ترجمته :

١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/٢٠٤ ـ ٢٢٥) .
٢) أبجد العلوم: صديق حسن خان (٣/٢٠١ ـ ٢١١) ط/دار الكتب العلمية.
٣) التاج المكلل: صديق حسن خان (٤٤٣ ـ ٤٥٨) تحقيق/عبد الحكيم شرف الدين المطبعة الهندية العربية عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م .
٤) نيل الوطر: محمد زبارة (٢٩٧/٢،٣/١، ٢٩٨) ط/١٣٥٠هـ السلفية .
٥) الأعلام: الزركلي (٦/٢٩٨).
٦) معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة ( ١١/٥٣) ط/ دار احياء التراث العربي .
٧) زعماء الاصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين(٢٣، ٢٤)ط ١٩٧١/٣م، مكتبة النهضة المصرية.
٨) المجددون في الاسلام: عبد المتعال الصعيدي(٤٧٢).
٩) فهرس الفهارس: الكتاني(٢/٤٠٨) ط/دار الغرب الاسلامي .
١٠) تاريخ اليمن الثقافي: أحمد حسين شرف الدين(٢٧٥، ٢٧٦).
١١) المدارس الاسلامية في اليمن: اسماعيل بن علي الأكوع(٤٦٧)ط١٤٠٦/٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .

وقد عرّف الشوكاني بنفسه وآبائه وموطنه، وعرض الأحداث الهامة التي تتصل بحياته العلمية والعملية، ولذلك أرى من الخير والمناسب أن ألتمس طريقي للتعرف عليه من مؤلفه نفسه. والله الموفق .

(١) البدر الطالع: الشوكاني(٢/٢١٤).
(٢) علي بن الحسين بن علي أبو الحسن المسعودي، من ذرية عبد الله بن مسعود، مؤرخ، رحالة، بحاثة، من أهل بغداد، من تصانيفه: مروج الذهب، وأخبار الزمان. توفي(٣٤٦ هـ) ترجم له الحافظ ابن حجر في لسان الميزان(٤/٢٢٤، ٢٢٥)وقال عنه: (( وكتبه طافحة بأنه كان شيعيا معتزليا ... ))وانظر ترجمته أيضا في تذكرة الحفاظ للذهبي(٣/٨٥٧)، والأعلام للزركلي (٤/٢٧٧) .
(٣) البدر الطالع: الشوكاني (١/٤٧٨، ٤٧٩) .

أمّا لقبه الشوكاني فهو نسبة إلى شوكان، وهي - كما قال عند ترجمته لوالده - :
(( قرية من قرى السحامية إحدى قبائل خولان، بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم. ))[1]
وذكر أنّ النسبة إلى شوكان ليست حقيقية[2] (( لأنّ وطنه ووطن سلفه وقرابته هو مكان: عدني شوكان. بينه وبينها جبل كبير مستطيل يقال له الهجرة، وبعضهم يقول له: هجرة شوكان. فمن هذه الحيثية كان انتساب أهله إلى شوكان، وهذه الهجرة معمورة بأهل الفضل والصلاح والدين من قديم الأزمان، لا يخلو وجودعا لم منهم في كلّ زمن، ولكنّه يكون تارة في بعض البطون، وتارة في بطن أخرى. ))[3]

## المبحث الثاني: مولده ونشأته

ذكر الشوكاني مولده عند ترجمته لنفسه فقال: (( ولد حسبما وجد بخط والده في وسط نهار يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١١٧٣هـ ثلاث وسبعين ومائة وألف بهجرة شوكان، وكان إذ ذاك قد انتقل والده إلى صنعاء واستوطنها، ولكنّه خرج إلى وطنه القديم في أيّام الخريف، فولد له صاحب الترجمة هنالك. ))[4]

وقد نشأ الشوكاني بصنعاء[5] في بيئة ميسورة الحال، حيث كان أبوه من العلماء الكبار، وكان يشتغل منصب قاضي صنعاء[6]، مما كان له أكبر الأثر في تكوين شخصية الشوكاني العلمية، حيث كفاه أبوه مؤنة طلب الرزق، وكفل له كلّ وسائل الحياة، مما أعانه على أن يتفرّغ لطلب العلم بذهن خال من الهموم. قال عن هذا: (( ولقد بلغ ( والدي ) معي إلى حدّ من البرّ والشفقة والإعانة على طلب العلم والقيام بما أحتاج إليه مبلغاً عظيماً، بحيث لم يكن لي شغلة بغير الطلب، فجزاه الله خيراً، وكافاه بالحسنى. ))[7]

وكان أبوه أيضاً أستاذاً له حيث قرأ عليه في أيام الصغر في شرح الأزهار وشرح الناظري مع غيره من الطلبة.[8]

وقد ابتدأ بقراءة القرآن الكريم على جماعة من المعلّمين، وختمه على الفقيه حسن

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٤٨٠/١)
(٢) أي أنّه نسب على غير قياس، لأنّ النسب إلى المضاف يكون إلى صدره لا إلى عجزه.
(٣) البدر الطالع: الشوكاني (٤٨١/١). (٤) المصدر السابق (٢١٤/٢، ٢١٥).
(٥) انظر المصدر السابق (٢١٥/٢). (٦) انظر المصدر السابق (٤٨٣/١).
(٧) المصدر السابق (٤٨٤/١). (٨) انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

ابن عبدالله الهبل، وجوّده على جماعة من مشايخ القرآن بصنعاء، ثمّ اتّجه إلى المتون لحفظها، فحفظ الأزهار للإمام المهدي في الفقه، ومختصر الفرائض للعصيفري، والملحة للحريري، والكافية والشافية لابن الحاجب، والتهذيب للتفتازاني، والتلخيص في علوم البلاغة للقزويني، والغاية لابن الإمام، وبعض مختصر المنتهى لابن الحاجب في أصول الفقه، ومنظومة الجزري في القراءات، ومنظومة الجزاز في العروض، وآداب البحث والمناظرة للعضد، ورسالة الوضع له أيضاً. وكان حفظه لهذه المختصرات قبل الشروع في الطلب، وبعضها بعد ذلك، ثمّ قبل شروعه في الطلب كان كثير الاشتغال بمطالعة التواريخ ومجاميع الأدب من أيام كونه في المكتب، فطالع كتباً عدّة ومجاميع كثيرة.(١)

من هذا يتبيّن أنّ الشوكاني نشأ وتربّى في بيئة علمية تهيّئه لأن يصبح عالماً نابغاً في العلوم الشرعية، وكان لوالده الأثر الفعّال في توجيهه إلى الاشتغال المستمر بتحصيل العلم.

ثمّ بعد شروعه في طلب العلم يجد بيئة علمية زاخرة بالعلماء والأدباء، فدرس على البارزين منهم مختلف العلوم: الدينية، واللسانية، والعقلية، والرياضية، والفلكية، وظلّ كما يقول في البدر الطالع يأخذ عن شيوخه حتى استوفى كلّ ما عندهم من كتب، بل زاد في قراءاته الخاصّة على ما ليس عندهم.(٢)

فلأولئك المشايخ دور كبير في تنشئته، وفي تكوين شخصيته العلمية.

وعلى سبيل المثال نجد الشوكاني وصف أحد مشايخه وهو: الحسن بن إسماعيل المغربي(٣) (١١٤٠-١٢٠٨هـ) فقال: (( وكان رحمه الله يقبل عليّ إقبالاً زائداً، ويعينني على الطلب بكتبه، وهو من جملة من أرشدني إلى شرح المنتقى(٤) وشرعت في حياته، بل شرحت أكثره، وأتممته بعد موته، وكان كثيراً ما يتحدّث في غيبتي أنّه يخشى عليّ من عوارض العلم الموجبة للاشتغال عنه، فما أصدق حدسه، وأوقع فراسته، فإنّي ابتليت بالقضاء بعد موته بدون سنة.))(٥)

---

(١) البدر الطالع، الشوكاني (٢/٢١٥). (٢) انظر المصدر السابق (٢/٢١٨).

(٣) ستأتي ترجمته عند الحديث عن شيوخ الشوكاني في صفحة ٦١ .

(٤) أي منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار لعبد السلام بن عبد الله (ت٦٥٢هـ) جدّ شيخ الإسلام ابن تيمية، وسمّى الشوكاني هذا الشرح نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، وهو من خير الشروح في أحاديث الأحكام.

(٥) البدر الطالع، الشوكاني (١/١٩٧).

## المبحث الثالث: أعماله

للشوكاني أعمال متعدّدة أهمّها ما يلي :

١ ـ اشتغاله بالتدريس .

اشتغل الشوكاني بالتدريس في وقت مبكّر جدّاً، نظراً لما كان عليه من تفوّق ملحوظ أثناء طلبه للعلم ، فقد كان كثير من التلاميذ يلجأون اليه لكي يدرّس لهم دروساً مختلفة وفنوناً متعدّدة .

ويتحدّث الشوكاني عن نفسه هذا فيقول: (( وقد درس في جميع ما تقدّم ذكره ( من علوم الطلب )، وأخذه منه الطلبة ، وتكرّر أخذهم عنه في كلّ يوم من تلك الكتب، وكثيراً ما كان يقرأ على مشايخه ، فاذا فرغ من كتاب قرأه ، أخذه عنه تلامذته ، بل ربّما اجتمعوا على الأخذ عنه قبل أن يفرغ من قراءة الكتاب على شيخه ، وكان يبلغ دروسه في اليوم والليلة الى نحو ثلاثة عشر درساً، منها ما يأخذه عن مشايخه ، ومنها ما يأخذه عنه تلامذته . ))(١)

وفي موضع آخر يقول عن تدريسه :(( وكنت أدرّس الطلبة في اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درساً، منها ما هو في التفسير، كالكشاف وحواشيه ، ومنها ما هو في الأصول، كالعضد وحواشيه ، والغاية وحاشيتها، وجمع الجوامع وشرحه وحاشيته ، ومنها ما هو في المعاني والبيان، كالمطوّل والمختصر وحواشيهما، ومنها ما هو في النحو ، كشرح الرضي على الكافية ، والمغني، ومنها ما هو في الفقه ، كالبحر، وضوء النهار ، ومنها ما هو في الحديث، كالصحيحين وغيرهما . ))(٢)

كما أنّه قد درّس تلامذته علوماً أخرى لم يجدها عند مشايخه . ويقول عن هذا :

(( وأخذ عنه الطلبة كتباً غير الكتب المتقدّمة مما لا طريق له فيها الّا الاجازة ، وهي كثيرة جدّاً في فنون عدّة ، بل أخذوا عنه في فنون دقيقة لم يقرأ في شيئ منها ، كعلم الحكمة التي منها علم الرياضي، والطبيعي، والالهي، وكعلم الهيئة ، وعلم المناظرة ، وعلم الوضع . ))(٣)

وكان تدريسه في جامع صنعاء، وفي مدرسة الامام شرف الدين .(٤)

---

(١) البدر الطالع، الشوكاني (٢١٨/٢). (٢) المصدر السابق (٤٦٤/١) .
(٣) المصدر السابق(٢١٩/٢) .
(٤) المدارس الاسلامية في اليمن: اسماعيل بن علي الأكوع (ص ٣٦٨) ط/مؤسسة الرسالة .

٢ ـ مباشرته للإفتاء

تصدّر الشوكاني للإفتاء وهو في سنّ مبكّرة أيضا، وكان لفتاويه تأثير واضح جعل الكثير من أهل صنعاء، بل وغيرهم من أهالي المدن المجاورة يستفتونه في مختلف شئون الدين، وكان رافضا للأجر المادي على فتاواه. ومن هذا العمل يقول:

(( وكان في أيّام قراءته على الشيوخ وإقرائه لتلامذته يفتي أهل مدينة صنعاء، بل ومن وفد إليها، بل تردّ إليه الفتاوى من الديار التهامية، وشيوخه إذ ذاك أحياء، وكانت الفتيا تدور عليه من عوام الناس وخواصهم، واستمرّ يفتي من نحو العشرين من عمره فما بعد ذلك، وكان لا يأخذ على الفتيا شيئا تنزّها، فإذا عوتب في ذلك قال: أنا أخذت العلم بلا ثمن، فأريد إنفاقه كذلك. ))[1]

وهذا منهج غريب على الناس وعلى العصر الذي عاش فيه، وهو أن يروا مفتيا لا يتقاضى أجرة.

٣ ـ توليه للقضاء العام

اختير الشوكاني للقضاء وهو في سنّ السادسة والثلاثين[2] فتولّى القضاء العام في مدينة صنعاء، وكان ذلك في عهد الإمام المنصور علي بن المهدي العباس ( ١١٨٩ ـ ١٢٢٤هـ ) واستمرّ في منصبه، ونهض بدور علمي وسياسي ذي أثر مدّة حكمه، وحكم ابنه الإمام المتوكّل على الله أحمد ( ١٢٢٤ ـ ١٢٣١هـ ) وحكم حفيده المهدي عبد الله ( ١٢٣١ ـ ١٢٥١هـ ) حيث توفّي الشوكاني قبله بنحو عام.[3]

وأترك الشوكاني يحكي قصّته في توليه لهذا القضاء. يقول رحمه الله:

(( ولمّا كان في شهر رجب سنة ١٢٠٩هـ مات قاضيها المتقدّم ذكره[4] ... وكنت إذ ذاك مشتغلا بالتدريس في علوم الاجتهاد والإفتاء، والتصنيف، منجمعا عن الناس، لا سيما أهل الأمر وأرباب الدولة، فإنّه لا أتّصل بأحد منهم كائنا من كان، ولم يكن

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/٢١٩).

(٢) ذكر الشوكاني في البدر الطالع (٢/٢٢٤) أنّه دخل في القضاء وهو ما بين الثلاثين والأربعين، وذكر في موضع آخر (١/٤٦٤) أنّ دخوله في القضاء كان في شهر رجب سنة ١٢٠٩هـ أي في السادسة والثلاثين من عمره، لأنّه ولد سنة ١١٧٣ هـ.

(٣) انظر ما نقله من تاريخ اليمن الحديث: د/حسين عبد الله العمري (ص ٦٤).

(٤) أي القاضي يحيى بن صالح السحولي (١١٣٤ـ١٢٠٩هـ) وقد وصفه الشوكاني بأنّه من رجال الدهر حزما وعزما وإقداما وإحجاما ودهاء وتودّدا وخبرة ورياسة وسياسة وجلالة ومهابة وفصاحة ورجاحة وشهامة. ( انظر البدر الطالع ٢/٣٣٥).

لي رغبة سوى العلوم ..... فلم أشعر إلا بطلاب لي من الخليفة[1] بعد موت القاضي المذكور بنحو أسبوع، فعزمت الى مقامه العالي، فذكر لي أنه قد رجح قيامي مقام القاضي المذكور، فاعتذرت له بما كنت فيه من الاشتغال بالعلم، فقال: القيام بالأمرين ممكن، وليس المراد إلا القيام بفصل ما يصل من الخصومات الى ديوانه العالي في يومي اجتماع الحكام فيه، فقلت: سيقع مني الاستخارة لله والاستشارة لأهل الفضل، وما اختاره الله ففيه الخير. فلما فارقته ما زلت مترددا نحو أسبوع، ولكنه قد وفد الي غالب من ينتسب الى العلم في مدينة صنعاء، وأجمعوا على أن الاجابة واجبة، وأنهم يخشون أن يدخل في هذا المنصب الذي اليه مرجع الأحكام الشرعية في جميع الأقطار اليمنية من لا يوثق بدينه وعلمه، وأكثروا من هذا، وأرسلوا الي بالرسائل المطولة، فقبلت مستعينا بالله، ومتكلا عليه، ولم يقع التوقف على مباشرة الخصومات في اليومين فقط، بل انثال الناس من كل محل، ما استغرقت في ذلك جميع الأوقات الا لحظات يسيرة قد أفرغتها للنظر في شيء من كتب العلم، أو لشيء من التحصيل وتتميم ما قد كنت شرعت فيه، واشتغل الذهن شغلة كبيرة، وتكدرا لخاطر تكدرا زائدا، لاسيما وأنا لا أعرف الأمور الاصطلاحية في هذا الشأن، ولم أحضر عند قاض في خصومة ولا في غيرها، بل كنت لا أحضر في مجالس الخصومة عند والدي رحمه الله من أيام الصغر فما بعدها، ولكن شرح الله الصدر، وأعان على القيام بذلك الشأن .))[1]

وقد اعتبر الشوكاني اشتغاله بالقضاء ابتلاء وامتحانا من ربه[2]، كما اعتبره عارضا من عوارض العلم[3]، ولكنه قَبِل هذا المنصب لأنه لو أحجم عنه أهل الدين والعلم والخلق والاجتهاد لأصبح في أيدي الجهلة والظلمة والمقلدين والمتعصبين. قال: (( وقد كثر التتابع من الجهلة في هذا المنصب الشريف، واشتروه بالأموال ممن هو أجهل منهم، حتى عمت البلوى جميع الأقطار اليمنية .))[4] (( فالقاضي القادر على الحكم بالحق والعدل وبما أنزله الله اذا امتنع من الدخول في القضاء فقد أهمل ما أوجبه الله عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك أعظم ما أوجبه الله على عباده، وأهم ما كلفهم به، هذا على تقدير أنه يغني عنه غيره، أما اذا كان لا يغني عنه غيره فأي واجب

---

(١) يعني وصول رسول اليه من قبل امام عصره .

(٢) البدر الطالع: الشوكاني (٤٦٤/١، ٤٦٥) . (٣) انظر المصدر السابق (٣٢٠/١، و٢٢٤/٢)

(٤) انظر المصدر السابق (٢٢٤/٢) . (٥) نيل الأوطار: الشوكاني (١٩٦/١٠) .

أوجب عليه من الدخول، وأيّ تكليف شرعي يعدل هذا التكليف .))(١)

وبناء على هذا قبل الشوكاني هذا المنصب الشريف، لأنّه وجد حاجة المسلمين اليه قائمة ، كما وجد في هذا المنصب فرصة عملية لتطبيق ما يدعو اليه من الاجتهاد ونبذ التقليد والتعصّب والرجوع بالتشريع الى طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين .

وقد سلك في قضائه مسلك العدل وأعطى كلّ ذي حقّه ، وكان ورعا شديدا فلم يقبل هديّة من الناس حتى وان كانت الهدية من أقاربه . وفي هذا يقول:

(( فليحذر الحاكم المتحقّظ لدينه المستعد للوقوف بين يدي ربّه من قبول الهدايا من أهدى اليه بعد تولّيه القضاء ، فانّ للاحسان تأثيرا في طبع الانسان، والقلوب مجبولة على حبّ من أحسن اليها، فربّما مالت نفسه الى المهدي اليه ميلا يؤثر الميل عن الحقّ عند عروض المخاصمة بين المهدي وبين غيره ، والقاضي لا يشعر بذلك، ويظنّ أنّه لم يخرج عن الصواب، بسبب ما قد زرعه الاحسان في قلبه ، والرشوة لا تفعل زيادة على هذا، ومن هذه الحيثية امتنعتُ من قبول الهدايا بعد دخولي في القضاء ممن كان يهدي اليّ قبل الدخول فيه ، بل من الأقارب فضلا عن سائر الناس، فكان في ذلك من المنافع ما لا يتسع المقام لبسطه ، أسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه .))(٢)

هذا أهمّ أعمال الشوكاني التي وقفت عليها، بالاضافة الى جهوده في التصنيف الذي سأتحدّث عنه في مبحث مؤلفاته ، واهتماماته المتعددة في الاصلاح والسياسة التي تتمثل في مرافقته للأئمة في زياراتهم للمناطق اليمنية (٣)، وفي تصميمه للسياسة الاقتصادية (٤)، وفي طرح مشورته الاصلاحية عند حدوث الحوادث والفتن (٥)، وفي القيام بالمراسلات الخارجية كما سبقت الاشارة اليها .

## المبحث الرابع: وفاتـــه

توفّي الشوكاني رحمه الله حاكما بصنعاء في جمادي الآخرة سنة (١٢٥٠هـ) عن ستّ وسبعين سنة وسبعة أشهر ، وقبره بمقبرة خزيمة المشهورة بصنعاء(٦) .

---

(١) السيل الجرار : الشوكاني(٢٦٧/٤) . (٢) نيل الأوطار : الشوكاني (٢٠٣/١٠) .
(٣) انظر البدر الطالع : الشوكاني(٧٨/١، ٧٩) . (٤) انظر أدب الطلب : الشوكاني(ص١٦٢، ١٦٣)
(٥) انظر البدر الطالع : الشوكاني(٤٦٧/١) نوالدواء العاجل : الشوكاني(ص ٣٥، ٣٦) .
(٦) انظر نيل الوطر : محمد زبارة (٢٠٢/٢) ، وهامش البدر الطالع(٢٢٥/٢) .

وحدّد بعض الباحثين أنّه توفي ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة في عام (١٢٥٠هـ) الموافق لسنة (١٨٣٥م)(١) بعد حياة حافلة بالجدّ، والعلم، والجهاد، والدعوة إلى الكتاب والسنة .

وقد أثنى عليه القاضي يحيى بن صالح السحولي في أبيات كتبها إليه قبل موته بنحو سنة، ولم يكن بينهما اتّصال. قال فيها :

يا أنفع الناس في التدريس في البلد ... وبا زلا نفسَه في طاعة الصّمد
ويا جمال أولي التحقيق عن كمل ... على تواضع أهل الفضل والرشد
ومن له القلب يقضي بالمحبّة في ... حبّ المهيمن لا زالت على الأبد
بقيتَ تحيي ربوع العلم مجتهدا ... في نشرها عن أولي التحقيق والسند
ولا شغلت بآفات العلوم ولا ... برحت في اللطف من خلاقنا الأحد (٢)

---

(١) انظر مقدمة نيل الأوطار (١/١١)، ومقدمة الدراري المضيئة شرح الدرر البهية (ص ٣).
(٢) البدر الطالع، الشوكاني (٢/٣٣٧) .

# الفصل الثالث
# حياته العلميّة

ويشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : طلبه العلم

المبحث الثاني : شيوخه وتلاميذه

المبحث الثالث : مؤلّفاته

المبحث الرابع : مذهبه وعقيدته

## الفصل الثالث : حياته العلمية

### المبحث الأول: طلبه العلم

تقدّم أنّ الشوكاني ــ رحمه الله ــ قد ابتدأ بقراءة القرآن وتجويده على مشايخ القراءات بصنعاء اليمن، وكان قبل شروعه في الطلب مشغولا بالاطّلاع على أكثر من كتاب في الأدب والتاريخ، وحفظ أكثر من مختصر في علوم اللغة، والفقه، وأصول الدين.

ثمّ شرع بعد ذلك في طلب العلم، فدرس على والده وعلى كبار علماء اليمن في عصره[١] مختلف العلوم الدينية، واللسانية، والعقلية، والرياضية، والفلكية، وقد أورد الشوكاني أسماء الكتب التي طلب العلم فيها على يد مشايخه بالتفصيل في كتابه: البدر الطالع، وقد أطلق عليها مقروءاته ومسموعاته[٢]. وقد أحصيتها فبلغت سبعا وستّين كتابا في فنون مختلفة.[٣] هذا بالإضافة إلى ما أجازه رواياته بالإجازة وهي كثيرة. قال ــ بعد سرده لمقروءاته ــ:

(( هذا ما أمكن سرده من مسموعات صاحب الترجمة ومقروءاته، وله غير ذلك من المسموعات والمقروءات، وأمّا ما يجوز له روايته بما معه من الإجازات فلا يدخل تحت الحصر، كما يحكي ذلك مجموع أسانيده.)) [٤]

ولعلّه يقصد به كتابه: إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر.[٥] الذي جمع فيه مرويّاته بالإجازة من شيوخه وهي تقارب ثلاثمائة وثلاثة وتسعين مؤلّفا في مختلف العلوم والفنون، مسلسلا لأسانيدها منه حتى يصل بالسند إلى مؤلّفيها. قال في مقدمة الكتاب: (( وقد جمعت في هذا المختصر كلّ ما ثبتت لي روايته بإسناد متصل بمصنّفه، سواء من كتب الأئمة من أهل البيت رضي الله تعالى عنهم، أو من كتب غيرهم من سائر الطوائف الإسلامية رحمهم الله في جميع فنون العلم.))[٦]

وكان الشوكاني ــ رحمه الله ــ لم يقتصر على تلقّي العلم على أستاذ واحد، بل كان

---

(١) سأتحدّث عنهم في بحث مستقلّ. (٢) انظر البدر الطالع: للشوكاني (٢/٢١٥ــ٢١٨).
(٣) انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحات. (٤) المصدر السابق (٢/٢١٨).
(٥) طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر آباد الدكن الواقعة في الهند عام ١٣٢٨هـ.
(٦) إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر: الشوكاني (ص ٣).

يطلب العلم الواحد أو العلمين أو الثلاثة من عدة علماء في وقت واحد، فعلى سبيل المثال: درس النحو والصرف من كلّ من السيد العلامة إسماعيل بن الحسن بن أحمد، والعلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، والعلامة القاسم بن يحيى الخولاني، ودرس الفقه على كلّ من والده، والسيد العلامة عبد الرحمن بن قاسم المداني، والعلامة أحمد بن عامر الحدائي، والعلامة أحمد بن محمد بن الحرازي . وبه انتفع في الفقه، وعليه تخرج، وطالت ملازمته له نحو ثلاث عشرة سنة . (١)

وكان طلبه للعلم في صنعاء نفسها لم يرحل عنها على عادة طلاب العلم لعدم إذن أبويه له في الرحلة، فكان عندا ذنهما (٢). وظل يأخذ عن شيوخه مدّة حتى استوفى كلّ ما عندهم (( بل انفرد بمقروءات بالنسبة إلى كلّ واحد منهم على انفراده إلا شيخه العلامة عبد القادر بن أحمد فإنه مات ولم يكن قد استوفى ما عنده . ))(٣)

وكان الشوكاني ـ رحمه الله ـ في أثناء دراسته يقوم بالتدريس لرفقاء التعلم، فكان يلقي ما يأخذه عن مشايخه إلى تلاميذه الذين اجتمعوا عليه، وهو لا يزال في دور الطلب الأوّل، ولذلك كانت دروسه تبلغ في اليوم والليلة ثلاثة عشر درسا، منها ما يأخذه عن مشايخه، ومنها ما يلقيه على تلاميذه . كما تقدّم بيانه .

وكان لم يكتف باستيفاء ما عند شيوخه من كتب، وإنّما كان يطّلع على كتب أخرى كثيرة بشكل مستقلّ عنهم، فقد تعلّم العلوم الرياضية، والطبيعية، والإلهية، وعلم الهيئة، وعلم المناظرة، وعلم الوضع وحده دون معلّم مباشر، ودرس هذه العلوم أيضا لتلاميذه . (٤)

وفي الجملة فقد درس دراسة واسعة، واطّلع على مختلف العلوم والفنون، وهذا ساعده على الاجتهاد، وعلى هجر التعصّب المذهبي، والتحرر من ربقة التقليد .

## المبحث الثاني: شيوخه وتلاميذه

### شيوخه

لقد نشأ الشوكاني في مدينة صنعاء إحدى العواصم الإسلامية التي كان يوجد بها ـ حينذاك ـ عدد غير قليل من العلماء المتخصّصين في فروع علمية دينية مختلفة: مثل القراءات، والتفسير، والفقه، والأصول، والحديث، والتاريخ، والأدب، وعلوم اللغة العربية

---

(١) انظر البدر الطالع للشوكاني (٢/٢١٥، ٢١٦) . (٢) انظر المصدر السابق (٢/٢١٨) .
(٣) المصدر السابق (٢/٢١٩) . (٤) انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

المختلفة. فكان ينهل من علومهم ما يشقّ به طريق حياته العلمية .

وقد حصرت شيوخ الشوكاني في كتابه «البدر الطالع» فبلغ عددهم سبعة عشر شيخا . وفيما يلي أذكر أسماءهم مع تاريخ ميلادهم ووفاتهم ، ثمّ أترجم لأربعة منهم ممن تأثر بهم الشوكاني :

١) العلامة أحمد بن عامر الحدائي (١١٢٧ـ١١٩٧هـ)(١)

٢) السيد العلامة اسماعيل بن الحسن بن أحمد (١١٢٠ـ١٢٠٦هـ)(٢)

٣) القاضي عبد الرحمن بن الحسن الأكوع (١١٣٥ـ١٢٠٦هـ)(٣)

٤) السيد العلامة عبد القادر بن أحمد الكوكباني ( ١١٣٥ـ١٢٠٧هـ)(٤)

٥) السيد علي بن ابراهيم بن علي بن ابراهيم (١١٤٣ـ١٢٠٧هـ)(٥)

٦) العلامة الحسن بن اسماعيل المغربي (١١٤٠ـ١٢٠٨هـ)(٦)

٧) العلامة القاسم بن يحيى الخولاني (١١٦٢ـ١٢٠٩هـ)(٧)

٨) السيد عبد الله بن الحسن بن علي (١١٦٥ـ١٢١٠هـ)(٨)

٩) والده علي بن محمد الشوكاني (١١٣٠ـ١٢١١هـ)(٩)

١٠) السيد عبد الرحمن قاسم المداني (١١٢١ـ١٢١١هـ)(١٠)

١١) السيد يوسف بن محمد بن علاء الدين المزجاجي (١١٤٠ـ١٢١٣هـ)(١١)

١٢) العلامة أحمد بن محمد بن أحمد بن مطهر القابلي المعروف بالحرازي (١١٥٨ـ١٢٢٧هـ)(١٢)

١٣) العلاّمة عبد الله بن اسماعيل النهمي (١١٥٠ـ١٢٢٨هـ)(١٣)

١٤) السيد الحسين بن يوسف بن الحسين زبارة (١١٥٠ـ١٢٣١هـ)(١٤)

١٥) السيد علي بن هادي عرهب (١١٦٤ـ١٢٣٦هـ)(١٥)

---

(١) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (٦٢/١، ٦٣).
(٢) " " " (١٤٥/١) .
(٣) " " " ( ٣٣٥/١) .
(٤) " " " (٣٦٠/١ ـ ٣٦٨) .
(٥) " " " (٤١٦/١ ـ ٤٢٠) .
(٦) " " " (١٩٥/١ ـ ١٩٧) .
(٧) " " " (٥٣/٢، ٥٤) .
(٨) " " " (٣٨٠/١، ٣٨١) .
(٩) " " " (٤٧٨/١ ـ ٤٨٥) .
(١٠) " " " (٣٣٦/١، ٣٣٧) .
(١١) " " " (٣٥٦/٢، ٣٥٧) .
(١٢) " " " (٩٦/١، ٩٧) .
(١٣) " " " (٣٧٩/١، ٣٨٠) .
(١٤) " " " ( ٢٣٧/١) .
(١٥) " " " (٤٩٩/١، ٥٠٠) .

١٦) الشيخ هادي بن حسين القارني ثم الصنعاني،شيخ القرّاء بصنعاء (١١٦٤ ـ ١٢٣٧ هـ)(١)

١٧) السيديحيى بن محمدالحوثي ثم الصنعاني (١١٦٠ـ١٢٤٧هـ)(٢)

أمّا الذي تأثّر منهاالشوكاني من هؤلاء في تكوين شخصيته العلمية فأبرزه :

١ـ والده علي بن محمد الشوكاني صاحب الفضل الأوّل عليه ـ بعد المولى سبحانه ـ في توجيهه الى طلب العلم ، وتيسيرأسباب الحياة له .

قال الشوكاني في ترجمته له :(( نشأ بهجرة شوكان، فحفظ القرآن،ثم ارتحل الى صنعاء لطلب العلم ،فقرأعلى جماعة من العلماء ..... وبرع في علم الفقه والفرائض، فحقّق الأزهار وشرحه لابن مفتاح وحواشيه ، وبيان ابن مظفر،والبحر الزخار ،ومختصر الفرائض للعصيفري،وشرحه للناظري،وشرح الخالدي،وعلم الضرب والمساحة ، وقرأفي كتب الحديث،والتفسير ،وفي النحو والأصول ..... ودرس وأفتى في صنعاء في أوآخرأيام طلبه ، وولّاه الامام المهدي العباس بن الحسين القضاء بالجهات الخولانية ، ثمّ اعتذر عنه ، فولّاه القضاء بصنعاء المحروسة ، واستقرّبها هووأهله ، وما ترك الطلب في أيّام توليته للقضاء، ولا رغب عن التدريس للطلبة ،بل كان يقرئ في مسجد صلاح الدين،وفي مسجد الابزرفي الفقه ، وفي الجامع الكبيرفي الفرائض في شهررمضان ..... ووصفه الشوكاني بأنّه على نمط السلف الصالح في جميع أحواله ... ومن عرفه حقّ المعرفة تيقّن أنه من أولياء الله ، ولقدبلغ معي الى حدّ من البرّوالشفقة والاعانة على طلب العلم والقيام بما أحتاج اليه مبلغا عظيما، بحيث لم يكن لي شغلة بغير الطلب . فجزاه الله خيرا وكافاه بالحسنى، وهوزاهد من الدنيا ليس له نهمة في جمع ولا كسب،بل غاية مقصوده منها ما يقوم بكفاية أرحامه ، فانّه استمرّفي القضاء أربعين سنة وهولا يملك بيتا يسكنه فضلا عن غيرذلك، بل باع بعض ما تلقّاه ميراثا من أبيه من أموال يسيرة في وطنه ،ولم يترك عندموته الا أشياء لا مقدارلها .))

قال الشوكاني:(( وقرأت عليه ـ رحمه الله ـ في أيّام الصغرفي شرح الأزهار ،وشرح الناظري مع غيري من الطلبة ، وهوفي آخرأيّامه قرأعليّ في صحيح البخاري،ولم يزل مستمرّا على حاله الجميل معرضا عن القال والقيل ماشيا على أهدى سبيل حتى توفّاه الله

---

(١) انظرترجمته في البدرالطالع: الشوكاني (٣١٩/٢ ، ٣٢٠).

(٢) " " " (٣٤٤/٢ ـ ٣٤٨) .

وقدأخطأ صاحب:الامام الشوكاني حياته وفكره (ص ١٧٢) حينما عدّ :أحمدبن أحمدبن مطهرالقابلي(١١٥٨ـ١٢٢٧هـ) شيخا آخرللشوكاني مكرّرا لأحمدبن محمدالقابلي ====

تعالى بصنعاء في ٤ شهر ذي القعدة سنة ١٢١١هـ .))[1]

٢- العلامة عبد القادر بن أحمد الكوكباني[2]، عالم، فقيه، محدّث، مجتهد، له كتب كثيرة . وكان من أبرز علماء اليمن في ذلك الوقت، تلمذ في صنعاء، وكوكبان، وذمار، وزبيد، ومكة والمدينة ، وكان أحد تلاميذ العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني[3]. وقد تحدّث عنه الشوكاني، فقال:

(( وأقرّ له بالتفرّد في جميع أنواع العلم كلّ أحد ، بعد موت شيخها السيد العلامة محمد بن إسماعيل بن الأمير، وأني أذكر أنا في المكتب مع الصبيان أنّي سألت والدي رحمه الله عن أعلم من بالديار اليمنية إذ ذاك، فقال: فلان، يعني صاحب الترجمة[4]. وكان رحمه الله متبحّراً في جميع المعارف العلمية على اختلاف أنواعها، يعرف كلّ فنّ منها معرفة يظنّ من باحثه فيه أنّه لا يحسن سواه ، والحاصل أنّه من عجائب الزمن ومحاسن اليمن، يرجع إليه أهل كلّ فنّ في فنّهم الذي لا يحسنون سواه فيفيدهم[5]، وبالجملة فلم تَرَ عَيْنِي مثله في كمالاته، ولم آخذ عن أحد ما ويه في مجموع علومه، ولم يكن بالديار اليمنية في آخر مدّته له نظير .))[6]

وتحدّث عمّا تلقّى منه من الدروس فقال:

(( وأخذت عنه في علوم عدّة، فقرأت عليه في صحيح مسلم من أوّله إلى آخره بلا فوت مع بعض شرحه للنووي، وبعض صحيح البخاري مع بعض من شرحه فتح الباري، وبعض جامع الأصول لابن الأثير، وسنن الترمذي من أوّلها إلى آخرها بلا فوت، وبعض سنن ابن ماجة ، وبعض الموطأ، وبعض المنتقى لابن تيمية، وبعض شفاء القاضي عياض ... وقرأت عليه في علم الاصطلاح بعض منظومة الزين العراقي، وشرحها، وفي الفقه بعض ضوء النهار، وبعض البحر الزخار، مع حواشيهما، وفي علم أصول الدين بعض المواقف العضدية، وشرحها للشريف، وبعض القلائد وشرحها، وفي أصول الفقه بعض جمع الجوامع وشرحه للمحلي، وفي اللغة بعض الصحاح، وبعض القاموس، ومؤلّفه الذي سمّاه: فلك القاموس، وفي العروض الجزازية وشرحها جميعاً .))[7]

---

==== المعروف بالحرازي، والصحيح أنّهما شخص واحد، واسمه الصحيح هو كما أثبته في رقم ١٢

(١) البدر الطالع، الشوكاني (٤٨٣/١، ٤٨٤). (٢) تقدّم ذكر مؤلّفاته قبل قليل (ص ٤٣ ).

(٣) انظر المصدر السابق (٣٦٠/١، ٣٦١) . (٤) المصدر السابق (٣٦١/١) .

(٥) المصدر السابق (٣٦٣/١) . (٦) المصدر السابق (٣٦٢/١، ٣٦٣) .

(٧) المصدر السابق (٣٦٥/١) .

وكان تأثيره في الشوكاني واضحاً، فكان ممن شجّعه على تأليف كتاب: نيل الأوطار.
وفي ذلك قال الشوكاني: (( وهو رحمه الله من جملة من رغّبني في تأليف شرح على المنتقى فشرعت فيه في حياته، وعرضت عليه كراريس من أوّله، فقال: إذا كمل على هذه الكيفية كان في نحو عشرين مجلّداً، وأهل العصر لا يرغبون فيما بلغ من التطويل إلى دون هذا المقدار، ثم أرشدني إلى الاختصار، ففعلت، فكمل بحمد الله، وبيّضته في أربع مجلّدات، ولم يكمل إلاّ بعد موته بنحو ثلاث سنين. ))(١)

وعقّب الشوكاني في ترجمته لشيخه هذا بذكر اهتمام الشيخ به وتأثيره فيه أبلغ تأثير فقال: (( وقد كان رحمه الله يميل إليّ كلّ الميل، ويؤثرني أبلغ تأثير، وما سألته القراءة عليه في كتاب فأبى قطّ، بل كان يبتدئني تارات، ويقول: تقرأ في كذا، وكان يبذل لي كتبه، ويؤثرني بها على نفسه، وما زال ناشراً للعلوم، قائماً بتفهيم منثورها والمنظوم حتى توفّاه الله تعالى في يوم الاثنين خامس ربيع الأوّل سنة ١٢٠٧هـ. )) وقد رثاه الشوكاني بقصيدة مطلعها:

تهدم من ربع المعارف جانبه        وأصبح في شغل عن العلم طالبه.(٢)

٣ـ الحسن بن إسماعيل المغربي: نشأ بصنعاء كسلفه، وقرأ على جماعة من أعيان علماء صنعاء في عدّة فنون، كالنحو، والصرف، والمنطق، والمعاني، والبيان، والحديث، والتفسير، والفقه، وانتفع به الطلبة في جميع هذه الفنون، وأخذ عنه أعيان العلماء وتخرّجوا به، وكان رحمه الله زاهداً ورعاً عفيفاً متواضعاً متقشّفاً لا يعدّ نفسه من العلماء، ولا يرى له حقّاً على تلامذته فضلاً عن غيرهم.(٣)

وقرأ الشوكاني عليه في المطوّل وحواشيه، والعضد وحواشيه من أوّلهما إلى آخرهما، والكشّاف وبعض حواشيه من أوّله إلى آخره إلاّ فوتاً يسيراً، وبعض الرسالة الشمسية وشرحها للقطب، وحاشيتها للشريف، وبعض تنقيح الأنظار في علوم الحديث، وقطعة من صحيح مسلم، وقطعة من شرحه للنووي، وجميع سنن أبي داود، ومختصر المنذري عليها، وبعض شرح ابن رسلان والخطّابي لها، وشرح بلوغ المرام لجدّه إلاّ قليلاً من أوائله. ))(٤)

ويظهر لي أنّ الشوكاني تأثر بهذا الشيخ في تقوية حياته الروحية وفي تكوينه الخلقي، وخاصّة في الزهد والتواضع، ولذلك قال عنه الشوكاني: (( إنّه من العلماء

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٣٦٥/١، ٣٦٦). (٢) المصدر السابق (٣٦٨/١).
(٣) المصدر السابق (١٩٥/١). (٤) المصدر السابق (١٩٦/١).

الذين اذا رأيتهم ذكرت الله عزّوجل، وكلّ شئونه جارية على نمط السلف الصالح، وكان اذا سأله سائل أحاله في الجواب على أحد تلامذته ... واستمرّ على حاله الجميل، لايزداد الا تواضعا وتصاغرا وتحقيرا لنفسه، وهكذا فليصنع من أراد الوصول الى ثمرة العلم والبلوغ الى فائدتها الأخروية .))[1]

وقال: (( وكان رحمه الله يقبل عليّ اقبالا زائدا، ويعينني على الطلب بكتبه، وهو من جملة من أرشدني الى شرح المنتقى، وشرعت في حياته، بل شرحت أكثره، وأتممته بعد موته، وكان كثيرا ما يتحدّث في غيبتي أنّه يخشى عليّ من عوارض العلم الموجبة للاشتغال عنه، فما أصدق حدسه وأوقع فراسته، فانّي ابتليت بالقضاء بعد موته بدون سنة، وتوفّي يوم الثلاثاء ثالث وعشرين ذي الحجة سنة ١٢٠٨هـ ))[2]

٤ـ أحمد بن محمد الحرازي، وقد وصفه الشوكاني بأنّه شيخ شيوخ الفروع بلا مدافع، برز في الفقه والفرائض، وعكف عليه الطلبة وانتفعوا به، وتنافسوا في الأخذ عنه، وصارت تلامذته شيوخا ومفتيين وحكّاما، وقد اعتمد الناس عليه في الفتوى، وقصدوه بالمشكلات من كلّ مكان، وتفرّد في معرفة الفقه، ولم يبق له الآن فيه نظير، لا في صنعاء ولا في زمان.[3]

وذكر الشوكاني أنّه قد انتفع بعلم هذا الشيخ خصوصا في الفقه، وقد طالت ملازمته له نحو ثلاث عشرة سنة. قال:

(( وقد لازمته في الفروع نحو ثلاث عشرة سنة، وانتفعت به، وتخرّجت عليه، وقرأت عليه في الأزهار وشرحه وحواشيه ثلاث دفعات، الدفعتين الأوليين اقتصرنا على ما تدعو اليه الحاجة، والدفعة الثالثة استكملت الدقيق والجليل من ذلك مع بحث وتحقيق، ثم قرأت عليه الفرائض للعصيفري وشرحها للناظري، وما عليه من الحواشي، وقرأت عليه بيان ابن مظفر وحواشيه، وكانت هذه القراءة قراءة بحث واتقان وتحرير وتقرير. ومات رحمه الله في شهر شوّال سنة ١٢٢٧هـ.))[4]

<u>تلاميذه</u>

وقد تفقّه وتتلمذ على الشوكاني جماعة كبيرة من فضلاء العلماء وأعلام المحققين منهم: ابنه علي بن محمد علي الشوكاني (١٢١٧ـ١٢٥٠هـ)[5]، وأخوه يحيى بن علي بن محمد الشوكاني

---

(١) البدر الطالع، الشوكاني (١٩٦/١). (٢) المصدر السابق (١٩٧/١).
(٣) المصدر السابق (٩٦/١، ٩٧). (٤) المصدر السابق (٩٧/١).
(٥) انظر ترجمته في نيل الوطر، محمد زبارة (١٦٢/٢).

(١١٩٠ـ١٢٦٧هـ)[1]، والعلامة عبد الرحمن بن أحمد الضمدي ثم العبياني (١١٨٠ـ١٢٢٧هـ)[2]، والسيد عبد الله بن عيسى الكوكباني (١١٧٥ـ١٢٢٤هـ)[3]، وأحمد بن عبد الله الضمدي (١١٧٠ـ١٢١٢هـ)[4]، ومحمد بن علي بن حسين العمراني (١١٩٤ـ١٢٦٤هـ)[5]، ومحمد بن أحمد بن سعد السودي ثم الصنعاني (١١٧٨ـ١٢٣٦هـ)[6]، والعلامة محمد بن حسن الشجني الذماري (١٢٠٠ـ١٢٨٦هـ)[7]، ومحمد بن محمد زبارة الحسيني صاحب: نيل الوطر (ت ١٣٨١هـ)[8]، والفقيه لطف الله بن أحمد بن لطف الله جحاف (١١٨٩ـ١٢٤٣هـ)[9]، وغيرهم كثير[10] وسأكتفي هنا بترجمة أربعة منهم ممن تأثر بشيخه الشوكاني :

١) محمد بن حسين الشجني الذماري (١٢٠٠ـ١٢٨٦هـ) ولد بذمار[11] ونشأ فيها وأخذ العلم من علمائها في الفقه، والفرائض، وسمع على القاضي الشوكاني في صحيح البخاري، وفي بعض كتب الآلة، وفي السيل الجرار، وأجازه الشوكاني إجازة عامة في رجب عام (١٢٣٩هـ)، وقد ذكر مشايخه في كتابه: التقصار في جيد زمن علامة الأقاليم والأمصار، وقد جعل كتابه هذا ثلاثة أقسام: الأول: ذكر فيه ولادة شيخه الشوكاني، ونشأته، وكيفية طلبه للعلم، وخصاله، ومؤلفاته، وبعض رسائله، ونظمه، والثاني: في تراجم شيوخه، والثالث: في تراجم تلامذته بأسلوب أدبي رائع، وله سماع في صحيح البخاري مع جماعة من علماء ذمار عند زيارة الإمام الشوكاني، وله سماعات في بعض كتب الآلات، وقد أجازه الشوكاني في جميع معلوماته من مسموعاته وإجازاته.[12]

---

(١) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (٢/٣٣٨ـ٣٤٠).
(٢) " " " (١/٣١٨ـ٣٢١).
(٣) " " " (١/٣٩١،٣٩٢).
(٤) " " " (١/٧٦،٧٧).
(٥) " " " (٢/٢١٠).
(٦) " " " (٢/١٠٣ـ١٠٦).
(٧) انظر ترجمته في نيل الوطر: محمد زبارة (٢/٢٥٧ـ٢٥٩).
(٨) انظر نيل الوطر: (٢/٢٩٨).
(٩) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (٢/٦٠ـ٧١)، ونيل الوطر: محمد زبارة (٢/١٨٩ـ١٩١).
(١٠) وتراجمهم تملأ تقريبا كتابه: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وكتاب: نيل الوطر في تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر لتلميذه محمد زبارة، وقد أورد صاحب: الإمام الشوكاني حياته وفكره (من ص ٢٣٨ـ٦٥٦) اثنين وتسعين تلميذا من تلاميذ الشوكاني. فليرجع إليه.
(١١) ذمار: مدينة مشهورة كبيرة جنوب صنعاء بنحو مائة كيلومتر. (البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي للقاضي إسماعيل بن علي الأكوع (ص ١٢٣ بالهامش).
(١٢) انظر نيل الوطر: محمد زبارة (٢/٢٥٧ـ٢٥٩).

٢) عبدالرحمن بن أحمد بن الحسن البهلكي الضمدي (١١٨٠-١٢٢٧هـ) ولد بعَبْيا [١] ونشأ بها، وقرأ على والده وغيره، ثم رحل إلى صنعاء فأخذ عن أكابر علمائها . وقد أثنى الشوكاني عليه كثيرا خلقيا وعلميا، فقال في ترجمته له :

(( وأخذ عني في فنون متعددة، واختص بي اختصاصا كاملا، وسألني مسائل كثيرة، فأجبت عليه بأجوبة مطولة ومختصرة، وعاد إلى وطنه وقد برع في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والتفسير والحديث في أقرب مدة لحسن فهمه وجودة تصوره وكمال إدراكه وقوة ذهنه، ثم مازال بعد رجوعه إلى وطنه يكاتبني بالأشعار الرائقة، فأجيب عليه بمضمون ما يكتبه إليّ، وهو مع ذلك يتأسف على مفارقتي، وأتأسف على مفارقته لما بيني وبينه من المودة الصادقة والمحبة الزائدة التي تفوق الوصف، بل قد لا يتفق مثلها بين الأخوين الشقيقين . وقد جرت بيني وبينه من المطارحات الأدبية نظما ونثرا ما لا يتسع له إلا مجلد، وفيه فصاحة وزجاحة مع حسن تودد ولطافة طبع وكرم أخلاق ...... وقد أجزته بكل ما يجوز لي روايته وهو مشارك لي في السماع من أكابر شيوخي، وله قدرة على النظم والنثر، وملكة كاملة في جميع العلوم عقلا ونقلا، ولا يقلد أحدا، بل يجتهد برأيه، وهو حقيق بذلك، وقد تولى قضاء بيت الفقيه بن عجيل، وباشره مباشرة حسنة بعفة ونزاهة وحرمة كاملة، وصدع بالحق بحسب الحال ومقدار ما يبلغ إليه الطاقة . )) [٢]

٣) محمد بن أحمد بن سعد السودي (١١٧٨-١٢٣٦هـ) ولد ونشأ بصنعاء، ولازم الشوكاني منذ ابتداء طلبه إلى انتهائه، وقرأ عليه في علوم الآلة، وفي أمهات الحديث ومسنداته، والفقه، والتفسير، وبرز في جميع ذلك، [٣] فصار شيخا مدرسا فيها، يقرأ عليه الطلبة في جامع صنعاء في تلك الفنون على اختلافها . وكان يتأثر بالشوكاني إلى حد بعيد بما تلقى منه من العلوم المختلفة . وقد أثنى عليه الشوكاني ووصفه بأنه (( من أعيان علماء صنعاء، ومن أعظم المفيدين للطلبة، وله ذهن وقاد، وفهم إلى تصور الدقائق منقاد، وفكرة صحيحة، وإدراك تام، وعقل حسن، وعمل بما يرجحه من الأدلة، وطرح التقليد، ومحبة

---

(١) عَبْيا : من قرى عَكَّر بفتح العين وتشديد الثاء المفتوحة، وهي بلدة عامرة في المخلاف السليماني (البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي للقاضي إسماعيل بن علي الأكوع (ص ١٧٣ بالهامش ) .

(٢) البدر الطالع للشوكاني (٣١٩/١، ٣٢٠)

(٣) انظر أسماء الكتب التي قرأ على شيخه الشوكاني في المصدر السابق (١٠٣/٢، ٣٢٠) .

للحقّ ..... وقد صار الآن قاضيا من قضاة مدينة صنعاء، وللناس إليه رغوب، وله قدرة تامّة على فصل الخصومات وإيضاح المهمّات.))[1]

٤) لطف الله بن أحمد جحاف (١١٨٩ـ١٢٤٣هـ) ولد ونشأ بصنعاء، وأخذ العلم عن جماعة من علمائها، منهم الشوكاني، وتأثّر به كثيرا، قال الشوكاني عند ترجمته له:

(( ولازمني دهرا طويلا، فقرأ عليّ في النحو، والصرف، والمنطق، والمعاني، والبيان، والأصول، والحديث، وبرع في هذه المعارف كلّها، وصار من أعيان علماء العصر وهو في سنّ الشباب، ودرس في فنون، وصنّف رسائل أفردفيها مسائل، ونظم الشعر الحسن وغالبه في أعلى طبقات البلاغة، وباحث كثيرا من علماء العصر بمباحث مفيدة، وقد كتب إليّ من ذلك بكثير.))[2]

ووصفه الشوكاني بأنّه قويّ الادراك، جيّد الفهم، حسن الحفظ، مليح العبارة، فصيح اللفظ، بليغ النظم والنثر. وله قصيدة طويلة ذكرها الشوكاني في كتابه[3]. وله مؤلّفات كثيرة تقدّم ذكر بعضها.[4]

## المبحث الثالث : مؤلّفاته

لقد بذل الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ جهودا جبّارة في مجال التأليف، فعلى الرغم من اشتغاله بالقضاء، وبالتدريس والافتاء، وبالعمل الوزاري والسياسي أحيانا فانّ انتاجه في مجال التأليف لم يتوقّف، فلم يترك النسخ يوما واحدا، واذا عرض ما يمنع فَعَلَ من النسخ شيئا يسيرا، ولو سطرا أو سطرين.[5]

وكان يؤلّف كتبه لأهداف محدّدة، ليعالج مشاكل دينية، أو ليوضّح جانبا من جوانب العلوم الشرعية، ويسدّ ثغرة في مجالها، أو ليقف في وجه تيّار من تيّارات الجهالة والتعصّب، وفي ذلك قال الشوكاني وهو أحسن ما قال في هذا الصدد :

(( وانّما التصنيف الذي يحقّ أن يقال له تصنيف، والتأليف الذي ينبغي لأهل العلم الذين أخذ الله عليهم بيانه، وأقام لهم على وجوبه عليهم برهانه، وهو أن ينصروا فيه الحقّ، ويخذلوا به الباطل، ويهدموا بحججه أركان البدع، ويقطعوا به حبائل التعصّب،

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (١٠٤/٢، ١٠٦). (٢) المصدر السابق (٦٠/٢، ٦١).
(٣) انظر المصدر السابق (٦٢/٢ـ٦٨). (٤) انظر صفحة ٤٤ .
(٥) انظر المصدر السابق (٤٢٠/١).

ويوضحوا فيه للناس ما نزل إليهم من البيّنات والهدى، ويبالغوا في إرشاد العباد إلى الانصاف، ويحبّبوا إلى قلوبهم العمل بالكتاب والسنة، وينفّروهم من اتّباع محض الرأي، وزائف المقال، وكساد الاجتهاد، ولا يمنعهم من ذلك ما يخيّله لهم الشيطان ويسوّله من أنّ هذا التصنيف لا ينفق عند المقلدة، أو يكون سببا لجلب فتنة، أو نزول مضرّة، أو ذهاب جاه، أو مال، أو رئاسة، فانّ الله ناصر دينه، ومتمّم نوره، وحافظ شرعه، ومؤيّد من يؤيّده، وجاعل لأهل الحقّ، ودعاة الشرع، والقائمين بالحجة، سلطانا وأنصارا وأتباعا، وان كانوا في أرض قد انغمس أهلها في موجات البدع، وتكسّعوا [1] في متراكم الضلال.)) [2]

وقد تحدّث الشوكاني عن مؤلّفاته باعتزاز يدلّ على مدى عنايته بها، فقد أورد طائفة منها في كتابه «البدر الطالع». بلغ عددها ستة وتسعين كتابا ورسالة [3]. وقال في نهاية استعراضه لمؤلّفاته: (( هذا ما أمكن خطوره بالبال حال تحرير هذه الترجمة، ولعلّ ما لم يذكر أكثر مما ذكر.)) [4] وقد أضاف محمد زبارة أحد تلامذته سبعة كتب أخرى في الهامش. [5]

وسأكتفي هنا بذكر المطبوعات من مؤلّفاته، أمّا المخطوطات منها فهي كثيرة جدا، وسأكتفي بذكر أهمّها، ولمن شاء الاستقصاء فليرجع إلى كتاب: الامام الشوكاني حياته وفكره. للباحث اليمني الدكتور عبد الغني قاسم غالب الشرجي [6] فانّه قام باستقصاء مؤلّفات الشوكاني، وقد بلغت ( ٢٧٨ مؤلّفا ) وجلّها لا يزال مخطوطا، وقدّر عددا لمفقود منها فبلغ ما لا يقلّ عن سبعين بحثا ورسالة. ولا يزال المجال مفتوحا أمام الباحثين وروّاد العلم والمعرفة للتنقيب عن سائر مؤلّفاته، وتسهيل السبل إلى طبعها حتى يتحقّق النفع بها. والله الموفّق.

مؤلّفاته المطبوعة [7]

١ـ اتحاف الأكابر باسناد الدفاتر [8] الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف

---

(١) جاء في اللسان: تكسّع في ضلاله أي ذهب (٣١١/٨ مادة: كسع).
(٢) أدب الطلب: الشوكاني (ص ١٠٦، ١٠٧). (٣) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٢/٢١٩ـ٢٢٣).
(٤) المصدر السابق (٢/٢٢٣). (٥) انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.
(٦) صفحة ١٩٤ـ٢٢٩
(٧) وقد رتّبتها على حسب الحروف الهجائية، والطبعة التي ذكرتها هي التي اعتمدت عليها في هذا البحث.
(٨) البدر الطالع: الشوكاني (٢/٢٢٢).

النظامية، حيدرآباد، الهند سنة ١٣٢٨هـ . وقد فرغ من تأليفه في ( ١٥ جمادي الآخر عام ١٢١٤هـ) كما نصّ في آخر الكتاب .

٢ـ أدب الطلب ومنتهى الأرب [1] ط/ مكتبة الساعي بالرياض، بتحقيق/ محمد عثمان الخشت . وقد ألّفه في (سنة ١٢١٦هـ) على وجه التقريب .

٣ـ ارشاد الثقات الى اتّفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات [2] ط/ دار الكتب العلمية، بيروت عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م . وقد فرغ من تحريره في (٢٧ ربيع الآخر عام ١٢٣١هـ) كما نصّ في آخر الكتاب .

٤ـ ارشاد السائل الى دلائل المسائل [3] ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ضمن رسائل أخرى تحت عنوان: الرسائل السلفية، عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م .

٥ـ ارشاد الفحول الى تحقيق الحقّ من علم الأصول [4] ط/ دار المعرفة، بيروت ـ وقد فرغ من تأليفه في ( محرم عام ١٢٣٠هـ) كما نصّ في آخر الكتاب .

٦ـ اشكال السائل في الجواب عن تفسير تقدير القمر منازل، ط/ دار النهضة العربية، القاهرة، ضمن رسائل أخرى بعنوان: أمناء الشريعة، الرسالة الحادية عشرة، بتحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

٧ـ أطفال المسلمين في الجنة، ط/ دار الهجرة، صنعاء ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م تحقيق/ محمد صبحي حسن حلاق .[5]

٨ـ الايضاح لمعنى التوبة والاصلاح، ط/ دار النهضة العربية، ضمن مؤلّف أمناء الشريعة الرسالة السابعة، تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

٩ـ بحث في الاستدلال على ثبوت كرامات الأولياء، ط/ دار النهضة العربية، ضمن: أمناء الشريعة، الرسالة الثانية، تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

١٠ـ بحث في أنّ اجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء. ط/ دار النهضة العربية، ضمن: أمناء الشريعة، الرسالة السادسة، تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

١١ـ بحث في الكلام على + أمناء الشريعة، ط/ دار النهضة العربية، الرسالة الثانية عشرة ضمن: أمناء الشريعة . تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

---

(١) البدر الطالع، الشوكاني (٢٢٢/٢)، وفتح القدير، الشوكاني (٤١٨/٣) .

(٢) المصدر السابق (٢٢٣/٢ في الهامش) . (٣) المصدر السابق (٢٢٢/٢) .

(٤) المصدر السابق (٢٢٣/٢) .

(٥) قال المحقّق (ص ١٧): الرسالة ضمن مجموعة من الرسائل للامام محمد بن علي الشوكاني،

====

١٢ـ بحث في وجوب محبّة الله عزّوجلّ. ط/ دار النهضة العربية ضمن: أمناء الشريعة، الرسالة الأولى. تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

١٣ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع[1]. ط/ دار المعرفة، بيروت، وقد فرغ من تأليفه في (٢ شهر ذي الحجة ١٢١٣هـ) وكان مدّة جمعه نحو أربعة أشهر ولياليَ يسيرة، كما نصّ على ذلك في آخر الكتاب .

١٤ـ تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين.[2] ط/دار الكتب العلمية، بيروت .

١٥ـ التحف في مذاهب السلف . ط/ دار الكتب العلمية بيروت ١٣٤٨هـ /١٩٣٠م، مع رسائل أخرى تحت عنوان: الرسائل السلفية. وتوجد المخطوطة ضمن مجموع (٥٩) مكتبة الجامع الكبير بصنعاء بالمكتبة الشرقية، وفيها أنّها نتهى من تحريرها في ربيع الآخر ١٢٢٨هـ وهي بخطّ الامام الشوكاني .[3]

١٦ـ تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمرونقصه من الدلائل. ط/ دار النهضة العربية، ضمن مؤلّف أمناء الشريعة بالرسالة الخامسة، تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

١٧ـ جواب السائل عن تفسير تقدير القمر منازل[4]. ط/ دار النهضة العربية، ضمن: أمناء الشريعة بالرسالة العاشرة، تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال. وحرّره في (١٧ شهر ذي القعدة ١٢١٢هـ) كما نصّ في آخر الرسالة .

١٨ـ جواب السؤال عن العبروالحلم. ط/ دار النهضة العربية، ضمن: أمناء الشريعة، الرسالة الثامنة، تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

١٩ـ جواب سؤال عن نكتة التكرار في قوله تعالى: ((قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)) (الزمر: ١١، ١٢). ط/دار النهضة العربية، الرسالة التاسعة. ضمن: أمناء الشريعة، تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

٢٠ـ جواب سؤال يتعلّق بما ورد فيما أظهر الخضر. ط/دار النهضة العربية بالرسالة الثالثة ضمن: أمناء الشريعة، تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

---

==== وليس لها عنوان في المخطوط. قلت: ولعلّها هي: بحث في أطفال المشركين. الذى ذكر صاحب: الامام الشوكاني حياته وفكره. ضمن مخطوطاته. ( ١١٢ ) .

(١) البدر الطالع : الشوكاني (٢١٩/٢). (٢) المصدر السابق (٢٢٣/٢) في الهامش .

(٣) انظر: الامام الشوكاني حياته وفكره. د/عبد الغني قاسم الشرجي (ص ١٩٥) .

(٤) البدر الطالع : الشوكاني (٤٤٧/١)، (٢٢٢/٢) .

٢١- جواب من سؤال: كيف أنّ الفاء في قوله تعالى: "فانْظُرْ إلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ" (البقرة: ٢٥٩) واقعة في موقع الدليل. ط/ دار النهضة العربية، الرسالة الرابعة ضمن "أمناء الشريعة" تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال .

٢٢- الدراري المضيئة شرح الدرر البهية [١] ط/ مكتبة التراث الاسلامي، القاهرة.

٢٣- درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة [٢] ط ١/ دار الفكر، دمشق ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م بتحقيق: د/ حسين بن عبد الله العمري. وقد فرغ المؤلّف من كتابته في ( ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢٤١هـ ) [٣] .

٢٤- الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد [٤]. ط/ مكتبة الصحابة الاسلامية، الكويت، وطبع أيضا ضمن الرسائل السلفية .

٢٥- الدواء العاجل في دفع العدوّ الصائل. ط/ دار الكتب العلمية، ضمن الرسائل السلفية.

٢٦- رفع الريبة عن ما يجوز وما لا يجوز من الغيبة. ط/ دار الكتب العلمية، ضمن الرسائل السلفية .

٢٧- السيل الجرار المتدفّق على حدائق الأزهار [٥]. ط ١/ دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م بتحقيق/ محمود ابراهيم زايد. وقد انتهى من تأليفه في ( ١٢٣٥هـ) [٦].

٢٨- شرح الصدور في تحريم رفع القبور. [٧] ط/ دار الكتب العلمية، ضمن الرسائل السلفية .

٢٩- العقد الثمين في اثبات وصاية أمير المؤمنين. ط/ المطبعة المنيرية، القاهرة ١٣٤٨هـ، ضمن مجموعة الرسائل اليمنية، الرسالة الثانية، وهو من أوائل الكتب التي صنّفها الشوكاني. وقد انتهى من تأليفه في ( ٢٩ شعبان ١٢٠٥هـ) كما نصّ في آخر الكتاب .

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢١٩/٢). (٢) المصدر السابق (٢٢٣/٢ في الهامش ) .
(٣) انظر قطر الولي على حديث الولي: تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال (ص ٥٢)، والامام الشوكاني حياته وفكره: د/عبد الغني قاسم الشرجي (ص ٢٢١)، ومقدّمة المحقّق لدرّ السحابة (ص ١٥، ٢١) .
(٤) البدر الطالع: الشوكاني (٢٢٢/٢)، وتحفة الذاكرين (ص ٥٩) .
(٥) البدر الطالع، الشوكاني (٢٢٣/٢) . (٦) انظر مقدّمة المحقّق للكتاب (٤٢/١) .
(٧) البدر الطالع: الشوكاني (٢٢٣/٢ في الهامش ) .

٣٠ـ عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة الضمد[1]. ط/ دار النهضة العربية، الرسالة الرابعة عشرة ضمن: أمناء الشريعة بتحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

٣١ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير[2]. ط/ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م. وقد انتهى من تأليفه في (٢٨ شهر رجب ١٢٢٩هـ) كما نصّ في آخر الكتاب .

٣٢ـ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة[3]. ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، بتحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، وعبد الوهاب عبد اللطيف. وهو من أواخر الكتب التي صنّفها الشوكاني. وقد انتهى من تأليفه في (١٤ شهر جمادي الأولى ١٢٤٨هـ كما نصّ في آخر الكتاب .

٣٣ـ قطر الولي على حديث الولي[4]. ط/ دار احياء التراث العربي، بيروت، بتحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال. وقد انتهى من تأليفه في ( ٧ شهر ذي القعدة ١٢٣٩هـ) كما نصّ في آخر الكتاب .

٣٤ـ القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد[5]. ط/ مكتبة القرآن، القاهرة، تحقيق: محمد عثمان الخشت، وطبع أيضا ضمن الرسائل السلفية .

٣٥ـ كشف الشبهات عن المشتبهات عمّا جاء في حديث الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات[6]. ط/ سنة ١٣٤٠هـ دار الكتب العلمية، ضمن الرسائل السلفية .

٣٦ـ المسك الفايح في حط الجوايح. ط/ دار النهضة العربية، الرسالة الثالثة عشرة ضمن: أمناء الشريعة، بتحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

٣٧ـ نيل الأوطار شرح المنتقى الأخبار[7]. ط/ مكتبة الكليات الأزهرية، بتحقيق: طه عبد الرؤف سعد، ومصطفى محمد الهواري. وهو من أوائل الكتب التي صنّفها الشوكاني . وقد فرغ من تأليفه سنة ١٢١٠هـ .[8]

---

(١) البدر الطالع، الشوكاني (٧٧/١) و(٢٢٠/٢). (٢) المصدر السابق (٢٢٢/٢) .

(٣) المصدر السابق (٢١٩/٢) . (٤) المصدر السابق (٢٢٣/٢ في الهامش ) .

(٥) المصدر السابق (٢٢٢/٢)، وفتح القدير، الشوكاني (٤١٨/٣) .

(٦) البدر الطالع، الشوكاني (٢٢٢/٢) باسم: تنبيه الأعلام على تفسير المشتبهات بين الحلال والحرام .

(٧) المصدر السابق (٢١٩/٢) . (٨) قال في ترجمة شيخه: عبد القادر الكوكباني (١١٣٥ـ١٢٠٧هـ) أنه شرع في تأليف الكتاب في حياته، ولم يكمل إلا بعد موته بنحو ثلاث سنين. (انظر: البدر الطالع ٣٦٦/١) وقد تقدّم هذا النص عند ترجمتي للشيخ المذكور.

بعض مؤلفاته المخطوطة

١ ـ ارشاد الغبي الى مذهب أهل البيت في صحب النبي ألّفه في سنة (١٢٠٨هـ )[(١)] مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ بصنعاء، ضمن مجموع (٨٣) (ص ٨٠ـ٩١)[(٢)]

٢ ـ افادة السائل في العشر المسائل. ضمن مجموع (٥٩) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ .[(٣)]

٣ ـ ايضاح القول في اثبات العول[(٤)]. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١٥٠) ( ص ٢٢٣ ـ ٢٥٨) .[(٥)]

٤ ـ بحث في حديث لعن اليهود لا تخاذ قبور أنبيائهم مساجد. موجود في مجموع للشوكاني يحوزه يحيى محمد شرف الدين كوكبان. حرّره في (٦ من جمادى الأولى ١٢٠٩هـ)[(٦)]

٥ ـ بحث في الردّ على من قال إنّ علوم الناس تسلب عنهم في الجنة. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ مجموع (١) (ص ٣٦،٣٧) حرّره الشوكاني في (٩ شوال ١٢٤٥هـ)[(٧)].

٦ ـ بحث في العمل بقول المفتي. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٣٦) بخط الامام الشوكاني، بدون تاريخ .[(٨)]

٧ ـ بحث في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم[(٩)]. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١) (ص ٩٥ـ٩٨) بخطه، بدون تاريخ .[(١٠)]

٨ ـ بحث في كلام على حديث اذا اجتهد المجتهد فأصاب. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١٥٠) (ص ٨٦ ـ ٨٩) بخطه، بدون تاريخ .[(١١)]

٩ ـ بحث في كون أسباب التفرّق في الدين هو علم الرأي. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٣٣ـ٢٣٥) بخطه، بدون تاريخ .[(١٢)]

١٠ ـ بحث في مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين الصحابة رضي الله عنهم. مكتبة الجامع

---

(١) البدر الطالع، الشوكاني (٢٣٤/١) و (٢٢١/٢) .
(٢) الامام الشوكاني حياته وفكره، د/عبد الغني قاسم (ص ٢٠٤) .
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة . (٤) البدر الطالع، الشوكاني (٢٢٢/٢) .
(٥) الامام الشوكاني حياته وفكره، د/عبد الغني قاسم (ص ٢٠٥) .
(٦) المرجع السابق (ص ٢١٥) . (٧) المرجع السابق (ص ٢١٤) .
(٨) المرجع السابق (ص ٢١٧) . (٩) فتح القدير، الشوكاني (٣٠١/٤) .
(١٠) الامام الشوكاني حياته وفكره، د/عبد الغني قاسم (ص ٢١٣) .
(١١) المرجع السابق (ص ٢١٢) . (١٢) المرجع السابق (ص ٢١٧) .

الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢١٧ ـ ٢٢٠) بدون تاريخ.[١]

١١ ـ بحث في مستقرّ أرواح الأموات. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (٧) (ص ١١ ـ ١٤) بخطه، بدون تاريخ. والشرقية ضمن مجموع (٥٩).[٢]

١٢ ـ بحث في النهي عن مودّة إخوان السوء. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٢٩ ـ ٢٣١) بخطه، بدون تاريخ.[٣]

١٣ ـ بحث في وجود الجنّ. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٣١ ـ ٢٣٣) بخطه، بدون تاريخ.[٤]

١٤ ـ البغية في مسألة الرؤية[٥]. مكتبة الجامعة الاسلامية، تحت رقم (١٤٤٣) ميكروفيلم ـ توحيد ـ (٢٣ ورقة) وهي مصوّرة من مكتبة دار العلوم ـ ندوة العلماء بلكنا و، بدون تاريخ.

١٥ ـ تشنيف السمع بإبطال أدلّة الجمع (أي الجمع بين الصلاتين في الحضر)[٦]

١٦ ـ تشنيف السمع بجواب المسائل السبع. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ١٠٤ ـ ١١٤) بخطه، بدون تاريخ.[٧]

١٧ ـ تنبيه ذوي الحجا على حكم بيع الرجا.[٨] مكتبة الجامعة الاسلامية تحت رقم (٩٠٢) ميكروفيلم.

١٨ ـ التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح.[٩] ألّفها عام (١٢١٨هـ) ونقلت بقلم علي بن علي الشوكاني في شهر رجب (١٣٣٢هـ) كما نصّ في آخرها، وتوجد صورة منها في مكتبة الشيخ حماد الأنصاري بالمدينة المنورة.

١٩ ـ جواب سؤال في نجاسة الميتة. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ١٣٨ ـ ١٤١) وهو منقول بدون تاريخ.[١٠]

٢٠ ـ جواب سؤال ورد من كوكبان عن فوائد الأحاديث التي وردت في فضائل سور وآيات القرآن. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١) (ص ١٣ ـ ١٧) وقد حرّره في جمادي الآخرة ١٢٤٤هـ.[١١]

٢١ ـ جواب سؤال ورد من أبي عريش حول الأعراف السائدة في الأعراس وعند قدوم

---

(١) الامام الشوكاني حياته وفكره د./عبد الغني قاسم (ص٢١٦). (٢) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة. (٤) المرجع السابق (ص ٢١٧).
(٥) البدر الطالع للشوكاني (٢٢١/٢) ونيل الأوطار له (١٥٣/٣) وفتح القدير له (٣٤٠/٥).
(٦) البدر الطالع للشوكاني (٢٢٠/٢). (٧) الامام الشوكاني حياته وفكره د./عبد الغني قاسم (٢١٩).
(٨) البدر الطالع للشوكاني (٢٢١/٢). (٩) المصدر السابق (٢٢٢/٢).
(١٠) الامام الشوكاني حياته وفكره د./عبد الغني قاسم (ص٢٢٠). (١١) المرجع السابق (ص ٢١٩).

المصا فروفي غيرها من المنا سبا ت٠ مكتبةا لجا معا لكبيرـ الشرقيةـ ضمن مجموع(٥٩) (ص ٢٠٩ـ٢١٤) [١].

٢٢ـ حلّ الاشكا ل في اجبا را ليهودعلى التقا ط الأزبا ل٠ [٢] مكتبةا لجا معةا لاسلامية ، تحت رقم (٩٠١) ميكروفيلمـ المنا ظرةـ(٤ أورا ق) وهي مصوّرةمن مكتبةندوةا لعلماءبلكنا و الهند ، وتا ريخ الخط ١٢٠٩هـ بعنوا ن: ازا لةا لا شكا ل في اجبا ر٠٠٠ الخ ٠

٢٣ـ دفع الاعترا ض على ايضا حا لدلا لات ٠ [٣]مكتبةا لجا معا لكبيرـ الغربيةـ ضمن مجموع(١٥)(ص ٨٩ـ٩٦) بدون تا ريخ ٠ [٤]

٢٤ـ رسا لةتتعلّق بوجوب توحيدا للهعزّوجل٠ [٥] مكتبةا لجا معةا لاسلامية ،تحت رقم (١٢٥)و(٧٢٤) ميكروفيلمـ توحيد(١١ ورقة ) وهي المسألةا لأولى ضمن مؤلّفه :العذبا لنمير في جوا ب ما لمبلادعسير ( في التوحيدوفا تحةا لكتا ب)( مخطوط) [٦] ويليها مسألةخلق أفعا ل العبا د ،وتا ريخ تأليفه ( شوا ل ١٢٢٢هـ)٠ كما نصّ في آخره ٠

٢٥ـ رسا لةعن حكما لاسلامفي قضاءديون الميت من قبل ولدهوأقا ربه ،مكتبةا لجا مع الكبيرـ الغربيةـ ضمن مجموع(١٥٠)(ص ١٢٥ـ١٢٨) بدون تا ريخ ٠ [٧]

٢٦ـ رسا لةفي حكما لجهربا لذكر [٨].

٢٧ـ رسا لةفي حكما لمخا برة [٩] رسا لةرقم (٢) ضمن مجموع(١٥٠)(ص ١٢٠ـ١٢٤)مكتبة الجا معا لكبيرـ الغربيةـ حرّرها الشوكا ني يوما لثلاثاء جما دي الأولى ١٢٠٢هـ ٠ [١٠]

٢٨ـ رسا لةفي لحوق ثوا ب القراءةا لمهدا ةمن الأحياء الى الأموا ت٠ [١١]

٢٩ـ رسا لةا لوشي المرقومفي تحريما لتحلي با لذهب على العموم٠ [١٢] مكتبة الجا معا لكبيرـ الغربيةـ رقم (٣٢) مجموع(١٥٠)(ص ١٨٢ـ١٨٨) حرّرها في جما دي الأولى

---

(١) الاما ما لشوكا نيحيا تهوفكره :د/عبدا لغني قا سم (ص٢٢١) ٠
(٢) البدرا لطا لع :الشوكا ني(٢٢١/٢ وأيضا ٣٩١/١)٠(٣) المصدرا لسا بق (٢٢٢/٢) ٠
(٤) الاما ما لشوكا ني حيا تهوفكره :د/عبدا لغني قا سم (ص ٢٢١)٠
(٥) المرجع السا بق (ص ٢٢٤) ٠ (٦) انظرمقدّمةا لدكتورا برا هيما برا هيم هلال لكتا ب قطرا لولي على حديث الولي للشوكا ني (ص ٥٧) ٠
(٧) الاما ما لشوكا نيحيا تهوفكره :د/عبدا لغني قا سم (ص ٢٢٢) ٠
(٨) البدرا لطا لع : الشوكا ني (٢٢١/٢) ٠
(٩) المصدرا لسا بق (٢٢١/٢) ٠
(١٠) الاما ما لشوكا ني حيا تهوفكره :د/عبدا لغني قا سم (ص ٢٢٢)
(١١) البدرا لطا لع :الشوكا ني (٢٢١/٢) ٠ (١٢) المصدرا لسا بق (٢٢٢/٢) ٠

سنة ١٢٢٤هـ.[1]

٣٠ـ رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسلاطين. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربيـــة ـ ضمن مجموع(١)( ص ٢٨ـ٣٥) بدون تاريخ.[2]

٣١ـ رفع الباس عن حديث النفس والهمّ والوسواس. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع(٥٩)(ص ١٤٦ـ١٥٣) بخطه.[3]

٣٢ـ رفع الخصام في الحكم بالعلم من الأحكام.[4] مكتبة الجامع الكبير ـ الغربيـــة ـ رقم (٤٠) مجموع(١٥٠)(ص ٢٣١ـ٢٣٧) حرّرها في (٢٢ رمضان ١٢١٥هـ)[5]

٣٣ـ زهر النسرين الفائح بفضائل العمرين[6] ( أبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما ).

٣٤ـ سؤال في التحليل لاسقاط الشفعة. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ مجموع (١) (ص ١٥ـ١٧) بدون ترقيم وبدون تاريخ ـ منقول ـ.[7]

٣٥ـ سؤال عن الوصية للوارث. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ مجموع(٥٠) بحـــث رقم (٢٤) بدون ترقيم ـ بدون تاريخ ـ.[8]

٣٦ـ سؤال هل يجوز قضاء المقلّد أم لا. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ مجموع(٥٠) بحث رقم (٢٨) بدون ترقيم وبدون تاريخ.[9]

٣٧ـ الصوارم الحدّاد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتّحاد.[10] مكتبة الجامعـــة الاسلامية تحت رقم (٥٦٢) ميكروفيلم ـ مناظرة ـ (١٦ ورقة ) وهي مصوّرة من مكتبة ندوة العلماء بلكنا و ـ الهند ـ ،وتوجد بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ـ الغربية ـ ضمن مجموع(١٠٩) (ص ١ ـ ٢٢) وحرّرها في ( يوم الاثنين رجب ١٢٠٥هـ).[11]

---

(١) الامام الشوكاني حياته وفكره :د/عبدالغني قاسم (ص ٢٢٣).
(٢) المرجع السابق (ص ٢٢٢). (٣) المرجع السابق (ص ٢٢٣).
(٤) البدر الطالع : الشوكاني (٢/٢٢٢).
(٥) الامام الشوكاني حياته وفكره :د/عبدالغني قاسم (ص ٢٢٢).
(٦) البدر الطالع : الشوكاني (٢/٢٢١).
(٧) الامام الشوكاني حياته وفكره :د/عبدالغني قاسم (ص ٢٢٥).
(٨) المرجع السابق (ص ٢٢٦). (٩) المرجع السابق (نفس الصفحة).
(١٠) البدر الطالع: الشوكاني(٢/٢٢٢)،وأدب الطلب: الشوكاني (ص ٢٢١) قال: وللردّ على هؤلاء( المتصوّفة ) جمعت الرسالة التي سمّيتها :الصوارم الحداد.وهي من المجموعات التي جمعتها في أيّام الحداثة وأوائل الشباب.
(١١) الامام الشوكاني حياته وفكره :د/عبدالغني قاسم (٢٠٥،٢٢٧).

٣٨ـ العورام الهندية المسلولة على الرياض الهندية .[١]

٣٩ـ طيب الكلام في تحقيق لفظ الصلاة على خير من حملته الأقدام .مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع(١) (ص ٢٥ـ٢٧)،حرّرها في (١٢٤٥هـ) بخطّه .[٢]

٤٠ـ عقود الجمان في شأن حدود البلدان وما يتعلق بها من الضمان.[٣] ضمن مجموع (١٥٠) رقم (٢٨) مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـحرّره (يوم الاثنين ذي الحجة ١٢١٢هـ ونقل منه في جمادي الأولى ١٣٢٧هـ .[٤]

٤١ـ فتح القدير في الفرق بين المعذرة والتعذير.[٥] ضمن مجموع(٥٩) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ حرّرها في ( ربيع الآخر ١٢١٤هـ) .[٦]

٤٢ـ القول الحسن في فضائل أهل اليمن. بحث رقم (٣٩) ضمن مجموع(٥٩) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ بخطه ـ بدون تاريخ .[٧]

٤٣ـ القول الصادق في امامة الفاسق .[٨]

٤٤ـ القول المقبول في ردّ خبر المجهول من غير صحابة الرسول.[٩] مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع(٢٥٠) وقد انتهى من تحريره ( يوم الأحد ٣ ربيع الأوّل ـ ١٢٠٦هـ) وهي نسخة منقولة .[١٠]

٤٥ـ كشف الأستار عن حكم الشفعة بالجوار. ضمن مجموع (١٥٠) رقم (٣٧)(ص ٢١٠ـ٢١٣)ـ مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ بدون تاريخ ،منقولة .[١١]

٤٦ـ كشف الأستار في ابطال كلام من قال بفناء النار.[١٢] ضمن مجموع(٥٩) رقم (٢٢) (ص ١٦١ـ١٧١) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ بخط الشوكاني،بدون تاريخ .[١٣]

٤٧ـ نزهة الأبصار في التفاضل بين الأذكار. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية

---

(١) البدر الطالع ، الشوكاني (٢٢٠/٢) .
(٢) الامام الشوكاني حياته وفكره ،د/ عبد الغني قاسم (ص ٢٢٦) .
(٣) البدر الطالع ، الشوكاني (٢٢١/٢) .
(٤) الامام الشوكاني حياته وفكره ،د/عبد الغني قاسم (ص ٢٢٦) .
(٥) البدر الطالع ، الشوكاني (٢٢٢/٢) .
(٦) الامام الشوكاني حياته وفكره : د/ عبد الغني قاسم (ص ٢٢٦).(٧) المرجع السابق(ص٢٠٤).
(٨) البدر الطالع ، الشوكاني(٢٢٠/٢). (٩) المصدر السابق (٢٢١/٢) .
(١٠) الامام الشوكاني حياته وفكره ،د/عبد الغني قاسم (ص ٢٠٨).(١١) المرجع السابق(ص٢٢٧).
(١٢) أشار اليه الشوكاني تلميحا في تفسيره ،فتح القدير(٥٢٥/٢) .
(١٣) الامام الشوكاني حياته وفكره ،د/عبد الغني قاسم (ص ٢٢٧) .

مجموع(١) (ص ٩٩ ـ ١٠٤) بدون تاريخ .(١)

٤٨ـ نزهة الأحداق في علم الاشتقاق. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١)(ص ١ـ١٢) بدون تاريخ، وفي مجموع(٥٠) بحث رقم (١٦) انتهى من تحريره في ربيع الآخر ١٢٤٣هـ .(٢)

٤٩ـ وبل الغمام حاشية على شفاء الأوام للأمير حسين بن محمد، رقم (٢٤٣)ـ فقه ـ مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ .(٣)

٥٠ـ هفوات الأئمة الأربعة .(٤)

وغير ذلك من كتبه الكثيرة التي صنّفها في فنون مختلفة، مما يدلّ على ما كان عليه الشوكاني من تنوّع في الثقافة واتّساع فيها .

قال صاحب معجم المؤلّفين يعرّفه :(( مفسّر، محدّث، فقيه، أصولي، مؤرّخ، أديب، نحوي، منطقي، متكلّم، حكيم.))(٥)

ويتميّز أسلوب الشوكاني في التأليف بصفة عامة بوضوح العبارة، ودقّة التعبير، ويغلب على كتاباته روح الموضوعية وعدم التعصّب، ويشوب أسلوبه في كثير من الأحيان لون من الحماسة والاندفاع الجياشة، وهذا يرجع في نظري إلى طبيعة حياته العلمية التي كانت مليئة بالمناظرات والمناقشات مع المقلّدين والمتعصّبين من الفرق المختلفة، ونلمس في هذا اللون لهجة مريرة وشديدة في أسلوبه النقدي، وربّما مكّنه من ذلك منصبه الكبير الذي تولاّه، وهو منصب قضاء اليمن العام. والله أعلم .

---

(١) الإمام الشوكاني حياته وفكره :د/عبد الغني قاسم (ص ٢٢٨).
(٢) المرجع السابق ( نفس الصفحة ) .
(٣) المرجع السابق ( نفس الصفحة ) .
(٤) المرجع السابق (ص ٢٢٩)، وانظر مقدمة الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال لكتاب: قطر الولي (ص ٦٠)، والإمام الشوكاني مفسّراً للدكتور محمد حسن الغماري (ص ٦٥) .
(٥) معجم المؤلّفين : محمد رضا كحالة (١١/٥٣) .

## قائمة كتب الشوكاني التي اعتمدت عليها في هذا البحث ووقفت على تاريخ تأليفها

| التسلسل | اسم الكتاب | تاريخ فراغه من التأليف |
|---|---|---|
| ١ | العقد الثمين في إثبات وصاية أمير المؤمنين | ٢٩ شعبان ١٢٠٥ هـ |
| ٢ | نيل الأوطار شرح المنتقى الأخبار | ١٢١٠ هـ |
| ٣ | جواب المسائل عن تغيير تقدير القمر منازل | ١٣ ذو القعدة ١٢١٢هـ |
| ٤ | البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع | ٢ ذو الحجة ١٢١٣هـ |
| ٥ | إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر | ١٥ جمادى الآخر ١٢١٤هـ |
| ٦ | كشف الشبهات عن المشتبهات | ٩ محرم ١٢١٥ هـ |
| ٧ | أدب الطلب ومنتهى الأرب | ١٢١٦ هـ |
| ٨ | التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر ... | ١٢١٨ هـ |
| ٩ | العذب النميري في جواب عالم بلاد عسير | شوال ١٢٢٢ هـ |
| ١٠ | التحف في مذاهب السلف | ربيع الآخر ١٢٢٨ هـ |
| ١١ | فتح القدير | ٢٨ رجب ١٢٢٩ هـ |
| ١٢ | إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول | ٤ محرم ١٢٣١ هـ |
| ١٣ | إرشاد الثقات إلى اتّفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات | ٢٧ ربيع الآخر ١٢٣١هـ |
| ١٤ | السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار | ١٢٣٥ هـ |
| ١٥ | قطر الولي على حديث الولي | ٧ ذو القعدة ١٢٣٩ هـ |
| ١٦ | درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة | ١٣ جمادى الأولى ١٢٤١هـ |
| ١٧ | الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة | ١٤ جمادى الأولى ١٢٤٨هـ |

## المبحث الرابع : مذهبه وعقيدته

تبيّن مما سبق أنّ الشوكاني – رحمه الله – نشأ في بيئة زيدية ودرس وتفقّه على علمائها، وقد مرّ بمرتبة من النبوغ والتفوّق المبكرين جعلته يفتي وهو في العشرين من عمره،[1] ويترك التقليد ويجتهد رأيه اجتهادا مطلقا غير مقيّد وهو قبل الثلاثين.[2] بلغ

أي أنّه لم يلبث أن تخلّى عن التقليد والتمذهب، وتحلّى بمنصب الاجتهاد، وأصبح لا يتقيّد بفرقة من الفرق أو مذهب من المذاهب، بل اعتمد اعتمادا مباشرا على الكتاب والسنة، مجتهدا في فهم نصوصهما، وفي استنباط الأحكام الشرعية منها، ولو خالف مذهب الزيدية أو المذاهب الأربعة كلّها .

وقد دعا إلى مذهبه الاجتهادي وأنكر بشدّة على المقلّدين في كثير من مؤلّفاته وخاصّة في كتابه : القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتقليد ، و : أدب الطلب ومنتهى الأرب، و : السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، و في تفسيره للآيات.[3]

وقرّر أنّ التقليد والانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره، والتقيّد بجميع ما جاء به من رواية ورأي، وإهمال ما عداه، من أعظم ما حدث في هذه الملّة الاسلامية من البدع المضلّة.[4] وقد عرّف التقليد بأنّه : (( قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة .))[5] أو (( العمل بقول الغير من غير حجة ، فيخرج العمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعمل بالإجماع، والعمل من العامي بقول المفتي، والعمل من القاضي بشهادة الشهود العدول، فإنّها قد قامت الحجّة في جميع ذلك ... ويخرج عن ذلك أيضا قبول رواية الرواة، فإنّه قد دلّ الدليل على قبولها ووجوب العمل بها، وأيضا ليست قول الراوي، بل قول المرويّ عنه ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .))[6]

فحاصل التقليد: أنّ المقلّد لا يسأل عن كتاب الله، ولا عن سنة رسوله صلى الله عليه

---

(١) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٢١٩/٢). (٢) المصدر السابق (٢٢٤/٢) .

(٣) انظر فتح القدير في هذه الصفحات: (١٣٥/١، ١٦٧، ٥٢٦، ٥٢٧) و (١٩٩/٢، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦ ) و (١٠٤/٣، ٤١٢) و (١٠٤/٤، ٥٥٢، ٥٥٣ ) .

(٤) المصدر السابق (٤٥/٤) .

(٥) القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتقليد: الشوكاني (ص ٣٠) تحقيق/محمد عثمان الخشت.

(٦) السيل الجرار: الشوكاني (٦/١) تحقيق/محمد ابراهيم زايد، وانظر أيضا: ارشاد الفحول له (ص ٢٦٥) ط/ دار المعرفة، وفتح القدير له (٢٦٩/٣)، وقطر الولي له (ص ٣٢١) تحقيق/ ابراهيم ابراهيم هلال .

وسلم ،بل يسأل عن مذهب إمامه فقط ، فإذا جاوز ذلك إلى السؤال عن الكتاب والسنة فليس بمقلّد.(١)

وعلى هذا فإنّ سؤال الجاهل للعالم عن حكم الشرع في المسألة التي تعرض له ، فيروي له العالم النصّ فيها من الكتاب أو السنة لا يسمّى تقليدا ، بل هو من باب طلب حكم الله في المسألة ،والسؤال عن الحجة الشرعية . والتقليد عمل بالرأي لا بالرواية ، وهذا الفرق ـ كما قال الشوكاني ـ :(( أوضح من الشمس، وإن التبس على كثير من الناس .))(٢)

والاجتهاد عند الشوكاني سهل ميسّر يجعله في متناول كلّ مسلم الذي يتحرّى لدينه ويملك أبسط الوسائل لفهم كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك يقول :

(( والذي أدين الله به أنّه لا رخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف وشطر من مهمّات كلّيات أصول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز، ثم إذا انضمّ إلى ذلك الاطلاع على كتب السنة المطهّرة التي جمعها الأئمة المعتبرون،وعمل بها المتقدّمون والمتأخرون، كالصحيحين وما يلتحق بهما مما التزم فيه مصنّفوه الصحّة ، أو جمعوا فيه بين الصحيح وغيره مع البيان لما هو صحيح ،ولما هو حسن، ولما هو ضعيف،وجب العمل بما كان كذلك من السنة ، ولا يحلّ التمسّك بما يخالفه من الرأي، سواء كان قائله واحدا أو جماعة ، أو الجمهور، فلم يأت في هذه الشريعة الغرّاء ما يدلّ على وجوب التمسّك بالآراء المتجرّدة عن معارضة الكتاب أو السنة ، فكيف بما كان فيها كذلك، بل الذي جاءنا في كتاب الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :(( وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ))(٣) (( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ))(٤) (( لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ))(٥) إلى غير ذلك . وصحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (( كلّ أمر ليس عليه أمرنا فهو ردّ ))(٦)

---

(١) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد « للشوكاني (ص ٣٠) .
(٢) البدر الطالع « للشوكاني (٨٨/٢) . (٣) سورة الحشر، آية ٧ .
(٤) سورة آل عمران ، آية ٣١ . (٥) سورة الأحزاب : آية ٢١ .
(٦) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية ،باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٣٤٤/٣ برقم ١٧١٨ مكرر) ولفظه :( من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ ) .

فالحاصل أنّ من بلغ في العلم إلى رتبة يفهم بها تراكيب كتاب الله، ويرجّح بها بين ما ورد مختلفاً من تفسير السلف الصالح، ويهتدي بها إلى كتب السنة التي يعرف بها ما هو صحيح وما ليس بصحيح، فهو مجتهد لا يحلّ له أن يقلّد غيره كائناً من كان في مسألة من مسائل الدين، بل يستروي النصوص من أهل الرواية، ويتمرّن في علم الدراية بأهل الدراية، ويقتصر من كلّ فنّ على مقدار الحاجة، والمقدار الكافي من تلك الفنون هو ما يتّصل به إلى الفهم والتمييز.))(١)

على أنّ الشوكاني – رحمه الله – لم يوجب الاجتهاد إلّا على من امتلك علومه على بساطتها، أمّا من لم يملك هذه العلوم وهم السواد الأعظم فعليهم سؤال علماء الشريعة على طريقة طلب الدليل واسترواء النصّ، وكيف حكم به في محكم كتاب الله، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذا يقول الشوكاني:

(( على أنّي أقول بعد هذا إنّ من كان عاطلاً عن العلوم الواجب عليه أن يسأل من يثق بدينه وعلمه عن نصوص الكتاب والسنة في الأمور التي تجب عليه من عبادة أو معاملة وسائر ما يحدث له، فيقول لمن يسأله: علّمني أصحّ ما ثبت في ذلك من الأدلّة حتى أعمل به، وليس هذا من التقليد في شيء، لأنّه لم يسأله عن رأيه، بل عن روايته، ولكنّه لمّا كان لجهله لا يفطن ألفاظ الكتاب والسنة وجب عليه أن يسأل من يفطن ذلك، فهو عامل بالكتاب والسنة بواسطة المسئول.))(٢)

وهكذا فانّ المسلم إمّا أن يكون عالماً قادراً على الفهم مالكاً لأدواته فيجب عليه الاجتهاد ويحرم عليه التقليد، وهذا يقال له: مجتهد. وإمّا أن يكون جاهلاً عاطلاً عن مادّة الاجتهاد فيحرم عليه التقليد أيضاً ويجب عليه السؤال ليصل إلى الدليل. وهذا يقال له: العامي. (( والعامي المعتمد على السؤال ليس بمقلّد ولا مجتهد، بل عامل بالدليل بواسطة مجتهد يفهمه معانيه، وقد كان غالب السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين هم خير القرون من هذه الطبقة ..... وإذا لم يسع غير العالم في عصور الخلف ما وسعه في عصور السلف فلا وسع الله عليه.))(٣)

هذا خلاصة مذهب الشوكاني في الاجتهاد والتقليد، وهو مذهب من سبقه من

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/٨٥، ٨٦). (٢) المصدر السابق (٢/٨٩).
(٣) المصدر السابق (نفس الجزء والصفحة)، وانظر أيضاً السيل الجرار: الشوكاني (١٣/١)، وقطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٣٣٣).

المجدّدين والمصلحين، كالإمام أبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ)، والإمام مالك (ت ١٧٩ هـ)، والإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، والإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، وتلميذه ابن القيم (ت ٧٥١ هـ)، والأربعة المجدّدين في اليمن قبله وهم: ابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠ هـ)، والحسن الجلال (ت ١٠٨٤ هـ)، وصالح بن مهدي المقبلي (ت ١١٠٨ هـ)، ومحمد إسماعيل الأمير الصنعاني (ت ١١٨٢ هـ)، وصاحب الدعوة السلفية في نجد الإمام محمد ابن عبد الوهّاب (ت ١٢٠٦ هـ)[1]

وهذا يعني أنّ مذهبه القائم على الاجتهاد ونبذ التقليد يمثّل امتدادًا لأدوار من سبقوه من أولئك الأعلام ونظرائهم .

وقد دعا الشوكاني دائمًا إلى الأخذ بالدليل، وطرح ما لم يقم عليه دليل من الآراء المجرّدة، وكان يردّد كثيرًا في مؤلّفاته قوله: (( كلّ قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء، بل من الجهل المحض .))[2]، وفي موضع آخر: (( وكلّ ما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان .))[3]، وفي موضع آخر: (( والرأي إذا كان في معارضة أدلّة الكتاب والسنة، أو كان بالخرص والظنّ، مع التقصير عن معرفة النصوص، أو كان متضمّنًا تعطيل أسماء الله تعالى وصفاته، أو كان مما أحدثت به البدع، وغيّرت به السنن، فلا خلاف بين المسلمين في أنّه باطل، وأنّه ليس من الدين في شيء .))[4]

وعلى هذا خالف الشوكاني مذهب قومه في مسائل كثيرة جدًّا، منها مسائل فروعية، والبعض أصولية، لا يتسع هذا المقام لبسطها، وأكتفي بذكر بعض الأمثلة باختصار، ولمن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب: السيل الجرار × الذي هو من أواخر مؤلّفاته، فإنّه نقد دقيق لكتاب الأزهار الذي وصفه الشوكاني بأنّه عمدة زيدية اليمن في جميع جهاته[5].

١ ـ خالف الزيدية في مفهوم أهل البيت، حيث يرى أنّه شامل لجميع زوجات النبي

---

(١) عاصر الشوكاني (١١٧٣ـ١٢٥٠هـ) الإمام محمد بن عبد الوهّاب (١١١٥ـ١٢٠٦هـ) وكان ابن عبد الوهّاب أكبر منه بثمان وخمسين سنة، وأنّه توفّي والشوكاني سنه إذ ذاك ثلاث وثلاثون، وعاش بعد وفاة ابن عبد الوهّاب أربعًا وأربعين عامًا، رحمهما الله تعالى .

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٤٦٠/٢) . (٣) المصدر السابق (١٦٧/١) .

(٤) بحث في كون سبب التفرّق هو علم الرأي: الشوكاني ( ورقة ٢ ) (مخطوط) في ثلاث ورقات ويوجد بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ضمن مجموع (٥٩) بخط الشوكاني، بدون تاريخ وانظر أيضًا قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٣٢٠) .

(٥) انظر البدر الطالع: الشوكاني (١٢٣/١) .

على الله عليه وسلم ولعلي وفاطمة والحسن والحسين ، ويرى الزيدية أنه خاص بعلي وفاطمة والحسن والحسين .(١)

٢ ـ خالف الزيدية في شروط الامامة حيث يرى صحة الامامة في سائر بطون قريش، ويوجب الزيدية أن تكون من بيت علي وفاطمة .(٢)

٣ ـ خالف الزيدية في جوازهم الخروج على السلطان الظالم ،ورأى وجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء وعدم الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة وما لم يظهر منهم الكفر البواح ، وما لم يأمروا بمعصية الله .(٣)

٤ ـ خالف الزيدية في جوازهم بناء القباب والمشاهد على قبور الفضلاء والملوك دون غيرهم .(٤)

٥ ـ أنكر بشدة على الزيدية التي فرضت وسنّت الأمور الآتية :

أ ـ عدم صحة صلاة الجمعة بدون امام عادل من أهل البيت .(٥)

ب ـ فرضهم :حيّ على خير العمل. في لفظ الأذان والاقامة .(٦)

جـ ـ صيام يوم الشك .(٧)

د ـ الجمع بين صلاتي الظهر والعصر ،وصلاتي المغرب والعشاء ،بدون عذر .(٨)

هـ ـ غسل الفرجين عضوا من أعضاء الوضوء.(٩)

أمّا مذهبه في الاعتقاد ـ وهو موضوع بحثنا هذا ـ فهو مذهب أهل السنة والجماعة الا في مسائل قليلة جدًا كما سيتبيّن من خلال هذا البحث .

وقد نهج منهج السلف الصالح في فهم الكتاب والسنة ، وصرّح بأنّه :(( لا ينبغي لعالم أن يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ما تقتضيه أدلة الكتاب والسنة ،وابراز الصفات كما جاءت، وردّ علم المتشابه الى الله سبحانه ، وعدم الاعتداد بشيء من تلك القواعد المدوّنة في هذا العلم ( أي علم الكلام )

---

(١) انظر فتح القدير للشوكاني(٢٧٨/٤ـ٢٨٠).(٢) انظر السيل الجرار للشوكاني(٥٠٦/٤،٥٠٧).

(٣) انظر المصدر السابق (٢٧٦/٤،٥٠٩) ،ونيل الأوطار للشوكاني(٣٦/٩،٤٠) ،وفتح القدير: الشوكاني(٥٣٠/٢،٥٣١) .

(٤) انظر السيل الجرار للشوكاني(٣٦٧/١،٣٦٨) ،وانظر أيضا شرح الصدور في تحريم رفع القبور(ص ١١،١٢) ضمن الرسائل السلفية .

(٥) انظر السيل الجرار للشوكاني(٢٩٧/١) . (٦) المصدر السابق (٢٠٥/١) .

(٧) انظر المصدر السابق (١١٥/٢) . (٨) انظر المصدر السابق (١٩٣/١،١٩٤)

(٩) انظر المصدر السابق (٧٥/١،٧٦) .

المبنية على شفا جرف هار من أدلّة العقل التي لا تعقل، ولا تثبت الّا بمجرّد الدعاوى والافتراء على العقل بما يطابق الهوى، ولا سيّما اذا كانت مخالفة لأدلّة الشرع الثابتة في القرآن والسنة، فانّها حديث خرافة ولعبة لاعب، فلا سبيل للعباد يتوصّلون بها الى معرفة ما يتعلّق بالربّ سبحانه، وبالوعد والوعيد، والجنة والنار، والمبدأ والمعاد، الّا ما جاءت بها الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وليس للعقول وصول الى تلك الأمور.))(١)

وقد وصف رحمه الله أهل السنة بأنّهم: ((من كان على النمط الذي كان عليه الصحابة.))(٢)، وأنّهم الفرقة الناجية التي ليست بعض هذه المذاهب الاسلامية على التعيين، بل هم من تمسّك بالشريعة المطهّرة، واهتدى بهدي المصطفى صلى الله عليه وسلم على أيّ مذهب كان، وفي أيّ عصر وجد، وليست فرقة معيّنة كما وقع لكثير من المتعصّبين من ادّعاء أنّها فرقته .(٣)

وقد بيّنت فيما سبق موقفه من الفرق المختلفة في عصره مما يدلّ على أنّه على مذهب السلف أهل السنة، غير أنّي وقفت على ثلاثة أمور يجب أن أتحدّث بها في هذا المقام :

١ ـ اثبات الوصاية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

أفرد الشوكاني لهذا الموضوع رسالة خاصّة سمّاها: العقد الثمين في اثبات وصاية أمير المؤمنين(٤) وهو من أوائل الكتب التي صنّفها كما أثبته في القائمة .

وألخّص ما في الرسالة في ثلاث نقاط رئيسة :

١) إنّه خالف عائشة رضي الله عنها في انكارها صدور الوصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب كما ثبت في الحديث(٥). وحجّته في ذلك أنّ قول

---

(١) أدب الطلب: الشوكاني (ص ١٤٦) .
(٢) بحث في كون سبب التفرّق هو علم الرأي: الشوكاني (ورقة ١) (مخطوط) .
(٣) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٨٣/١) قاله عند ترجمة السيد أحمد بن علي بن محسن المتوكل ردّا على ادّعائه أنّ الفرقة الناجية هم فرقة معينة .
(٤) طبعتها ادارة الطباعة المنيرية بالقاهرة عام ١٣٤٨هـ ضمن مجموعة الرسائل اليمنية الرسالة الثانية .
(٥) روى البخاري بسنده عن الأسود قال: " ذكروا عند عائشة أنّ عليّا رضي الله عنهما كان وصيّا، فقالت: متى أوصى اليه، وقد كنت مستندته الى صدري، أو قالت: حجري. فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري، فما شعرت أنّه قد مات، فمتى أوصى اليه؟ (انظر كتاب الوصايا في الفتح ٤٢٠/٥ برقم ٢٧٤١). قال الحافظ ابن حجر نقلا عن القرطبي ====

الصحابي ليس بحجة ، وأنّ المثبت أولى من النافي، وأنّ من علم حجّة على من لا يعلم ، وأنّ الموقوف لا يعارض المرفوع على فرضية حجيّته .[1] قال:(( إنّ عدم علم عائشة بالوصية لا يستلزم عدمها، ونفيها لا ينافي الوقوع، وغاية ما في كلامها الاخبار بعدم علمها، وقد علم غيرها، ومن علم حجّة على من لم يعلم ، أو نفي الوصية حال الموت لا يلزم من نفيها في الوقت الخاصّ نفيها في كلّ وقت .))[2]

٢) إنّه أثبت مطلق الوصية منه صلى الله عليه وسلم ،وأورد في هذا الصدد أحاديث كثيرة في وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم العامّة للمسلمين، كأداء الصلاة والزكاة ، وعدم مفارقة الجماعة ، والطاعة ، والتحذير من الفتن، وغير ذلك .[3]

٣) إنّه أثبت مقيّدها يعني كونها الى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأورد أحاديث كثيرة في وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ تضمّنت اهتماماته بريحانتيه الحسن والحسين رضي الله عنهما، وبتغسيله ،وقضاء دينه ،وغيرها . وقال بعد سرد الأحاديث: (( والواجب علينا الايمان بأنّه رضي الله عنه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يلزمنا التعرّض للتفاصيل الموصى بها، بل قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انّه وصيّه فقلنا إنّه وصيّه ،ولم نتعرّض للتفصيل .))[4]

هذا خلاصة ما في الرسالة . ويظهر لي من كلام الشوكاني أنّه لم يثبت الوصية بالخلافة في الحكم ،وانّما يثبت الوصايا العامّة التي أوصاها الرسول صلى الله عليه وسلم لعليّ ، وفي هذا الصدد أورد الشوكاني أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة[5] أذكر منها ثلاثة :

ا- عن أنس بن مالك أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:(( وصيّي ووارثي

====

:(( كانت الشيعة قد وضعوا أحاديث في أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أوصى لعلي، فردّ عليهم جماعة من الصحابة ذلك،وكذا من بعدهم ،فمن ذلك ما استدلّت به عائشة ،ومن ذلك أنّ عليّا لم يدع ذلك لنفسه ،ولا بعد أن ولّى الخلافة ،ولا ذكره أحد من الصحابة يوم السقيفة ،وهؤلاء(الشيعة ) تنقّصوا عليّا من حيث قصدوا تعظيمه ،لأنّهم نسبوه - مع شجاعته العظمى وصلابته في الدين - الى المداهنة والتقية والاعراض عن طلب حقّه مع قدرته على ذلك .)) اهـ . والظاهر من الحديث السابق أنّهم ذكروا عند عائشة أنّه أوصى له بالخلافة في مرض موته ،فلذلك ساغ لها انكار ذلك،واستندت الى ملازمتها له في مرض موته الى أن مات في حجرها ولم يقع منه شيئ من ذلك .(انظر الفتح ٤٢٦/٥) .

(١) العقد الثمين،الشوكاني (ص ٤) .
(٢) المصدر السابق (ص ٧) .
(٣) المصدر السابق (ص ٦،٧) .
(٤) انظر المصدر السابق (ص ٩،١٠) .
(٥) أنظر المصدر السابق (ص ٨) .

ومنجز وعدي عليّ بن أبي طالب )) أخرجه أحمد بن حنبل.(١)

٢ـ عن أنس أيضاً قال: قلنا لسلمان: سَلْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وصيّه ؟ قال سلمان: يا رسول الله من وصيّك ؟ قال: يا سلمان من كان وصيّ موسى ؟ قال: يوشع بن نون، قال: فانّ وصيّي ووارثي، يقضي ديني، وينجز موعدي، عليّ بن أبي طالب.)) أخرجه أحمد بن حنبل.(٢)

٣ـ عن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (( لكلّ نبي وصيّ ووارث، وإنّ عليّاً وصيّي ووارثي.)) أخرجه أبو القاسم البغوي في معجم الصحابة.(٣)

وعند رجوعي الى كتاب الشوكاني الذي سمّاه: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة. أجد أنّه نصّ فيه على أنّ الأحاديث في وصايا علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلّها موضوعة.(٤) كما نصّ على حديث: (( وصيّي، وموضع سرّي، وخليفتي في أهلي، وخير من أخلف بعدي علي.)) بأنّه موضوع لا أصل له.(٥)، وحديث سلمان المذكور بأنّ في اسناده متروكاً وضعيفاً.(٦) ونصّ على قول عليّ رضي الله عنه: (( بايع الناس لأبي

(١) وهو حديث موضوع، ولم أقف عليه في مسند الامام أحمد. قال صاحب كشف الخفاء (٤٤٦/٢ برقم ٢٨٩٥): موضوع. قال الصغاني في الدرالملتقط: وهو من مفتريات الشيعة. وانظر أيضاً: موضوعات الصغاني (ص ٢٧) تحقيق/ نجم عبد الرحمن خلف ط/١٤٠٥هـ.

(٢) قال شيخ الاسلام ابن تيمية: إنّ هذا الحديث كذب وموضوع باتّفاق أهل المعرفة بالحديث، ليس هو في مسند الامام أحمد، وليس في شيئ من الكتب التي تقوم الحجة بمجرّد اسنادها، ولا صحّحها امام من أئمة الحديث. (انظر منهاج السنة ٢٣/٥، وأيضاً ٢٩٩/٧ـ٣١٢، ـ ٣٥٤ـ٣٥٨). وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢٧٤/١، ٢٧٥) وأورد له أربع طرق كلّها غير صحيحة، وفي بعضها رأو من كبار الشيعة.

(٣) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢٧٦/١) وقال: هذا حديث لا يصحّ. وقال الذهبي في ترجمة شريك بن عبد الله النخعي في ميزان الاعتدال (٤٦٣/٢): محمد بن حميد الرازي ـ وليس بثقة ـ حدّثنا سلمة الأبرش، حدّثنا ابن اسحاق، عن شريك، عن أبي ربيعة الايادي، عن أبيه مرفوعاً: (( لكلّ نبي وصيّ ووارث، وانّ عليّاً وصيّي ووارثي )) قلت: هذا كذب لا يحتمله شريك. اهـ.

(٤) انظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: الشوكاني (ص ٤٢٤) قال: ومنها: وصايا علي رضي الله عنه. قال في الخلاصة: كلّها موضوعة سوى الحديث الأوّل وهو: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، وقال في اللآلي: وكذا وصايا عليّ موضوعة، واتّهم بها حماد بن عمرو، وكذا وصايا التي وضعها عبد الله بن زياد. اهـ.

(٥) انظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: الشوكاني (ص ٣٦٩) قال: رواه ابن ناصر عن سلمان مرفوعاً، قال عبد الغني: أكثر رواته مجهولون وضعفاء، وقال الجوزقاني: باطل لا أصل له.

(٦) انظر المصدر السابق (نفس الصفحة) قال: ورواه ابن حبان بنحوه، وهو من نسخة موضوعة، ورواه العقيلي بلفظ: وصيّي علي بن أبي طالب. قال في الميزان: هذا كذب، ورواه الحاكم عن بريدة مرفوعاً، وفي اسناده وضّاع. اهـ.

بكر رضي الله عنه، وأنا والله أولى منه، وأحقّ بها منه، فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفّارا، يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم بايع الناس عمر، وأنا والله أولى بالأمر منه، وأحقّ منه، فسمعت وأطعت خوفا أن يرجع الناس كفّارا يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم أنتم تريدون أن تبايعوا عثمان، إذا أسمع وأطيع، إنّ عمر جعلني في خمسة نفر أنا سادسهم، لا يعرف لي فضلا عليهم. الخ )) بأنّه موضوع.(١)

وكتابه : الفوائد المجموعة. من أواخر الكتب التي ألّفها، إذ ألّفه في سنة ١٢٤٨ هـ أي بعد تأليف الرسالة المذكورة بثلاث وأربعين سنة، لأنّها ألّفت في سنة ١٢٠٥ هـ(٢).

ولعلّ الشوكاني عندما ألّف الرسالة لم تنضج بعد ثقافته في علوم الحديث، ثم لمّا نضجت وأخذ خبرة ودراية بطرق الحديث وأسانيدها، والتمييز بينها ومواطن الضعف والقوّة فيها (٣) ألّف كتابه الفوائد المجموعة في آخر حياته، وأورد فيه الكثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وانتقدها بما يدلّ على علمه بالحديث، ومن ضمنها أحاديث في فضائل علي رضي الله عنه (٤) التي أوردها في الرسالة المذكورة وفي بعض كتبه.

## ٢ - ايراده روايات ضعيفة وموضوعة في فضائل علي رضي الله عنه في بعض كتبه

وقد أورد الشوكاني رحمه الله تعالى أيضا روايات ضعيفة وموضوعة في فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بعض كتبه، ولم ينبه على ضعفها ونكارتها، وخاصّة في تفسيره فتح القدير الذي انتهى من تأليفه ( سنة ١٢٢٩هـ)، ودرّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة الذى انتهى من تأليفه ( سنة ١٢٤١هـ ).

أمّا فتح القدير فوجدت فيه ذكر هذه الروايات في ثلاث آيات :

الآية الأولى: قوله تعالى: (( إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ))(٥) أورد الشوكاني فيها روايتين :

---

(١) انظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: الشوكاني (ص ٣٧٠) قال: قال ابن الجوزي: موضوع. وقال في الميزان: هذا خبر منكر غير صحيح، وحاشا أمير المؤمنين من قول هذا. اهـ.

(٢) انظر القائمة التي وضعتها ( صفحة ٧٧ ).

(٣) انظر ما قاله عن علم الحديث في أدب الطلب (ص ١٤٩).

(٤) أورد الشوكاني في هذا الكتاب (١٠٢) حديثا في علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ( انظر الفوائد المجموعة من صفحة ٣٤٢ - ٣٨٤ ).

(٥) سورة المائدة: آية ٥٥.

١- عن ابن عباس(رضي الله عنهما) قال: نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه.[1]

٢- وذكر عن ابن عباس( رضي الله عنهما )أنه تصدق علي بخاتم وهو راكع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذاك الراكع. فأنزل الله فيه:( إنما وليكم الله ورسوله ..الآية ).[2] ويمر الشوكاني على هذه الرواية ولم يعقب عليها شيئا، وهي ضعيفة منكرة باجماع أهل العلم بالحديث.[3]

والآية الثانية : قوله تعالى:(( يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ..الآية ))[4]

أورد الشوكاني فيها روايتين :

١- عن أبي سعيد الخدري ( رضي الله عنه ) قال: نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خم في علي بن أبي طالب رضي الله عنه .[5]

٢- عن ابن مسعود ( رضي الله عنهما ) قال:كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك،إن عليا مولى المؤمنين،وان لم تفعل فما بلغت رسالته ،والله يعصمك من الناس .[6]

ولم يعلق الشوكاني شيئا على هاتين الروايتين،وهما من كذب الوضاعين كما قال شيخ الاسلام ان تيمية[7] .

والآية الثالثة : قوله تعالى:(( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ))[8] أورد الشوكاني فيها ثلاث روايات أذكر منها اثنتين :

١- عن أبي سعيد (رضي الله عنه )مرفوعا :(( علي خير البرية ))[9]

---

(١) قال الشوكاني:أخرجه عبد الرزاق،وعبد بن حميد ،وابن جرير ،وأبو الشيخ ،وابن مردويه ، عن ابن عباس.وأخرج أبو الشيخ ،وابن مردويه ،وابن عساكر،عن علي بن أبي طالب نحوه .وأخرج ابن مردويه عن عمار نحوه أيضا.وأخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه مجاهيل عنه نحوه.(فتح القدير ٥٣/٢) .

(٢) قال الشوكاني:أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق.( فتح القدير ٥٣/٢) .

(٣) انظر ردّ شيخ الاسلام ابن تيمية على هذه الرواية باسهاب في منهاج السنة (٣٠/٢،٣٢، و ٥/٧-٣١) وقال انها من وضع بعض الكذابين باجماع أهل العلم بالنقل.وانظر أيضا ما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآية (٧٣/٢،٧٤) وقد بين أن هذه الروايات لا يصح شيء منها بالكلية ،لضعف أسانيدها وجهالة رجالها .

(٤) سورة المائدة : آية ٦٧ . (٥) قال الشوكاني:أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه ، وابن عساكر( فتح القدير ٦٠/٢) .

(٦) قال الشوكاني: أخرجه ابن مردويه .( فتح القدير ٦٠/٢) .

(٧) انظر منهاج السنة (٤٤/٧) وقد استوفى رحمه الله الرد على هذه الروايات (انظر ٣١/٧-٥١)

(٨) سورة البينة : آية ٧ .

(٩) قال الشوكاني:أخرجه ابن عدي وابن عساكر( فتح القدير ٤٧٧/٥) .

٢ـ عن ابن عباس ( رضي الله عنهما ) قال: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ: هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين .[1] ولم يعلّق عليهما شيئا وهما من الأحاديث الموضوعة .

وقد ذكرهما في كتابه الفوائد المجموعة وبيّن ما يفيد أنّهما من الموضوعة[2].

وكما ذكرته سابقا انّ كتاب الفوائد من أواخر الكتب التي ألّفها الشوكاني، اذ ألّفه في سنة (١٢٤٨هـ) أي بعد تفسيره فتح القدير الذي ألّفه سنة (١٢٢٩هـ) بخمس عشرة سنة، وهذا يدلّ على تطوّره في علوم الحديث، اذ لم يتبيّن له في تفسيره ما في هذه الروايات من النكارة ثم لما تبيّن له ذلك بيّنها في كتابه الفوائد، ولسبب من الأسباب ـ الله أعلم بها ـ قد فاته في كتابه هذا ذكر الروايات السابقة مع وضوحها في نكارتها ، وما أظنّ أنّ المجتمع الزيدي الذي عاش فيه له أثر في ذلك، لأنّ الشوكاني شخصيّة قويّة، وله موقف معروف من المذهب السائد ومن المذاهب الأخرى كما تقدّم .

هذا وقد ذكر الشوكاني ـ رحمه الله ـ في مقدّمة تفسيره أنّه لم يلتزم ببيان حال الاسناد للأحاديث في تفسيره، لأنّه قد ينقلها كما هي من تفاسير من سبقه ، فانّ من الجائز أن ينقلوها من دون كشف عن حال الاسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظنّ، لأنّهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحّته لم يتركوا بيان ذلك، فمن وجد الأصول التي يروون عنها ويعزون ما في تفاسيرهم اليها فلينظر في أسانيدها موفّقا ان شاء الله .[3]

وهذا الكلام واضح في منهج الشوكاني في سرد الروايات في تفسيره لا يحتاج الى شرح أو تعليق .

وما قلته عن كتاب فتح القدير أقوله عن كتاب درّ السحابة . فقد أورد رحمه الله في مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه[4] أحاديث ضعيفة ومنكرة، ولكنّه بيّن في هذا الكتاب حال رجال الاسناد من حيث الضعف والصحة من خلال أقوال بعض المحدّثين، وأورد كثيرا من هذه الأحاديث في كتابه الفوائد المجموعة . وخشية من الاطالة أكتفي

(١) قال الشوكاني: أخرجه ابن مردويه ( فتح القدير ٤٧٧/٥) .
(٢) قال في الحديث الأوّل: رواه ابن عدي عن أبي سعيد مرفوعا وفي اسناده أحمد بن سالم أبو سمرة، ولا يحتجّ به . وقال في الميزان: هذا كذب. وقال ابن الجوزي: موضوع. ( ص ٣٤٨) وقال في الحديث الثاني: رواه الخطيب عن عليّ مرفوعا، وفي اسناده جميع بن عمر البصري وهو وضّاع . (ص ٣٨٠) .
(٣) انظر فتح القدير للشوكاني (١٣/١) في المقدمة .
(٤) أورد فيها (١٣٠) حديثا ( انظر من صفحة ( ١٩٩ ـ ٢٢٩ ) .

بذكر بعضها مع ذكر مكان وجودها في الكتابين :

١ـ حديث: (( اللهمّ ائتني بأحبّ الخلق إليك، والي يأكل معي من هذا الفرخ. )) (١)

٢ـ حديث: (( من أحبّه ( يعني عليّا ) فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله. )) وزاد في الفوائد: (( ومن أبغض الله أدخله الله النار. )) (٢)

٣ـ حديث: (( هذا ( يعني عليّا ) أوّل من آمن بي، وهذا أوّل من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصدّيق الأكبر، وهذا فاروق هذه الأمّة، يفرّق بين الحقّ والباطل، وهذا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب المنافقين. )) (٣)

٤ـ حديث: (( أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب )) (٤) وغير ذلك.

وكتاب درّ السحابة ألّف قبل الفوائد كما بيّنته في القائمة، وهذا ـ كما ذكرته سابقا ـ يدلّ على تطوّره في علوم الحديث.

هذا وقد رتّب الشوكاني الخلفاء الراشدين ترتيب أهل السنة عند ذكر فضائل كلّ واحد منهم، فذكر أوّلا مناقب أبي بكر الصدّيق، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ. رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين. (٥)

٣ ـ كلامه على معاوية بن أبي سفيان ومن معه ( رضي الله عنهم )

لم أقف على كلام الشوكاني على معاوية ومن معه رضي الله عنهما لا في موضع واحد في كتابه نيل الأوطار، وهو قوله عند شرحه لحديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (( تكون أمّتي فرقتين، فيخرج من بينهما مارقة يلي قتلهم

---

(١) درّ السحابة (ص ٢٢١ برقم ٩٨)، والفوائد المجموعة (ص ٣٨٢ برقم ٩٥).

(٢) درّ السحابة (ص ٢١٢ برقم ٦٧)، والفوائد المجموعة (ص ٣٨٣ برقم ١٠٠) مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٣) درّ السحابة (ص ٢٠٥ برقم ٣٢)، والفوائد المجموعة (ص ٣٤٤ برقم ٤٤) مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٤) درّ السحابة (ص ٢٠٣ برقم ٢٣)، والفوائد المجموعة (ص ٣٤٨، ٣٤٩ برقم ٥٢) لكنّ الشوكاني وافق الحافظ ابن حجر في أنّ الحديث من قسم الحسن لغيره لكثرة طرقه. ( انظر ص ٣٤٩ من الفوائد ) والصحيح أنّ الحديث ضعيف ومنكر كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٥١٥/٧)، والذهبي في التلخيص (انظرها مع المستدرك ١٢٦/٣)، والعراقي في المغني (انظرها مع الإحياء ١٩٠/٢ ط/دار المعرفة)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٤/٩)، والألباني في ضعيف الجامع الصغير (١٣/٢ برقم ١٤١٦).

(٥) انظر درّ السحابة: الشوكاني (من صفحة ١٣٩ ـ ١٩٩).

أولاهما بالحق .))[1] .

(( قوله : أولاهما بالحق . فيه دليل على أن عليًا ومن معه هم المحقون، ومعاوية ومن معه هم المبطلون، وهذا أمر لا يمتري فيه منصف، ولا يأباه إلا مكابر متعسف ))[2]

في حين أني وجدت كلامه في مواضع متعددة من كتبه يدل على أنه من المنصفين من أهل السنة في هذه المسألة .

ففي رسالته المخطوطة : العذب النمير في جواب مسائل عالم بلاد عسير، المبحث الثالث من مباحث السؤال الثاني، سئل رحمه الله عن مذهب الحق فيما شجر بين علي ومعاوية فقال :(( إن هذه المسألة الإمساك عن الكلام فيها أولى، وسد هذا الباب الذي لا يستفاد فتحه إلا ما لم يتعبد الله به عباده أسلم ، وكلام الطوائف في ذلك معروف، وكل حزب بما لديهم فرحون، والحق بين المقصر والغالي، والصواب في التوسط بين حالتي الإفراط والتفريط ... )) ثم بيّن حال الصحابة في تلك الفتن الواقعة بينهم وقال :(( إن حالهم في ذلك حال المجتهدين في الأحكام ،فإن أصابوا فلهم أجران ،وإن أخطأوا فلهم أجر واحد ،كما ورد في الحديث[3] ..... وبالجملة فلا يأتي التطويل في مثل هذا فائدة ، وقد قدموا على ما قدموا، ولم يكلف الله بشيء من هذا، بل أرشدنا إلى ما قصه علينا في كتابه العزيز بقوله :(( وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ .))[4] فرحم الله امرأ قال خيرًا أو صمت .))[5]

كما سئل عن هذه المسألة في رسالته :إرشاد السائل إلى دلائل المسائل فقال :

(( إن كان السائل طالبا للنجاة مستفهما عن أقرب الأقوال إلى مطابقة مراد مولاه ... فليدع الاشتغال بهذا الأمر ، ويترك المرور في هذا المضيق الذي تاهت فيه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ،باب الخوارج وصفاتهم (٧٤٦/٢ برقم ١٠٦٥ مكرر) .
(٢) نيل الأوطار : الشوكاني (٣٠/٩) ط/ مكتبة الكليات الأزهرية .
(٣) يقصد حديث :(( إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ،وإن أخطأ فله أجر )) متفق عليه ( أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ،باب أجر الحاكم إذا اجتهد .الخ. الفتح ٣٣٠/١٣ برقم ٧٣٥٢ ،ومسلم في كتاب الأقضية ،باب بيان أجر الحاكم .الخ. ١٣٤٢/٣ برقم ١٧١٦) .
(٤) سورة الحشر : آية ١٠ .
(٥) العذب النمير :الشوكاني ( ورقة ١٨) (مخطوط) وقد ألفها في سنة ١٢٢٢هـ أي بعد تأليفه نيل الأوطار بإثنتي عشرة سنة ،لأنه ألف في سنة ١٢١٠هـ راجع القائمة (ص ٧٧).

الأفكار، وتحيّرت عنده أفكار أهل الأنظار، فإنّ هؤلاء الذين تبحث عن حوادثهم، وتتطلّع لمعرفة ما شجر بينهم، قد صاروا تحت أطباق الثرى، ولقوا ربّهم في المائة الأولى من البعثة، وها نحن الآن في المائة الثالثة عشر، فما لنا والاشتغال بهذا الشأن الذي لا يعنينا، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وأيّ فائدة لنا في الدخول في الأمور التي فيها ريبة، وقد أرشدنا إلى أن ندع ما يريبنا إلى ما لا يريبنا ... ثم قال:

وقد تلاعب الشيطان بكثير من الناس، فأوقعهم في الاختلاف في خير القرون الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شأنهم لبعض من هو من جملتهم، لكنّه تأخر إسلامه منهم: (( لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه.))[1] فإذا كان مثل أحد ذهبا من المتأخرين من الصحابة المخاطبين بهذا الخطاب لا يبلغ مدّ أحد متقدّميهم ولا نصيفه، فما أظنّه يبلغ بمثل أحد ذهبا منّا مقدار حبّة من أحدهم ولا نصفها، فرحم الله امرءًا اشتغل بما أوجبه الله عليه، وطلبه منه، وترك ما لا يعود عليه بنفع لا في الدنيا ولا في الآخرة.))[2]

ولعلّ هذا هو رأي الشوكاني رحمه الله الذي يدين به في هذه المسألة، والذي شاركه فيه المنصفون من علماء أهل السنة[3]، وأيّد ذلك ما ذكرته في هذا البحث من موقفه الشديد من الرافضة في سبّ الصحابة وتجريحهم .[4]

وبعد: فهذا ما أريد أن أقوله في هذا المقام، ولا أستغرب في أن يكون لمثل الشوكاني أكثر من قول واحد في بعض المسائل، وأن يخطئ في بعض آخر، فإنّ ذلك من الأمور الطبيعية التي لا يخلو منها أحد من العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنّ من المعلوم أنّ أحدهم كلّما طال به الزمن في طلب العلم وتقدّم به في ذلك العمر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لو كنت متّخذا خليلا (الفتح ٧/٢٥ برقم ٣٦٧٣)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سبّ الصحابة رضي الله عنهم (١٩٦٧/٤ برقم ٢٥٤٠).

(٢) إرشاد السائل إلى دلائل المسائل: الشوكاني (ص ٤٥، ٤٦) ضمن الرسائل السلفية. وانظر أيضا مثل هذا الكلام في كتابه: درّ السحابة (ص ١١٢، ١١٣).

(٣) انظر عقيدة السلف أصحاب الحديث: الصابوني (ص ٩٣) تحقيق/ بدر البدر، وشرح السنة للبغوي (٢٢٩/١) تحقيق/ شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، والحجّة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل الأصبهاني (٥١٢/٢، ٥٢٢، ٥٢٦) تحقيق/ محمد بن محمود أبو رحيم، ولمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي (ص ٤٠) ط٧ المكتب الإسلامي، وعقيدة الواسطية لابن تيمية (ص ١٨٤، ٢٠١) شرح الدكتور صالح فوزان، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي (ص ٥٢٨-٥٣٢ وأيضا ٥٥٤، ٥٥٥) ط٤ المكتب الإسلامي، وانظر أيضا رسالة الشيخ عبد المحسن العباد بعنوان: من أقوال المنصفين في الصحابي الخليفة معاوية. وقد نقل حفظه الله كلام الشوكاني فيها.

(٤) انظر صفحة (٢٨ - ٣٠ وأيضا ٤١٩ - ٤٢٣)

كلما ازداد به معرفة ونضجا، وهذا هو السبب في كثرة الأقوال التي تروى في المسألة الواحدة عن بعض الأئمة المجتهدين المتبوعين، كالإمام أحمد، وأبي حنيفة، والشافعي، وغيرهم . والله أسأل التوفيق والرشاد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

---

# الباب الأول

## منهج الإمام الشوكاني في الإيمان بالله

ويشتمل على الفصول الآتية :

الفصل الأول : في توحيد الربوبية

الفصل الثاني : في توحيد الألوهية

الفصل الثالث : في توحيد الأسماء والصفات

الفصل الرابع : في نواقض التوحيد

الفصل الخامس : في تعريف الإيمان وما يتعلق به من مسائل

## ( الباب الأول )

## منهج الامام الشوكاني في الايمان بالله

### تمهيد

إن الايمان بالله عزوجل يعني التصديق الكامل بأن الله واحد لا شريك له ، وأنه الذى يستحق وحده أن يفرد بكل أنواع العبادات ، من صلاة ، وصوم ، ودعاء ، ورجاء ، وخوف، وذلّ ، وخضوع ، وأنه المتصف بصفات الكمال كلها ، المنزه عن كل نقص ، ويتلخص هذا في توحيد الله في ربوبيته ، وألوهيته ، وفي أسمائه وصفاته .

فهذه ثلاثة أنواع من التوحيد ، تدخل في معنى الايمان بالله عزوجل ،[1] وهو أساس العقيدة الاسلامية وجوهرها ، وعليه يقوم ماسواه من عقائد هذا الدين، كالايمان بالملائكة، والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر .

وفي هذا الباب تفصيل الكلام في كل نوع من الأنواع الثلاثة، مع بيان منهج الامام الشوكاني في كل منها ،

وأبدأ أولا بتوحيدالربوبية. والله أسأل التوفيق والسداد .

---

(١) انظر: شرح العقيدةالطحاوية ، ابن أبي العزالحنفي ٧٦ ،٧٧، تحقيق: جماعةمن العلماء، ط ٤/ ١٣٩١هـ المكتب الاسلامي، ومدارج السالكين: ابن القيم ٣٣/١ ط ١/ ١٤٠٣هـ دارالكتب العلمية ، وتيسيرالعزيزالحميد : سليمان بن عبدالله ١٧ ط ٣/ ١٣٩٧هـ المكتب الاسلامي .

# الفصل الأول
# في توحيد الربوبية

ويشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : تعريف توحيد الربوبية

المبحث الثاني : منهج الشوكاني في الاستدلال على وجود الله

المبحث الثالث : منهج الشوكاني في الايمان بالقضاء والقدر

## ( الفصل الأول )

## منهج الإمام الشوكاني في توحيد الربوبية

### المبحث الأول : تعريف توحيد الربوبية

#### معنى كلمة الربّ

جاء في الصحاح للجوهري[1] : ربّ كلّ شيء: مالكه ، والربّ اسم من أسماء الله عزّ وجلّ ، ولا يقال في غيره إلّا بالإضافة ، وقد قالوه في الجاهلية للملك .[2]

وجاء في المفردات للأصفهاني ما يلي[3] : ربّ : الربّ في الأصل التربية ، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام ، يقال : ربّه وربّاه وربّبه ، وقيل : لأن يربّني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربّني رجل من هوازن . فالربّ مصدر مستعار للفاعل ، ولا يقال الربّ مطلقاً إلّا لله تعالى المتكفّل بمصلحة الموجودات ، نحو قوله : بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ[4] .. وبالإضافة يقال له ولغيره ، نحو قوله : ربّ العالمين ، وربّكم ، وربّ آبائكم الأوّلين ، ويقال : ربّ الدار ، وربّ الفرس لصاحبهما ، وعلى ذلك قوله تعالى : (( اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ))[5] وجمع الربّ أرباب ، قال تعالى : (( أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ))[6] ولم يكن من حقّ الربّ أن يجمع إذ كان إطلاقه لا يتناول إلّا الله تعالى ، لكن أتى بلفظ الجمع فيه على حسب اعتقاداتهم ، لا على ما عليه ذات الشيء في نفسه .[7]

---

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري ، أبو نصر ، لغويّ ، كان إماماً في اللغة والأدب ، أشهر كتبه : الصحاح توفّي (٣٩٣ هـ) ( انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء : الذهبي ٨٠/١٧ ، ومفتاح السعادة : طاش كبرى زادة ١١٣/١) ط ١/ دار الكتب العلمية .

(٢) الصحاح : الجوهري ( ١٣٠/١ مادة : ربب ) تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار ط ٢/ ١٤٠٢هـ

(٣) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، أديب ، من الحكماء العلماء ، له كتب مفيدة منها : المفردات ، والذريعة إلى مكارم الشريعة ، وجامع التفاسير ، توفّي (٥٠٢ هـ) ( انظر ترجمته في : مفتاح السعادة : طاش كبرى زادة ٢٠٩/١ ، ٧٠/٢ ، والأعلام : الزركلي ٢٥٥/٢ ، ومقدمة كتاب المفردات في غريب القرآن ص ٣ تحقيق/ محمد سيد كيلاني ط/ دار المعرفة )

(٤) سورة سبأ : آية ١٥ . (٥) سورة يوسف : آية ٤٢ .

(٦) سورة يوسف : آية ٣٩ .

(٧) المفردات في غريب القرآن : الأصفهاني (ص ١٨٤ ، ١٨٥ مادة : ربّ ) .

ويفهم من هذين التعريفين أن لفظ الربّ يطلق في اللغة على المالك والسيد والمربّي ، وعلى المتصرف للإصلاح ، وكل هذه المعاني صحيح من حق الله تعالى، ويطلق عليه إطلاقا حقيقيا ، لأنه ربّ كل شيئ ومالكه وإلهه ، قال تعالى: (( ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ))(١)

قال الشيخ تقي الدين أحمد المقريزي(٢) : فمعنى قوله تعالى: ربّ العالمين : رابّ العالمين ، فإنّ الربّ سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد لعباده ، القائم بتربيتهم وإصلاحهم ، المتكفل بصلاحهم ، من خلق ، ورزق ، وعافية ، وإصلاح دين ودنيا .(٣)

ولفظ الربّ فيه معنى التوحيد ، لأنّ الربّ سبحانه وتعالى اختص بالربوبية دون سواه ، فوجب توحيده فيها ، ومن ذلك يقول الشوكاني في بيانه لما في فاتحة الكتاب من معاني التوحيد : (( ... فإن لفظ الربّ باعتبار معناه اللغوي مشعر أتمّ إشعار بالخلاص توحيده ، هذا باعتبار معناه الإفرادي دون الإضافي ، ثمّ في معناه الإضافي دلالة أخرى ، فإنّ كونه ربّ العالمين يدلّ على ذلك أبلغ دلالة .))(٤)

---

(١) سورة الفاتحة : آية ٢

(٢) أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي : مؤرخ الديار المصرية . ولد ونشأ ومات في القاهرة عاش في فترة ( ٧٦٦ـ ٨٤٥هـ )له مؤلفات مفيدة منها : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،وتجريد التوحيد المفيد ( انظر ترجمته في : البدر الطالع : الشوكاني ١/ ٧٩ رقم (٤٦) والأعلام : الزركلي ١/١٧٦ )

(٣) تجريد التوحيد المفيد : المقريزي ٨١ مطبوع ضمن : عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة ،تقديم : عبد الله حجاج .

(٤) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزوجل للإمام الشوكاني ص ١٢ الرسالة الأولى ضمن : العزب النميري في جواب مسائل عالم بلاد عسير للمؤلف نفسه ،مخطوط بمكتبة الجامعة الإسلامية ،تحت رقم (٩٢٥) ميكروفيلم .

أما اطلاق لفظ الربّ على غيره تعالى فاطلاق حقيقي اضافي، يقال : فلان ربّ البيت ، وربّ الدابّة ، وربّ المال ، بمعنى أنه مالكه ، لا بمعنى أنه خالقه ، وهذا الاطلاق لايعني الأكثر من أن الربّ سبحانه أعطاه من فضله هذا القدر من الملك وهو نسبة اضافية ، والغرض من الاضافة رفع الالتباس ، لأن الربّ لا يطلق الا على الله سبحانه ، فهو ربّ كل شيئ وخالقه والمتصرف فيه .

المعنى الاصطلاحي لتوحيد الربوبية

معنى توحيد الربوبية (( هو الاقرار بأن الله تعالى ربّ كل شيئ ومالكه وخالقه ورازقه ، وأنه المحيي والمميت، النافع الضار، المتفرد باجابة الدعاء عندالاضطرار، الذى له الأمركله ، وبيده الخير كله ، القادر على ما يشاء ، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الايمان بالقدر.))[1] أى الايمان بأن كل محدث في الكون صادر عن علم الله عزوجل وارادته وقدرته .

وبعبارة أخرى فان هذا التوحيد معناه : نفي الشريك عنه تعالى في صفات الربوبية الحقة التى تعنى الخلق والرزق والملك والتربية والتدبير ، والاقرار بأنه تعالى وحده هو الفاعل المطلق في الكون، لا يشاركه أحد في فعله سبحانه .

وقد أشار الله تعالى في كتابه الكريم الى هذا المعنى في كثير من الآيات، منها قوله تعالى :

(( ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا .)) (٢)

---

(١) تيسيرالعزيزالحميد : سليمان بن عبدالله ٣٣

(٢) سورة الفرقان : آية ٢

قال الشوكاني: (( أي له التصرف في السموات والأرض بالايجاد، والاختراع، ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباده، ومافيه النفع لهم من أحكامه التي تعبدهم بها وشرعها لهم .)) (١)

وهذا النوع من التوحيد هو كالأساس بالنسبة لأنواع التوحيد الأخرى، لأنّ الخالق المالك المدبر هو الجدير وحده بالتوجه اليه بالعبادة، كما هو الجدير وحده بصفات الجلال والكمال .

وزعم أهل الكلام والنظر والفلسفة ومن وافقهم أن هذا التوحيد هو التوحيد المطلوب الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، فتعبوا في اثباته وتقريره، وليس الأمر كما يزعمون ، لأنّ الغاية الأولى والقضية الكبرى التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب هي توحيده بالعبادة: (( فعبادة الله وحده لا شريك له هو التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب ))(٢)

قال تعالى :

(( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ .)) (٣) ويتضمّن توحيد العبادة توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات كما سيأتي بيانه.(٤)

فطرية توحيد الربوبية وأدلتها

إنّ معرفة الله والاقرار بوجوده أمر ضروري فطري في الانسان، اذ كل واحد من بني آدم يقر بوجود الخالق ويعترف به ، أما ما يظهر على بعض الملحدين من الكفر بالله فهو أمر طارئ على الفطرة ،وانحراف عن الطبيعة البشرية والانسانية، هذا ما قرره جمهور أهل

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ١٢٧/١ ط ٢ / ١٣٨٣هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

(٢) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٧٥ مكتبة الصحابة الاسلامية ، الكويت .

(٣) سورة الأنبياء : آية ٢٥

(٤) انظر صفحة (٢٠١) .

السنة من المسلمين (١) والعقلاء من علماء أوربا (٢).

ومن الأدلة التي يستدلون بها على هذه الحقيقة :

١ ـ قوله تعالى : (( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ، لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.))(٣) وقوله تعالى :(( وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً، فَاخْتَلَفُوا .))(٤)

يرى جمهور العلماء في معنى الآية أن الناس جميعا كانوا على شريعة من الحق فاختلفوا ، فبعث الله النبيين ، وكان أول من بعث الى البشر نوح عليه السلام .(٥)

٢ ـ قوله تعالى :(( فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ،ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .))(٦)

---

(١) على سبيل المثال انظر: منهاج السنة: شيخ الاسلام ابن تيمية ٥/٢٥٧،٤٠٣ تحقيق: د/محمد رشاد سالم ،ط ١/١٤٠٦هـ، وشرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العز الحنفي ٢٧٢ ، وترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان: ابن الوزير اليماني ٨١ ـ ٨٣ ط ١/ ١٤٠٤هـ دار الكتب العلمية ، وفتح الباري:ابن حجر ١٣/ ٣٦١ ط ٤/ ١٤٠٨هـ المكتبة السلفية ،القاهرة ، ودلالة التوحيد: محمد جلال الدين القاسمي ٢٣،٢٤ ط ١/ ١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية .

(٢) انظر: الدين: د/ محمد عبدالله دراز ١٠٧ ـ ١١٤ ط/ ١٤٠٠هـ دار القلم ،الكويت،وأيضا مقارنة الأديان بين اليهودية والاسلام : د/عوض الله جاد حجازى ٣٦ ـ ٤٣ ط٢/ ١٤٠١ هـ دار الطباعة المحمدية ،القاهرة.

(٣) سورة البقرة : آية ٢١٣ (٤) سورة يونس : آية ١٩

(٥) انظر: تفسير الطبرى ٢/ ٣٣٤،٣٣٥ ط / ١٤٠٨ هـ دار الفكر ،وتفسير ابن كثير ١ / ٢٥٧ ط/ دار المعرفة ،وفتح القدير: الشوكاني ١ / ٢١٤ .

(٦) سورة الروم : آية ٣٠

يرى جمهور السلف أنّ المراد بالفطرة هنا هو الاسلام والتوحيد [١]. فالله سبحانه وتعالى يقرّر في كتابه العزيز أنّ توحيده سبحانه فطرة في الانسان فطر الله الناس عليها .

٣ ـ وقد زاد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى تأكيداً في قوله :(( ما من مولود إلّا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه ،... ثمّ يقول أبو هريرة راوي الحديث ـ رضي الله عنه ـ: فطرة الله التي فطر الناس عليها . ))[٢]

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في معنى الحديث:(( للفطرة معان: منها الخلقة ،ومنها الدين . قال في القاموس: والفطرة صدقة الفطر ،والخلقة التي خلق عليها المولود في رحم أمّه ،والدين . انتهى. والمناسب ههنا هو المعنى الآخر ، أعني الدين، أي كلّ مولود يولد على الدين الحقّ، فإذا لزم غيره فذلك لأجل ما يعرض له بعد الولادة من التغييرات من جهة أبويه أو سائر من يربّيه .))[٣]

والحديث ظاهر الدلالة على أنّ الانسان يولد على الفطرة ، وهي ما قرّره الاسلام من التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة من الاشراك، وإنّما البيئة والعائلة وفيها الأبوان هما اللتان تحولان فطرته عن الحقيقة التي انطبعت عليها نفسه .

٤ ـ أثبت العلماء والباحثون الأوربيون [٤] أنّ عقيدة الخالق الأكبر هي

---

(١) انظر تفسير الطبري(٢١/٤٠) ،وتفسير البغوي(٣/٤٨٢) ط/دار المعرفة ،وزاد المسير لابن الجوزي(٦/٣٠٠،٣٠١) ط/ المكتب الاسلامي،وتفسير القرطبي(١٤/٢٥) ط/دار احياء التراث العربي،والفتح لابن حجر(٣/١٩٧) ،وتفسير ابن كثير(٣/٤٤٢) ،وفتح القدير للشوكاني (٤/٢٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز،باب إذا أسلم الصبي فمات يصلّى عليه ( الفتح ٣/ ٦٢٠ برقم ١٣٥٨، ١٣٥٩) واللفظ له ،ومسلم في كتاب القدر،باب ما جاء في كلّ مولود يولد على الفطرة (٤/٢٠٤٧ برقم ٢٦٥٨) تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي،وأبو داود في كتاب السنة،باب في ذراري المشركين(٥/٨٦ برقم ٤٧١٤) ،والترمذي في كتاب القدر،باب ما جاء في كلّ مولود يولد على الفطرة (٤/٣٨٩ برقم ٢١٣٨) تحقيق/كمال يوسف الحوت،وأحمد في المسند(٢/٣١٥،٣٤٦،٣٩٣) .

(٣) نيل الأوطار ، الشوكاني (٩/٦٤) ط/ مكتبة كليات الأزهرية .

(٤) ومن أشهرهم هيرهم : لانج( Lang ) الذي أثبت وجود عقيدة :إلاله الأعلى،عند القبائل الهمجية في أوستراليا وأفريقا وأمريكا ، ومنهم : شريدر ( Sehroeder) الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة ، وبروكلمان ( Brockelman) الذي وجدها عند الساميين قبل الاسلام ، ولرواه (La Roy) ،وكاترفاج (Quatrefages) عند أقزام أواسط أفريقيا، وشميدت (Schmidt) عند الأقزام وعند سكّان أوستراليا الجنوبية الشرقية ، وقد انتهى بحثه إلى أنّ فكرة :إلاله الأعظم،توجد عند جميع الشعوب
====

أقدم ديانة ظهرت في البشر ، مستدلين بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، فتكون الوثنيات ان هي الا أعراض طارئة ، أو أمراض متطفلة ، بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .(١)

اقرار المشركين بتوحيد الربوبية

ويكفي شاهدا على هذه الحقيقة اعتراف مشركي العرب الذين بعث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم بوجود ربّ الخالق سبحانه .

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم اعترافهم بذلك في كثير من الآيات، منها قوله تعالى :

(( قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . ))(٢)

وقوله تعالى :

(( قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ )) (٣)

وقوله سبحانه :

(( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . ))(٤)

وقوله عزوجل :

(( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . )) (٥)

ومثل هذا كثير في القرآن ، فان المشركين من العرب كانوا يقرّون بأصل توحيد الربوبية ، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم ،

---

==== الذين يعدون من أقدم الأجناس الانسانية ( انظر، الدين للدكتور محمد عبدالله دراز ص ١٠٧، ١٠٨ )

(١) الدين ، محمد عبدالله دراز ١٠٧

(٢) سورة يونس ، آية ٣١ (٣) سورة المؤمنون ، آية ٨٦، ٨٧

(٤) سورة الزخرف ، آية ٩ (٥) سورة الزخرف ، آية ٨٧

بل حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم.[(١)] حيث يجعلون أصنامهم وأوثانهم شفعاء ووسائط بينهم وبين الله، كما قال تعالى: (( وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ. ))[(٢)]

وعلى هذا فإنّ اقرارهم بالربوبية لم ينفعهم، ولم يدخلهم في الاسلام، وقاتلهم الرسول صلى الله عليه وسلم، واستحلّ دماءهم وأموالهم، وذلك لأنهم أنكروا توحيد الالهية، وأشركوا بالله في عبادته. قال تعالى: (( وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ. ))[(٣)] (( أي ما يقرّ أكثرهم في اقراره بالله، وبأنه خلقه، وخلق السموات والأرض الا وهو مشرك بعبادة الأوثان. ))[(٤)]

فلم يعتدّ باقرارهم هذا، لأنه خالفه فعلهم، فمن شأن من أقرّ لله بتوحيد الربوبية أن يفرده بتوحيد العبادة، فاذا لم يفعل ذلك فالاقرار الأول باطل.

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية: (( وهذا التوحيد ( يعني الربوبية ) هو من التوحيد الواجب، لكن لا يحصل به الواجب، ولا يخلص بمجرده عن الاشراك الذي هو أكبر الكبائر الذي لا يغفره الله، بل لا بدّ أن يخلص لله الدين، فلا يعبد الا اياه، فيكون دينه لله. ))[(٥)]

ولهذا لم تكن رسالة الرسل في دعوة الناس الى هذا التوحيد، وانما كانت دعوة الرسل الى توحيد الله في الهيته، بأن يعبد وحده لا شريك له، والتخلي عن عبادة الأوثان، وعن اتخاذها وسائط بينه وبين خلقه.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز ٧٩

(٢) سورة يونس: آية ١٨ (٣) سورة يوسف: آية ١٠٦

(٤) تطهير الاعتقاد من أدران الالحاد: محمد بن اسماعيل الأمير الصنعاني ١٣٧ مطبوع ضمن: عقيدة الفرقة الناجية، تقديم: عبد الله الحجاج، شركة السلام العالمية.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية ٣٢٣ ط/ دار الحديث.

يقول الشوكاني في هذا الصدد: (( اعلم أنّ الله لم يبعث رسله، ولم ينزل كتبه لتعريف خلقه بأنه الخالق والرازق لهم ونحو ذلك، فان هذا يقرّ به كل مشرك قبل بعثة الرسل ..... بل بعث الله رسله وأنزل كتبه لاخلاص توحيده، وافراده بالعبادة.)) [1] قال تعالى: (( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ.)) [2]

## المبحث الثاني: منهج الامام الشوكاني في الاستدلال على وجود الله

ذكرت فيما سبق أنّ الاعتقاد بوجود الله أمر فطري لا يحتاج الى دليل، وانما الدليل يكون عند فساد الفطرة وتغيرها، كما رأيناه عند بعض الطوائف من الملحدين، لذلك وجدنا الاستدلال على هذه القضية لتقوم الحجة عليهم، وليردّهم الى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية: (( الاقرار بالخالق وكماله يكون فطريّا ضروريّا في حق من سلمت فطرته، وان كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج الى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها.)) [3]

وقد شغل بهذه القضية أي قضية الاستدلال على وجود الله علماء الاسلام من مختلف الطوائف والمدارس - كما شغل بها من قبلهم - وسلكوا فيها مسالك متعددة، وقبل أن أبدأ في بيان المسلك الذى سلكه الشوكاني في هذه القضية أذكر نبذة موجزة عن مسلك كل من الفلاسفة والمتكلمين في اثبات وجود الله، حتى يتبين لنا منهج الشوكاني من خلال مناهجهم.

### ١) منهج المتكلمين

اعتمد المتكلمون في الاستدلال على وجود الله تعالى على أساس حدوث هذا العالم، واحتياجه الى محدث هو الله سبحانه وتعالى، ولهذا بذلوا جهدا كبيرا

---

(١) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٣٠، ٣١ مكتبة المطابقة الاسلامية.

(٢) سورة النحل: آية ٣٦

(٣) مجموع فتاوى: ابن تيمية ٦ / ٧٣ ط ١/ ١٣٨١ه مطابع الرياض.

في اثبات حدوث العالم ،والرد على من قال بقدمه .[١]

وقد سلكوا في ذلك طرقا متعددة حصرها صاحب المواقف[٢] في أربع طرق فقال :

(( قد علمت أنّ العالم إما جوهراً وعرض ، وقد يستدل بكل واحد منهما، إما بامكانه أو بحدوثه ، فهذه وجوه أربعة : ـ

الأول ـ الاستدلال بحدوث الجواهر : وهو أنّ العالم حادث ، وكل حادث فله محدث .

الثاني ـ بامكانها : وهو أنّ العالم ممكن، لأنه مركب وكثير، وكل ممكن فله علة مؤثرة .

الثالث ـ بحدوث الأعراض : مثل ما نشاهد من انقلاب النطفة علقة ، ثم مضغة، ثم لحماودما ، اذ لا بد من مؤثر صانع حكيم .

الرابع ـ بامكان الأعراض : وهو أنّ الأجسام مماثلة، فاختصاص كل بماله من الصفات جائز، فلا بدّ في التخصيص من مخصّص له .))[٣]

---

(١) انظر: الانصاف : أبوبكرالباقلاني ٢٧، ٢٨ تحقيق: عمادالدين أحمدحيدر، ط ١/ ١٤٠٧هـ عالم الكتب،وكتاب أصول الدين : عبدالقاهرالبغدادي ٥٩، ٦٠، ٦١ ط١/ ١٤٠١هـ دارالآفاق الجديدة ، والتبصيرفي الدين: أبوالمظفرالاسفراييني ١٥٣، ١٥٤ تحقيق: كمال يوسف الحوت،ط١/ ١٤٠٣هـ عالم الكتب، والعقيدةالنظامية :أبوالمعالي الجويني ١٦، ١٧ تحقيق: د/ أحمدحجازي السقا ، والاقتصادفي الاعتقاد: الغزالي ١٩ ـ ٢٦ ط/ ١،دارالكتب العلمية،وشرح جوهرةالتوحيد: البيجوري ٤١، ٤٢ ط / ١٤٠٣هـ دارالكتب العلمية .

(٢) عبدالرحمن بن أحمدبن عبدالغفار،أبوالفضل،عضدالدين الايجي: عالم بالأصول والمعاني والعربية ،من تصانيفه :المواقف في علم الكلام ،والعقائدالعضدية ،توفي سنة ٧٥٦هـ ( طبقات الشافعيةالكبرى:السبكي ٦/ ١٠٨ ومفتاح السعادة : طاش كبرى زادة ١ / ١٩٥ والأعلام : الزركلي ٣ / ٢٩٥ )

(٣) المواقف في علم الكلام :عبدالرحمن الايجي ٢٦٦ الموقف الخامس ، ط/ عالم الكتب .

ويشرح المتكلمون طريقة الحدوث فيقولون بأن العالم مركب من جواهر فردة وأعراض ، وأن الأعراض لا تبقى زمانين متتاليين ، وإنما يطرأ عليها التغير والتحول فهي حادثة ، والجواهر لا تتعرى عن الأعراض التي هي ملازمة لها ، وما دامت الجوهر لا تنفك عن الأعراض فهي حادثة بحدوثها ، لأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث[١] وما دام العالم مكوّناً من الجواهر والأعراض ـ وقد ثبت حدوثها ـ فالعالم حادث ، وإذا ثبت أن العالم حادث كان لا بدّ له من محدث يخرجه من حيز العدم إلى حيز الوجود .

ويلاحظ أنهم يقدمون بكل هذه المقدمات ليدللوا على قضية اعتبرها القرآن الكريم قضية فطرية في الإنسان ، ولا يخفى أن الاستدلال بهذه المقدمات قد كلّف أصحابه جهداً كبيراً ، إذ لزمهم أن يطيلوا البحث في إثبات الجوهر ، وفي إثبات الأعراض وأنها حادثة ، ثم في إثبات لزومها للجوهر ، كل ذلك ليتمّ لهم إثبات حدوث العالم بكل ما فيه .

ولا شك أن هذا المسلك ـ مع ما عليه من مآخذ واعتراضات ـ[٢] مسلك شاق

---

(١) انظر مراجع المتكلمين السالفة الذكر . وقد أفسد شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الطريقة في الاستدلال على وجود الله ، وبين أنها سبب في كل ما التزم المتكلمون من متناقضات عقلية في الصفات الإلهية وغيرها ، وقد التزموا لأجلها نفي صفات الله مطلقاً أو بعضها ، والقول بخلق القرآن ، وانكار رؤية الله تعالى في الآخرة ، وعلوه على عرشه إلى أمثال ذلك من اللوازم الباطلة التي التزموها . ( راجع : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية ١/ ٨٩، ١٧٦، ٢٢٥ ط ١/ ١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية ، وكتاب النبوات للمؤلف نفسه ٦٠ وما بعدها ، و٧٣، ٧٧ وما بعدها ، ط/ ١٤٠٢هـ دار الكتب العلمية . )

(٢) انظر نقد منهج المتكلمين في إثبات وجود الله ، على سبيل المثال : ابن تيمية السلفي محمد خليل هراس ٦٨ ـ ٧٧ ط/ ١٤٠٤هـ دار الكتب العلمية ، ومقدمة كتاب التوحيد لابن تيمية ، تحقيق : د/ محمد السيد الجليند ١٠٦ ـ ١١٥ ط ٣/ ١٤٠٧هـ دار القبلة للثقافة الاسلامية ، ومنهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان : د/ علي بن محمد ناصر الفقيهي ١٠٤ ـ ١٠٨ .

يصعب تصوّره على المتخصصين فضلا عن الجمهور، وفيه من الطول والخفاء واللبس، والابهام ما لا يخفى، فلا يصلح لأن يجعل سبيلا لتحصيل أشرف المطالب وهو الايمان بالله تعالى .

ب ) منهج الفلاسفة

سلك الفلاسفة الالهيون في اثبات وجود الله تعالى طريق الوجوب والامكان، وقسموا الموجود الى واجب وممكن بدلا من قديم وحادث .

قال صاحب المواقف من هذا المسلك :

(( المسلك الثاني للحكماء ،وهو أنّ (في الواقع) موجودا،فان كان (ذلك الموجود) واجبا فذاك (هو المطلوب)،وان كان ممكنا احتاج الى مؤثّر، ولابدّ من الانتهاء الى الواجب،والاّ لزم الدور أو التسلسل. وفي هذا طرح لمؤنات كثيرة كما ترى . ))[١]

إن الفلاسفة بهذا المسلك قسّموا العالم الى واجب وممكن ، ثم استدلوا بالممكن على الواجب من حيث حدوثه بعد أن لم يكن، ومن حيث ثباته على الامكان .

وقد عبّر ابن سينا أحد فلاسفة المسلمين المشهورين[٢] عن هذا الاستدلال في قوله :

(( لا يشك أن هنا وجودا ، وكل وجود فاما واجب واما ممكن،فان كان واجبا فقد صح وجود الواجب ،وان كان ممكنا فانا نوضح أن الممكن ينتهي وجوده الى واجب الوجود . ))[٣]

---

(١) المواقف في علم الكلام ،عضد الدين الايجي(ص ٢٦٦) الموقف الخامس في الالهيات، وما بين القوسين من شرح المواقف للشريف الجرجاني(٣/٥) ط/دار الطباعة العامرة .

(٢) هو الحسين بن عبد الله بن سينا، الفيلسوف الرئيس،صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والالهيات،ومن تصانيفه :القانون في الطب،والشفاء والاشارات والنجاة ، توفي سنة ٤٢٨هـ ( انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال: الذهبي ٦٢/٢ (٢٠١٤) ومفتاح السعادة : طاش كبرى زادة ٢٧٢/١ )

(٣) النجاة : ابن سينا ٣٨٣ ط / مطبعة السعادة بمصر ١٣٣١ هـ .

ولسنا بحاجة الى تفصيل هذا الاستدلال المعقد، فان فيه كلاما كثيرا ليس هنا موضعه، ومن أراد المزيد فعليه بكتب القوم.[1] وحسبنا أن نشير الى أن هذه الطريقة الفلسفية مما يعلم بالاضطرار أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يدع الناس بها الى الاقرار بالخالق سبحانه، ولا سلف الأمة وأئمتها، وقد فنّدها شيخ الاسلام ابن تيمية، وبين ما يترتب عليها من نتائج فاسدة، كنفي جميع الصفات الالهية عنه تعالى، واثبات وجود واجب هو (الله) ليس له حقيقة سوى مطلق الوجود.[2]

وبعد: فهذه فكرة موجزة عن منهج كل من الفلاسفة والمتكلمين في الاستدلال على وجود الله، وقد تبين أنهم جميعا اعتمدوا في استدلالهم على مجرّد العقل، وعلى البراهين المنطقية والفلسفية بشكل عام، وابتعدوا كل الابتعاد عن الأدلة القرآنية التي هي أفضل الطرق وأنفعها لاثبات وجود الله.

ج) منهج الامام الشوكاني

سلك الامام الشوكاني رحمه الله في الاستدلال على وجود الله مسلك القرآن الكريم، وهو اثبات وجود الله عن طريق بيان عظمته، وتدبيره المحكم، وقدرته على كل ما في العالم، وعنايته التامة بكل صغيرة وكبيرة.

آثر الشوكاني أدلة القرآن لأنه وجد في منهجه ما أغناه عن أدلة المتكلمين ومناهجهم، كما وجد فيه من الأدلة والبراهين العقلية ما يتسم بالبساطة والوضوح، ويجعل ادراكها سهلا ميسّرا لكافة المستويات من الناس، على اختلاف مداركهم

---

(١) من كتب الفلاسفة التي تناولت هذا الموضوع: آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي تقديم وشرح: ابراهيم جزيني، دار القاموس الحديث، بيروت، وفصول الحكم للمؤلف نفسه ط/ الخانجي، والاشارات والتنبيهات لابن سينا، شرح نصر الدين الطوسي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف القاهرة.

(٢) انظر: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول: ابن تيمية ١/ ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦ وكتاب النبوات: ابن تيمية ٧٦، ٧٧.

وفطرهم ، بخلاف الأساليب الفلسفية والكلامية المعقدة " المبنية على شفا جرف هار من أدلة العقل التي لا تعقل، ولا تثبت إلا بمجرد الدعاوي والافتراء على العقل بما يطابق الهوى".(١)

وقد اشتمل القرآن الكريم على الحجج والبراهين القاطعة التي تقمع شبهة كل ملحد أو منحرف في كل زمان ومكان . قال تعالى: (( مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ .))(٢) أي ما تركنا في القرآن من أمر الدين، إمّا تفصيلا أو إجمالا.(٣)

ومن خلال تتبعنا لكتب الشوكاني وخاصة تفسيره للقرآن الكريم نجد أن ما من آية يمرّ عليها تتكلم عن أي حال من أحوال الخلق إلا ويشهد فيها الكمال والعظمة وبديع الصفة التي تدلّ على وجود الله تعالى، وتفرده بالكمال والجلال .

ويمكن حصر الطرق التي سلكها الشوكاني رحمه الله في الاستدلال على وجود الله في طريقين :-

<u>الطريق الأوّل : الفطرة والميثاق المعقود بينها وبين بارئها .</u>

تعتبر الفطرة من الأدلة التي نبّه عليها القرآن الكريم ، بل إنه جعلها في مقدمة تلك الأدلة وأساسها ، إذ الاستدلال بها مشروط بالمعرفة الفطرية السابقة والإقرار السابق بالربوبية .(٤)

وكما أوضحناه من قبل(٥) أن وجود الله أمر بدهي فطري، لا يحتاج إلى إقامة الدليل والبرهان ، فالفطرة السليمة مجبولة على الإقرار بوجود الرّبّ الخالق، والإيمان به تعالى مغروز في شعور كل إنسان عاقل، وهذا الشعور الفطري دليل من الأدلة الصادقة على وجود الخالق سبحانه .

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني ١٤٦ تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة الساعي، الرياض.

(٢) سورة الأنعام : آية ٣٨ (٣) فتح القدير: الشوكاني ٢ / ١١٤

(٤) انظر مقدمة كتاب التوحيد لابن تيمية : تحقيق د/ محمد السيد الجليند ٥٤

(٥) راجع : فطرية توحيد الربوبية صفحة ٩٩، ١٠٢ .

يقول الشوكاني عن هذه الفطرة: (( كل فرد من أفراد الناس مفطور أي مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين، وهو الحق، والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف. )) (١)

ومن هنا فلا يجد الشوكاني في استدلاله على وجود الخالق ضرورة إلى اللجوء إلى أدلة المتكلمين وأمثالهم، ما دامت فطرة الإنسان ووجوده كافيين في ذلك.

يقول الله سبحانه: (( فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. )) (٢)

استدل الشوكاني بهذه الآية الكريمة على أن التوحيد أمر فطري في الإنسان، ورجح القول بحمل الناس في الآية على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم، وأنهم جميعا مفطورون على ذلك، لولا عوارض تعرض لهم، فيبقون بسببها على الكفر، ثم قال رحمه الله: (( وهذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه ( ذلك الدين القيم ): أي ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له، ولزوم الفطرة، هو الدين القيم. )) (٣)

ومثل هذه الآية قوله تعالى: (( صِبْغَةَ اللهِ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ. )) (٤) قال الشوكاني: أي الإسلام. (٥) فالإسلام هو صبغة الله في كل مخلوق مدرك. وروى عن مجاهد في قوله تعالى: صبغة الله، قال: فطرة الله التي فطر الله الناس

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٤ / ٢٢٤
(٢) سورة الروم: آية ٣٠
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٤ / ٢٢٤
(٤) سورة البقرة: آية ١٣٨
(٥) فتح القدير: الشوكاني ١ / ١٤٨

عليها ٠)) (١)

وقد أشار الى هذا الدليل الفطري قوله صلى الله عليه وسلم : ما من مولود الا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه ... (٢)

وفي الحديث القدسي : (( إنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وانّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ٠)) (٣) قال الشوكاني في معنى حنفاء : أي مائلين عن الأديان كلها الى دين الاسلام ٠(٤)

وعلى هذا فان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يبعثوا الى الناس الا لتذكيرهم بتوحيد الفطرة ، وتطهيره عن تسويلات الشياطين ٠ قال تعالى حكاية عن الرسل : (( قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ٠)) (٥) إنهم لم يأتوا ليعلّموا الناس بوجود ربّ الخالق، وانما أتوا ليدعوهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ٠

ومما يدلّ على هذا الدليل الفطري أن النفس تدرك وجودا لله بفطرتها، وترجع اليه في الشدائد تستمدّ منه العون، وتطلب منه النجدة ، فمهما تعنت الانسان في انكار هذه الفطرة ، وحال الكبر دون الاقرار بها ، فانها لابدّ أن يظهر أثرها عند اشتداد المحن والكوارث ٠

وقد بيّن الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في كتابه في كثير من الآيات، كقوله تعالى : (( وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْقَاعِدًا أَوْقَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ١ / ١٤٩    (٢) تقدم تخريجه في صفحة ١٠١

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤ / ٢١٩٧ برقم (٢٨٦٥) وأحمد في المسند ٤ / ١٦٢ عن عياض بن حمار المجاشعي ٠ ومعنى اجتالتهم الشياطين: أي استخفتهم فجالوا معهم في الضلال ، يقال: اجتال الشيئ اذا ذهب به وساقه ( انظر: النهاية لابن الأثير ١ / ٣١٧ تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمد أحمد الطناحي، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ٠)

(٤) انظر: فتح القدير : الشوكاني ٥ / ٤٧٦

(٥) سورة ابراهيم : آية ١٠

عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ٠ ))(١)

وقوله تعالى:(( هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ٠ ))(٢)

فسّر الشوكاني هذه الآية وقال:(( وليس هذا لأجل الايمان بالله وحده ، بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك ، لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى الله سبحانه ، وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد ٠ ))(٣)

وقال عند تفسيره لقوله تعالى:(( وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ٠ ))(٤) :(( إن الكفار انما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة ، فأما في هذه الحالة فان كل واحد منهم يعلم بالفطرة علما لا يقدر مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها ٠ ))(٥)

ويربط الشوكاني في تناسق بين هذه المعرفة الفطرية وبين الميثاق الذي أخذه الله على الانسان، وهو في عالم الذرّ قبل أن يخلق ، كما أشار سبحانه في قوله : (( وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ٠ ))(٦)

---

(١) سورة يونس : آية ١٢ (٢) سورة يونس : آية ٢٢

(٣) فتح القدير : الشوكاني ٢ / ٤٣٥

(٤) سورة الاسراء : آية ٦٧

(٥) فتح القدير : الشوكاني ٣ / ٢٤٣ (٦) سورة الأعراف : آية ١٧٢، ١٧٣

يقول الشوكاني في تفسيرالآية :(( إن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرّيته ، وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم الذرّ ، وهذا هو الحق الذى لاينبغي العدول عنه ، ولا المصير الى غيره ،لثبوته مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم ،وموقوفا على غيره من الصحابة .))(١)

وأيّد تفسيره هذا بأحاديث كثيرة ، منها ما رواه الامام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( إنّ الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان - يعني عرفة - ، فأخرج من صلبه كل ذرّية ذرأها، فنشرها بين يديه ، ثم كلّمهم فقال : ألست بربّكم ؟ قالوا : بلى شهدنا . الى قوله : المبطلون.))(٢)

فهذا العهد المأخوذ على الذرّية ميثاق يرتبط ارتباطا وثيقا بالفطرة الانسانية ، كما أنه حجّة الله على الخليقة يوم القيامة ، ولهذا قال سبحانه مذكرا لهم بهذا العهد :أن تقولوا انا كنا عن هذا غافلين ، أوتقولوا ...... الآية .

(( فبين الله سبحانه في هذه الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم ، وأشهدهم على أنفسهم ،وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ، ويحتجوا بهذه العلة الباطلة ، ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة .))(٣)

وهناك ميثاق آخر يرتبط بالميثاق الأول : هو ما جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب ، تجديدا للميثاق الأول وتذكيرا له ،كما قال تعالى : (( رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ،وكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً .))(٤) قال الشوكاني :" وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة تنبيها على أن هذه المعذرة مقبولة لديه

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ٢٦٣/٢

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٧٢/١ قال أحمد شاكر: اسناده صحيح (انظر تحقيقه برقم (٢٤٥٥)،وابن جرير في تفسيره ١١١/٩،وابن أبي عاصم في السنة ٨٩/١ برقم (٢٠٢) والحاكم في المستدرك ٢٧/١، ٥٤٤/٢ وقال :صحيح الاسناد .ووافقه الذهبي،قال الشوكاني (فتح القدير٢٦٣/٢) :واسناده لا مطعن فيه .وقال الألباني - بعد سرد الشواهد والمتابعات للحديث - : وجملة القول ان الحديث صحيح ،بل هو متواتر المعنى (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٦٣/٤ برقم (١٦٢٣).

(٣) فتح القدير : الشوكاني ٢٦٣/٢

(٤) سورة النساء ، آية ١٦٥

تفضلا منه ورحمة ."(١) ومن هذا الميثاق أيضا قال سبحانه : (( وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ))(٢) قال الشوكاني في معنى الآية : " انه سبحانه لا يعذب عباده لا بعد الاعذار اليهم بارسال رسلهم ، وانزال كتبهم ، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى، ولا يؤاخذهم قبل اقامة الحجة عليهم".(٣) كذا قال جمهور المفسرين والمحققين من أهل السنة (٤)

فلا منافاة بين هذا الميثاق والميثاق الأول، لأن كليهما ثابت بالكتاب والسنة ، فمن أدرك هذا الميثاق وهو باق على فطرته التي هي شاهدة بما ثبت في الميثاق الأول فانه يقبل ذلك من أوّل مرّة ولا يتوقّف ، لأنه جاء موافقا لما في فطرته وما جبله الله عليه ، ومن أدركه وقد تغيّرت فطرته عما جبله الله عليه ، بأن كان قد اجتالته الشياطين عن دينه وهوّده أبواه ، أو نصّراه ، أو مجّساه ، فهذا انْ تداركه الله تعالى برحمته ، فرجع الى فطرته ، وصدق بما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب ، نفعه الميثاق الأول ، وان كذّب بهذا الميثاق كان مكذّبا بالأول، فلم ينفعه اقراره به ، وقامت عليه حجّة الله ، وحقّ عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، انّ الله يفعل ما يشاء .(٥)

وخلاصة القول : أن الحجة لا تقوم بذلك الاشهاد وحده ، بل تقوم بالرسل، وان الرسل تأتي مذكرة بذلك الاشهاد الذي نسيه الكل، ولم يولد أحد

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ١ / ٥٣٨

(٢) سورة الاسراء : آية ١٥

(٣) فتح القدير : الشوكاني ٣ / ٢١٤، وانظر أيضا رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله ص ٥ (مخطوط)

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٥/ ٥٤ ، وتفسير البغوي ٣ / ١٠٨، وتفسير الفخر الرازي ٢٠ / ١٧٢، وتفسير القرطبي ١٠ / ٢٣١، ومجموع فتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية ٢ / ٣ ، ١٩ / ٦٦ ، ٢٠ / ٣٢، وتفسير ابن كثير ٣ / ٣١ ، وتفسير الآلوسي ١٥/٣٦، وأضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي ٣/٤٢٩، ودفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب له ١٧٨ ـ ١٨١

(٥) انظر: معارج القبول لحافظ حكمي ١/٦٣ تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.

منهم وهو ذاكر له، وإخبار الرسل به يحصل به اليقين بوجوده .

والكلام في هذه المسألة طويل لا يتسع المقام لبسطه، فنكتفي بهذا القدر اليسير.(١)

الطريق الثاني : النظر والاستدلال بالآيات .

من الأمور المتفق عليها لدى العقلاء أن كل شيئ له علة توجده،أو صانع يصنعه،فإذا نظر الإنسان إلى الكون، واستعرض ما فيه من الكائنات حصل له علم ضروري بأن هذه الكائنات لم توجد صدفة، بل لا بدّ لها من موجد أوجدها .

يشهد لذلك قول بعض الأعراب ، وقد سئل : بم عرفت ربك ؟ فقال: البعرة تدل على البعير، وآثار الخطى تدل على المسير، فهيكل علوي ، وجوهر سفلي ، لم لا يدلان على العليم الخبير.؟ وإلى هذا أشارت الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما حكى الله تعالى في قوله :(( قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .))(٢) فقولهم :( فاطر السموات والأرض ) اشارة الى استنكار الشك فيمن هذا صنيعه وأثره ، والأثر الحقير يدل على صاحبه ، فكيف لا يدل هذا الأمر العظيم بما اشتمل عليه من الآيات والأعاجيب على صانعه ؟(٣)

والقرآن الكريم مملوء بذكر الآيات التي تدعو الإنسان بأن يوجه نظره إلى خلق هذا الكون من سمائه وأرضه ، وما فيهما من عجائب مخلوقات الله ، وتدعوه إلى التفكر في أسراره ليدعم إيمانه بالخالق سبحانه ، ويطرد الشك من نفسه .

يقول الله سبحانه :(( قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي

---

(١) من الكتب الحديثة التي تعالج هذا الموضوع: العذر بالجهل عقيدة السلف لشريف محمد فؤاد هزّاع، والعذر بالجهل والرد على بدعة التكفير لأحمد فريد ،وأهل الفترة ومن في حكمهم لموفق أحمد شكرى،والجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد لعبد الرحمن عبد الحميد.

(٢) سورة ابراهيم : آية ١٠

(٣) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان : ابن الوزير اليماني ٨٣ .

الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ .))[١]

قال الشوكاني : (( والمراد بالنظر : التفكر والاعتبار أي تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته ، فان في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتفكرين، سواء كانت من جلائل مصنوعاته ،كملكوت السموات والأرض، أومن دقائقها من سائر مخلوقاته .))[٢]

وقد سلك الشوكاني هذه الطريقة في الاستدلال بالآيات على وجود الله ، لأنها أدل على المقصود من غيرها ، ولأنها أدلة عقلية صحيحة[٣] وشرعية دلّ عليها القرآن .

وهذه الآيات إما تتعلق بالكون وما فيه من مخلوقات ،أوما يسمى بدلائل الآفاق ،وإما تتعلق بالانسان نفسه ، أوما يسمى بدلائل الأنفس .

وقد جمعهما الله سبحانه في كتابه الكريم في قوله : (( وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ.)) [٤] وقوله :(( سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ ، وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.))[٥]

أ ـ دلائل الآفاق

أما دلائل الآفاق فهي تعني ـ كما قال الشوكاني نقلا عن عطاء[٦] : أقطار السموات والأرض ، من الشمس والقمر والنجوم ، والليل والنهار ، والرياح والأمطار ، والرعد والبرق والصواعق ، والنبات والأشجار ، والجبال ، والبحار ، وغيرذلك .[٧]

---

(١) سورة يونس : آية ١٠١ (٢) فتح القدير : الشوكاني ٤٧٦،٢٧١/٢

(٣) انظر : أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني ١٤٦

(٤) سورة الذريات : آية ٢٠،٢١ (٥) سورة فصلت : آية ٥٣

(٦) لعله :عطاء بن أبي مسلم الخراساني، مفسر،محدث،واعظ،من تصنيفه :التفسير،والناسخ والمنسوخ. قال الحافظ في التقريب (ص ٣٩٢ برقم ٤٦٠٠) : صدوق يهم كثيرا ويرسل ويدلس . توفي سنة ١٣٥هـ (انظرترجمته أيضا في ميزان الاعتدال،الذهبي ٣٩٢ برقم ٤٦٠٠ وشذرات الذهب،ابن العماد ١٩٢/١) .

(٧) فتح القدير : الشوكاني ٥٢٣/٤

وقد جمعها الله سبحانه في قوله: (( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. ))[1]

يقول الشوكاني في تفسيره هذه الآية: (( لمّا ذكر سبحانه وتعالى التوحيد بقوله: ( والهكم اله واحد ) عقب ذلك بالدليل الدال عليه، وهو هذه الأمور التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التي أثبتها الكفار أن يأتي بأي شئ منها أو يقتدر عليه، أو على بعضه، وهي خلق السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وجري الفلك في البحر، وانزال المطر من السماء، واحياء الأرض به، وبثّ الدواب منها بسببه، وتصريف الرياح، فان من أمعن نظره، وأعمل فكره في واحد منها انبهر له، وضاق ذهنه عن تصوّر حقيقته، وتحتّم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه. ))[2]

ومثل هذه الآية قوله تعالى: (( إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ. ))[3]

قال الشوكاني: (( هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه. ))[4]

وآيات الله في الكون أكثر من أن تحصى، لأنّ الله بثّ دلائل وجوده في كل شيئ من الكون، فكلما تأمّل العقلاء في هذا الكون الكبير، وتأمّل ما فيه من تناسق، وتضامن، وانسجام، وترابط بين أجزائه ووحداته، تجدّد لهم

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٤
(٢) فتح القدير: الشوكاني ١٦٣/١
(٣) سورة الجاثية: آية ٣ - ٦
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٤/٥

في كل تأمّل جديد برهان جديد يشير الى الخالق العظيم .

وفي كل شيئ له آية تدل على أنه واحد

وقد أعطى الشوكاني ــ رحمه الله ــ الاستدلال بآيات الآفاق عناية كبيرة ، فمثلا عندما بين الله سبحانه في كتابه العزيز اختلاف النبات في الطعم رغم اتحاد التربة والماء في قوله تعالى :(( وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ، وَزَرْعٌ ، وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .))(١) قال في مفاد هذه الآية :

(( وفي هذا من الدلالة على بديع صنعه ،وعظيم قدرته ،ما لا يخفى على من له عقل، فانّ القطع المتجاورة ، والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات ، مع كونها تسقى بماء واحد، وتتفاضل في الثمرات في الأكل ، فيكون طعم بعضها حلوا ، والآخر حامضا ، وهذا في غاية الجودة ، وهذا ليس بجيد ، وهذا فائق في حسنه ، وهذا غير فائق، مما يقطع من تفكّر ،واعتبر ،ونظر نظر العقلاء أنّ السبب المقتضى لاختلافها ليس الا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه ، لأنّ تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ، ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء الّا لسببين ، إمّا اختلاف المكان الذى هو المنبت ، أو اختلاف الماء الذى تسقى به ، فاذا كان المكان متجاورا ،وقطع الأرض متلاصقة ، والماء الذى تسقى به واحدا لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل الّا تلك القدرة الباهرة ، والصنع العجيب، ولهذا قال سبحانه :( انّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى يعملون على قضية العقل وما يوجبه ،غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات، والاعتبار في العبر الموجودات ))(٢)

وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا مجال هنا لبسطها فأكتفي بما ذكرته .

---

(١) سورة الرعد ، آية ٤

(٢) فتح القدير ، الشوكاني ٦٥/٣

ب ـ دلائل الأنفس

وأما دلالة الأنفس فهي من أوضح دلالة على وجود الله ، لأنها تتعلق بنفس الانسان وخلقه وتكوين أعضائه ، وما يعرض له في حياته من أحوال وأطوار ، فاذا تأمل الانسان في هذه الأشياء تأملا جيدا يجد فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ، ما يضطر معه الى الاعتراف بقادر حكيم ومدبّر عليم .

ولهذا دعا الله سبحانه عباده الى النظر ، والتفكر بعين البصيرة في مبتدإ خلقهم وفي أطواره التي مرّوا بها .

يقول الله سبحانه :(( فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . ))(١)

ويقول سبحانه :(( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ))(٢)

كما حثّهم على النظر والتفكر في أنفسهم لما فيها من آثار قدرته سبحانه وحكمته .

يقول سبحانه :(( وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . ))(٣)

قال الشوكاني في بيان وجهة الاستدلال بهذه الآية :

(( أى وفي أنفسكم آيات تدلّ على توحيد الله وصدق ما جاءت به الرسل ، فانه خلقهم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظما ، الى أن ينفخ فيه الروح ، ثم تختلف بعد ذلك صورهم وألوانهم وطبائعهم وألسنتهم ، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن ، من لحم ودم وأعضاء وحواس ومجارى ومنافس . ))(٤)

فقد استدلّ الشوكاني هنا بأطوار النطفة ، وتقلّبها طبقا بعد طبق ، حتى صار انسانا كاملا ، على وجود الله تعالى ووحدانيته وصدق ما جاءت به رسله ، وقال : (( ومعنى ( أفلا تبصرون ) : أفلا تنظرون بعين البصيرة ، فتستدلّون بذلك على الخالق الرازق المتفرّد بالألوهية وأنه لا شريك له ولا ضدّ ولا ندّ . ))(٥)

---

(١) سورة الطارق : آية ٥
(٢) سورة الروم : آية ٢٠
(٣) سورة الذاريات : آية ٢١
(٤) فتح القدير : الشوكاني ٨٥/٥
(٥) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

وهذه الأطوار الانسانية هي ما أشار اليه سبحانه وتعالى في قوله :

(( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . )) (١)

ومن دلائل الأنفس التي أوضحها الشوكاني مسألة اختلاف الناس ، وتوارثهم في الصفات الجنسية ، من عرب ، وعجم ، وترك ، وروم ، وغير ذلك ، وفي الصفات اللونية ، من البياض ، والسواد ، والحمرة ، والصفرة ، والزرقة ، والخضرة ، مع كونهم أولاد رجل واحد ، وأمّ واحدة ، ويجمعهم نوع واحد ، وهو الانسانية ، وفصل واحد ، وهو الناطقية ، حتى صاروا متميزين في ذات بينهم ، لا يلتبس هذا بهذا ، بل في كل فرد من أفرادهم ما يميزه عن غيره من الأفراد ، وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يفهمه إلا المتفكرون . (٢)

وفي هذا يقول الله سبحانه : (( وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ . )) (٣)

وفي الحقيقة أن الدلائل على وجود الله في الأنفس أكثر من أن تحصى ، فان دلالة الانسان على خالقه تعالى من جوانب عديدة ، ويكفينا ما نراه من مظاهر الإحكام ، والعناية ، والابداع ، في خلق الانسان ، وتركيب حواسه ، ووضع كل عضو في موضعه المناسب لأداء وظيفته ، مما لا يمكن معه الشك في وجود الخالق سبحانه ، وكلما اتسع نطاق العلم ، تضافرت الأدلة على أن لهذا الانسان البديع الصنع الها حكيما .

وهذا استدلال بخلق الانسان على وجود خالقه ومدبّره ، وهو دليل واضح وسهل لا تعقّد فيه ، وعن هذا الاستدلال يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : (( الاستدلال على الخالق بخلق الانسان في غاية الحسن والاستقامة ،

---

(١) سورة المؤمنون : آية ١٢ ـ ١٤ (٢) فتح القدير ، الشوكاني ٢١٩/٤ ، ٢٢٠

(٣) سورة الروم : آية ٢٢

وهي طريقة عقلية صحيحة ، وهي شرعية دلّ القرآن عليها ، وهدى الناس اليها، وبينها وأرشد اليها ، وهي عقلية ، فان كون نفس الانسان حادثا بعد أن لم يكن ، ومولودا ومخلوقا من نطفة ، ثم من علقة ، هذا لم يعلم بمجرّد خبر الرسول ، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم ، سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر ، لكن الرسول أمر أن يستدل به ، ودلّ به ، وبينه ، واحتج به ، فهو دليل شرعي لأن الشارع استدل به ، وأمر أن يستدل به ، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته .))[1]

تلك هي الطرق التي ارتضاها الشوكاني في الاستدلال على وجود الله ، والذى يتضح لنا أن الشوكاني في منهجه هذا موافق لمنهج السلف ، اذ من منهجهم الاستغناء بالقرآن عن أدلة الفلاسفة والمتكلمين وأمثالهم ، وقبول كل دليل عقلي صحيح وشرعي دلّ عليه القرآن وهدى الناس اليه .

وينبغي أن يعرف أن السلف توسعوا في الاستدلال بالآيات ، فمع استدلالهم بآية الخلق التي شملت الآفاق والأنفس على وجود الله ، استدلوا أيضا بالدلائل المأخوذة من طريق الحسّ لمن شاهدها ، وطريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها ،وهو الاستدلال بالمعجزات ، واعتبروا هذا الطريق من أقوى الطرق وأوثقها ، كما بين شيخ الاسلام ابن تيمية ،[2] وابن القيم [3]، والبيهقي [4]، وابن الوزير اليماني [5]، وغيرهم ، ولم أقف على كلام الشوكاني عن هذا الطريق الا ما أشار اليه عند تفسير قوله تعالى:(( وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ.))[6] قال :(( إن سبب الكفر

---

(١) النبوات : ابن تيمية ٧١،٧٢ (٢) انظر :مجموع فتاوى:ابن تيمية ٣٧٧/١١ ـ ٣٨٠ (٣) انظر :مختصر الصواعق المرسلة للموصلي ١٦٠،١٦١ ط/دار الكتب العلمية .

(٤) انظر: الاعتقاد والهداية : البيهقي ٢٧ تعليق:كمال يوسف الحوت ،عالم الكتب والبيهقي:هو الامام الحافظ شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي،فقيه جليل،حافظ كبير،كتب الحديث وحفظه من صباه ،وصنّف تصانيف كثيرة منها: السنن الكبرى،وشعب الايمان ،ودلائل النبوة ،توفّي (٤٥٨هـ)(انظر :سير أعلام النبلاء : الذهبي ١٦٣/١٨ ،والبداية والنهاية : ابن كثير ٩٤/١٢ ،وشذرات الذهب: ابن العماد ٣٠٤/٣)

(٥) انظر ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان : ابن الوزير (ص ٦٤،٦٥) وقد تقدّمت ترجمته في صفحة ٢٦ .

(٦) سورة الأنعام ، آية ٤ .

والتمرّد هو الاعراض عن آيات الله التي تأتيهم ، كمعجزات الأنبياء ، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة ، مما لا يشكّ من له عقل أنه فعل الله سبحانه.))(١)

بهذا وافق الشوكاني السلف في منهجهم ، وخالف منهج المتكلمين، والفلاسفة المعطلين .

نقد الشوكاني منهج المتكلمين في النظر والاستدلال

إن ما ذهب اليه المتكلمون في الاستدلال بالجواهر والأعراض غير مقبول عند الشوكاني، وقد أنكر عليهم وعنّفهم فيما ذهبوا اليه ، لأنهم لم يقفوا على ما تقتضيه أدلّة الكتاب والسنة ، ولا ينبغي لعالم من العلماء أن يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، لأن الحقّ الذى لا شكّ فيه ولا شبهة ، هو ما كان عليه خير القرون، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم(٢)

وقد رأى الشوكاني أنه (( ينبغي عدم الاعتداد بشيئ من تلك القواعد المدوّنة في علم الكلام ، وذلك لأنها مبنية على شفا جرف هار من أدلّة العقل التي لا تعقل ولا تثبت ، الا بمجرّد الدعاوى والافتراء على العقل بما يطابق الهوى .))(٣)

كما أنكر عليهم – رحمه الله – في موضع آخر قال :(( إن سائر المسائل الكلامية مبنية في الغالب على دلائل عقلية ،هي عند التحقيق غير عقلية ، ولو كانت معقولة على وجه الصحة لما كانت كل طائفة تزعم أن العقل يقضي بما دبت عليه ودرجت واعتقدته ، حتى ترى هذا يعتقد كذا ، وهذا يعتقد

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ١٠٠/٢

(٢) انظر: أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني ١٤٦ وأيضا : التحف في مذاهب السلف له ٤ ضمن الرسائل السلفية. والعبارة مقتبسة من الحديث الصحيح، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :((خير الناس قرني،ثم الذين يلونهم ،ثم الذين يلونهم ))رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة (الفتح ٥/٧ برقم (٣٦٥١)ومسلم في كتاب فضائل الصحابة،باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (١٩٦٢/٤ برقم ٢٥٣٢) .

(٣) أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني ١٤٦ .

نقيضه ، وكل واحد منهما يزعم أن العقل يقتضي ما يعتقده ، وحاشا العقل الصحيح السالم من تغيّر ما فطره الله عليه أن يتعقّل الشيء ونقيضه.))(١)

(( ومن العجب العجيب والنبأ الغريب ، أن تلك العبارات الصادرة عن جماعة من أهل الكلام التي جعلها من بعدهم أصولا لا مستند لها إلا مجرّدا لدعوى على العقل،والفرية على الفطرة.))(٢)

وهكذا نجد الشوكاني يبين عيوب المتكلمين في منهجهم ، ويعرب عن فساده ونتائجه الباطلة ، اذ لزم عنه تعطيل صفات الله تعالى ، وردّ بعض النصوص الثابتة من القرآن والسنة ، وفي هذا ذكر الشوكاني لنا مثالا، قال :

" هذا أبوعلي(٣) وهو رأس من رؤوسهم ، وركن من أركانهم ، وأسطوانة من أسطواناتهم ، قد حكي عنه قوله :" والله لا يعلم (الله) من نفسه الا ما يعلم هو."(٤) فانظر هذه الجرأة على الله سبحانه وتعالى التي ليس بعدها جرأة .(٥)

كما نجد الشوكاني يطلب من الباحثين أن يريحوا أنفسهم من العبارات التي جاء المتكلمون واصطلحوا عليها (٦) كالدور والتسلسل ، والإمكان ،

---

(١) كشف الشبهات عن المشتبهات : الشوكاني ١٩ ضمن الرسائل السلفية.

(٢) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٦ ضمن الرسائل السلفية.

(٣) هو أبو علي الجبائي،محمد بن عبد الوهاب بن سلام ،من أئمة المعتزلة ،ورئيس علماء الكلام في عصره ،له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب،توفّي سنة ٣٠٣هـ ( انظر: البداية والنهاية :ابن كثير ١٢٥/١١ ،ومفتاح السعادة :طاش كبرى زادة ١٤٧/٢)

(٤) وشرح هذه المقولة الخاسرة ـ كما قال الشوكاني ـ: أنه أقسم بالله أن الله لا يعلم من نفسه غير ما يعلمه هذا الجبائي !! عياذا بالله تعالى( انظر:كشف الشبهات عن المشتبهات للشوكاني ١٨ ضمن الرسائل السلفية )

(٥) انظر: التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٧ ضمن الرسائل السلفية.

(٦) انظر: المصدر السابق ٦ .

والحدوث ، والأعراض ، والجواهر، والجسم ، والخلاء، وما يوجبه العقل،وما يجيزه ، وما يستحيل عليه ، وغيرذلك ٠ وينكر انكارا شديدا على استدلالهم بهذه الطريقة ، وخاصّة عندما أوجبوا هذا الاستدلال ، وجعلوا النظر فيه هو النظر الواجب على كل مكلف، على اختلاف فيما بينهم ،[١] وقالوا إن من آمن بالله بغير طريق النظر فانما هو مقلد، واختلفوا في حكمه، فرجّح بعضهم كفره، واكتفى بعضهم بتفسيقه.[٢]

يقول الشوكاني ـ رحمه الله ـ بعد سرد هذه المقالة :

(( فيالله العجب من هذه المقالة التي تقشعرّ لها الجلود، وترجف عند سماعها الأفئدة، فانها جناية على جمهور هذه الأمة المرحومة، وتكليف لهم بما ليس في وسعهم، ولا يطيقونه، وقد كفى الصحابة الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد ولا قاربوها الايمان الجملي، ولم يكلفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بين أظهرهم بمعرفة ذلك، ولا أخرجهم عن الايمان بتقصيرهم عن البلوغ الى العلم بذلك بأدلته.))[٣]

وقرّر الشوكاني مذهب أئمة الحديث في هذه المسألة، وهو الاكتفاء بالايمان الجملي، لأنه هوالذى كان عليه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، بل حرّم كثير منهم النظر في ذلك، وجعله من الضلالة والجهالة،

---

(١) اختلفوا في أوّل الواجبات على المكلف،فقال بعضهم هومعرفةالله تعالى،وقال بعض آخرهوالنظرفيها ،وقال آخرون هوأوّل النظر، أي المقدمةالأولى منه ،نحوقولك: العالم حادث،وكل حادث لابدّله من محدث، فمجموع المقدمتين هوالنظر،والمقدمة الأولى هوأوّل النظر. وقال بعضهم هوالقصدالى النظر.(انظر: المواقف في علم الكلام : الايجي ٣٢، وشرح جوهرةالتوحيد: البيجوري ٣٧ )

(٢) انظر: شرح جوهرةالتوحيد: البيجوري ٣٤،٢٢ وأيضا :المواقف : الايجي ٣٣

(٣) ارشادالفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول : الشوكاني ٢٦٦ ط/ دارالمعرفة.

ولم يخف هذا من مذهبهم.(١)

وقال في صدد ردّه على المتكلمين :

(( ونحن لا ننكر من الدلائل العقلية(٢) بقدر ما ينال المسلم به برد الخاطر، وانما ننكر ايجاب التوصّل الى العقائد في الأصول بالطريق الذى اعتمدوه وساموا به الخلق ، وزعموا أن من لم يعرف ذلك لم يعرف الله تعالى ، ثم أدّاهم ذلك الى تكفير العوام أجمع، وهذا هو الخطة الشنعاء والداء العضال ..(٣)

وقال : (( ومن أمعن النظر في أحوال العوام وجدها صحيحا (٤) فان كثيرا منهم نجد الايمان في صدره كالجبال الرواسي ، ونجد بعض المتعلقين بعلم الكلام ، المشتغلين به ، الخائضين في معقولاته ، التي يتخبّط فيها أهلها لا يزال ينقص ايمانه ، وينتقض منه عروة عروة ، فان أدركته الألطاف الربانية نجا والا هلك ، ولهذا تمنّى كثير من الخائضين في هذه العلوم ،المتبحّرين في أنواعها ، في آخر أمره ، أن يكون على دين العجائز (٥) ولهم في ذلك من الكلمات المنظومة والمنثورة ، ما لا يخفى على من له اطلاع على أخبار الناس .))(٦)

والحق الذى عليه سلف هذه الأمة ،أن أصل الاسلام ،وما يؤمر به العباد ، شهادة أن لا اله الا الله ،وأن محمدا رسول الله ، لا المعرفة ، ولا النظر ، ولا القصد الى النظر ،ولا الشك ،كما هي أقوال أهل الكلام المذموم ، وأن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب

---

(١) انظر : ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول : الشوكاني ٢٦٦ .

(٢) لعل الأصل:ونحن لاننكر أنه ينبغي أن يتعلّم من الدلائل العقلية الخ. والله أعلم .

(٣) المصدر السابق(ص ٢٦٧) نقلا عن السمعاني. (٤) كذا في الأصل، والصواب:صحيحة .

(٥) يشير الشوكاني الى ما وقع من الجويني (ت ٤٧٨هـ) ،والرازي (ت ٦٠٦هـ) ،وابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) ،والسهروردي(ت ٥٨٧هـ) ،والغزالي(ت ٥٠٥هـ)،وأمثالهم ،ممن ندموا على ما جنوا به على أنفسهم ،وتمنّى كل منهم في آخر أمره دين العجائز .وقد تقدم الكلام عن هذا في باب التمهيد ،صفحة ( ٣٦ في الهامش ) .

(٦) ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول : الشوكاني ٢٦٦، ٢٦٧ .

بلوغه.(١)

وهذا هو الذي دلّ عليه كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

أمّا كتاب الله، ففيه عدة آيات، منها:

قوله تعالى: (( يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ))(٢)

وقوله تعالى: (( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ. ))(٣)

وفي القرآن كثير من مثل هذه الآية التي يأمر الله فيها عباده بأن يعبدوه، ويخلصوا له الدين ابتداء.

وأمّا السنة، فانّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع الناس الى المعرفة، ولا الى النظر الى الاستدلال على وجود الله ابتداء، بل أوّل مادعاهم اليه شهادة أن لا اله الّا الله، وأن محمدا رسول الله، وهذا واضح في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(( أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا اله الّا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، الّا بحقّ الاسلام، وحسابهم على الله. ))(٤)

وحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، حينما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٧٥، وانظر أيضا: مجموع فتاوى لابن تيمية ١/٧٦، واغاثة اللهفان: ابن القيم ١/٣٠، تحقيق: محمد حامد الفقي.

(٢) سورة البقرة: آية ٢١ (٣) سورة البينة: آية ٥

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الايمان، باب فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم. (انظر: الفتح ١/٩٤، ٩٥ برقم ٢٥) ومسلم في كتاب الايمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا اله الّا الله محمد رسول الله ١/٥٣ برقم (٢٢).

الى أهل اليمن، قال له :(( إنك ستأتي قوما أهل الكتاب ، فاذا جئتهم فادعهم الى أن يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله[١] فان هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فان هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم صدقة ، تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم ... الحديث))[٢]

ففي هذين الحديثين دليل على أن أوّل واجبات الاسلام هو الشهادتان، فبهما يصير الكافر مسلما ، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم ان كان صادقا في نطقه فهو مسلم ظاهرا وباطنا ، وان كان كاذبا في الباطن فهو منافق .[٣]

---

(١) وفي رواية : فليكن أوّل ما تدعوهم اليه عبادة الله ،فاذا عرفوا الله ... ( انظر الفتح حديث رقم ١٤٥٨ ) ،وفي رواية أخرى: فليكن أوّل ما تدعوهم الى أن يوحّدوا الله تعالى، فاذا عرفوا ذلك . (انظر الفتح حديث رقم ٧٣٧٢)·ووجه الجمع بينهما - كما قال الحافظ ابن حجر- : أن المراد بالعبادة :التوحيد ،والمراد بالتوحيد :الاقرار بالشهادتين، والاشارة بقوله : ذلك .الى التوحيد ·وقوله :فاذا عرفوا الله :أي عرفوا توحيدا لله ، والمراد بالمعرفة :الاقرار والطواعية ،فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة في القضية الواحدة ،وبالله التوفيق. ( الفتح ٣٦٧/١٣ ،وانظر أيضا ٤٠٣/٣ ) .

(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الزكاة ،باب أخذ الصدقة من الأغنياء وتردّ في الفقراء حيث كانوا ( الفتح ٤١٨/٣ برقم ١٤٩٦ ،وأخرجه بلفظ آخر برقم ١٣٩٥، ١٤٥٨، ٧٣٧٢ )ومسلم في كتاب الايمان ،باب الدعاء الى الشهادتين وشرائع الاسلام ٥٠/١ برقم (١٩)

(٣) انظر :الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٤٠ مكتبة الصحابة الاسلامية . وأيضا فتح المجيد شرح كتاب التوحيد : عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ٨٤ تحقيق محمد حامد الفقي ،ط/ لاهور .

وقد سبق الشوكاني في نقد المتكلمين القائلين بوجوب النظر ابتداء كثير من العلماء، منهم ابن حزم[1]، وشيخ الاسلام ابن تيمية[2]، والحافظ ابن حجر[3]، وتبين لديهم أن نظر الفلاسفة والمتكلمين لا يغني بكل الناس في معرفة الله سبحانه وتعالى، وبخاصة من لا يقدرون على هذا النوع من الاستدلال، فضلا عن مخالفته منهج الله الذى حمله الرسل جميعا، وبه أخذه السلف عن رسولنا صلى الله عليه وسلم ٠

## المبحث الثالث : منهج الامام الشوكاني في الايمان بالقضاء والقدر

### تعريف القضاء والقدر ومعنى الايمان به

### القضاء في اللغة

جاء في الصحاح :(( القَضَاء : الحُكْم، وأصله قَضَايٌ ، لأنه من قَضَيْتُ ، والجمع الأَقْضية ، والقَضِية مثله، والجمع القَضَايا، وقَضَى أي حَكَمَ، ومنه قوله تعالى (( وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ٠))[4] ))[5]

وجاء في اللسان:(( القضاء، الحكم ، وأصله قَضَايٌ لأنه من قَضَيْتُ، ٠٠٠ وقد تكرر في الحديث ذكر القضاء، وأصله القطع والفصل، يقال: قَضَى يَقْضِي قَضَاءً فهو قاضٍ، اذا حَكَمَ وفَصَلَ، وقضاء الشيء : إِحْكامه وإِمْضاؤه والفراغ منه، فيكون

---

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٦٧/٤ ـ ٧٨ تحقيق: د/محمد ابراهيم نصر، د/ عبدالرحمن عميرة، ط / ١٤٠٢ هـ ٠ وابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي، الامام المحدّث الفقيه، كان شافعيا ثم تركه الى القول بالظاهر، له مؤلفات كثيرة منها: المحلّى، والفصل في الملل والنحل، توفي (٤٥٦هـ)( انظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي ١٨٤/١٨، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٢٩٩/٣) ٠

(٢) ذكر ابن تيمية هذا القول، وبيّن أنه من قول الجهمية والمعتزلة، وأنّ الاشاعرة ومن سلك مسلكهم تابعوهم في ذلك، وردّ على القائلين به في عدة مواضع من كتبه، وعلى سبيل المثال انظر: درء تعارض العقل والنقل (٤٠٥/٧ ـ ٤٦٤) تحقيق د/رشاد محمد سالم ط/ ١٤٠٢ هـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ٠

(٣) انظر الفتح (٣٦١/١٣ـ٣٦٧) وقد نقل أقوالا كثيرة في الرد عليهم، وابن حجر هو أحمد بن علي ابن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر، شيخ الاسلام وامام الحفاظ في زمانه، له تصانيف كثيرة جليلة منها: فتح الباري، ولسان الميزان، وتهذيب التهذيب، توفي (٨٥٢هـ)(انظر الضوء اللامع للسخاوي ٣٦/٢، والبدر الطالع للشوكاني ٨٧/١) ٠

(٤) سورة الاسراء: آية ٢٣ ٠

(٥) الصحاح : الجوهري (٢٤٦٣/٦) مادة: قضى، وانظر أيضا: المفردات: الأصفهاني (ص ٤٠٦) ٠

بمعنى الخلق ،وقال الأزهري [١] :" القضاء في اللغة على وجوه ،مرجعها الى انقطاع الشيئ وتمامه ، وكل ما أُحكم عمله ،أو أُتِمّ ،أو خُتِم ، أو أُدِّي أداء ،أو أُوجب أو أُعلم ،أو أُنفذ ،أو أُمضي، فقد قُضي ، قال : وقد جاءت هذه الوجوه كلها، في الحديث ، ومنه القضاء المقرون بالقدر.))[٢]

القدر في اللغة

والقدر في اللغة كما جاء في اللسان هو: القضاء الموفق ، يقال : أقدر الاله كذا تقديرا ، واذا وافق الشيئ الشيئ ، قلت جاء قدره. قال ابن سيدة [٣]: القَدْر والقَدَر: القضاء والحكم ، وهو ما يقدره الله عزوجل من القضاء ويحكم به من الأمور. قال الله عزوجل:(( إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ))[٤] أي الحكم ...... وفي الحديث ذكر ليلة القدر ،وهي الليلة التي تقدر فيها الأرزاق وتقضى.))[٥]

القضاء والقدر في الاصطلاح

أما القضاء والقدر في الاصطلاح ، فاختلفت عبارات العلماء في تعريفهما ، منهم من فرّق بينهما ، فعرّف القضاء تعريفا مغايرا للقدر، ومنهم من اعتبرهما شيئا

---

(١) أبومنصورمحمدبن أحمد الأزهري الهروي،أحد الأئمة في اللغة والأدب ، له : التهذيب في اللغة ،وغيره ، توفي سنة ٣٧٠ هـ ( وفيات الأعيان : ابن خلكان ٥٠١/١ ،ومفتاح السعادة : طاش كبرى زادة ١١٠/١ )

(٢) لسان العرب : ابن منظور ١٨٦/١٥ مادة ( قضي )

(٣) أبوالحسن علي بن اسماعيل، المعروف بابن سيدة ، امام في اللغة وآدابها ، توفي سنة ٤٥٨ هـ ( وفيات الأعيان : ابن خلكان ٣٤٢/١ ،ولسان الميزان : ابن حجر ٢٠٥/٤ )

(٤) سورة القدر : آية ١

(٥) لسان العرب : ابن منظور ٧٤/٥ مادة ( قدر ) ،وانظر أيضا : النهاية لابن الأثير ٢٢/٤ .

واحداً .

فمن الأول قول الجرجاني[1] في التعريفات : (( القضاء في الاصطلاح عبارة عن الحكم الكلي الالهي في أعيان الموجودات، على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل الى الأبد. والقدر خروج الممكنات من العدم الى الوجود واحداً بعد واحد مطابقاً للقضاء، والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال، والفرق بين القضاء والقدر هو أن القضاء وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرّقة في الأعيان بعد حصول شرائطها . ))[2]

وقد عكس بعضهم ،فجعل تعريف القضاء السابق للقدر، وتعريف القدر للقضاء، كما ذهب اليه الأصفهاني[3] في كتابه : المفردات، قال : (( والقضاء من الله تعالى أخصّ من القدر، لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعدّ للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل، وهذا كما قال أبوعبيدة لعمر رضي الله عنهما لمّا أراد الفرار من الطاعون بالشام : " أتفرّ من القضاء ؟ قال: أفرّ من قضاء الله الى قدر الله، تنبيها أنّ القدر مالم يكن قضاء فمرجوّ أن يدفعه الله، فاذا قضي فلا مدفع له،

---

(١) علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني،فيلسوف،من كبار العلماء بالعربية، له نحو خمسين مؤلفا،توفّي سنة ٨١٦هـ ( انظر ترجمته في،مفتاح السعادة ،طاش كبرى زادة ١٩٢/١،١٩٣ والبدر الطالع : الشوكاني ٤٨٨/١ . )

(٢) التعريفات : الجرجاني ١٧٤،١٧٧ ط/١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية وانظر أيضا: الفتح لابن حجر ١٥٣/١١ ،ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ٣٤٥/١، ط/ المدني .

(٣) تقدّمت ترجمته في صفحة ( ٩٦ )

ويشهد لذلك قوله تعالى:(( وَكَانَ أَمْراً مَقْضِياً )) (١) (٢)

وعلى كل فان القضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، وقد أشار الى ذلك الخطابي(٣) حيث قال بعد تعريفه لهما :(( وجماع القول في هذا انهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه.))(٤)

أما من جعل للقضاء والقدر مدلولا واحدا مشتركا (٥) فمعناه: تعلّق علم الله تعالى بالكائنات، وارادته لها قبل وجودها، فلا حادث الا وقد قدّره الله أي سبق علمه به، وتعلقت به ارادته. وهذا ما يبدو من ظاهر الاستعمالات الاصطلاحية لهما، اذ قد يجتمعان في الاستعمال، وقد ينفردان، والمدلول واحد.

وعقيدة القضاء والقدر مبنية في حقيقتها على المعرفة الحقّة بصفات الله العلى وأسمائه الحسنى، ومنها العلم، والقدرة، والارادة.

قال تعالى:(( وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.))(٦)

وقال تعالى:(( فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ.))(٧)

وقال تعالى:(( يَبْسُطُ الرِزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.))(٨)

وقال :(( قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن

---

(١) سورة مريم : آية ٢١

(٢) المفردات في غريب القرآن : الأصفهاني ٤٠٦،٤٠٧

(٣) أبو سليمان حمد بن محمد بن ابرهيم بن الخطاب البستي،فقيه ،محدّث،له مؤلفات في الحديث وغيره ،توفي سنة ٣٨٨ هـ ( أنظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ،الذهبي ٢٣/١٧ ومفتاح السعادة ،طاش كبرى زادة ١٢٨/٢ ،والأعلام ،الزركلي ٢٧٤/٢ )

(٤) معالم السنن شرح سنن أبي داود ،الخطابي ٧٧/٥ دار الحديث للطباعة.

(٥) كما ذهب اليه كثير من أهل العلم ،انظر ،الفصل لابن حزم ٧٨/٣ تحقيق،د/محمد ابرهيم نصر د/عبد الرحمن عميرة ،والفتح لابن حجر ١٥٣/١١ ،وشرح كتاب الفقه الأكبر للملا على القاري ٢٢ ،وعقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ٣٤٥.

(٦) سورة الأنعام ،آية ١٠١ (٧) سورة البروج ،آية ١٦ (٨) سورة الشورى ،آية ١٢

تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.))(١)

ولهذا قال الامام أحمد ـ رحمه الله ـ عندما سئل عن القدر: "القدر قدرة الله".(٢)

" وقد استحسن ابن عقيل(٣) هذا الكلام جدا ، وقال: "هذا يدلّ على دقة علم أحمد، وتبحّره في معرفة أصول الدين".(٤)

والحق أن تعريف الامام أحمد للقدر تعريف مختصر جميل، لأن القدر ما هو الا القدرة الالهية الشاملة لكل شيء من الموجودات والمعدومات ، فانكار القدر انكار لهذه القدرة. وهذا كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ :" القدر عند أهل السنة: قدرة الله تعالى وعلمه، ومشيئته وخلقه ، فلا تتحرّك ذرّة فما فوقها الآ بمشيئته وعلمه وقدرته." (٥)

معنى الايمان بالقضاء والقدر والأدلة على ذلك

ومما تقدّم يفهم معنى الايمان بالقضاء والقدر، فالايمان بالقضاء والقدر هو أن يصدّق الانسان تصديقا جازما بأن كل خير وشرّ فهو بقضاء الله وقدره، وأنه سبحانه سبق علمه بكل مخلوق، وشاء وجوده، وأوجده وفق ما قدّره له، وأنه الفعّال لما يريد، لا يكون شيئ الآ باذنه وارادته، ولا يخرج شيئ عن مشيئته وعن تقديره، لا أفعال الانسان ولا غيرها ، وأنه تعالى هو الخالق لأفعال عباده كلها ، سواء كانت خيرا أم شرّا ، ومع ذلك فقد أمرهم سبحانه ونهاهم ، وجعلهم مختارين لجميع أفعالهم ، وليسوا مجبورين عليها ، بل تحصل منهم بقدراتهم وإراداتهم ، يهدي من يشاء برحمته، ويضلّ من يشاء بحكمته ، لا يسئل

(١) سورة آل عمران: آية ٢٦ (٢) شفاء العليل: ابن القيم ٥٩ مكتبة دار التراث

(٣) أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته، له كتاب: الفنون والفرق والفصول والرد على الأشاعرة وغير ذلك، توفي سنة ٥١٣ هـ ( انظر ترجمته في: لسان الميزان: ابن حجر ٢٤٣/٤ والذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب ١٤٢/١ ) .

(٤) شفاء العليل: ابن القيم ٥٩، ٦٠ (٥) المصدر السابق ١١٣

عما يفعل وهم يسئلون، وبهذا كله يجب الايمان، وبه يتحقّق الايمان الشرعي المطلوب بالقضاء والقدر الذى أمر به سبحانه، وجاءت به السنة النبوية المطهرة .

وقد دلّ على وجوب الايمان بالقضاء والقدر أدلّة كثيرة في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فمن الآيات قوله تعالى :(( إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ.))(١)

" أى إن كل شيئ من الأشياء خلقه الله سبحانه متلبسا بقدر قدّره وقضاء قضاه، سبق في علمه، مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه."(٢)

وقوله تعالى:(( وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا .))(٣)

" أى قدّر كل شيئ مما خلق بحكمة على ما أراد، وهيأه لما يصلح له."(٤)

وقوله تعالى :(( وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا .))(٥) " أى قضاء مقضيا ."(٦)

أما الأحاديث في هذا الباب فكثيرة جدّا ، ومنها :

١ ـ حديث جبريل المشهور، حين جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة أعرابي يسأله عن الاسلام، والايمان، والاحسان، قال صلى الله عليه وسلم : (( أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه.))(٧)

---

(١) سورة القمر : آية ٤٩ (٢) فتح القدير : الشوكاني ١٢٩/٥

(٣) سورة الفرقان : آية ٢ (٤) فتح القدير : الشوكاني ٦١/٤

(٥) سورة الأحزاب : آية ٣٨ (٦) فتح القدير : الشوكاني ٢٨٥/٤

(٧) أخرجه مسلم في كتاب الايمان، باب بيان الايمان والاسلام والاحسان ٣٦/١ برقم (١)، وأبوداود في كتاب السنة، باب في القدر ٦٩/٥ ـ ٧٢ برقم (٤٦٩٥)، والترمذي في كتاب الايمان، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم الايمان والاسلام ٨/٥ برقم ( ٢٦١٠ )، والنسائي في كتاب الايمان، باب صفة الايمان والاسلام ١٠١/٨ برقم (٤٩٩١)، وابن ماجة في المقدمة، باب في الايمان ٢٤/١ برقم (٦٣)، وأحمد في المسند ٢٧/١، وابنه عبدالله في السنة ٤١٤/٢ برقم (٩٠١)، والآجري في الشريعة ١٨٩، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١١٥٧/٦ برقم (٢١٨٠) .

٢ ـ حديث ابن الديلمي قال : أتيت أبيّ بن كعب ، فقلت له : وقع في نفسي شيء من القدر، فحدّثني بشيء لعلّ الله أن يذهبه من قلبي، قال: لو أنّ الله عذّب أهل سماواته وأهل أرضه ، عذّبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد ذهبا في سبيل الله ، ما قبل الله منك حتّى تؤمن بالقدر، وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متّ على غير هذا لدخلت النار، قال: ثمّ أتيت عبدالله بن مسعود فقال مثل ذلك ، قال: ثمّ أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، قال: ثمّ أتيت زيد بن ثابت فحدّثني عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك .[1]

٣ ـ حديث جابر بن عبدالله أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( لا يؤمن عبد حتّى يؤمن بالقدر خيره وشرّه ، حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه . ))[2]

فهذه بعض الأحاديث التي توجب الايمان بالقدر، وهناك أحاديث كثيرة في هذا الصدد فلتنظر في مظانها .

والايمان بالقدر يتضمّن أربع مراتب هي اجمالا كما يلي:ـ

١ ـ الايمان بعلم الله الأزلي بكل شيء من الموجودات والمعدومات،

---

(١) أخرجه أبوداود في كتاب السنة،باب في القدر ٧٥/٥ برقم (٤٦٩٩) وابن ماجة في المقدمة ، باب في القدر ٢٩/١ برقم (٧٧) وأحمد في المسند ١٨٢/٥، ١٨٥، ١٨٩، وابن أبي عاصم في السنة ١٠٩/١ برقم (٢٤٥) والآجري في الشريعة ١٨٧، ٢٠٣، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٦١٢/٤، ٦١٣ برقم (١٠٩٢، ١٠٩٣) قال الشيخ الألباني: اسناده صحيح ،ورجاله ثقات (انظر: السنة لابن أبي عاصم ١٠٩/١ ومشكاة المصابيح ٤١/١ برقم (١١٥) ،وشرح العقيدة الطحاوية ٥٠٩ في الهامش .).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب القدر،باب الايمان بالقدرخيره وشرّه ٣٩٣/٤ برقم (٢١٤٤)، عن جابر بن عبدالله . وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ١٢٥٨/٢ برقم (٧٥٨٥)

ومن ذلك علمه بأعمال الخلق من الطاعات والمعاصي ، وعلمه بأحوالهم من الأرزاق والآجال وغيرها .

قال تعالى للملائكة لمّا استنكروا استخلاف بني آدم في الأرض :

(( إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . ))(١)

وقال تعالى:(( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ . ))(٢)

٢ ـ الايمان بأنّ الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فما من شيئ في الكون الاّ وقد علمه الله ،وكتبه قبل حدوثه .

قال تعالى :(( لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . ))(٣) أى في اللوح المحفوظ الذى اشتمل على معلومات الله سبحانه .(٤)

وقال تعالى:(( مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . ))(٥)

٣ ـ الايمان بمشيئة الله الشاملة ،وقدرته التامّة لكل شيئ من الموجودات والمعدومات ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وانّه على كل شيئ قدير .

قال تعالى :(( كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . ))(٦)

وقال سبحانه :(( وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . ))(٧)

٤ ـ الايمان بخلقه سبحانه ، وايجاده لكل المخلوقات ، فما من مخلوق في الأرض ، ولا في السماء،الاّ الله خالقه ، لا خالق غيره ، ولا ربّ سواه .

قال تعالى:(( اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْئٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْئٍ وَكِيلٌ . ))(٨)

---

(١) سورةالبقرة : آية ٣٠
(٢) سورةالحج : آية ٧٠
(٣) سورةسبأ : آية ٣
(٤) فتح القدير : الشوكاني ٣١٢/٤
(٥) سورةالحديد : آية ٢٢
(٦) سورةآل عمران : آية ٤٠
(٧) سورةالتكوير : آية ٢٩
(٨) سورةالزمر : آية ٦٢

وقد دلّ على الايمان بهذه المراتب الأربع أدلّة كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف لا مجال هنا لبسطها .(١)

والايمان بالقدر أحد أركان العقيدة الاسلامية ، وهو الركن السادس للايمان ،كما جاء في حديث جبريل السابق ، وهذا الركن من الايمان داخل في الايمان بربوبية الله تعالى على خلقه ، اذ أنّ من آمن بأنّ الله هو الخالق، والرازق،والمدبّر والمتصرّف في شئون خلقه كلها ، فهو مؤمن بالقضاء والقدر، وعلى هذا فلا يتمّ توحيد الربوبية الّا باثبات القدر(٢) والايمان به ايمانا صحيحا كما جاء في كتاب الله ،وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكما فهمه علماء السلف رحمهم الله تعالى .

منهج السلف في الايمان بالقدر

إنّ المنهج الذى عليه سلف الأمّة في الايمان بالقدر هو مادلّ عليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهوالايمان بأنّ كلّ شيئ بقضاء الله وقدره ، وأنّ الله تعالى على كل شيئ قدير، وأنّه ما شاء كان، ومالم يشألم يكن، والقدر عند السلف ما سبق به علم الله ،وجرى به القلم ،ممّا هو كائن من خلقه الى الأبد ، فهو الذى أوجد وأفنى ، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضلّ وهدى(٣)

وقد فصّل ابن القيم ــ رحمه الله ــ منهج السلف في الايمان بالقدر حيث

---

(١) انظرتفصيلها في: شفاءالعليل لابن القيم ٦١ ــ ١٤٠ ،وأيضا مجموع فتاوى لابن تيمية ١٤٩،١٤٨/٣ ،وشرح العقيدةالطحاوية لابن أبي العزالحنفي ٣٠٦ .

(٢) انظر تيسيرالعزيزالحميد، سليمان بن عبدالله ٦٨٥ .

(٣) انظرأقوال علماءالسلف في بيان هذاالمنهج في:شرح العقيدةالطحاوية ،ابن أبي العز الحنفي ٣٠٢،٣٠٣، والشريعة ،الآجري ١٥٠،١٥١ ،وعقيدةالسلف أصحاب الحديث،الصابوني ٦٢،٦٣،ضمن عقيدةالفرقةالناجية ،ولمعةالاعتقاد ،ابن قدامةالمقدسي ٢٤،٢٥ ،ومنهاج السنة ،ابن تيمية ١٢/٣،١٣ ،ومختصرالصواعق المرسلة ،ابن القيم ٥٨٨،ولوامع الأنوار البهية ،السفاريني ٢٧٦/١،٣٤٨ .

قـــال :

(( فانهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال، ومشيئته العامة، وينزّهونه عن أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه، ولا هو واقع تحت مشيئته، ويثبتون القدر السابق، وأن العباد يعملون ما قدّره الله وقضاه وفرغ منه، وأنه لا يشاءون إلا أن يشاء الله، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا تخصيص عندهم في هاتين القضيتين بوجه من الوجوه، والقدر عندهم قدرة الله تعالى وعلمه ومشيئته وخلقه، فلا تتحرّك ذرّة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته .....

وقال عن الهداية والاضلال :

(( ويؤمنون بأنّ من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأنه هو الذي يجعل المسلم مسلما، والكافر كافرا، والمصلّي مصلّيا، والمتحرّك متحرّكا، وهو المقيم والعبد القائم، وهو الهادي والعبد المهتدي، وأنه المطعم والعبد الطاعم، وهو المحيي المميت والعبد الذي يحيَى ويموت .

ومن أفعال العباد قال:

(( ويثبتون مع ذلك قدرة العبد، وإرادته، واختياره، وفعله، حقيقة لا مجازا، وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول ... فحركاتهم واعتقاداتهم أفعال لهم حقيقة، وهي مفعولة لله سبحانه، مخلوقة له حقيقة، والذي قام بالربّ عزّوجلّ علمه، وقدرته، ومشيئته، وتكوينه، والذي قام بهم هو فعلهم، وكسبهم، وحركاتهم، وسكناتهم، فهم المسلمون، المصلّون، القائمون، القاعدون حقيقة، وهو سبحانه هو المقدّر لهم على ذلك، القادر عليه، الذي شاءه منهم، وخلقه لهم، ومشيئته وفعله بعد مشيئته، فما يشاؤون إلا أن يشاء الله، وما يفعلون إلا أن يشاء الله .))(١)

هذا خلاصة مذهب السلف أهل السنة والجماعة في الايمان بالقدر، وهو مذهب الوسط الذي دلّت عليه الكتب المنزّلة، وأخبرت به الرسل المرسلة، وعليه

---

(١) شفاء العليل : ابن القيم ١١٣ .

سلف الأمّة وأئمّتها .

وقد كان السلف من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم يكرهون الجدال في القدر، ويذمّون من خاض فيه ، بل حذّروا من ذلك، لأنّ البحث في سرّ القدر، والنظر في دقائقه من الأمور التي استأثر الله بعلمها ، فلم يطلع عليها أحدا من الخلق، لا ملكا مقرّبا ولا نبيّا مرسلا .

وقد ثبت أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن الخوض في القدر والتعمق فيه ، لما يؤدّي إليه من نتائج سيّئة .

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: (( خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، وهم يختصمون في القدر، فكأنّما يفقأ في وجهه حبّ الرمان[1] من الغضب، فقال: بهذا أمرتم ، أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض ، بهذا هلكت الأمم قبلكم . قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطت نفسي[2] بمجلس تخلّفت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلّفي عنه . ))[3]

كما ورد عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم تحذيرهم عن الخوض في القدر.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (( باب شرك فتح على أهل الصلاة : التكذيب بالقدر، فلا تجادلوهم ، فيجري شركهم على أيديكم . ))[4]

---

(١) أي فغضب، فاحمرّ وجهه من أجل الغضب احمرارا يشبه فقأ حبّ الرمان في وجهه ، وفقئ أي بُخِص ( النهاية : ابن الأثير ٤٦١/٣ مادة : فقأ ).

(٢) أي ما استحسنت فعل نفسي. يقال: غبطت الرجل أغبطه غبطا إذا اشتهيت أن يكون لك مثل ماله. ( النهاية : ابن الأثير ٣٣٩/٣ مادة : غبط ).

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب في القدر ٣٣/١ برقم (٨٥) ، وأحمد في المسند ١٩٥/٢ ، وحسّنه الألباني في حاشية المشكاة ٣٦/١ برقم (٩٩) ، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٦٢٧/٤ برقم (١١١٩)

(٤) رواه الآجري في الشريعة ٢١٥ ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٦٢٩/٤ برقم (١١٢٦) .

وقال أيضا :(( ما غلا أحد في القدر إلا خرج من الإسلام . ))(١)

وجاء رجل عليا رضي الله عنه قال: أخبرني عن القدر.

قال : طريق مظلم ،فلا تسلكه .

قال : أخبرني عن القدر .

قال : بحر عميق فلا تلجه .

قال : أخبرني عن القدر .

قال : سرّ الله فلا تكلّفه .(٢)

وعن وهب بن منبّه (٣) أنه قال :(( نظرت في القدر فتحيّرت ، ثمّ نظرت فيه فتحيّرت ، ووجدت أعلم الناس في القدر أكفّهم عنه ، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به .))(٤)

وقد سلك هذا المسلك العلماء من بعدهم الذين ساروا على ما سار عليه الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

يقول الآجرّي (٥):(( إنه لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث عن القدر، لأن القدر سرّ من أسرار الله عزوجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير

---

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٦٣٢/٤ برقم (١١٣١) .

(٢) رواه الآجري في الشريعة ٢٠٢ ،واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٦٢٩/٤ برقم (١١٢٣) .

(٣) أبوعبدالله وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني الذماري،مؤرخ ،كثيرالأخبار عن الكتب القديمة ،يعدّ في التابعين،قال ابن حجر في التقريب (ص ٥٨٥ برقم ٧٤٨٥): ثقة من الثالثة . توفي سنة ١١٤هـ ( انظر ترجمته في :حلية الأولياء :لأبو نعيم الأصبهاني ٢٣/٤ ،ووفيات الأعيان :لابن خلكان ١٨٠/٢ ،والأعلام :للزركلي ١٢٥/٨ )

(٤) شرح العقيدة الطحاوية :لابن أبي العز الحنفي ١٥٥ .

(٥) محمد الحسين بن عبدالله أبوبكر الآجري،نسبته إلى آجر من قرى بغداد ،فقيه شافعي، محدّث،كان إماما عالما عاملا،صاحب سنّة واتباع ،له تصانيف كثيرة ،توفي سنة ٣٦٠هـ . (انظر ترجمته في:تاريخ بغداد :للخطيب البغدادي ٢٤٣/٢ ،وتذكرة الحفاظ :للذهبي ١٣٦/٣ ،ومقدمة كتابه :الشريعة -بتحقيق:محمد حامد الفقي،والأعلام :للزركلي ٩٧/٦ ) .

أو شرّ واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر، فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق .))(١)

ويقول أيضا الطحاوي (٢) وهو أحسن ما يقول :

(( وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطّلع على ذلك ملك مقرّب،ولا نبيّ مرسل، والتعمّق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة، فان الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه :(( لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ.))(٣) فمن سأل: لِمَ فعل ؟ فقد ردّ حكم الكتاب، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين .))(٤)

وينبغي أن أشير هنا الى أن الامام الشوكاني - رحمه الله - قد سلك هذا المسلك ودعا اليه، والدليل على ذلك أنه عندما سئل عن مسألة خلق الأفعال، حسنها وقبيحها ،خيرها وشرّها ، كره الخوض فيها وفي تفصيلها ، لأنها طالت ذيولها، وتنوّعت مسالكها ، وأكّد - رحمه الله - أنّ الجهل في كثير من المواطن خير من تكلّف العلم بها ، والدخول في مضايق لم يتعبّد الله بها أحدا من عباده ،ولم يسعه ما وسعه خير القرون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ،في هذه المسألة ونظائرها،فلا وسعه الله عليه .(٥)

وقبل أن أبدأ في بيان تفصيلي لمنهج الامام الشوكاني في مسائل القدر

---

(١) الشريعة : الآجري ١٤٩ .

(٢) أبوجعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي،نسبة الى قرية :طحا،بصعيد مصر الامام المحدث الفقيه الحافظ،قال ابن كثير :هو أحد الثقات الأثبات،والحفاظ الجهابذة له تصانيف منها:العقيدة الطحاوية ،ومعاني الآثار وبيان السنة ،توفي سنة ٣٢١هـ (انظر ترجمته في:الفهرس :ابن النديم ٢٩٢ والبداية والنهاية :ابن كثير ١٧٤/١١ ،ومفتاح السعادة :طاش كبرى زادة ٢٤٩/٢ والأعلام :الزركلي ٢٠٦/١ )

(٣) سورة الأنبياء : آية ٢٣

(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العز الحنفي ٢٧٦ .

(٥) انظر: رسالة تتعلق بتوحيد الله عزوجل ٢٤،٢٣ الرسالة الأولى ضمن العذب النميرفي جواب مسائل عالم بلاد عسير ( مخطوط ) .

أعرض موجزاً عن الطوائف المنحرفة فيها مع بيان موقف الشوكاني منهم، حتى يتبين لنا اتجاهه، فأقول:

تتجه الطوائف المنحرفة في القدر إلى اتجاهين: -

١ – القدرية (١)

وهم الذين غلوا في اثبات أفعال العباد واختيارهم، حتى جعلوهم هم الخالقين لها، ولا تعلّق لها بمشيئة الله، ولا تدخل تحت قدرته، ولهذا سمّوهم مجوس هذه الأمة (٢)، لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين، وهما

---

(١) القدرية: أوّل فرقة حدثت في الأمة الاسلامية في أواخر عصر الصحابة، وأوّل من تكلم في القدر معبد الجهني (ت ٨٠ هـ) وقيل: بل أول من ابتدعه رجل بالعراق من أهل البصرة يقال له: سيسويه. من أبناء المجوس، وقيل اسمه: سوسن. وتلقّاه عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان الدمشقي (ت بعد ١٠٥هـ) من معبد. وسموا قدرية لانكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضاً، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب، والقدرية فرقتان: الأولى: تنكر علم الله بالأشياء قبل وجودها، وتزعم أن الله لم يقدر الأمور أزلاً، وقالوا إن الأمر أنف، أي مستأنف مبتدأ بقدرة الانسان نفسه، وهم المتقدمون الذين كفّرهم السلف، ومنهم معبد الجهني. الثانية: هم الذين أقرّوا بعلم الله عزوجل، وأنكروا خلقه لأفعال العباد، وتزعمون أن العباد هم الخالقون لأفعالهم على جهة الاستقلال، وهم المتأخرون، ومن أشهر فرقهم المعتزلة، وقد تبنّت هذا الاتجاه، حتى أصبحوا معروفين عند أهل السنة بهذا الاسم أي القدرية. (انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي ٦٢٤/٤ – ٦٢٦، ٧٤٦ – ٧٥٠، والفرق بين الفرق، للبغدادي ١٤، ٦٨، ٦٩ والتبصير في الدين، للاسفراييني ٢١، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٤٢٩/٨، ٤٣٠، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ١١٥، والفتح، لابن حجر ١٤٥/١، ولوامع الأنوار البهية، للسفاريني ٢٩٩/١ – ٣٠٦، وانظر شرح الأصول الخمسة، القاضي عبدالجبار (ص ٣٢٣، ٣٣٢-٣٦٢) تحقيق د/عبدالكريم عثمان ط ١٤٠٨هـ.)

(٢) وردت آثار كثيرة بتسمية القدرية مجوس هذه الأمة، وبعض هذه الآثار مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، منها ما أخرجه أحمد في مسنده ١٢٥/٢، وأبو داود في كتاب السنة، باب في القدر ٦٦/٥ برقم (٤٦٩١)، وابن ماجة في المقدمة، باب في القدر ٣٥/١ برقم (٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة ١٤٤/١، ١٤٥ برقم (٣٢٨، ٣٢٩)، والآجري في الشريعة ١٩٠، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٦٣٩/٤، ٦٤٠ برقم (١١٥٠ – ١١٥٣) وجميع هذه الروايات ضعّفها أئمة الحديث، ولكن يعضد بعضها بعضاً (انظر تعليق الشيخ الألباني على الحديث في شرح العقيدة الطحاوية ٣٠٤، والسنة لابن أبي عاصم في الصفحة المذكورة.)

النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور،والشرّ من فعل الظلمة، فصاروا ثنويّة، وكذلك هؤلاء القدرية حيث زعموا أن العباد يخلقون أفعالهم بدون ارادة الله ومشيئته، بل يستقلّون بخلقها، وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية.(١)

ويمثّل هذا الاتجاه فرق كالمعتزلة والزيدية ومن ساروا على نهجهم، وزعمهم هذا ناتج من قولهم بأن الله لا يفعل القبيح، بل أفعاله كلها حسنة، وقد ترتّب على مبالغتهم في هذا القول أن نفوا أن يكون الله خالقا لأفعال العباد، لأن منها ما هو الحسن،ومنها ما هو القبيح، فلوكان الله خالقها لكان فاعلا للقبيح، واستدلّوا بمثل قوله تعالى:(( الَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ۔))(٢) وقوله تعالى: (( فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحۡسَنُ الۡخَٰلِقِينَ۔))(٣) وقوله سبحانه:(( جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ))(٤) وأوّلوا النصوص التي تنسب أفعال العباد الى الله تأويلا بعيدا عن الصواب.(٥)

وقابلهم في هذا الاتجاه:

٢ - الجبرية.(٦)

---

(١) انظر: شفاء العليل: ابن القيم ١٠٨،ولوامع الأنوار البهية: السفاريني(١/٣٠٥).

(٢) سورة السجدة: آية ٧ . (٣) سورة المؤمنون: آية ١٤ .

(٤) سورة السجدة: آية ١٧، والأحقاف: آية ١٤،والواقعة: آية ٢٤ .

(٥) أنظر:شرح الأصول الخمسة: القاضي عبدالجبار المعتزلي (٣٥٧ - ٣٦٢) تحقيق د/عبد الكريم عثمان ط/١٤٠٨هـ، والبحر الزخار: الامام المهدي أحمدبن يحيى المرتضى ١/٦١، وانظر أيضا شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٤٩٥،٤٩٧ .

(٦) سمّوا بذلك نسبة الى الجبر،وهو نفي الفعل عن العبد واسناده الى الله تعالى،وكان زعيمهم الجهم بن صفوان (ت١٢٨هـ)،وهم طائفتان: الجبرية الخالصة،وهم الجهمية الذين يقولون بالاجبار الاضطراري،وأن العبد مجبور على فعله،كالريشة في مهبّ الريح،ليس له ارادة ولا قدرة على الفعل،والجبرية المتوسطة،وهم الذين يثبتون للعبد قدرة غير مؤثرة،ويثبتون له ما يسمّونه بالكسب في الفعل،وهم الأشاعرة ومن وافقهم. (انظر التعريفات: الجرجاني ٦٥، ودرء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية ١/٦٣، وانظر أيضا في شأن هذه الفرقة: الفرق بين الفرق: البغدادي ١٩٩، والتبصير في الدين: الاسفراييني ١٠٧،والملل والنحل: الشهرستاني ١/٨٥،واعتقادات فرق المسلمين: الرازي ٦٨، والبرهان: السكسكي ٤٢،٤٣ .)

وهم الذين غلوا في اثبات القدر،حتى سلبوا العبد قدرته واختياره،وزعموا أنه لا فعل للعبد أصلا، وأن حركاته بمنزلة حركات الجمادات ، لا قدرة له عليها ولا قصد،ولا اختيار، فالانسان على مذهبهم مجبور على فعله، لا اختيار له فيه، فهو كالريشة المعلّقة في الهواء تقلّبها الرياح كيف تشاء، أما اسناد الفعل اليه فهو على سبيل المجاز، على حسب ما يضاف الشيئ الى محلّه، دون ما يضاف الى محصله.[1] لأن الفعل على زعمهم فعل الله تعالى،أجراها على يد العبد بدون ارادة منه ولا اختيار، وقالوا إن مشيئة الله تعالى وارادته بمعنى واحد، وقد شاء ماوقع من المعاصي،فهو يحبّها ويرضاها ، ونفوا الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، كما نفوا الرحمة،والقوى،والطبائع،والأسباب.[2]

ومما استدلّ به هؤلاء الجبرية قوله تعالى:(( وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ. ))[3]، وقوله تعالى:(( اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ. ))[4]، وقوله سبحانه : (( كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. ))[5]،وأحجموا عن النصوص التي تفيد اسناد عمل العبد الى نفسه، وتعسّفوا في تأويلها تعسّفا ظاهرا.[6]

ويمثّل هذا الاتجاه الجهمية،ومن تبعها من الأشعرية وأمثالهم.[7]

وقد وجد الشوكاني ـ رحمه الله ـ كلا من الاتجاهين غلوّا وتطرّفا ، ولا يرى أن واحدا منهما قد أصاب ما كان عليه سلف الأمة وأئمتها الذين آمنوا بالقدر خيره

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ٤٩٣،وأيضا مجموع فتاوى : ابن تيمية ٤٤٤/٨،٤٤٥،ولوامع الأنوار البهية ، السفاريني ٣٠٦/١ .

(٢) انظر مجموع فتاوى، ابن تيمية ٩٨/٨،٣٤٠،٣٤١،٤٦٠،٤٦٦ ـ ٤٦٨،٤٧٥ .

(٣) سورة الأنفال، آية ١٧ . (٤) سورة الزمر، آية ٦٢ .

(٥) سورة المدّثر، آية ٣١ .

(٦) انظر شرح العقيدة الطحاوية ،ابن أبي العز الحنفي ٤٩٤ ـ ٤٩٧ .

(٧) خالف الأشعرية الجهمية خلافا لفظيّا في هذه المسألة ،فقالوا (أي الأشعرية ) : العبد لا فعل له ألبتة ،بل الله هو الفاعل القادر ،وللعبد كسب لا فعل،ولا تأثير لقدرته في وجود فعله ، وقالوا إن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها ،وقالوا ان الله يفعل عندالأسباب لا بها. (انظر :المواقف في علم الكلام :الايجي ٣١٢،وشرح العقائد النسفية :التفتازاني ٨٦ ـ ٩٠،وشرح المقاصد له ٢٢٤/٤ـ ٢٢٦،وشرح جوهرة التوحيد :البيجوري ٩٩،١٠٤،وأيضا مجموع فتاوى:ابن تيمية ١١٨/٨،٤٦٦ـ ٤٦٨ .)

وشرّه ، فالقدرية غلوا في اثبات أفعال العباد ،حتى أخرجوها عن مشيئة الله ، والجبرية غلوا في نفي أفعال العباد ،حتى سلبوهم القدرة والاختيار ، وقد غلا بعضهم في هذا الأمر الى الاحتجاج بالقدر على المعاصي والشرور ، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا ـ كما حكى الله عنهم في كتابه العزيز ـ :(( لَوْشَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ٠))(١)

يقول الشوكاني في شأن هؤلاء :

(( ... هذه الطوائف المتكلفة علم مالم يكلفها الله سبحانه بعلمه ... وهي التي أرادت الوصول الى الحق والوقوف على الصواب ، لكن سلكت في طريقة متوعرة ،وصعدت في الكشف عنه الى عقبة كؤود(٢) ،لا يرجع من سلكها سالما فضلا عن أن يظفر فيها بمطلوب صحيح ، ومع هذا أصّلوا أصولا ظنّوها حقّا ،فدفعوا بها آيات قرآنية وأحاديث صحيحة نبوية ، واحتلّوا في ذلك الدفع بشبه واهية وخيالات مختلة ٠

وقسّم الشوكاني هؤلاء الى طائفتين :

الطائفة الأولى : هي الطائفة التي غلت في التنزيه ، فوصلت الى حدّ يقشعرّ عنده الجلد ويضطرب له القلب ، من تعطيل الصفات الثابتة بالكتاب والسنة ثبوتا أوضح من شمس النهار ... فضلّوا الطريق المستقيم ، وأضلّوا من رام سلوكها ٠(٣)

والطائفة الأخرى ، هي الطائفة التي غلت في اثبات القدرة غلوّا بلغ الى حدّ أنه لا تأثير لغيرها ، ولا اعتبار بما سواها ، وأفضى ذلك الى الجبر المحض والقسر الخالص ، فلم يبق لبعث الرسل وانزال الكتب كثير فائدة ، ولا يعود ذلك على عباده بعائدة ، وجاءوا بتأويلات للآيات البينات ، ومحاولات(٤) لحجج الله الواضحات ، فكانوا كالطائفة الأولى في الضلال والاضلال ، مع أن كلا المقصدين صحيح ، ووجه

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٤٨

(٢) أى طريق وعرشاق المصعد ،يقال : عقبة كؤود أى شاقة المصعد ( انظر مختار الصحاح ٢٣٤ مادة ( كأد ) ٠

(٣) يشير الشوكاني في هذا الى الفرق الكلامية المعطّلة لصفات الباري سبحانه وتعالى كالجهمية ومن ساروا على نهجهم ٠

(٤) في بعض الطبعات : محالات ٠ والمماحلة : المماكرة والمكايدة ٠ (مختار الصحاح ٢٥٧ مادة ( محل ) ٠

كل منهما صبيح ،لولا ما شانَهُ من الغلوّ القبيح.))(١)

وهكذا نرى الشوكاني يرفض أفكار هذه الطوائف المنحرفة الذين حرّفوا الكلم من مواضعه ، وخالفوا ما كان عليه سلف الأمّة وأئمتها ، فضلّوا طريقهم وأضلّوا .

منهج الشوكاني في الايمان بالقدر

وأستعرض فيما يلي آراء الشوكاني في مسائل القدر، ليتبين لنا منهجه الذي سلكه في هذا السبيل، وذلك من خلال المسائل الآتية : ـ

أ ـ أفعال الله تعالى وأفعال العباد

يذهب الشوكاني كأهل السنة والجماعة الى أن الله سبحانه وتعالى فاعل مختار يتصرّف في ملكه كيف يشاء بمقتضى مشيئته وحكمته ،" لأنه خالق الخلق،وموجده من العدم ، فهو حقه وملكه ، يتصرّف به كيف يشاء، كما يتصرّف العباد في أملاكهم من غير حرج عليهم ، فان مالك العبد أو الأمة اذا أراد أن يتصرّف بهما ويخرجهما من ملكه لم تنكر العقول ذلك، ولا تأباه العادات الجارية بين العباد ، فكيف تصرّف الربّ بمخلوقه ، فانّه المالك للعبد وسيّده ، ولما في الأرضين والسماوات من العالم الذى خلقه ، وشقّ سمعه وبصره ، ورزقه ،ومنّ عليه بالنعم التي لا يقدر على شيئ منها الا هو ،تعالت قدرته وتقدّس اسمه "(٢)

قال تعالى:(( وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ،مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ.))(٣)

وقال سبحانه :(( قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ،تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ،وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ،وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ،وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ،إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.))(٤)

ذكر الشوكاني في تفسير هذه الآية أن الله تعالى مالك جنس الملك على الاطلاق،

---

(١) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٢،٣ ضمن الرسائل السلفية .

(٢) قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٤١٣،٤١٤ تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال .

(٣) سورة القصص : آية ٦٨ . (٤) سورة آل عمران : آية ٢٦ .

فهو مالك العباد وما ملكوا ، ومالك الدنيا والآخرة ، والمال والعبيد ، والمراد بما يؤتيه من الملك وينزعه هو نوع من أنواع ذلك الملك العام .

وذكر أن بيد الله الخير لا بيد غيره ، وذكر الخير دون الشرّ لأن الخير بفضل محض بخلاف الشرّ ، فانه يكون جزاء لعمل وصل اليه ، أو لأن كل شرّ من حيث كونه من قضائه سبحانه هو متضمن للخير ، فأفعاله كلها خير .(١)

وهذا التفسير هو ما أشار اليه شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بقوله :

(( فالشرّ ليس الى الله بوجه من الوجوه ، فانه ـ وان كان الله خالق أفعال العباد ـ فخلقه للطاعات نعمة ورحمة ، وخلقه للسيئات له فيه حكمة ورحمة ، وهو مع هذا عدل منه ، فما ظلم الناس شيئا ، ولكن الناس ظلموا أنفسهم(٢) ))

كما قال تعالى:(( وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ))(٣)

وقال أيضا :(( وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . ))(٤)

وقد فسّر الشوكاني هذه الآية فقال:(( إنه تعالى مالك الملك، يتصرّف في ملكه كيف يشاء، وليس بظالم لمن عذّبه بذنبه ،لأنه سبحانه قد أرسل اليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وأوضح لهم السبيل، وهداهم النجدين(٥) كما قال سبحانه :

(( وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ))(٦) (٧)

فكل أفعاله سبحانه كائنة ما كانت خير لا شرّ فيها ، وعدل لا ظلم فيها ، لأنه حكم عدل، يضع كل شيئ في موضعه الذى يناسبه ، وتقتضيه الحكمة والعدل، وأنه لا يسئل عما يفعل، وعما يخلقه ، وعما يشاء وجوده أو عدمه ، وفي هذا قال سبحانه :

(( لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ . ))(٨)

---

(١) انظر فتح القدير : الشوكاني ٣٢٩/١، ٣٣٠ .

(٢) الحسنة والسيئة : ابن تيمية ٩٢ تقديم :د/محمد جميل غازي،دار الكتب العلمية .

(٣) سورة آل عمران : آية ١١٧ (٤) سورة آل عمران: آية ١٨٢، والأنفال : آية ٥١ .

(٥) من قوله تعالى:(( وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ))(سورة البلد،آية ١٠) قال المفسّرون:أى طريق الخير وطريق الشر.(انظر فتح القدير،الشوكاني ٤٤٤/٥،وأيضا المفردات : الأصفهاني ٤٨٢ .)

(٦) سورة النحل،آية ١١٨ . (٧) فتح القدير،الشوكاني ٤٠٦/١، ٣١٨/٢ .

(٨) سورة الأنبياء،آية ٢٣ .

قال الشوكاني:(( أى أنه سبحانه لقوة سلطانه،وعظيم جلاله،لا يسأله أحد من خلقه عن شيئ من قضائه وقدره ( وهم ) أى العباد ( يسئلون ) عما يفعلون،أى يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده .))[1]

هذا ما فسّره الشوكاني فيما يتعلّق بأفعال الله تعالى، وهو موافق لما قرّره السلف رضوان الله عليهم،كما أسلفنا .

أما ما يتعلّق بأفعال العباد،فقدذهب الشوكاني مقرّرا لمذهب السلف الى أن جميع أفعال العباد، خيرها وشرّها ، مخلوقة خلقها الله عزوجل في الفاعلين لها ،لأن الله خالق كل شيئ من الأشياء الموجودة في الدنيا والآخرة،كائنا ما كان،من غير فرق بين شيئ وشيئ .[2]

ومما يستدلّ به الشوكاني على هذا قوله تعالى :

(( وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .))[3]

قال الشوكاني عندتفسيره لهذه الآية:(( و( ما ) في ( وما تعملون ) موصولة ، أى وخلق الذي تصنعونه على العموم ، ويدخل فيها الأصنام التي ينحتونها دخولا أوّليّا ، ويجوز أن تكون مصدرية،أى خلقكم وخلق عملكم ... وجعلها موصولة أولى بالمقام ، وأوفق بسياق الكلام .))[4] لأنّ الله سبحانه يقول :(( أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ،وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .))[5] وهذه الآية تدلّ على أن المنحوت مخلوق لله تعالى، وهو ما صار منحوتا إلا بفعلهم ، فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقا لله تعالى، ولولم يكن النحت مخلوقا لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقا له ، بل الخشب أو الحجر،لا غير .[6]

فالآية نصّ جليّ على أنه تعالى خلق أفعال العباد، لأنه أثبت الخلق لله

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ٤٠٢/٣ .
(٢) انظرالمصدرالسابق ٤٧٤/٤ .
(٣) سورةالصافات : آية ٩٦
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٤٠٢/٤ .
(٥) سورةالصافات : آية ٩٥،٩٦ .
(٦) شرح العقيدةالطحاوية : ابن أبي العزالحنفي ٤٩٦ .

وحده (( والله خلقكم )) ، ونصّ واضح على أن فعل العبد فعل له حقيقة ، لأنه أثبت الفعل للعبد (( وما تعملون )) ، فالفعل فعلهم ، والله خالق الكل ، ولا خالق سواه .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :

(( والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر ، والبرّ والفاجر ، والمصلّي والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ، ولهم ارادة ، والله خالقهم ، وخالق قدرتهم وارادتهم . ))[1]

ويقول في موضع آخر :

(( وأما من قال : خلق الربّ تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته ، قال : إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات ، ومفعولة للربّ كسائر المفعولات ، ولم يقل : إنها نفس فعل الربّ وخلقه ، بل قال إنها نفس فعل العبد ، وعلى هذا تزول الشبهة ، فانه يقال : الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلا له ، كما يفعلها العبد وتقوم به ، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له اذا كان قد جعلها صفة لغيره ، كما أنه سبحانه لا يتصف بما خلقه في غيره ، من الطعوم والألوان ، والروائح ، والأشكال ، والمقادير ، والحركات وغير ذلك . ))[2]

وهذا هو ما اتفق عليه سلف الأمّة وأئمّتها ، كما نصّ على ذلك سائر أئمّة الاسلام : الامام أحمد ومن قبله وبعده .[3]

وأيّدهم الشوكاني فيما ذهبوا اليه ، وقرّر أن أفعال العباد التي صاروا بها مطيعين وعصاة هي مخلوقة لله تعالى[4] ، وأن الله هو المنفرد بالخلق ، وأن سائر الشركاء لا يخلقون شيئا (( قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ))[5] كائنا ما كان ، ليس لغيره في ذلك مشاركة بوجه من الوجوه .[6]

---

(١) العقيدة الواسطية : ابن تيمية ١٧٥ ط ١٤٠٧/٤هـ مع شرح الدكتور صالح فوزان الفوزان .

(٢) مجموع فتاوى : ابن تيمية ١٢٣/٨ . (٣) انظر المصدر السابق ٤٠٦/٨ .

(٤) انظر رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزوجل ٢٣، ٢٤ (المسألة الثانية في خلق أفعال العباد ) ضمن : المذهب التميري في جواب عالم بلاد عسير . (مخطوط)

(٥) سورة الرعد : آية ١٦ . (٦) فتح القدير : الشوكاني ٧٤/٣ .

ونقل عن الزجاج[١] عند تفسير قوله تعالى: (( هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. ))[٢] قال :

(( إنّ الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب، مع أن الله خالق الكفر، وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان، والكافر يكفر، ويختار الكفر بعد خلق الله إيّاه، لأن الله قدّر ذلك عليه، وعلمه منه، لأنّ وجود خلاف المقدّر عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل . ))[٣]

قال القرطبي[٤]: (( وهذا أحسن الأقوال، وهو الذي عليه الأئمة والجمهور من الأمّة. ))[٥]

قلت : وهذا قول الحقّ الذي عليه السلف الصالح ومن وافقهم ، ونقل الشوكاني له ، وسكوته عليه ، دليل على أنه المختار عنده .

والخلاصة أنّ أفعال العباد تنسب إليهم فعلا وكسبا واختيارا ، وتنسب إلى الله خلقا وقدرا وإيجادا ، وأنّ لهم مشيئة وإرادة ، ولكنّها تابعة لمشيئة الربّ

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، عالم بالنحو واللغة، قال الخطيب: كان من أهل الفضل والدين، حسن الاعتقاد، جميل المذهب، وآخر ما سمع منه: اللهم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل رضي الله عنه، توفي سنة ٣١١هـ من كتبه: معاني القرآن، وإعراب القرآن (انظر ترجمته في: الفهرست: ابن النديم ٦٠، وتاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٦/ ٨٩، ووفيات الأعيان: ابن خلكان ١١/١، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١٥٤/١ )

(٢) سورة التغابن : آية ٢ .  (٣) فتح القدير: الشوكاني ٢٣٥/٥ .

(٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي: من كبار المفسرين، صالح متعبّد، توفي سنة ٦٧١هـ من كتبه: الجامع لأحكام القرآن، والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة. (انظر ترجمته في: الجامع لأحكام القرآن، مقدمة المجلد الأول، والأعلام : الزركلي ٣٢٢/٥ )

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن : القرطبي ١٣٣/١٨ دار إحياء التراث العربي .

سبحانه ، ليست مستقلة عنها وسابقة لها ، " فما صح وما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن إلا بإذنه ، أي تسهيله وتيسيره ومشيئته لذلك ، فلا يقع غير ما يشاؤه ، كائنا ما كان " [١]

وقد أثبت الله سبحانه في كتابه العزيز المشيئتين: مشيئة الربّ ومشيئة العبد ، وبيّن أنّ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الربّ ، وذلك في قوله تعالى:

(( إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا، وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . )) [٢]

وكذلك قوله تعالى: (( لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ، وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . )) [٣]

قال الشوكاني : (( أي وما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة ، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه ، وأنهم لا يقدرون على ذلك ، إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه : (( وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ . )) [٤] وقوله : (( وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ، وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ . )) [٥] وقوله : (( إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ . )) [٦]. والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة . )) [٧]

فهنا بيّن الشوكاني أن مشيئة العباد ليست مستقلّة عن مشيئة الله ، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، والخير والشرّ بيده ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع . [٨]

وهذه الآية ردّ على الطائفتين المنحرفتين : المجبرة الجهمية ، والمعتزلة القدرية ، فإنّه تعالى قال: ( لمن شاء منكم أن يستقيم ) فأثبت للعبد مشيئة وفعلا ،

---

(١) فتح القدير ، الشوكاني ٤٢٥،٤٢٤/٢ . (٢) سورة الانسان ، آية ٢٩، ٣٠ .
(٣) سورة التكوير ، آية ٢٨، ٢٩ . (٤) سورة يونس ، آية ١٠٠ .
(٥) سورة الأنعام ، آية ١١١ . (٦) سورة القصص ، آية ٥٦ .
(٧) فتح القدير ، الشوكاني ٣٩٢/٥ . (٨) انظر المصدر السابق ٣٥٤/٥ .

ثم قال:( وما تشاءون الا أن يشاء الله ربّ العالمين ) فبيّن أن مشيئة العبد معلّقة بمشيئة الله، والأولى ردّ على الجبرية، وهذه ردّ على القدريّة الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله. كما يقولون: إنّ الله يشاء ما لا يشاءون .(١)

ب ـ الهدي والاضلال

في بيان هدي الله تعالى للعبد واضلاله له قرّر الشوكاني أن الله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، وأن الأمر بيده، ما شاء يفعل، من شاء تعالى أن يضلّه أضلّه، ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم، لا يذهب به الى غير الحق، ولايمشي فيه الا الى صوب الاستقامة .(٢)

قال تعالى:(( مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.))(٣)

فالهدي والاضلال بمشيئته، ما شاء كان،وما لم يشأ لم يكن .

وقد أخبر سبحانه أنه لوشاء ما أشرك الناس، وأنه لوشاء لهداهم أجمعين .

قال تعالى:(( وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا .))(٤)

وقال سبحانه:(( وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .))(٥)

قال الشوكاني رحمه الله:(( أى ولو شاء أن يهديكم جميعا الى الطريق الصحيح والمنهج الحقّ لفعل ذلك، ولكنّه لم يشأ، بل اقتضت مشيئته سبحانه اراءة الطريق والدلالة عليها،( وهديناه النجدين ) وأما الايصال اليها بالفعل فذلك يستلزم أن لا يوجد في العباد كافر، ولا من يستحقّ النار من المسلمين، وقد اقتضت المشيئة الربّانية أن يكون البعض مؤمنا والبعض كافرا، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع(٦) كقوله تعالى:(( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ .))(٧) وقوله تعالى :

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٨٨/٨ . (٢) فتح القدير، الشوكاني ١١٤/٢ .
(٣) سورة الأنعام، آية ٣٩ . (٤) سورة الأنعام : آية ١٠٧ .
(٥) سورة النحل، آية ٩ . (٦) فتح القدير، الشوكاني ١٤٩/٣، ١٥٠ .
(٧) سورة النحل : آية ٣٦ .

(( إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . ))(١)

كما قرّر الشوكاني أن الله سبحانه وتعالى قد وهب لعباده حرّية الاختيار في أن يفعلوا وأن لا يفعلوا ، لأنه (( خلقهم ، وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل ادراك ، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به الى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم ، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية )) (٢)

وبيّن أن (( هداية الله سبحانه لعباده الى الحقّ هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات، وارساله للرسل، وانزاله للكتب، وخلقه لما يتوصل به العباد الى ذلك من العقول والأفهام والأسماع والأبصار )).(٣)

وعلى هذا الأساس فانّ الهداية أو الاضلال ما هي الا نتائج لمقدّمات،ومسبّبات الأسباب، أي كلّ منهما يتمّ حسب سنن الله تعالى في خلقه ، وهي الايثار،والرغبة ، والطلب،والعمل، فمن آثر الهداية ،ورغب فيها،وطلبها،وعمل بأسبابها،تمّت له ، ووجد من الله تعالى عونا له على تحصيلها ، ومن آثر الضلالة ،ورغب فيها،وطلبها ، وعمل بأسبابها،تمّت له ، ولم يجد من الله تعالى صارفا عنها .

وقد بيّن الله سبحانه ذلك في كتابه العزيز حيث قال :

(( قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . ))(٤)

قال الشوكاني:(( أي قد فاز من زكّى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب، وظفر بكلّ محبوب، وخسر من أضلّها وأغواها . ومعنى ( دسّاها ) في الآية : أي أخفاها وأخملها ، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح.))(٥)

(( فعدم اهتداء الناس لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم ، من السمع، والعقل، والبصر، والبصيرة، بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصّب والمكابرة للحقّ، والمجادلة بالباطل، والاصرار على الكفر.))(٦)

كما بيّنه الله تعالى بقوله :(( بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِم . ))(٧) وقوله :(( فَلَمَّا

---

(١) سورة الانسان ، آية ٣ .
(٢) فتح القدير ، الشوكاني ٤٤٨/٢ .
(٣) المصدر السابق ٤٤٤/٢ .
(٤) سورة الشمس ، آية ١٠،٩ .
(٥) فتح القدير ، الشوكاني ٤٤١/٥ .
(٦) المصدر السابق ٤٤٨/٢ .
(٧) سورة النساء ، آية ١٥٥ .

زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .))(١)

" أي لما أصرّوا على الزيغ، واستمرّوا عليه ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وصرفها من قبول الحقّ : (٢)

وعلى هذا فانّ اسناد الهداية والاضلال الى الله تعالى اسناد من حيث أنّه خلق أفعال العباد ، ووضع نظام الأسباب والمسبّبات، لا أنّه جبر الانسان على الضلالة أوالهداية .

فقد جعل سبحانه الايمان والعمل الصالح سببا في الاهتداء ، وجعل الكفر والمعاصي سببا في الضلال، وبحسب ذلك الأثر الطيّب أو الخبيث يكون الجزاء بالثواب والعقاب ، فمن أراد الله هدايته للحق يوفّقه للايمان، ويعينه على العمل الصالح، وييسّرله سبله ، ويجعل له القبول في نفسه ، ومن أراد اضلاله يجعل صدره ضيّقا حرجا ، ويجعل على قلبه أكنّة تحول بينه وبين الايمان والعمل الصالح، فختم على قلبه ، وطبع عليه ، فامتنع بذلك من وصول الهدي اليه.

وفي ذلك يقول سبحانه :(( فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى .))(٣) " أي فسنهيّئه للخطة الحسنى، وهي عمل الخير، والعمل بالطاعة لله." (( وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى.))(٤) " أي فسنهيّئه للخطة العسرى، ونسهّلها له حتى تتعسّر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها ، فيؤديه ذلك الى النار."(٥)

وفي الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له ، أمّا من كان من أهل السعادة فييسّر لعمل أهل السعادة ، وأمّا من كان من أهل الشقاء فييسّر لعمل أهل الشقاوة . ثم قرأ هذه الآيات. (٦)

---

(١) سورة الصف ، آية ٥ . (٢) فتح القدير ، الشوكاني ٢٢٠/٥ .

(٣) سورة الليل ، آية ٥ ـ ٧ . (٤) سورة الليل ، آية ٨ ـ ١٠ .

(٥) فتح القدير ، الشوكاني ٤٥٢/٥ .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب فسنيسّره للعسرى ( الفتح ٥٧٩/٨ برقم ( ٤٩٤٩ ) ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي ٢٠٣٩/٤ برقم ( ٢٦٤٧ ) . وغيرهما .

ويقول تعالى:(( فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .)) (١)

فبيّن سبحانه في هذه الآية أن هدايته لمن اهتدى من عباده انّما هي أن يشرح صدره لقبول الاسلام ، ويوصل الى قلبه فيؤمن ويصدّق ، وأن اضلاله لمن أضل منهم انّما هو أن يضيق صدره عن قبول الاسلام ، وأن يحرجه حتى لا يرغب فيه ، فيكفر ويفسق، وعند ذلك لا يقدر نبيّ ولا غيره على هدايته بعد أن أضلّه الله. قال تعالى:(( مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا .))(٢) وقال :(( يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .))(٣)

(× محبته)

قال الشوكاني – رحمه الله –:(( وقد أطال المتكلمون الخصام في تفسير الضلال، وفي نسبته الى الله تعالى، فصاحب الكشّاف(٤) اعتمد ههنا على عصاه الذي يتوكأ عليها في تفسيره ، فجعل اسناد الاضلال الى الله سبحانه بكونه سببا ، فهو من الاسناد المجازي الى ملابس للفاعل الحقيقي .))(٥)

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٢٥ . (٢) سورة الكهف : آية ١٧ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٦ .

(٤) أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري،من أئمة العلم بالدين،والتفسير،واللغة ، والآداب،وكان معتزليّ المذهب،قويّا في مذهبه ،مفتخرا به ،قال الذهبي: صالح،لكنه داعية الى الاعتزال،أجارنا الله ،فكن حذرا من كشّافه ،أشهر كتبه ،الكشّاف في تفسير القرآن، وأساس البلاغة ،توفي سنة ٥٣٨هـ.( انظر ترجمته في،ميزان الاعتدال،للذهبي ٢٠٣/٥،ولسان الميزان،لابن حجر ٤/٦،ومفتاح السعادة،لطاش كبرى زادة ٨٧/٢ .)

(٥) فتح القدير، الشوكاني ٥٧/١، وانظر الكشّاف ، الزمخشري ١١٨/١ . قال الامام أحمد بن المنير الاسكندري في تعليقه على الكشاف: وهذا من ارتكاب الهوى،واقتحام الهلكة ،وما أشنع تصريحه بأن الله سبب الاضلال لا خالقه ،كما أن السلسلة سبب في وضع القيود في رجلي المحبوس،واسناد الفعل الى الله عزّوجلّ مجاز لا حقيقة كما أسند الفعل الى البلد،كذلك،يا له من تمثيل ما ربه مثله ،وتنظير ما ربه ما أشد عن النظر الصحيح ،مردود على التفصيل والجملة ، نسأل الله تعالى العصمة من أمثال هذه الزلة ،وهو وليّ التوفيق. اهـ .

وهذا بناء على قاعدته المعروفة بالعدل، وهو أن الله تعالى لا يفعل القبيح ولا يريده، وأن أفعاله كلّها لا بدّ أن تكون حسنة، والاضلال من الله قبيح عنده - يتعالى الله عنه في اعتقاده - ولو فهم قوله تعالى: (( فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ . ))[1] وقوله سبحانه: (( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ . ))[2] وأمثاله من الآيات الدالة على أنه تعالى انما أضلّهم، وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم في الباطل، وتركهم الحق، لما ذهب الى ذلك، لأن هذا منه سبحانه حسن وليس بقبيح .

ومثل اسناد الاضلال الى الله اسناد الختم، أو الطبع، أو ما في معناهما اليه سبحانه .

فمثال الختم قوله تعالى: (( خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ))[3]

هنا يوضّح الشوكاني المراد بالختم والغشاوة فقال:

(( والمراد بالختم والغشاوة هنا هما المعنويّان لا الحسّيّان، أي لمّا كانت قلوبهم غير واعية لما وصل اليها، والأسماع غير مؤدّية لما يطرقها من الآيات الى العقل على وجه مفهوم، والأبصار غير مهدية للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، جعلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختما حسّيّا، والمستوثق منها استيثاقا حقيقيّا، والمغطّاة بغطاء مدرك استعارة أو تمثيلا .

ثمّ قال - رحمه الله - وهو يردّ على المعتزلة في هذه القضية: (( واسناد الختم الى الله تعالى قد احتجّ به أهل السنّة على المعتزلة، وحاولوا دفع هذه الحجّة بمثل ما ذكره صاحب الكشّاف . ))[4] حيث أورد فيه خمسة أوجه في تأويل معنى اسناد الختم الى الله وتعسّف عن الطريق المستقيم .[5]

---

(١) سورة الصف، آية ٥ (٢) سورة المنافقون، آية ٣ (٣) سورة البقرة، آية ٧

(٤) فتح القدير، الشوكاني ٣٩/١ .

(٥) انظر الكشّاف، الزمخشري ٤٨/١-٥٢، وانظر ٤٩/١ هامش رقم (٢) حيث ناقشه العلّامة أحمد بن المنير الاسكندري في هذه المسألة، وردّ عليه ردّا وافيا .

ومثال اسناد الطبع اليه سبحانه قوله تعالى:(( وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ٠))(١)

فسّر الشوكاني هذه الآية فقال:(( أي ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفا بحسب مقصدهم الذي يريدونه ، بل بحسب الطبع من الله تعالى عليها، والطبع: الختم ، أي هي مطبوع عليها من الله بسبب كفرهم ، فلا يؤمنون الا ايمانا قليلا٠))(٢)

وقوله عزّوجلّ :(( كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ))(٣)

قال الشوكاني:(( أى أنّ مثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ،ولا تذكير،ولا ترغيب،ولا ترهيب ٠))(٤)

هذا ما وضّحه الشوكاني في معنى الهداية والاضلال، ونسبتهما الى الله ،وهو موافق لما قرّره الله تعالى في كتابه الكريم كما ذكرنا ، وموافق لما عليه جمهور أهل العلم .(٥)

يقول ابن القيم – رحمه الله –:(( وقد اتفقت رسل الله من أوّلهم الى آخرهم ، وكتبه المنزّلة عليهم على أنه سبحانه يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأنّ الهدي والاضلال بيده لا بيد العبد،وأن العبد هو الضالّ أو المهتدي، فالهداية والاضلال فعله سبحانه وقدره ، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه ٠))(٦)

هذا وقد بيّن الشوكاني في تفسيره أنّ الهدي هديان، هدي دلالة ، وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعه ، قال الله تعالى:(( وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ٠))(٧) وقال:(( وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ٠))(٨) فاثبت لهم الهدي الذي معناه الدلالة والتنبيه ،

---

(١) سورة النساء : آية ١٥٥ ٠ (٢) فتح القدير، الشوكاني ٥٣٤/١ ٠

(٣) سورة الأعراف : آية ١٠١ ٠ (٤) فتح القدير : الشوكاني ٢٢٩/٢ ٠

(٥) انظر الشريعة : الآجري ١٥١،١٥٤،١٥٧ وشرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة : شرح الملا علي القاري ٧٣ – ٧٧،ومجموع فتاوى: ابن تيمية ٧٨/٨،٧٩،وشرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العزّ الحنفي ١٥٥،١٥٦ ٠

(٦) شفاء العليل: ابن القيم ١٤١ ٠ (٧) سورة الرعد: آية ٧ ٠

(٨) سورة الشورى : آية ٥٢ ٠

وتفرّد سبحانه بالهدي الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم: (( إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . ))(١) فالهدي على هذا يجيئ بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى:(( أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ . ))(٢)،وقوله:(( وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . ))(٣) (٤)

والهدي بالمعنى الأوّل حجّة الله على خلقه التي لا يعذّب أحدا إلا بعد اقامتها عليه، كما قال تعالى:(( وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً . ))(٥) وهو عام لمن أحبّه الله وأبغض، ووظيفة الرسل وأتباعهم، أما الهدي بالمعنى الثاني وهو التأييد والتوفيق فهو لمن أحبّه خاصّة، تكميلا للحجّة، واظهارًا للاستغناء عن خلقه .(٦) وهذا من مشيئة الله تعالى .

وقد يرد الهدي والمراد به الهدي العام، كما في قوله تعالى:(( وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . ))(٧) قال الشوكاني:(( والمعنى: قدّر أجناس الأشياء،وأنواعها،وصفاتها، وأفعالها،وأقوالها،وآجالها، فهدى كل واحد منها الى ما يصدر عنه وينبغي له، ويسّر له لما خلق له، وألهمه الى أمور دينه ودنياه . ))(٨)

وقد يرد بمعنى الهداية الى الجنّة والنار يوم القيامة، كما قاله ابن القيم .(٩) كقوله تعالى:(( وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ، وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . ))(١٠) وقوله من أهل النار:(( فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . ))(١١)

جـ ـ مبدأ السببية في القدر

تقدّم أنّ الله يهدي من عباده من يشاء، ويضلّ منهم من يشاء، وأنّ ذلك مربوط

---

(١) سورة القصص، آية ٥٦ . (٢) سورة البقرة، آية ٥ .
(٣) سورة القصص، آية ٥٦ . (٤) فتح القدير، الشوكاني ٣٣/١ .
(٥) سورة الاسراء، آية ١٥ . (٦) فتح القدير، الشوكاني ٤٣٨/٢ .
(٧) سورة الأعلى، آية ٣ . (٨) فتح القدير، الشوكاني ٤٢٣/٥ .
(٩) انظر شفاء العليل ١٧٩، ١٨٠ وقد ذكر ابن القيم في هذا الكتاب مراتب الهدى والضلال في القرآن،وتكلّم على كلّ منها بالتفصيل .(انظر صفحة ١٤١ ـ ١٨٠ )
(١٠) سورة محمد، آية ٤، ٥ وقرأ الشوكاني:(والذين قاتلوا )على قراءة العامة،وعلى هذا فسّر الهدي هنا بأنه الهدي الى الرشد في الدنيا .(انظر فتح القدير ٣١/٥)
(١١) سورة الصافات، آية ٢٣ .

بنظام الأسباب، محكوم بقوانينها ، فللهدي أسبابه ، وللضلال أسبابه ، ولا يصل العبد الى ما كتب الله عليه وقدّر له من هداية أو ضلال، ومن سعادة أوشقاوة، الا بواسطة تلك الأسباب التي يفعلها .

وقد أثبت الشوكاني ـ رحمه الله ـ مبدأ السببية في الايمان بالقدر، وأنكر انكارا شديدا على المنكرين لها ، ففي كتابه الموسوم بقطر الولي على حديث الولي تحدث عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل، فبيّن أن الله عزّ وجلّ لمّا قدّر مقادير العباد، قدّرها مع موجباتها وأسبابها ، فقدّر للخير موجباته وأسبابه، وقدّر للشرّ كذلك ، ومن أسباب الخير الدعاء والعمل الصالح، قال:

(( فكيف ينكر وصول العبد الى الخير بدعائه أوبعمله الصالح، فان هذا من الأسباب التي ربط الله مسبّباتها بها ، وعلمها قبل أن تكون، فعلمه على كلّ تقدير أزلي في المسبّبات والأسباب، ولا يشكّ من له اطلاع على كتاب الله عزّوجلّ ما اشتمل عليه من ترتيب حصول المسبّبات على حصول أسبابها ، وذلك كثير جدّا .

ومن ذلك قوله تعالى:(( إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ .))(١) (( فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ، وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا .))(٢) (( وَلَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .))(٣) (( وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ .))(٤) (( فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .))(٥)

وكم يعدّ العاد من هذا الجنس في الكتاب العزيز،وما ورد في معناه من السنة المطهّرة، فهل ينكر هؤلاء الغلاة (٦) مثل هذا ، ويجعلونه مخالفا لسبق العلم مباينا لأزليّته ؟ فان قالوا نعم ، فقد أنكروا ما في كتاب الله سبحانه من فاتحته الى

---

(١) سورة النساء ، آية ٣١ .
(٢) سورة نوح ، آية ١٠،١١،١٢ .
(٣) سورة ابراهيم ، آية ٧ .
(٤) سورة البقرة ، آية ٢٨٢ .
(٥) سورة الصافات ، آية ١٤٣،١٤٤ .
(٦) يقصد الشوكاني بالغلاة ، أهل الكلام الذين أبطلوا فائدة ما ثبت في الكتاب والسنة من الارشاد الى الدعاء ونحوه ،وجعلوه مخالفا لسبق العلم ( انظر،قطر الولي على حديث الولي للشوكاني ٤١٦ تحقيق/ د. ابراهيم ابراهيم هلال،وتنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصه من الدلائل،له ١١٩،١٢٠ الرسالة الخامسة ضمن أمناء الشريعة ،تحقيق المحقق السابق.)

الى خاتمته، وما في السنّة المطهّرة من أوّلها الى آخرها، بل أنكروا أحكام الدنيا والآخرة جميعها، لأنها كلها مسبّبات مترتّبة على أسبابها، وجزاءات معلّقة بشروطها.))(١)

وعلى هذا المبدأ ( السببية ) حمل الشوكاني قوله تعالى:(( مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِيْ أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِيْ كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا.))(٢) وقوله سبحانه:(( قُلْ لَنْ يُصِيْبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا.))(٣) وكذلك ما ورد في هذا المعنى، وقوله عزّوجلّ: (( وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ وَيَعْفُوْ عَنْ كَثِيْرٍ.))(٤) وما ورد في معناها، ومن ذلك الحديث القدسي الثابت في الصحيح عن الربّ عزّوجلّ :(( يا عبادي انّما هي أعمالكم أحصيها عليكم، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد شرّا فلا يلومنّ الاّ نفسه.))(٥)

قال الشوكاني:(( يحمل الآيتين الأوليين، وما ورد في معناهما على عدم التسبّب من العبد بأسباب الخير من الدعاء وصلة الرحم، وسائر الأفعال والأقوال الصالحة، وحمل الآية الأخرى والحديث القدسي،وما ورد في معناهما،على وقوع التسبّب من العبد بأسباب الخير الموجبة لحسن القضاء، واندفاع شرّه، وعلى وقوع التسبّب من العبد بأسباب الشرّ المقتضية لاصابة المكروه، ووقوعه على العبد.))(٦)

وهكذا جمع الشوكاني بين الأحاديث الواردة بسبق القضاء، وأنه قد فرغ من تقدير الأجل والرزق، والسعادة والشقاوة، وبين الأحاديث في طلب الدعاء من العبد، وأن الله يجيب دعاءه، ويعطيه ما سأل مثله، وأنه يغضب اذا لم يسأل، وأن الدعاء يردّ القضاء، ونحو ذلك كصلة الرحم وأعمال الخير.

فحمل أحاديث الفراغ من القضاء على عدم تسبّب العبد بأسباب الخير أو الشرّ، وحمل الأحاديث الأخرى على وقوع التسبّب من العبد بأسباب الخير أو التسبّب

---

(١) قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني ٥١٠، ٥١١ وانظر أيضا: تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصه من الدلائل،له ١٢١، ١٢٢ الرسالة الخامسة ضمن أمناء الشريعة.

(٢) سورة الحديد، آية ٢٢ (٣) سورة التوبة، آية ٥١ (٤) سورة الشورى، آية ٣٠.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة باب في تحريم الظلم ١١٩٥/٤ برقم ( ٢٥٧٧ ).

(٦) قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني ٥٠٨.

بأسباب الشرّ، وقال: (( إنّ هذا الجمع لا بدّ منه، لأن الذي جاءنا بالأدلة الدالة على أحد الجانبين هو الذي جاءنا بالأدلة الدالة على الجانب الآخر، وليس في ذلك خلف لما وقع في الأزل، ولا مخالفة لما تقدّم العلم به، بل هو من تقييد المسبّبات بأسبابها، كما قدّر الشبع والريّ بالأكل والشرب، وقدّر الولد بالوطء، وقدّر حصول الزرع بالبذر، فهل يقول قائل بأنّ ربط هذه المسبّبات بأسبابها يقتضي خلاف العلم السابق، أو ينافيه بوجه من الوجوه ؟

فلو قال قائل: أنا لا آكل، ولا أشرب، بل أنتظر القضاء، فان قدّر الله لي ذلك كان، وان لم يقدره لم يكن، أو قال: أنا لا أزرع، ولا أجامع زوجتي، فان قدّر الله لي الزرع والولد حصلا، وان لم يقدرهما لم يحصلا . أليس هذا القائل قد خالف ما في كتب الله سبحانه، وما جاءت به رسله، وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، والتابعون، وتابعوهم، وسائر علماء الأمّة وصلحائها، بل يكون هذا القائل قد خالف ما عليه جميع أنواع الحيوانات في البرّ والبحر . ))[1]

وفصّل الشوكاني - رحمه الله - تفصيلا دقيقا عن الدعاء، وفائدته، وكونه سببا لردّ القضاء، وأطال الكلام في ردّه على المخالفين له، الذين أبطلوا فائدة ما ثبت في الكتاب والسنّة، من الارشاد الى الدعاء، وأنه يردّ القضاء، وما ورد من الاستعاذة منه صلى الله عليه وسلم من سوء القضاء، وما ورد من أنه يصاب العبد بذنبه، وبما كسبت يده، ونحو ذلك مما جاءت به الأدلة الصحيحة، وجعلوه مخالفا لسبق العلم، ورتّبوا عليه أنه يلزم انقلاب العلم جهلا .[2]

فمن الأدلة التي أوردها - رحمه الله - قوله تعالى: (( ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ )) ثم عقب ذلك بقوله: (( إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي )) أي دعائي (( سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . ))[3] وقوله عزّوجل: (( وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ . ))[4]

---

(١) قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٥٠٩، ٥١٠، وانظر أيضا تنبيه الأفاضل، له ١٢٠، ١٢١ .

(٢) انظر: تنبيه الأفاضل: الشوكاني ١١٩، ١٢٠، ١٢٧، وأيضا قطر الولي، له ٥١١، ٥١٢، وقد أفرد الشوكاني هذا الموضوع في رسالة صغيرة بعنوان: بحث في أنّ اجابة الدعاء لاينافي سبق القضاء حيث أورد فيها كثيرا من الآيات والأحاديث ليردّ بها على المخالفين له في هذه المسألة (انظر ص ١٣١ - ١٣٥ الرسالة السادسة ضمن أمناء الشريعة ) غير أنه لم يوضّح كثيرا في هذه الرسالة ما دلّ عليه عنوانها، وقد أوضحه بشيء من التفصيل في كتابه: قطر الولي، وفي رسالته: تنبيه الأفاضل، مع وجود بعض التعارض فيما ذهب اليه . وسوف أبيّنه في حينه ان شاء الله (انظر ص ١٧١-١٧٢)

(٣) سورة غافر : آية ٦٠ . (٤) سورة النساء : آية ٣٢ .

قال الشوكاني بعد أن ساق هاتين الآيتين :

(( فأي فائدة لهذين الأمرين منه عزّوجلّ بالدعاء، ووعيده لمن تركه وجعله مستكبرا ، وتمدحه سبحانه بقوله :(( أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ . ))(1) وبقوله : (( وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ . ))(2)

فان قالوا إنّ هذا الدعاء الذي أمرنا الله عزّوجلّ به ،وأرشدنا اليه ،وجعل تركه استكبارا ، وتوعّد عليه بدخول النار مع الذل، وأنكر عليهم أنّ غيره يجيب المضطرّ، ان كان ذلك كلّه لا فائدة فيه للعبد ،وأنّه لا ينال الّا ما قد سبق به القضاء، فعمل الدعاء أولم يفعل،(3) فقد نسب الى الربّ عزّ وجلّ ما لا يجوز عليه ، ولا تحلّ نسبته اليه باجماع المسلمين، فانّه عزّوجلّ لا يأمر الا بما فيه فائدة للعبد دنيويّة أو أخرويّة ، إمّا جلب نفع أو دفع ضرّ . ))(4)

وقد فنّد مثل هذا القول شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - اذ قال :

(( الدعاء في اقتضائه الاجابة كسائر الأعمال الصالحة في اقتضائها الاثابة ، وكسائر الأسباب في اقتضائها المسبّبات، ومن قال: إنّ الدعاء علامة ودلالة محضة على حصول المطلوب المسئول،ليس بسبب ،أوهو عبادة محضة ،لا أثر له في حصول المطلوب وجودا ولا عدما ، بل ما يحصل بالدعاء يحصل بدونه ، فهما قولان ضعيفان ،فانّ الله علّق الاجابة به تعليق المسبّب بالسبب، كقوله :(( وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . )) (5) وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال:(( ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ،ولا قطيعة رحم ،الا أعطاه بها احدى خصال ثلاث : إمّا أن يعجّل له دعوته ، وإمّا أن يدّخر له من الخير مثلها ، وإمّا أن يصرف عنه من الشرّ مثلها ، قالوا : يا رسول الله ،اذاً نكثر. قال: الله أكثر. ))(6) فعلّق العطايا بالدعاء تعليق الوعد والجزاء

---

(1) سورة النمل ، آية ٦٢ . (2) سورة البقرة ،آية ١٨٦ . (3) هذا الكلام فيه نظر سيأتي التعليق عليه . (ص ١٦٣)

(4) قطر الولي على حديث الولي ، الشوكاني ٥١٢ ،وانظر أيضا تنبيه الأفاضل ،ضمن أمناء الشريعة ، الشوكاني ١٢٤ . (5) سورة غافر ، آية ٦٠ .

(6) أخرجه أحمد في المسند ١٨/٣ ،والترمذي في كتاب الدعوات ،باب في انتظار الفرج وغير ذلك ٥٢٩/٥ برقم (٣٥٧٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ،والحاكم في المستدرك ٤٩٣/١ وقال: هذا حديث صحيح الاسناد. ووافقه الذهبي،ومالك في الموطأ ٢١٧/١ كتاب القرآن باب ما جاء في الدعاء. وصححه الألباني في شرح العقيدة الطحاوية ٥٢٣ هامش رقم (٢) ولم ===

بالعمل المأمور به .))[١]

ومن الأدلة التي أوردها الشوكاني في هذا الصدد من الأحاديث ،قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربّه :(( يا عبادي لو أنّ أوّلكم ،وآخركم ،وإنسكم ،وجنّكم ،قاموا في صعيد ،فسألوني،فأعطيت كلّ انسان منهم مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي،إلا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر.))[٢] وفي الحديث القدسي أيضا قال الله عزّوجلّ:(( وان سألني لأعطينّه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه.))[٣] وقوله صلى الله عليه وسلم :(( من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء .))[٤] وقوله عليه الصلاة والسلام :(( انّ الله حيي كريم ،يستحيي اذا رفع الرجل اليه يديه أن يردّهما صفرا خائبتين .))[٥]

قال الشوكاني:(( ومن ذلك ما ورد في اجابة دعوة المظلوم على ظالمه ، والأب على ولده ، وورد أيضا أنّ جماعة لا يُردّ دعاؤهم ، والأحاديث بذلك صحيحة ثابتة

---

*** أجد هذا الحديث في الصحيحين كما ذكر شيخ الاسلام .

(١) مجموع فتاوى ؛ ابن تيمية ١٩٢/٨،١٩٣ .

(٢) هذا جزء من حديث قدسي طويل أخرجه مسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب،باب تحريم الظلم ١٩٩٥/٤ برقم (٢٥٧٧) .

(٣) جزء من حديث قدسي أخرجه البخاري في كتاب الرقاق،باب التواضع(الفتح ٣٤١/١١ برقم (٦٥٠٢)

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات،باب ما جاء أنّ دعوة المسلم مستجابة ٤٣١/٥ برقم (٣٣٨٢) وقال: هذا حديث غريب،ورواه الحاكم في المستدرك ٥٤٤/١ من طريق أخرى وقال:صحيح الاسناد،ووافقه الذهبي،وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٤١/٢،١٤٢ برقم (٥٩٣) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٤٣٨/٥،وأبوداود في كتاب الصلاة،باب الدعاء ١٦٥/٢ برقم (١٤٨٨) والترمذي في كتاب الدعوات،باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ٥٢٠/٥ برقم (٣٥٥٦) وقال: حسن غريب، وابن ماجة في كتاب الدعاء،باب رفع اليدين في الدعاء ١٢٧١/٢ برقم (٣٨٦٥)،وابن حبّان في كتاب الرقائق،باب الأدعية ١٦٠/٣،١٦٣ برقم (٨٧٦،٨٨٠) تحقيق: شعيب الأرناؤوط،والحاكم في المستدرك ٤٩٧/١ وصحّحه من حديث سلمان. ووافقه الذهبي. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٤٧/١١): وسنده جيد .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، وفيها الترغيب في الدعاء ومحبّة الله له ، حتى أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعا :(( من لم يسأل الله يغضب عليه.))[(١)] فلولم يكن الدعاء نافعا لصاحبه ، وأن ليس له الا ما قد كتب له ، دعا أو لم يدع ، لم يقع الوعد بالاجابة واعطاء المسألة في هذه الأحاديث ونحوها .))[(٢)]

أقول : وبالجملة فانّ القرآن والأحاديث تردّ على قولهم بأنّ الدعاء لا ينفع من الله عزّوجلّ الا ما قد سبق به القضاء، وأنه ليس سببا في الحصول على المطلوب،فانّ الله سبحانه قدّر جميع الأسباب ومسبّباتها ،" وجميع الأسباب قد تقدّم علم الله بها ، وكتابته لها ، وتقديره ايّاها ، وقضائه بها ، كما تقدّم ربط ذلك بالمسبّبات."[(٣)] فاذا قدّر الله مثلا للعبد خيرا يناله بالدعاء،لم يحصل بدون الدعاء، وهكذا جميع الأشياء المقرونة بالسبب .

وكلام الشوكاني هنا [(٤)] يفهم منه أنّ الدعاء ليس مما قد كتب الله له ، وسبق به قضاؤه ، وهو غير صحيح، لأنّ كون العبد دعا أولم يدع لا يخرج مطلقا عمّا قدّره الله له ،وكتب له في الأزل،فانّ هذا المقدّر لا يتخلّف،ولكنّه لا يحصل الا بالدعاء،وانّ الدعاء لا يتخلّف أيضا،لأنّ الله قدّره. وقد قرّر ـ رحمه الله ـ خلاف المفهوم السابق كما تقدّم .[(٥)]

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذا الصدد :

(( إنّ هذا المقدور قدّر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدّر مجرّدا عن سببه ، ولكن قدّر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور ، وهكذا ،كما قدّر الشبع والريّ بالأكل والشرب، وقدّر الولد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٤٢/٢ ،والبخاري في الأدب المفرد ،باب من لم يسأل الله يغضب عليه (انظر فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد ١١٤/٢ برقم ٦٥٨) ،والترمذي في كتاب الدعوات ، باب ما جاء في فضل الدعاء ٤٢٦/٥ برقم (٣٣٧٣) ،وابن ماجه في كتاب الدعاء ،باب فضل الدعاء ١٢٥٨/٢ برقم (٣٨٢٧) ،والحاكم في المستدرك ٤٩١/١ وصحّحه ،ووافقه الذهبي.وصحّحه الألباني في شرح العقيدة الطحاوية ٥١٩ هامش رقم (١)

(٢) قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٥٠١ (٣) مجموع فتاوى: ابن تيمية ٢٧٧/٨ .

(٤) أي قوله ،فلو لم يكن الدعاء نافعا لصاحبه ،وأن ليس له ... الخ.وتقدّم مثل هذا الكلام ،وكرّره في عدّة مواضع من كتبه (انظر قطر الولي ٤٩٧، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤ ،وتنبيه الأفاضل ،ضمن أمناء الشريعة ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧.)

(٥) أي في أوّل الفقرة ، وسيأتي مزيد من التفصيل في الفقرة التالية ( صفحة ١٥٨).

بالوطء، وقدّر حصول الزرع بالبذر، وقدّر خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قدّر دخول الجنّة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال ... وحينئذ، فالدعاء من أقوى الأسباب، فاذا قدّر وقوع المدعوّ به بالدعاء لم يصحّ أن يقال لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب، وجميع الحركات والأعمال، وليس شيئ من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ من حصول المطلوب .))(١)

د ـ الدعاء يردّ القدر

استدلّ الشوكاني على أنّ الدعاء يردّ القدر بأدلّة كثيرة، منها :

١ ) ما رواه الترمذي وغيره أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(( لا يردّ القضاء الّا الدعاء، ولا يزيد في العمر الّا البرّ .))(٢)

قال الشوكاني:(( فيه دليل على أنّه سبحانه يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد وقد وردت بهذا أحاديث كثيرة، ويؤيّد ذلك قوله تعالى :(( يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ .))(٣) (٤)

٢ ) ما رواه الحاكم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(( لا يغني حذر عن قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وانّ البلاء لينزل، فيتلقّاه الدعاء فيعتلجان(٥) الى يوم القيامة .))(٦)

قال الشوكاني:(( فيه دليل على أنّ الحذر لا يغني عن صاحبه شيئا من القدر المكتوب عليه، ولكنّه ينفع من ذلك الدعاء، ولذلك عقبه صلى الله عليه وسلم بقوله : والدعاء ينفع مما نزل ومما

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: ابن القيم ٢٧ تحقيق الاستاذ سعيد محمد اللحام، ط ١٤٠٧/١هـ مكتبة المعارف .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٧٧/٥، ٢٨٠، ٢٨٢ والترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء لا يردّ القدر الّا الدعاء ٣٩٠/٤ برقم (٢١٣٩) وقال: هذا حديث حسن غريب وابن ماجه في كتاب الفتن، باب العقوبات ١٣٣٤/٢ برقم (٤٠٢٢) والحاكم في المستدرك ٤٩٣/١ وصحّحه ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٣٦/١ برقم (١٥٤) وقال بعد سرده طرق الحديث ونقدها: والخلاصة أنّ الحديث حسن كما قال الترمذي (وأورده الشوكاني في تحفة الذاكرين ٢٦، وقطر الولي ٥٠١، وبحث في أنّ اجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء ضمن أمناء الشريعة ١٣١)

(٣) سورة الرعد، آية ٣٩ .

(٤) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٢٦ .

(٥) قال ابن الأثير: يعتلجان، أي يتصارعان (النهاية ٢٨٦/٣ مادة: علج)

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٩٢/١ وصحّحه. وتعقّبه الذهبي بأن فيه زكريا بن منظور ضعيف .===

لم ينزل .))(١)

٣ ) ما ورد من الاستعاذة من سوء القضاء، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما أنه كان صلى الله عليه وسلم يقول: (( أللهمّ إنّي أعوذبك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.))(٢)

ومن ذلك حديث الدعاء في الوتر، وفيه: (( وقني شرّ ما قضيت )) وهو حديث صحيح وان لم يكن في الصحيحين .(٣)

قال الشوكاني: (( فلو لم يكن للعبد الآ ما قد سبق به القضاء، لم يستعذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سوء القضاء .))(٤)

---

==== قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٦/١٠): رواه الطبراني في الأوسط، والبزار بنحوه، وفيه زكريا بن منظور، وثّقه أحمد بن صالح المصري، وضعّفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات. وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٧٩/٢ برقم ٧٧٣٩) (والحديث أورده الشوكاني في تحفة الذاكرين ٢٧، وبحث في أن اجابة الدعاء لاينافي سبق القضاء، ضمن أمناء الشريعة ١٣١، وقطر الولي ٥٠٢)

(١) تحفة الذاكرين ، الشوكاني ٢٧ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التعوّذ من جهد البلاء (الفتح ١٥٢/١١ برقم ٦٣٤٧)، ومسلم في كتاب الدعوات، باب في التعوّذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٠٨٠/٤ برقم ٢٧٠٧) (وأورده الشوكاني في قطر الولي ٥٠٣، وتحفة الذاكرين ٢٧١، وبحث في أن اجابة الدعاء لاينافي سبق القضاء، ضمن أمناء الشريعة ١٣٢)

(٣) انظر: قطر الولي ٥٠٢،٤١٥ وبحث في أن اجابة الدعاء لاينافي سبق القضاء، ضمن أمناء الشريعة ١٣٤ والحديث أخرجه أبوداود في كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر (١٣٤،١٣٣/٢ برقم ١٤٢٥) والترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر (٣٢٨/٢ برقم ٤٦٤) وقال: هذا حديث حسن لانعرفه الآمن هذا الوجه... ولانعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم في القنوت شيئا أحسن من هذا . والنسائي في كتاب قيام الليل وتطوّع النهار، باب الدعاء في الوتر (٢٤٨/٣ برقم ١٧٤٦،١٧٤٥) وابن ماجة في كتاب اقامة الصلاة والسنّة فيها، باب ما جاء في القنوت في الوتر (٣٧٢/١ برقم ١١٧٨) والدارمي في كتاب الصلاة، باب الدعاء في القنوت (٤٥٢،٤٥١/١ برقم ١٥٩١، ١٥٩٢، ١٥٩٣) وأحمد في مسنده (١٩٩/١، ٢٠٠) والحاكم في المستدرك (١٧٢/٣، ٩٩/٤) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٩/٢) وصحّحه أحمد شاكر في تعليقه على سنن الترمذي (٣٢٩/٢ هامش رقم ٢ ) كما صحّحه الألباني في ارواء الغليل (١٧٢/٢ برقم ٤٢٩)

(٤) قطر الولي على حديث الولي ، الشوكاني ٥٠٢ .

قلت : مفهوم هذا الكلام أنه يكون للعبد ما لم يسبق به القضاء، وأنّ الاستعاذة من سوء القضاء ليس مما سبق به القضاء، وهو مفهوم غير صحيح، كما تقدّم [(١)] وقد تعارض هذا المفهوم مع ما قرّره في بعض كتبه من أنّ الاستعاذة من سوء القضاء هي من قضاء الله تعالى وقدره، ولهذا شرعها لعباده .[(٢)]

٤ ) وصحّ عن بعض أكابر الصحابة كعمر بن الخطاب، وعبدالله بن مسعود، وأبي وائل، وأمثالهم أنهم كانوا يسألون الله سبحانه وتعالى أن يثبتهم في ديوان السعادة وأن ينقلهم من ديوان الشقاوة ان كانوا فيها الى ديوان السعادة .[(٣)]

فقد روى الطبري بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت، ويبكي :(( أللهم ان كنت كتبت علي شقوة أو ذنبا فامحه ، فانّك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمّ الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة .)) وروى مثل هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره .[(٤)]

وقد بيّن الشوكاني ـ رحمه الله ـ أنّ الاستعاذة من سوء القضاء لا تخالف الرضا به ، لأنّ الاستعاذة من سوء القضاء هي من قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره ولهذا شرعها لعباده .[(٥)] وقال :

(( قد وردت السنّة الصحيحة ببيان أنّ القضاء باعتبار العباد ينقسم الى قسمين: خير وشرّ، فانه قد شرع لهم الدعاء بالوقاية من شرّه، والاستعاذة منه، ولا ينافي هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في بيان معنى الايمان لمن سأله عنه بقوله :(( أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشرّه ))[(٦)] كما هو ثابت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم وغيرهما من طرق، فانّه يمكن أن يكون الانسان مؤمنا بما قضاه الله سبحانه وتعالى من خير وشرّ، مستعيذا بالله من شرّ القضاء عملا بمجموع

---

(١) أي في الكلام عن الدعاء. انظر صفحة ( ١٦٣ )

(٢) انظر تحفة الذاكرين ، الشوكاني ٣٧٢ .

(٣) انظر قطر الولي ، الشوكاني ٥١٤، وفتح القدير، الشوكاني ٨١/٣، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة ، الشوكاني ١١٦، ١١٧، ١٢٦، وبحث في أن اجابة الدعاء لاينافي سبق القضاء ضمن أمناء الشريعة ، الشوكاني ١٣٩ .

(٤) انظر تفسير الطبري ١٦٧/١٣، ١٦٨ ط/ ١٤٠٨هـ دار الفكر .

(٥) تحفة الذاكرين ، الشوكاني ٣٧٢ (٦) تقدّم تخريجه في صفحة ( ١٣٣ )

الأدلــة.))(١)

هذه بعض الأدلة التي استدل بها الشوكاني في هذه المسألة، وهناك أدلة أخرى أوردها رحمه الله ليردّ بها على القائلين بأنه لا ينفع من الله إلا ما قد سبق به القلم، وأنّ أحكام الله وقضاءه في سابق علمه لا تتبدّل ولا تتغيّر.(٢)

ونحن مع الشوكاني في هذا، غير أنّي أرجّح القول بأن ما في سابق علمه سبحانه كائن لا محالة، وأن ما سبق به القلم وفصّل به القضاء لا يتغير ولا يتبدّل، وهو المعبّر عنه بأمّ الكتاب، كما أشار إليه سبحانه في كتابه العزيز إذ قال:

(( وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ . ))(٣) وقال: (( مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ))(٤)

وكما ثبت في الحديث: أنّ الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.(٥) وأنّ أوّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: ربّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شيء حتى تقوم الساعة.(٦)

وثبت في الصحيح أن سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: لا، بل فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير. قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكلّ ميسّر.(٧)

---

(١) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٣٧٢.

(٢) انظر تنبيه الأفاضل ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١٢٧، وأيضا ١٣٤.

(٣) سورة يس: آية ١٢. (٤) سورة الحديد: آية ٢٢.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٠٤٤/٤ برقم ٢٦٥٣)

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٣١٧/٥، وأبو داود في كتاب السنّة باب في القدر (٧٦/٥ برقم ٤٧٠٠) والترمذي في كتاب القدر (٣٩٨/٤ برقم ٢١٥٥) وابن أبي عاصم في السنّة (٥٠/١ برقم ١٠٨) قال الألباني: حديث صحيح، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنّة (٣٩٣/٢ برقم ٨٥٤) وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٠/٧) للبزار، وقال: رجاله ثقات، وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٠٧/١ برقم ١٣٣) وفي صحيح الجامع الصغير (٤٠٥/١ برقم ٢٠١٧، ٢٠١٨)

(٧) أخرجه مسلم في كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمّه (٢٠٤٠/٤ برقم ٢٦٤٨) وابن ماجة مختصرا في المقدمة باب في القدر (٣٤/١ برقم ٩١) وأحمد في المسند ٢٩٢/٣، ٢٩٣.

وفي الصحيح أيضا من أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
(( يا أبا هريرة، جفّ القلم بما أنت لاق . ))(١)

وفسّر الحافظ ابن حجر هذا الحديث فقال: (( أي فرغت الكتابة، اشارة الى أن الذي كتب في اللوح المحفوظ لا يتغيّر حكمه، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة. ونقل عن عياض (٢) قال: معنى جفّ القلم :أي لم يكتب بعد ذلك شيئا . ))(٣)

ومن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( إنّ الله تعالى فرغ الى كلّ عبد من خلقه من خمس : من أجله ،ومن عمله ،ومن رزقه ،ومن أثره ، ومن مضجعه . ))(٤)

ولا تعارض بين ما سبق من أحاديث ردّ القضاء بالدعاء وبين كون القضاء قد كتبه الله وقدّره في الأزل قبل حدوثه، لأنّ الدعاء وردّ القضاء به كليهما من جملة ما كتبه الله وقدّره، فاذا قدّر للعبد خيرا مثلا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء .

وقد أوضح ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية وقال:

(( إنّ الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ،ورحمته ،وهداه ، ونصره ،ورزقه ،واذا قدّر للعبد خيرا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدّره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم، فانّما قدّره الله بأسباب يسوق المقادير الى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيئ الّا بسبب، والله خالق الأسباب والمسبّبات. ))(٥)

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب ما يكره من التبتّل والخصاء (الفتح ٢٠/٩ برقم ٥٠٧٦) وأخرجه معلّقا في كتاب القدر باب جفّ القلم على علم الله (الفتح ٤٩١/١١) وابن أبي عاصم في السنة (٥٠/١، ٥١ برقم ١٠٩، ١١٠)

(٢) هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، عالم المغرب، وامام أهل الحديث في وقته ،من أشهر مصنّفاته :الشفا بتعريف حقوق المصطفى، توفّي سنة ٥٤٤ هـ (انظر ترجمته في :وفيات الأعيان :ابن خلكان ٤٨٣/٣ ،والبداية والنهاية :ابن كثير ٢٢٥/١٢ ،ومفتاح السعادة :طاش كبرى زادة ١٣٠/٢ ،والأعلام :الزركلي ٩٩/٥)

(٣) الفتح : ابن حجر ٥٠٠/١١ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١٩٧/٥ ،وابن أبي عاصم في السنّة (١٣٢/١، ١٣٣ برقم ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥) قال الألباني :اسناده صحيح .وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٥/٧) :رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، وأحد اسنادي أحمد رجاله ثقات .

(٥) مجموع فتاوى : ابن تيمية ٦٩/٨، ٧٠ .

ونقل الامام النووي من الغزالي قال:

(( فاعلم أن من جملة القضاء ردّ البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لردّ البلاء، ووجود الرحمة، كما أنّ الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء، وليس من شرط الاعتراف بالقضاء أن لايحمل السلاح، وقدقال الله تعالى: (( وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ . ))[1] فقدّر الله الأمر، وقدّر سببه . ))[2] فالسبب والمسبّب كلاهما مقدّر من الله سبحانه، مكتوب في اللوح المحفوظ .

ومن هنا نستطيع القول بأنّ الدعاء يردّ القضاء ولا يردّ القضاء، يعني له جهتان: فمثلا هذا المريض قد يدعوا الله تعالى بالشفاء فيشفي، فهنا لولا هذا الدعاء لبقي مريضا، لكنّ بالدعاء يشفي، الا أنّنا نقول انّ الله سبحانه وتعالى قد قدّر في سابق علمه أنّ هذا المرض يشفي منه المريض بواسطة الدعاء، فهذا هو المكتوب، فصار الدعاء يردّ القضاء ظاهريّا، حيث انّ الانسان يظنّ أنه لولا الدعاء لبقي المرض، ولكنّه في الحقيقة لا يردّ القضاء، لأنّ الأصل أنّ الدعاء مكتوب، وأنّ الشفاء سيكون بهذا الدعاء.[3] وهكذا جميع الأسباب التي جعلها الله أسبابا، فانّها مقدّرة، معلومة، مقضية، مكتوبة قبل تكوينها .

وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ الأسباب من القدر كما روى أبو خِزَامَة[4] عن أبيه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يا رسول الله، أرأيت رُقًى نَسْتَرْقِيهَا، ودَوَاءً نتداوى به، وتُقَاةً نَتَّقِيهَا، هل تَرُدُّ من قدر الله شيئا ؟ قال: هي من قدر الله .[5]

---

(١) سورة النساء : آية ١٠٢

(٢) الأذكار : النووي ٥٦٧ تحقيق/ عبدالقادر الأرناؤوط، ط/دار الهدى ١٤٠٩هـ .

(٣) انظر المجموع الثمين من فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين ١٥٧ ط/ دار الوطن ١٤١٠هـ

(٤) قال الحافظ ابن حجر: أبو خزامة، بزاي قبلها كسرة، ابن يعمر بفتح التحتانية وسكون المهملة السعدي، أحد بني الحارث بن سعد بن هذيم، يقال: اسمه زيد بن الحارث، ويقال: الحارث، وكلاهما وهم، وهو صحابي، له حديث في الرقى، وقَلَبَهُ بعض الرواة (تقريب التهذيب ٦٣٦ برقم ٨٠٧٧)

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٤٢١/٣، والترمذي في كتاب الطبّ، باب ما جاء في الرقى والأدوية (٣٤٩/٤ برقم ٢٠٦٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وفي كتاب القدر، باب ما جاء لاتردّ الرقى ولا الدواء من قدر الله شيئا (٣٩٥/٤ برقم ٢١٤٨)، وابن ماجه في كتاب الطبّ، باب ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء (١١٣٧/٢ برقم ٣٤٣٧)، والحاكم في المستدرك (١٩٩/٤) وصحّحه، ووافقه الذهبي .

قال الشوكاني عند شرحه للحديث :(( قوله :(هي من قدر الله )أي لا مخالفة بينهما، لأنّ الله هو الذي خلق تلك الأسباب، وجعل لها خاصية في الشفاء.)) [(١)]

والذي يشهد لهذا الحديث بالصحّة قوله صلى الله عليه وسلم :(( كلّ ميسّر لما خلق له )) [(٢)] فهو اذا تداوى أو استرقى أو اتقى فبتقدير الله وتيسيره أمكنه ذلك ، ولولم يقدّره لم يتيسّر منه فعل ذلك .[(٣)]

ومثل هذا نقول في الدعاء، فانّ الله هو الذي يقذف في قلوب العبد حركة الدعاء، ويجعلها سببا للخير الذي يعطيه ايّاه ، كما في العمل والثواب، فهو الذي وفّق العبد للتوبة ثمّ قبلها ، وهو الذي وفّقه للعمل ثمّ أثابه ، وهو الذي وفّقه للدعاء ثم أجابه ، فما أثّر فيه شيئ من المخلوقات، بل هو جعل ما يفعله سببا لما يفعله .[(٤)]

هذا قول الحقّ الذي عليه جمهور أهل العلم [(٥)] ومنهم الشوكاني ـ رحمه الله ـ حيث أثبت أنّ الله سبحانه قد علم في سابق علمه أنّ فلانا يحصل له من الخير كذا ، أو يندفع عنه من الشرّ كذا اذا دعا ربّه ، وأنّ هذه المسبّبات مترتّبة على حصول أسبابها [(٦)]، وأنّ الله علمها قبل أن تكون، فعلمه على كلّ تقدير أزليّ في المسبّبات والأسباب [(٧)] وقال من الدعاء والاستعاذة من سوء القضاء إنّهما من قدر الله وقضائه .[(٨)]

الا أنّ الشوكاني ـ رحمه الله ـ رأى أنّ ما سبق به القلم وفصّل به القضاء يتغير ويتبدّل، بدليل ما ثبت في الكتاب والسنّة من الارشاد الى الدعاء، وما ورد من الاستعاذة من سوء

---

(١) نيل الأوطار : الشوكاني ١٣٢/١٠، ١٣٣ تحقيق/طه عبد الرؤوف سعد ومصطفى محمد الهواري.

(٢) تقدم تخريجه في صفحة ( ١٥٣ ) (٣) انظر الاعتقاد والهداية : البيهقي ٩٠ .

(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العز الحنفي ٥٢١ .

(٥) انظر الاعتقاد والهداية : البيهقي ٨٧ ـ ٩٠ وشفاء العليل: ابن القيم ٥٠، ٥٢، ولطائف المعارف: ابن رجب الحنبلي ٨٣ ط/دار الجيل، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني ٣٤٨/١ ، والدين الخالص : محمد صدّيق حسن خان ٢٠٢/٣، ٢٠٣ ط/دار التراث، والدرة البهية : عبد الرحمن ناصر السعدي ٧٢، ٧٣ مكتبة المعارف، ومعارج القبول: حافظ الحكمي ٩٥٤/٣، ٩٥٥ تحقيق/ عمر بن محمود أبو عمر ط/١ /١٤١٠هـ دار ابن القيم .

(٦) انظر تنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة : الشوكاني ١٢٦ .

(٧) انظر قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٥١٠ .

(٨) انظر تحفة الذاكرين : الشوكاني ٢٧، ٥١٤ .

القضاء كما أوردناه ، وأنّه لا تلازم بين علم الله وبين نفاذ قضائه[١] قال : " لو كان القضاء السابق حتما لا يتحوّل فأيّ فائدة في استعاذته صلى الله عليه وسلم من سوء القضاء ؟[٢].

وهذا مخالف لما ذهب اليه المحقّقون من أهل العلم ، وقد أوردت سابقا بعض الأدلة التي تدلّ بمفهومها على أنّ ما سبق به القضاء لا يتغيّر ولا يتبدّل ، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ ، وما كتب في اللوح المحفوظ يكون وفقا لما في علم الله سبحانه الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل باجماع المسلمين .

قال تعالى : (( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ .))[٣]

والله سبحانه وتعالى عالم بما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون[٤] وكلّ شيء في الكون يسير طبقا لما في علمه سبحانه ، ولما كتبه في اللوح المحفوظ ، فما يحدث شيء في الكون الّا وقد علمه الله ، وكتبه قبل حدوثه . هذا ما أجمع عليه المحققون من أهل العلم[٥] .

والتعارض الذي وقع فيه الشوكاني هنا هو :

١ ـ أنّه أثبت أنّ الدعاء ومثله الاستعاذة من سوء القضاء من جملة القدر أي قد قدّره الله في الأزل ، ثمّ قال إنّ القدر يتغيّر ويتبدّل ، وانّ للعبد ما لم يسبق به القضاء ، وهذا تناقض ، لأنّه اذا قلنا انّ الدعاء من القدر بمعنى أنّ الله قدّر في سابق علمه أنّ فلانا سيدعو ، وسينال بدعائه الخير ، فكيف يصحّ لنا القول بأنّ ما قدّره له يتغيّر ويتبدّل ؟ انّه لا يتغيّر

---

(١) انظر : قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، وبحث في أنّ اجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء ، ضمن أمناء الشريعة : الشوكاني ١٢٤ ، ١٢٧ .

(٢) قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٥١٤ . (٣) سورة الحج : آية ٧٠ .

(٤) التفسير الكبير : ابن تيمية ٢٠١/٤ تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة ، دار الكتب العلمية ١٤٠٨ هـ

(٥) انظر : تفسير الطبري ١٢٢/٢٢ ، والشريعة : الآجري ١٧٦ ، ١٧٩ ، والاعتقاد : البيهقي ٨٩ ، وتفسير البغوي ٢٣/٣ دار المعرفة ، وشرح النووي لصحيح مسلم ١١٤/١٦ ، وأيضا ٢١٢/١٦ ، ٢١٣ ، والعقيدة الواسطية : ابن تيمية ١٦٤ شرح الدكتور صالح بن فوزان ، وشفاء العليل : ابن القيم ٧٤ ، ونور الاقتباس : ابن رجب ٧٥ ـ ٧٧ تحقيق : محمد ناصر العجمي ، مكتبة دار الأقصى ، ط/ ١٤٠٦ هـ ، وايثار الحق على الخلق : ابن الوزير اليماني ٢٧٩ دار الكتب العلمية ، ط/ ١٤٠٣ هـ ، والفتح : ابن حجر العسقلاني ٤٣٠/١٠ ، وأيضا ٤٩٧/١١ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ولوامع الأنوار البهية : السفاريني ١/ ٣٤٩ ، ٤٣٨ ، وتيسير الكريم الرحمن : عبد الرحمن ناصر السعدي ١١٧/٤ تحقيق : محمد زهري النجار .

ولا يتبدّل،والذي يتغيّر ويتبدّل هو ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلّق ذلك بما في علم الملك الموكّلين بالآدمي،كما سيأتي تفصيله .

٢ ـ قوله ـ رحمه الله ـ عن الدعاء: " والحاصل أنّ الدعاء من قدر الله عزّوجل، فقد يقضي بشيئ على عبده قضاء مقيّدا بأن لا يدعوه،فان دعاه اندفع عنه. "[١] هذا يتناقض مع ما ذهب اليه في موضع آخر،وهو نفيه القول بالقضاء المطلق والقضاء المقيّد، ووصفه بأنه قول مردود ورأي بحت ليس عليه دليل .[٢]

وسيأتي بيان الراجح في الموضوع في الفقرة التالية ـ ان شاء الله ـ

هـ ـ الآجال والمحو والاثبات .

ذهب الشوكاني الى أنّ أجل الانسان يزيد وينقص،وأنّ الله سبحانه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ، ويثبت ما يشاء منه. واستدلّ على ذلك بأدلّة كثيرة،منها :

١ ـ قوله تعالى:(( لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ،يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ،وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ))[٣]

قال الشوكاني عند تفسيره للآية :(( أي لكلّ أمر ممّا قضاه الله ،أو لكلّ وقت من الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها،كتاب عند الله يكتبه على عباده ،ويحكم به فيهم .(يمحو الله ما يشاء ويثبت) أي يمحو من ذلك الكتاب،ويثبت ما يشاء منه. ثمّ قال: " وظاهر النظم القرآني العموم في كلّ شيئ ممّا في الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة،أو سعادة،أو رزق، أو عمر،أو خير،أو شرّ،ويبدّل هذا بهذا،ويجعل هذا مكان هذا،لا يسئل عمّا يفعل وهم يسئلون .

وأورد اثني عشر قولا في معنى الآية،ورجّح القول الأوّل: أنّ الآية عامّة،وأنّ العمر فرد من أفرادها،قال: "والأوّل أولى كما تفيده ما في قوله :( ما يشاء ) من العموم،مع تقدّم ذكر الكتاب في قوله :( لكلّ أجل كتاب ) ومع قوله :( وعنده أمّ الكتاب )أي أصله، وهو اللوح المحفوظ، فالمراد من الآية أنّه يمحو ما يشاء ممّا في اللوح المحفوظ،فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء ممّا فيه،فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته ، وهذا لاينافي في

---

(١) تحفة الذاكرين : الشوكاني ٢٧ .

(٢) انظر بحث في أنّ اجابة الدعاء لاينافي سبق القضاء،ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١٣٥ .

(٣) سورة الرعد : آية ٣٨،٣٩ .

ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من قوله: (( جفّ القلم ))[١] وذلك لأنّ المحو والاثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه. ))[٢]

ويدلّ على هذا التعميم ما ثبت عن كثير من أكابر الصحابة أنهم كانوا يقولون في دعائهم: (( اللهمّ إن كنت كتبتني في أهل الشقاوة فامحني واثبتني في أهل السعادة. ))[٣]

والى هذا ذهب عمر بن الخطاب، وعبدالله بن مسعود، وابن عباس، وأبو وائل، وقتادة، والضحّاك، وابن جريج، وغيرهم.[٤]

٢ - قوله عزّ وجلّ: (( وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ. ))[٥]

ومعنى الآية كما قال الشوكاني: ((أي ما يطول عمر أحد، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب أي اللوح المحفوظ. ))[٦]

وقال بعد سوقه للأقوال في معنى الآية ومناقشتها:[٧]

(( والأولى أن يقال: ظاهر النظم القرآني أنّ تطويل العمر وتقصيره هما بقضاء الله وقدره، لأسباب تقتضي التطويل، وأسباب تقتضي التقصير، فمن أسباب التطويل: ما ورد في صلة الرحم من النبي صلى الله عليه وسلم[٨]، ونحو ذلك. ومن أسباب التقصير: الاستكثار من معاصي الله عزّ وجلّ، فاذا كان العمر المضروب للرجل مثلا سبعين سنة، فقد يزيد الله له عليها اذا فعل أسباب الزيادة، وقد ينقصه منها اذا فعل أسباب النقصان، والكلّ في كتاب مبين. ))[٩]

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة ( ١٦٨ )

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٨٨/٣، وانظر ردوده على الأقوال في قطر الولي على حديث الولي ٥٠٤ - ٥٠٦، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة ١١٤، ١١٥.

(٣) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥٠٥، وأيضا ٥١٤، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١١٦، ١١٧، وفتح القدير: الشوكاني ٨٩/٣. وهذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٦٧/١٣، ١٦٨) عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود. وقد تقدّم في صفحة ( ١٦٦ ).

(٤) انظر: فتح القدير: الشوكاني ٨٨/٣، وارشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان: مرعي بن يوسف الكرمي ٤١ تحقيق: مشهور حسن محمود سليمان، دار عمّار ١٤٠٨هـ. وانظر تفسير الطبري ١٦٧/١٣، ١٦٨، وزاد المسير: ابن الجوزي ٣٣٧/٤، وتفسير الفخر الرازي ٦٥/١٠، ٦٦، وتفسير ابن كثير ٣٩٠/٤. (٥) سورة فاطر: آية ١١ (٦) فتح القدير: الشوكاني ٣٤٢/٤، وأيضا قطر الولي: الشوكاني ٥٠٨، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١١٧.

(٧) انظر ما أورده الشوكاني من الأقوال وردوده عليها في قطر الولي ٥٠٦، ٥٠٧، وتنبيه الأفاضل ١١٥، ١١٦

(٨) سيأتي نصّ الحديث مع تخريجه ( ص ١٧٤ ) (٩) فتح القدير: الشوكاني ٣٤٢/٤.

٣ ـ أيّد الشوكاني معنى الآية السابقة بقوله عزّ وجلّ : (( ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ))(١) ومعنى الآية كما اختاره ـ رحمه الله ـ من بين أقوال المفسّرين هو : أنّ الأول الأجل الذي هو محتوم ، والثاني الزيادة في العمر لمن وصل رحمه ، فان كان برّا تقيّا وصولا لرحمه زيد في عمره ، وان كان قاطعا للرحم لم يزد له ، ويرشد الى هذا قوله تعالى : (( وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ . ))(٢) (٣) فمعنى الآية : ( ثمّ قضى أجلا وأجل مسمّى عنده ) : أنّ للانسان أجلين يقضي الله سبحانه له بما يشاء منهما من زيادة أو نقص .(٤)

٤ ـ وممّا يستدلّ به الشوكاني من الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (( من أحبّ أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه . ))(٥) وما رواه الترمذي وغيره أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (( ولا يزيد في العمر الا البرّ ))(٦) قال الشوكاني عند شرحه للحديث : (( فيه دليل أنّ ما يصدق عليه البرّ على العموم يزيد في العمر ، وقد ثبت في الصحيح أنّ صلة الرحم تزيد في العمر ، والمراد : الزيادة الحقيقية ، وقيل المراد البركة في العمر ، والظاهر الأوّل . ))(٧)

ومنها ما رواه الحاكم وغيره عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (( مكتوب في التوراة : من أحبّ أن يزاد في عمره ويزاد في رزقه ـــــــ

---

(١) سورة الأنعام : آية ٢ . (٢) سورة فاطر : آية ١١ .

(٣) فتح القدير ، الشوكاني ٩٦/٢ ، وانظر أيضا ما أورده من الأقوال في قطر الولي على حديث الولي ٥٠٧ ، وتنبيه الأفاضل ، ضمن أمناء الشريعة ١١٦ .

(٤) انظر تنبيه الأفاضل ، ضمن أمناء الشريعة : الشوكاني ١١٧ ، وقطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٥٠٨ ، وتقدّم بيان التعارض الذي وقع فيه الشوكاني في هذه القضية ، راجع (ص ١٧١ ، ١٧٢)

(٥) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الأدب باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ( الفتح ٤٢٩/١٠ برقم ٥٩٨٦ ) وأيضا برقم ٥٩٨٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : ( من سرّه أن يبسط له ... الحديث ، وفي كتاب البيوع باب من أحبّ البسط في الرزق ( الفتح ٣٠٣/٤ برقم ٢٠٦٧ ) من أنس ابن مالك رضي الله عنه نحوه ، وأخرجه مسلم في كتاب البر باب في صلة الرحم وتحريم قطيعتها ( ١٩٨٢/٤ برقم ٢٥٥٧ ) وأبو داود في كتاب الزكاة باب في صلة الرحم ( ٢١/٢ برقم ١٦٩٣ ) وأحمد في المسند ١٥٦/٣ ، وأورده الشوكاني في قطر الولي ٥٠٢ ، وتنبيه الأفاضل ، ضمن أمناء الشريعة ١١٧ .

(٦) تقدّم تخريجه في صفحة ( ١٦٤ ) (٧) تحفة الذاكرين : الشوكاني ٢٦

فليصل رحمه.))[1] وما رواه أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((صلة الرحم، وحسن الخلق وحسن الجوار، يعمّران الديار، ويزيدان في الأعمار))[2].

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: ((والأحاديث في هذا الباب كثيرة، فلو لم يكن للعبد إلا ما قد سبق له لم تحصل له الزيادة بصلة رحمه، بل ليس له إلا ما قد سبق به القضاء، وصل رحمه أو لم يصل، فيكون ما ورد في ذلك لغوا، لا عمل عليه ولا صحّة له.))[3]

قلت: إنّه قد سبق له الزيادة بصلة رحمه، وسبق أنّه سيصل رحمه، فلا منافاة، أمّا قوله: (وصل رحمه أو لم يصل) فهذا كلام غير مقبول، لأنّه قدّر له أن يصل، ولا يتخلّف ما قدّره له، وقد تقدّم تعليقي على مثل هذا الكلام.[4]

وقد جمع الشوكاني بين هذه الأدلّة وبين قوله تعالى: ((فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ.))[5]، وقوله سبحانه: ((وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا.))[6]، وقوله عزّ وجلّ: ((إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ.))[7] حيث قال:

((أفسّرها (يعني: هذه الآيات الثلاث) بما هي مشتملة عليه، فإنّه قال في الآية الأولى: (فإذا جاء أجلهم) وقال في الثانية: (وإذا جاء أجلها) وقال في الثالثة: (إنّ أجل الله إذا جاء) فأقول: إذا حضر الأجل فإنّه لا يتقدّم ولا يتأخّر، وقبل حضوره يجوز أن يؤخّره الله بالدعاء أو بصلة الرحم، أو بفعل الخير، ويجوز أن يقدّمه لمن عمل شرًّا، أو قطع ما أمر الله به أن يوصل، وانتهك محارم الله سبحانه.))[8]

هذا ما ذهب إليه الشوكاني في هذه المسألة التي وصفها بأنّها من المعارك لاختلاف الأدلّة فيها من الكتاب والسنّة.[9] وخلاصته: أنّ الله كتب للإنسان أجلين مطلقا ومقيّدا، مثال ذلك:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٦٠/٤ وصحّحه، ووافقه الذهبي، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٣/٨): رواه البزار، وفيه سعيد بن بشير، وثّقه شعبة وجماعة، وضعّفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات. والحديث بهذا اللفظ ضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (١٣٦/٣، ١٣٧ برقم ٥٢٧٧)

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٥٩/٦ قال الهيثمي في المجمع (١٥٣/٨): رواه أحمد ورواته ثقات، إلا أنّ عبد الرحمن بن القاسم لم يسمع من عائشة. قلت: في مطبوع المسند بين عبد الرحمن وعائشة القاسم، وسماعه من عائشة ثابت وصحيح، ولهذا فالحديث صحيح. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٣٤/٢ برقم ٥١٩)، وقطر الولي للشوكاني ٥٠٣.

(٣) قطر الولي، الشوكاني ٥٠٣. (٤) راجع صفحة (١٦٣).

(٥) وردت الآية في موضعين: سورة الأعراف، آية ٣٤، وسورة النحل، آية ٦١ (٦) سورة المنافقون، آية ١١

(٧) سورة نوح، آية ٤ (٨) قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني ٥٠٨، وأيضا تنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة، الشوكاني ١١٨. (٩) انظر تحفة الذاكرين، الشوكاني ٢٦.

فلان عمره تسعون سنة ، فان وصل رحمه زيد في عمره الى مائة سنة ، فأيّهما بلغ فهو في كتابه، والله يمحو ويثبت ما يشاء منهما من زيادة ونقص .

هذا مبني على قوله :إنّ ما في اللوح المحفوظ يتبدّل ويتغيّر تبعا للأسباب[١] وكأنّها لم تكن ممّا سبق به قضاء الله وقدره ،وهو غير صحيح كما تقدّم .

والذي أراه راجحا في هذه المسألة هو رأي القائلين بأنّ المحو والاثبات في المكتوب عند الملائكة ، وأنّ ما في سابق علمه سبحانه وفي اللوح المحفوظ لا يقع فيه المحو والاثبات، وهو ما قاله كثير من أهل العلم منهم شيخ الاسلام ابن تيمية[٢] وابن أبي العزّ الحنفي[٣]، والحافظ ابن حجر[٤] والسفاريني[٥] والشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي[٦] وغيرهم .

والمراد بالمكتوب عند الملائكة هو ما بيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث،منها :

ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(( وكّل الله بالرحم ملكا فيقول: أي ربّ نطفة ، أي ربّ علقة ، أي ربّ مضغة ، فاذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي ربّ أذكر أم أنثى،أشقيّ أم سعيد؟ فما الرزق ، فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمّه .))[٧] ...

وهذه الكتابة هي المعهودة في صحيفته ، ووقع ذلك صريحا في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه ،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(( يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ في الرحم بأربعين،أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول: يا ربّ أشقيّ أو سعيد ، فيكتبان ، فيقول: أي ربّ أذكر أو أنثى،فيكتبان ، ويُكتب عمله ،وأثره ،وأجله ،ورزقه ،ثمّ تطوى الصحف، فلا يزاد فيها،ولا يُنقص .))[٨] وفي رواية ثانية[٩](ثمّ يخرج الملك بالصحيفة في يده،فلا يزيد على ما أُمِرَ ولا ينقص.)) أي لايزيد الملائكة ولا ينقص فيما كتبه ،والذي يزيد وينقص هو الله سبحانه وتعالى تبعا لما سبق به علمه وقضاؤه،ولما كتبه في اللوح المحفوظ .

(١) أشار الشوكاني الى ذلك في عدة مواضع من كتبه ،كما تقدّم .
(٢) انظر مجموع فتاوى ٤٩٠/١٤ ـ ٤٩٢ ،وأيضا ٥١٧/٨ ،٥٤٠ .
(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ١٥٢ . (٤) انظر الفتح ٣٥٣/٤ ،٣٥٤ ،وأيضا ٤٩٧/١١ .
(٥) انظر لوامع الأنوار البهية ٣٤٩/١ .(٦) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١١٧/٤ .
(٧) أخرجه البخاري في أوّل كتاب القدر (الفتح ٤٨٦/١١ برقم ٦٥٩٥)وفي كتاب الحيض،باب مخلقة وغير مخلّقة (الفتح ٤١٨/١ برقم ٣١٨)وفي كتاب الأنبياء،باب خلق آدم وذرّيته (الفتح ٤١١/٦ برقم ٣٣٣٣)ومسلم في كتاب القدر،باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمّه (٢٠٣٨/٤ برقم ٢٦٤٦)
(٨) أخرجه مسلم في كتاب القدر،باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمّه (٢٠٣٧/٤ برقم ٢٦٤٤)وأحمد في المسند ٦/٤ ،٧ وابن أبي عاصم في السنّة (٨٠/١ برقم ١٨٠)والآجرّي في الشريعة ١٨٢ ،١٨٣ .
(٩) أخرجها مسلم في كتاب القدر،باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه(٢٠٣٧/٤ برقم٢٦٤٥) .

والمكتوب عند الملك الموكّل به غير المعلوم عند الله عزّوجلّ، فالأوّل يدخل فيه التغيير دون الثاني، وتوجيه ذلك: أنّ المعاملات على الظواهر، والمعلوم الباطن خفيّ لا يعلّق عليه الحكم، فذلك الظاهر الذي اطّلع عليه الملك هو الذي يدخله الزيادة والنقص، والمحو والاثبات، والحكمة فيه ابلاغ ذلك الى المكلّف ليعلم فضل البرّ وشؤم القطيعة .[١]

وعلى هذا القول فانّ الكتاب كتابان: أحدهما الكتاب الذى يكتبه الملائكة على الخلق كما في الحديث، وذلك الكتاب محلّ المحو والاثبات، والكتاب الثاني أمّ الكتاب أو اللوح المحفوظ، وهو الكتاب المشتمل على تعيّن جميع الأحوال العلوية والسفلية ، وهو الباقي لا يغيّر فيه شيئ .[٢]

يقول الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي[٣] رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ( يمحو الله ما يشاء ... الآية ): (( يمحو الله ما يشاء من الأقدار ،ويثبت ما يشاء منها ،وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه ،وكتبه قلمه ، فانّ هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير ،لأنّ ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل ،ولهذا قال: ( وعنده أمّ الكتاب ): أى اللوح المحفوظ الذي ترجع اليه سائر الأشياء، فهو أصلها ،وهي فروع وشعب، فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة ،ويجعل الله لثبوتها أسبابا، ولمحوها أسبابا لا تتعدّى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البرّ والصلة والاحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق ، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر ،وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة ، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذى يدبّر الأمور بحسب قدرته وارادته ، وما يدبّره منها لا يخالف ما قد علمه ،وكتبه في اللوح المحفوظ. ))[٤]

وعلى هذا فانّ زيادة الآجال ونقصها بالنسبة الى علم الملك الموكّل بالعمر ، لا بالنسبة الى ما في سابق علم الله وقضائه ،فلا زيادة فيه ولا نقص، وهو معنى قوله تعالى: (( فَإِذَا جَـاءَ

---

(١) انظر الفتح : ابن حجر ٣٥٣/٤، ٣٥٤ .

(٢) روى عكرمة هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما (انظر: تفسير الطبري ١٦٧/١٣ ،وتفسير البغوي ٢٣/٣ ،وزاد المسير: ابن الجوزي ٣٣٦/٤ ،والتفسير الكبير: الفخر الرازي ٦٦/١٩ ، وتفسير ابن كثير ٥٣٨/٢ ) .

(٣) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي ،عالم كبير ومفسّر جليل ،من علماء الحنابلة ، عاش في فترة (١٣٠٧ـ ١٣٧٦هـ) مولده ووفاته في عنيزة (بالقصيم) من مؤلفاته: تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن ،والأدلة القواطع والبراهين في ابطال أصول الملحدين ،والدرة البهية . ( انظر ترجمته في: الأعلام : الزركلي ٣٤٠/٣ ،ومقدمة الكتاب: الدرة البهية ٥ ـ ١٠) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن ناصر السعدي ١١٧/٤ .

أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ .))(١)

والمثال على ذلك، أنّ الله قدّر في سابق علمه أنّ فلانا عمره مائة سنة بسبب صلته الرحم، وأمر الملك أن يكتب له، أنّ عمره تسعون سنة ان قطع الرحم، وان وصلها زيد في عمره الى مائة سنة .

وقد سبق في علمه سبحانه أنّ هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب الى هذه الغاية أى مائة سنة، ولولا ذلك السبب لم يصل الى هذه الغاية، ولكن قدّر هذا السبب وقضاه .

(( فالذى في علم الله لا يتقدّم ولا يتأخر، والذي في علم الملك هو الذى يمكن فيه الزيادة والنقص، واليه الاشارة بقوله تعالى: (( يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ))(٢) ، فالمحو والاثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أمّ الكتاب هو الذى في علم الله تعالى، فلا محو فيه ألبتة، ويقال له: القضاء المبرم، ويقال للأوّل: القضاء المعلق.))(٣)

والى هذا أشار شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ اذ قال:

(( والأجل أجلان : أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيّد، وبهذا يتبيّن معنى قوله صلى الله عليه وسلم: " من سرّه أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه"(٤): فانّ الله أمر الملك أن يكتب له أجلا وقال: ان وصل رحمه زدته كذا وكذا، والملك لا يعلم أيزداد أم لا، لكنّ الله يعلم ما يستقرّ عليه الأمر، فاذا جاء ذلك لا يتقدّم ولا يتأخّر.))(٥)

ومن الأدلة على أنّ الآجال لا تتغير حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالت أمّ حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: أللهمّ أمتعني بزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد سألتِ الله لآجال مضروبة، وأيّام معدودة وأرزاق مقسومة، لن يعجّل شيئا قبل حلّه، أو يؤخّر شيئا عن حلّه، ولو كنتِ سألتِ الله أن يعيذكِ من عذاب النار أو عذاب القبر كان خيرا وأفضل.))(٦)

هذا الحديث صريح في أنّ الآجال والأرزاق مقدّرة لا تتغيّر، ولهذا جمع العلماء بين

---

(١) سورة الأعراف، آية ٣٤ وسورة النحل آية ٦١ . (٢) سورة الرعد، آية ٣٩ .
(٣) الفتح: ابن حجر ٤٣٠/١٠ . (٤) تقدّم تخريجه في صفحة ( ١٧٤ ) .
(٥) مجموع فتاوى: ابن تيمية ٥١٧/٨ .
(٦) أخرجه مسلم في كتاب القدر باب أنّ الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص (٢٠٥٠/٤، ٢٠٥١) برقم (٢٦٦٣) .

هذا الحديث وما في معناه من الآيات[1] وبين ما ورد في زيادة العمر لمن وصل رحمه، وأجابوا بأجوبة أشهرها، أنّ الزيادة كناية عن البركة في العمر، والتوفيق إلى الطاعات، وما يبقى بعده من الثناء الجميل، فكأنّه لم يمت.[2]

وردّ شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الجواب بأنّ تلك البركة وهي الزيادة في العمل والنفع هي أيضا مقدّرة مكتوبة، وتتناول لجميع الأشياء، ورجّح القول بأنّ الزيادة على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى المكتوب في صحف الملائكة. قال:

(( والجواب المحقّق، أنّ الله يكتب للعبد أجلا في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم: " أنّ آدم لمّا طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذرّيته، فأراه إيّاهم، فرأى فيهم رجلا له بصيص[3]، فقال: من هذا يا ربّ؟ فقال: ابنك داود، قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنة، قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة، قال: فقد وهبت له من عمري ستّين سنة، فكتب عليه كتابا، وشهدت عليه الملائكة، فلمّا حضرته الوفاة، قال: قد بقي من عمري ستّون سنة، قالوا: وهبتها لابنك داود، فأنكر ذلك، فأخرجوا الكتاب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فنسي آدم، فنسيت ذرّيته، وجحد آدم، فجحدت ذرّيته.))[4] وروي أنّه كمل لآدم عمره ولداود عمره.

فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة، ثمّ جعله ستّين،[5] وهذا معنى ما روي عن عمر أنّه قال: اللهمّ إن كنت كتبتني شقيّا فامحني واكتبني سعيدا، فإنّك تمحو ما تشاء وتثبت.

والله سبحانه وتعالى عالم بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فهو يعلم ما كتب له، وما يزيده إيّاه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علّمهم الله، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها، فلهذا قال العلماء: إنّ المحو والاثبات في صحف الملائكة، وأمّا

---

(١) كقوله تعالى: (( فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ. )) (الأعراف: آية ٣٤، والنحل: آية ٦١) وقوله تعالى: (( وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا. )) (المنافقون: آية ١١)

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٣٣٠/٩، وشرح النووي لمسلم ١١٤/١٦، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٥٣/٤، ٣٥٤ وأيضا ٣٤٠/١٠ وسبل السلام: الصنعاني ١٦٠/٤ ط ١٣٧٩/٤هـ مصطفى البابي الحلبي.

(٣) لعل الصواب: وبيص. كما في نصّ الحديث عند الترمذي، ومعناه: بريق. (انظر النهاية لابن الأثير ١٤٦/٥ مادة: وبص.)

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة الأعراف ٢٤٩/٥ برقم ٣٠٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم. وأخرجه أحمد في المسند ٢٥١/١، ٢٥٢، ٢٦٩، ٢٧١.

(٥) أي أعطاه ستّين زيادة، فصار مائة.

علم الله سبحانه فلا يختلف، ولا يبدو له ما لم يكن عالما به، فلا محو فيه ولا إثبات، وأمّا اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين.)) (١) والذي أراه راجحا أنّه لا محو فيه ولا إثبات، لما تقدّم أنّ ما في اللوح المحفوظ موافق لما في علم الله، وأنّ الأمور مقدّرة بأسبابها، فكما أنّ الرزق مقدّر بسبب، وسببه العمل لطلبه، كذلك الأجل، أي يزاد وينقص بسبب، ومن الأسباب الدينية لزيادته صلة الرحم، فإذا قدّر الله أن يكون عمر فلان مائة سنة بسبب صلته الرحم قدّر ذلك في الأزل وكتبه عنده في اللوح المحفوظ من قبل أن يحدث، وعلى هذا الأساس فلا تكون الزيادة والنقص والمحو والإثبات في القدر الأزلي السابق وفي اللوح المحفوظ، بل تكون في القدر اللاحق المكتوب عند الملك الموكّل به.

يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: (( إنّ في تقدير الأعمال ما هو سابق ولاحق، فالسابق ما في علم الله تعالى، واللاحق ما يقدّر على الجنين في بطن أمّه، كما وقع في الحديث (٢) وهذا هو الذي يقبل النسخ، وأمّا ما وقع في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا: " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة " (٣) فهو محمول على كتابة ذلك في اللوح المحفوظ، على وفق ما في علم الله سبحانه وتعالى.)) (٤)

أمّا ما استدلّ به الشوكاني من قوله تعالى: (( وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ )) (٥)، وقوله تعالى: (( ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ )) (٦) فالراجح عند المحقّقين أنّ المراد بالمعمّر في الآية الأولى جنس المعمّر الذي هو مطلق الشخص، فيصدق بالذي لم ينقص من عمره وبالذي نقص من عمره، فصار المعنى: لا يزاد في عمر شخص، ولا ينقص من عمر شخص إلا في كتاب.)) (٧)

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/٤٩٠-٤٩٢)، والتفسير الكبير لابن تيمية (٤/٢٠٠، ٢٠١) تحقيق/ د. عبد الرحمن عميرة.

(٢) يقصد حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوما، ثمّ يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثمّ يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثمّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيّ أو سعيد. الحديث (رواه البخاري في كتاب القدر، باب في القدر (الفتح ١١/٤٨٦ برقم ٦٥٩٤)، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي (٤/٢٠٣٦ برقم ٢٦٤٣) واللفظ له).

(٣) سبق تخريجه في صفحة ( ١٦٧ ).
(٤) فتح الباري: ابن حجر (١١/٤٩٧).

(٥) سورة فاطر: آية ١١.
(٦) سورة الأنعام: آية ٢.

(٧) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي (ص ٢٤٦) مكتبة ابن تيمية، وانظر أيضا التفسير الكبير لابن تيمية (٤/١٩٩)، ومجموع فتاوى ابن تيمية (٤/٤٩٠).

وقد روى الطبري[١] هذا القول، ورجّحه عن ابن عباس وغيره[٢]. كما رجّحه ابن كثير[٣]، وقال: (( الضمير ( أي في قوله تعالى: وما ينقص من عمره. ) عائد على الجنس، لا على العين، لأنّ العين الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وانّما عاد الضمير على الجنس، وهذا كقولهم: عندي ثوب ونصفه. أي ونصف آخر. ))[٤]

وأمّا الآية الثانية فالمراد بالأجل الأوّل أجل الموت، وبالثاني أجل الساعة، وقد روى الطبري هذا القول، ورجّحه عن ابن عباس وغيره.[٥] وهو قول الزمخشري في الكشاف[٦]، ورجّحه شيخ الاسلام ابن تيمية اذ قال بعد أن ساق الآية:

(( فالأجل الأوّل هو أجل كلّ عبد الذي ينقضي به عمره، والأجل المسمّى عنده هو أجل القيامة العامّة، ولهذا قال: مسمّى عنده. فانّ وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، كما قال: (( يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي

---

(١) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري، المؤرّخ المفسّر الامام، قال الخطيب البغدادي: كان أحد أئمّة العلماء يحكم بقوله ويرجع الى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره. توفي (٣١٠ هـ) له مؤلّفات مفيدة منها: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وتهذيب الآثار، وصريح السنة. ( انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٦٣/٢، وطبقات الشافعية الكبرى: السبكي ١٢٠/٣ ) .

(٢) انظر تفسير الطبري (١٢٢/٢٢) .

(٣) اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين: حافظ مؤرّخ فقيه. قال الحافظ ابن حجر: اشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، وكان كثير الاستحضار حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته. له تصانيف مفيدة، منها: تفسير القرآن العظيم، قال الشوكاني: وهو من أحسن التفاسير ان لم يكن أحسنها. والبداية والنهاية، واختصار علوم الحديث. توفي (٧٧٤ هـ)( انظر: الدرر الكامنة: ابن حجر ٣٧٤/١، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٢٣١/٦، والبدر الطالع: الشوكاني ١٥٣/١ ) .

(٤) تفسير ابن كثير (٥٥٧/٣)، وانظر أيضا تفسير البغوي (٥٦٧/٣)، وتفسير القرطبي (٣٣٣/١٤) .

(٥) انظر تفسير الطبري (١٤٦/٧، ١٤٧) .

(٦) انظر الكشّاف (٤/٢) .

لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ))[1] ... وأمّا أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد، وأجله، وعمله، وشقيّ أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين: أنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة ... الحديث.[2] فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يُعلمه الله لمن يشاء من عباده، وأمّا أجل القيامة المسمّى عنده فلا يعلمه إلا هو.))[3]

و - الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى

ذهب الشوكاني - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة مذهب جمهور أهل السنّة، وهو إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، أي أنّ أفعال الله تعالى وأوامره معلّلة بعلل غائية، وحكم بالغة، يحبّها ويرضاها، ويفعل لأجلها، وأنّه ممّا ينافي كماله وجلاله وحكمته ورحمته أن تكون أفعاله وأحكامه صادرة منه لا لحكمة، ولا لغاية مطلوبة، بل بمحض المشيئة والإرادة، كما يقول النفاة من الأشاعرة وأمثالهم.[4]

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٨٧.

(٢) تقدّم تخريجه في صفحة ( ١٨٠ ) في الهامش ( رقم ٢ ).

(٣) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٤٨٩/١٤)، والتفسير الكبير: ابن تيمية (١٩٨/٤، ١٩٩).

(٤) قالوا: إنّ الله تعالى خلق المخلوقات، وأمر المأمورات، لا لعلّة، ولا لغرض، ولا لباعث، بل كان ذلك منه بمحض المشيئة، وصرف الإرادة، ونفوا أن يكون هناك لام التعليل في القرآن الكريم، بل سمّوها لام العاقبة والصيرورة فرارا من تعليل أفعاله تعالى. (انظر: المواقف للإيجي (ص ٣٣١، ٣٣٢)، وشرح المقاصد للتفتازاني (٢٩٦/٤، ٣٠١ - ٣٠٦) تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة، وانظر أيضا: منهاج السنة لابن تيمية (١٤/٣، ٣٢)، ومجموعة الرسائل والمسائل له (٢٨٦/٥)، وشفاء العليل لابن القيم (ص ٤٢٢ - ٥٣٥) وقد أورد - رحمه الله - حججهم وناقشها وردّ عليها ردّا وافيا.)

وقد دلّ على ذلك القرآن الكريم في عدّة آيات ؛

كقوله تعالى ـ وهو يثني على عباده المؤمنين ـ :

(( وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ . ))(١)

قال الشوكاني عند تفسيره للآية : (( أي يقولون : ما خلقت هذا عبثا ولهوا ، بل خلقته دليلا على حكمتك وقدرتك ، سبحانك أي تنزيها لك عما لا يليق بك من الأمور التي من جملتها أن يكون خلقك لهذه المخلوقات باطلا . ))(٢)

وقوله تعالى : (( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . ))(٣)

قال الشوكاني : ( لاعبين ) أي لغير غرض صحيح .(٤) و ( الحقّ ) كما قال ابن القيم : هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كلّه ، وهو أنواع كثيرة .(٥)

ومثله قوله تعالى : (( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا . ))(٦)

أوضح الشوكاني معنى هذه الآية حيث قال : (( أي ما خلقنا هذه الأشياء خلقا باطلا خارجا على الحكمة الباهرة ، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا ( ذلك ظنّ الذين كفروا ) أي مظنونهم ، فإنّهم يظنّون أنّ هذه الأشياء خلقت لا لغرض ، ويقولون إنّه لا قيامة ولا بعث ولا حساب ، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلا . ))(٧)

وقد أنكر سبحانه وتعالى على أمثال هؤلاء في آية أخرى ، وهي قوله تعالى :

(( أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . ))(٨)

ففي هذه الآية أنكر سبحانه على من زعم أنّه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة ، بل خلقه عبثا ، لا يؤمرون ، ولا ينهون ، ولا يحاسبون ، فدلّ ذلك على أنّه تعالى خلقهم لحكمة عظيمة ، وهي عبادة الله وتوحيده .

والعبث ـ كما فسّره الشوكاني ـ : هو اللعب ، يقال : عَبِثَ يَعْبَثُ عَبَثًا فهو عابث ، أي لاعب ،

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٩١ .
(٢) فتح القدير : الشوكاني ٤١١/١ .
(٣) سورة الدخان : آية ٣٨ ، ٣٩ .
(٤) فتح القدير : الشوكاني ٥٧٨/٤ .
(٥) انظر شفاء العليل : ابن القيم ٤٠٤ .
(٦) سورة ص : آية ٢٧ .
(٧) فتح القدير : الشوكاني ٤٣٠/٤ .
(٨) سورة المؤمنون : آية ١١٥

وأصله من قولهم : مَيِّثْتُ الأَقِط[1]، أي خلطته، والمعنى: أفحسبتم أنّا خلقناكم للإهمال، كما خلقت البهائم، ولا ثواب ولا عقاب، وأنّكم إلينا لا ترجعون بالبعث والنشور، فيجازيكم بأعمالكم.[2]

ففي هذه الآيات الكريمة وأمثالها دلالة ظاهرة على أنّ الله خلق الخلق غير عابث ولا لاعب، بل لحكمة وغاية يعلمها ، ولا يلزم من اثبات الحكمة في أفعال الله أن نعلم الحكمة في كلّ فعل، إذ قد تخفى الحكمة في بعض الأفعال، وقد لا تخفى، فلله الحكمة البالغة لا تبلغها عقول البشر، ولا تدركها الأفهام .

وإلى هذا أشار الشوكاني ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لقوله تعالى:

(( وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ . ))[3] قال:

(( إنّ لله سبحانه في ذلك ( أي في تمرّد الكفرة، وتصميمهم على كفرهم ) حكمة لا تبلغها العقول، ولا تدركها الأفهام، فانّ الله سبحانه لو جاء لرسوله صلى الله عليه وسلم بآية تضطرّهم إلى الايمان لم يبق للتكليف الذي هو الابتلاء والامتحان معنى ، ولهذا قال: ( ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ) جمع إلجاء وقسر ، ولكنّه لم يشأ ذلك، ولله الحكمة البالغة . ))[4]

وقال عند قوله تعالى: (( وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ . ))[5] :

(( أي فجعلكم متفاوتين فيه، فوسع على بعض عباده ، حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفاً مؤلفة من بني آدم ، وضيّقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلاّ بسؤال الناس والتكفّف لهم ، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها ، والاطلاع على حقيقة أسبابها ، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال، جعله بينهم في العقل والعلم والفهم وقوّة البدن وضعفه ، والحسن والقبح ، والصحّة والسقم ، وغير ذلك من الأحوال . ))[6]

---

(١) الأَقِط بوزن الكَتِف، قال الأزهري في تهذيب اللغة (٢٤١/٩ مادة أقط ) : والأقط يتخذ من اللبن المخيض، يُطْبَخ ثمّ يُتْرَك حتى يَمْصُل، والقطعة منه أقطة .

(٢) فتح القدير : الشوكاني ٥٠٠/٣ . (٣) سورة الأنعام : آية ٣٥ .

(٤) فتح القدير : الشوكاني ١١٢/٢ (٥) سورة النحل : آية ٧١ .

(٦) فتح القدير : الشوكاني ١٧٧/٣، ١٧٨ .

والحكمة صفة من صفات الله تعالى، شأنها كشأن سائر الصفات ، وليست غيرًا له ، ومن أسمائه الحسنى الحكيم الذي لا تخلو أفعاله ومقاديره من حكمة وغاية حميدة ، كما أنه العليم الذي له العلم وهو القدير الذي له القدرة ، والعزيز الذي له العزة .

قال تعالى : (( وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ))(١)

قال الشوكاني :(( والحكيم : صيغة مبالغة في اثبات الحكمة له . ))(٢)

ومعناه ، أي أنه يتصرف في ملكه بما تقتضيه مشيئته وحكمته .(٣) ولا شك أن معطي الحكمة غيره يجب أن يكون حكيما .

أما التعليل في أفعال الله فقد ورد في القرآن الكريم في مواضع متعددة بأدوات متنوعة ، ومن أهمها لام التعليل التي تسمى لام كي . كقوله تعالى :(( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . ))(٤) فاللام الداخلة على الفعل لام التعليل عند جمهور أهل السنة خلافا لمن ينفي ذلك من الأشاعرة وأتباعهم ، ويسمونها لام العاقبة والصيرورة .(٥)

وفيما يلي نأخذ أمثلة من الآيات الكريمة في تعليل أفعال الله ، وما أوضحه الشوكاني عند تفسيره لها ليتبين رأيه فيها :

أ ـ قوله تعالى :(( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ، لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . ))(٦)

قال الشوكاني : اللام متعلق بفتحنا ، وهي لام العلة . ونقل عن صاحب الكشاف قال : " إن اللام لم تكن علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة . وهي المغفرة ، واتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، كأنه قيل يسرنا لك فتح مكة ، ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين ، وأغراض العاجل والآجل .

وعلق الشوكاني على هذا قائلا : " وهذا كلام غير جيد ، فان اللام داخلة على المغفرة ، فهي علة للفتح فكيف يصح أن تكون معللة ؟ ".(٧)

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٩ . (٢) فتح القدير : الشوكاني ٦٥/١ .
(٣) انظر المصدر السابق ٢٢٢/١ . (٤) سورة الذاريات : آية ٥٦ .
(٥) انظر مجموع فتاوى : ابن تيمية ٣٧/٨، ٣٨، ٤٤ وأيضا ١٨٦ ـ ١٨٧ ومنهاج السنة : ابن تيمية ١٤/٣، ٣٢ . (٦) سورة الفتح : آية ١، ٢ .
(٧) فتح القدير : الشوكاني ٤٤/٥، ٤٥ وانظر الكشاف للزمخشري ٣٣٢/٤ .

ب - قوله تعالى: (( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ .))(١)

فسّر الشوكاني اللام الداخلة على الفعل بأنها لام التعليل اذ قال: (( أي والحال أنهم ما أمروا في كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله ويوحّدوه حال كونهم ( مخلصين له الدين ) أي جاعلين دينهم خالصا له سبحانه ، أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين.))(٢)

وكذلك فسّر اللام في قوله تعالى: (( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.))(٣) ومثله قوله تعالى: (( الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ))(٤) بأنها لام التعليل، قال: (( أي خلق هذه المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكّر، والاستدلال على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء، أيهم أحسن عملا فيما أمره ونهى عنه، فيجازي المحسن باحسانه، والمسيئ باسائته، ويوفّر الجزاء لمن كان أحسن عملا من غيره، ويدخل في العمل الاعتقاد، لأنه من أعمال القلب .))(٥)

ج - قوله تعالى عن المسيح عيسى بن مريم - عليهما السلام -: (( وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ))(٦)

فسّر الشوكاني اللام الداخلة على الفعل بأنها لام التعليل، اذ قال: (( أي ولنجعل هذا الغلام، أو خلقه من غير أب، آية للناس يستدلّون بها على كمال القدرة، وهو علّة لمعلّل محذوف، والتقدير: خلقنا، لنجعله ...))(٧)

كما فسّر اللام في قوله تعالى: (( إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ))(٨) وقوله سبحانه: (( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .))(٩) وقوله عزّ وجلّ: (( لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ))(١٠) بأنها لام التعليل .(١١)

د - وجاء التعليل بلفظ: (من أجل) كقوله تعالى: (( مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي

---

(١) سورة البيّنة : آية ٥ . (٢) فتح القدير: الشوكاني ٤٧٦/٥ .
(٣) سورة هود : آية ٧ . (٤) سورة الملك : آية ٢ .
(٥) فتح القدير : الشوكاني ٤٨٢/٢ ، وانظر أيضا ٢٥٨/٥ .
(٦) سورة مريم : آية ٢١ . (٧) فتح القدير : الشوكاني ٣٢٨/٣ .
(٨) سورة البقرة : آية ١٤٣ . (٩) سورة ابراهيم : آية ٤ .
(١٠) سورة سبأ : آية ٤ .
(١١) انظر فتح القدير : الشوكاني ١٥١/١ ، ٩٤/٣ ، ٣١٢/٤ . (على الترتيب)

إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ))(١)

قال الشوكاني:(( والمعنى: أنّ نبأ ابنَيْ آدم هو الذي تسبّب عنه الكتب المذكور على بني اسرائيل ، وعلى هذا جمهور المفسّرين ٠))(٢)

كما جاء التعليل بلفظ «لعلّ» كقوله تعالى:(( إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ))(٣)

قال الشوكاني:(( لعلّكم تعقلون٠: أي لكي تعلموا معانيه ،وتفهموا ما فيه(٤) فلعلّ هنا للتعليل،لأنّ «لعلّ» في كلام الله سبحانه تكون للتعليل مجرّدة عن معنى الترجّي، لأنّه لا يصحّ الترجّي في حقّ الله تعالى ٠))(٥)

هـ ـ عند شرحه لحديث :(( إنّ أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيئ لم يحرّم على الناس فحرّم من أجل مسألته٠))(٦) نقل عن بعض العلماء قال: أهل السنّة لا ينكرون امكان التعليل، وانّما ينكرون وجوبه ، فلا يمتنع أن يكون الشيئ الفلاني تتعلّق به الحرمة ان سئل عنه ، فقد سبق القضاء بذلك، الا أنّ السؤال علّة للتحريم٠(٧)

هذا ما أوضحه الشوكاني في تعليل أفعال الله من خلال تفسيره للآيات وشرحه للحديث ، وهو موافق لما قرره جمهور أهل السنّة(٨) غير أني وجدته يجيز تفسير لام التعليل في بعض الآيات بلام العاقبة٠

مثال ذلك قوله تعالى: (( إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ٠))(٩)

قال الشوكاني: " واللام في :(( لنبلوهم أيهم أحسن عملا )) متعلّق بجعلنا وهي إما للغرض أو للعاقبة(١٠)

---

(١) سورة المائدة ، آية ٣٢ (٢) فتح القدير: الشوكاني ٣٣/٢

(٣) سورة يوسف ، آية ٢ (٤) فتح القدير: الشوكاني ٤/٣

(٥) انظر شفاء العليل : ابن القيم ٣٩٨ ٠

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام باب ما يكره من كثرة السؤال( الفتح ٢٧٨/١٣ برقم ٧٢٨٩) ومسلم في كتاب الفضائل باب توقيره على الله عليه وسلم وترك اكثار سؤاله ١/ ١٨٣١ برقم ( ٢٣٥٨ ) (٧) نيل الأوطار: الشوكاني ٣٦/١٠

(٨) انظر رسالة الارادة والأمر ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ٣٣١/١ دار احياء التراث العربي، ومجموع فتاوى : ابن تيمية ٣٨/٨

(٩) سورة الكهف ، آية ٧ (١٠) فتح القدير: الشوكاني ٢٧٠/٣

على أنه فسّر اللام في مثل هذه الآية بأنها للتعليل كما تقدم ))(١)

ومثل هذا فسّر اللام في قوله تعالى : (( وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ، وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ))(٢)

وفسّر اللام في قوله تعالى - حكاية عن موسى عليه السلام - : (( رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ))(٣)

وقوله تعالى :(( ... وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى))(٤) بأنها لام العاقبة والصيرورة .(٥)

وهذا قول ضعيف مخالف لقول الجمهور ، فانّ لام العاقبة لاتكون في حقّه تعالى بل تكون في حقّ من جاهل بالعاقبة ، أمّا من هو بكلّ شيئ عليم ، وعلى كلّ شيئ قدير ، فلا تكون هذه اللام في حقّه .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : (( إنّ لام العاقبة الّتي لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة انّما تكون من جاهل أو عاجز ، فالجاهل كقوله تعالى :(( فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ))(٦) لم يعلم فرعون بهذه العاقبة ، والعاجز كقولهم: لدّوا للموت وابنوا للخراب . فانّهم يعلمون هذه العاقبة ، لكنّهم عاجزون عن دفعها والله تعالى عليم قدير ، فلا يقال : إنّ فعله كفعل الجاهل العاجز .))(٧)

فاللام الواردة في أفعاله تعالى وأحكامه لام الحكمة والغاية المطلوبة كما تشهده النصوص .

ز - الفرق بين الكونيّات والدينيّات

فرّق الشوكاني - رحمه الله - بين الكونيّات التي هي خلق الله وقدره والدينيّات التي هي أمره وشرعه ، فقسّم ارادة الله ، وأمره ، وقضاءه ، وإذنه ، وبعثه ، وإرساله ، وجعله ، وتحريمه ، وغير ذلك الى كوني متعلّق بخلقه ، وديني متعلّق بأمره وشرعه .

---

(١) في تفسيره لآية ٧ من سورة هود ، وآية ٢ من سورة الملك ( فتح القدير ٤٨٢/٢ ، ٢٥٨/٥ ) .
(٢) سورة الأنعام : آية ١٠٥ وانظر فتح القدير : الشوكاني ١٤٩/٢ .
(٣) سورة يونس : آية ٨٨ (٤) سورة غافر : آية ٦٧ .
(٥) انظر فتح القدير : الشوكاني ٤٦٨/٢ ، ٥٠١/٤ .
(٦) سورة القصص : آية ٨ .
(٧) مجموع فتاوى : ابن تيمية ٤٤/٨ ، وأيضا ١٨٧/٨ ، وانظر أيضا : بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بدعهم الكلاميّة : ابن تيمية ٢١٧/١ .

قال : (( فالارادة الكونيّة ، والأمر الكونيّ؛ وهي مشيئته لما خلقه من جميع مخلوقاته إنسهم وجنّهم، مسلمهم وكافرهم ، حيوانهم وجمادهم ، ضارّهم ونافعهم. والارادة الدينيّة والأمر الديني؛ هي محبّته المتناولة لجميع ما أمر به وجعله شرعا ودينا ، فهذه مختصّة بالايمان والعمل الصالح ))(١)

(( فما خلقه الله سبحانه وقدّره وقضاه فهو يريده ، وان كان لا يأمر به ولايحبّه ولا يرضاه ، ولا يثيب أصحابه ، ولا يجعلهم من أوليائه ، وما أمر به وشرعه وأحبّه ورضيه ، وأحبّ فاعليه ، وأثابهم وأكرمهم عليه ، فهو الذي يحبّه ويرضاه ، ويثيب فاعله عليه ..))(٢) وأورد الشوكاني أمثلة وردت في القرآن الكريم في الكونيّات والدينيّات ..

فمن الارادة الكونيّة :

قول الله سبحانه : (( فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ))(٣) وقول نوح عليه السلام ، فيما حكاه سبحانه: ((وَلاَيَنْفَعُكُمْ نُصْحِيَ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ))(٤) وقوله تعالى : (( وَإِذَا أَرَادَ اللهُ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ))(٥)

ومن الارادة الدينيّة :

قوله تعالى : (( يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ))(٦) وقوله سبحانه : (( يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .. وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا .. يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا ))(٧)

وقوله عزّوجلّ : (( إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ))(٨)

---

(١) قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني ٢٨٥ ..
(٢) المصدر السابق:نفس الصفحة .. (٣) سورة الأنعام : آية ١٢٥ ..
(٤) سورة هود، آية ٣٤ . (٥) سورة الرعد، آية ١١ ..
(٦) سورة البقرة، آية ١٨٥ .. (٧) سورة النساء، آية ٢٦ ــ ٢٨ ..
(٨) سورة الأحزاب، آية ٣٣ ..

ومن الأمر الكوني :

قوله سبحانه :(( إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ))(١)

وقوله :(( أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ))(٢)

ومن الأمر الديني :

قوله سبحانه :(( إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ))(٣) وقوله :(( إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ))(٤)

ومن القضاء الكوني :

قوله تعالى :(فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ))(٥) وقوله :(( فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ))(٦) أي خلقهن وأحكمهن وفرغ منهن .(٧)

ومن القضاء الديني :

قوله تعالى :(( وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ))(٨) أي أمر، وليس المراد قدر فإنهم قد عبدوا غيره كقوله تعالى :(( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ))(٩) وذكر الشوكاني عند تفسيره للآية السابقة أن القضاء هنا بمعنى الأمر: وهو أحد معاني القضاء، والأمر لا يستلزم ذلك، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه، ومن جملة ذلك افراده بالعبادة وتوحيده، وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين .(١٠)

ومن الإذن الكوني :

قوله :(( وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ))(١١) أي بمشيئته وقدرته وإلا فالسحر لا يبيحه الله، ومن الاذن الكوني أيضا قوله تعالى :(( مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ))(١٢) أي بقضائه وقدره .(١٣)

---

(١) سورة النحل، آية ٤٠ .
(٢) سورة يونس، آية ٢٤ .
(٣) سورة النحل، آية ٩٠ .
(٤) سورة النساء، آية ٥٨ .
(٥) سورة غافر، آية ٦٨ .
(٦) سورة فصلت، آية ١٢ .
(٧) فتح القدير للشوكاني ٥٠٨/٤ .
(٨) سورة الاسراء، آية ٢٣ .
(٩) سورة يونس، آية ١٨ .
(١٠) انظر فتح القدير للشوكاني ٢١٩/٣ .
(١١) سورة البقرة، آية ١٠٢ .
(١٢) سورة التغابن، آية ١١ .
(١٣) فتح القدير للشوكاني ٢٣٧/٥ .

وقال تعالى في الاذن الديني (( إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ))[١] أي بأمره له بذلك وتقويره .[٢] وقال : (( وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ))[٣]

ومن البعث الكوني :

قوله تعالى :(( فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ))[٤]

ومن البعث الديني :

قوله سبحانه :(( هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ))[٥] وقوله عزوجل :(( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ، وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ))[٦]

فسّر الشوكاني هذه الآية وقال ـ نقلا عن الزجاج ـ [٧]: (( وفي هذه الآية التصريح بأنّ الله أمر جميع عباده بعبادته واجتناب الشيطان، وكلّ ما يدعو الى الضلال، وأنّهم بعد ذلك فريقان ، فمنهم من هدى، ومنهم من حقّت عليه الضلالة ، فكان في ذلك دليل على أنّ أمر الله سبحانه لايستلزم موافقة ارادته ، فانّه يأمر الكلّ بالايمان، ولايريد الهداية الا للبعض ، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد ))[٨]

ومن الأمثلة في الارسال الكوني :

قوله تعالى :(( أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ))[٩]

وقوله سبحانه :(( وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ))[١٠]

وفي الارسال الديني :

قوله تعالى :(( يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ))[١١]

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٤٥، ٤٦ .
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٢٨٨/٤ .
(٣) سورة النساء: آية ٦٤ .
(٤) سورة الاسراء : آية ٥ .
(٥) سورة الجمعة : آية ٢ .
(٦) سورة النحل: آية ٣٦ .
(٧) سبقت ترجمته في صفحة (١٤٩) .
(٨) فتح القدير: الشوكاني ١٦١/٣، ١٦٢ .
(٩) سورة مريم : آية ٨٣ .
(١٠) سورة الأعراف: آية ٥٧ .
(١١) سورة الأحزاب: آية ٤٥ .

وقوله عزّ وجلّ: (( إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا. ))[1]

ومن الجعل الكوني:

قوله سبحانه: (( وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ))[2]

ومن الجعل الديني:

قوله سبحانه: (( لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ))[3]

ومن التحريم الكوني:

قوله تعالى: (( وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ))[4]

وقوله: (( مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ))[5]

ومن التحريم الديني:

قوله عزّ وجلّ: (( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ))[6]

وقوله: (( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ))[7] وقوله تعالى: (( قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ))[8]

قال الشوكاني بعد سوق هذه الأمثلة من الآيات: (( فجميع ما تقدّم يقال لما كان كونيًّا منه حقيقة كونيّة، ولما كان دينيًّا منه حقيقة دينيّة ))[9]

وبهذه التفرقة بين الكونيّة والدينيّة يفصل النزاع الذي وقع فيه طوائف من الناس في مسألة الأمر والإرادة، وهل أمر الله تعالى مستلزم لإرادته أو لا؟ لأنّهم لم يفرّقوا بينهما.

وقد ذكر هذه التفرقة غير واحد من أهل السنة وذكروا أنّ المحبّة والرضا ليست هي الإرادة الشاملة لكلّ المخلوقات، كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم.[10]

---

(١) سورة المزّمّل: آية ١٥ . (٢) سورة القصص: آية ٤١ . (٣) سورة المائدة: آية ٤٨ .
(٤) سورة القصص: آية ١٢ . (٥) سورة المائدة: آية ٢٦ . (٦) سورة المائدة: آية ٣ .
(٧) سورة النساء: آية ٢٣ . (٨) سورة الأعراف: آية ٣٣ . (٩) انظر قطر الولي: الشوكاني ٢٨٦ ـ ٢٩٠ .
(١٠) منهاج السنة: ابن تيمية ٣/١٨، وانظر ما قاله السلف أهل السنة في التفرقة بين الكونيات والدينيّات في: الشريعة للآجري ١٥١، ومجموع فتاوى لابن تيمية ٨/٥٨ ـ ٦١، ١٤٠، ١٥٩، ١٨٨ ـ ١٩٠، ٣٢٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ورسالة الأمر والإرادة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، وشفاء العليل لابن القيّم ٥٥٩ ـ ٥٦٧، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ١١٦ ـ ١١٨، ٢٨١، ٥٠٥ ـ ٥٠٧، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/٣٣٨، ٣٣٩ .

وذكر الشوكاني : أن الفرق بين هذه الأمور واضح وان اشتبه على طائفة من أهل العلم فخبطوا وخلطوا ، وبيان ذلك أن الله سبحانه له الخلق والأمر كما قال :(( إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ))(١) فهو سبحانه خالق كلّ شيئ وربّه ومليكه لاخالق غيره ، ولا ربّ سواه ، ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وكلّ ما في الوجود من حركة وسكون بقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وارادته وخلقه ، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسوله ، ونهى عن الشرك بالله سبحانه ، وأمر بالعدل والاحسان ، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وأخبر أنّه يحبّ المتّقين والمحسنين ، ويكره ما نهى عنه وأنّه لا يحبّ الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر .(٢) كما قال تعالى :(( كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ))(٣) والمراد بالمكروه عند الله هو الذي يبغضه ولا يرضاه ، لا أنه غير مراد مطلقا ، لقيام الأدلّة القاطعة على أنّ الأشياء واقعة بارادته سبحانه .(٤) وكما قال سبحانه :(( إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ))(٥) أي لا يرضى لأحد من عباده الكفر ولا يحبّه ولا يأمر به .(٦)

وبهذه التفرقة التي أوضحها الشوكاني بين خلقه تعالى الموافق لارادته الكونيّة ، وبين أمره الموافق لمحبّته ورضاه ، أصبح لاحجّة لأهل المعاصي في الاحتجاج بالقدر . " ومن ظنّ أنّ القدر حجّة لأهل المعاصي فقد غلط غلطا بينا ، واقتدى بأهل الكفر الذين حكى الله عنهم أنّهم قالوا :(( لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ )) ثمّ قال :(( كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ))(٧) قال الشوكاني :"وهذا كلام حقّ يراد به باطل ، فبيّن سبحانه أنّهم تكلّموا جهلا وكذبا ، وأرادوا بما صورته صورة الحقّ باطلا ، وزعموا أنّه اذا شاء فقد رضي ".(٨) وهو زعم باطل . قال : ولو كان القدر حجّة لم يعذّب الله

---

(١) سورة الأعراف : آية ٥٤ .

(٢) انظر قطر الولي : الشوكاني ٢٨٣ـ٢٨٥ .

(٣) سورة الاسراء : آية ٣٨ .

(٤) فتح القدير : الشوكاني ٢٢٨/٣ .

(٥) سورة الزمر : آية ٧ .

(٦) فتح القدير : الشوكاني ٤٥١/٤ .

(٧) سورة الأنعام : آية ١٤٨، ١٤٩ .

(٨) انظر فتح القدير : الشوكاني ٥٥٠/٤ .

سبحانه المكذّبين للرّسل كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون، وغيرهم، ولم يأمر بإقامة الحدود على العصاة المرتكبين لها، ولا يحتجّ أحد بالقدر إلا إذا كان متّبعاً لهواه بغير هدى من الله، ومن ظنّ ذلك فعليه أن لا يذمّ كافراً، ولا عاصياً، ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه، ولا يفرّق بين من يفعل الخير ومن يفعل الشرّ، وهذا خلاف ما تقتضيه عقول جميع العقلاء، وما تقتضيه جميع كتب الله المنزلة، وما تقتضيه كلمات أنبياء الله عليهم السلام ))(1).

أما شبهة ما ورد في احتجاج آدم على موسى عليهما السلام فأجاب الشوكاني عنها قائلاً: (( ومن ظنّ أنّ في محاجة آدم وموسى حجّة للمحتجين بالقدر حيث قال موسى: أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته، أخرجتنا ونفسك من الجنّة. فقال له آدم: أنت الذي اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده، فلِمَ تلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن أخلق؟ قال: فحجّ آدم موسى. هكذا في الصحيحين وغيرهما.(2) ووجه الحديث: أن موسى عليه السلام إنّما لام أباه آدم عليه السلام لأكله الشجرة التي كانت سبباً لإخراجه وذرّيّته من الجنّة، ولم يلمه على كونه أذنب ذنباً وتاب منه، فإن موسى يعلم أنّ التائب من الذنب لا يلام. ))(3)

وهذا الجواب هو جواب شيخ الإسلام ابن تيمية.(4) وتلميذه ابن القيّم (5) - رحمهما الله تعالى - وهو أحسن جواب فسّر به هذا الحديث. فإن آدم عليه السلام أعلم

---

(1) قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني ٢٩٠، ٢٩١.

(2) رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه وبعدة ألفاظ وأسانيد عن أبي هريرة رضي الله عنه انظر الفتح (٥٠٨/٦ برقم ٣٤٠٩) وفيه ذكر بقية مواضع وروده، ومسلم على نحو ما سبق، انظر كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٠٤٢/٤ برقم ٢٦٥٢) وأبو داود في كتاب السنة باب في القدر (٧٦/٥ برقم ٤٧٠١) والترمذي في كتاب القدر باب ما جاء في حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٣٨٦/٥ برقم ٢١٣٤) وابن ماجه في المقدمة باب في القدر (٣١/١ برقم ٨٠) وأحمد في مسنده (٢٤٨/٢).

(3) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٢٩١، ٢٩٢.

(4) انظر منهاج السنة (٢٦/٣) ومجموع فتاوى - (١٠٨/٨، وأيضا ١٧٨، ١٧٩، ٢١٣، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣).

(5) انظر شفاء العليل ٣٥.

باللهمن أن يحتجّ بالقدرعلى الذنب، وموسى عليهالسلام أعلمباللهتعالى من أن يعبل هـــــــذه الحجّة، فانّ هذهلوكانت حجّتعلى الذنب لكانت حجّة لا بليس عدوّآدم، وحجّتلفرعون عدوّموســـى. وحجّة لكلّ كافروفاجر، وبطل أمراللهونهيه، بل انّماكان القدر حجّةلآدمعلى موسى لأنّهلامغيرهلأجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك، وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه .(١)

فانّ القدريحتجّ به عندالمصائب، لا عندالمعائب، فماقدّرمن المصائب يجب الاستسلامله، فانّهمن تمامالرضىباللهربّا، وأماالذنوب فليس للعبد أن بذنب، واذاأذنب فعليه أن يستغفـر ويتوب، فيتوب من المعائب، ويصبرعلى المصائب . قال تعالى:(( فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَاللهِحَـــــقٌّ وَاسْتَغْفِرْلِذَنْبِكَ .))(٢) ، (( وَإِنْ تَصْبِرُواوَتَتَّقُوالا يَضُرُّكُم كَيْدُهُمْ شَيْئًا.))(٣) (٤)

---

(١) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية (١٠٨/٨) .

(٢) سورةالمؤمنون : آية ٥٥ (٣) سورة آل عمران: آية ١٢٠

(٤) انظر شرح العقيدةالطحاوية: ابن أبي العزالحنفي(ص ١٥٤،١٥٥)،وانظرأيضامنهاج الســــنة لا بن تيمية (٢٦٢٥/٣) .

# الفصل الثانى
# فى توحيد الألوهيّة

ويشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : تعريف توحيد الألوهيّة

المبحث الثانى : عناية الشوكانى بتوحيد الألوهيّة

المبحث الثالث : العبادة وذكر جملة من أنواعها

المبحث الرابع : التوسّل وأنواعه وكلام الشوكانى عليه

# ( الفصل الثاني )

## منهج الإمام الشوكاني في توحيد الألوهية

### المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية

#### تعريف توحيد الألوهية

توحيد الألوهية هو ما يعبّر عنه بتوحيد العبادة، أو توحيد الطلب والقصد، أسماء لمسمّى واحد، ومعناه بعبارة اجمالية: افراد الله سبحانه وحده بالعبادة، وبعبارة أوضح: افراد الله سبحانه وتعالى بأفعال عباده التي تعبّدهم بها بجميع أنواعها، باطنها وظاهرها، من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، والنحر، والنذر، والمحبّة، والخوف، والرجاء، والتوكّل، والرغبة، والرهبة، والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة التي تعبّد الله بها خلقه، وشرعها لهم.

وهذا النوع من التوحيد مبنيّ على اخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، بحيث لا يكون شيئ منها لغيره سبحانه، فلا يدعى من دونه أحد من خلقه، لا ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، فمن صرف شيئا منها لغير الله، فهو كافر مشرك.

قال تعالى: (( قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ))(١)

وقال: (( هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ))(٢)

وقال سبحانه: (( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ))(٣)

ومعنى "حنفاء" كما قال الشوكاني: (( أي مائلين عن الأديان كلّها الى دين الاسلام ))(٤)

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٦٢، ١٦٣. (٢) سورة غافر: آية ٦٥.

(٣) سورة البيّنة: آية ٥.

(٤) فتح القدير: الشوكاني ٥/٤٧٦ وانظر أيضا ٣/٢٠٢.

## أدلته

وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى توجب على العباد أن يفردوا الله سبحانه وتعالى بتوحيد العبادة، ويخصّوه بها وحده دون سواه ..

منها قوله تعالى في أول أمر في كتاب الله :

(( يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ))(١)

وقوله سبحانه :(( وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ))(٢)

وقوله :(( وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ))(٣)

وقوله :(( قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ))(٤)

وقوله :(( بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ))(٥)

وقوله :(( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ))(٦)

وقوله :(( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ))(٧)

قال الشوكاني في معنى الآية :(( أي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن، والصنم، وكل من دعا الى الضلال ))(٨)؛((والطاغوت:بناء مبالغة في المصدر كالرحموت والعظموت، وهو الأوثان والشيطان، ومعنى اجتنبوا الطاغوت: اعرضوا عن عبادته،وخصّوا عبادتهم بالله عزّ وجلّ ))(٩)

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو المستحق

---

(١) سورة البقرة، آية ٢١،٢٢ .
(٢) سورة الاسراء ، آية ٢٣ .
(٣) سورة النساء، آية ٣٦ .
(٤) سورة الزمر، آية ١١،١٢ .
(٥) سورة الزمر، آية ٦٦ .
(٦) سورة الذاريات ، آية ٥٦ .
(٧) سورة النحل، آية ٣٦ .
(٨) فتح القدير، للشوكاني ١٦١/٣ .
(٩) المصدر السابق، ٤٥٦/٤وانظر أيضا ٢٧٥/١، ٢٧٦، ٢٧٧، ٤٨٧، ٥٥/٢ .

للعبادة بجميع أنواعها الاعتقادية ، والقولية ، والفعلية ، وليس لأحد سواه، كائنا من كان أي شيء من أنواع العبادة .

وكما جاءت آيات الكتاب الكريمة مبيّنة لهذا النوع من التوحيد ، وآمرة به كذلك جاءت السنة المشرّفة موضّحة ومبيّنة له وآمرة به .

ومن ذلك ما رواه ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما بعث معاذا الى اليمن قال له :(( انّك تقدم على قوم أهل الكتاب ، فليكن أوّل ما تدعوهم إليه عبادة الله عزّ وجلّ ، فاذا عرفوا الله فأخبرهم أنّ الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فاذا فعلوا ، فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم ، فتردّ على فقرائهم ، فاذا أطاعوا بها ، فخذ منهم ، وتوق كرائم أموالهم ))(١)

ومنها حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: يا معاذ ، أتدري ما حقّ الله على العباد ؟ قال: الله ورسوله أعلم ، قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، أتدري ما حقّهم عليه ؟ قال : الله ورسوله أعلم ،قال: أن لا يعذّبهم .(٢)

فهذه الأحاديث تدلّ على وجوب اخلاص العبادة لله وحده لا شريك له .

## تضمّنه لأنواع التوحيد الأخرى

وهذا النوع من التوحيد متضمّن لجميع أنواع التوحيد الأخرى، فهو مستضمّن لتوحيد الربوبية الذي تقدّم ذكره ، ومعنى كونه متضمّنا له أنّ توحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد الألوهية ، لأن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئا ، لا بدّ أن يكون قد اعتقد أنّه هو ربّه ومالكه الذي لا ربّ له غيره ، ولا مالك له سواه ، فهو يعبده لاعتقاده أنّ أمره كله بيده ، وأنّه هو الذي يملك ضرّه ونفعه ، وأنّه مستحق للعبادة دون سواه .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته الى توحيد الله تبارك وتعالى (الفتح ٣٥٩/١٣ برقم ٧٣٧٢) ومسلم في كتاب الايمان باب الدعاء الى الشهادتين وشرائع الاسلام (٥١/١ برقم ١٩) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمّته الى توحيد الله تبارك وتعالى (الفتح ٣٥٩/١٣ برقم ٧٣٧٣) واللفظ له ومسلم في كتاب الايمان باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد دخل الجنّة (٥٨/١ برقم ٣٠) .

ولذلك نجد الآيات الكثيرة تبيّن أنّ الآلهة التى عبدها المشركون من دون الله لا تملك لعابديها ضرّا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

ومن تلك الآيات قوله تعالى :

(( وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ، وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ))(١)

وقوله تعالى:(( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ))(٢)

وقوله سبحانه:(( قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ))(٣)

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية :

(( أي أتعبدون من دون الله متجاوزين اياه ما لا يملك لكم ضرّا ولا نفعا ؟ بل هو عبد مأمور، وما جرى على يده من النفع، أو دفع من الضرّ، فهو اقدار الله له، وتمكينه منه، وأما هو فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئا من ذلك، فضلا عن أن يملكه لغيره، ومن كان لا ينفع، ولا يضرّ، فكيف تتّخذونه إلها وتعبدونه، وأي سبب يقتضى ذلك ؟ ...(( والله هو السميع العليم )) أى كيف تعبدون ما لا يملك لكم ضرّا ولا نفعا ، والحال أن الله هو السميع العليم ، ومن كان كذلك فهو القادر على الضرّ والنفع لاحاطته بكلّ مسموع ومعلوم ، ومن جملة ذلك مضاركم ومنافعكم ))(٤)

فهذه الآيات تبيّن للمشركين أن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله غير مستحقّة للعبادة ، لأن الذي يستحقّ العبادة هو من بيده الخلق، والرزق، والإحياء ، والإماتة ، والضرّ، والنفع، وهو الله سبحانه وتعالى وحده .

كما أنّ توحيد الألوهية متضمّن لتوحيد الأسماء والصفات الذي سيأتي ذكره ،

---

(١) سورة النحل : آية ٢٠، ٢١ .
(٢) سورة النحل : آية ٧٣ .
(٣) سورة المائدة : آية ٧٦ .
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٦٥ .

لأن من أخلص العبادة لله وحده، يعتقد أنّ الله واحد في أسمائه وصفاته، مع عدم المثيل والنظير والشبيه له في ذلك، وإلا فلا معنى لعبادته بدون ذلك.

وبهذا يتبيّن أن أنواع التوحيد الثلاثة مرتبطة ومتلازمة، يكمل بعضها بعضا، ولا ينفع أحدها بدون الآخرين.

فكما لا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الألوهية.[1] فكذلك لا يصحّ توحيد الألوهية بدون توحيد الربوبية.

يقول شارح الطحاوية: ((إنّ التوحيد المطلوب (الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب) هو توحيد الألوهية الذي يتضمّن توحيد الربوبية))[2].

وكذلك لا يكمل توحيد الربوبية والألوهية بدون توحيد الأسماء والصفات، لأنّ من وحّد الله في ربوبيته وألوهيته، ولكن سمّى غيره باسمه، أو ألحد في أسمائه، أو جحد صفة من صفاته، أو أثبت لغيره مثل صفته لم ينفعه توحيده في الربوبية والألوهية، فلا يكمل لأحد توحيده حتّى يجمع بين أنواع التوحيد الثلاثة.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله في معرض كلامه عن أنواع التوحيد:

((.... وهي متلازمة، كلّ نوع منها لا ينفكّ عن الآخر، فمن أتى بنوع منها، ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا أنّه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب..))[3].

## المبحث الثاني: عناية الشوكاني بتوحيد الألوهية وبيانه أنّه أساس الإسلام

وقد اعتنى الشوكاني – رحمه الله – بهذا النوع من التوحيد عناية بالغة، وأولاه اهتماما كبيرا، ويكفي ما يدلّ على اهتمامه وعنايته به أنّه ألّف عدّة رسائل[4].

(١) راجع تعريف توحيد الربوبية صفحة ١٦–١٨ (٢) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العزّ الحنفي ٨١.

(٣) تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله ٩٣.

(٤) أهمّها: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، وشرح الصدور في تحريم رفع القبور، كلتاهما مطبوعة ضمن الرسائل السلفية، وهناك رسالة ما زالت مخطوطة وهي تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ، وهي الرسالة الأولى ضمن: العذب النمير في جواب عالم بلاد عسير (في التوحيد وفاتحة الكتاب) وهو أيضا مخطوط.

يبيّن فيها معنى هذا التوحيد ، وما يناقضه من الشركيّات ، أسبابها وفتنها ، وخاصّة شركيّات القبوريّين ، ويبدي ويعيد في ذلك بعبارات متنوّعة ، وأساليب مختلفة ، وأنّه ما مرّ بآية من الآيات التي تتحدّث عن التوحيد ، أودلائله ، أوما يناقضه من الشرك ، إلا وهويبيّن معناها بيانا تفصيليّا ، ويوضّح مقصودها توضيحا شافيا . واليك بعض الأمثلة على ذلك :

قال - رحمه الله - في تفسيرقوله تعالى: (( إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . ))[1] : (( أمرهم الله سبحانه بعبادته بعد أن بيّن لهم أنه الحقيق بها دون غيره ، لبديع صنعه ، وعظيم اقتداره ، فكيف يعبدون الجمادات التي لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تنفع ، ولا تضرّ ؟ ))[2]

وقال في قوله تعالى: (( ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً ، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً ، هَلْ يَسْتَوُونَ . ))[3] : (( أي هل يستوي العبيد ، والأحرار ، والموصوفون بتلك الصفات ، مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر ، ومن المعلوم أنّهم لا يستوون عندهم ، فكيف يجعلون لله شركاء لا يملكون لهم ضرّا ولا نفعا ، ويجعلونهم مستحقّين للعبادة مع الله سبحانه ؟ وحاصل المعنى: أنّه لا يستوي الربّ الخالق الرازق والجمادات من الأصنام التي تعبدونها ، وهي لا تبصر ، ولا تسمع ، ولا تضرّ ، ولا تنفع . ))[4]

وقال في تفسيرقوله تعالى: (( وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ . ))[5] : (( أي ما يصدق ويقرّ أكثر الناس بالله من كونه الخالق ، الرازق ، المحيي ، المميت ( إلا وهم مشركون ) بالله يعبدون معه غيره ، كما كانت تفعله الجاهلية ، فإنّهم مقرّون بالله سبحانه ، وبأنّه الخالق لهم . (( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ))[6] (( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ))[7] لكنّهم كانوا يثبتون له شركاء ، فيعبدونهم ليقرّبوهم الى الله (( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ))[8] ومثل هؤلاء

---

(١) سورة يونس : آية ٣ .
(٢) فتح القدير : الشوكاني ٢/٤٢٣ .
(٣) سورة النحل : آية ٧٥ .
(٤) فتح القدير : الشوكاني ٣/١٨١ .
(٥) سورة يوسف : آية ١٠٦ .
(٦) سورة الزخرف : آية ٨٧ .
(٧) سورة لقمان : آية ٢٥ ، والزمر : آية ٣٨ .
(٨) سورة الزمر : آية ٣ .

الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله المعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، كما يفعله كثير من عبّاد القبور، ولا ينافي هذا ما قيل من أنّ الآية نزلت في قوم مخصوصين، فالاعتبار بما يدلّ عليه اللفظ لا بما يفيده السبب من الاختصاص بمن كان سببا لنزول الحكم.))[1]

وقال - رحمه الله - في قوله تعالى: (( قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَٰهِ النَّاسِ ))[2]: (( بيّن سبحانه أنّ ربوبيّته وملكه قد انضمّ اليهما المعبودية المؤسّسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرّف الكلّي بالايجاد والاعدام ..... فبيّن سبحانه أنّه اله، لأنّ اسم الاله خاصّ به، لا يشاركه فيه أحد.[3] وأيضا بدأ باسم الربّ، وهو اسم لمن قام بتدبيره، واصلاحه، من أوائل عمره الى أن صار عاقلا كاملا، فحينئذ عرف بالدليل أنّه عبد مملوك، فذكر أنّه ملك الناس، ثمّ لمّا علم أنّ العبادة لازمة له واجبة عليه، وأنّه عبد مخلوق، وأنّ خالقه المعبود، بيّن سبحانه أنّه اله الناس.))[4]

ولا شكّ أنّ هذا النوع من التوحيد جدير بالعناية والاهتمام، بل هو أهمّ الأمور التي يجب العناية والاهتمام بها، ولهذا أشار الشوكاني - رحمه الله - في مواضع متعدّدة من مؤلّفاته الى أنّه حقيقة دين الاسلام وأساسه، لما يلي:

أ - أنّه الغاية العظمى والمقصد الأساسي الذي من أجله خلق الله الخلق، وأوجدهم

---

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣٩/٢. (٢) سورة الناس، آية ١-٣.

(٣) والصحيح أن اسم "الله" هو الذي خصّ به سبحانه لا يشاركه فيه أحد، أما "الاله" فقد يطلق على غيره كما في قوله تعالى: (( وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ )) (المؤمنون، آية ١١٧.) وقوله: (( أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ )) (الفرقان، آية ٤٣) وقوله حكاية عن قوم موسى (( قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ )) (الأعراف، آية ١٣٨) ولفظ "الاله" مأخوذ من التألّه وهو التعبّد، ومعناه، المعبود المطاع سواء كان بحقّ أو غير حقّ، ولكنّ هذا اللفظ غلب على المعبود بحقّ وهو الله سبحانه وتعالى. قال الشوكاني: ((والله علم لذات واجب الوجود، لم يطلق على غيره، وأصله إِلَٰه، حذفت الهمزة، وعوضت عنها أداة التعريف فلزمت، وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس، يقع على كلّ معبود بحقّ أو باطل، ثمّ غلب على المعبود الحقّ كالنجم والصعق، فهو قبل الحذف من الأعلام الغالبة، وبعده من الأعلام المختصّة ( فتح القدير ١٨/١ ).

(٤) فتح القدير، الشوكاني ٥٢٢/٥.

في هذه الأرض كما قال تعالى: (( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ))[1]

قال الشوكاني: (( عبادة الله: اثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه ))[2] (( ومعنى العبادة في اللغة: الذلّ والخضوع والانقياد، وكلّ مخلوق من الانس والجنّ خاضع لقضاء الله متذلّل لمشيئته، منقاد لما قدره عليه، خلقهم على ما أراد، ورزقهم كما قضى، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعا ولا ضرّا، ووجه تقديم الجنّ على الانس ههنا تقدّم وجودهم ))[3]

وقد بيّن الله سبحانه في هذه الآية أنّ الحكمة التي من أجلها خلق الله تبارك وتعالى الجنّ والانس هي عبادته سبحانه وتعالى وحده دون سواه .

ومعنى الآية كما قال ابن كثير - رحمه الله - :

(( إنّما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي اليهم ... أي أنّه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذّبه أشدّ العذاب، وأخبر أنّه غير محتاج اليهم، بل هم الفقراء اليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم ))[4]

ب - أنّه الغاية العظمى والمقصد الأساسي الذي من أجله أرسلت الرسل وبه أنزلت الكتب . يقول الشوكاني - رحمه الله - (( ... ولم يبعث الله رسله، ولا أنزل عليهم كتبه الا لاخلاص توحيده وافراده بالعبادة، واستدلّ بآيات كثيرة، منها :

قوله تعالى: (( يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ))[5] (( أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ))[6] (( أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ))[7] (( فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ))[8] (( إِيَّاكَ نَعْبُدُ ))[9]

---

(١) سورة الذاريات: آية ٥٦ . (٢) فتح القدير: الشوكاني ١٠٧/١ .
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٩٢/٥ .
(٤) تفسير ابن كثير (٢٣٨/٤) دار المعرفة .
(٥) وردت هذه الآية في عدّة مواضع في القرآن كما يلي: في قصّة نوح عليه السلام مع قومه: في سورة الأعراف: آية ٥٩، وفي سورة المؤمنون: آية ٢٣، وفي قصّة هود عليه السلام مع قومه: في سورة الأعراف: آية ٦٥، وسورة هود: آية ٥٠ وفي قصّة صالح عليه السلام مع قومه: في سورة الأعراف: آية ٧٣، وسورة هود: آية ٦١، وفي قصّة شعيب عليه السلام مع قومه في سورة الأعراف: آية ٨٥، وسورة هود: آية ٨٤ .
(٦) سورة هود: آية ٢ . (٧) سورة نوح: آية ٣ .
(٨) سورة العنكبوت: آية ٥٦ . (٩) سورة الفاتحة: آية ٥ .

(( إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ))[١] (( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ))[٢] (( أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ))[٣]

وقد حكاه الله في سورة الأعراف عن نوح، وهود، وصالح، أن كل واحد قال لقومه: (( يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ))[٤]

وبالجملة: فرسل الله صلوات الله عليهم، وكذلك جميع كتبه المنزلة متفقة على هذه الدعوة، وقد تكفل القرآن الكريم بحكاية جميع ذلك لمن تتبعه ))[٥]

ويقول - رحمه الله - أيضا في هذا الصدد: (( اعلم أن الله لم يبعث رسله ولم ينزل كتبه لتعريف خلقه بأنه الخالق لهم، والرازق لهم، ونحو ذلك، فإن هذا يقربه كل مشرك قبل بعثة الرسل ٠

(( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ))[٦] (( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ))[٧] (( قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ))[٨]

٠٠٠ ولهذا تجد كل ما ورد في الكتاب العزيز في شأن خالق الخلق ونحوه في مخاطبة الكفار معنونا باستفهام التقرير ٠

(( هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ ))[٩]

(( أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ))[١٠]

(( أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ))[١١]

(( فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ))[١٢]

---

(١) سورة طه: آية ١٤ ٠
(٢) سورة النحل: آية ٣٦ ٠
(٣) سورة يس: آية ٦٠، ٦١ ٠
(٤) آية ٥٩، ٦٥، ٧٣ من سورة الأعراف ٠
(٥) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عز وجل، الشوكاني ٤٠٣ مخطوط تحت رقم (٢٢٥) ميكروفيلم، الجامعة الاسلامية ٠
(٦) سورة الزخرف، آية ٨٧ ٠
(٧) سورة الزخرف، آية ٩ ٠
(٨) سورة يونس: آية ٣١ ٠
(٩) سورة فاطر: آية ٣ ٠
(١٠) سورة ابراهيم: آية ١٠ ٠
(١١) سورة الأنعام: آية ١٤ ٠
(١٢) سورة لقمان: آية ١١ ٠

بل بعث الله رسله، وأنزل كتبه لاخلاص توحيده، وافراده بالعبادة .

(( يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ))(١)

(( قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا(٢) ))(٣)

جـ ـ إنّه معنى شهادة " أن لا اله الا الله ".

ومعنى هذه الشهادة باتفاق السلف الصالح ، أنّه لا معبود بحقّ الا الله .

( لا اله ) نافية لجميع مايعبد من دون الله، فلا يستحق أن يعبد غيره ،( الا الله ) مثبتة العبادة لله، فهو الاله المستحق للعبادة .(٤)

وقد فسّرها الشوكاني ـ رحمه الله ـ بمثل هذا المعنى في مواضع متعدّدة، وبيّن أنّه هو المراد بهذه الكلمة .

فقال في تفسير قوله تعالى:(( لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ))(٥): (( أي لا معبود بحقّ الا هو ))(٦)

وفي قوله تعالى :(( اللّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ))(٧) قال:(( أي هو المستحق للعبودية ))(٨)

وقال أيضا عند شرحه لقوله صلّى الله عليه وسلّم في دعاء استفتاحه :(( لا اله الا أنت ))(٩) أي ليس لنا معبود نتذلّل له، ونتضرّع اليه،في غفران ذنوبنا الا أنت ))(١٠)

أقول : وهذا هو التفسير الصحيح لمعنى كلمة التوحيد ( لا اله الا الله ) لأنّ الاله هو المألوه، والمعبود، والمطاع، ولا معبود بحقّ الا الله سبحانه وتعالى.

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية عن معنى الاله :

(( والاله هو المألوه، أي المستحقّ لأن يؤلّه،أي يعبد،ولا يستحقّ أن يؤلّه ويعبد الا الله وحده ،وكلّ معبود سواه من لدن عرشه الى قرار أرضه باطل، وفِعَال بمعنى مفعول مثل لفظ الرِكَاب ، والحمال ، بمعنى المركوب

---

(١) وردت هذه الآية في عدّة مواضع حكاية عن الرسل عليهم السلام كما سبق احصاؤها قبل قليل (ص ٢٠٤)

(٢) وردت هذه الآية حكاية عن قومهم في سورة الأعراف: آية ٧٠ .

(٣) انظر: الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٣٠، ٣١ مكتبة الصحابة الاسلامية .

(٤) معارج القبول: حافظ بن أحمد حكمي ٤١٦/٢ تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، وانظر أيضا تطهير الاعتقاد: الصنعاني ١٢٩، ٣٠٢ ضمن عقيدة الفرقة الناجية، والدين الخالص: محمد صدّيق حسن خان ٥٩/١ دار التراث، والصواعق المرسلة الشهابية: سليمان بن سحمان النجدي الحنبلي ٣١٩ تحقيق: عبد السلام بن برجس، دار العاصمة، الرياض .

(٥) سورة البقرة : آية ٢٥٥ (٦) فتح القدير: الشوكاني ٢٧١/١ (٧) سورة آل عمران: آية ٢

(٨) فتح القدير: الشوكاني ٣١٢/١ (٩) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٥٣٥/١ برقم ٧٧١) (١٠) نيل الأوطار: الشوكاني ٢٨/٣ .

والمحمول ))[١] (( فالاله هو الذي يؤله فيعبد، محبّة، وإنابة ، وإجلالا ، وإكراما . ))[٢]

وبهذا يتبيّن لنا خطأ المتكلّمين ومن سلك على نهجهم الذين يفسّرون الاله بأنّه الخالق ، والقادر على الاختراع ، أوما شابه ذلك ، من معاني الربوبيّة ، فجعلوا الألوهيّة بمعنى الربوبيّة .

ولا شك أنّ هذا التفسير خاطئ مخالف للغة العربيّة التي نزل بها القرآن الكريم ، ويؤدي الى اغفال حقيقة التوحيد الذي من أجله أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، ومن أجله خلقت الخلائق ، من الدنيا والآخرة ، والجنّة والنار ، ألا وهو توحيد العبادة الذي ضلّ فيه كثير من الناس ، خصوصا في هذا العصر .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر أن معنى الاله هو المألوه المعبود الذي يستحقّ العبادة ، ليس هو الاله بمعنى القادر على الخلق، فيقول :

(( فاذا فسّر المفسّر الاله بمعنى القادر على الاختراع ، واعتقد أنّ هذا أخصّ وصف الاله ، وجعل اثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد ، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلّمة الصفاتيّة ، وهو الذي ينقله عن أبي الحسن وأتباعه ، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله رسله ، فإن مشركي العرب كانوا مقرّين بأنّ الله وحده خالق كلّ شيئ ، وكانوا مع هذا مشركين ، قال تعالى : (( وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ))[٣] قال طائفة من السلف ، " تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله . وهم مع هذا يعبدون غيره "[٤]

وعلى هذا فانّ حقيقة التوحيد الذي دعت اليه الرسل هو توحيد العبادة ،

---

(١) مجموع فتاوى لابن تيمية ٢٠٢/١٣ وانظر أيضا ٧٦/١، ١٣٦ .
(٢) المصدر السابق ٢٢/١ . (٣) سورة يوسف : آية ١٠٦ .
(٤) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول : ابن تيمية ١٧٤/١ .

واخلاصها لله تعالى، وقطع علائق الشرك به كائنة ماكانت.[1] وهذا هو المعنى المقصود من كلمة التوحيد " لا اله الا الله ".

أما شرط هذه الكلمة بعد النطق بها فهو فهم معناها، والعمل بمقتضاها، كما قرّر ذلك الشوكاني وغيره من علماء السلف.[2] لأن من تكلم بها، وفعل أفعالا تخالف مقتضاها، كاعتقاد هؤلاء المعتقدين في الأموات، فلا ريب أنّه قد تبيّن من حالهم خلاف ماحكته ألسنتهم من اقرارهم بالتوحيد.[3]

وعلى هذا فقد نزّل الشوكاني هؤلاء المعتقدين في الأموات منزلة المشركين، اذ قال:

(( هؤلاء انّما قالوها بألسنتهم، وخالفوها بأفعالهم، فان من استغاث بالأموات، أوطلب منهم مالا يقدر عليه الا الله سبحانه، أوعظّمهم، أو نذرعليهم بجزء من ماله، أونحرلهم، فقد نزّلهم منزلة الآلهة التي كان المشركون يفعلون لها هذه الأفعال، فهو لم يعتقد معنى: لا اله الا الله، ولا عمل بها، بل خالفها اعتقادا و عملا، فهو في قوله: "لا اله الا الله". كاذب على نفسه، فانه قد جعل الها غيرالله يعتقد أنّه يضرّ وينفع، فعبده بدعائه عند الشدائد، والاستغاثةبه عند الحاجة، وبخضوعه له، وتعظيمه اياه، ونحره له النحائر، وقرّب اليه نفائس الأموال، وليس مجرد قوله لا اله الا الله من دون عمل بمعناها مثبتا للاسلام، فانّه لوقالها أحد من أهل الجاهليّة، وعكف على صنمه يعبده لم يكن ذلك اسلاما ))[4]

وقال في حديث: (( أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قالها (لا اله الا الله)

---

(١) انظر: الدرالنضيدفي اخلاص كلمةالتوحيد: الشوكاني ٣٠، ٣١ ورسالةتتعلّق بوجوب توحيد اللهعزّوجلّ: الشوكاني ١١ ( مخطوط )

(٢) ذكربعض العلماء شروطا عديدةللانتفاع بفضل هذهالكلمة، انظر: معارج القبول: حافظ ابن أحمدحكمي ٤١٨/٢ـ ٤٢٧ تحقيق: عمربن محمودأبوعمر، والجامعالفريد ٣٥٠ الرسالة الخامسةضمن: خمس رسائل: للشيخعبدالرحمن بن حسن بن الشيخمحمدبن عبدالوهاب .

(٣) انظر: الدرالنضيدفي اخلاص كلمةالتوحيد: الشوكاني ٤٢ مكتبةالصحابةالاسلامية .

(٤) المصدرالسابق ٤٠ .

خالصا من قلبه ))[١] :

((فيه دليل على أن قائل هذه الكلمة ( لا اله الا الله ) هو أسعد الناس بالشفاعة النبويّة ، لكن مقيّد بأن يقول ذلك خالصا ، لا اذا قالها من دون خلوص))[٢]

د ـ ذكر الشوكاني أن من أعظم مقاصد القرآن الكريم اخلاص التوحيد لله وقطع علائق الشرك كائنة ما كانت ، وان هذا هو الأمر الذي بعث الله لأجله رسله ، وأنزل فيه كتبه ، ومن شكّ في هذا فعليه بالتفكّر في القرآن الكريم ، فانّه سيجده من أعظم مقاصده وأكبر موارده ، فان عجز عن ذلك فلينظر في سورة من سوره .

ثمّ ذكر ـ رحمه الله ـ ثلاثين موضعا في فاتحة الكتاب من معاني هذا التوحيد ، مبيّنا في كلّ موضع ما يستفاد منه من اخلاص توحيد الله عزّ وجلّ .[٣]

وسأذكر هنا خمسة ممّا ذكره :

قال :(( انظُر فاتحة الكتاب التي تكرّر في كلّ صلاة مرّات ، من كلّ فرد من الأفراد ، ويفتتح بها التالي لكتاب الله ، والمتعلم له ، فانّ فيها الارشاد الى اخلاص التوحيد في مواضع ، فمن ذلك :

١ ـ (( بسم الله الرحمن الرحيم )) [٤] فانّ علماء المعاني والبيان ذكروا أنّه يقدّر المتعلّق متأخرا ، ليفيد اختصاص البداية باسمه تعالى ، لا باسم غيره ، وفي هذا ما لا يخفى من اخلاص التوحيد .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب الحرص على الحديث ( الفتح ١/٢٣٣ برقم ٩٩ ) وأخرجه أيضا برقم ( ٦٥٧٠ ) وأحمد في مسنده ٥/٣٧٣ .

(٢) تحفة الذاكرين ، الشوكاني ٢٩٠ .

(٣) انظر ، رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّوجلّ : الشوكاني ١١ ـ ١٥ ( مخطوط ) وأيضا : الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد ، الشوكاني ٧٩ ـ ٨١ .

(٤) جعل الشوكاني البسملة آية من الفاتحة ، وهو قول أكثر العلماء المتقدّمين والمتأخرين . منهم ابن عبّاس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وعطاء ، وطاووس ، ومكحول ، واليه ذهب ابن مبارك ، وطائفة ، ووافق عليه الشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو عبيد ، وجماعة أهل مكّة ، وأهل الكوفة ، وأكثر أهل العراق ، وخالفهم مالك ، وطائفة من الحنفيّة ، وقالوا : انّها ليست من القرآن ، الا في سورة النمل (يعني قوله تعالى : ((إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) النمل ، آية ٣٠ ) ( انظر أحكام البسملة : الفخر الرازي ٢٠ ، ٢١ تحقيق مجدي السيد ابراهيم ، مكتبة الساعي ، ونصب الراية : الزيلعي ١ / ٣٢٧ ط ٢ / ١٣٩٣هـ المكتب الاسلامي ، وتفسير ابن كثير ١/١٧ وفتح القدير : الشوكاني ١/١٧ ) .

٢ ـ ومنها قوله تعالى :(( الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِيْنَ )) فان التعريف يفيد أن الحمد مقصور على الله ، واللام في (( لله )) تفيد اختصاص الحمد به ، ومقتضى هذا أنه لا حمد لغيره أصلا ، وما وقع منه لغيره ، فهو في حكم العدم ، وقد تقرر أن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري لقصد التعظيم ، فلا ثناء الا عليه ، ولا جميل الا منه ، ولا تعظيم الا له ، وفي هذا من اخلاص التوحيد ما ليس عليه مزيد .

٣ ـ ومن ذلك قوله :(( مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ )) أو (( مَلِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ )) على القراءتين السبعيتين ، فان كونه المالك ليوم الدين يفيد أنّه لا ملك لغيره ، فلا ينفذ الا تصرفه ، لا تصرف أحد من خلقه ، من غير فرق بين نبي مرسل وملك مقرّب وعبد صالح . وهذا معنى كونه ( مَلِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ ) فانه يفيد أن الأمر أمره ، والحكم حكمه ، ليس لغيره معه أمر ولا حكم ، كما أنّه ليس لغير ملوك الأرض معهم أمر و لا حكم ، ولله المثل الأعلى .

٤ ـ ومن ذلك (( إِيَّاكَ نَعْبُدُ )) فان تقديم الضمير قد صرّح أئمة المعاني والبيان ، وأئمّة التفسير ، أنه يفيد الاختصاص ، فالعبادة لله سبحانه ، ولا يشاركه فيها غيره ، ولا يستحقها ، وقد عرفت أن الاستغاثة ، والدعاء ، والتعظيم ، والذبح ، والتقرّب ، من أنواع العبادة .

٥ ـ ومن ذلك قوله :(( وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ )) فان تقديم الضمير ههنا يفيد الاختصاص كما تقدم ، وهو يقتضي أنّه لا يشاركه غيره في الاستعانة في الأمور التي لا يقدر عليها غيره .

قال ـ رحمه الله ـ :(( فهذه خمسة مواضع في فاتحة الكتاب ، يفيد كلّ منها اخلاص التوحيد ، مع أن فاتحة الكتاب ليست الا سبع آيات ، فما ظنّك بما في سائر الكتاب العزيز ))

## المبحث الثالث : العبادة وذكر جملة من أنواعها .

### معنى العبادة

قال الشوكاني في معنى العبادة :(( ومعنى العبادة في اللغة : الذل والخضوع

والانقياد ، وكلّ مخلوق من الإنس والجن خاضع لقضاء الله ، متذلّل لمشيئته ، منقاد لما قدّر عليه ))(١)

وقال في معناها الاصطلاحي :(( والعبادة : أقصى غايات الخضوع والتذلل ))

وحكى عن ابن كثير قال :(( وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف ))(٢)

وقال ( أي الشوكاني ) في موضع آخر :(( وعبادة الله : اثبات توحيده ، وتصديق رسله ، والعمل بما أنزل في كتبه ))(٣)

قلت : وهذا تعريف مختصر جيّد ، شامل لجميع ما شرعه الله لعباده من الأمور الاعتقاديّة ، والعمليّة .

وعلى هذا المعنى فسّر الشوكاني قوله تعالى :(( إِيَّاكَ نَعْبُدُ ))(٤) راويا عن ابن عبّاس قال :(( أي إياك نوحّد ونخاف يا ربّنا لا غيرك ))(٥)

وقد تنوّعت عبارات السلف في تعريف العبادة ، ولكنّ أشمل تعريف لها هو تعريف شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حيث قال :

(( العبادة : اسم جامع لما يحبّه الله ويرضاه ، من الأقوال ، والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحجّ ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبرّ الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والاحسان للجار ، واليتيم ، والمسكين ، وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حبّ الله ورسوله ، وخشية الله ، والانابة اليه ، واخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضى بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك ، هي من العبادة لله ))(٦)

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ٩٦/٥ .

(٢) فتح القدير : الشوكاني ٢٢/١ وانظر : تفسير ابن كثير ٢٧/١ .

(٣) فتح القدير : الشوكاني ١٠٧/١ . (٤) سورة الفاتحة : آية ٥ .

(٥) فتح القدير : الشوكاني ٢٣/١ .

(٦) العبودية : ابن تيمية ٣٨ ط ١٣٩٩/٥هـ المكتب الاسلامي .

ويفهم من تعريف الشوكاني السابق ، وتعريف شيخ الاسلام الجامع لمعناها أن جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة التي يحبّها الله سبحانه وتعالى ويرضاها داخلة في مسمّى العبادة، وفي هذا ردّ على الفهم القاصر الذي يتصوّره كثير من الناس ،أن العبادة محصورة في أركان الاسلام الخمسة ، مما جعلهم يذكرون الله تعالى ويعرفونه في الصلوات الخمس ، وبقيّة أركان الاسلام ، وينسونه فيما عدا ذلك ، من شئون حياتهم العامة ، الأمر الذي جعلهم يصرفون كثيرا من أنواع العبادة لغيره ، ويتهاونون بأمره ونهيه .

من شروط العبادة

ولا تقبل العبادة الا بشرطين أساسيين مجتمعين ، اذا فقد شرط منهما فان العبادة تكون مردودة على عاملها ، وهذان الشرطان هما : الاخلاص في النيّة والمتابعة .

أولا : الاخلاص في النيّة . وهو أن تكون العبادة خالصة لوجه الله ، فلا يشرك مع الله أحدا في العبادة (( ولا يتم الا بأن يكون الدعاء كلّه لله ، والنداء ، والاستغاثة ، والرجاء ، واستجلاب الخير ، واستدفاع الشرّ له وحده، لا لغيره ، ولا من غيره ))[١]

قال تعالى :(( وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ))[٢]

وقال سبحانه :(( فَاعْبُدْ لِلّهِ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ))[٣]

قال الشوكاني – رحمه الله – :(( والاخلاص : أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه ، والدين : العبادة ، والطاعة ، ورأسها توحيد الله ، وأنه لا شريك له . وفي الآية ( المذكورة ) دليل على وجوب النية واخلاصها عن الشوائب ، لأن الاخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون الا بأعمال القلب ))[٤]

---

(١) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٣٢ .
(٢) سورة البيّنة : آية ٥ .
(٣) سورة الزمر : آية ٢ .
(٤) فتح القدير : الشوكاني ٤٤٨/٤ .

وقال في موضع آخر ـ مبيّنا أهمية هذا الشرط في الأعمال ـ :

(( فاعلم أن عمدة الأعمال التي تترتب عليها صحّتها أو فسادها هي النية والاخلاص ، ولا شك أنّهما من الأمور الباطنة ، فمن لم تكن نيته صحيحة لم يصحّ عمله الذي عمل به ، ولا أجره المترتب عليه · ومن لم يخلص عمله لله سبحانه فهو مردود عليه ، مضروب به في وجهه ، وذلك كالعامل الذي يشوب نيته بالرياء ، قال الله عزّ وجلّ : ( واعبدوا الله مخلصين له الدين ) [(١)]

ثم أورد ـ رحمه الله ـ عدّة أحاديث في الموضوع · منها :

حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(( إنما الأعمال بالنيّات ، وانّما لكلّ امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوّجها ، فهجرته الى ما هاجر اليه ))[(٢)]

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(( إن الله لا ينظر الى أجسامكم ، ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم ))[(٣)]

ومنها حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر : ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيئ له ، فأعادها ثلاث مرات ، يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيئ له ، ثم قال : إن الله لايقبل من العبد الا ماكان له خالصا ، وابتغي به وجهه[(٤)] [(٥)] ·

---

(١) لعله يريد بذلك قوله تعالى :(( وَمَا أُمِرُوْا إِلاَّ لِيَعْبُدُوْا اللهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ حُنَفَاءَ ))( البينة : آية ٥ ) لأنه لايوجد في القرآن آية بذلك الصدر الذي أورده ·

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في عدة مواضع ، انظر : كتاب بدء الوحي ، باب كيف بدأ الوحي ( الفتح ١٥/١ برقم ١ ، وهنا يذكر مواضع وروده ) ، ومسلم في كتاب الامارة ، باب قوله صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنية ( ١٥١٥/٣ برقم ١٩٠٧ ) ·

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله ( ١٩٨٧/٤ برقم ٢٥٦٤ ) وابن ماجة في كتاب الزهد ، باب القناعة ( ١٣٨٨/٢ برقم ٤١٤٣ ) وأحمد في المسند ( ٢٨٥/٢ ، ٥٣٩ ) ·

(٤) أخرجه النسائي في كتاب الجهاد ، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر ( ٢٥/٦ برقم ٣١٤٠ ) قال الشوكاني : اسناده جيد ( قطر الولي ٤٥٧ ) ، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ( ٨١/١ برقم ٥٢ ) : واسناده حسن ، كما قال الحافظ العراقي في تخريج الاحياء ( ٣٢٨/٤ ) والأحاديث بمعناه كثيرة تجدها في أول كتاب " الترغيب " للحافظ المنذري ·

(٥) قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٤٥٦ ، ٤٥٧ ·

وقد جعل الشوكاني ـ رحمه الله ـ هذا الشرط من أول واجبات طالب العلم باعتبار أن طلب العلم نوع من أنواع العبادة، بل أفضلها وأشرفها، اذ قال :

(( ... فان من أراد أن يجمع في طلبه العلم بين قصد الدنيا والآخرة، فقد أراد الشطط، وغلط أقبح الغلط،(*) فان طلب العلم من أشرف أنواع العبادة، وأجلها، وأعلاها، وقد قال الله سبحانه :(( وَمَا أُمِرُوْا إِلاَّ لِيَعْبُدُوْا اللهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ ))(1) فقيّد الأمر بالعبادة بالاخلاص الذي هو روحها، وصحّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :(( إنما الأعمال بالنيات ))(2)

فكل طاعة من الطاعات، وعبادة من العبادات، اذا لم تصدر عن اخلاص نية وحسن طوية، لا اعتداد بها، ولا التفات اليها، بل هي ان لم تكن معصية، فأقلّ الأحوال أن تكون من أعمال العبث واللعب التي هي بما يصدر عن المجانين أشبه منها بما يصدر عن العقلاء ))(3)

ثانيا : المتابعة : وهي أن تكون العبادة موافقة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى :(( وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا ))(4) وقال سبحانه :(( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ يُحْبِبْكُمُ اللهُ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ، وَاللهُ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ، قُلْ أَطِيْعُوْا اللهَ وَالرَّسُوْلَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِيْنَ ))(5)

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(( من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ ))(6)

وفي رواية لمسلم :(( من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ ))(7)

---

(1) سورة البينة : آية ٥ . (2) تقدم تخريجه قبل قليل ( ص ٢١٣ ) .
(3) أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني ٢٨،٢٩،٣٠ .
(4) سورة الحشر : آية ٧ . (5) سورة آل عمران : آية ٣١،٣٢ .
(6) أخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب اذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (الفتح ٥/٣٥٥ برقم ٢٦٩٧) ومسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٣/١٣٤٣ برقم ١٧١٨ )
(7) تقدّم تخريجه في صفحة (٧٩ هامش رقم ٦) .
(*) كلام الشوكاني هنا فيه نظر، لأن الانسان اذا أراد بعمله الحسنيين حسنى الدنيا وحسنى الآخرة فلا شيء عليه في ذلك، لأن الله يقول:((ومن يتّق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب.))(الطلاق: آية ٢،٢) وهذا ترغيب في التقوى بأمر دنيوي، فلو تعلم العلم بحيث لا يتعلمه الا ليصيب به غرضا من أغراض الدنيا فهذا الذي ليس له من خلاق، أما اذا أراد به الدنيا والآخرة، والدنيا مضبوطة بضوابط شرعية فلا مانع من ذلك .

وقد بيّن الشوكاني ـ رحمه الله ـ هذا الشرط في مواضع مختلفة من كتبه ، بل إنّه حمل حملا شديدا على التاركين لكتاب الله وسنة رسوله من المقلّدين المتعصّبين للمذاهب الفقهية على التفصيل الذي ذكرته في باب التمهيد .

وممّا ذكره ـ رحمه الله ـ في لزوم الاتّباع وذمّ الرأي والابتداع قوله في اتّباع السنة :

(( ومن جملة ما أجمله الكتاب العزيز قوله :(( وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ))[1] فأمر في هذه الآية باتّباع ما سنّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكلّ حكم سنّه الرسول لأمّته قد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز بهذه الآية ، وبنحو قوله تعالى :(( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي ))[2] وبقوله :(( لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ))[3] و[4]

وقال في ذمّ الرأي والهوى ولزوم الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله في مسائل الدين :

(( والحاصل أن كلّ ما لم يأت به الكتاب والسنة فهو من هوى النفس كما قال الله سبحانه : (( فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ، بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ))[5]

فقسّم سبحانه الأمر الى قسمين لا ثالث لهما : إما الاستجابة لله وللرسول باتّباع الكتاب والسنة ، أو اتّباع الهوى ، فكل ما لم يكن في الكتاب والسنة فهو من الهوى . واستدلّ ـ رحمه الله ـ على ذلك بالآيات والأحاديث ، وقال :

وقد ثبت عن أكابر الصحابة ، الخلفاء الأربعة وغيرهم ، ذمّ الرأي ومقت العامل به ، وأنه ليس من الدين في شيئ .

والرأي اذا كان في معارضة أدلّة الكتاب والسنة ، أو كان بالخرص والظنّ ،

---

(١) سورة الحشر : آية ٧ .
(٢) سورة آل عمران : آية ٣١ .
(٣) سورة الأحزاب : آية ٢١ .
(٤) فتح القدير : الشوكاني ١١٤/٢ .
(٥) سورة القصص : آية ٥٠ .

مع التقصير عن معرفة النصوص ، أو كان متضمّنا تعطيل أسماء الله تعالى وصفاته ، وكان مما أحدثت به البدع ، وغيّرت به السنن ، فلا خلاف بين المسلمين في أنه باطل ، وأنه ليس من الدين في شيئ ))[1]

وقد تحدث الشوكاني عن هذا الموضوع باسهاب في كتابه : القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد .[2] وأيضا : أدب الطلب ومنتهى الأرب .. ومن أحسن ما قال - في صدد نقده على المتصوفة - :

((والخير كل الخير في الكتاب والسنة ، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه ، وان جاء نا أزهد الناس في الدنيا ، وأرغبهم في الآخرة ، وأتقاهم لله تعالى ، وأخشاهم له في الظاهر ، فانه لا زهد لمن لم يمش على الهدي النبوي ،ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم ، فان الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها ، والنصب ، وايقاعها على أبلغ الوجوه ، بل إنما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة ، بموافقة الشرع ، والمشي على الطريقة المحمدية . ))[3]

هذه هي الشروط التي قررها الشوكاني وغيره من العلماء لقبول العمل ، وهي شروط استنبطوها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذان الشرطان هما حقيقة الشهادتين : أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله :

والتخلف عن هذين الشرطين ينتج عنه ، إما الشرك بالله عزّ وجلّ ، وإما الابتداع في دينه ، والتقرب اليه بما لم يشرعه ، وفي هذا تنقيص للدين ، ولمن جاء به وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسيأتي الكلام عن الشرك والبدع مفصّلا في الفصل القادم ان شاء الله .

---

(١) انظر قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٣١٧ - ٣٢٠ .
(٢) انظر مثلا كلامه في وجوب المتابعة ، وذم الرأي في صفحة ٧٤-٨٧ تحقيق/ محمد عثمان الخشت .
(٣) أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني ٢١٦ .

## ذكر جملة من أنواع العبادة

أنواع العبادة كثيرة جدا ، وكما قال الشوكاني :(( إنه يصعب حصرها وتتعسر الاحاطة بها ))[1] ولهذا سأقتصر على ذكر جملة من أنواع العبادة، وكلام الشوكاني عليها ، وسأبدأ بذكر الدعاء،لأنه هو العبادة .[2] كما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

### أ- من أنواع العبادة : الدعاء

يقول الشوكاني - رحمه الله - :

(( فاعلم أن الدعاء نوع من أنواع العبادة المطلوبة من العباد ، ولو لم يكن في الكتاب العزيز الا مجرد طلبه منهم لكان ذلك مفيدا للمطلوب : أعني كونه من العبادة .

واستدل - رحمه الله - بكثير من الآيات القرآنية ، منها :

قوله تعالى :(( ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ))[3] ومنها قوله تعالى :

(( قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ ))[4]

وقال سبحانه : (( ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ))[5]

قال :(( فهذه الآيات البينات دلت على أن الدعاء مطلوب لله عز وجل من عباده وهذا القدر يكفي في اثبات كونه عبادة ، فكيف اذا انضم الى ذلك النهي عن دعاء غير الله ، قال تعالى :(( فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ))[6] .))

---

(١) قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٤٥٥ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٧١/٤، وأبو داود في كتاب الصلاة ،باب الدعاء (٦١/٢ برقم ١٤٧٩ )، والترمذي في كتاب تفسير القرآن ،باب ومن سورة البقرة (١٦٤/٥ برقم ٢٩٦٩ )وقال : هذا حديث حسن صحيح وأخرجه أيضا برقم (٣٢٤٧، ٣٣٧٢ )وابن ماجه في كتاب الدعاء ، باب فضل الدعاء (١٢٥٨/٢ برقم ٣٨٢٨ )والحاكم في المستدرك ٤٩٠/١ ،وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ، ووافقه الذهبي .

(٣) سورة الأعراف : آية ٥٥، ٥٦ .

(٤) سورة الاسراء : آية ١١٠ .

(٥) سورة غافر : آية ٦٠ .

(٦) سورة الجن : آية ١٨ .

وقـــال تعالى :(( لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ لاَ يَسْتَجِيْبُوْنَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ))[1] ... فكيف اذا صرّح القرآن الكريم بأن الدعاء عبادة تصريحا لايبقى عنده ريب لمرتاب. قال الله تعالى :(( اُدْعُوْنِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِيْ )).. الآية[2] فقد طلب الله سبحانه من عباده في هذه الآيـــة أن يدعوه ، وجعل جزاء الدعاء له منهم الاجابة منه، فقال : أستجب لكم .... ثم توعدّهم على الاستكبار عن هذه العبادة، أعني الدعاء تفسيرا لـــه ، وايضاحا لمعناه، وبيانا لعباده، بأن هذا الأمر الذي طلبه منهم ، وأرشدهم اليه هونوع من عبادته التي خص بها نفسه ، وخلق لها عباده، كما قال تعالى : (( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ ))[3] [4]

وقد جاءت السنة المطهرة بما يدل أبلغ دلالة على أن الدعاء من العبادة، بل هو أعلاها وأعظمها ، وهوقوله صلى الله عليه وسلم :(( الدعاء هوالعبادة ))[5]

يقول الشوكاني ـ في صدد استدلاله بهذا الحديث ـ:

((هذه الصيغة المقتضية للحصر، من جهة تعريف المسند اليه[6] ، ومن جهة تعريف المسند[7] ، ومن جهة ضمير الفصل[8] ، تقتضي أن الدعاء هو أعلى أنواع العبادة، وأرفعها ، وأشرفها ، والى هذا أشار بقوله صلى الله عليه وسلم : (( الدعاء مخّ العبادة ))[9]. والآية الكريمة (( وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوْنِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ . الآية ))[10] تددلت على أن الدعاء من العبادة، فانه سبحانه وتعالى أمر عبـــاده أن يدعوه، ثم قال :(( إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِيْ ))[10]

---

(١) سورة الرعد : آية ١٤ .
(٢) سورة غافر: آية ٦٠ . (٣) سورة الذاريات : آية ٥٦ .
(٤) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّوجلّ: الشوكاني ٢،١ ( مخطوط ) .
(٥) تقدم تخريجه قبل قليل (ص ٢١٧) . (٦) يعني قوله : الدعاء .
(٧) يعني قوله : العبادة . (٨) يعني قوله : هو .
(٩) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء(٤٢٥/٥ برقم ٣٣٧١) وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه لانعرفه الا من حديث ابن لهيعة ، قال الألباني: اسناده ضعيف فيه ابن لهيعة ،وهوسيئ الحفظ، والصحيح في لفظ الحديث هو :الدعاء هو العبادة. ( انظر: مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني( ٦٩٣/٢ برقم ٢٢٣١ )وأيضا : أحكام الجنائز وبدعها للألباني ( ١٩٥،١٩٤ ) المكتب الاسلامي .
(١٠) سورة غافر : آية ٦٠ .

فأفاد ذلك أن الدعاء عبادة، وأن ترك دعاء الرب سبحانه استكبار، ولا أقبح من هذا الاستكبار، وكيف يستكبر العبد عن دعاء من هو خالق له، ورازقه، وموجده من العدم، وخالق العدم كله، ورازقه، ومحييه، ومميته، ومثيبه، ومعاقبه، فلا شك أن الاستكبار طرف من الجنون، وشعبة من كفران النعم ))[١]

(( فأقل ما يفيد الحديث أن الدعاء عبادة كاملة مؤكدة، فمن دعا غير الله عزّوجلّ، وطالب منه أمراً من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله سبحانه فقد عبد غير الله، ولم يبعث الله رسله، ولا أنزل عليهم كتبه إلا لإخلاص توحيده، وإفراده بالعبادة ))[٢]

ب ـ المحبة

ومن أنواع العبادة المحبّة، وقد دلّت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة على وجوب محبّة الله عزّوجلّ وتقديم محبّته على سائر المحابّ.

يقول الشوكاني ـ رحمه الله ـ: (( اعلم أنّ محبّة الله عزّوجلّ هي من أعظم الفرائض المفترضة على العباد، كما يدلّ على ذلك آيات الكتاب المبين، وأحاديث سيد المرسلين، وإجماع المسلمين أجمعين، فمن ذلك قول الله عزّوجلّ: (( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ))[٣]. وقد علم أنّ اتّباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض واجب لا خلاف فيه، فكانت هذه المحبّة لله سبحانه داخلة في الفريضة، لتعليق الاتباع بها، وجعله متسبّباً عنها، مع ما في ذلك من التهييج للعبادة على الاتباع بما هو مطلوب لكلّ فرد من أفرادهم، ومقصد من مقاصدهم، عامّتهم وخاصّتهم، فإنّ دخول العبد في زمرة المحبّين لله عزّوجلّ هو الذي يتنافس فيه المتنافسون، ويتسابق إليه المتسابقون، فإذا سمع السامع أنّ هذا الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو مهيع[٤] من يحبّ الله، وعمل من يتصف بذلك سعى إليه، وبادر به، وتابع في تحصيله

---

(١) تحفة الذاكرين، الشوكاني ٢٥، وانظر: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد له ٣٨، ورسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّوجل له ٣٠٢ ( مخطوط ).

(٢) رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّوجل: الشوكاني ٤٠٣ ( مخطوط )

(٣) سورة آل عمران، آية ٣١.

(٤) المهيع جمع مهايع: الطريق البين الواسع يقال: أرض هَيِّعة: واسعة مبسوطة، وطريق مَهْيَع: مفعل من التَّهَيُّع وهو الانبساط. ( انظر تهذيب اللغة للأزهري ٢٤/٣ مادة: هاع )

بكلّ ممكن .

والحاصل أنّ في هذا النظم القرآني دلالة بيّنة على أنّ اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم متسبّب من محبّة العبد لله، وفرع من فروعها، وأنّه سبب لمحبّة الله عزّ وجلّ للعبد، ومن أحبّ الله وأحبّه الله فقد ظفر بالغاية القصوى، ووصل الى المقصد الأسنى الذي هو أعلى مطالب الطالبين، ونهاية رغبات الراغبين، وكلّ العبادات والأعمال الصالحات انّما هي للتوصّل بها الى هذه المحبّة التي يكون بها حصول الفلاح والنجاح، والفوز بكلّ محبوب، والنجاة من كلّ مكروه .))[١]

ومن الآيات القرآنية الدالة على وجوب تقديم محبّته سبحانه وتعالى على سائر المحابّ قوله تعالى: (( قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ))[٢]

فهذا الوعيد المذكور في آخر الآية بقوله :( فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره ) مع قوله : ( والله لا يهدي القوم الفاسقين) قد دلّ أبلغ دلالة على أنّ محبّة العبد لله عزّ وجلّ فرض من أعظم الفرائض الدينية، ولا سيما بعد ذكره لما هو غاية ما يحبّ في الدنيا من الأشخاص ......

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستكثر من سؤال الله سبحانه حصول هذه المحبّة له، كما أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصحّحاه من حديث معاذ بن جبل ( رضي الله عنه ) وفيه : (( أسألك حبّك، وحبّ من يحبّك، وحبّ عمل يقرّب الى حبّك ))[٣]

والأحاديث التي أوردها الشوكاني في هذا الموضوع كثيرة[٤] منها :

حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الايمان: من كان الله ورسوله أحبّ اليه ممّا سواهما، ومن أحبّ عبدا لا يحبّه الا لله تعالى، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار ))[٥]

---

(١) بحث في وجوب محبّة الله : الشوكاني، ضمن أمناء الشريعة ٨٧، ٨٨ .
(٢) سورة التوبة : آية ٢٤ .
(٣) بحث في وجوب محبّة الله : الشوكاني، ضمن أمناء الشريعة ٨٨، ٨٩ والحديث أخرجه أحمد في المسند (٢٤٣/٤)، والترمذي في تفسير القرآن، باب: ومن سورة ص (٣٤٤/٥ برقم ٣٢٣٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح .
(٤) انظر قطر الولي على حديث الولي ٤٦٤، وبحث في وجوب محبّة الله ٨٩ - ٩١ ضمن أمناء الشريعة .
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الايمان، باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار ( الفتح ٩١/١ برقم ٢١) وأخرجه أيضا برقم (١٦، ٦٠٤١، ٦٩٤١)، ومسلم في كتاب الايمان باب بيان خصال من اتّصف بهنّ وجد حلاوة الايمان (٦٦/١ برقم ٤٣) .

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (( إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابّون بجلالي، اليوم أظلّهم في ظلّي يوم لا ظلّ إلاّ ظلّي ))[1] ... والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً، ومن ذلك ما ورد في ذمّ حبّ الدنيا، ومدح حبّ الآخرة، وهي أحاديث كثيرة.[2]

وقال: ومن الأدلّة المرشدة إلى افتراض محبّة الله عزّ وجلّ ما ورد في الأحاديث الصحيحة في التحابّ في الله، فإنّ التحابّ في الله عزّ وجلّ هو من محبّة الله سبحانه وتعالى، ومنها الحديث الصحيح: (( إنّ المتحابّين في الله على منابر من نور يوم القيامة ))[3]

والمحبّة لله حقيقة العبودية، وأصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاها، فبكمالها يكمل الإيمان، وبنقصانها ينقص توحيد الإنسان، لأنّها تتمثّل في أداء جميع فرائض الله الظاهرة والباطنة، وترك المعاصي، والتقرّب إليه بالنوافل.[4]

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربّه عزّ وجلّ: (( ... وما تقرّب إليّ عبدي بشيءٍ أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه ... الحديث ))[5]

قال الشوكاني: (( هم أولياء الله الذين تقرّبوا إليه بما يحبّ حتى أحبّهم، فلمّا دعوا أجيبوا، ولمّا أحبّوا أُحبّوا، ولمّا أخلصوا استخلصوا، صدقت منهم الضمائر، فصفت منهم السرائر، وصاروا صفوة الله في أرضه، ففاضت عليهم أنواره، وامتلأت قلوبهم من معارفه. ))[6]

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب في فضل الحبّ في الله (١٩٨٨/٣ برقم ٢٥٦٦)

(٢) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٤٦٤ .

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٧/١٠): رواه الطبراني، ورجاله وثّقوا، ورواه أحمد في المسند (٣٢٨/٥) بلفظ: إنّ المتحابّين بجلال الله في ظل الله وظل عرشه. وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٢/١ برقم ١٩٣٧) .

(٤) انظر قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ( ٢٧٠، ٢٧١، ٣٨٢ وما بعدها، وأيضا ٤٢٤) .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب التواضع. ( الفتح ٣٤٨/١١ برقم ٦٥٠٢) .

(٦) انظر: قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ( ٤٨٢، ٤٨٣ ) .

الخوف والرجاء

ومن أنواع العبادة الخوف، وهو أنواع: خوف تأله لله، وتعلّقه بالله من أعظم الواجبات، وهذا النوع هو المراد هنا في هذا الباب، وخوف تأله لغير الله، وهذا شرك أكبر، وخوف طبيعي كالخوف من الأسد والحية والنار وغير ذلك، وخوف وهمي، كالخوف الذي ليس له سبب أصلا، وهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء.[1] والخوف بالمعنى الأول عبادة لا يستحقها إلا الله تبارك وتعالى، لأنه وحده القادر على جلب النفع للعبد ودفع الضر عنه، وقد تعبّد الله به جميع عباده من الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين وسائر عباده المؤمنين، كما ورد ذلك في القرآن الكريم .

قال تعالى في وصف الملائكة

(( يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ))[2]

وقال في وصف الأنبياء الماضين :

(( الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ))[3]

وقال في وصف عباده المؤمنين :

(( إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ))[4]

بين الشوكاني ـ رحمه الله ـ أن الله سبحانه ذكر في هذه الآيات من هو أهل للخيرات عاجلا وآجلا ، فوصفهم بصفات أربع : الأولى: قوله:(( ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون )) والاشفاق : الخوف ، تقول : أنا مشفق من هذا الأمر، أي خائف . والصفة الثانية: قوله: (( والذين هم بآيات ربهم يؤمنون )) والصفة الثالثة: قوله:(( والذين هم بربهم لا يشركون )) أي يتركون الشرك تركا كليا ، ظاهرا وباطنا ، والصفة الرابعة: قوله:(( والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة إنهم الى ربهم راجعون )) أي يعطون ما أعطوا وقلوبهم خائفة من أجل ذلك الاعطاء ، يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله ))[5]

وأيّد الشوكاني هذا المعنى بحديث عائشة رضي الله عنها قالت : قلت

---

(١) انظر: القول السديد في مقاصد التوحيد: عبد الرحمن بن سعدى (ص ١١٥، ١١٦) ط٢/مؤسسة النور الرياض ١٣٩٠هـ
(٢) سورة النحل ، آية ٥٠ . (٣) سورة الأحزاب ، آية ٣٩ .
(٤) سورة المؤمنون ، آية ٥٧ ـ ٦١ . (٥) فتح القدير، الشوكاني ٤٨٨/٣ .

يا رسول الله : قول الله تعالى : (( والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة )) أهو الذي يزني ، ويشرب الخمر، ويسرق ، وهو مع ذلك يخاف الله ؟ قال : لا، يا ابنة الصديق ، ولكن الرجل يصوم ، ويتصدّق ، ويصلّي ، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه .(١)

كما أمر الله تبارك وتعالى بإخلاص هذه العبادة له في آيات كثيرة، منها : قوله تعالى :(( إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ))(٢)

قال الشوكاني في معنى الخوف من الله في الآية:(( أي فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه، لأني الحقيق بالخوف منّي ، والمراقبة لأمري ونهيي، لكون الخير والشر بيدي ))(٣)

ومنها قوله تعالى :(( فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ))(٤)

أما الرجاء فهو نوع من أنواع العبادة ، قال الله عزّ وجلّ :
(( فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ))(٥)

قال الشوكاني - رحمه الله - :

(( الرجاء : توقّع وصول الخير في المستقبل ، أي : من كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين ، ( فليعمل عملا صالحا ) وهو ما دل الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله ( ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ) من خلقه ، سواء كان صالحا أو طالحا ، حيوانا أو جمادا ))(٦)

وقد جمع الله سبحانه بين العبادتين الخوف والرجاء في قوله :
(( وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ))(٧)

---

(١) فتح القدير: ٤١١/٣ والحديث أخرجه أحمد في مسنده ١٥٩/٦،٢٠٥ والترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون ٣٠٦/٥ برقم (٣١٧٥)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب التوقي في العمل ١٤٠٤/٢ برقم (٤١٩٨)، والحاكم في المستدرك ٣٩٣/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وابن جرير في تفسيره ٣٣/١٨ . قال الألباني: وإسناد حديث عائشة رجاله كلهم ثقات (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٥٦/١ برقم ( ١٦٥ ) .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٧٥ . (٣) فتح القدير: الشوكاني ٤٠٠/١ .

(٤) سورة المائدة : آية ٤٤ . (٥) سورة الكهف : آية ١١٠ .

(٦) فتح القدير: الشوكاني ٣١٨/٣ . (٧) سورة الأعراف : آية ٥٦ .

قال الشوكاني :(( وفيه أنه يشرع للداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجلاً طامعاً في إجابة الله لدعائه ، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء ظفر بمطلوبه . والخوف : الانزعاج من المضار التي لا يؤمن من وقوعها ، والطمع : توقع حصول الأمور المحبوبة ))[١]

وفي قوله تعالى :

(( أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ، يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ، وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ))[٢]

قال الشوكاني في معنى الآية :(( أي يحذر عذاب الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، فيجمع بين الرجاء والخوف ، وما اجتمعا في قلب رجل إلا فاز ))[٣]

د ـ الاستعانة والاستغاثة[٤]

من أنواع العبادة الاستعانة ، وهي طلب العون على قضاء الحاجات، ودفع المكروهات .

قال الشوكاني :

(( الاستعانة بالنون : هي طلب العون ، ولا خلاف أنه يجوز أن يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه من أمور الدنيا ، كأن يستعين به على أن يحمل معه متاعه ، أو يعلف دابته ، أو يبلغ رسالته ، وأما ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله ، فلا يستعان فيه إلا به ))[٥] ومنه قوله تعالى :(( إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ))[٦]

قال ـ رحمه الله ـ :(( المعنى نخصك بالعبادة ، ونخصك بالاستعانة ، لا نعبد غيرك ولا نستعين ))[٧]

ومنه ما ورد في حديث وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس ـ

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ٢١٢/٢ وانظر أيضاً ١٩٢/٤ .

(٢) سورة الزمر : آية ٩ . (٣) فتح القدير : الشوكاني ٤٥٢/٤ .

(٤) قال أبو السعادات : الاغاثة : الاعانة ، فعلى هذا تكون الاستغاثة هي الاستعانة ، ولاريب أن من استغاثك فأغثته فقد أعنته ، إلا أن لفظ الاستغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة بخلاف الاستعانة ( تيسير العزيز الحميد :سليمان بن عبدالله ٢١٥ وانظر أيضاً : النهاية لابن الأثير ٣٩٢/٣ مادة : غوث ) .

(٥) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٦ .

(٦) سورة الفاتحة : آية ٥ . (٧) فتح القدير : الشوكاني ٢٢/١ .

- رضي الله عنهما - :(( اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله.
الحديث ))[1] وحديث أبي هريرة- رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(( ... احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ))[2]

أما الاستغاثة فهي طلب الغوث منه تعالى من جلب خير أو دفع شر، وهي نوع من أنواع العبادة التي لا تصحّ الا لله سبحانه وتعالى .

قال تعالى :(( إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ، فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ، أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ))[3]

يقول الشوكاني - رحمه الله - :

(( فاما الاستغاثة بالمعجمة والمثلثة فهي طلب الغوث ، وهو ازالة الشدّة ، كالاستنصار وهو طلب النصر، ولا خلاف أنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على الغوث فيه من الأمور، ولا يحتاج مثل ذلك الى استدلال ، فهو غاية الوضوح ، وما أظنّه يوجد فيه اختلاف ،ومنه :(( فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ))[4] وكما قال تعالى :(( وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ))[5] وأما ما لا يقدر عليه الا الله فلا يستغاث فيه الا به ، كغفران الذنوب ، والهداية ، وانزال المطر، والرزق ، ونحو ذلك ، كما قال تعالى :(( وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ))[6] وقال :(( إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ))[7] وقال :(( يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ))[8] وعلى هذا يحمل ما أخرجه الطبراني في معجمه الكبير أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين ، فقال أبو بكر -

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب رقم (٥٩) (٥٧٥/٤ برقم ٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده (٢٩٣/١، ٣٠٣، ٣٠٧) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٤٥٩/٣ برقم ٥٣٠٢) والسنة لابن أبي عاصم (١٣٨، ١٣٩ برقم ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨)

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز (٢٠٥٢/٤ برقم ٢٦٦٤ )

(٣) سورة الأنفال ، آية ٩ .

(٤) سورة القصص ، آية ١٥ .

(٥) سورة الأنفال ، آية ٧٢ .

(٦) سورة آل عمران ، آية ١٣٥ .

(٧) سورة القصص ، آية ٥٦ .

(٨) سورة فاطر، آية ٣ .

رضي الله عنه - : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : (( إنه لا يستغاث بي ، وانما يستغاث بالله ))[1] فمراده صلى الله عليه وسلم : أنه لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله ، وأما ما يقدر عليه المخلوق فلا مانع من ذلك ، مثل أن يستغيث المخلوق بالمخلوق ليعينه على حمل حجر ، أو يحول بينه وبين عدوه الكافر ، أو يدفع عنه سبعا صائلا ، أو لصا ، أو نحو ذلك ))[2]

قلت : ويمكن تفسير هذا الحديث بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقدر على أن يغيثهم من ذلك المنافق ، ولكنه كره صلى الله عليه وسلم أن يستعمل هذا اللفظ في حقه ، حماية لجناب التوحيد ، وسدّا لذرائع الشرك ، وأدبا وتواضعا لربه عزّ وجلّ ، وتحذيرا للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال ، فإذا كان هذا فيما يقدر عليه صلى الله عليه وسلم في حياته فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته ، ويطلب منه أمور لا يقدر عليها إلا الله عزّ وجلّ ؟[3]

هـ - الذبح

ومن أنواع العبادة الذبح نسكا لله تعالى ، من هدي ، وأضحية ، وعقيقة ، وغير ذلك .

قال تعالى : (( قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ . الآية ))[4]

(( والنسك : جمع نسيكة ، وهي الذبيحة ، أي ذبيحتي في الحج والعمرة )) حكاه الشوكاني عن جماعة من المفسّرين .[5]

وقال تعالى : (( فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ))[6]

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٥٩) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث .

(٢) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٥٠٤ .

(٣) انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد : عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ١٧٩ ، ١٨٠ تحقيق : محمد حامد الفقي .

(٤) سورة الأنعام : آية ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٥) انظر فتح القدير : الشوكاني ٢/١٨٥ .

(٦) سورة الكوثر : آية ٢ .

قال الشوكاني : (( قال محمد بن كعب [١] : إن ناساً كانوا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله ، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن تكون صلاته ونحره له .... وظاهر الآية الأمر له صلى الله عليه وسلم بمطلق الصلاة ومطلق النحر ، وأن يجعلهما لله عزّوجلّ لا لغيره .)) [٢]

وفي الحديث عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات ، منها : (( لعن الله من ذبح لغير الله )) [٣]

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ :

(( قال بعض أهل العلم : إن اراقة دماء الأنعام عبادة ، لأنها إما هدي ، أو اضحية ، أونسك ، وكذلك ما يذبح للبيع ، لأنه مكسب حلال ، فهو عبادة ، ويتحصل من ذلك شكل قطعي هو أن اراقة دماء الأنعام عبادة ، وكلّ عبادة لا تكون الا لله ، فاراقة دماء الأنعام لا تكون الا لله ، ودليل الكبرى (يعني العبادة) قوله تعالى :

(( اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ )) [٤]

(( فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ )) [٥]

(( إِيَّاكَ نَعْبُدُ )) [٦]

(( وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ )) [٧]

(( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ )) [٨] )) [٩]

و ـ التوكل

ومن أنواع العبادة التوكل على الله عزّوجلّ ، وهو اعتماد القلب عليه ،

---

(١) هو ابن سليم بن أسد أبو حمزة القرظي المدني ، وكان قد نزل الكوفة مدة ، ثقة عالم ، من الثالثة ، ولد سنة أربعين على الصحيح ، ومات سنة عشرين بعد المائة ، وقيل قبل ذلك ، أخرج له الجماعة ( التقريب لابن حجر ٥٠٤ برقم ٦٢٥٧)

(٢) فتح القدير : الشوكاني ٥/٥٠٢، ٥٠٣

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي ، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (٣/١٥٦٧ برقم ١٩٧٨ )

(٤) سورة الأعراف : آية ٥٩ وقد وردت الآية في عدة مواضع ، تقدم احصاؤها في صفحة ٢٠٤ هامش رقم (٥) .

(٥) سورة العنكبوت : آية ٥٦ . (٦) سورة الفاتحة : آية ٥ .

(٧) سورة الاسراء : آية ٢٣ . (٨) سورة البينة : آية ٥ .

(٩) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ١٧ .

وثقته به ، وأنه كافية ، وهو عبادة عظيمة تعبد الله به عباده ، وأمرهم بأن يعتمدوا عليه وحده دون سواه ، ولا يوفق القيام به على وجه الكمال الا أولياء الله وحزبه المؤمنون .

وقد فرض الله عزّ وجلّ على عباده، حيث أمر به في مواضع عديدة من كتابه العزيز:

قال تعالى :(( وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ))(١)

وقال تعالى :(( وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ))(٢)

وقال تعالى :(( وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الذِي لاَ يَمُوتُ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيْرًا ))(٣)

وقال تعالى :(( فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِيْنَ ))(٤)

وقال تعالى ـ حكاية عن الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ :(( وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ ، وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ))(٥)

قال الشوكاني في معنى الآية :

(( أي عليه وحده ، وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه ، وكأن الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصدا أوليّا ، ولهذا قالوا :( ومالنا ألا نتوكل على الله ) أي وأيّ عذر منا في ألا نتوكل عليه سبحانه ( وقد هدانا سبلنا ) أي والحال أنه قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه من هدايتنا الى الطريق الموصل الى رحمته ، وهو ما شرعه لعباده ، وأوجب عليهم سلوكه ( ولنصبرنّ على ما آذيتمونا ) بما يقع منكم من التكذيب لنا والاقتراحات الباطلة ، ( وعلى الله ) وحده دون من عداه ( فليتوكل المتوكلون ) والمراد بالتوكل الأول استحداثه ، وبهذا السعي في بقائه وثبوته ))(٦)

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٢٢ .
(٢) سورة المائدة : آية ٢٣ .
(٣) سورة الفرقان : آية ٥٨ .
(٤) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .
(٥) سورة ابراهيم : آية ١١، ١٢ .
(٦) فتح القدير : الشوكاني ٩٨/٣ .

وقال تعالى في مدح عباده المؤمنين : (( الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ))(١)

ومعنى الوكيل كما قال الشوكاني : هو من توكل اليه الأمور، أي نعم الموكول اليه أمرنا ، أو الكافي ، أو الكافل ، الله سبحانه .(٢)

و مثله قوله تعالى : (( وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ))(٣)

(( أي اعتمد عليه، وفوّض أمرك اليه ، وكفى به حافظا يحفظ من توكل عليه ))(٤)

وفي الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (( لو أنّكم تتوكّلون على الله تعالى حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تَغْدُو خِمَاصًا، وتروح بِطَانًا ))(٥)

وقد قرّر الشوكاني ـ رحمه الله ـ أنّ التوكل لا يتمّ إلا بالعمل بالأسباب، فالعمل بالأسباب لا ينافي التوكل ، ولا يقدح فيه كما زعمه بعض الناس . واستدلّ بأحاديث كثيرة .(٦) منها :

حديث جابر ( رضي الله عنه ) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(( لكل داء دواء ، فاذا أصيب دواء الداء برئ باذن الله تعالى ))(٧)

و حديث أبي خزامة ( رضي الله عنه ) قال :(( يا رسول الله أرأيت رُقًى نَسْتَرْقِيهَا ، ودواءً نتداوى به، وتُقَاةً نَتَّقِيهَا ، هل تَرُدُّ من قدر الله شيئا ؟ قال : هي من قدر الله ))(٨)

قال الشوكاني ـ بعد سرد الأحاديث في الموضوع ـ :

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٧٣ . (٢) فتح القدير: الشوكاني ٤٠٠/١ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٣ . (٤) فتح القدير: الشوكاني ٢٦٠/٤ .

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٣٠/١ والترمذي في كتاب الزهد باب في التوكل على الله (٤٩٥/٤ برقم ٢٣٤٤) وقال :هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه في كتاب الزهد ،باب التوكل واليقين (١٣٩٤/٢ برقم ٤١٦٤) والحاكم في المستدرك (٣١٨/٤) وقال :هذا حديث صحيح الاسناد ، ووافقه الذهبي وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٧/١ برقم ٣١٠) ومعنى:تغدو خماصا وتروح بطانا :أي: تغدو بكرة وهي جياع ،وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف ( النهاية لابن الأثير ٨٠/٢ مادة :(خمص) .

(٦) أنظر: نيل الأوطار ، الشوكاني ١٣١/١٠، ١٣٢ ( باب اباحة التداوي وتركه ) .

(٧) أخرجه مسلم في كتاب السلام باب لكل داء دواء واستحباب التداوي (١٧٢٩/٤ برقم ٢٢٠٤ ) .

(٨) تقدم تخريجه في صفحة ( ١٦٩ ) .

(( وفي أحاديث الباب كلها اثبات الأسباب ، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها باذن الله وبتقديره ، وأنها لا تنجع بذواتها ، بل بما قدره الله فيها ، وأن الدواء قد ينقلب داء اذا قدر الله ذلك ، واليه الاشارة في حديث جابر ( المذكور ) حيث قال : باذن الله . فمدار ذلك كله على تقدير الله وارادته ، والتداوي لا ينافي التوكل ، كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب ، وكذلك تجنب المهلكات ، والدعاء بالعافية ، ودفع المضار ، وغيرذلك ))(1)

وقال ـ رحمه الله ـ :

(( والحق أن من وثق بالله ، وأيقن أن قضاءه عليه ماض ، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب ، اتباعا لسنته ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقدظاهر صلى الله عليه وسلم بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر ، وأقعد الرماه على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة الى الحبشة ، والى المدينة ، وهاجر هو ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادّخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهوكان أحق الخلق أن يحصل له ذلك ، وقال للذى سأله : أيعقل ناقته أو يتوكل ؟ : اعقلها وتوكل .(2) فأشار الى أن الاحتراز لا يدفع التوكل ))(3)

وعلى هذا فان العبد مأمور بالأخذ بالأسباب ، مع التوكل على الله عزّوجل ، والايمان أن الأسباب لا تعطي النتائج الا باذن الله سبحانه وتعالى . فالالتفات الى الأسباب ، واعتبارها مؤثرة في المسببات شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل ، والاعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع،

---

(1) نيل الأوطار ، الشوكاني ١٣٢/١٠ .

(2) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ،باب رقم (٦٠) (٥٧٦/٤ برقم ٢٥١٧ ) وقال : هذا حديث غريب من حديث أنس لانعرفه الا من هذا الوجه ،وقال يحيى القطان :وهذا عندى حديث منكر ،وأخرجه ابن حبان في كتاب الرقائق باب الورع والتوكل (٥١٠/٢ برقم ٧٣١ ) والبيهقي في شعب الايمان (٨٠/٢ برقم ١٢١٢) والحاكم في المستدرك (٦٢٣/٣) بلفظ: قَيِّدْهَا وتوكل.وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) :رواه الطبراني باسنادين،وفي أحدهما عمرو بن عبدالله بن أمية الضمري ولم أعرفه ،وبقية رجاله ثقات،ولفظ الطبراني:قيدها وتوكل وقال الزرقاني في مختصر المقاصد صفحة ١١ برقم (١١٣) : صحيح من حديث عمرو بن أمية الضمرى ضعيف من حديث أنس.والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ٢٤٢/١ برقم ( ١٠٦٨ ) .

(3) نيل الأوطار ، الشوكاني ١٣٣/١٠، ١٣٤ .

فعلى العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب ، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة .(١)

وغير ذلك من أنواع العبادة التي شرعها الله لعباده ، والتي لا تخرج عن التعريف السابق بأنّ العبادة اسم جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، وأنّ مناطها الذي لا قوام لها إلا به هو كمال الحبّ وغايته ، مع غاية الذّل ، ولا تسمّى عبادة إلا مع ذلك كلّه .

## المبحث الرابع : التوسّل وأنواعه وكلام الشوكاني عليه .

### معنى التوسّل

التوسّل من الوسيلة ،ومعنى الوسيلة : القربة والواسطة ، قال ابن الأثير(٢):(( هي في الأصل: ما يتوصّل به إلى الشيء ويتقرّب به ،وجمعها : وسائل،يقال: وسل إليه وسيلة ،وتوسّل .))(٣)

وقال الأصفهاني:(( الوسيلة : التوصّل إلى الشيء برغبة ، وهي أخصّ من الوصيلة ، لتضمّنها لمعنى الرغبة ،قال تعالى:(( وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ))(٤) ،وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى: مراعاة سبيله بالعمل والعبادة ،وتحرّي مكارم الشريعة ،وهي كالقربة ،والواسل: الراغب إلى الله تعالى .))(٥)

وقد ورد لفظ الوسيلة في القرآن الكريم في قوله تعالى:

(( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ، وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ))(٦) وقوله تعالى:

(( أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ))(٧)

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في بيان معنى الوسيلة في الآية :

---

(١) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٥٢٨/٨) .
(٢) أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير ،قرأ الحديث والعلم والأدب ،وكان ورعاً ذا برّ وإحسان ،له مؤلفات كثيرة منها: النهاية في غريب الحديث ،وجامع الأصول ،توفي (٦٠٦ هـ)( مفتاح السعادة :طاش كبرى زادة ١٢٤/١ ، ١٢٥ ،وشذرات الذهب : ابن العماد ٢٢/٥ ،٢٣) .
(٣) النهاية لابن الأثير(١٨٥/٥ مادة :وسل) . (٤) سورة المائدة : آية ٣٥ .
(٥) المفردات للراغب الأصفهاني(ص ٥٢٣ ،٥٢٤ مادة :وسل)
(٦) سورة المائدة : آية ٣٥ . (٧) سورة الإسراء : آية ٥٧ .

(( والوسيلة : فعيلة من توسّلت اليه : اذا تقرّبت اليه ... فالوسيلة : القربة التي ينبغي أن تطلب .))[1]

وقال في الآية الثانية :(( والوسيلة : القربة بالطاعة والعبادة ، أي يتضرّعون الى الله في طلب ما يقرّبهم الى ربّهم .))[2]

وبهذا المعنى فسّر أئمة المفسّرين لفظ الوسيلة في الآية .[3]

وهناك معنى آخر للوسيلة بيّنه الشوكاني ، وهو المنزلة العلية .[4] كما ورد في الحديث تسمية أعلى منزلة في الجنّة بها .

قال ـ رحمه الله ـ :(( والوسيلة أيضا درجة في الجنّة مختصّة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر ( رضي الله عنه ) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(( من قال حين يسمع النداء : اللهمّ ربّ هذه الدعوة التامّة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته ، الا حلّت له الشفاعة يوم القيامة ))[5]

وفي صحيح مسلم بلفظ :(( اذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلّوا عليّ ، فانّه من صلّى عليّ صلاة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فانّها منزلة في الجنّة ، لا تنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة ))[6]

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ( ٣٨/٢ ) .

(٢) المصدر السابق ( ٢٣٧/٣ ) ، وانظر أيضا : تحفة الذاكرين له (١٢٥) ، ونيل الأوطار له ( ١٠٧/٢ ) .

(٣) انظر : تفسير الطبري (٢٢٦/٦) ، وزاد المسير لابن الجوزي (٣٤٨/٢) ، والتفسير الكبير لابن تيمية (١٤/٤) ، وتفسير ابن كثير (٥٥/٢) ، وأيضا فتح القدير للشوكاني ( ٣٨/٢ ) قال ـ رحمه الله ـ : وبه قال أبو وائل ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد ، وروي عن ابن عباس ، وعطاء ، وعبد الله بن كثير . قال ابن كثير في تفسيره : وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسّرين فيه .

(٤) انظر نيل الأوطار : الشوكاني (١٠٧/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأذان ، باب الدعاء عند النداء ( الفتح ١١٢/٢ برقم ٦١٤) ولفظه : حلّت له شفاعتي يوم القيامة . وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في الدعاء عند الأذان (٣٦٢/١ برقم ٥٢٩) ، والترمذي في أبواب الصلاة ، باب (١٥٧)(٤١٣/١ برقم ٢١١) والنسائي في كتاب الأذان ، باب الدعاء عند الأذان (٢٧/٢ برقم ٦٨٠) ، وابن ماجه في كتاب الأذان (٢٣٩/١ برقم ٧٢٢) ، وأحمد في المسند (٣٥٤/٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٤١٠/١)

(٦) فتح القدير : الشوكاني (٣٨/٢) ، وأورد هذا الحديث أيضا في تحفة الذاكرين (١٢٥ ) والحديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة ، باب استحباب القول مثل قول المؤذّن (٢٨٨/١) ===

قال الشوكاني: (( والظاهر أنّ الوسيلة التي هي القربة تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير التي يتقرّب العباد بها الى ربّهم. ))[1]

فلا يتقرّب العباد الى ربّهم إلا بما شرعه الله تعالى في كتابه، أو بيّنه رسوله في سنّته، لأنّه لا يعلم كون الشيئ وسيلة أو غير وسيلة إلا من طريق الشرع، فمن جعل شيئا من الأمور وسيلة يتقرّب بها الى الله في قبول دعائه بدون دليل من الشرع فقد قال على الله ما لا يعلم، اذ كيف يدري أنّ ما جعله وسيلة مما يرضاه الله تعالى ويكون سببا في قبول دعائه ؟ وقد أنكر الله تعالى على من اتّبع شرعا بدون اذنه وجعله من الشرك، اذ قال: (( أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ))[2]

وعلى هذا فلا بدّ لأيّ وسيلة يتوسّل بها العبد الى ربّه من دليل صحيح من الكتاب والسنّة.

أنواع التوسّل

التوسّل قسمان: القسم الأوّل: أن يكون بوسيلة جاءت بها الشريعة.

وأنواعه ثلاثة، أذكرها فيما يلي :-

الأوّل: التوسّل الى الله بأسمائه وصفاته، فيتوسّل العبد الى ربّه تعالى بذكر اسم من أسمائه المقتضية لمطلوبه، أو صفة من صفاته المقتضية له، كأن يقول في دعائه: أللهمّ يا رحيم ارحمني، ويا غفور اغفرلي، ويا كريم أكرمني، ونحو ذلك.

والدليل على مشروعيته قوله تعالى: (( وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ))[3]

ولا شكّ أنّ صفاته العليا عزّ وجلّ داخلة في هذا الأمر، لأنّ أسماءه الحسنى متضمّنة لمعاني الصفات كما سيأتي بيانه[4]، فهي صفات له سبحانه.

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال في أحد أدعيته الثابتة عنه:

---

=== برقم (١١)، وأبوداود في كتاب الصلاة باب ما يقول اذا سمع المؤذن (٣٥٩/١ برقم ٥٢٣)، والترمذي في كتاب المناقب باب فضل النبي صلى الله عليه وسلم (٥٤٧/٥ برقم ٣٦١٤)، والنسائي في كتاب الأذان باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان (٢/ ٢٥ برقم ٦٧٨)، وأحمد في المسند (١٦٨/٢، ٢٦٥، ٣٦٥)

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣٨/٢). (٢) سورة الشورى: آية ٢١.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٨٠. (٤) انظر صفحة (٢٨٣، ٢٨٧، ٢٨٨).

(( اللّهمّ بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفّني اذا كانت الوفاة خيرا لي ... ))(١)

الثاني : التوسّل الى الله تعالى بالأعمال الصالحة التي قام بها الداعي، كأن يقول: اللهمّ بإيماني بك،ومحبّتي لك، واتباعي لرسولك،اغفرلي ،ونحوذلك .

ومنه أن يذكرالداعي عملا صالحا ذا بال كان يعمله طاعة لله واخلاصا لوجهه الكريم ، فيتوسّل به الى الله في دعائه ،ليكون أرجى لقبوله واجابته .

والدليل على مشروعيته قوله تعالى :

(( الذينَ يَقولونَ رَبّنا إنّنا آمنّا،فاغفِرلَنا ذُنوبَنا،وقِنا عَذابَ النارِ ))(٢)

وقوله عن الحواريين :

(( رَبّنا آمنّا بِما أنزلتَ،واتّبعنا الرسولَ،فاكتُبنا معَ الشاهِدينَ ))(٣)

وفي الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(( يا فلان، اذا أويت الى فراشك فقل: اللهمّ أسلمت نفسي اليك، ووجّهت وجهي اليك، وفوّضت أمري اليك، وألجأت ظهري اليك، رغبة ورهبة اليك، لا ملجأ ولامنجا الا اليك،آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيّك الذي أرسلت، فانّك ان متّ في ليلتك متّ على الفطرة ، وان أصبحت أصبت أجرا . ))(٤)

ويدلّ على هذا النوع من التوسّل ما ورد في قصّة أصحاب الغار ،كما يرويها عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ،وهي قصّة طويلة مضمونها كالآتي:

(( انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلنا حتى أووا المبيت الى غار ،فدخلوه ،فانحدرت

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب السهو ،باب الدعاء بعد الذكر (٣/٥٤،٥٥ برقم ١٣٠٥،١٣٠٦) ، والحاكم في المستدرك(١/٥٢٤) وصحّحه ،ووافقه الذهبي.قال الألباني: واسناده جيّد. (انظر مشكاة المصابيح ٢/٧٧٠ برقم ٢٤٩٧) .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٦ . (٣) سورة آل عمران : آية ٥٣ .

(٤) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب التوحيد ،باب قول الله تعالى:أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ( الفتح ١٣/٤٧١ برقم ٧٤٨٨)وانظرمواضع وروده في (١/٤٢٦ برقم ٢٤٧) ومسلم في كتاب الذكروالدعاءوالتوبة والاستغفار ،باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع. (٤/٢٠٨١،٢٠٨٢ برقم ٢٧١٠) ،والترمذي في كتاب الدعوات،باب(١١٧) (٥/٥٢٩ برقم ٣٥٧٤) وأحمد في المسند ( ٤/٢٨٥،٢٩٠،٢٩٢،٢٩٩،٣٠٠،٣٠٢ )

صخرة من الجبل، فسدّت عليهم الغار، فقالوا : إنّه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، فقال رجل منهم : اللهمّ كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبُقُ قبلهما أهلا ولا مالا[1]، فنأى بي في طلب شيئ يوما ، فلم أرِحْ عليهما [2] حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت والقدح على يديّ، أنتظر استيقاظهما، حتى برق الفجر، فاستيقظا، فشربا غبوقهما، اللهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرّجْ عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج . وقال الآخر : اللهمّ كانت لي بنت عمّ كانت أحبّ الناس اليّ ، فأردتها عن نفسها، فامتنعت منّي، حتى أَلَمَّتْ بها سنة [3] من السنين، فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تخلّي بيني وبين نفسها، ففعلت ، حتى اذا قدرت عليها قالت: لا أحلّ لك أن تفضّ الخاتم إلا بحقّه ، فتحرّجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحبّ الناس اليّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنّا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنّهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهمّ انّي استأجرت أُجَراء، فأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ، ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره حتّى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبدالله ، أدِّ اليّ أجري، فقلت له : كلّ ما ترى من أجرك، من الابل، والبقر، والغنم، والرقيق، فقال : يا عبدالله ، لا تستهزئ بي ، فقلت: انّي لا أستهزئ بك ، فأخذه كلّه ، فاستاقه ، فلم يترك منه شيئا، اللهمّ فان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنّا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون .))[4]

ويتضح من هذه القصّة أنّ هؤلاء الثلاثة توسّلوا الى الله بصالح أعمالهم حينما

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٣/٣٤١ مادة غبق) أي ما كنت أقدم عليهما أحدا في شرب نصيبهما من اللبن الذي يشربانه والغبوق: شرب آخر النهار، مقابل الصَّبوح .

(٢) وقد بيّن هذا ما في رواية مسلم (٤/٢٠٩٩) من طريق أبي ضمرة، ولفظه : وأنّه نأى بي الشجر. والمراد أنّها استطرد مع غنمه في الرعي الى أن بعد عن مكانه زيادة على العادة، فلذلك أبطأ. ( عن الفتح ٦/٥٨٧) والمراح بالضمّ: الموضع الذي تروح اليه الماشية ( النهاية لابن الأثير ٢/٢٧٣ مادة روح) والمعنى: لم أردّ الماشية من المرعى الى حظائرها .

(٣) أي سنة قحط . ( الفتح ٦/٥٨٨)

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الاجارة، باب من استأجر أجيرا فترك أجره ( الفتح ٤/٥٢٥ برقم ٢٢٧٢) واللفظ له، وأخرجه أيضا برقم (٣٤٦٥، ٥٩٧٤)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصّة أصحاب الغار الثلاثة والتوسّل بصالح الأعمال ( ٤/٢٠٩٩ برقم ٢٧٤٣ ) .

اشتدّ بهم الكرب ، فأجاب الله دعاءهم ، وفرّج عنهم الكرب، فالقصّة تحمل معنيين عظيمين ، أحدهما : مشروعية التوسّل الى الله بالأعمال الصالحة ، وثانيهما : فضل الاخلاص العمل لله وحده ، لأنّ تلك الأعمال الثلاثة لو لم تكن خالصة لوجه الله لما تقبّلها الله ، ولما أجاب دعوة أصحابها .

الثالث : التوسّل الى الله تعالى بدعاء من ترجى اجابته من أهل الصلاح والتقوى، أو أهل الفضل والعلم بالكتاب والسنة .

وقد وردت أمثلة من هذا النوع في السنة الشريفة ، كما وقعت نماذج منه من فعل الصحابة رضوان الله عليهم .

فمن ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه أنّ رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فاستقبل رسولَ الله صلى الله صلى الله عليه وسلم قائما فقال : يا رسول الله ، هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا ، قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ،فقال : اللهمّ اسقنا ، اللهمّ اسقنا ، اللهمّ اسقنا ، قال أنس : ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزعةً (١) ولاشيئًا، وما بيننا وبين سلع (٢) من بيت ولا دار (٣)، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلمّا توسّطت السماء انتشرت،ثم أمطرت،قال : والله ما رأينا الشمس سَبْتًا (٤)، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فاستقبله قائما ،فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها ،قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ، ثم قال : اللهمّ حوالينا ولا علينا ، اللهمّ على الآكام والظِّراب (٥) والأودية ،ومنابت

---

(١) أي قطعة من الغيم ،وجمعها :قزع ( النهاية لابن الأثير ٥٩/٤ مادة : قزع )

(٢) جبل معروف بقرب المدينة

(٣) أي يحجبنا من رؤيته ،وأشار بذلك الى أنّ السحاب كان مفقودا لامستترا ببيت ولاغيره . ( الفتح ٥٨٥/٢ )

(٤) والمراد به الأسبوع ،من السبت الى السبت،وهو من تسمية الشيئ باسم بعضه كما يقال :عشرون خريفا،ويراد عشرون سنة ( انظر النهاية لابن الأثير ٣٣١/٢ مادة : سبت )

(٥) فيه بيان المراد بقوله :(حوالينا ) ،والإكام بالكسر جمع أَكمة وهي الرابية (أي ما ارتفع من الأرض) وتجمع إِكام على أكم ،والأُكم على آكام ( النهاية لابن الأثير ٥٩/١ مادة :أكم ) والظراب : الجبال الصغار ،واحدها ظَرِب بوزن كَتِف ( المصدر السابق ١٥٦/٣ مادة :ظرب).

الشجر، قال: فانقطعت ، وخرجنا نمشي في الشمس ، قال شريك[1]: فسألت أنساً: أهو الرجل الأوّل ؟ قال: لا أدري .))[2]

هكذا كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يطلبون من الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته أن يدعو لهم ، ولمّا انتقل صلى الله عليه وسلم الى ربّه ولم يعد من الممكن أن يدعو لهم ،عدلوا عن التوسّل به أي عن طلب الدعاء منه الى طلب الدعاء بعضهم من بعض، كما رواه أنس رضي الله عنه : أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان اذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال : اللهمّ انّا كنّا نتوسّل اليك بنبيّنا صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وانّا نتوسّل اليك بعمّ نبيّنا فاسقنا ، قال: فيسقون .[3]

ومعنى قول عمر: ( وانّا نتوسّل اليك بعمّ نبيّنا ) أي بدعائه وشفاعته لا بذاته ، وهو من نوع توسّل المؤمن بدعاء أخيه المؤمن ، وقد روى الحافظ ابن حجر في الفتح[4] صيغة الدعاء الذي دعا به العباس رضي الله عنه ،قال :

((وقد بيّن الزبير بن بكار[5] في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة ، والوقت الذي وقع فيه ذلك ، فأخرج باسناده أنّ العبّاس لمّا استسقى به عمر قال: (( اللهمّ انّه لم ينزل بلاء الا بذنب ، ولم يكشف الا بتوبة ،وقد توجّه القوم بي اليك، لمكاني من نبيّك ، وهذه أيدينا اليك بالذنوب ، ونواصينا اليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث )) فأرخت السماء مثل الجبال،حتى أخصبت الأرض ، وعاش الناس . ))

ومثل ما فعل عمر فعل معاوية بن أبي سفيان بحضرة من معه من الصحابة والتابعين

---

(١) أي شريك بن عبد الله راوي الحديث .

(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الاستسقاء،باب الاستسقاء في المسجد الجامع( الفتح ٥٨١/٢ برقم ١٠١٣ )وأخرجه أيضا برقم (١٠١٤ ـ ١٠١٩ )بعضها مطوّل وبعضها مختصر. ومسلم في كتاب صلاة الاستسقاء،باب الدعاء في الاستسقاء(٦١٢/٢ ـ ٦١٤ برقم ٨٩٧ )وغيرهما .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء،باب سؤال الناس الامام الاستسقاء اذا قحطوا ( الفتح ٥٧٤/٢ برقم ١٠١٠ )وأيضا في كتاب فضائل الصحابة،باب ذكر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه (٦٦/٧برقم ٣٧١٠ )وابن سعد في طبقاته (٢٨/٤،٢٩ )والبيهقي في السنن الكبرى( ٨٨/٣)

(٤) (٥٧٧/٢ )،ونقل عنه الشوكاني في نيل الأوطار (٢٠٥/٤ ).

(٥) الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب،أبو عبد الله ،قاضي المدينة ،ثقة ،أخطأ السليماني في تضعيفه ،من صغار العاشرة ،مات ( ٢٥٦ هـ) روى له ابن ماجة ( انظر: التقريب لابن حجر ٢١٤ برقم ١٩٩١ ،ولسان الميزان له ٤٧٣/٢، وميزان الاعتدال للذهبي ٢٥٦/٢ برقم ٢٨٣٠ ) .

ـ لمّا أجدب الناس بالشام ـ حيث استسقوا بيزيد بن الأسود الجرشي[١] وتوسّلوا به كما توسّل عمر بالعباس ، فقال ـ أي معاوية ـ : " اللهمّ إنّا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا ، اللهمّ إنّا نستشفع إليك اليوم بيزيد بن الأسود الجرشي ، يا يزيد ارفع يديك إلى الله ." فرفع يديه ، ورفع الناس أيديهم ، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنّها ترس ، وهبت لها ريح ، فسقتنا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم .

وروي مثل هذا الاستسقاء بيزيد من الضحاك بن قيس الفهري .[٢]

وقد تبين من هذه الأمثلة أنّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يتوسّلون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويستسقون به حال حياته ، فلمّا توفّي صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى الرفيق الأعلى ، عدلوا عنه وتوسّلوا بغيره ، كما توسّل عمر بعمّه العباس ، وتوسّل معاوية والضحاك بيزيد بن الأسود ، وهذا دليل واضح على أنّ توسّلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم إنّما هو بدعائه وشفاعته ، ولم يكن بذاته ولا بجاهه ، إذ لو كان كذلك لما عدلوا عنه إلى غيره ، لأنّه أولى وأفضل من العبّاس ويزيد ومن غيرهما بل أفضل الخلق أجمعين ، وهذا لا يخفى على أحد منّا فضلا عن الصحابة ، ولأنّ جسده الشريف لم يزل ولن يزال محفوظا في قبره إلى يوم البعث ، كما ثبت في الحديث[٣] ، وأنّ جاهه ومنزلته وكرامته على الله لم ينقص من ذلك شيئ بوفاته ، لكنّهم عدلوا عن التوسّل بها إلى التوسّل

---

(١) يزيد بن الأسود الجرشي ، من سادة التابعين بالشام ، أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، توفّي (٧١ هـ) ( انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء : الذهبي ١٣٦/٤ ، ١٣٧ والبداية والنهاية : ابن كثير ٣٢٤/٨ )

(٢) روى أبو زرعة الدمشقي استسقاء معاوية والضحاك بيزيد بن الأسود في تاريخه (٦٠٢/١ برقم ١٧٠٢ ـ ١٧٠٤) ، وابن سعد في طبقاته (٤٤٤/٧) ، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣٨٠/٢ ـ ٣٨١) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢٢/١٨ ـ ١٢٤) ، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣٦ ، ١٣٧) ، وابن حجر في الاصابة (٣٥٨/٦ ، ٣٥٩) قال الألباني : وإسناده صحيح . ( التوسّل أنواعه وأحكامه ص ٤٥ ) . والضحّاك بن قيس بن خالد بن وهب الفهري ، أبو أنيس ، الأمير المشهور ، صحابي صغير ، قتل في وقعة مرج راهط سنة ٦٤ هـ ( من التقريب لابن حجر ٢٧٩ برقم ٢٩٧٦ )

(٣) ثبت في الحديث الصحيح : (( إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام )) أخرجه أحمد في المسند (٨/٤) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (٦٣٥/١ برقم ١٠٤٧) ، والنسائي في كتاب فضل يوم الجمعة ، باب إكثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة (٩٢/٣ برقم ١٣٧٤) ، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة ، باب في فضل الجمعة (٣٤٥/١ برقم ١٠٨٥) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٧٨) وصحّحه ، ووافقه الذهبي من حديث أوس بن أوس ، وصحّحه النووي في الأذكار ١٧٢ تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط . وفي الباب عن أنس رضي الله عنه صحّحه الألباني في

بغيره ، لأنّهم عرفوا أنّ التوسّل بذاته أمر غير مشروع ، وأنّ معنى التوسّل به هو طلب الدعاء منه عليه الصلاة والسلام ، وأن ليس في امكان أيّ أحد أن يذهب الى الرسول بعد وفاته ، ليشكو اليه حاله ، ويطلب منه دعاءه ، كما كان يفعل ذلك في حياته في الدنيا ، لأنّه انتقل الى الحياة البرزخية التي لا يعلم حقيقتها الا الله .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

(( وأمّا التوسّل بدعائه ( صلى الله عليه وسلم ) وشفاعته ـ كما قال عمر ـ فانّه توسّل بدعائه لا بذاته ، ولهذا عدلوا عن التوسّل به الى التوسّل بعمّه العبّاس ، ولو كان التوسّل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسّل بالعباس ، فلمّا عدلوا عن التوسّل به الى التوسّل بالعبّاس علم أنّ ما يفعل في حياته قد تعذر بموته ، بخلاف التوسّل الذي هو الايمان به والطاعة له ، فانّه مشروع دائما ، فلفظ التوسّل يراد به ثلاث معان :

أحدها : التوسّل بطاعته ، فهذا فرض لا يتمّ الايمان الا به .

والثاني : التوسّل بدعائه وشفاعته ، وهذا كان في حياته ، ويكون يوم القيامة يتوسّلون بشفاعته .

والثالث : التوسّل به بمعنى الاقسام على الله بذاته ، والسؤال بذاته ، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لا في حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيئ من الأدعية المشهورة بينهم ، وانّما ينقل شيئ من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة ، أو عن من ليس قوله بحجّة . ))[1]

قلت : وهذا المعنى الأخير داخل في القسم الثاني من التوسّل ، وهو القسم الممنوع ، وهو نوعان :

أحدهما : أن يكون بوسيلة أبطلها الشرع ، كتوسّل المشركين بآلهتهم بالدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والطمع ، ونحو ذلك من أنواع العبادة ، كما قال تعالى عنهم : (( وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ))[2] . وهذا النوع حكمه

---

=== سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٨٧/٢ ـ ١٩٠ برقم ٦٢١) ===

(١) قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة : ابن تيمية ٨٢ تحقيق د/ ربيع بن هادي المدخلي .

(٢) سورة الزمر : آية ٣ .

شرك بالله عزّ وجل .

والثاني : أن يكون بوسيلة لم يرد فيها دليل من الشرع ، وهذا توسّل بدعي محرّم وسيلة الى الشرك بالله ، كالتوسّل الى الله بذوات الملائكة ، والنبيين ، والصالحين ، وسؤال الله بحقهم ، أو جاههم ، أو حرمتهم ، أو مقامهم ، أو نحو ذلك ، فيقول مثلاً : اللهمّ إنّي أسألك بحق نبيّك ، أو أنبيائك ، أو بجاه فلان ، أو حرمته ، أن تقضي حاجتي ، أو نحو هذا ، فهذا لا يجوز ، لأنّه لم يرد ذلك عن الصحابة ، ولا عن أحد من سلف الأمّة ، وسيأتي تفصيله عند الكلام عن رأي الشوكاني فيه ان شاء الله .

رأي الشوكاني في التوسّل بالدعاء

رأى الشوكاني – رحمه الله – جواز التوسّل الى الله بالدعاء ، أي دعاء أهل الفضل والصلاح والتقوى ، من الأنبياء والصالحين ، واستدلّ على ذلك بأدلة كثيرة :

فقال في الحديث الصحيح الذي ورد بأنّ الخلائق يوم القيامة يأتون آدم فيدعونه ، ويستغيثونه ، ثم نوحا ، ثم ابراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم محمدا صلى الله عليه وسلم ، وسائر اخوانه من الأنبياء[1] . ما نصّه :

(( أهل المحشر انّما يأتون هؤلاء الأنبياء يطلبون منهم أن يشفعوا لهم الى الله سبحانه ، ويدعوا لهم بفصل الحساب ، والإراحة من ذلك الموقف ، وهذا جائز ، فانّه من طلب الشفاعة والدعاء المأذون فيهما ، وقد كان الصحابة يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته أن يدعو لهم ، كما في حديث : ( يا رسول الله ادع الله

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب : ذرّية من حملنا مع نوح انّه كان عبدا شكورا . ( الفتح ٢٤٧/٨ برقم ٤٧١٢ ) وأخرجه أيضا برقم (٣٣٤٠) بدون ذكر ابراهيم وموسى وعيسى . وبرقم (٣٣٦١ ، ٧٤١٠ ، ٧٥١٠) . من حديث طويل معروف بحديث الشفاعة . ومسلم في كتاب الايمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . (١٨٤/١ – ١٨٧ برقم ١٩٤ ، ١٩٥) كلّها بدون ذكر : ( وسائر اخوانه من الأنبياء ) ولعلّ الشوكاني أخذه من الروايات الأخرى ، ولم أقف عليها الّا ما روى البخاري موقوفا على ابن عمر رضي الله عنهما قال : (( انّ الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا ، كل أمّة تَتْبَعُ نبيّها ، يقولون : يا فلان اشفع لنا ، حتى تنتهي الشفاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود )) ( انظر الفتح ٢٥١/٨ برقم ٤٧١٨ ) ورفعه ابن جرير في تفسيره ( ١٤٦/١٥ ) .

أن يجعلني منهم . لمّا أخبرهم بأنّه يدخل الجنّة سبعون ألفا .)[1]، وحديث: ( سبقك بها عكاشة )[2]، وقول أمّ سليم : ( يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له . )[3] وقول المرأة التي كانت تصرع: ( يا رسول الله ادع الله لي ) وآخر الأمر أنّها الدعاء بأن لا تنكشف عند الصرع، فدعا لها .[4] ومنها إرشاده صلى الله عليه وسلم لجماعة من الصحابة بأن يطلبوا الدعاء من أويس القرني إذا أدركوه .[5] ومنه ما ورد في دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب .[6] وغير ذلك مما لا يحصى ، حتى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر لمّا خرج معتمرا :( لا تنسني يا أخي من دعائك )[7] فمن جاء إلى رجل صالح، واستمدّ منه أن يدعو له ، فهذا ليس من ذلك الذي يفعله المعتقدون في الأموات ، بل هو سنّة حسنة ، وشريعة ثابتة ، وهكذا طلب الشفاعة ممن جاءت الشريعة المطهّرة بأنّه من أهلها ، كالأنبياء، ولهذا يقول الله لرسوله يوم القيامة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب البرود والحبرة والشملة ( الفتح ٢٨٧/١٠ برقم ٥٨١١)وأخرجه أيضا برقم (٦٥٤٢) ،ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (١٩٧/١ برقم ٢١٦ ـ ٢١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب ( انظر الفتح ٤١٣/١١ برقم ٦٥٤١،٦٥٤٢) ،ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب(١٩٧/١ برقم ٢١٦،٢١٨) .ومضمون الحديث: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يدخل الجنة من أمّتي زمرة هم سبعون ألفا،فقام إليه عكاشة بن محصن الأسدي،فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ،فقال: اللهمّ اجعله منهم ،ثم قام إليه رجل آخر،فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ،فقال: سبقك بها عكاشة .

(٣) وتمام الحديث:فقال صلى الله عليه وسلم : اللهمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته . أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الدعوات، باب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله ( الفتح ١٤٦/١١ برقم ٦٣٤٤) ،ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه (١٩٢٨/٤ برقم ٢٤٨٠)

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح ( انظر الفتح ١١٤/١٠برقم ٥٦٥٢) ،ومسلم في كتاب البر، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن(١٩٩٤/٤ برقم ٢٥٧٦) ،وأحمد في المسند (٣٤٧/١) .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ،باب فضائل أويس القرني رضي الله عنه (١٩٦٩/٤برقم ٢٥٤٢)

(٦) كحديث أمّ الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكّل،كلّما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكّل به: آمين.أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب(٢٠٩٤/٤ برقم ٢٧٣٢) ،وانظر ما أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب(١٨٦/٢ برقم ١٥٣٤) ،والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب(٣٠٩/٤ برقم ١٩٨٠) ،وابن ماجة في المناسك، باب فضل دعاء الحاج(٩٦٦/٢ برقم ٢٨٩٥) .

(٧) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء(١٦٩/٢ برقم ١٤٩٨) ،والترمذي في كتاب الدعوات، باب (١١٠)(٥٢٣/٥ برقم ٣٥٦٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح ،وابن ماجة في المناسك،

===

:(( سل تُعْطَ، واشفع تُشَفَّع ))(١) وذلك هو المقام المحمود الذي وعده الله به كما في كتابه العزيز .

والحاصل أنّ طلب الحوائج من الأحياء جائز اذا كانوا يقدرون عليها، ومن ذلك الدعاء، فانّه يجوز استمداده من كلّ مسلم، بل يحسن ذلك،(٢) وكذلك الشفاعة من أهلها الذي ورد الشرع بأنّهم يشفعون(٣) . ولكن ينبغي أن يعلم أنّ دعاء من يدعوله لا ينفع الّا باذن الله، كما ورد بذلك القرآن العظيم.(٤) فهذه تقييد للمطلق لا ينبغي العدول عنه بحال . ))(٥)

هذا ما ذهب اليه الشوكاني في التوسّل والتشفّع بدعاء الصالحين، وهو رأي صائب واستدلال صحيح، غير أنّه لم يفرّق بين هذا النوع من التوسّل وبين التوسّل بالذوات والأشخاص، فاختلط الأمر عليه، فخلط بينهما وجعلهما نوعا واحدا، كما اختلط عليه الأمر أيضا بين التوسّل بالذوات والأشخاص وبين التوسّل بالأعمال الصالحة، فجعل الأول كالثاني في الجواز، فوقع بذلك في أخطاء سأبيّنها في الفقرة التالية :

رأي الشوكاني في التوسّل بالذوات والأشخاص ومناقشته فيه

يرى الشوكاني ـ رحمه الله ـ جواز التوسّل الى الله بذوات الأنبياء والصالحين وأشخاصهم، مستدلّا على ذلك بأدلّة وهي في الحقيقة أدلّة صحيحة لكنّها ليست بصريحة تدلّ على ما ذهب اليه، وفيما يلي أورد كلامه فيه :

يقول ـ رحمه الله تعالى ـ اجابة على سؤال عن التوسّل بالأحياء والأموات

---

=== باب فضل دعاء الحاج (٩٦٦/٢ برقم ٢٨٩٤)، وأحمد في المسند (٢٩/١)، وضعّفه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح (٦٩٥/٢ برقم ٢٢٤٨)، وفي ضعيف الجامع (٧٨/٦ برقم ٦٢٩٢) .

(١) من حديث طويل معروف بحديث الشفاعة، وقد تقدّم تخريجه قبل قليل في (ص ٢٤٠) .

(٢) والصحيح انّه يحسن استمداد الدعاء ممن ترجى اجابته، كطلب الصحابة رضي الله عنهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله لهم، كما في حديث استسقاء الأعرابي بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم، وحديث عكاشة، وحديث توسّل الأعمى بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم، وكطلب الصحابة من العباس أن يدعو الله لهم، كما في حديث استسقاء عمر بالعباس، وأمثال ذلك، وقد تقدمت نصوص هذه الأحاديث .

(٣) أي يوم القيامة .

(٤) يقصد قوله تعالى :(( مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ )) (سورة البقرة آية ٢٥٥)، وقوله :(( مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ )) (سورة يونس آية ٣)، وقوله سبحانه :(( يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ))(سورة طه : آية ١٠٩)، ونحو ذلك من الآيات .

(٥) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني (ص ٤٥، ٤٦) مكتبة الصحابة الاسلامية .

المشهورين بالفضل، وقصد قبورهم لتأدية الزيارة، والتوسّل بهم في الدعاء[(١)] . ما نصّه :

(( وأمّا التوسّل الى الله سبحانه بأحد من خلقه في مطلب يطلبه العبد من ربّه فقد قال الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام[(٢)] : أنّه لا يجوز التوسّل الى الله تعالى الا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ان صحّ الحديث فيه[(٣)] ولعلّه يشير الى الحديث الذي أخرجه النسائي في سننه ، والترمذي وصحّحه ، وابن ماجة ، وغيرهم ، أنّ أعمى أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يا رسول الله إنّي أصبت في بصري ، فادع الله لي ، فقال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم : توضّأ ، وصلّ ركعتين ، ثمّ قل : " اللهم انّي أسألك ، وأتوجّه اليك بنبيّك محمد ، يا محمد انّي أستشفع بك في ردّ بصري ، اللهمّ شفّع النبي فيّ ."[(٤)]

---

(١) انظر صيغة السؤال في بداية الكتاب : الدر النضيد صفحة ٣ مكتبة الصحابة الاسلامية .

(٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي ، عزّ الدين ، الملقّب بسلطان العلماء ، فقيه شافعي ، بلغ رتبة الاجتهاد ، من كتبه : قواعد الأحكام ، وبداية السول في تفضيل الرسول ، توفّي (٦٦٠ هـ) ( انظر ترجمته في : طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي ٢٠٩/٨ ، والبداية والنهاية ، ابن كثير ٢٣٥/١٣ ، ومفتاح السعادة ، طاش كبرى زادة ٢١٨/٢ ) .

(٣) لم أقف على ما ذكره الشوكاني عن العزّ بن عبد السلام بهذا النصّ ، والذي وقفت عليه هو ما ذكره العزّ بن عبد السلام في كتاب الفتاوى ( بتعليق : عبد الرحمن عبد الفتاح ، وتوزيع مكتبة المعارف بالرياض صفحة ١٢٦ ) جوابا على سؤال عن الاقسام على الله بمعظّم من خلقه في دعائه ، كالنبي صلى الله عليه وسلم ، والولي ، والملك ، هل يكره ذلك أو لا ؟ فأجاب بقوله : (( أمّا مسألة الدعاء ، فقد جاء في بعض الأحاديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم علّم بعض الناس الدعاء ، فقال في أقواله : " قل اللهمّ انّي أقسم عليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبيّ الرحمة ." وهذا الحديث ان صحّ فينبغي أن يكون مقصورا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنّه سيّد ولد آدم ، وأن لا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء ، لأنّهم ليسوا في درجته ، وأن يكون هذا مما خصّ به تنبيها على علوّ درجته ومرتبته . )) هـ . وقد نقل مثل هذا ، أي جواز السؤال بالنبي صلى الله عليه وسلم عن الامام أحمد في احدى الروايتين عنه ، وأكثر العلماء على النهي فيه . ( انظر : قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة لشيخ الاسلام ابن تيمية ١٨٤ ، ٢٧٥ بتحقيق : د/ ربيع بن هادي المدخلي ، ومجموعة الرسائل والمسائل له ٢٣/١ ، ٢٨ ) .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١٣٨/٤) ، والترمذي في كتاب الدعوات ، باب (١١٩) (٥٣١/٥ برقم ٣٥٧٨) ولفظه : عن عثمان بن حنيف أنّ رجلا ضريرا لبصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافيني ، قال : ان شئت دعوت ، وان شئت صبرت ، فهو خير لك ، قال : فادعه ، قال : فأمره أن يتوضّأ فيحسن وضوءه ، ويدعو بهذا الدعاء : " اللهمّ انّي أسألك ، وأتوجّه اليك بنبيّك محمد نبي الرحمة ، انّي توجّهت بك الى ربّي في حاجتي هذه لتقضى لي ، اللهمّ فشفّعه فيّ ." قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه ، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٤١٧ ، ٧١٨ برقم ٦٥٨ ، ٦٦٠) ط/ الرئاسة العامة بالرياض . وابن ماجة في صلاة الحاجة (٤٤١/١ برقم ١٣٨٥) ، والحاكم في المستدرك (٣١٣/١ ، ٥١٩ ، ٥٢٦) وقال : صحيح الاسناد ، ووافقه الذهبي . والبيهقي في دلائل النبوة (١٦٦/٦ ـ ١٦٨) وغيرهم ، بطرق وألفاظ مختلفة . انظر ما أوضحه شيخ الاسلام ابن تيمية من طرق هذا الحديث وألفاظه في قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة

وقال: فإن كان لك حاجة فمثل ذلك.[1] فردّ الله بصره.[2]

ثمّ قال: (( وللناس في معنى هذا قولان:

أحدهما: أنّ التوسّل هو الذي ذكره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لمّا قال: كنّا إذا أجدبنا نتوسّل إليك بنبيك فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبينا. وهو في صحيح البخاري وغيره[3]، فقد ذكر عمر رضي الله عنه أنّهم كانوا يتوسّلون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته في الاستسقاء، ثم توسّل بعمّه العباس بعد موته، وتوسّلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعو، ويدعون معه، فيكون هو وسيلتهم إلى الله تعالى.[4] والنبي صلى الله عليه وآله وسلم في مثل هذا شافع وداعٍ لهم.

والقول الثاني: أنّ التوسّل به صلى الله عليه وآله وسلم يكون في حياته وبعد موته، وفي حضرته ومغيبه، ولا يخفاك أنّه قد ثبت التوسّل به صلى الله عليه وآله وسلم في حياته،

---

=== (١٨٥-١٩٩) تحقيق: د/ ربيع بن هادي المدخلي. والحديث صحّحه الشوكاني في تحفة الذاكرين (١٧٥) قال: وفي الحديث دليل على جواز التوسّل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله عزّ وجلّ، مع اعتقاد أنّ الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، وأنّه المعطي المانع، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. قال الشيخ الألباني في تعليقه على الحديث: وإسناده صحيح، ومن ضعّفه من المتأخرين فما أصاب، كما لم يصب من استدلّ به على التوسّل بالأشخاص، وإنّما هو دليل على التوسّل بدعاء الرجل الصالح، كما شرحه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة. (مشكاة المصابيح ٧٦٦/٢ وانظر أيضاً التوسّل أنواعه وأحكامه ٧٦).

(١) هذه الزيادة غير ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أعلّها شيخ الإسلام ابن تيمية بتفرّد حمّاد بن سلمة بها، ومخالفته لرواية شعبة، وهو أجلّ من روى هذا الحديث، وقال -رحمه الله-: إنّ لفظ الحديث يناقض ذلك، فإنّ في الحديث أنّ الأعمى سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له، وأنّه علّم الأعمى أن يدعو، وأمره في الدعاء أن يقول: اللهمّ فشفّعه فيّ. وإنّما يدعى بهذا الدعاء إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم داعياً شافعاً له، بخلاف من لم يكن كذلك، فهذا يناسب شفاعته ودعاءه للناس في محياه في الدنيا، ويوم القيامة إذا شفع لهم، وفيه أيضاً أنّه قال: فشفّعني فيه. (انظر قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة ١٩٦، ١٩٧) وقال الشيخ الألباني بعد بيان علل هذه الزيادة: وخلاصة القول: أنّ الزيادة لا تصحّ لشذوذها، ولو صحّت لم تكن دليلاً على جواز التوسّل بذاته صلى الله عليه وسلم، لاحتمال أن يكون معنى قوله: فافعل مثل ذلك، يعني من إتيانه صلى الله عليه وسلم في حال حياته، وطلب الدعاء منه، والتوسّل به، والتوضّؤ، والصلاة، والدعاء الذي علّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو به. والله أعلم. (التوسّل أنواعه وأحكامه ٩٢)

(٢) وقد صرّح الشوكاني باستدلاله بهذا الحديث على جواز التوسّل بالأنبياء، وبحديث استسقاء عمر بالعباس على جواز التوسّل بالصالحين في كتابه: تحفة الذاكرين ص ٤٨ وهو استدلال مردود كما سيأتي بيانه.

(٣) تقدّم تخريجه قبل قليل صفحة ( ٢٣٧ ).

(٤) والصحيح أنّ وسيلتهم إلى الله تعالى هي دعاؤه صلى الله عليه وسلم إلى ربّه وليست ذاته كما يفهم من الكلام، وإلّا لما عدلوا عنه إلى غيره بعد وفاته. كما بيّنّا.

وثبت التوسّل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة إجماعاً سكوتيّاً ، لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في التوسّل بالعبّاس رضي الله عنه .

ثمّ رجّح الشوكاني رأيه قائلاً :

(( وعندي لا وجه لتخصيص جواز التوسّل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ،كما زعمه الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام ،لأمرين :

الأوّل : ما عرفناك به من إجماع الصحابة رضي الله عنهم .

والثاني : أنّ التوسّل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسّل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة ، إذ لا يكون الفاضل فاضلاً إلاّ بأعماله .

فإذا قال القائل : اللهمّ إنّي أتوسّل إليك بالعالم الفلاني ، فهو باعتبار ما قام به من العلم ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما : أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بأنّ كلّ واحد منهم توسّل إلى الله بأعظم عمل عمله ،فارتفعت الصخرة [(١)] فلو كان التوسّل بالأعمال الفاضلة غير جائز ، أو كان شركاً كما يزعمه المتشدّدون في هذا الباب ... [(٢)] لم تحصل الإجابة من الله لهم ، ولا سكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم . )) [(٣)]

وقال ـ رحمه الله ـ في موضع آخر ، وقد سئل عن : لو قصد الإنسان قبر رجل من المسلمين مشهوراً بالصلاح ، ووقف لديه ، وسأل الله بأسمائه الحسنى ،وبما لهذا الميّت من المنزلة :(( ... إنّه لا بأس بالتوسّل بنبيّ من الأنبياء ،أو وليّ من الأولياء ، أو عالم من العلماء ،... فهذا الذي جاء إلى القبر زائراً ، ودعا الله وحده ، وتوسّل بذلك الميّت ، كأن يقول : اللهمّ إنّي أسألك أن تشفيني من كذا ، وأتوسّل إليك بما لهذا العبد الصالح من العبادة لك ، والمجاهدة فيك ، والتعلّم والتعليم خالصاً لك ، فهذا لا تردّد في جوازه )) [(٤)]

وردّ ـ رحمه الله ـ على المخالفين له في هذا الرأي قائلاً :

---

(١) تقدّم تخريجه قبل قليل في صفحة ( ٢٣٤، ٢٣٥ ) .

(٢) تقدم أن التوسل بالأعمال الصالحة من التوسل المشروع ،ولم يقل أحد من العلماء انه شرك ، أمّا التوسل بالذوات الذي تكلم عنه الشوكاني وخلط بينه وبين التوسل بالأعمال الصالحة فهو من التوسل البدعي كما تقدم ،وهو مدخل الى الغلوّ في الأنبياء والصالحين ودعائهم والاستغاثة بهم .

(٣) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني (ص ٩،٧) مكتبة الصحابة الاسلامية .

(٤) المصدر السابق (ص ٨١، ٨٢) .

(( وبهذا تعلم أنّ ما يورده المانعون من التوسّل الى الله بالانبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى: (( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ))(١) ونحو قوله تعالى: (( فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ))(٢) ونحو قوله تعالى: (( لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ))(٣) ليس بوارد، بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه، فانّ قولهم: ( ما نعبدهم الا ليقرّبونا الى الله زلفى ) مصرّح بأنّهم عبدوهم لذلك، والمتوسّل بالعالم مثلا لم يعبده، بل علم أنّ له مزيّة عند الله، بحمله العلم، فتوسّل به لذلك، وكذلك قوله تعالى: ( فلا تدعوا مع الله أحدا ) فانّه نهي أن يدعى مع الله غيره، كأن يقول: يا الله يا فلان، والمتوسّل بالعالم مثلا لم يدع الا الله، وانّما وقع منه التوسّل اليه بعمل صالح عمله بعض عباده، كما توسّل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم، وكذلك قوله: ( والذين يدعون من دونه الآية ) فانّ هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم، ولم يدعوا ربّهم الذي يستجيب لهم، والمتوسّل بالعالم مثلا لم يدع الا الله، ولم يدع غيره دونه، ولا دعا غيره معه .

وقال من استدلال المخالفين له بقوله تعالى: (( لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ))(٤) وقوله تعالى: (( قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ))(٥) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم ـ لمّا نزل قوله تعالى: (( وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ))(٦) ـ : (( يا فلان بن فلان، لا أملك لك من الله شيئا، يا فلانة بنت فلان، لا أملك لك من الله شيئا . ))(٧) :

---

(١) سورة الزمر : آية ٣ .
(٢) سورة الجنّ : آية ١٨ .
(٣) سورة الرعد : آية ١٤ .
(٤) سورة آل عمران : آية ١٢٨ .
(٥) سورة الأعراف : آية ١٨٨ .
(٦) سورة الشعراء : آية ١١٤ .
(٧) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين. ولفظه: (( قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله: ( وأنذر عشيرتك الأقربين) قال: يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عبّاس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفيّة عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا ))( انظر الفتح ٣٦٠/٨ برقم ٤٧٧١)، ومسلم في كتاب الايمان، باب في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين. (١٩٢/١ برقم ٢٠٥، ٢٠٦) والترمذي في كتاب التفسير، باب (٢٧) وفي سورة الشعراء. (٣٣٨/٥، ٣٣٩ برقم ٣١٨٥ )، والنسائي في كتاب الوصايا، باب اذا أوصى لعشيرته الأقربين. (٢٤٨/٦ برقم ٣٦٤٤ـ٣٦٤٨) وأحمد في المسند (٣٣٣/٢، ٣٦٠، ٥١٩) مع وجود اختلاف في اللفظ والاسناد .

: انّه ليس في الآيتين منع التوسّل به ،أو بغيره من الأنبياء ،والأولياء ،أو العلماء ، وليس في الحديث إلا التصريح بأنّه صلى الله عليه وآله وسلم لا يستطيع نفع من أراد الله تعالى ضرّه ، ولا ضرّ من أراد الله نفعه ، وأنّه لا يملك لأحد من قرابته فضلا عن غيرهم شيئا من الله ، وهذا معلوم لكلّ مسلم ، وليس فيه أنّه لا يتوسّل به الى الله ، فانّ ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر والنهي، وانّما أراد أنّ الطالب يقدّم بين يدي طلبه ما يكون سببا للاجابة ممن هو المنفرد بالعطاء والمنع ،وهو مالك يوم الدين .(١)

وللردّ على رأي الشوكاني هذا أقول ـ وبالله التوفيق ـ :

١ ـ إنّ التوسّل بذات المتوسّل بها الى الله تعالى ،أو بجاهه ،أو منزلته ،أو نحو ذلك، عمل غير شرعيّ، سواء كان المتوسّل به نبيّا من الأنبياء، أو عالما من العلماء، لأنّه لم يأمر به الله ،ولا بلّغه رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أو من بعدهم من القرون الخيرة أنّه يعمل به ، اذ لو كان مشروعا لفعلوه ولسبقونا اليه ، فاذا لم يفعلوه دلّ ذلك على عدم مشروعيته .

وقد تقرّر في الكتاب والسنة أنّ الاسلام مبنيّ على أصلين عظيمين ،أحدهما : أن لا نعبد إلا الله ، والثاني: أن لا نعبده إلا بما شرع .(٢) كما تقرّر أنّ الدعاء نوع من أنواع العبادة ، بل هو أجلّها وأعظمها .(٣) فمن دعا المخلوقين من دون الله ، واستغاث بهم ،كان مشركا به سبحانه ، ومن توسّل في دعائه الى الله بالمخلوقين، أو أقسم عليه بهم كان مبتدعا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، لأنّه عمل غير مشروع. وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا اله إلا الله ، وأنّ محمدا رسول الله ، كما بيّنّاه ، ولهذا قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف .(٤) أي لا بدّ فيها من ثبوت النصّ الشرعي المستلزم مشروعيتها واستحبابها .

---

(١) انظر الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٩ ـ ١٢ مكتبة الصحابة الاسلامية .
(٢) راجع فقرة : لا تقبل العبادة إلا بشرطين . صفحة ( ٢١٢ ).
(٣) تقدّم بيانه في صفحة ( ٢١٨ ).
(٤) انظر قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة لشيخ الاسلام ابن تيمية ٢٧٠ تحقيق/ د. ربيع ابن هادي المدخلي .

٢ ـ إنّ التوسّل بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي ورد في حديث الأعمى هو في التحقيق توسّل بدعائه وشفاعته، لا بذاته، لأنّ الأعمى طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له، ليردّ الله عليه بصره[1] فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو هو أيضا، ويسأل أن يقبل الله شفاعة نبيه فيه، فقوله في دعائه: أللهمّ انّي أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم. أي شفاعة نبيك بدعائه، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا شافعا له بالدعاء، وهو سائل قبول شفاعة الرسول، ولهذا قال في دعائه أيضا: "أللهمّ فشفّعه فيّ".

وهكذا كان توسّل الصحابة به صلى الله عليه وسلم في حياته، فلمّا مات توسّلوا بدعاء غيره، ولم ينقل عن أحد منهم أنه التجأ الى قبره، وطلب منه الدعاء لقضاء حاجته، ولو كان ذلك مشروعا لفعلوه، وأكبر دليل على ذلك وأوضحه ما ذكرناه من أثر استسقاء عمر بالعبّاس، واستسقاء معاوية والضحاك بيزيد بن الأسود، فانّ عمر رضي الله عنه توسّل بالعبّاس لمّا أجدبوا، وقصد بذلك دعاءه، لفضله وكبر سنّه، وكذا معاوية والضحاك ومن معهما توسّلوا بيزيد لصلاحه وتقاه، ولم يتوسّلوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، لا عند قبره، ولا غير قبره، وكان من الممكن أن يأتوا الى قبره فيتوسّلوا به، فهذا دليل على أنّ التوسّل المشروع عندهم هو التوسّل بدعائه وشفاعته، لا السؤال بذاته ومنزلته، كما ظنّ الشوكاني وأمثاله.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية عن الحديثين: يعني حديث الأعمى وحديث استسقاء عمر بالعبّاس رضي الله عنهما: (( ... إنّ معنى قوله: ( أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد ) أي بدعائه وشفاعته، كما قال عمر: ( أللهمّ انّا كنّا اذا أجدبنا توسّلنا اليك بنبينا فتسقينا ) فالحديثان معناهما واحد، فهو صلى الله عليه وسلم علّم رجلا أن يتوسّل به في حياته، كما ذكر عمر أنّهم كانوا يتوسّلون به اذا أجدبوا، ثمّ انّهم بعد موته انّما كانوا يتوسّلون بغيره بدلا عنه، فلو كان التوسّل به حيّا وميّتا سواء، والمتوسّل به الذي دعا له

---

(١) راجع لفظ الحديث صفحة (٢٤٣) في الهامش. حيث قال (أي الأعمى) للنبي صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يعافيني. فقال ( أي النبي صلى الله عليه وسلم: ان شئت دعوت، وان شئت صبرت، فهو خير لك، قال ( أي الأعمى ): ادع لي ...... الحديث.

الرسول، لم يعدلوا عن التوسّل به، وهو أفضل الخلق، وأكرمهم على ربّه، وأقربهم إليه وسيلة إلى أن يتوسّلوا بغيره ممن ليس مثله، وكذلك لو كان أعمى توسّل به، ولم يدع له الرسول كمن لم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى، لكان عميان الصحابة [1] أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنّهم السابقون الأوّلون المهاجرون والأنصار، والذين اتّبعوهم بإحسان .... دليل على أنّ المشروع ما سألوه دون ما تركوه .))[2]

وعلى هذا فإنّ استدلال الشوكاني بهذين الحديثين على جواز التوسّل بالأنبياء والصالحين استدلال مردود، وكذلك زعمه أنّ الصحابة أجمعوا عليه، وإنّما أجمعوا على التوسّل بدعاء الحيّ، كما بيناه .

٣ ـ قول الشوكاني ـ رحمه الله ـ: (( إنّ التوسّل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسّل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة ))[3] قول مردود، إذ لا علاقة بين المتوسّل وبين أعمال المتوسّل به، لأنّ العمل لعامله، وليس لغيره حقّ ولا نصيب فيه، وقد قرّر الله سبحانه ذلك في كتابه العزيز بقوله: (( وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ))[4] فليس لأحد أن يتوسّل إلى الله بصلاح الميّت، لأنّ صلاحه من سعيه، لا من سعي المتوسّل به .

يقول ابن أبي العزّ الحنفي شارح العقيدة الطحاوية[5] : (( ولا مناسبة بين ذلك ( أي صلاح المتوسّل به ) وبين استجابة الدعاء، فكأنّ المتوسّل يقول: لكون فلان من

---

(١) قال المحقق ـ حفظه الله ـ: " وقد عمي منهم جماعة ـ رضوان الله عليهم ـ منهم العبّاس ابن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابنه عبد الله بن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ وعقيل بن أبي طالب بن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وعمي عتبان بن مالك في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك ابن أمّ مكتوم (انظر قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة لابن تيمية ص ١١٥ هامش(٢) وص ٢٦٠ هامش (١)

(٢) قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة لابن تيمية ٢٥٩، ٢٦٠ تحقيق د. ربيع هادي المدخلي .

(٣) وقد صرّح أيضا في موضع آخر من كتابه: الدر النضيد، ص ٣٧ ـ وهو في صدد الحديث عن شركيات القبوريين ـ : بأنّ التوسّل بالميّت صاحب القبر بمنزلة التوسّل بالعمل الصالح لا غير .

(٤) سورة النجم، آية ٣٩، ٤٠ .

(٥) علي بن علي بن محمد بن أبي العزّ الحنفي الأذرعي الصالحي الدمشقي، فقيه، كان قاضي القضاة بدمشق، ثم بالديار المصرية، ثم بدمشق، وامتحن بسبب اعتراضه على قصيدة علي بن أبي ايبك، له كتب مفيدة منها: شرح العقيدة الطحاوية، والاتباع، توفي (٧٩٢ هـ) (انظر ترجمته في الدرر الكامنة: ابن حجر ٨٧/٣، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٣٢٦/٦) .

عبادك الصالحين أجِبْ دعائي . وأيّ مناسبة في هذا، وأيّ ملازمة ؟ وانّما هذا من الاعتداء في الدعاء، وقد قال تعالى: (( ادعوا ربّكم تضرّعاً وخفية إنّه لا يحبّ المعتدين ))[1] وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة رضي الله عنهم، وانّما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهّال والطرقية، والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتباع، لا على الهوى والابتداع .))[2]

واذا كان لا يجوز التوسّل بصلاح الميت، فأولى ثمّ أولى ألّا يجوز التوسّل بذاته، أمّا التوسّل بعمل المتوسّل الصالح نفسه فهو عمل مشروع كما ذكرنا، ومن أدلّته ما ورد في قصّة أصحاب الغار الثلاثة، فانّهم لم يتوسّلوا الى الله بصلاح أمواتهم، وانّما توسّلوا الى الله بصلاح أعمالهم أنفسهم، فأجاب الله دعاءهم .

وعلى هذا فانّ استدلال الشوكاني بهذه القصّة على ما ذهب اليه استدلال مردود، ليس له وجه من الصحّة، لأنّه خلط بين التوسّل بعمل المتوسّل نفسه، وبين التوسّل بعمل غيره من الأموات، ولم يفرّق بينهما، مع أنّ الفرق واضح كوضوح شمس النهار .

وما قلناه في التوسّل بعمل الآخرين من الأموات، نقوله أيضاً في التوسّل بمنزلتهم أو جاههم، لأنّهما في حكم واحد، فانّ الله سبحانه لم يجعل منزلة أحد من خلقه، أو جاه أحد منهم، سبباً لاجابة الدعاء، أو قضاء الحاجات، أو كشف الكربات، ولا يكون سبباً لهذه المعاني وغيرها الّا ما جعله الشارع، اذ لا معنى لقول الداعي: أللهمّ اقض حاجتي، لأنّ فلاناً ذو منزلة رفيعة عندك، أو فلاناً ذو جاه عظيم عندك، لأنّه لا علاقة بين منزلته وجاهه وبين اجابة دعاء هذا الداعي، اذ أنّ جاهه أو منزلته ليس من عمله، وليس له نصيب فيه، فهو اذاً بمثابة التوسّل بما لا يملكه، وبما ليس له فيه أيّة علاقة .

والوسيلة – كما قال الشوكاني –: (( هي القرب من الله، فانّها الوسيلة التي يتوصّل بها الى المطلوب ))[3] واذا كان الأمر كذلك، فكيف يكون ذات المتوسّل

---

(١) سورة الأعراف، آية ٥٥ .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العزّ الحنفي ٢٦٢ .
(٣) تحفة الذاكرين : الشوكاني ١٢٥ .

بها لميت ، أوعمله ،أومنزلته ،با لنسبة للداعي وسيلة توصله الى المطلوب ؟ لأنه مما اختص با لمتوسل به وحده ، فليس له أثر في حصول المطلوب ، واذا لم يكن له أثر لم يكن سببا صحيحا ، والله عزوجل لا يدعى الا بما يكون سببا صحيحا .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

(( ولا ريب أن لهم ( أي الأنبياء والصالحين ) عند الله الجاه العظيم ، كما قال تعالى في حق موسى وعيسى عليهما السلام [١] ..... لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات أمر يعود نفعه اليهم ، ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا لهم ، فاذا توسلنا الى الله تعالى بايماننا بنبيه ،ومحبته ،وموالاته ،واتباع سنته ، فهو من أعظم الوسائل ، وأما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالايمان به وطاعته ،فلا يجوز أن يكون وسيلة . ))[٢]

أقول : فما أيسر الأمر على الداعي اذا قال: اللهم اني أسألك بايماني بك وبنبيك ، أوبمحبتي لك ولنبيك ، أوباتباع سنته كذا وكذا ، بدلا من أن يقول: أسألك بنبيك ، أوبجاه نبيك ، أوما شابه ذلك ، من الألفاظ التي لم يرد فيها دليل من الشرع .

هذا ما أردت أن أقوله في الرد على رأي الشوكاني في الموضوع، والشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ برأيه هذا مناقض تماما لما قرره ودعا اليه في كثير من مؤلفاته من تصحيح الاعتقاد وتطهيره من أدران الشركيات والبدعيات ، وسد جميع الذرائع الموصلة اليها ، وقد حمل حملا شديدا على عباد القبور، والمعتقدين في الأموات ، فبين بدعهم المنكرة ، ومفاسدهم السيئة ، والآثار التي تترتب عليها ،بأساليب قوية مختلفة ، كما سيأتي تفصيله في الفصل الرابع ان شاءالله .

---

(١) يقصد قوله تعالى في موسى عليه السلام :(( وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ))(سورة الأحزاب : آية ٦٩) ،وقوله تعالى في عيسى عليه السلام :(( وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ )) ( سورة آل عمران : آية ٤٥)

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية ٢٧٥ تحقيق/ د .ربيع بن هادي المدخلي.

# الفصل الثالث
# في توحيد الأسماء والصفات

ويشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : تعريف توحيد الأسماء والصفات وأدلته

المبحث الثاني : منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات وتقرير الشوكاني له جملة

المبحث الثالث: شبهة تتعلق بما في التحف من عقيدته

المبحث الرابع : أسماء الله تعالى

المبحث الخامس: ذكر جملة من الصفات التي ذكرها الشوكاني

## (( الفصل الثالث ))

## منهج الشوكاني في توحيد الأسماء والصفات

### المبحث الأول : تعريف توحيد الأسماء والصفات وأدلته

هو افراد الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى التي وردت في الكتاب والسنة ، وذلك باثبات ما أثبته سبحانه لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات ، من غير تحريف [١] لألفاظها أو معانيها ، ولا تعطيلها [٢] بنفيها أو نفي بعضها عن الله عزوجل ، ولا تكييفها [٣] بتحديد كنهها ، أو اثبات كيفية معينة لها ، ولا تمثيلها [٤] ، ولا تشبيهها [٥] بل تمرها كما وردت مع اعتقاد مدلولها ومعانيها ، على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبريائه .

ويفهم من هذا التعريف أن توحيد الأسماء والصفات يتركز على ثلاثة أسس، من جاء بها كلها فقد وافق الصواب ، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والسلف الصالح ، ومن أخل بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضلّ .[٦]

أ ـ تنزيه الله عزّوجلّ عن مشابهة الخلق .

وهذا الأصل يدلّ عليه قوله تعالى : (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ )) .[٧]

ب ـ الايمان بالأسماء والصفات الثابتة في الكتاب والسنة ، وعدم التعرض لنفيها. ويدلّ على هذا الأصل قوله تعالى : (( وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ )) بعد قوله

---

(١) التحريف : لغة التغيير ، وفي الاصطلاح : تغيير النص لفظاً أو معنى ، وتحريف أسماء الله وصفاته هو تغيير ألفاظها أو تغيير معانيها الى معان باطلة لايدل عليها الكتاب والسنة ، فالتحريف اللفظي مثل نصب لفظ الجلالة في قوله تعالى (( وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا )) ( النساء : ١٦٤ ) ليكون التكلم من موسى ، ونفي كلام الله له ، والتحريف المعنوي كتحريف معنى اليدين المضافتين الى الله عزوجل الى القوة أو النعمة وتحريف وجهه الى ذاته وما أشبه ذلك .

(٢) التعطيل لغة التفريغ والتخلية وفي الاصطلاح انكار ما يجب اثباته لله تعالى من الأسماء والصفات .

(٣) التكييف هو بيان كيفية صفات الله بأن يقال إن الصفة على هيئة كذا وكيفية معينة .

(٤) التمثيل هو اثبات المثيل والنظير للشيء ، فتقول : هذا مثل هذا أو مثيله ونظيره .

(٥) التشبيه هو اثبات المشابه للشيء فتقول : هذا شبه كذا . والفرق بين التمثيل والتشبيه أن التمثيل يقتضي المماثلة والمساواة من كل وجه والتشبيه يقتضي المشابهة في أكثر الصفات ( استقيت هذه التعاريف من : التحفة المهدية للشيخ فالح بن مهدى ٢٥٦ وفتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين ٥٤ ، ٥٥ والعقيدة الواسطية بشرح الدكتور صالح بن فوزان ١٣ ، ١٤ )

(٦) انظر : منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ص ٣ الخ ط / ١٤٠١ الجامعة الاسلامية .

(٧) سورة الشورى : آية ١١ .

، ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ )(١)

جـ ـ قطع الطمع عن ادراك كيفية هذه الصفات ، لأن ادراك حقيقة الكيفية مستحيل.وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى : (( وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ))(٢)

وقد بين الشوكاني رحمه الله هذا المعنى في مواضع مختلفة من مؤلفاته ، من ذلك قوله في معرض رده على أهل الكلام :

(( وقد يغني هؤلاء وأمثالهم من المتكلمين المتكلفين كلمتان من كتاب الله تعالى وصف بهما نفسه ، وأنزلهما على رسوله ، وهما (( وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ))(٢) و (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ))(٣) فان هاتين الكلمتين قد اشتملت على فصل الخطاب، وتضمنتا بما يعين أولي الألباب السالكين في تلك الشعاب ، فالكلمة منها دلت دلالة بينة على أن كل ما تكلم به البشر في ذات الله وصفاته على وجه التدقيق ، ودعاوى التحقيق ، فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل ، مخلوط بخلوط هي منافية للعلم ، ومباينة له ، فان الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنهم لا يحيطون به علما ، فمن زعم أن ذاته كذا ، أو صفته كذا ، فلا شك أن صحة ذلك متوقفة على الاحاطة ، وقد نفيت عن كل فرد من الأفراد علما ... وأما الكلمة وهي (( ليس كمثله شيئ )) فبها يستفاد نفي المماثلة في كل شيئ ، فيندفع بهذا الآية في وجه المجسمة ، وتعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع البصير، وعند ذكر السمع،والبصر، واليد،والاستواء ، ونحوذلك مما اشتمل عليه الكتاب والسنة ، فتقرر بذلك لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات ، فيدفع به جانبَيّ الافراط والتفريط ، وهما : المبالغة في الاثبات المفضية الى التجسيم،والمبالغة في النفي المفضية الى التعطيل ، فيخرج من بين الجانبين ، وغلو الطرفين أحقية مذهب السلف الصالح ، وهوقولهم باثبات ما أثبته لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه الا هو ، فانه القائل : (( ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير ))(٤)

---

(١) سورة الشورى : آية ١١ . (٢) سورة طه : آية ١١٠ .
(٣) سورة الشورى : آية ١١ .
(٤) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ١٠،٩ ضمن الرسائل السلفية .

وقال رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى - مخاطبا لأهل الكتاب -: (( وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ))[1] : وهو ما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله ، ولا تقولوا الباطل ، كقول اليهود : عزير بن الله ، وقول النصارى : المسيح بن الله .[2]

وقال أيضا في شرحه لحديث أعرابي، وهو يدعو في صلاته، وهو يقول :(( .... ولا يصفه الواصفون ))[3] : أي لا يقدرون على ذلك ، كما قال عز وجل: (( وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ))[4] فلا أحد من عباده يقدر على احصاء الثناء عليه والوصف له ، بل هو كما أثنى على نفسه .[5]

فتوحيد الأسماء والصفات هو الايمان بأن الله عز وجل متّصف بجميع صفات الكمال ، ومنزّه عن جميع صفات النقص ، والايمان بكلّ ما ورد لله في كتابه وسنة نبيه من الأسماء والصفات ، واثبات ذلك دون تشبيه أو تحريف أو تعطيل .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب [6] رحمه الله :

(( توحيد الأسماء والصفات : وهو الاقرار بأن الله بكل شيئ عليم ، وعلى كل شيئ قدير ، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، له المشيئة النافذة ، والحكمة البالغة ، وأنه سميع بصير ، رؤوف رحيم ، على العرش استوى ، وعلى الملك احتوى ، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر ، سبحان الله عما يشركون . الى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى .[7]

---

(١) سورة النساء ؛ آية ١٧١ . (٢) فتح القدير ؛ الشوكاني ١/٥٤٠ .

(٣) قال . الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٧/١٠، ١٥٨ ) : رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد أبي عبد الرحمن الأذرمي ، وهو ثقة .

(٤) سورة طه ؛ آية ١١٠ . (٥) تحفة الذاكرين ؛ الشوكاني ٣٦١ .

(٦) من آل الشيخ ، فقيه من أهل نجد ، كان آية في العلم بارعا في التفسير والحديث والفقه ، وكان آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم ، له مؤلفات مفيدة نافعة منها : تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد . قتل سنة ١٢٣٣هـ (انظر ترجمته في: هدية العارفين؛ البغدادي ٤٠٨/١ ط/ استانبول ١٩٥١م وعنوان المجد في تاريخ نجد ؛ عثمان ابن بشر ٢١٢/١ تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف ط/١٣٩١هـ والأعلام ؛ الزركلي ١٢٩/٣ ) .

(٧) تيسير العزيز الحميد ؛ سليمان بن عبد الله ١٩ .

وقد وردت أدلة كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تدل على هذا النوع من التوحيد ، بل إنه لا تخلو سورة من سور القرآن ، ولا صفحة من صفحاته من ذكر صفات الله وأسمائه .

فمن الآيات قوله تعالى :

(( اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ))(١)

هذه هي آية الكرسي التي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنها أعظم آية في القرآن (٢) وقد اشتملت على صفات وأسماء ، كل منها يمثل قاعدة من قواعد العقيدة الاسلامية .(٣)

وقوله تعالى : (( هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ))(٤)

ومنها قوله تعالى :

(( سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٥ .

(٢) روى الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل آية الكرسي (٥٥٦/١ برقم ٨١٠) عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري، وقال : لِيَهْنِكَ العلمُ يا أبا المنذر .

(٣) انظر: مجموع فتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية (٥٠/١٧، ٥١، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٢ ـ ١٩٥) .

(٤) سورة الحشر : آية ٢٣، ٢٤ .

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ، يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ))(١)

وقوله تعالى : (( وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ))(٢)

قال الشوكاني : (( المثل : الصفة : أي وله الوصف الأعلى .(٣) وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل ، والجود الشامل ، والعلم الواسع .))(٤)

ومنها قوله تعالى في سورة عظيمة التي تعدل ثلث القرآن كما أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم (٥) وتتضمن اثبات كل كمال لله عزوجل ، ونفي كل نقص عنه ، وهو :

(( قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ))(٦)

فمعنى الأحد : الذي لا نظير له ، ولا وزير ، ولانديد ، ولا شبيه ، ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الاثبات الا على الله عزوجل ، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله .(٧)

ومعنى الصمد : الذي لا جوف له ، أو الذي يصمد اليه في الحاجات : أي يقصد لكونه قادرا على قضائها .(٨)

ومعنى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد : أي لم يصدر عنه ولد ، ولم يصدر عن شيئ ، لأنه لا يجانسه شيئ ، ولاستحالة نسبة العدم اليه سابقا ولاحقا ، واذا كان متّصفا بالصفات المتقدمة ، كان متّصفا بكونه لم يكافئه أحد ، ولا يماثله ، ولا يشاركه في شيئ .(٩) وبهذا أثبتت السورة لله تعالى جميع صفات الكمال

---

(١) سورة الحديد : آية ١ ـ ٦ . (٢) سورة النحل : آية ٦٠ .

(٣) فتح القدير : الشوكاني ٢٢١/٤ . (٤) المصدر السابق : ١٧٠/٣ .

(٥) فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رجلا سمع رجلا يقرأ ((قل هو الله أحد)) يردّدها ، فلما أصبح جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك له ـ وكأن الرجل يتقالّها ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسي بيده انها لتعدل ثلث القرآن (الفتح ٦٧٥/٨ برقم ٥٠١٣ كتاب فضائل القرآن : باب فضل (( قل هو الله أحد )) .

(٦) سورة الاخلاص : آية ١ ـ ٤ . (٧) تفسير ابن كثير ٦٠٩/٤ ط/١ دار المعرفة .

(٨) فتح القدير : الشوكاني ٥١٦/٥ وانظر أيضا التفسير الكبير لابن تيمية ٢٠٧/٧ تحقيق د/عبد الرحمن عميرة ، وتفسير ابن كثير ٦١٠/٤ ، وشرح كتاب الفقه الأكبر للملا علي القاري ٢٣ . (٩) انظر فتح القدير : الشوكاني ٥١٦/٥ .

والجلال ، ونفت جميع صفات النقص عن الله عزّ وجلّ .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وكلّها دالّة على أنّ الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وله الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له .

أما الأحاديث التي وردت في اثبات هذا النوع من التوحيد فهي كثيرة جداً ، لا تقلّ عن أحاديث الصلاة والصوم والحج والجهاد وغيرذلك من مسائل الأحكام .

منها حديث حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ الذي يقول فيه : (( كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أوى الى فراشه قال : باسمك أموت وأحيا ، واذا قام قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور ))(١)

وحديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثا ، وقال : (( اللّهمّ أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام ))(٢)

وحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : (( لا اله الا الله العظيم الحليم ، لا اله الا الله ربّ العرش العظيم ، لا اله الا الله ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم ))(٣)

وحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا أوى الى فراشه قال : (( اللهم ربّ السموات وربّ الأرض ، وربّ العرش العظيم ، ربّنا وربّ كل شيئ ، فالق الحبّ والنوى ، ومنزل التوراة والانجيل والفرقان ، أعوذبك من شرّ كل ذى شرّ أنت آخذ بناصيته ، أنت الأوّل فليس قبلك شيئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شيئ ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيئ ، وأنت الباطن فليس دونك شيئ ))(٤)

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب ما يقول اذا نام ( الفتح ١١/١١٧ برقم ٦٣١٢ ) ومسلم في كتاب الذكرباب ما يقول عند النوم ٤/٢٠٨٣ برقم ( ٢٧١١ ) .
(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد باب استحباب الذكر بعد الصلاة ١/٤١٤ برقم ( ٥٩١، ٥٩٢ ) .
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب الدعاء عند الكرب ( الفتح ١١/١٤٩ برقم ٦٣٤٥، ٦٣٤٦ ) ومسلم في كتاب الدعاء باب الدعاء عند الكرب ( ٤/٢٠٩٢ برقم ٢٧٣٠ ) .
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الذكر باب ما يقال عند النوم ( ٤/٢٠٨٤ برقم ٢٧١٣ ) .

قال الشوكاني في شرحه للحديث: (( قوله: أنت الأول: أي أنت القديم[1] الذي لا ابتداء له، والآخر: أي أنت الباقي بعد فناء خلقه، لا انتهاء له، ولا انقضاء لوجوده، الظاهر: الذي ظهر فوق كل شيء، الباطن: الذي حجب أبصار الخلائق عن إدراكه، فليس دونك شيء: أي لا يحجبه شيء عن إدراك مخلوقاته. ))[2]

ومنها أحاديث وردت في إثبات صفة العين[3]، واليد[4]، واليمين[5]، والكف[6]، والأصبع[7]، والقدم[8]، والرجل[9]، والساق[10]، والنزول[11]، والكلام[12]

---

(١) ذكر العلامة ابن أبي العز الحنفي صاحب شرح الطحاوية أن "القديم" من الأسماء التي أدخلها المتكلمون في أسمائه تعالى، وليس هو من أسمائه الحسنى، فإن القديم في لغة العرب هو المتقدم على غيره، وقد وصف به في القرآن "العرجون" (يس: ٣٩) و"إفك قديم" (الأحقاف: ١١)، و"ضلال القديم" (يوسف: ٩٥) وهو مع ذلك لا يؤدي معنى "الأول" الذي ليس قبله شيء. (شرح العقيدة الطحاوية ١١٤)

(٢) تحفة الذاكرين: الشوكاني ١٠٩

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ولتصنع على عيني. (الفتح ٤٠١/١٣ برقم ٧٤٠٧، ٧٤٠٨)

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي. (الفتح ٤٠٣/١٣ برقم ٧٤١٠، ٧٤١١)

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي (الفتح ٤٠٤/١٣ برقم ٧٤١٢)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل (٣/١٤٥٨ برقم ١٨٢٧) وأيضا (٤/٢١٤٨ برقم ٢٧٨٧)

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ( ٢/٧٠٢ برقم ١٠١٤ )

(٧) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: لما خلقت بيدي (الفتح ٤٠٤/١٣ برقم ٧٤١٤، ٧٤١٥)، ومسلم في كتاب القدر، باب تصريف الله القلوب كيف يشاء (٤/٢٠٤٥ برقم ٢٦٥٤)

(٨) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: وتقول هل من مزيد. (الفتح ٤٦٠/٨ برقم ٤٨٤٨، ٤٨٤٩)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون. (٤/٢١٨٧ برقم ٢٨٤٨)

(٩) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: وتقول هل من مزيد. (الفتح ٤٦٠/٨ برقم ٤٨٥٠ ) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون (٤/٢١٨٧ برقم ٢٨٤٦ )

(١٠) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة. (الفتح ٤٣١/١٣ برقم ٧٤٣٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/١٦٧-١٧١ برقم ١٨٣، وأيضا برقم ٢٩٤٠)

(١١) أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (الفتح ٣٥/٣ برقم ١١٤٥)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه. (١/٥٢٢ برقم ٧٥٨)

(١٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. (الفتح ٤٨٢/١٣ برقم ٧٥١٢)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار. (٢/٧٠٣ برقم ١٠١٦)

والضحك[(١)]، والفرح[(٢)]، وغير ذلك من الصفات التي وصف بها الرسول صلى الله عليه وسلم ربّه في الأحاديث الصحيحة التي تلقّاها أهل المعرفة بالقبول، فهذه الصفات ونظائرها يجب الايمان بها على أنّها صفات حقيقية لا تشبه صفات المخلوقين، واثباتها على ما يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل.

## المبحث الثاني : منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات وتقرير الشوكاني له جملة

إنّ منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات هو اثبات أسماء الله تعالى وصفاته التي ورد بها الكتاب والسنة والايمان بها من غير تأويل ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل، وعدم البحث عن كيفيتها ولا عن كنهها ، ونفي ما نفاه الكتاب والسنة من صفات لا يجوز ولا يليق أن يوصف بها سبحانه وتعالى . وهو منهج وسط بين الجافية والغالية، بين المعطّلة من الجهمية[(٣)] والمعتزلة[(٤)] ومن سلك مسلكهم من الأشاعرة[(٥)] وغيرهم من الذين يلحدون في أسماء الله وصفاته ، ويعطّلون حقائق ما وصف الله به نفسه، وما وصف به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبين الممثّلة من الكرّامية[(٦)] وغلاة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم فيسدد بعد ويقتل (الفتح ٤٧/٦ برقم ٢٨٢٦)، ومسلم في كتاب الامارة، باب بيان الرجلين... (١٥٠٤/٣ برقم ١٨٩٠ )

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التوبة (الفتح ١٠٥/١١ برقم ٦٣٠٨)، ومسلم في كتاب التوبة، باب في الحضّ على التوبة والفرح بها (٢١٠٢/٤ برقم ٢٧٤٤ ـ ٢٧٤٧)

(٣) هي احدى الفرق المنحرفة عن المنهج القويم، نسبة الى الجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ) الذى قال بالاجبار والاضطرار الى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلّها، وزعم أنّ الايمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأنّ الكفر هو الجهل به، وزعم أيضا أنّ الجنّة والنار تبيدان وتفنيان، ونفى أسماء الله تعالى وصفاته، وقال بخلق القرآن. (انظر: الفرق بين الفرق: البغدادي ١٩٩، والتبصير في الدين: الاسفراييني ١٠٧، والملل والنحل: الشهرستاني ٨٦/١، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الرازى ٦٨، والبرهان: السكسكي ٣٤)

(٤) تقدم تعريفها في باب التمهيد. والمعتزلة في هذا الباب يثبتون الأسماء وينكرون جميع الصفات، ذاتية وفعلية، بحيث لا يبقى الا الوجود الذهني، فيسمّون ذلك توحيدا .

(٥) تقدم تعريفها في باب التمهيد. والأشاعرة في الجملة لا يثبتون من الصفات الا سبعا ، لأنّ العقل دلّ على اثباتها، ويطلقون عليها صفات المعاني، وهي: الحياة، والقدرة، والارادة، والعلم، والكلام، والسمع، والبصر. ويؤوّلون بقية الصفات بتأويلات عقلية رغم ورود النصوص فيها من الكتاب والسنة، ولو تبعوا الحق وأنصفوا لرجعوا الى منهج أهل السنة والجماعة كما رجع اليه من ينتسبون اليه، وهو أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى .

(٦) الكرّامية هي طائفة من المرجئة أصحاب محمد بن كرّام (ت ٢٥٥هـ) من أهل سجستان، وهم يثبتون صفات الله تعالى، الا أنّهم ينتهون فيها الى التجسيم والتشبيه، ومن عقيدتهم أنّ الايمان هو الاقرار باللسان دون تصديق القلب، والمنافقون عندهم من المؤمنين، لأنّهم يقرّون بألسنتهم. (انظر: مقالات الاسلاميين: الأشعرى ٢٥٠/١، والفرق بين الفرق:
===

الرافضة[1] الذين يضربون لله عزّوجلّ الأمثال، ويشبهونه بالمخلوقات، وكلا المذهبين مجانب للصواب ، والمذهب الصحيح الذي لا معدل عنه لكلّ من يريد السير على الصراط المستقيم هو مذهب السلف الذين يؤمنون بأسماء الله وبما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم حقيقة لا مجازا ،على الوجه اللائق بكمال الله تعالى وجلاله وعزّته وعظمته ، لأنّه لا يصف الله تعالى أعلم به منه ، ولا يصف الله بعده من هو أعلم به من رسوله صلى الله عليه وسلم ،والله يقول عن نفسه :(( أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ .))[2] ويقول عن رسوله صلى الله عليه وسلم :(( وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى .))[3]

قال شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ ملخّصا مذهب السلف الصالح في هذا الباب :(( فالأصل في هذا الباب أن يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله نفيا واثباتا ، فيثبت لله ما أثبته لنفسه ، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه ،وقد علم أنّ طريق سلف الأمّة وأئمّتها اثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه ،مع اثبات ما أثبته من الصفات، من غير الحاد ،لا في أسمائه ولا في آياته ، فانّ الله تعالى ذمّ الذين يلحدون في أسمائه وآياته ،كما قال تعالى:(( وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .))[4] وقال تعالى :(( إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ،أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ . الآية ))[5] فطريقتهم تتضمّن اثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات اثباتا بلا تشبيه ، وتنزيها بلا تعطيل،كما قال تعالى:(( لَيْسَ

---

=== البغدادي ٢٠٢،والتبصير في الدين، للاسفراييني ١١١ ،والبرهان، للسكسكي ٣٥)

(١) تقدم تعريفها في باب التمهيد ،وغلاة الرافضة منهم هم المجسّمة الذين يشبهون الله عزّوجلّ بخلقه ،وهم الهشامية الذين ينقسمون الى فرقتين،فرقة تنتسب الى هشام بن الحكم الرافضي، وأخرى تنتسب الى هشام بن سالم الجواليقي.(انظر،مقالات الاسلاميين، للأشعري ٨٦/١،والفرق بين الفرق، للبغدادي ٤٧،٤٨ والتبصير في الدين، للاسفراييني ١١٩،واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للرازي ٦٥)

(٢) سورة البقرة ، آية ١٤٠ . (٣) سورة النجم ، آية ٣،٤ .

(٤) سورة الأعراف ، آية ١٨٠ . (٥) سورة فصلت ، آية ٤٠ .

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .))[1] ففي قوله :(ليس كمثله شيء) ردّ للتشبيه والتمثيل، وفي قوله :(وهو السميع البصير) ردّ للالحاد والتعطيل .))[2]

هذا هو منهج السلف في معرفتهم لربّهم عن طريق معرفة أسمائه وصفاته التي اتّصف بها كما جاءت بها الأدلة من كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ،وهو الذي عليه أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين، ومن جاء بعدهم من علماء السلف الذين يجب علينا اقتفاء أثرهم والسير على دربهم سائلين الله أن يحشرنا في زمرتهم في يوم الدين .

واليك فيما يلي نماذج من كلام بعضهم :-

١) قال الامام الأوزاعي[3]- رحمه الله -:"كنّا - والتابعون متوافرون - نقول: إنّ الله تعالى ذكره فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنّة من الصفات ".[4]

قلت : هذا تصريح يدلّ على اجماع التابعين المبنيّ على اجماع الصحابة المستند الى صريح الكتاب وصحيح السنّة في صفة الاستواء وغيرها من الصفات الواردة في الكتاب والسنّة .

والامام الأوزاعي - كما يصفه شيخ الاسلام ابن تيمية[5] أحد الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم : مالك بن أنس امام أهل الحجاز ،المتوفى سنة ١٧٩ هـ، والأوزاعي امام أهل الشام ،المتوفّى سنة ١٥٧ هـ ،والليث امام أهل مصر ،المتوفّى

---

(١) سورة الشورى ، آية ١١ .    (٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٠٣/٣ .

(٣) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي الدمشقي،عالم أهل زمانه ،كان صاحب سنّة واتّباع ،وله مذهب مستقلّ في الفقه ،عمل به فقهاء الشام والأندلس مدة ،توفّي سنة ١٥٧ هـ(انظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٨٤/١ ،وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٧٨/١ ،وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٠٧/٧ )

(٤) الأسماء والصفات، البيهقي ٥١٥ ط/ دار الكتب العلمية . وصحح ابن تيمية اسناده في الحموية الكبرى ٢٣ ط/ السلفية ،والذهبي في تذكرة الحفاظ ١٨١ ،وسير أعلام النبلاء ٣٥٥/٨ ،وفي العلو كما في مختصره للألباني ١٣٨ ،وكذا ابن القيم ،فقد قال: روى البيهقي باسناد صحيح الى الأوزاعي قال:... الخ. اجتماع الجيوش الاسلامية ٤٣ ط/ السلفية .

(٥) انظر الفتوى الحموية الكبرى : ابن تيمية ٢٣، ٢٤ .

سنة ١٧٥ هـ ، والثوري إمام أهل العراق المتوفّى سنة ١٦١ هـ ـ حكى شهرة القول في زمن التابعين بالإيمان بأنّ الله تعالى فوق العرش ، وبصفاته السمعية ، وإنما قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم [١] المنكر لكون الله فوق عرشه ، والنافي لصفاته ، ليعرف الناس أنّ مذهب السلف كان يخالف هذا .

وروى اللالكائي [٢] عن الأوزاعي قال : (( كان الزهري [٣] ومكحول [٤] يقولان : أمرّوا الأحاديث كما جاءت . )) [٥] أي الأحاديث في الصفات .

وقد روي مثل هذا عن وكيع [٦] ، ومالك بن أنس ، والأوزاعي ، وسفيان الثوري [٧] ، وسفيان بن عيينة [٨] وغيرهم . [٩]

---

(١) تقدّمت ترجمته في المقدّمة صفحة ( ٦ ) .

(٢) أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي ، مفيد بغداد في وقته ، من مؤلفاته العظيمة : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة . توفّي سنة ٤١٨هـ ( انظر ترجمته في تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ٧٠/١٤ ، وسير أعلام النبلاء : للذهبي ٤١٩/١٧ )

(٣) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري ، الإمام العلم الحافظ ، كان فقيهاً محدّثاً ، كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنّكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه . توفّي سنة ١٢٤هـ ( انظر ترجمته في : وفيات الأعيان : ابن خلكان ٣١٧/٣ ، وسير أعلام النبلاء : الذهبي ٣٢٦/٥ )

(٤) أبو عبد الله مكحول بن عبد الله الدمشقي ، عالم أهل الشام ، قال أبو حاتم : ما بالشام أحد أفقه من مكحول . توفّي سنة ١١٣هـ وقيل غير ذلك . ( انظر ترجمته في : وفيات الأعيان : ابن خلكان ٢٨٠/٥ ، وسير أعلام النبلاء : الذهبي ١٢٥/٥ )

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : اللالكائي (٤٣١/٣ برقم ٧٣٥) وأورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ( ٩٦/٢ ) ط/ دار الكتب العلمية .

(٦) انظر كتاب الصفات للإمام الدارقطني ( ٧١ برقم ٦٢ ) تحقيق : الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي ، والعلو للذهبي (١٦٩) اختصار الألباني . ووكيع : هو وكيع بن الجراح ابن مليح بن عدي الإمام الحافظ ، محدّث العراق ، قال الإمام أحمد فيه : كان وكيع بن الجراح إمام المسلمين في وقته . توفّي سنة ١٩٧هـ ( انظر ترجمته في : تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي (٤٦٦/١٣) ، وسير أعلام النبلاء : الذهبي (١٤٠/٩) )

(٧) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ، أمير المؤمنين في الحديث ، من أئمة المسلمين وأعلام الدين . توفّي سنة ١٦١هـ ( انظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ : الذهبي (٢٠٣/١) ، وتهذيب التهذيب : ابن حجر (١١١/٤) )

(٨) أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي الكوفي المحدّث ، كان من الحفاظ المتقنين . قال الشافعي : ما رأيت أحداً أحسن تفسيراً للحديث منه . توفّي سنة ١٩٨هـ ( انظر الجرح والتعديل : ابن أبي حاتم ٣٢/١ ، وسير أعلام النبلاء : الذهبي ٤٥٤/٨ )

(٩) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ( ٩٦/٢ ) .

والسلف ـ رحمهم الله ـ يقصدون بهذا الكلام اثبات الصفات التي دلت عليها النصوص على أساس قوله تعالى: (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))(١) وعلى قول الامام مالك ـ وقد سئل من قوله تعالى: (( الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ))(٢) كيف استوى؟ : (( الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والايمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ، واني لأخاف أن تكون ضالاً . ))(٣)

وقال سفيان بن عيينة : (( كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره ، لا كيف ، ولا مثل . ))(٤)

وقال الامام أبو حنيفة المتوفى سنة ( ١٥٠هـ ) : (( وما ذكره الله في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ، ولا يقال إن يده قدرته ونعمته ، لأن فيه ابطال الصفة ، وهذا قول أهل القدر والاعتزال ، ولكن يده صفته بلا كيف ، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف . ))(٥)

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة(٦) : (( اتفق الفقهاء كلهم من المشرق الى المغرب على الايمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة الرب عزوجل، من غير تغيير ولا وصف ولا تشبيه ، فمن فسر اليوم شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وفارق الجماعة ، فانهم لم يصفوا ولم يفسروا ، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا . ))(٧)

---

(١) سورة الشورى : آية ١١ (٢) سورة طه : آية ٥

(٣) رواه الدارمي في الرد على الجهمية (٢٨٠) ضمن عقائد السلف، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣٩٨/٣ برقم ٦٦٤) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٥/٦) ، والبيهقي في الاسماء والصفات (٤٠٨) ، والبغوي في شرح السنة (١٧١/١) ، وأورده الذهبي في العلو (١٤١ اختصار الألباني. قال شيخ الاسلام ابن تيمية بعد ذكر قول مالك: ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك. (مجموع فتاوى ٣٦٥/٥)

(٤) رواه الدارقطني في كتاب الصفات (٧٠ برقم ٦١) تحقيق الدكتور علي بن ناصر الفقيهي، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤٣١/٣ برقم ٧٣٦) والبغوي في شرح السنة (١٧١/١)

(٥) شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة (٥٨، ٥٩) شرح الملا علي القاري .

(٦) محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، فقيه العراق، صنف الجامع الكبير والجامع الصغير، توفي سنة (١٨١هـ) (انظر وفيات الأعيان: ابن خلكان (١٨٤/٤) ، وسير أعلام النبلاء: الذهبي (١٣٤/٦)

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: اللالكائي (٤٣٢/٣ برقم ٧٤٠) .

٢) قال الامام الدارمي[(١)] في مقدمة كتابه: الرّد على الجهمية.[(٢)]: (( و(( لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السمواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ.))[(٣)] (( يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ))[(٤)] ويتكلّم، ويرضى، ويسخط، ويغضب، ويحبّ، ويبغض، ويكره، ويضحك، ويأمر، وينهى، ذو الوجه الكريم، والسمع السميع، والبصر البصير، والكلام المبين، واليدين، والقبضتين، والقدرة، والسلطان، والعظمة، والعلم الأزلي، لم يزل كذلك ولا يزال، استوى على عرشه فبان من خلقه، لا تخفى عليه منهم خافية، علمه بهم محيط، وبصره فيهم نافذ، (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ))[(٥)]

٣) وقال ابن خزيمة[(٦)] في كتابه: التوحيد واثبات صفات الربّ عزّوجلّ.[(٧)] عند كلامه على صفة الوجه: (( فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز، وتهامة، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، مذهبنا: انّا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقرّ بذلك بألسنتنا، ونصدّق ذلك بقلوبنا، من غير أن نشبّه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، عزّ ربّنا عن أن يشبه المخلوقين، وجلّ ربّنا عن مقالة المعطّلين، وعزّ أن يكون عدما كما قاله المبطلون، لأنّ ما لا صفة له عدم - تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا الذى وصف بها نفسه في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.))

وقد نهج هذا المنهج السلفي جمع كبير من العلماء المحقّقين من الفقهاء

---

(١) أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني، محدّث هراة، له تصانيف في الردّ على الجهمية، منها: ردّ الامام الدارمي على بشر المريسي، والردّ على الجهمية. توفّي سنة ٢٨٠ هـ( انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ: الذهبي (٦٢١/٢، ٦٢٢)، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي (١٧٦/٢)

(٢) صفحة (٢٥٥، ٢٥٦) ضمن عقائد السلف. (٣) سورة الحشر: آية ٢٤.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٤٥. (٥) سورة الشورى: آية ١١.

(٦) أبو بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة النيسابوري، الامام الحافظ، الحجة الفقيه، كان سلفي العقيدة على طريقة أهل الحديث. له مصنّفات منها: كتاب التوحيد، وصحيح ابن خزيمة. توفّي سنة ٣١١ هـ (انظر ترجمته في: الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم (١٩٦/٧)، وسير أعلام النبلاء: الذهبي (٣٦٥/١٤)، وطبقات الشافعية: السبكي (١٠٩/٣، ١١٠)

(٧) صفحة (٢٦/١) تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ابراهيم الشهوان. ط/ ١٤٠٨هـ.

والمجتهدين والمحدثين [1] كلهم متفقون على هذا المنهج، ولم يتكلم أحد منهم في شيء من هذا الباب إلا تبعاً لما قاله الله عزّ وجلّ، ولما نطق به رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن قدامة المقدسي[2]: ((وكلّ ما جاء في القرآن، أو صحّ عن المصطفى صلى الله عليه وسلم من صفات الرحمن وجب الإيمان به، وتلقّيه بالتسليم والقبول، وترك التعرّض له بالردّ والتأويل، والتشبيه والتمثيل... وعلى هذا درج السلف وأئمّة الخلف رضي الله عنهم، كلّهم متّفقون على الإقرار، والإمرار، والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله، من غير تعرّض لتأويله، وقد أمرنا بالاقتفاء لآثارهم، والاهتداء بمنارهم، وحذرنا المحدثات، وأخبرنا أنّها من الضلالات.))[3]

وطريقة السلف في إثبات أسماء الله وصفاته بنوها على الأسس الآتية[4]:

١ - الإثبات

أي أنّهم يثبتون ما دلّ عليه صريح الكتاب وصحيح السنة من أسماء الله

---

(١) منهم على سبيل المثال: أبو الحسن الأشعري (ت ٣٣٠هـ) في الإبانة عن أصول الديانة (ص ٢٠-٢٢) تحقيق/د. فوقية حسين محمود، والجويني (ت ٤٣٨هـ) في إثبات الاستواء والفوقية ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١٨١/١)، والصابوني (ت ٤٤٩هـ) في عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص ٣-٧) تحقيق/بدر البدر، والبيهقي (ت ٤٥٨هـ) في الاعتقاد (ص ٥٣)، وابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) في التمهيد (١٤٥/٧)، وابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ) في لمعة الاعتقاد (ص ٣-٧)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) في مجموع الفتاوى المجلد الثالث والسادس، والذهبي (ت ٧٤٨هـ) في العلو (ص ١٣٥ وما بعدها) اختصار الألباني، وابن القيم (ت ٧٥١هـ) في الصواعق المرسلة، واجتماع الجيوش الإسلامية، وابن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٢هـ) في شرح العقيدة الطحاوية (ص ٩٩، ٣١٣)، وابن رجب (ت ٧٩٢هـ) في فضل علم السلف على الخلف (ص ١٣٩، ١٤٠)، وابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠هـ) في إيثار الحقّ على الخلق، وابن كثير (ت ٨٨٤هـ) عند تفسيره لآية (٥٤) من سورة الأعراف، ومرعي بن يوسف الكرمي (ت ١٠٣٣هـ) في أقاويل الثقات، والسفاريني (ت ١١٨٨هـ) في لوامع الأنوار البهية (٢٠/١-٢٢)، ومحمد صديق حسن خان (ت ١٣٠٧هـ) في قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر (ص ٣١، ٣٢) تحقيق د/عاصم القريوتي.

(٢) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، كان عالم الشام في زمانه، وكان ثقة حجّة نبيلاً غزير الفضل نزهاً ورعاً عابداً على قانون السلف، توفّي (٦٢٠هـ) من مؤلّفاته في العقيدة: ذمّ التأويل، ولمعة الاعتقاد (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٦٥/٢٢، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١٣٣/٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٨٨/٥).

(٣) لمعة الاعتقاد: ابن قدامة المقدسي (ص ٤، ٧) ط/١٣٩٥هـ المكتب الإسلامي.

(٤) تقدمت باختصار في تعريف توحيد الأسماء والصفات. (صفحة ٢٥٣، ٢٥٤).

وصفاته على ما يليق بجلاله، مع اعتقادهم أنها دالة على معان ثابتة كاملة في نفس الأمر، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وقد روي عن كثير من السلف ما يدل على أن مذهبهم هو الاثبات، وقد ذكرت جملة من أقوالهم، وهي تدل على أن السلف يؤمنون بكل ما أخبر الله به عن ذاته وأسمائه وصفاته، ولا يفرقون بين الذات والصفات كما فعلت الجهمية والمعتزلة، كما أنهم لا يفرقون بينها فيثبتون البعض وينكرون الآخر كما فعلت الأشاعرة وأتباعهم.

وكلامهم في الاثبات يرتكز على قاعدتين مهمتين ذكرهما شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى[1] وأسوقهما بالايجاز والاختصار:

القاعدة الأولى: القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر.

فان من أثبت بعض الصفات، كالحياة، والقدرة، والارادة، ويجعل ذلك كله حقيقة، وينكر المحبة، والرضا، والغضب، ويجعل ذلك مجازا.

يقال له: ما الفرق بين ما أثبته وما نفيته؟ بل القول في أحدهما كالقول في الآخر. فان قال: ان ارادته مثل ارادة المخلوقين. قيل: فكذلك رضاؤه ومحبته وغضبه، وهذا هو التمثيل.

وان قال: ان له ارادة تليق به كما أن للمخلوقين ارادة تليق بهم. قيل له: فكذلك له محبة تليق به، وللمخلوقين محبة تناسب حالهم، وكذلك سائر الصفات، كالرضا والغضب.

فان قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام. يقال له: الارادة ميل النفس الى جلب منفعة أو دفع مضرة.

فان قال: هذه ارادة المخلوق. قيل له: هذا غضب المخلوق.

وكذلك يلزم القول في بقية الصفات، فيجب أن يؤخذ الكل، أو يقال في الكل بما يقال في البعض.

---

(١) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية ( ١٧/٣ ــ ٢٧ )، وانظر أيضا منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ( ٢٠، ٢١ )

وبهذه القاعدة نرد على طوائف منحرفة في هذا الباب من الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، وأمثالهم .

القاعده الثانية : القول في الصفات كالقول في الذات :

فالله سبحانه وتعالى له ذات لا تشبه ذوات المخلوقين ، وكذلك صفاته وأفعاله لا تشبه صفات المخلوقين وأفعالهم .

اذ يلزم من أقر بأن لله حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيئ أن يقول : إن سمعه وبصره وكلامه الثابت في نفس الأمر لا يشابهه سمع المخلوقين ولا بصرهم ولا كلامهم .

فاذا قال قائل : أنا أنفي استواء الله خشية من تشبيه الله بخلقه، فيقال له : انف وجود الله وذاته ، لأنه يلزم من ذلك تشبيه الله بخلقه ، فان قال : لله وجود يخصه ، وذات تخصه ، لا تشبه ذوات المخلوقين . قلنا : وكذلك نزوله واستواؤه .

وبهاتين القاعدتين نرد على شبهة القائلين ان مذهب السلف هو التفويض وليس الاثبات .

٢ ـ التنزيه

أما التنزيه فان السلف يعتقدون أن الله لا يشبهه شيئ، لا في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فمن شبه الله بخلقه، وألحد في أسمائه وصفاته فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه أو ما وصف الله به رسوله تشبيها أو تمثيلا ، (( فانه سبحانه لا سمي له، ولا كفؤ له، ولا ندله، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى )) (١)

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : (٢) (( واعلموا أن رب السموات والأرض يستحيل عقلا أن يصف نفسه بما يلزمه محذور أو يلزمه محال أو يؤدي الى نقص ، كل ذلك مستحيل عقلا ، فان الله لا يصف نفسه الا بوصف بالغ من الشرف والعلو

---

(١) العقيدة الواسطية : ابن تيمية ١٧ شرح الدكتور صالح بن فوزان بن فوزان .

(٢) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي الجكني العلامة الأصولي المفسر اللغوي صاحب أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن توفي ١٣٩٣هـ ( انظر ترجمته في مقدمة أضواء البيان ٣/١ ـ ٦٤ ) .

والكمال ، مايقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين ))[1] على حد قوله تعالى: (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))[2] وقوله سبحانه : (( وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ))[3] وقوله سبحانه : (( هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ))[4] وقوله عزوجل : (( فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ))[5] وغيرها من الآيات التي أخبر الله فيها بأنه منزّه عن الكفؤ والمثل والندّ والشبيه ، لأنه تبارك وتعالى موصوف بصفات الكمال الذي لا نقص فيه ، ومنزّه عن أن يماثله غيره في صفات كماله .

يقول شيخ الاسلام أبوعثمان الصابوني [6] رحمه الله مبيّنا عقيدة أصحاب الحديث المتمسّكين بالكتاب والسنة أنهم ((يثبتون لهجل جلاله منها ( أي من الصفات التي وردت في الكتاب والسنة ) ما أثبت لنفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعتقدون تشبيها لصفاته بصفات خلقه ، فيقولون إن خلق آدم بيده ، كما نصّ سبحانه عليه في قوله عز من قائل : (( قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ))[7] ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين أو القوّتين تحريف المعتزلة والجهمية ـ أهلكهم الله ـ ولا يكيّفونهما بكيف ، أو يشبّهونهما بأيدي المخلوقين تشبيه المشبّهة ـ خذلهم الله ـ وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من التحريف والتكييف والتشبيه ، ومنّ عليهم بالتعريف والتفهيم ، حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه ، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه ، واتبعوا قول الله عزوجل : (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))[8] [9]

---

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات : محمد الأمين الشنقيطي ٢١ .
(٢) سورة الشورى : آية ١١ . (٣) سورة الاخلاص : آية ٤ .
(٤) سورة مريم : آية ٦٥ . (٥) سورة النحل : آية ٧٤ .
(٦) اسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد بن اسماعيل أبوعثمان الصابوني ، مقدم أهل الحديث في بلاده خراسان ،كان على منهج أهل السنة ويلقّب بشيخ الاسلام توفي ٤٤٩هـ ( سير أعلام النبلاء : الذهبي ٤٠/١٨ وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٢٨٢/٣ ) .
(٧) سورة ص : آية ٧٥ . (٨) سورة الشورى : آية ١١ .
(٩) عقيدة السلف أصحاب الحديث : الصابوني ٤ تحقيق بدر البدر .

## ٣ ـ قطع الأطماع عن ادراك الكيفية والكنه

لأنّ ادراك الكيفية مستحيل ، وليس في امكان البشر الاحاطة بذاته سبحانه وتعالى لقوله عزوجل : (( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ))(١) أي لا تحيط علومهم بذاته ، ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته ·(٢)

فمعرفة الكيفية لا سبيل بالوقوف عليها ، فلا بدمن اليأس من إدراكها ، وذلك لأنّ معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الذات ، لأنّ الصفات تختلف باختلاف موصوفاتها ، وذات الله عزوجل لا يسئل عن كنهها وكيفيتها ، فكذلك صفاته سبحانه لا يصحّ السؤال عن كيفياتها ·(٣)

والواجب الذي كلّفنا به وأمرنا باعتقاده هوالالتزام بما جاءت به الأدلة الشرعية ، ونهينا عن تجاوز ذلك ، والخوض فيما لا علم لنا به ، ولا يمكننا ادراكه ، والوقوف على حقيقته ، وهذا أصل معروف عند السلف رحمهم الله ، فانّهم يقرّون بكلّ ماجاء في كتاب الله وفي سنّة رسوله صلى الله عليه وسلم بلا كيف ولا تمثيل ·

يقول ابن قتيبة (٤) رحمه الله : (( وعدل القول في هذه الأخبار أن نؤمن بما صحّ منها بنقل الثقات لها ، فنؤمن بالرؤية والتجلّي ، وأنّه يعجب ، وينزل من السماء ، وأنّه على العرش استوى ، وبالنفس ، واليدين ، من غير أن نقول بكيفية أو بحدّ ، أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت ، فنرجو أن نكون في ذلك القول والعقد على سبيل النجاة غدا ان شاء الله ))(٥)

وقد أثر عن كثير من السلف أنهم قالوا عندما سئلوا عن كيفية استواء الله

---

(١) سورة طه : آية ١١٠ · (٢) فتح القدير : الشوكاني ٣/٣٨٧ ·

(٣) انظر منهج ودراسات لآيات الاسماء والصفات : الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٢٥ ·

(٤) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري عاش في فترة ( ٢١٣ ـ ٢٧٦هـ) كان على مذهب السلف ، له مؤلفات مفيدة منها : تأويل مختلف الحديث ، والاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية ، قال الخطيب : كان ثقة دينا فاضلا ، وقال الذهبي : كان رأسا في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس ( تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ١٠/١٧٠ وسير أعلام النبلاء : الذهبي ١٢/ ٢٩٦ ) ·

(٥) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية : ابن قتيبة ٢٤٣ ضمن عقائد السلف ·

عزوجل : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة[1].

فاتّفق هؤلاء السلف على أنّ الكيف غير معلوم لنا ، وأنّ السؤال عنه بدعة ،ولذلك كان اعتقاد السلف في هذا الباب اثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل ، على حد قوله تعالى : (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))[2]

قال الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية :

(( ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها،وتدبّرها حقّ تدبّرها،مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة ، ويزداد بصيرة اذا تأمّل معنى قوله : (( وهو السميع البصير )) فإنّ هذا الاثبات بعد ذلك النفي للماثل قد اشتمل على برد اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب ، فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجّة النيّرة والبرهان القوي ، فانك تحطم بها كثيرا من البدع ، وتهشم بها رؤوسا من الضلالة ، وترغم بها آناف طوائف من المتكلّفين ، ولا سيّما اذا ضممت اليه قوله سبحانه : (( وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا[3] ))[4].

وهذا هو المنهج القويم وهو الصواب الذي يجب على كل مسلم اتّباعه والأخذ به ولا يجوز العدول عنه والأخذ بما سواه .

وقد سلك الشوكاني رحمه الله هذا المسلك جملة لا تفصيلا ، ففي رسالته المسماة بالتحف في مذاهب السلف فصّل تفصيلا جميلا عن مذهب السلف في هذا الباب ، وقرّره وأثنى عليه،وذمّ علم الكلام وأهله ، واستنكر عليهم في مناهجهم وفيما يلي نسوق بعضا من كلامه :

قال رحمه الله : (( اعلم أنّ الكلام في الآيات والأحاديث الواردة في الصفات قد طالت ذيوله وتشعّبت أطرافه ، وتناسبت فيه المذاهب ، وتفاوتت فيه الطرائق، وتخالفت فيه النحل ، وسبب هذا عدم وقوف المنتسبين الى العلم حيث أوقفهم الله،

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة ٢٦٤ وانظر أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات : مرعى بن يوسف الكرمي (١٢٠، ١٢١)تحقيق شعيب الأرناؤط .

(٢) سورة الشورى : آية ١١ . (٣) سورة طه : آية ١١٠ .

(٤) فتح القدير : الشوكاني (٥٢٨/٤) .

ودخولهم في أبواب لم يأذن الله لهم بدخولها ، ومحاولتهم لعلم شيء استأثر الله بعلمه ، حتى تفرّقوا فرقا ، وتشعّبوا شعبا ، وصاروا أحزابا ، وكانوا في البداية ومحاولة الوصول الى ما يتصوّرونه من العامة مختلفي المقاصد ، متبايني المطالب :

فطائفة ـ وهي أخفّ هذه الطوائف ـ المتكلّفة علم ما لم يكلّفها الله بعلمه ـ اثما وأقلّها عقوبة وجرما ، وهي التي أرادت الوصول الى الحق ، والوقوف على الصواب لكن سلكت فيه طريقة متوعّرة ، وصعدت في الكشف عنه الى عقبة كؤد[1] لا يرجع من سلكها فضلا عن أن يظفر فيها بمطلوب صحيح ، ومع هذا أصّلوا أصولا ظنّوها حقّا فدفعوا بها آيات قرآنية ، وأحاديث صحيحة نبوية ، واعتلوا في ذلك الدفع بشبه واهية ، وخيالات مختلة .[2]

وقسّم الشوكاني هؤلاء الى طائفتين،ويقصد بهما:المعتزلة القدرية ،والجبرية الجهمية ،قال:

(( الطائفة الأولى : هي الطائفة التي غلت في التنزيه ، فوصلت الى حد يقشعر عنده الجلد ، ويضطرب له القلب ، من تعطيل الصفات الثابتة بالكتاب والسنة ثبوتا أوضح من شمس النهار ، وأظهر من فلق الصباح ، وظنّوا هذا من صنيعهم موافقا للحق ، مطابقا لما يريده الله سبحانه ، فَضَلّوا الطريق المستقيم ، وأضلّوا من رام سلوكها . والطائفة الأخرى : هي الطائفة التي غلت في اثبات القدرة غلوا بلغ الى حدّ أنّه لا تأثير لغيرها ، ولا اعتبار بما سواها ، وأفضى ذلك الى الجبر المحض والقسر الخالص ، فلم يبق لبعث الرسل وانزال الكتب كثير فائدة ، ولا يعود ذلك على عباده بعائدة ، وجاءوا بتأويلات للآيات البيّنات فكانوا كالطائفة الأولى في الضلال والاضلال .

وذكر طائفة ثالثة ويقصد بها الأشاعرة توسطت ورامت الجمع بين الضب والنون[3] وظنّت أنّها وقفت بمكان بين الإفراط والتفريط ، ثم أخذت كل طائفة

---

(١) جاء في مختار الصحاح صفحة٢٣٤،مادة :كأد : كؤد : أي شاقّة المصعد .

(٢) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٢ ضمن الرسائل السلفية .

(٣) الضب : حيوان معروف ، والنون: الحوت يقال: رام الجمع بين الضب والنون.ذلك لما بينهما من العداوة.( معجم التراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية القديم منها والمولد : أحمد أبو سعد ٣٧) .

من هذه الطوائف الثلاث تجادل وتناضل وتحقق وتدقق في زعمها وتجول على الأخرى وتصول [١] بما ظفرت به مما يوافق ما ذهبت اليه و (( كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ))[٢] وعند الله تلتقي الخصوم ))[٣]

ثم بيّن ـ رحمه الله ـ مذهب الحقّ الذي يجب الأخذ به في هذه المسألة بقوله :

(( وانّ الحقّ الذي لا شك فيه ولا شبهة ، هوما كان عليه خير القرون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وقد كانوا ـ رحمهم الله وأرشدنا الى الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم ـ يمرّون أدلّة الصفات على ظاهرها ولا يتكلّفون علم ما لا يعلمون ، ولا يتأوّلون ، وهذا المعلوم من أقوالهم وأفعالهم ، والمتقرر من مذاهبهم ، لا شك فيه شاك ، ولا ينكره منكر ، ولا يجادل فيه مجادل ))[٤]

وقال ـ رحمه الله ـ :

(( إنّ مذهب السلف من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وتابعيهم ، هو ايراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ، ولا تأويل متعسّف لشيئ منها ولا جبر ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل يفضي اليه كثير من التأويل ، وكانوا اذا سأل سائل عن شيئ عن الصفات ، تلوا عليه الدليل ، وأمسكوا عن القال والقيل ، وقالوا : قال الله هكذا ، ولا ندري بما سوى ذلك ، ولا نتكلّف ، ولا نتكلّم بما لم نعلمه ، ولا أذن الله لنا بمجاوزته ، فان أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه ، ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول اليه الا بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ماهم عليه ، وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وحفظه التابعون عن الصحابة ، وحفظه من بعد التابعين عن التابعين ))[٥]

---

(١) جال يجُول ، وصال يصُول بمعنى كَرَّ وَوَثَبَ ( مختار الصحاح : الرازي ١٥٦ مادة : ص ول )
(٢) سورة الروم : آية ٣٢ .
(٣) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٣٠٢ ضمن الرسائل السلفية .
(٤) المصدر السابق ٤ .
(٥) المصدر السابق ٥ .

وقال - رحمه الله - مقرّراً لمنهج السلف في الاثبات مع التنزيه : (( إنّ الآية (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))[1] يستفاد بها نفي المماثلة في كل شيء ، فيدفع بهذه الآية في وجه المجسّمة ، ويعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع البصير ، وعند ذكر السمع والبصر واليد والاستواء ونحو ذلك مما اشتمل عليه الكتاب والسنة ، فتقرّر بذلك الاثبات لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات ، فيدفع به جانبي الافراط والتفريط ، وهما المبالغة في الاثبات المفضية الى التجسيم ، والمبالغة في النفي المفضية الى التعطيل ، فيخرج من بين الجانبين وغلوّ الطرفين أحقّية مذهب السلف الصالح ، وهو قولهم باثبات ما أثبته لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه الا هو . ))[2]

وقال في قطع الأطماع عن ادراك الكيفية المستنبط من قوله تعالى :(( وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ))[3]:إنّه لم يحط بفائدة هذه الآية ويقف عندها ، ويقتطف من ثمراتها الا الممرّون الصفات على ظاهرها المريحون أنفسهم من التكلّفات والتعسّفات والتأويلات والتحريفات ، وهم السلف الصالح كما عرفت ، فهم الذين اعترفوا بالاحاطة[4]؛ وأوقفوا أنفسهم حيث أوقفها الله ، وقالوا : الله أعلم بكيفية ذاته ، وماهية صفاته ، بل العلم كلّه له .[5]

وقد ذمّ الشوكاني - رحمه الله- علم الكلام وأهله [6] وبيّن بدعهم في ردّ الآيات والأحاديث التي تخالف عقولهم المريضة ، فذكر أنّ كلّ قول من أقوالهم صادر عن جهل ، ولا سيّما اذا كان في ذات الله وصفاته ، فانّ ذلك من المخاطرة في الدين مالم يكن في غيره من المسائل .[7] وذكر أنّ من أشنع بدعهم وأفظعها أنهم بعد أن جعلوا هذه التعقّلات التي تعقّلوها على اختلافهم فيها وتناقضهم

---

(١) سورة الشورى : آية ١١ .
(٢) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ١٠ ضمن الرسائل السلفية .
(٣) سورة طه : آية ١١٠ . (٤) لعلّ الصواب : بعدم الاحاطة .
(٥) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ١٠،٩ ضمن الرسائل السلفية .
(٦) انظر أيضاً أدب الطلب ومنتهى الأرب للشوكاني ١٤٧،١٤٦ تحقيق محمد عثمان الخشت .
(٧) انظر التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٩ ضمن الرسائل السلفية .

في معقولاتها أصولا تردّ اليها أدلّة الكتاب والسنة جعلوها معيارًا لصفات الرب تعالى ، فما تعقله هذا من صفات الله قال به جزما ، وما تعقله خصمه منها قطع به ، فأثبتوا لله تعالى الشيئ ونقيضه استدلالا بما حكمت به عقولهم الفاسدة وتناقضت في شأنه ، ولم يلتفتوا الى ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل ان وجدوا ذلك موافقا لما تعقلوه جعلوه مؤيدا له ومقوّيا ، وقالوا قد ورد دليل السمع مطابقًا لدليل العقل ، وان وجدوه مخالفا لما تعقلوه جعلوه واردا على خلاف الأصل ، ومتشابها، وغير معقول المعنى ، ولا ظاهر الدلالة ، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم ، فافترى على عقله بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه ، وجعل ذلك أصلا يردّ اليه أدلّة الكتاب والسنة ، وجعل المتشابه عند أولئك محكما عنده ، والمخالف لدليل العقل عندهم موافقا له عنده ، فكان حاصل كلام هؤلاء أنّهم يعلمون من صفات الله ما لا يعلمه ، وكفاك هذا ، وليس بعده شيئ .))[1]

وذكر - رحمه الله - مثالا لما يقوله كثير من المتكلّمين في وصف الله تعالى ويذكرونه في مؤلّفاتهم ، ويحكونه عن أكابرهم : (( انّ الله سبحانه وتعالى تنزّه وتقدّس ، لا هو جسم ، ولا هو جوهر ، ولا عرض ، ولا داخل العالم ، ولا خارجه ))[2] فاستنكر عليهم قائلا : فأنشدك الله ، أيّ عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة في النفي ؟ وأيّ عبارة في الدلالة على هذا النفي تقوم مقام هذه المبالغة ، فكأنّ هؤلاء في فرارهم من شبهة التشبيه الى هذا التعطيل ، كما قال القائل :

فكنت كالساعي الى مِثْعَبٍ[3] مُوائلا من سَبَلِ الراعد (٤)

وهكذا اشتدّ انكار الشوكاني على المتكلّمين ومناهجهم ، وقرّر أنّ المذهب الحقّ في الصفات هو امرارها على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تكلّف

---

(١) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٧ ضمن الرسائل السلفية .
(٢) انظر مثلا : المواقف في علم الكلام للايجي ٢٧٣، ٢٧٤ والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ٢٨، ٢٩
(٣) المثعب : مسيل الحوض ، أو السطح الذي يتفجّر منه الماء ، والموائل : طالب النجاة ، وهذا المثل يضرب لمن يهرب من شيئ فيقع في أشرّ منه .
(٤) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٨، ٩ ضمن الرسائل السلفية .

ولا تعسّف ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل .[1] وأنّ هذا المسلك القويم هو مسلك السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، فلم يكلّف الله أحدا من عباده أن يعتقد أنه جلّ جلاله متّصف بغير ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن زعم أنّ الله سبحانه تعبّد عباده بأن يعتقدوا أنّ صفاته الشريفة كائنة على الصفة التي يختارها طائفة من طوائف المتكلمين ،فقد أعظم على الله الفرية ، بل كلّف عباده أن يعتقدوا أنّه ليس كمثله شيء، وأنّهم لا يحيطون به علما .[2]

المبحث الثالث : شبهة تتعلّق بما في التحف من عقيدته

قد توهم بعض عبارات الشوكاني في التحف أنّه مفوّض . كقوله :

(( امرار أدلة الصفات على ظاهرها ))[3]، وقوله :(( يمرّون أدلّة الصفات على ظاهرها ،ولا يتكلّفون علم ما لا يعلمون ،ولا يتأوّلون ))[4]، وقوله :(( إنّ المذهب الحق في الصفات هو امرارها على ظاهرها ،من غير تأويل ،ولا تحريف ،ولا تكلّف ،ولا تعسّف ،ولا جبر ولا تشبيه ،ولا تعطيل . ))[5]، وكقوله عن الاستواء :(( فالسلامة والنجاة في امرار ذلك على الظاهر، والاذعان بأنّ الاستواء والكون على ما نطق به الكتاب والسنة ، من دون تكييف ،ولا تكلّف ، ولا قيل ، ولا قال . ))[6] حيث أنّه لم يصرّح تصريحا بفهم معاني الصفات ، غير أنّ هناك أدلة كثيرة تدلّ عليه .

فالذي أراه من خلال تتبّعي لكلامه أنّه ليس من أهل التفويض .[7] وذلك لما يأتي :

١ ـ إنّ عبارة الشوكاني : امرار أدلّة الصفات على ظاهرها من غير تكييف ،ولا تشبيه ، ولا تعطيل . ليست عبارة جديدة ،لأنّه سبقه بها بعض علماء السلف عندما تحدّث عن آيات وأحاديث الصفات ،كما ذكرنا . والمراد من هذه العبارة هو الاثبات بعينه ،لأنّ هذه

---

(١) التحف في مذاهب السلف، الشوكاني ٨ ضمن الرسائل السلفية .
(٢) كشف الشبهات عن المشتبهات ، الشوكاني ١٨ ضمن الرسائل السلفية .
(٣) التحف في مذاهب السلف ، الشوكاني ٤ (٤) المصدر السابق نفس الصفحة
(٥) المصدر السابق ٨ . (٦) المصدر السابق ١٢ .
(٧) إلا فيما يتعلّق بصفة المعية . حيث توقّف عن تفسيرها بمعيّة العلم ،وزعم أنّ هذا التفسير شعبة من شعب التأويل التي تخالف مذهب السلف، كما سيأتي تفصيله في صفحة ( ٣٥٣ ).

النصوص جاءت بالاثبات، على أساس قوله تعالى: (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))[1] وعلى قول الامام مالك وشيخه ربيعة - رحمهما الله - في الاستواء: "أنه معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة"[2] أي معلوم معناه من لغة العرب، أما التفويض فهو في الكيفية، لا في المعنى .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:

(( فقول ربيعة ومالك: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والايمان به واجب". موافق لقول الباقين: "أمروها كما جاءت بلا كيف". فانما نفوا علم الكيفية، ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كان القوم آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول". ولما قالوا: "أمروها كما جاءت بلا كيف". فان الاستواء حينئذ لا يكون معلوما، بل مجهول بمنزلة حروف المعجم، وأيضا فانه لا يحتاج الى نفي علم الكيفية اذا لم يفهم عن اللفظ معنى، وانما يحتاج الى نفي علم الكيفية اذا أثبتت الصفات . وأيضا فان من ينفي الصفات الخبرية[3] أو الصفات مطلقا لا يحتاج أن يقول: بلا كيف . فمن قال: ان الله ليس على العرش . لا يحتاج أن يقول: بلا كيف . فلو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا: بلا كيف . وأيضا فقولهم: "أمروها كما جاءت". يقتضي ابقاء دلالتها على ما هي عليه، فانها جاءت ألفاظ دالة على معاني، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال: أمروا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد، أو أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة . وحينئذ تكون قد أمرت كما جاءت، ولا يقال حينئذ: بلا كيف . اذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو في القول . ))[4]

٢ - إنّ الشوكاني - رحمه الله تعالى - صرّح باثبات الصفات في عدة مواضع:

---

(١) سورة الشورى: آية ١١ (٢) سبق تخريجه في صفحة ( ٢٦٤ ).

(٣) في الأصل: الجزئية . ولعل الصحيح ما أثبته .

(٤) الفتوى الحموية الكبرى: ابن تيمية ٢٥ ط/ السلفية .

كقوله عن مذهب السلف في صفة الاستواء: (( نثبت ما أثبته الله لنفسه من استوائه على عرشه، على هيئة لا يعلمها إلا هو، وكيفية لا يدري بها سواه، ولا نكلف أنفسنا غير هذا، فليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا يحيط عباده به علما ))[1]

وقوله عند وصفه سبحانه بالسميع والبصير، وعند ذكر السمع والبصر، واليد، والاستواء، ونحو ذلك، مما اشتمل عليه الكتاب والسنة: (( الإثبات لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات. ))[2]

وكقوله عن مذهب السلف في الصفات: (( إثبات ما أثبته ( الله ) لنفسه من الصفات، على وجه لا يعلمه إلا هو، فإنه القائل: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ))[3]

فمثل هذه العبارات لا تدل إلا على إثبات معاني الصفات، أما كيفيتها فلا يعلمها إلا الله. وقد جمع في هذه العبارات بين الإثبات: أي إثبات معاني الصفات كما تقتضيه معرفة اللغة العربية، على وجه اللائق به سبحانه، وبين التنزيه: أي تنزيه الله سبحانه عن المماثلة للمخلوقات، على حد قوله تعالى: (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))[4]

وقد استعمل شيخ الإسلام ابن تيمية مثل هذه العبارات في كتبه، كقوله ـ رحمه الله ـ: (( إن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته ( الله ) من الصفات من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تحريف، ولا تعطيل. ))[5]

وقوله نقلا عن أبي سليمان الخطابي[6] قال: (( فأما ما سألت عنه من الصفات، وما جاء منها في الكتاب والسنة، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها. ))[7]

والمعروف أن السلف يثبتون الصفات إثباتا حقيقيا وفق ما تضمنته النصوص من معنى، مع القطع بعدم المشابهة في ذلك بين صفات الخالق وصفات المخلوق، أما

---

(١) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١١ ضمن الرسائل السلفية.
(٢) المصدر السابق ١٠ . (٣) المصدر السابق ١٠
(٤) سورة الشورى: آية ١١ . (٥) التحفة المهدية شرح التدمرية ٣٠، وانظر مجموع فتاوى ( ٣/٣ ) (٦) سبقت له ترجمة في صفحة ( ١٣١ ).
(٧) الفتوى الحموية الكبرى: ابن تيمية ٣٤ .

المفوّضة فاثباتهم للصفات ليس اثباتا حقيقيا ، لأنّهم يثبتون اللفظ فقط دون معناه ، ويقولون إنّ الظاهر منها غير مراد ، وانّه من المتشابهات التي يجب تفويض معرفتها الى الله تعالى ، وهذا المعنى من التفويض واضح فيما قاله الامام السيوطي[1] ـ رحمه الله ـ عن مذهب التفويض ، وقد زعم أنّه مذهب السلف : (( وجمهور أهل السنة ، منهم السلف وأهل الحديث ، على الايمان بها ، وتفويض معناها المراد منها الى الله تعالى ولا نفسّرها ، مع تنزيهنا له عن حقيقتها ٠ ))[2]

والتفويض بهذا المعنى هو التفويض المطلق الذي أنكره السلف، فنسبته اليهم خطأ ، لأنّ تفويض السلف كما ذكرنا تفويض الكيفية ، مع فهم معاني النصوص وتعقّلها، وهذا ما يدين الله به السلف قديما وحديثا ٠

ولعلّ الشوكاني ـ رحمه الله ـ في رسالته التحف لم يكن من أهل التفويض بالمعنى الأوّل ،لأنّه :

أ ـ أنكر على من نفى ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأثبت أنّ الله سبحانه في سمائه ، مستو على عرشه ، بائن من خلقه ٠[3]

ب ـ أثبت صفة الاستواء والعلوّ لله تعالى بالكتاب والسنة ، وكذلك بالفطرة ،فقال : (( ٠٠٠ بل هذا مما يجده كلّ فرد من أفراد الناس في نفسه ، ويحسّه في فطرته ، وتجذبه اليه طبيعته ، كما تراه في كلّ من استغاث بالله سبحانه وتعالى ،والتجأ اليه ،ووجّه أدعيته الى جنابه الرفيع ،وعزّه المنيع، فانّه يشير عند ذلك بكفّه ، أو يرمي الى السماء بطرفه ، ويستوي في ذلك عند عروض أسباب الدعاء ، وحدوث بواعث الاستغاثة ٠٠٠ عالم الناس وجاهلهم ، والماشي على طريقة السلف ، والمقتدي بأهل التأويل القائلين بأنّ الاستواء هو الاستيلاء ٠ ))[4]

---

(١) عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطي،من الأئمة الحفاظ ومن المؤرخين والأدباء،نافت مؤلفاته عن ٦٠٠ مؤلف،بين مؤلف في عدة مجلدات،ومؤلف لايتجاوز الكراسة ٠ توفّي (٩١١هـ)( انظر ترجمته في:الضوء اللامع للسخاوي ٦٥/٤،٩/٢،٥/١ والبدر الطالع للشوكاني ٣٢٨/١، والأعلام للزركلي ٣٠١/٣ ) ٠

(٢) الاتقان في علوم القرآن : السيوطي (١٢/٣) تحقيق:محمد أبو الفضل ابراهيم ،ونقل السيوطي أيضا هذا الرأي عن الرازي ٠

(٣) انظر التحف في مذاهب السلف : الشوكاني(ص ١) ضمن الرسائل السلفية ٠

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة ٠

وهذا الكلام مما يدلّ على أنّ الشوكاني يفهم معنى صفة الاستواء، والعلوّ، وأنّه أثبتها على ظاهرها، على كيفية لا يعلمها إلا الله، وهو بهذا سلفي لا مفوّض، إلا في صفة المعية، كما سيأتي بيانه. وقد فسّر كلمة الاستواء الواردة في الآيات بأنّها العلوّ والاستقرار، وقال: وهذا المعنى هو المناسب للآية.(١) كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

ج ـ أثبت ـ رحمه الله ـ صفة السمع، والبصر، واليد، والاستواء، ونحو ذلك لله تعالى، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات.(٢) والمراد إثبات معانيها على ظاهرها، إذ لا يحتاج إلى نفي المماثلة والمشابهة للمخلوقات إذا لم يفهم من اللفظ معنى، فنفي المماثلة أو الكيف عمّا ليس بثابت لغو من القول، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية.

د ـ عندما تحدّث ـ رحمه الله ـ عن صفة الاستواء والجهة (أي العلوّ) ذكر أنّه وقف على كتاب العلوّ للحافظ الذهبي، وذكر أنّ الذهبي استوفى فيه كلّ ما فيه دلالة على الموضوع من كتاب وسنّة وقول صاحب.(٣)

ولا يخفى على من اطلع على هذا الكتاب أنّ الذهبي قد جمع فيه كثيرا من الأحاديث والآثار التي توضّح ما ذهب إليه سلف الأمّة. والشوكاني مع وقوفه على هذا الكتاب فقد وقع في خطأ في فهم نصوص المعيّة، كما سيأتي تفصيله.

٣ ـ وممّا أيّدني فيما ذهبت إليه قول الشوكاني عن مذهب السلف: (( إيراد أدلّة الصفات على ظاهرها، من دون تحريف، ولا تأويل، ولا تشبيه، ولا تعطيل. وقال: وإن أراد السائل أن يظفر منهم (أي السلف) بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه، ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه. ))(٤)

ولعلّ المراد بالظاهر: هو المعنى الظاهر من النصوص، والزيادة عليه: هي الكيفية، فالسلف يمرّون كيفية الصفات، لا معناها، وهذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (( إنّ ظاهر الكلام هو ما يسبق إلى العقل السليم منه لمن يفهم بتلك اللغة. ))(٥)

---

(١) انظر فتح القدير، للشوكاني (٦٠/١) وانظر أيضا (٢١١/٢، ٣٥٧/٣، ٥٠٧/٤، ٥٠٨، ١٠٥/٥)
(٢) انظر التحف في مذاهب السلف، للشوكاني ١٠ (٣) انظر المصدر السابق ١١
(٤) المصدر السابق ٥ . (٥) مجموع فتاوى، ابن تيمية (٣٥٦/٦)

٤ ـ اشتدّ انكار الشوكاني ـ رحمه الله ـ على المتكلّمين قولهم في وصف الله : "إنّ الله ـ سبحانه وتعالى وتنزّه وتقدّس ـ لا هو جسم ، ولا هو جوهر ، ولا عرض ، ولا داخل العالم ، ولا خارجه ".(١)

قال : ((فأنشدك الله بأي عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة في النفي ؟ وأي مبالغة في الدلالة على هذا النفي تقوم مقام هذه المبالغة ؟ فكأنّ هؤلاء في فرارهم من شبهة التشبيه الى هذا التعطيل .))(٢)

فهذا يفيد أنّ الشوكاني أثبت صفات الباري عزّوجلّ على حقيقتها ، من غير تشبيه ولا تعطيل .

٥ ـ قال ـ رحمه الله ـ ردّا على منهج المتكلّمين في صفات الربّ تعالى :

(( إنّهم لم يلتفتوا الى ما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل ان وجدوا ذلك موافقا لما تعقّلوه جعلوه مؤيّدا له ومقوّيا ، وقالوا قد ورد دليل السمع مطابقا لدليل العقل ، وان وجدوه مخالفا لما تعقّلوه جعلوه واردا على خلاف الأصل ، ومتشابها ، وغير معقول المعنى ، ولا ظاهر الدلالة .))(٣)

والمفهوم من هذا الكلام أنّ الشوكاني ينكر أن تكون نصوص الصفات من المتشابهات ، كما ينكر أن تكون غير معقولة المعنى ، ولا ظاهرة الدلالة . أي بمعنى أنّ معنى الصفات معقول ومفهوم ، أمّا كيفيتها وما هيتها فغير معقولة وغير مفهومة ، لأنّه لا يعلمها إلّا الله .

وهذا كما قال ـ رحمه الله ـ عن منهج السلف : (( إنّهم اعترفوا بالاحاطة(٤) ، أوقفوا أنفسهم حيث أوقفها الله ، وقالوا : الله أعلم بكيفية ذاته وما هية صفاته .))(٥) ولم يقل ـ رحمه الله ـ : ومعاني صفاته . لأنّها معلومة غير مجهولة ، كما قال الامام مالك ـ رحمه الله ـ في الاستواء .

هذا ما فهمته ممّا يتعلّق بمنهج الشوكاني في رسالته : التحف . لكن هل طبّق

---

(١) انظر المواقف في علم الكلام للايجي ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٩ ضمن الرسائل السلفية .
(٣) المصدر السابق ٧
(٤) لعلّ الصواب : عدم الاحاطة .
(٥) المصدر السابق ٩ ، ١٠ .

هذا المنهج في جميع كتبه ؟

الجواب أنه لم يلتزم بهذا المنهج في جميع كتبه ، بل أوّل كثيرا من الصفات الخبرية من خلال تفسيره لآيات الصفات، كما سيأتي تفصيله . وهذا مما يدلّ على أنه - رحمه الله - مضطرب غير ثابت في هذا الباب ، وقد أثبت بعض الباحثين أنّ رسالته التحف ألّفت سنة (١٢٢٨ هـ) قبل فراغه من تأليف فتح القدير سنة (١٢٢٩ هـ) كما سأوضّحه في آخر الفصل ان شاء الله تعالى .

ولعلّ الشوكاني بهذا الموقف لم يطّلع اطّلاعا واسعا على كتب السلف في هذا الباب، خاصّة كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، اذ لو اطّلع عليهما اطّلاعا واسعا لما وقع في هذا الاضطراب، ويدلّني على ذلك أنّي لم أجد نقوله منهما أو اشارته اليهما عنده كلامه عن الصفات، لا في تفسيره ،ولا في رسالته التحف، مع أنّي وجدت نقوله عنهما في مواضع متعدّدة من مؤلّفاته في الباب الآخر، خاصّة في توحيد الألوهية .[1]      والله أعلم بالصواب .

---

(١) انظر مثلا: نقوله عن شيخ الاسلام ابن تيمية في: الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد (ص ٦ ، ٧٤ - ٧٧)، وفي: الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد الذي ألّفه في عنفوان شبابه ( ورقة ٦،٧،١٣،١٤ ) ( مخطوط )، وعن ابن القيم في : الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد (ص ٦٨ - ٧٤)، وقطر الولي على حديث الوليّ (ص ٣٢٧)، ورسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّوجلّ (ص ١٠،١١) ( مخطوط ) .

## المبحث الرابع: أسماء الله تعالى

إنّ أسماء الله تعالى أعلام عليه، أخبرنا بها الله في كتابه، والرسول صلى الله عليه وسلم في سنته، وكل اسم من هذه الأسماء يدلّ على صفة أو صفات لله سبحانه، وكل اسم منها مشتقّ من مصدره، كالعليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، فالعليم مشتقّ من العلم، وهو يدلّ على صفة العلم لله سبحانه، والسميع مشتقّ من السمع، وهو يدلّ على صفة السمع لله سبحانه، وكذلك بقية الأسماء.

### أسماء الله كلها حسنى

وقد ورد في القرآن الكريم عدّة نصوص تدلّ على أنّ أسماء الله كلها حسنى، كقوله تعالى: (( وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ))(١)

وقوله: (( قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ))(٢)

وقوله سبحانه: (( اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ))(٣)

وقوله عزوجل: (( هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ))(٤)

وقد تناول الشوكاني - رحمه الله - الحديث عن أسماء الله في غير موضع من مؤلفاته، ففي قوله تعالى: (( أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى )) قال:

(( ومعنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال والاكرام ))(٥)

وقال في تفسيره لقوله تعالى: (( ولله الأسماء الحسنى )):

(( هذه الآية مشتملة على الاخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، والحسنى تأنيث الأحسن أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمّى وأشرف مدلول.))(٦) وهو الله سبحانه وتعالى. ولذلك

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٨٠.
(٢) سورة الاسراء: آية ١١٠.
(٣) سورة طه: آية ٨.
(٤) سورة الحشر: آية ٢٤.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٣/٢٦٥.
(٦) المصدر السابق ٢/٢٦٨.

أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة ، فانه اذا دعي بأحسن أسمائه (وأسماؤه كلّها حسنى) كان ذلك من أسباب الاجابة ، وقد ثبت في الصحيحين : أنّ لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة ))[1]

وقال في موضع آخر وهو يتحدّث عن الذكر في الركوع والسجود :

(( وقد تقرّر أن له تسعة وتسعين اسما بالأحاديث الصحيحة ، وأن له أسماء متعددة بصريح القرآن [2] ، (( وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ))[3] فامتثال ما في الآيتين ( يعني آية :(فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ)،[4] وآية : ( سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى )[5] يحصل بالمجئ بأي اسم منها . مثل : سبحان ربّي ، وسبحان الله ، وسبحان الأحد ، وغير ذلك .))[6]

وقال - رحمه الله - في تفسيره لقوله تعالى:(( هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ))[7] :

(( الاستفهام للانكار ، والمعنى : أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة ، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه ، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة ، وتخلص له ، هذا مبنيّ على أنّ المراد بالسميّ هو الشريك في المسمّى ، وقيل المراد به : الشريك في الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب ، فقيل المعنى : أنه لم يسمّ شيئ من الأصنام ولا غيرها بالله قط ، يعني بعد دخول الألف واللام التي عوّضت عن الهمزة ولزمت ، وقيل المراد : هل تعلم أحدا اسمه الرحمن غيره .

ونقل عن الزجاج [8] قال:(( تأويله - والله أعلم - هل تعلم له سميّا يستحق أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون. )) قال الشوكاني:(( وعلى هذا لا سميّ لله في

---

(١) فتح القدير : الشوكاني (٢٦٨/٢) ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب أن لله مائة اسم الا واحدة ( الفتح ٣٨٩/١٣ برقم ٧٣٩٢ ) وزاد في بعض الروايات : وهو وتر يحبّ الوتر (انظر الفتح ( ٢١٨/١١ برقم ٦٤١٠ ) ومسلم في كتاب الذكر باب أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها ( ٢٠٦٢/٤ برقم ٢٦٧٧ ) وغيرهما .

(٢) سيأتي بيانه أن أسماء الله غير محصورة في عدد معيّن بصريح الحديث (ص ٢٩٠) .

(٣) سورة الأعراف ، آية ١٨٠ . (٤) سورة الواقعة ، آية ٦٦ .

(٥) سورة الأعلى ، آية ١ . (٦) نيل الأوطار ، الشوكاني ٨٧/٣ .

(٧) سورة مريم ، آية ٦٥ . (٨) تقدمت ترجمته في صفحة (١٤١) .

جميع أسمائه ، لأنّ غيره وان سمّي بشيئ من أسمائه ، فلله سبحانه حقيقة ذلك الوصف ، والمراد بنفي العلم المستفاد من الانكار هنا نفي المعلوم على أبلغ وجه وأكمله ))[١]

قلت : إنّ تسمية الخلق ببعض أسماء الله عزوجل لا يقتضي تشبيها أو تمثيلا ، لأنّ معناها في حقّ الله عزوجل على ما يليق بجلاله وعظمته وفي حقّ خلقه على ما يليق بهم .

وقد أثبت الشوكاني كغيره من علماء أهل السنة أسماء الله تعالى كما جاءت في كتاب الله وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأثبت ما دلّت عليه من الصفات الكمالية ، لأنّ أسماء الله تعالى دالّة على صفات كماله ، فهي مشتقّة من الصفات ، اذ لو كانت ألفاظا لا معاني لها لم تكن حسنى ولا كانت دالة على مدح ولا كمال .

فقال مثلا في (( الرَّحْمنُ الرَّحِيم )) :

(( اسمان مشتقّان من الرّحمة على طريق المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم ، ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا ))[٢]

وقال في معنى اسم (( الحَيُّ والقَيُّومُ )) :

(( الحيّ : الدائم الحياة ، والقيوم : القائم بأمور خلقه ))[٣]

وقال في معنى اسم (( الغَنِيّ )) :

(( أي المستغني عن كل شيئ ))[٤] لا يحتاج الى خلقه ولا الى عباداتهم ، لا ينفعه ايمانهم ولا يضرّه كفرهم ))[٥]

وقال في معنى اسم (( العَلِيمْ )) :

(( أي العالم بكل معلوم ))[٦] (( وأن علم الله عزوجل عن يقين ، فهو العالم بخفيات الأمور ودقائقها كما يعلم بظواهرها وجلياتها . ))[٧]

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ٣٤٣/٣ . (٢) المصدر السابق : ١٨/١ .
(٣) تحفة الذاكرين : الشوكاني ٧٢ . (٤) المصدر السابق : نفس الصفحة .
(٥) فتح القدير : الشوكاني ١٦٤/٢ . (٦) تحفة الذاكرين : الشوكاني ٧١ .
(٧) المصدر السابق : ٣٦١ .

وقال في معنى اسم (( القُدُّوس )) :

(( أي الطاهر من كل عيب المنزّه عن كل نقص .))

و (( السَّلَام )) : أي الذي سلم من كل نقص وعيب ، وقيل الذي سلم الخلق من ظلمه .

و (( المُؤْمِن )) : أي الذي وهب لعباده الأمن من عذابه ، وقيل : المصدّق لرسله باظهار المعجزات ، وقيل : المصدّق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب ، والمصدّق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب .

و (( المُهَيْمِن )) : أي الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم .

و (( العَزِيز )) : أي الذي لا يوجد له نظير ، وقيل : القاهر والغالب على المغلوب .

و (( الجَبَّار )) جبروت الله عظمته ، ويجوز أن يكون من جبره على كذا اذا أكرهه على ما أراد ، فهو الذى جبر خلقه على ما أراد منهم .

و (( المُتَكَبِّر )) : أي الذي تكبّر عن كل نقص ، وتعظّم عما لا يليق به .

و (( الخَالِق )) : أي المقدّر للأشياء على مقتضى ارادته ومشيئته .

و (( البَارِئ )) : أي المنشئ المخترع للأشياء الموجد لها .

و (( المُصَوِّر )) : أي الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة ، فالتصوير مترتب على الخلق والبراية وتابع لهما .

و (( العَزِيزُ الحَكِيم )) : أي الغالب لغيره الذي لا يغالبه مغالب ، الحكم في كل الأمور التي يقضي بها .))(١)

وقال في معنى اسم (( المُقَدِّم والمُؤَخِّر )) : المقدّم : الذي يقدّم بعض الأشياء على بعض . والمؤخّر : الذي يؤخّر بعضها عن بعض . (٢) ونقل عن البيهقي قال : أي قدّم من شاء بالتوفيق الى مقامات السابقين ، وأخّر من شاء عن مراتبهم . وقيل : قدّم من أحبّ من أوليائه على غيرهم من عبيده ، وأخّر من أبعده

---

(١) أنظر فتح القدير : الشوكاني ٢٠٨،٢٠٧/٥ وانظر أيضا تحفة الذاكرين : الشوكاني ٧١ .
(٢) تحفة الذاكرين : الشوكاني ٧٢ .

عن غيره ، فلا مقدّم لما أخّر ، ولا مؤخّر لما قدّم ))[1]

وهكذا كل اسم من أسماء الله تبارك وتعالى لها معانيها، وهي صفات كمال له جل وعلا . خلافا لما ذهب اليه المعتزلة الذين أثبتوا لله أسماء مجرّدة عن المعاني والأوصاف ، وزعموا أن الله سميع بلا سمع ، عليم بلا علم ، وهكذا الى آخر الصفات . والجهمية الذين نفوا ثبوت الأسماء والصفات ليزعموا تصوّر وجود ذات مجرّدة عن الأسماء والصفات معا ، وهو من أفسد مزاعمهم لأنه ضرب من المحال .[2]

الالحاد في أسماء الله تعالى

ونفي معاني أسماء الله الحسنى من أعظم الالحاد فيها . قال تعالى: (( وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ))[3] ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكنّ الله أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله ، كقوله تعالى : (( إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ))[4] فعلم أن " القويّ من أسمائه ، ومعناه : الموصوف بالقوة ، وكذلك قوله : (( فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ))[5] فالعزيز من له العزّة ، فلولا ثبوت العزّة والقوّة له لم يسمّ قويّا ولا عزيزا ،وأيضا لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها ،فلا يقال : يسمع ، ويرى ، ويعلم ، ويقدر ، ويريد. فانّ ثبوت أحكام الصفات فرع من ثبوتها ، فاذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها وأيضا فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة ، كالأعلام المحضة التي لم توضع لمسمّاها باعتبار معنى قام به ، فكانت كلّها سواء،

---

(١) نيل الأوطار : الشوكاني ٢٨/٣ .

(٢) انظر: الفرق بين الفرق : البغدادي ٩٣،١٩٩ ،ومجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/٣،ومنهاج السنة : ابن تيمية ٥٨٤/٢ ومختصر الصواعق المرسلة : ابن القيم ٢٩٧،٢٩٨ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٨٠ . (٤) سورة الذاريات : آية ٥٨ .

(٥) سورة فاطر : آية ١٠ .

ولم يكن فرق بين مدلولاتها ، وهذه مكابرة صريحة وبهت بيّن، فإنّ من جعل معنى اسم "القدير" هو معنى اسم "السميع" ، ومعنى اسم "التوّاب" هو معنى اسم "المنتقم" ،ومعنى اسم "المعطي" هو معنى اسم "المانع" فقد كابر العقل واللغة والفطرة .[(١)]

وقد ذمّ الشوكاني ـ رحمه الله ـ الالحاد في أسماء الله وحذّر منه ، فذكر ـ رحمه الله ـ معنى الالحاد في قوله تعالى:(( وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ )) وذكر أنواعه. قال :

(( الالحاد : الميل وترك القصد ، يقال: لحد الرجل في الدين وألحد : اذا مال ومنه اللحد في القبر، لأنّه في ناحية ، والالحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه : امّا بالتغيير، كما فعله المشركون ،فانّهم أخذوا اسم اللات من الله ،والعزّى من العزيز، ومناة من المنان. أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها ، أو بالنقصان منها ، بأن يدعوه ببعضها دون بعض . ))[(٢)]

وأزيد عليه التعطيل عن معانيها وحقائقها ،كقول المعتزلة : سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، وانكارها كلّية كقول الجهمية. وهما من أعظم أنواع الالحاد في أسمائه تعالى كما تقدّم .

طريقة اثبات أسماء الله

وطريقة اثبات أسماء الله تعالى عند أهل السنة طريقة التوقيف ، لأنّها توقيفية ، أي ليس هناك وسيلة لمعرفة أسماء الله الاّ عن طريق الكتاب والسنة[(٣)] فلا يجوز لأحد أن يشتقّ من الأفعال الثابتة لله أسماء الاّ اذا ورد النّصّ بها ، إمّا في كتاب الله أو في سنّة رسوله صلى الله عليه وسلم. لأنّ الله أعلم بنفسه من خلقه ، ولأنّ رسوله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ان هو الاّ وحي يوحى .

---

(١) انظر مدارج السالكين : ابن القيم ( ٣٨،٣٧/١ ) دار الكتب العلمية.
(٢) فتح القدير : الشوكاني ( ٢٦٨/٢ )
(٣) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية ( ٤٠٣/٣ ، ٥٧/٥ ) وبدائع الفوائد: ابن القيم ( ١/ ١٨٣ ) مكتبة القاهرة ،والفتح : ابن حجر (٢٢٦/١١)

ولم أقف على كلام الشوكاني في بيان طريقه لاثبات أسماء الله إلا موضعا واحدا وهو عند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: "كان أكثر ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحلف: لا ومقلب القلوب".[1] اذ قال:

(( والمراد بتقليب القلوب: تقليب أحوالها، لا ذواتها، وفيه جواز تسمية الله بما ثبت من صفاته على وجه يليق به. ))[2]

والظاهر من هذا الكلام أن الشوكاني لم يسلك مسلك التوقيف في اثبات أسماء الله تعالى، لأنه أجاز تسمية الله بما ثبت من صفاته، سواء ورد التوقيف بها أو لم يرد.

وهذا مسلك غير صحيح، لأن الأسامي التي قد تطلق على الله تعالى من هذا الطريق قد لا تكون لائقة المعنى بالنسبة لله تعالى، كأن يجعل من أسمائه الحسنى: المضل، والفاتن، والماكر، والمستهزئ، والساحر مثلا - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - فان هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة.[3] ويكفينا الاقتصار على الوحي، فلا نطلق عليه سبحانه وتعالى إلا ما ورد في الكتاب والسنة.

هذا ولم أقف على تطبيق الشوكاني هذه القاعدة (أي جواز تسمية الله بما ثبت من الصفات) من خلال تفسيره للآيات.

يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى:

(( واتفقوا على أنه لا يجوز أن يطلق عليه اسم ولا صفة توهم نقصا، ولو ورد ذلك نصا، فلا يقال: ماهد، ولا زارع، ولا فالق، ولا نحو ذلك، وان ثبت في قوله: (( فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ))[4] (( أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ))[5] (( فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ))[6]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب يحول بين المرء وقلبه (الفتح ٥٢١/١١ برقم ٦٦١٧) وأبو داود في الايمان والنذور، باب ما جاء في يمين النبي صلى الله عليه وسلم (٥٧٦/٣ برقم ٣٢٦٣) والترمذي في كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء كيف كان يمين النبي صلى الله عليه وسلم (٦٦/٤ برقم ١٥٤٠) والنسائي في الأيمان والنذور (٢/٧ برقم ٣٧٦١، ٣٧٦٢) وابن ماجه في كتاب الكفارات، باب يمين الرسول صلى الله عليه وسلم التي كان يحلف بها (٦٧٧/١ برقم ٢٠٩٢)

(٢) نيل الأوطار، الشوكاني (١٥٩/١٠) (٣) انظر بدائع الفوائد، ابن القيم (١٨٣/١)

(٤) سورة الذاريات، آية ٤٨.

(٥) سورة الواقعة، آية ٦٤.

(٦) سورة الأنعام، آية ٩٥.

ونحوها ، ولا يقال له : ماكر ، ولا بنّاء ، وان ورد : (( وَمَكَرَ اللهُ ))[1] (( وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا ))[2] وقال أبوالقاسم القشيري[3] : " الأسماء تؤخذ توقيفا من الكتاب والسنة ، فكل اسم ورد فيها وجب اطلاقه في وصفه ، وما لم يرد لا يجوز ولو صح معناه ". ))[4]

أسماء الله غير محصورة في عدد معيّن

وأسماء الله تعالى غير محصورة في عدد معيّن ، وهو ما قاله جمهور العلماء ، وقرّره الشوكاني - رحمه الله تعالى - فقال - نقلا عن ابن كثير - :

(( ثمّ ليعلم أنّ الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين ، بدليل ما رواه الامام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : (( ما أصاب أحدا قطّ همّ ولا حزن فقال : أللهمّ انّي عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضائك ، أسألك بكلّ اسم هو لك ، سمّيت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علّمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همّي ، الاّ أذهب الله همّه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجا . ( وفي بعض النسخ : فرحا : بالحاء المهملة ) فقيل : يا رسول الله الا نتعلّمها ؟ فقال : بلى ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلّمها . ))[5]

وأورد الشوكاني أيضا هذا الحديث في كتابه : تحفة الذاكرين[6] وقال :

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٥٤ . (٢) سورة الذاريات ، آية ٤٧ .

(٣) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري ، الفقيه الشافعي ، شيخ خراسان في عصره ، كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف ، توفّي سنة ٤٦٥هـ (انظر : تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ٨٣/١١ ، وتبيين كذب المفتري : ابن عساكر ٢٧١ ، ومفتاح السعادة : طاش كبرى زادة ٩٥/٢)

(٤) فتح الباري : ابن حجر ( ٢٢٦/١١ )

(٥) فتح القدير : الشوكاني (٢٦٩/٢) ، وتحفة الذاكرين : الشوكاني (٧٠) وانظر تفسير ابن كثير (٢٨٠/٢) والحديث أخرجه أحمد في المسند (٣٩١/١) ، والحاكم في المستدرك ( ٥٠٩/١ ) وغيرهما . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦/١٠) : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار الاّ أنه قال : وذهاب غمّي مكان همّي ، والطبراني ، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح ، غير أبي سلمة الجهني ، وقد وثّقه ابن حبّان . اهـ والحديث صحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ( ٣٣٦/١ برقم ١٩٩ ) ، وفي شرح العقيدة الطحاوية ( ١١٠ ) في الهامش .

(٦) صفحة ( ٢٤٧ )

(( فيه دليل أنّ لله أسماء غير التسعة والتسعين ٠))

ويشير إلى ما ورد في حديث: (( إنّ لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلّا واحداً، من أحصاها دخل الجنّة، إنّه وتر يحبّ الوتر٠)) (١)

قال رحمه الله: وزاد الترمذي في سننه :

(( هو الله الذي لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، الخالق، البارئ، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزّ، المذلّ، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العليّ، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القويّ، المتين، الوليّ، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحيّ، القيّوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدّم، المؤخّر، الأوّل، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البرّ، التوّاب، المنتقم، العفوّ، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنيّ، المغنيّ، المانع، الضارّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور ٠)) (٢)

---

(١) تقدم تخريجه في صفحة (٢٨٤) ٠

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢٦٩/٢) وتحفة الذاكرين: الشوكاني (٦٨)٠ والحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ذكر أسماء الله عزّ وجلّ (٤٩٦/٥ برقم ٣٥٠٧) من طريق صفوان عن الوليد بن مسلم به، وقال أبي الترمذي: هذا حديث غريب، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا نعلم في كثير شيئ من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث، وأخرجه أيضاً البيهقي في الأسماء والصفات (ص ١٦) وفي الاعتقاد (ص ٣١)، والبغوي في شرح السنة (٣٥/٥ برقم ١٢٥٧)، وابن حبّان في كتاب الرقائق، باب الأذكار (٨٨/٣ برقم ٨٠٨)، قال المحقق: رجاله ثقات٠ وصحّحه الحاكم في المستدرك (١٦/١) وسكت عنه الذهبي٠ هذا مع وجود الاختلاف في سرد الأسماء بين رواية وأخرى٠ قال الشوكاني: رواه ابن حبّان في صحيحه وابن خزيمة والبيهقي والحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق، ورواه ابن ماجه في سننه (١٢٦٩/٢ برقم ١٨٦١) من طريق أخرى عن موسى ابن عقبة عن عبد الرحمن بن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً، فسرد الأسماء المتقدّمة بزيادة ونقصان، وقد صحّحه ابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة، وقال النووي في الأذكار (ص ١٥١) إنّه حديث حسن٠ ونقل عن ابن كثير قال: والذي عوّل عليه جماعة من الحفّاظ أنّ سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وأنّ بعض العلماء جمعوها من القرآن٠ ا هـ قلت: كذا قال شيخ الإسلام

=====

قال شيخ الاسلام ابن تيمية نقلا من الخطابي[١] وغيره :

(( فهذا يدلّ على أنّ لله تعالى أسماء استأثر بها ، وذلك يدلّ على أنّ قوله : " إنّ لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنّة " أنّ في أسمائه تسعة وتسعين من أحصاها دخل الجنّة ،كما يقول القائل: انّ لي ألف درهم أعددتها للصدقة ، وان كان ماله أكثر من ذلك ، والله في القرآن قال:(( وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ))[٢] فأمر أن يدعى بأسمائه الحسنى مطلقا ، ولم يقل: ليست أسماؤه الحسنى الا تسعة وتسعين اسما ، والحديث قد سلم معناه . ))[٣]

وقال البيهقي[٤] بعد أن ساق عدّة روايات في هذا الموضوع :

(( وليس في قوله عليه الصلاة والسلام :" إنّ لله تسعة وتسعين اسما " نفي غيرها ، وانّما وقع التخصيص بذكرها ، لأنّها أشهر الأسماء وأبينها معاني، وفيها ورد الخبر أنّ من أحصاها دخل الجنّة [٥] سواء أحصاها ممّا ورد في الحديث، أو من سائر ما دلّ عليه الكتاب أو السنّة أو الاجماع . ))[٦]

ومثل هذا ما قاله البغوي[٧] ، والنووي[٨] ، وشيخ الاسلام ابن تيمية[٩] ،

---

===== ابن تيمية (مجموع فتاوى ٤٨٢/٢٢) والحافظ ابن حجر (الفتح ٢٢١/١١) حيث رجّح عدم رفع هذه الأسماء الى النبي صلى الله عليه وسلم ،وكذا قال ابن العربي وغيرهم .

(١) سبقت له ترجمة في صفحة (١٣١) .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٨٠ .

(٣) مجموع فتاوى : ابن تيمية (٤٨٦/٢٢)

(٤) تقدّمت ترجمته في صفحة (١٢١) .

(٥) الأسماء والصفات : البيهقي ١٧ . (٦) الاعتقاد : البيهقي ٣٢ .

(٧) انظر شرح السنّة : البغوي (٣٥/٥) والبغوي :هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي، الفقيه المحدّث المفسّر .قال الذهبي:كان على منهاج السلف،وله القدم الراسخ في التفسير، والباع المديد في الفقه .له مصنّفات مفيدة منها:شرح السنة ،ومعالم التنزيل في التفسير. توفّي سنة ٥١٦هـ( انظر:سير أعلام النبلاء:الذهبي(٤٣٩/١٩) ،ومفتاح السعادة :طاش كبرى زادة( ٩١/٢ )

(٨) انظر شرح النووي لمسلم (٥/١٧) ،وأيضا فتح الباري : ابن حجر (٢٢٣/١١) . والنووي هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني النووي الشافعي،أبو زكريا محيي الدين،علّامة بالفقه والحديث،له كتب كثيرة منها:رياض الصالحين،وشرح صحيح مسلم ،وشرح المهذّب،والأذكار .توفّي (٦٧٦هـ)( انظر ترجمته في:تذكرة الحفاظ :الذهبي ٢٥٠/٤ ،والبداية والنهاية :ابن كثير ٢٧٨/١٣ ،وشذرات الذهب:ابن العماد ٣٥٤/٥ ) .

(٩) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٤٨٢/٢٢-٤٨٦) وقد ردّ - رحمه الله - بابا على قول ابن حزم في حصر الأسماء في التسعة والتسعين .

وابن القيم [١]، وابن الوزير [٢]، والحافظ ابن حجر [٣]، وغيرهم .

أمّا تعيين هذه الأسماء في حديث الترمذي فالعلماء اختلفوا فيه كما اختلفوا في صحّة الحديث ورفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم . [٤]

والظاهر أنّ الشوكاني – رحمه الله – يميل الى تصحيح الحديث، بدليل أنّه قال بعد أن ساق الحديث وتخريجه وكلام العلماء فيه :

(( ولا يخفاك أنّ هذا العدد قد صحّحه إمامان [٥]، وحسّنه إمام [٦]، فالقول بأنّ بعض أهل العلم جمعها من القرآن غير سديد ، ومجرّد بلوغ واحد أنّه رفع ذلك لا ينتهض لمعارضة الرواية ، ولا تدفع الأحاديث بمثله ، وأنّ الحديث الذي ذكره عن الامام أحمد [٧] فغايته أنّ الأسماء الحسنى أكثر من هذا المقدار ، وذلك لاينافي كون هذا المقدار هو الذي ورد الترغيب في احصائه وحفظه ، وهذا ظاهر مكشوف لا يخفى . )) [٨]

قلت : والذي يترجّح لي أنّ تعيين الأسماء ليس ثابتا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنّ الوليد بن مسلم [٩] راوي الحديث يذكر عن بعض العلماء أنّ سرد الأسماء في الحديث مدرج فيه ، كما قال الحافظ ابن كثير في تفسيره [١٠] :

---

(١) انظر شفاء العليل : ابن القيم (٥٥٣) وقد صرّح – رحمه الله – أنّ هذا رأي الجمهور ، وما خالفهم في ذلك إلّا ابن حزم ، فزعم أنّ أسماء الله تنحصر في هذا العدد . وانظر أيضا بدائع الفوائد : ابن القيم ( ١٨٨/١ )

(٢) انظر إيثار الحقّ على الخلق : ابن الوزير ( ١٥٨، ١٥٩ )

(٣) انظر تلخيص الحبير : ابن حجر ( ١٧٤/٤ ) تحقيق : عبد الله هاشم اليماني .

(٤) انظر هذا التفصيل في فتح الباري : ابن حجر ( ٢١٩/١١ – ٢٢١ ) ، وصحيح ابن حبّان ( ٨٩/٣ – ٩١ ) في الهامش ، تحقيق : شعيب الأرناءوط .

(٥) يقصد بهما ابن حبّان في صحيحه ( ٨٨/٣ برقم ٨٠٨ ) ، والحاكم في المستدرك ( ١٦/١ ) كما تقدّم .

(٦) يقصد به الامام النووي في الأذكار ( ص ١٥١ ) تحقيق : عبد القادر الأرناءوط . كما تقدم .

(٧) يعني حديث ابن مسعود الذي تقدّم ( ص ٢٩٠ )

(٨) تحفة الذاكرين : الشوكاني ٧٠ .

(٩) قال الحافظ ابن حجر : الوليد بن مسلم الدمشقي أبو العبّاس : ثقة لكنّه كثير التدليس من الثامنة ، مات سنة ١٩٥ هـ ( التقريب : ابن حجر ( ٤٨٥ برقم ٧٤٥٦ )

(١٠) ( ٥٨٠/٢ )

(( والذي عوّل عليه جماعة من الحفّاظ أنّ سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه ، وانّما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم ،وعبدالملك بن محمد الصنعاني[1] عن زهير بن محمد[2] انه بلغه من غير واحد من أهل العلم أنّهم قالوا ذلك ،أي أنّهم جمعوها من القرآن،كما ورد عن جعفر بن محمد[3] ،وسفيان بن عيينة[4] ،وأبي زيد اللغوي[5] ·))

وقال الحافظ ابن حجر : اختلف الحفّاظ في أنّ سرد الأسماء هل هو موقوف على الراوي أو مرفوع، ورجّح الأوّل، وأنّ تعدادها مدرج من كلام الراوي ·[6]

أمّا معنى الاحصاء الذي ورد في الحديث فقد فسّره الشوكاني بأنّه الحفظ، وهكذا قال الأكثرون[7]، وفسّرت هذا المعنى رواية البخاري :(( لا يحفظها أحد إلاّ دخل الجنّة ))[8] وقيل: أحصاها : قرأها كلمة كلمة ،كأنّه يعدّها · وقيل: أحصاها: علمها وتدبّر معانيها ،واطلع على حقائقها · وقيل: أطاق القيام بحقّها ،والعمل بمقتضاها · قال الشوكاني: والتفسير الأوّل هو الراجح المطابق للمعنى اللغوي، وقد فسّرته الرواية المصرّحة بالحفظ كما عرفت ·[9]

---

(١) قال الحافظ ابن حجر :عبدالملك بن محمد الحميري البرسمي من أهل صنعاء دمشق،لين الحديث،من التاسعة· ( التقريب :ابن حجر ٣٦٥ برقم ٤٢١٢)

(٢) قال الحافظ ابن حجر: زهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني،سكن الشام ثمّ الحجاز ،رواية أهل الشام عنه غير مستقيمة فضعف بسببها ،توفّي ١٦٢ هـ(التقريب : ابن حجر ٢١٧ برقم ٢٠٤٩ )

(٣) لعله جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو عبدالله المعروف بالصادق،صدوق فقيه امام ،من السادسة ،مات ١٤٨ هـ ( التقريب :ابن حجر ١٤١ برقم ٩٥٠ )

(٤) تقدّمت ترجمته في صفحة (٢٦٣) ·

(٥) قال الحافظ ابن حجر :سعيد بن أوس بن ثابت أبو زيد الأنصاري النحوي البصري،صدوق له أوهام ،ورمي بالقدر ،من التاسعة ،مات ٢١٤هـ(التقريب:ابن حجر ٢٣٣ برقم ٢٢٧٢ )

(٦) انظر الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (٢٢١/٣)فيما نقله عنه ابن علان من: شرح المشكاة · ط/ القاهرة ١٣٤٨هـ· كما رجّحه أيضا في الفتح (٢٢١/١١)،وانظر أيضا ما قاله البيهقي في الأسماء والصفات ١٩ ،والبغوي في شرح السنة (٣٥/٥)،وابن تيمية في مجموع فتاوى (٤٨٢/٢٢،٤٨٣) حيث ذكر أنّ التسعة والتسعين اسما لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ·

(٧) انظر الأسماء والصفات :البيهقي ١٧ ،وشرح النووي لمسلم (٥/١٧)،والفتح : ابن حجر (٢٢٦/١١ )

(٨) انظر الفتح :ابن حجر(٢١٨/١١ برقم ٦٤١٠)

(٩) انظر تحفة الذاكرين: الشوكاني ٦٨ ·

قلت : والظاهر أنّ معنى حفظها يقتضي أيضا معرفتها والقيام بعبوديتها ، لأنّ القرآن لا ينفع حفظ ألفاظه من لا يعمل به ، وقد ثبت الخبر في الخوارج أنّهم يقرأون القرآن ولا يجاوز حناجرهم .

الاسم الأعظم

أورد الشوكاني - رحمه الله - عدّة روايات في تعيين الاسم الأعظم [١] منها :

ما أخرجه ابن ماجة ، والحاكم في المستدرك ، والطبراني في الكبير ، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (( اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور من القرآن : البقرة ، وآل عمران ، وطه )) [٢] قال أبو أمامة : فالتمستها فوجدت في البقرة في آية الكرسي : (( ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ )) [٣] ، وفي آل عمران : (( ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ )) [٤] ، وفي طه : (( وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ )) [٥]

ومنها ما أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة ، من حديث أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (( اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : (( وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ )) [٦] ، وفاتحة آل عمران : (( ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ )) [٧] [٨] .

ومنها ما أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (( اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه

---

(١) انظر تحفة الذاكرين ، الشوكاني ٦٦ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٠٦/١) ، وابن ماجه في كتاب الدعاء ، باب اسم الله الأعظم (١٢٦٧/٢ برقم ٣٨٥٦) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٢٨/١١) : وقوّاه الفخر الرازي واحتجّ بأنّهما يدلّان من صفات العظمة بالربوبية ما لا يدلّ على ذلك غيرهما كدلالتهما . قال الشوكاني : قال المناوي في المختصر : وإسناده حسن ، وقيل صحيح ، وحسّنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٨٢/٢ برقم ٧٤٦)

(٣) آية ٢٥٥ (٤) آية ٢ (٥) آية ١١١

(٦) سورة البقرة : آية ١٦٣ (٧) سورة آل عمران : آية ٢

(٨) الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٤٦١/٦) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب الدعاء (١٦٨/٢ برقم ١٤٩٦) ، والترمذي في كتاب الدعوات ، باب (٦٥) (٤٨٣/٥ برقم ٣٤٧٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجة في كتاب الدعاء ، باب اسم الله الأعظم (١٢٦٧/٢ برقم ٣٨٥٥) وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٩/١ برقم ٩٨٠) وصحيح أبي داود برقم (١٣٤٣) .

الآية وهي :(( قُلِ اللهمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ))[1] الى آخر الآية[2].

قال الشوكاني :(( وقد اختلف في تعيين الاسم الأعظم على نحو أربعين قولاً، قد أفردها السيوطي[3] بالتصنيف. قال ابن حجر: وأرجحها من حيث السند: الله لا اله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. ))[4]

وأورد الشوكاني أرجح ما ورد في تعيين الاسم الأعظم وهو الحديث الآنف الذكر، والآخر ما رواه أهل السنن الأربع وغيرهم بلفظ :(( أللهمَّ إنّي أسألك بأنّ لك الحمد لا اله إلا أنت المنّان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والاكرام، يا حيّ يا قيّوم. ))[5]

---

(١) سورة آل عمران : آية ٢٦ .

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٦/١٠): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه جسر بن فرقد وهو ضعيف. وقال الشوكاني: قال المناوي: وفي اسناده أيضاً محمد بن زكريا الغداني، وثّقه ابن معين، وقال أحمد: ليس بالقويّ، وقال النسائي والدارقطني: ضعيف، وفي اسناده أيضاً أبو الجوزاء وفيه نظر.

(٣) سبقت له ترجمة في صفحة (٢٧٩) .

(٤) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٦٧ . والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء (١٦٧/٢ برقم ١٤٩٣)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات (٤٨١/٥ برقم ٣٤٧٥)، وقال: حسن غريب. والنسائي في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٥٢/٣ برقم ١٣٠١)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم (١٢٦٧/٢ برقم ٣٨٥٧) وابن حبّان في كتاب الرقائق، باب الأدعية (١٧٣/٣ برقم ٨٩١، ٨٩٢) قال المحقق: اسناده صحيح، رجاله ثقات رجال البخاري. والحاكم في المستدرك (٥٠٤/١) وصحّحه ووافقه الذهبي. وأحمد في المسند (٣٤٩/٥، ٣٥٠) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٢٨/١١): وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك. والحديث صحّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٧٠٨/٢ برقم ٢٢٨٩)

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء (١٦٧/٢ برقم ١٤٩٥)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب خلق الله مائة رحمة (٥١٤/٥ برقم ٣٥٤٤) وقال: هذا حديث غريب، والنسائي في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٥٢/٣ برقم ١٣٠٠)، وابن ماجة في كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم (١٢٦٨/٢ برقم ٣٨٥٨)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٧٠٥) انظر فضل الله الصمد (١٦٨/٢)، وابن حبّان في كتاب الرقائق، باب الأدعية (١٧٥/٣ برقم ٨٩٣)، وأحمد في المسند (١٢٠/٣، ١٥٨، ٢٤٥، ٢٦٥)، والحاكم في المستدرك (٥٠٣/١، ٥٠٤) وصحّحه، ووافقه الذهبي . هذا مع وجود الاختلاف في لفظ الحديث . وصحّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٧٠٨/٥ برقم ٢٢٩٠)

وذكر الحافظ ابن حجر أربعة عشر قولا في تعيين الاسم الأعظم مع سنده، وذكر اختلاف أهل العلم فيه، منهم من أثبته معيّنا واضطربوا في ذلك، ومنهم من أنكره، كأبي جعفر الطبري[1]، وأبي الحسن الأشعري[2]، وأبي بكر الباقلاني[3] فقالوا: لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض. ونسب ذلك بعضهم لمالك لكراهته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور، لئلا يظنّ أنّ بعض القرآن أفضل من بعض، فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل، وحملوا ما ورد من ذلك على أنّ المراد بالأعظم العظيم[4]، وأنّ أسماء الله كلّها عظيمة، وعبارة أبي جعفر الطبري: اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم، والذي عندي أنّ الأقوال كلّها صحيحة، إذ لم يرد في خبر منها أنّه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه. فكأنّه يقول: كلّ اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم، فيرجع الى معنى عظيم كما تقدم.[5] وهذا ما أميل اليه. والله أعلم.

هل الاسم عين المسمّى أو غيره ؟

تعرّض الشوكاني - رحمه الله تعالى - لهذه المسألة التي كثر النزاع فيها بين العلماء، وقبل بيان رأيه فيها أذكر أوّلا موجزا لآرائهم. فأقول:

اختلف العلماء في هذه المسألة - كما ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية - الى عدّة أقوال:

منهم من قال: إنّ الاسم هو المسمّى. وهو قول أكثر المنتسبين الى السنّة

---

(١) سبقت له ترجمة في صفحة (١٨١) .

(٢) سبقت له ترجمة في صفحة (٣٧) .

(٣) القاضي أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمد المعروف بالباقلاني البصري، من كبار علماء الكلام انتهت اليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. من كتبه: اعجاز القرآن، والانصاف، والتمهيد. توفّي سنة ٤٠٣هـ (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٣٧٩/٥ - ٣٨٣، وسير أعلام النبلاء: الذهبي ٤٣/١١، والبداية والنهاية: ابن كثير ٣٥٠/١١، ٣٥١)

(٤) أي جعلوا اسم التفضيل على غير بابه، وهو أسلوب معروف عند علماء النحو.

(٥) انظر فتح الباري: ابن حجر (٢٢٧/١١، ٢٢٨)

كأبي القاسم الطبري[١]، واللالكائي[٢]، والبغوي[٣]، وغيرهم، وهو أحد قولي أصحاب أبي الحسن الأشعري، اختاره أبو بكر ابن فورك[٤]، وغيره[٥].

ومنهم من قال: إنّ الاسم غير المسمّى. وهو قول الجهمية، والمعتزلة، وتابعهم في ذلك جماعة من الأشاعرة، كالغزالي[٦]، والرازي[٧].

وقد بنى الجهمية رأيهم هذا على أنّ أسماء الله مخلوقة، وما دامت كذلك فهو غيره، وهذا كلام باطل، لأنّ أسماء الله من كلامه، وكلامه غير مخلوق، بل هو المتكلّم به، وهو المسمّى لنفسه بما فيه من الأسماء[٨].

ومنهم من قال بالتوقّف، وهو قول جماعة من السلف، وذكر ابن تيمية عنهم أنّهم توقّفوا في ذلك نفيا وإثباتا، أي أنّهم لا يقولون إنّ الاسم هو المسمّى ولا غيره، إذ كان كلّ من الاطلاقين بدعة، لا يعرف فيهما قول لأحد من الأئمة.

ومنهم أيضا من قال: إنّ الاسم للمسمّى، وهذا الاطلاق اختيار أكثر المنتسبين

---

(١) لم أقف على ترجمته، ولعل الصواب: ابن القاسم الطبري أبو علي الحسن (أو الحسين) فقيه شافعي بحاث، قال ابن كثير: أحد الأئمة المحررين في الخلاف، وأوّل من صنّف فيه، له: المحرر في النظر، وهو أوّل كتاب صنّف في الخلاف المجرّد، والايضاح، والعدّة، كلاهما في الفقه الشافعية، توفّي (٣٥٠هـ) انظر (تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٨٧/٨، والبداية والنهاية: ابن كثير ٢٣٨/١١)

(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٦٣). (٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٩٢).

(٤) محمد بن الحسين بن فورك الأنصاري الأصبهاني، واعظ عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية، توفّي سنة (٤٠٦هـ) (انظر: تبيين كذب المفتري: ابن عساكر ٢٣٢، وطبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٥٢/٣ ـ ٥٦)

(٥) عزا البيهقي هذا الرأي الى الامام الشافعي، والحارث المحاسبي، وأبي عبيد القاسم بن سلام (انظر: الاعتقاد للبيهقي ٤٢، وشعب الايمان له ١٢٥/١، ١٢٦ تحقيق: محمد السعيد زغلول).

(٦) تقدّمت ترجمته في صفحة ٣٦.

(٧) تقدّمت ترجمته في صفحة ٣٦.

(٨) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية (١٨٦/٦).

الى السنة من أصحاب الامام أحمد وغيره . ومنهم من قال غير ذلك .[١]

هذا موجز ما قاله العلماء في هذه المسألة، كما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية،

فما هو رأي الشوكاني فيها ؟

رأى الشوكاني أنّ الاسم ليس المسمّى، وانّما هو اللفظ الدال على المسمّى[٢]

وردّ على القائلين بأنّ الاسم هو المسمّى قائلا :

(( ومن زعم أنّ الاسم هو المسمّى، كما قال أبو عبيدة[٣]، وسيبويه[٤]، والباقلاني[٥]،

وابن فورك[٦]، وحكاه الرازي[٧] عن الحشوية[٨]، والكرامية[٩]، والأشعرية[١٠]،

فقد غلط غلطا بينا، وجاء بما لا يعقل، مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل، لا من الكتاب،

ولا من السنّة، ولا من لغة العرب، بل العلم الضروري حاصل بأنّ الاسم الذي هو

---

(١) انظر تفصيل هذه الأقوال في مجموع فتاوى لابن تيمية (١٨٥/٦ ـ ١٨٩)

(٢) انظر فتح القدير : الشوكاني (١٨/١)

(٣) معمر بن المثنى اللغوي البصري، أبو عبيدة، من أئمة العلم بالأدب واللغة، وكان اباضيا شعوبيا، قال الجاحظ في حقّه: لم يكن في الأرض خارجي أعلم بجميع العلوم منه، له كتب كثيرة منها: المجاز في غريب القرآن، والأمثال في غريب الحديث . توفّي سنة (٢٠٩ هـ) (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٢٥٢/١٣، وميزان الاعتدال: الذهبي ٥٨١/٥ ) ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١٠٥/١)

(٤) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبو البشر، الملقب سيبويه: امام النحاة، وأوّل من بسط علم النحو، له: كتاب سيبويه في النحو، لم يضع قبله ولا بعده مثله، توفّي سنة (١٨٠هـ) (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٩٥/١٢، والبداية والنهاية: ابن كثير ١٧٦/١٠، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١٤٦/١)

(٥) تقدمت ترجمته (ص ٢٩٧) . (٦) تقدمت ترجمته (ص٢٩٨). (٧) تقدمت ترجمته (ص ٣٦).

(٨) الحشوية: بسكون الشين وفتحها، قوم تمسّكوا بالظواهر، فذهبوا الى التجسيم وغيره، وهم من الفرق الضالّة . قال صاحب كتاب البرهان (ص ٣٨): الحشوية: هم المجسّمة الذين قالوا بأنّ الله ـ تعالى الله عن قولهم علوّا كبيرا ـ على صورة شابّ أمرد، له شعر قطط، في رجله نعل من ذهب، ينزل يوم عرفة على جمل أحمر، وينزل في كلّ ليلة جمعة، الى غير ذلك من أقوالهم الشنيعة التي لا يصدقها عاقل[?]، وقال شيخ الاسلام ابن تيمية (منهاج السنة ٥٢٠/٢، ٥٢١): أما لفظ الحشوية فليس فيه ما يدلّ على شخص معين ولا مقالة معيّنة، فلا يدرى من هم هؤلاء، وقد قيل: انّ أوّل من تكلّم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد فقال: كان عبد الله بن عمر حشويا (وهو قول باطل) وكان هذا اللفظ في اصطلاح من قاله يريد به العامة الذين هم حشو، كما تقول الرافضة عن مذهب أهل السنة مذهب الجمهور اهـ وقد يستعمل بعض الناس لفظ الحشوية في أهل السنة وكلّ من يقول بمقالات السلف في الاعتقادات وفي الأسماء والصفات، فهم عندهم حشوية، فالحنابلة كلهم عندهم حشوية، وكذا أهل الحديث، ومن المعلوم أنّ اعتقاد السلف أهل الحديث هو السنة المحضة، لأنه هو الاعتقاد الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وليس في اعتقاد أحد منهم شيء من مقالات الحشوية، والكتب شاهدة بذلك،

(٩) تقدم تعريفها في ( ص ٢٦٠ ) (١٠) تقدّم تعريفها في ( ص ٣٧ ) .

أصوات مقطّعة، وحروف مؤلّفة، غير المسمّى الذي هو مدلوله.))[1]

قلت : وكلام الشوكاني هذا مصرّح بأنّ الاسم الذي يقصد به هو الاسم اللفظي المتكوّن من الأصوات والحروف، فالاسم على هذا الاعتبار غير المسمّى ، وانما هو الدالّ على المسمّى، وهذا كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية :(( والاسم هو القول الدالّ على المسمّى ، ليس الاسم الذي هو لفظ هو المسمّى ، وقد يراد به المسمّى ، لأنّه حكم عليه ودليل عليه .))[2]

وعلى هذا فانّ المسألة تحتاج الى تفصيل أكثر، ولم أقف على أيّ تفصيل من كلام الشوكاني غير ما ذكرنا .

والذي أراه صوابا في هذه المسألة هو ذلك التفصيل الذي أورده ابن القيم في شفاء العليل[3]، وابن أبي العزّ الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية[4] وهو أنّ الاسم يراد به المسمّى تارة ، ويراد به اللفظ الدالّ عليه أخرى ، فاذا قلت : قال الله كذا ، واستوى الله على عرشه ، وسمع الله، ورأى، وخلق ، فهذا المراد به المسمّى نفسه، واذا قلت : الله اسم عربيّ ، والرحمن اسم عربي ، والرحمن من أسماء الله تعالى ، والرحمن وزنه فعلان ، والرحمن مشتقّ من الرحمة ، ونحو ذلك، فالاسم ههنا للمسمّى ( أي الدالّ على المسمّى ) ولا يقال غيره ، لما في لفظ الغير من الاجمال، فان أريد بالمغايرة أنّ اللفظ غير المعنى فحقّ ، وان أريد أنّ الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه اسما ، أو حتى سمّاه خلقه بأسماء من صنعهم ، فهذا من أعظم الضلال والالحاد في أسماء الله تعالى .

وهذا التفصيل قال به جمهور أهل السنة ، وهم الذين يقولون إنّ الاسم للمسمّى ، وهو قول الشوكاني كما يظهر من كلامه . والله أعلم .

---

(١) فتح القدير : الشوكاني (١٨/١) وانظر مجموع فتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية (١٩٠/٦-٢٠٢) حيث ناقش - رحمه الله - قول القائلين بأنّ الاسم هو المسمّى وردّ عليهم بما سبق
(٢) مجموع فتاوى : ابن تيمية ( ١٩٢/٦ )
(٣) انظر ( ص ٥٥٢ )
(٤) انظر ( ص ١٣١ )

## المبحث الخامس : ذكر جملة من الصفات التي ذكرها الشوكاني

صفات الله تبارك وتعالى التي جاء بها القرآن الكريم وتحدّث عنها سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم كثيرة جدا ، ولكن سأقتصر في هذا المبحث على ذكر جملة من الصفات التي تعرّض لها الشوكاني رحمه الله في مؤلفاته .

وقبل أن أبيّن تلك الصفات التي تكلّم عنها الشوكاني ، أرى من المناسب أن أذكر موجزا عن اصطلاح علماء السلف في تقسيم صفات الله تعالى ، وهو أنهم يقسّمون الصفات التي وردت في الكتاب والسنة الى قسمين : صفات ذاتية ، وصفات فعلية .

أما الصفات الذاتية : فهي الصفات المتعلقة بذاته المقدسة التي لم يزل ولا يزال متصفا بها ، وهي لا تنفك عنه سبحانه ، بل هي لازمة لذاته أزلا وأبدا ، ولا تتعلق بها مشيئته وقدرته .

وهي قسمان :

سمعية عقلية : وهي التي يشترك في اثباتها الدليل الشرعي السمعي والدليل العقلي ، والفطرة السليمة ، كصفة الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والارادة ، والقوة ، والعزّة ، والملك ، والعظمة ، والكبرياء ، والمجد ، والجلال ، والسمع ، والبصر ... الخ .

وخبرية : وهي التي لا سبيل للعقل على انفراده الى اثباتها الا بطريق السمع والخبر عن الله ، أوعن رسوله صلى الله عليه وسلم ، كصفة الوجه ، واليدين ، والعين ...

أما الصفات الفعلية : فهي الصفات المتعلقة بمشيئته وقدرته ، ان شاء فعلها ، وان شاء لم يفعلها عزوجل .

وهي قسمان أيضا :

سمعية عقلية : كالخلق ، والرزق ، والإعطاء ، والمنع ، والإحياء ، والإماتة ، وأنواع التدبير المختلفة .

وخبرية : كالاستواء على العرش ، والمجيء والإتيان ، والنزول الى السماء

الدنيا ، والرضى ، والمحبّة ، والغضب ...(١)

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين ، كصفة الكلام ، فانّه باعتبار أصل الصفة صفة ذاتية ، لأنّه تبارك وتعالى لم يزل ولا يزال متكلما ، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية ، لأنّ الكلام متعلق بمشيئته عزوجل ، يتكلم متى شاء ، بما شاء ، كيف شاء ، كما قال تعالى : (( إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ))(٢)

وفيما يلي أذكر جملة من الصفات الذاتية ، وجملة أخرى من الصفات الفعلية مع ذكر كلام الشوكاني عليها .

وقد نهج ـ رحمه الله ـ في معظم الصفات منهج السلف الصالح من اثبات معانيها بلا تشبيه ولا تمثيل ، وتفويض معرفة كنهها وكيفيتها الى الله سبحانه .
وكان الأجدر به والواجب عليه أن يسلك هذا المسلك في اثبات جميع الصفات .
كما قرره في رسالته التحف ، غير أنه سلك في تفسيره مسلك أهل التأويل في بعض الصفات ، كما سنرى في هذه التفاصيل .

## أوّلا : ذكر جملة من الصفات الذاتية وكلام الشوكاني عليها .

### أ ـ صفة العلم

أثبت الشوكاني صفة العلم لله تعالى ، وهي من الصفات السمعية العقلية ، لأنّ العقل يثبت أنّ لله علما وأنّه عالم بكل شيء ، ويدلّ على ذلك ايجاده الأشياء في هذا الكون ، لاستحالة ايجاده الأشياء مع الجهل بها ، ولأنّ من المخلوقات من هو عالم ، والعلم صفة كمال ، وكلّ كمال اتّصف به المخلوق من غير استلزام نقص فالخالق تعالى أحق به وأكمل فيه منه (٣)

وقد تقرّر بالأدلّة من الكتاب والسنة أنّ علم الله عزّوجلّ أزلي ، وأنه قد سبق

---

(١) انظر شرح العقيدة الواسطية للدكتور محمد خليل هراس ٨١ ـ ٩٩ ولمعة الاعتقاد شرح الشيخ محمد صالح العثيمين ١١، ١٢ .

(٢) سورة يس : آية ٨٢

(٣) انظر رسالة الارادة والأمر لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٣٨٢/١ .

في كلّ شيئ ، ولا يصحّ أن يقدر وقوع غير ما قد علمه ، والا انقلب العلم جهلا ، وذلك لا يجوز اجماعا ، لأنّ علمه عزوجل سابق أزلي ، وقد علم ما يكون قبل أن يكون ، ولا خلاف بين أهل الحق من هذه الحيثية [(١)]

وبيّن الشوكاني أنّ علم الله عزوجل محيط بكل شيئ [(٢)] وانّه لا يخفى عليه خافية ، ولا يخرج عن علمه خارج كائنا ما كان . [(٣)] وأنّه عالم كلّ غائب عن الحس وكلّ مشهود حاضر ، أو كلّ معدوم وموجود . [(٤)] فهو العالم بخفيات الامور ودقائقها ، كما يعلم بظواهرها وجلياتها . [(٥)]

فالعلم صفة من صفات ذاته تعالى ، فهو عالم بعلم قائم بذاته قديم أزلي لازم لنفسه المقدّسة ، وهو سبحانه العليم المحيط بكل شيئ ، يعلم الكليات والجزئيات ، ولا تخفى عليه خافية ، يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون .

والأدلّة على اتصافه تعالى بالعلم كثيرة منها :

قوله تعالى : (( إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ))[(٦)] وقوله : (( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ))[(٧)] وقوله : (( وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ))[(٨)]

وقوله : (( يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ))[(٩)]

وقوله تعالى : (( يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ))[(١٠)]

---

(١) انظر تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصه من الدلائل : الشوكاني ١١٩ ضمن أمناء الشريعة .

(٢) انظر : فتح القدير : الشوكاني ١٣٤/٢ .

(٣) انظر : المصدر السابق ٢٨٣/٣ .

(٤) انظر : المصدر السابق ٦٨/٣ .

(٥) انظر : تحفة الذاكرين : الشوكاني ٣٦١ .

(٦) سورة العنكبوت : آية ٦٢ .

(٧) سورة البقرة : آية ٢٥٥ .

(٨) سورة الأنعام : آية ٥٩ .

(٩) سورة التغابن : آية ٤ .

(١٠) سورة سبأ : آية ٢ وسورة الحديد : آية ٤ .

وقوله سبحانه :(( وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ))[1] (( عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ))[2] (( أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ))[3]

والآيات الواردة في كتاب الله الدالّة على أن الله تبارك وتعالى متّصف بصفة العلم مما لا يكاد أن يحصى الا بعدجهد لكثرتها .

وقد أفادت هذه الآيات اثبات صفة العلم لله ، وأن علمه شامل لكل شيئ ، ومحيط به ، فيعلم بالكليات والجزئيات ، وبالسرّ والعلانية ، وبالدنيا والآخرة .

قال الشوكاني في تفسيرقوله تعالى :(( إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ))[4] :

(( هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه واحاطته بالمعلومات ، وعبّرعن معلوماته بما في الأرض والسماء مع كونها أوسع من ذلك ، لقصور عباده عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته ، ومن جملة ما لا يخفى عليه ايمان من آمن من خلقه وكفر من كفر . ))[5]

هذا وقد أنكرالشوكاني ـ رحمه الله ـ أشدالانكار على من يزعم أنه تعالى غير عالم بالجزئيات .[6] وينكر علم الله الأزلي ، كالمعتزلة . وعلى رأسهم أبو علي الجبّائي [7] حيث حكى عنه قوله :(( والله لا يعلم من نفسه الا ما يعلم هو ))[8] ومعنى هذه المقولة الخاسرة والشنيعة : أن كلّ ما يعلمه الله يعلمه هذا الجبّائي . عياذا بالله تعالى .

قال الشوكاني :(( وانظر هذه الجرأة على الله سبحانه وتعالى ، التي ليس بعدها جرأة ، فيا لأم أبي علي الويل ، أنهيق مثل هذا النهيق ، ويدخل نفسه في هذا المضيق ؟ وهل سمع السامعون بيمين أفجر من هذه اليمين الملعونة ؟ أو نقل الناقلون كلمة تقارب معنى هذه الكلمة المفتونة ؟ ، أو بلغ مفتخر الى

---

(١) سورة الطلاق، آية ١٢ .
(٢) سورة الحشر : آية ٢٢ .
(٣) سورة الملك : آية ١٤ .
(٤) سورة آل عمران : آية ٥ .
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٣١٢/١ .
(٦) المصدر السابق ٤٥٩/٢ .
(٧) سبقت له ترجمة في صفحة (١٢٣) .
(٨) انظر، التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٧ ضمن الرسائل السلفية .

ما بلغ هذا المختال الفخور ؟ ، أو وصل من يفجر في أيمانه الى ما يقارب هذا الفجور ؟

واستمرّ في مناقشته له وانكاره عليه قائلا : (( وكلّ عاقل يعلم أن أحدنا لو حلف أن ابنه أو أباه لا يعلم من نفسه الا ما يعلمه هو لكان كاذبا في يمينه ، فاجرا فيها ، لأنّ كلّ فرد من الناس ينطوي على صفات وغرائز لا يحب أن يطلع عليها غيره ، ويكره أن يقف على شيئ منها سواه ، ومن ذا الذي يدري بما يجول في خاطر غيره ، ويستكن في ضميره ، ومن ادّعى علم ذلك ، وأنّه يعلم من غيره من بني آدم ما يعلمه ذلك الغير من نفسه ، ولا يعلم ذلك الغير من نفسه الا ما يعلمه هذا المدّعي ، فهو امّا مصاب العقل ، يهذي بما لا يدري ، ويتكلّم بما لا يفهم ، أو كاذب شديد الكذب ، عظيم الافتراء ، فان هذا أمر لا يعلمه غير الله سبحانه ، فهو الذي يحول بين المرء وقلبه وما توسوس به نفسه ، وما يسرّ عباده ، وما يعلنون ، وما يظهرون ، وما يكتمون ، كما أخبرنا بذلك في كتابه العزيز في غير موضع .

فقد خاب وخسر من أثبت لنفسه من العلم ما لا يعلمه إلا الله من عباده ، فما ظنّك من جاوز هذا وتعدّاه ، وأقسم بالله سبحانه أنّ الله لا يعلم من نفسه هو الا ما يعلمه هو . ؟ (1)

ب ـ صفة القدرة

أثبت الشوكاني ـ رحمه الله ـ صفة القدرة لله سبحانه وتعالى ، وهي من الصفات السمعية العقلية ، لأنّ العقل يثبت أنّ لله قدرة ، وأنّه على كلّ شيئ قدير ، اذ لو لم يكن تعالى كذلك لكان عاجزا ، وهذا مستحيل ، بدليل ظهور الأفعال منه تعالى في هذا الكون . ولا تظهر الا من عليم قدير .

وقد تقرّر بالأدلّة من الكتاب والسنة أنّه تعالى قادر على كلّ شيئ ، ولكمال قدرته لا يعجزه شيئ في الأرض ولا في السماء .

والآيات في تقرير صفة القدرة واثباتها لله تعالى كثيرة جدا منها قوله تعالى :

---

(1) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٢٧ ضمن الرسائل السلفية .

(( وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ))(١)

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية :((أي أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته ، وأنه يقدر على كل شيئ ، لا يستصعب عليه شيئ ))(٢)

وقوله تعالى : (( وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ))(٣)

قال الشوكاني:((أي على كلّ شيئ من الأشياء ، يحييه ويفنيه بقدرته، لايعجز عن شيئ ))(٤)

وقوله تعالى ردّا على منكري البعث :(( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ))(٥)

ومثله قوله تعالى : (( أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ))(٦)

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية:((أى من هو قادر على خلق هذا فهو على اعادة ما هو دون منه أقدر ، والمعنى : قد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم ، لأنهم ليسوا بأشدّ خلقا منهن .(٧)

فمن قدر على خلق السموات والأرض ، وهما في غاية العظم وكبر الأجزاء يقدر على اعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوة .))(٨)

ومنها قوله تعالى : (( وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ))(٩)

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: معناه: لا يثقله ثقالة أدنى الشيئ .(١٠)

وقوله تعالى : (( وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ))(١١)

قال الشوكاني في معنى الآية:((أي ما كان ليسبقه ويفوته من شيئ من الأشياء كائنا ما كان فيهما ، لأنه كثير العلم وكثير القدرة ، لا يخفى عليه شيئ ولا يصعب

---

(١) سورة المائدة: آية ١٧ . (٢) فتح القدير: الشوكاني ٢٤/٢ .(٣) سورة الكهف: آية ٤٥ .
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٢٩٠/٣ . (٥) سورة الاسراء: آية ٩٩ .(٦) سورة يس: آية ٨١ .
(٧) فتح القدير: الشوكاني ٢٦١/٣ . (٨) المصدر السابق ٣٨٤/٤ .(٩) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .
(١٠) فتح القدير: الشوكاني ٢٧٢/١ . (١١) سورة فاطر: آية ٤٤ .

عليه أمر ))[١]

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الاستخارة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : (( ... أللهم اني استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ... فانّك تقدر ولا أقدر ))[٢]

جـ ـ صفة الارادة

أثبت الشوكاني ـ رحمه الله ـ صفة الارادة لله سبحانه وتعالى وهي من الصفات السمعية العقلية ، لأن العقل يثبت أنّ لله سبحانه ارادة ومشيئة ، وأنّه مريد في أفعاله ، اذ لو لم يتّصف بالارادة لاتّصف بضدّها كالسهو والاكراه والغلبة ، وهذا محال على الله سبحانه ، بدليل ما ظهر في أفعاله تعالى من تخصيص وترتيب ووضعها في مواضعها .

وقد ورد في القرآن الكريم أنّه تعالى مريد وأنّ له ارادة ومشيئة[٣] في عدّة آيات :

كقوله تعالى : (( إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ))[٤]

وقوله : (( وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ))[٥]

وقوله : (( إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ))[٦]

وقوله سبحانه : (( إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ))[٧]

وغير ذلك من الآيات .

وقد أوضح الشوكاني ـ رحمه الله ـ صفة الارادة ، وقسّمها الى ارادة كونيّة ،

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ٣٥٦/٤ .
(٢) انظر : تحفة الذاكرين : الشوكاني ١٦٩ والحديث أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب الدعاء عند الاستخارة . ( الفتح ١١ / ١٨٧ برقم ( ٦٣٨٢ ) .
(٣) المشيئة والارادة بمعنى واحد غير أن السلف يقسمون الارادة الى كونية خلقية وهي المستلزمة لوقوع المراد عموما في العالم والى دينية أمرية شرعية وهي المتضمنة للمحبة والرضا ، والمشيئة هي الارادة بالمعنى الأول فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وعلى هذا فلا تتضمن المشيئة المعنى الثاني للارادة فان كان المراد لم يكن داخلا في معناها الأول ، كايمان أبي جهل وسجود ابليس لآدم عليه السلام .
(٤) سورة هود : آية ١٠٧ .
(٥) سورة القصص : آية ٦٨ .
(٦) سورة المائدة : آية ١ .
(٧) سورة يس : آية ٨٢ .

وهي مشيئته لما خلقه من جميع مخلوقاته ، إنسهم وجنّهم ، مسلمهم وكافرهم ، حيوانهم وجمادهم ، ضارّهم ونافعهم ، ومن هذا القسم قوله تعالى : (( فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ))[1] . وإرادة دينية : وهي محبّته المتناولة لجميع ما أمر به ، وجعله شرعا ودينا ، فهذه متخصّصة بالإيمان والعمل الصالح ، ومن هذا القسم قوله تعالى : (( يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ))[2]

فما خلقه الله سبحانه وقدّره وقضاه فهو يريده ، وإن كان لا يأمر به ، ولا يحبّه ولا يرضاه ، ولا يثيب أصحابه ، ولا يجعلهم من أوليائه . وما أمر به وشرعه ، وأحبّه ورضيه ، وأحبّ فاعليه ، وأثابهم وأكرمهم عليه فهو الذي يحبّه ويرضاه ، ويثيب فاعله عليه .[3]

وقد تقدّم تفصيل هذا الموضوع بما فيه كفاية فلا حاجة هنا لإعادته[4]

د ـ صفة الحياة

أثبت الشوكاني ـ رحمه الله ـ صفة الحياة لله تبارك وتعالى ، وهي من الصفات السمعية العقلية ، لأنّ العقل يثبت أنّ الله متّصف بالحياة ، إذ لو لم يتّصف بالحياة لاتّصف بضدّها ، وهو الموت والفناء وهو محال ، بدليل ظهور الأفعال منه سبحانه ، واستحالة ظهورها ممن يجهلها ويعجز عنها ، فهو عالم وقادر، ويستحيل قيام العلم والقدرة بغير الحي .[5] ولأنّ الحياة من صفات الكمال ، بل هي مستلزمة لجميع صفات الكمال ، وكلّ كمال لا نقص فيه ثبت لمخلوق وأمكن أن يتّصف به الخالق فهو أولى به[6]

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٢٥ . (٢) سورة البقرة : آية ١٨٥ .

(٣) انظر : قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني ٢٨٥، ٢٨٦ .

(٤) انظر : الفرق بين الكونيات والدينيات في صفحة ١٨٨ ـ ١٩٥ .

(٥) انظر : المواقف في علم الكلام : للايجي ( الموقف الخامس في الالهيات ) ، ص ٢٩٠ .

(٦) انظر : شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل الهراس ٢٣، ٢٤ وأيضا مجموع فتاوى لابن تيمية ٩/ ١٤١ .

وقد ورد في القرآن الكريم وصف الله بأنّه : حيّ : في كثير من الآيات :

كقوله تعالى : (( اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ))(١)

وقوله تعالى : (( وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ))(٢)

وقوله : (( وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ))(٣)

وقوله سبحانه : (( هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ))(٤)

قال الشوكاني في تفسير معنى الحيّ : (( والحيّ : الباقي . ونقل عن الطبري عن قوم أنّه يقال : حيّ كما وصف نفسه ، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه ))(٥)

وقال في موضع آخر : (( الحيّ : الدائم الحياة .(٦) والحيّ : الباقي الذي لا يفنى ، المنفرد بالألوهية. ))(٧)

وقال في تفسير قوله تعالى : (( وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ))(٨) :

(( وخصّ صفة الحياة اشارة الى أن الحيّ هو الذي يوثق به في المصالح ، ولا حياة على الدوام الا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم ، فانّهم اذا ماتوا ضاع من يتوكّل عليهم ))(٩) فالحياة صفة حقيقية لازمة لذاته تعالى لائقة بكماله وجلاله وعظمته .

## هـ ـ صفة السمع والبصر

أثبت الشوكاني ـ رحمه الله ـ صفة السمع والبصر لله تعالى ، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات .(١٠) وهما من صفات السمعية العقلية ، لأن العقل يثبت بالضرورة أنّ الله الحيّ العليم القدير يجب أن يتّصف بالسمع والبصر ، اذ لو لم يتّصف بالسمع والبصر لاتّصف بضدّ ذلك ، وهو العمي والصمم ، وهذا محال ،

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٥ وآل عمران : آية ٢ .
(٢) سورة الفرقان : آية ٥٨ .
(٣) سورة طه : آية ١١١ .
(٤) سورة غافر : آية ٦٥ .
(٥) فتح القدير : الشوكاني ٢٧١/١ .
(٦) تحفة الذاكرين : الشوكاني ٧٢ .
(٧) فتح القدير : الشوكاني ٤٩٩/٤ .
(٨) سورة الفرقان : آية ٥٨ .
(٩) فتح القدير : الشوكاني ٨٣/٤، ٨٤ .
(١٠) انظر : التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ١٠ ضمن الرسائل السلفية .

لأنّ السمع والبصر من صفات الكمال ، فان الحيّ السميع البصير أكمل من حيّ ليس بسميع ولا بصير ، كما أن الموجود الحيّ أكمل من موجود ليس بحيّ ، وكلّ كمال اتّصف به المخلوق فالخالق أولى به ، لأنّه سبحانه يتعالى ويتنزّه عن كلّ نقص .

وقد تقرّر بالأدلّة من الكتاب والسنة أنّ الله سميع بصير .

فمن الكتاب قوله تعالى مخاطباً لموسى وهارون عليهما السلام :(( إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ))[1] وقوله : (( قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ، وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ))[2]

وقوله : (( أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ))[3]

وقوله : (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))[4]

وقوله : (( لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ))[5] وغير ذلك من الآيات .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : (( اربَعُوا على أنفسكم ، فانّكم لا تدعون أَصَمَّ ولا غائباً ، تدعون سميعاً بصيراً قريباً ... الحديث ))[6]

وقد بيّن الشوكاني - رحمه الله - في تفسيره للآية الأخيرة قال :

(( أي ما خفي فيهما وغاب من أحوالهما ، ليس لغيره من ذلك شيء ، ثم زاد في المبالغة والتأكيد فجاء بما يدلّ على التعجّب من ادراكه للمبصرات والمسموعات ، فقال : (( أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ )) فأفاد هذا التعجّب على أن شأنه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه ادراك المدركين ، وأنّه يستوي في علمه الغائب والحاضر ، والخفي والظاهر ، والصغير والكبير ، واللطيف

---

(١) سورة طه : آية ٤٦ .

(٢) سورة المجادلة : آية ١ .

(٣) سورة الزخرف : آية ٨٠ .

(٤) سورة الشورى : آية ١١ .

(٥) سورة الكهف : آية ٢٦ .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب : وكان الله سميعاً بصيراً . ( الفتح ٣٨٤/١٣ برقم ( ٧٣٨٦ ) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٠٧٦/٤ برقم ( ٢٧٠٤ ) . ومعنى اربعوا : أي ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم ، فانّ رفع الصوت انّما يفعله الانسان لبعد من يخاطبه ليسمعه ، وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصمّ ولا غائب ، بل هو سميع قريب ( شرح النووي لمسلم ٢٦/١٧ ) .

والكشف ، وكأنّ أصله ما أبصره وما أسمعه )).[١]

وفي تفسير قوله تعالى : (( ليس كمثله شيء وهو السميع البصير )) أكّد - رحمه الله - أنّ من فهم هذه الآية الكريمة حقّ فهمها، وتدبّرها حقّ تدبّرها،مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة ، ويزداد بصيرة اذا تأمّل معنى قوله : (( وهو السميع البصير )) فانّ هذا الاثبات بعد ذلك النفي للماثل قد اشتمل على برد اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب ))[٢] فكلمة (( ليس كمثله شيء )) بها يستفاد نفي المماثلة في كل شيء ، ووصفه سبحانه بالسميع والبصير يتقرّر بها الاثبات لهذه الصفات لا على وجه المماثلة للمخلوقات .[٣]

و - صفة الكلام

أثبت الشوكاني - رحمه الله - صفة الكلام لله تعالى بما تقرّر بالأدلّة من الكتاب والسنّة أنّه سبحانه متكلّم حقيقة بكلام هو صفة من صفاته اللازمة لذاته ، والكلام من الصفات السمعية العقلية ، لأنّ العقل يثبت أنّ الله تعالى متّصف بصفة الكلام ، اذ لو لم يتّصف بصفة الكلام لاتّصف بضدّها وهو الخرس ، وهذا محال ،لأنّ الكلام صفة كمال ، ومن يتكلّم أكمل ممن لا يتكلّم ، كما أنّ من يعلم ويقدر أكمل ممن ليس كذلك ، وقد تقرّر أن ما ثبت للمخلوق من كمال لا نقص فيه ، فثبوته للخالق بطريق الأولى ، وما تنزّه المخلوق عنه من النقائص ،فتنزّه الخالق عنه بطريق الأولى .[٤] فتبيّن أن الربّ سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال ، ومن أجلّها صفة الكلام .

وقد دلّ على ذلك من الأدلّة الشرعية ما في القرآن الكريم في كثير من الآيات :

كقوله تعالى : (( وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ))[٥]

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ٢٧٩/٣ . (٢) المصدر السابق : ٥٢٨/٤ .
(٣) انظر : التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ١٠ ضمن الرسائل السلفية .
(٤) انظر : مجموع فتاوى : ابن تيمية ١٤١/٦ .
(٥) سورة النساء : آية ١٦٤ .

وقوله تعالى: (( وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ. ))(١)

وقوله: (( سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ))(٢)

وقوله مخاطبا لموسى عليه السلام: (( إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ))(٣)

وما في القرآن من ذكر مناداته ومناجاته المتضمّنة معنى الكلام، كقوله تعالى عن آدم وحواء: (( وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ))(٤)، وقوله سبحانه عن موسى عليه السلام: (( وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ))(٥)، والنداء لا يكون إلا بصوتٍ مسموعٍ حادثٍ بكلام.

وغير ذلك من الآيات التي تقرّر بأدلتها صفة الكلام.

وقد أوضح الشوكاني – رحمه الله تعالى – من خلال تفسيره لمعاني هذه الآيات منهجه في إثبات صفة الكلام، فذكر عند تفسيره لقوله تعالى: (( وكلّم الله موسى تكليما ))، أنّ قراءة الجمهور برفع الاسم الشريف، على أنّ الله هو الذي كلّم موسى، و( تكليما ) مصدر مؤكّد، وفائدة التأكيد رفع توهّم كون التكليم مجازا (٦) فإذا أكّد الكلام بالمصدر لم يكن إلا حقيقة، وأجمع النحويّون على

---

(١) سورة التوبة: آية ٦ . (٢) سورة يس: آية ٥٨ . (٣) سورة الأعراف: آية ١٤٤ .
(٤) سورة الأعراف: آية ٢٢ . (٥) سورة مريم: آية ٥٢ .
(٦) يطلق لفظ المجاز في اصطلاح كثير من المتأخرين على ما هو قسيم الحقيقة، فإنّهم قسّموا الكلام إلى حقيقة ومجاز، فالحقيقة عندهم هي اللفظ المستعمل فيما وضع له، والمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة، وقيل غير ذلك من التعاريف ( انظر: إرشاد الفحول للشوكاني (ص ٢١)، وانظر أيضا: المستصفى في علم الأصول للغزالي (ص ٢٦٨) ط ١٣٢٤/١هـ المطبعة الأميرية بمصر، والأحكام في أصول الأحكام للآمدي (٢٦/١) تعليق/ عبد الرزاق عفيفي، ط ١٣٨٧/١هـ مؤسسة النور ).
والحقيقة أنّ تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز اصطلاح حادث قصد به التوصّل إلى نفي صفات الكمال عن الله عزّ وجلّ وإلا فالأئمة رحمهم الله تعالى وأهل القرون الثلاثة المفضّلة لم يتكلّموا بهذا الاصطلاح بالمعنى الذي قصده المبتدعة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: " فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة لم يتكلّم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا أحد من الأئمة المشهورين بالعلم، كمالك (ت ١٧٩هـ)، والثوري (ت ١٦١هـ)، والأوزاعي (ت ١٥٧هـ)، وأبي حنيفة (ت ١٥٠هـ) والشافعي (ت ٢٠٤هـ)، بل ولا تكلّم به أئمّة اللغة والنحو، كالخليل (ت ١٧٠هـ)، وسيبويه (ت ١٨٠هـ)، وأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ)، ونحوهم وأوّل من عرف أنّه تكلّم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى

====

أنك اذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا .[1]

وقال في قوله تعالى : (( وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ))[2] أي أسمعه كلامه من غير واسطة .[3]

وفي قوله تعالى : (( قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ))[4] ، والمراد بالكلام هنا : التكلّم ، امتنّ الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الاكرام ، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة .[5]

وفي قوله تعالى : (( يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ))[6]

قال - رحمه الله - : وهذا الكلام على طريق التمثيل والتخييل ، ولا سؤال ولا جواب ، كذا قيل . والأولى أنه على طريقة التحقيق ، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع .[7]

- قلت : لو عبّر الشوكاني بالصحيح بدل الأولى لكان أنسب ، لأن هذا هو التفسير الصحيح لمعنى الآية ، وهو الحقّ الذي عليه سلف الأمة وأئمتها ، فلا يجوز تأويل الآية عن ظاهرها الا بدليل شرعي لا عقلي . هذا وقد ورد في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(( لا تزال جهنّم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ، حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه .))[8]

وقال - رحمه الله - عن معنى النداء في قوله تعالى : (( وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ

---

==== ( ت ٢٠٩هـ ) في كتابه ، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وانّما عنى بمجاز الآية وما يعبّر به من الآية ... والغالب أنه - أي المجاز - كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ... وقد أنكر طائفة أن يكون في اللغة مجاز لا في القرآن ولا غيره ، كأبي اسحاق الاسفرائيني (ت ٤١٨هـ)... الى أن قال - رحمه الله - فلا مجاز في القرآن ، بل وتقسيم اللغة الى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف ، والخلف فيه على قولين ، وليس النزاع فيه لفظيا ، بل يقال نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا ... ( الايمان لابن تيمية ٧٩ وما بعدها ط ١٤٠٣/١هـ دار الكتب العلمية وانظر رسالة في الحقيقة والمجاز لابن تيمية ضمن مجموع فتاوى ٤٠٠/٢٠ - ٤٩٦ ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٢٣٣ ) .

(١) فتح القدير ، الشوكاني ٥٣٨/١ . (٢) سورة الأعراف ، آية ١٤٣ .
(٣) فتح القدير ، الشوكاني ٢٤٣/٢ . (٤) سورة الأعراف ، آية ١٤٤ .
(٥) فتح القدير ، الشوكاني ٢٤٤/٢ . (٦) سورة ق ، آية ٣٠ .
(٧) فتح القدير ، الشوكاني ٧٧/٥ . (٨) تقدم تخريجه في صفحة ٢٥٩ هامش رقم (٨) .

الطُّورِ الأَيْمَنِ ))[1] ، أي كلّمناه من جانب الطور ، ومعنى النداء أنه تمثّل له الكلام من ذلك الجانب . [2] ومثل هذا ما ذكره في قوله تعالى : (( فَلَمَّا جَاءَ هَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ))[3] اذ قال : " أن : هي المفسرة لما في النداء من معنى القول ". [4]

قلت : قول الشوكاني:(( انه تمثّل له الكلام من ذلك الجانب )) فيه نظر، والصحيح أنّ موسى عليه السلام سمع كلام الله في ذلك الجانب. أمّا تفسيره النداء بالكلام لما في النداء من معنى الكلام فهذا هو التفسير الصحيح الذى فسّر به علماء السلف[5] ، لأنّ فيه اثبات صفة الكلام لله تعالى، وأنّه تكلّم حقيقة بصوت مسموع، اذ النداء لا يكون إلّا به .

أما رأيه - رحمه الله - في مسألة القرآن ، فقرّر أن القرآن كلام الله منزّل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو صفة من صفات الله تعالى ، قديم النوع حادث الآحاد في التنزيل ، وأنّه المتلوّ والمسموع والمكتوب في المصاحف .

قال في تعريف القرآن :(( هو اسم لكلام الله تعالى ، وهو بمعنى المقروء كالمشروب سمّي شرابا ، والمكتوب سمّي كتابا ، وقيل : هو مصدر قرأ يقرأ .))[6]

وقال في موضع آخر : (( والقرآن في اللغة مصدر بمعنى القراءة ، غلب في العرف العام على المجموع المعيّن من كلام الله سبحانه وتعالى المقروء بألسنة العباد ، واصطلاحا هو الكلام المنزّل على الرسول صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف المنقول الينا نقلا متواترا .))[7]

وأزيد على هذا التعريف : وكانت ألفاظه للإعجاز ، وتعبّدنا الله بتلاوتها . وذلك للتفريق الواضح بينه وبين الحديث القدسي .[8]

وبيّن الشوكاني - رحمه الله - تجدّد كلام الله المفهوم من قوله تعالى : (( وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ، إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ))[9] حيث قال :

---

(١) سورة مريم : آية ٥٢ . (٢) فتح القدير : الشوكاني ٣٣٨/٣ .
(٣) سورة النمل : آية ٨ . (٤) فتح القدير : الشوكاني ١٢٦/٤ .
(٥) انظر : كتاب التوحيد لابن خزيمة ٣٣٤/١ تحقيق د/عبد العزيز الشهوان ، والشريعة للآجري ٢٩٩، ٣٠٠، وتفسير البغوي ٤٠٧/٣ وتفسير ابن كثير ١٢١/٣ .
(٦) فتح القدير : الشوكاني ١٨٢/١ .
(٧) ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول : الشوكاني ٢٩ .
(٨) انظر : قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي ٦٤ - ٦٦ ط ١٤٠٧/١هـ بيروت- تحقيق: محمد بهجة البيطار ومحمد رشيد رضا .
(٩) سورة الشعراء : آية ٥ .

(( بيّن سبحانه أنّه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين الى الايمان يأتيهم بالقرآن حالا بعد حال، وأن لا يجدّد لهم موعظة وتذكيرا الّا جدّدوا ما هو نقيض المقصود ، وهو الاعراض والتكذيب والاستهزاء.))(١)

ومثل هذه الآية قوله تعالى : (( مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ))(٢)

وقد استدلّ الجهمية وأتباعهم بهذه الآية على أنّ القرآن مخلوق ، لأنّ الله قال القرآن محدث وكلّ محدث مخلوق .(٣)

وأجاب الشوكاني عن هذا الاستدلال الباطل عند تفسيره للآية ، قال :

(( وقد استدلّ بوصف الذكر لكونه محدثا على أنّ القرآن محدث ، لأنّ الذكر هنا هو القرآن ، وأجيب بأنّه لا نزاع في حدوث المركّب من الأصوات والحروف ، لأنه متجدّد في النزول ، فالمعنى : محدث تنزيله .))(٤) أي أنّ المراد بالمحدث هو التنزيل ، وليس الذكر الذي هو القرآن ، هذا كما قال الامام أحمد عن الآية ، إنّ المحدث هو تنزيله على لسان الملك الذي أتى به ، فالتنزيل هو المحدث ، لا الذكر نفسه محدث .(٥)

ثم بيّن الشوكاني ـ رحمه الله ـ موقفه من مسألة خلق القرآن التي ابتدعتها وتبنّتها الجهمية والمعتزلة فقال :

(( وهذه المسألة : أي قدم القرآن وحدوثه قد ابتلي بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة المأمونية ، والمعتصمية ، والواثقية ، وجرى للامام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل ، وضرب بسببها عنق محمد بن نصر

---

(١) فتح القدير، الشوكاني ٩٤/٤ . (٢) سورة الأنبياء : آية ٢ .
(٣) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة للامام أحمد ١٢٠ تحقيق د/عبدالرحمن عميرة ، ورده ـ رحمه الله ـ على هذا الاستدلال ١٢٠ ـ ١٢٣ .
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٣٦٧/٣ .
(٥) ذكره عنه البيهقي في كتاب الاعتقاد ٦٠ .

الخزاعي .[1] وصارت فتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده، والقصة أشهر من أن تذكر ... ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الاجابة الى القول بخلق القرآن وحدوثه ، وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع ، ولكنهم ـ رحمهم الله ـ جاوزوا ذلك الى الجزم بقدمه ، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفّروا من قال بالحدوث ،بل جاوزوا ذلك الى تكفير من قال : لفظي بالقرآن مخلوق . بل جاوزوا ذلك الى تكفير من وقف ، وليتهم لم يجاوزوا حَدّاً الوقف ، وارجاع العلم الى علاّم الغيوب ، فانّه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيء من الكلام ، ولا نقل عنهم كلمة في ذلك ، فكان الامتناع من الاجابة الى ما دعوا اليه ، والتمسّك بأذيال الوقف وارجاع علم ذلك الى عالمه هو الطريقة المثلى ، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله ، والأمر لله سبحانه ))[2]

والشوكاني ـ رحمه الله ـ بهذا قد وقف من رأي الجهمية والمعتزلة القائل بأنّ القرآن مخلوق موقف الواقفية ، فلم يجزم فيه برأي هل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ ولم يرض من الأئمة الا الوقوف في هذه المسألة كما وقف السلف في صدر الاسلام .

وهذا موقف غير سديد ، لأنّ السلف في صدر الاسلام كانوا في غنى عن الزيادة على القول : ( القرآن كلام الله ) ؛ لأنّهم لم يكونوا يفقهون من هذه الاضافة الاّ انّها صفة من صفات الله ، وصفات الله غير مخلوقة ، حتى ظهرت الجهمية وظهرت بدعة القول بخلق القرآن ، فعقل أئمة السلف خطرها ، وقابلوهم برفضها وانكارها ، والتشديد عليهم في ذلك ، لأنّ حقيقة كلامهم الكفر، لما تضمّن من

---

(١) هكذا في الأصل ولعل الصحيح أحمد بن نصر الخزاعي ، أبو عبدالله ، من أشراف بغداد ،كان يخالف من يقول بخلق القرآن ، ويقدح في الخليفة الواثق بالله في أيامه فقبض عليه وقتله بيده في سامراء ٢٣١هـ وبعث برأسه الى بغداد ، فنصب فيها ست سنوات . ( انظر ترجمته في: تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي ١٧٣/٥ ( ٢٦٢٣ ) وصفة الصفوة لابن الجوزي ٢٦٣/٢ (٢٦٧) ومناقب الامام أحمد لابن الجوزي ٣٩٨ ط/١٣٤٩هـ بمصر ).

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣٦٧/٣ .

تكذيب القرآن ، واثبات النقص لله ، ولا سبيل لهم لابطال هذه البدعة الا أن قالوا : القرآن كلام الله غير مخلوق .[١]

وعلى هذا قال الامام أحمد ـ رحمه الله ـ :

(( كنّا نرى السكوت عن هذا قبل أن يخوض فيه هؤلاء ، فلما أظهروه لم نجد بدّا من مخالفتهم والردّ عليهم ))[٢]

وقد سئل ـ رحمه الله ـ هل لهم رخصة أن يقول الرجل : القرآن كلام الله تعالى ثم يسكت ؟ فقال : ولم يسكت ؟ لولا ما وقع فيه الناس كان يسعه السكوت، ولكن حيث تكلّموا فيما تكلّموا لأي شيء لا يتكلّمون ؟ . ))[٣]

قال الآجري [٤] بعد أن ساق هذا النص :

(( معنى قول أحمد بن حنبل في هذا المعنى : يقول : لم يختلف أهل الايمان أنّ القرآن كلام الله عزوجل ، فلما جاء جهم فأحدث الكفر بقوله : إنّ القرآن مخلوق لم يسع العلماء الا الردّ عليه بأنّ القرآن كلام الله عزوجل غير مخلوق بلا شك ، ولا توقّف فيه ، فمن لم يقل : غير مخلوق . سمّي واقفيّا شاكّا في دينه ))[٥]

وقد دلّ على هذه العقيدة ـ أعني القرآن كلام الله غير مخلوق ـ الكتاب والسنة ونصوص السلف وكلامهم .

فمن الكتاب : قوله تعالى : (( أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ . ))[٦] حيث فرّق سبحانه وتعالى بين خلقه وأمره ، وهما صفتان من صفاته ، أما الخلق نفعله ، وأما الأمر فقوله ، والخلق انّما يكون بالأمر ، كما قال تعالى : (( إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا

---

(١) انظر : الرد على الجهمية للدارمي ٢٥٩ ضمن عقائد السلف .

(٢) ذكره عنه الدارمي في كتابه : نقض أبي سعيد عثمان الدارمي على بشر المريسي ٤٦٧، ٤٦٨ ضمن عقائد السلف .

(٣) ذكره عنه الآجري في كتابه : الشريعة ٨٧ .

(٤) تقدمت ترجمته في (ص ١٣٩) .

(٥) الشريعة : الآجري ٨٧ .

(٦) سورة الأعراف : آية ٥٤ .

أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ))[1] فقوله :كن . هو أمره ، فلوكان مخلوقا لاحتاج خلقه الى أمر، والأمر الى أمر الى ما لا نهاية ، وهذا باطل .

وعلى هذا قال الامام سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ عندما قيل له : إنّ بشرا المريسي [2] يزعم أنّ القرآن مخلوق ، (( كذب ،قال الله عزوجل : ألا له الخلق والأمر .[3] فالخلق خلق الله تبارك وتعالى ، والأمر القرآن ))[4]

ومنه أيضا قوله تعالى مخبرا عن المشركين أنهم قالوا : (( إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ))[5] يعنون القرآن ، فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد جعله قولا للبشر ، وهذا مما أنكره الله على المشركين ، وتوعّدهم بالنار حين قال : (( سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ))[6] أي على مقالتهم هذه ، وهذا يدلّ على أن القرآن كلام الله غيرمخلوق ))[7]

واستدلّ الامام الدارمي بهذه الآية على تكفير الجهمية ، لما بين تكذيب المشركين بالقرآن ، وما قالت الجهمية سواء ، فهذا قول جهم : ان هذا لا مخلوق ، وقول المشركين : (( إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ.))[8] (( إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ ))[9] و (( إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ))[10] و (( إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ))[11] معناهم في جميع ذلك ومعنى جهم في قوله يرجعان الى أنه مخلوق ليس بينهما فيه من البون كغرز ابرة ولا قيس شعرة .[12]

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم :

(( من نزل منزلا ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامّات من شرّما خلق ، لم يضرّه

---

(١) سورة يس : آية ٨٢ .

(٢) تقدّمت ترجمته في المقدّمة صفحة (٦)

(٣) سورة الأعراف: آية ٥٤ .

(٤) رواه الآجري في الشريعة ٨٠ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢١٩/٢ برقم ( ٣٥٨ )

(٥) سورة المدثر: آية ٢٥ . (٦) سورة المدثر: آية ٢٦ .

(٧) انظر: الردّعلى الجهمية : الدارمي ٣٤٦،٣٤٥،٢٣٧ ضمن عقائد السلف ،والاعتقاد : البيهقي ٥٩ ولمعة الاعتقاد : ابن قدامة ١٩، ٢٠ ط ١٣٩٥/٤هـ المكتب الاسلامي .

(٨) سورة المدثر: آية ٢٥ . (٩) سورة الفرقان: آية ٤ . (١٠) سورة المؤمنون: آية ٨٣ .

(١١) سورة ص : آية ٧ . (١٢) الردّعلى الجهمية : الدارمي ٣٤٦ ضمن عقائد السلف .

شيئ حتى يرتحل من منزله ذلك ))(١)

فأثبت النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وأمثاله مشروعية الاستعاذة بكلمات الله ، فلو كانت كلماته مخلوقة ، لكانت الاستعاذة بها شركا ، لأنها استعاذة بمخلوق ، ومن المعلوم أنّ الاستعاذة بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته شرك ، فدلّ هذا على أنّ كلمات الله تعالى غير مخلوقة .

قال الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ : وفي هذا دليل أنّ كلام الله غير مخلوق وأنّ سواه خلق .(٢)

وقال :((إنّ حركات العباد وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة ، فأمّا القرآن المتلوّ المبيّن المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بخلقه ))(٣)

وأقوال أئمة السلف في اثبات هذه العقيدة كثيرة جدّا :

منها ما روي عن سفيان بن عيينة (٤) أنّه قال : (( أدركت مشيختنا منذ سبعين سنة منهم عمرو بن دينار (٥) يقولون : القرآن كلام الله وليس بمخلوق ))(٦)

وعن سفيان الثوري (٧) قال : (( من قال : إنّ ( قل هو الله أحد ، الله الصمد ) مخلوق فهو كافر ))(٨)

وعن مالك بن أنس امام دار الهجرة قال : (( القرآن كلام الله ليس بمخوق ))(٩)

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب في التعوذ من سوء القضاء ٢٠٨٠/٤ برقم (٢٧٠٨) والترمذي في كتاب الدعوات باب ما جاء ما يقول اذا نزل منزلا ٤٦٢/٥ برقم (٣٤٣٧) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه في الطب ، باب الفزع والأرق وما يتعوّذ منه ١١٧٤/٢ برقم (٣٥٤٧) وأحمد في المسند ٣٧٧/٦، ٤٠٩ .

(٢) انظر : خلق أفعال العباد : البخاري ١٩٠ ضمن عقائد السلف .

(٣) المصدر السابق ١٣٨ . (٤) سبقت له ترجمة في صفحة (٢٦٣) .

(٥) أبو محمد الجمحي عمرو بن دينار ، عالم أهل مكة ، سمع ابن عباس وجابرا وغيرهما ، وهو محدث وفقيه ،توفي ١٢٦هـ ( ميزان الاعتدال : الذهبي ١٨٠/٤ ( ٦٣٦٧ ) وتقريب التهذيب : ابن حجر ٤٢١ ( ٥٠٢٤ ) .

(٦) خلق أفعال العباد : البخاري ١١٧ ضمن عقائد السلف ، والأسماء والصفات : البيهقي ٢٤٥ .

(٧) سبقت له ترجمة في صفحة (٢٦٣) .

(٨) رواه عبد الله بن الامام أحمد في السنة ١٠٧/١، ١٠٨ برقم ( ١٣ ) واسناده حسن .

(٩) الأسماء والصفات : البيهقي ٢٤٨ .

وعن أحمد بن حنبل امام أهل السنة قال جوابا لسؤال المتوكل[1] عن مسألة القرآن :

(( وقد روي عن غير واحد ممن مضى من سلفنا رحمهم الله أنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله عزوجل وليس بمخلوق ، وهو الذي أذهب اليه ، ولست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام في شيئ من هذا الا ما كان في كتاب الله عزوجل ، أو في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن أصحابه ، أو عن التابعين ، فأمّا غير ذلك فانّ الكلام فيه غير محمود ))[2]

الى غير ذلك من أقوال أئمة السلف الذين يقتدى بهم من أهل القرون المفضّلة التي هي خير القرون ، كلّها مصرّحة بمذهبهم في أنّ القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق .

وقد ساق الامام اللالكائي في كتابه : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [3] القول بذلك عن خمسمائة وخمسين نفسا من علماء الأمة وسلفها ، كلّهم يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ،ومن قال مخلوق فهو كافر .

وعلى هذا فقد خالف الشوكاني - رحمه الله - مذهب جمهور السلف حين ذهب الى الوقوف في هذه المسألة والسكوت عن القول : القرآن مخلوق أو غير مخلوق، والاكتفاء بالقول : إنّه كلام الله . ورعا وخشية من البدعة ومن تكفير طوائف من الناس كما هو واضح من كلامه . وهذا مذهب غير صحيح[4]،والصحيح ما ذهب اليه جمهور السلف من التصريح والتشديد على المبتدعين ، لخطورة مقالتهم الفاسدة

---

(١) جعفر ( المتوكل على الله ) بن محمد ( المعتصم بالله ) بن هارون الرشيد أبو الفضل ، خليفة عباسي ولد ببغداد ، وبويع بعد وفاة أخيه الواثق ٢٣٢هـ ولما استخلف كتب الى أهل بغداد كتابا قرئ على المنبر بترك الجدل في القرآن وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلقه ، اغتيل بمدينة سامراء ٢٤٧هـ ( تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ١٦٥/٧ ( ٣٦١٢ ) وتاريخ الطبري ٦٢،٢٦/١١ ) .

(٢) رواه ابنه عبد الله في السنة ١٤٠،١٣٩/١ برقم ( ١٠٧ ) .

(٣) انظر، صفحة ٣١٢/٢ برقم ( ٤٩٣ ) وانظر التفاصيل من صفحة ٢٢٧ - ٣١٢ .

(٤) وقد ردّ الامام الدارمي على هذا المذهب المسمى بالواقفة واحتجّ عليهم فيما احتجّوا به في كتابه : الرد على الجهمية صفحة ٣٤٢ - ٣٤٥ ضمن عقائد السلف ، كما ذكر الامام اللالكائي آثارا عن السلف تردّ عليهم في كتابه : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣٢٣/٢ - ٣٢٩ فليراجع اليه .

التي تمسّ العقيدة الاسلامية في صميمها ، فوجب تفنيدها وبيان زيفها ، وتوطيد دعائم الحقّ بالحجّة الساطعة ، والبرهان القاطع وذلك ما كان من الأئمة وأعلام الأمة الذين هم قدوة الناس - كما حكيناه عن بعضهم فيما مضى - والورع في هذا الموطن وقد أظهرت المبتدعة بدعتها وأضلّت الناس بها يكون ورعا في غير محله ، وهو ورع ممقوت ، وخاصة من العلماء الذين يفزع الناس اليهم عند حدوث الفتن وظهور البدع .

ولعل الشوكاني - رحمه الله - يقصد بالوقف هو الوقف في مسألة قدم القرآن المطلق ، لا قدم جنس الكلام الذي هو صفة من صفات الله القائمة بذاته ، فهذا ما لا يريده الشوكاني أصلا ، كما هو مفهوم من كلامه الذي أوردناه من البداية .

فالقول بأنّ القرآن كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق ، بل منزّل من عند الله وهو صفة من صفات الله ، قديم النوع حادث الآحاد في التنزيل ، هذا معتقد السلف أهل السنة والجماعة قاطبة [(١)]

ومنهم الشوكاني - رحمه الله - فقد قرّر أنّ القرآن كلام الله ،لا كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنّه من عند الله ، وأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم انما يبلّغ اليهم منه ما أمره الله بتبليغه ،لا يقدر على غير ذلك ، فقال : (( قُلْ لَوْشَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ))[(٢)] أي أنّ هذا القرآن المتلوّ عليكم هو بمشيئة الله ليس لي في ذلك شيئ،ولوشاء الله ما أعلمكم به على لساني .[(٣)]

كما قرّر أنّ كلمات الله لا تتناهى لأنّها تابعة لمعلوماته ، وهي غير متناهية

---

(١) انظر: الردعلى الجهمية والزنادقة للامام أحمد ٧٣ ضمن عقائد السلف ، وخلق أفعال العباد للبخاري ١٣٨ ضمن عقائد السلف،وصريح السنة لابن جرير الطبري ١٨ تحقيق بدر بن يوسف المعتوق ط ١ /١٤٠٥هـ دار الخلفاء ، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ٧-٨ تحقيق بدر البدر ، ولمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي ١٨ المكتب الاسلامي،وكتاب مذهب السلف القويم في تحقيق مسألة كلام الله الكريم لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣/ ٣٤٩ دار الكتب العلمية ، ومجموع فتاوى لابن تيمية ٦/٢٩٢،١٢/٢٤٣،٢٤٤،٢٧٢ وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ١٧٩،١٨٠ .

(٢) سورة يونس ، آية ١٦ .

(٣) انظر: فتح القدير: الشوكاني ٢/٤٣٠ .

فالكلمات غيرمتناهية .(١)

فانّه لم يزل يتكلّم بما شاء اذا شاء كيف شاء ، ولا يزال كذلك ، كما قال تعالى : (( قُلْ لَوْكَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْجِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ))(٢)

ز ـ صفة العلو

العلو صفة من صفات الله تعالى الذاتية التي لا تنفكّ عنه ، وقد دلّ على ثبوتها : السمع والعقل والفطرة .

وقد تواترت الأدلّة من الكتاب والسنة على أنّ الله تعالى عال على كلّ شيء .

أمّا من الكتاب فقوله تعالى : (( فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ))(٣)

وقوله تعالى : (( وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ))(٤)

وقوله :(( سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ))(٥)

وقوله سبحانه : (( أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ))(٦) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على علوّالله تعالى .

وأما الأحاديث فكثيرة أيضا ، وقدبلغت حدالتواتر .(٧)

منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قسمة الذهب الذي بعث به علي بن أبي طالب من اليمن الى المدينة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (( ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتي خبرالسماءصباحا ومساء ))(٨)

---

(١) انظر: فتح القدير: الشوكاني ٣١٨/٣ . (٢) سورة الكهف : آية ١٠٩ .
(٣) سورة غافر : آية ١٢ . (٤) سورة البقرة : آية ٢٥٥ .
(٥) سورة الأعلى : آية ١ . (٦) سورة الملك : آية ١٦ .
(٧) انظر حكاية التواتر في كتاب اثبات صفة العلو لابن قدامة ( ٦٦ وما بعدها ) تحقيق د/ أحمد عطية الغامدي ، ومختصر العلو للذهبي ( ٨٠ وما بعدها ) اختصار الألباني ، واجتماع الجيوش الاسلامية لابن القيم ( ٣٠ وما بعدها ) ط / المكتبة السلفية .
وذكر صاحب شرح الطحاوية (ص ٣١٩ـ٣٢٢) ما يقرب من عشرين نوعا من الأدلة على اثبات صفة العلو لله عزوجل ثم قال: وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله ، هيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك .
(٨) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب بعث علي وخالد الى اليمن ( الفتح ٦٦٥/٧، ٦٦٦ برقم ( ٤٣٥١ ) ومسلم في كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٧٤٢/٢ برقم ( ١٠٦٤ ) وأحمد في المسند ٥/٣ ٤ .

وحديث الجارية التي سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين الله ؟ قالت: في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : رسول الله . قال : اعتقها فإنها مؤمنة .))[1]

وغيرهما من الأحاديث .

وقد أجمع سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان على أنّ الله فوق سماواته على عرشه .[2]

وأما من العقل فإنّ كلّ عقل صحيح صريح يدلّ على علوّ الله سبحانه على خلقه ، لأن العلوّ صفة كمال ، والسفل صفة نقص ، والله تعالى موصوف بالكمال المطلق من جميع الوجوه ، ومنزّه عن جميع صفات النقص ، فدلّ العقل على اتّصاف الله عزوجل بصفة العلوّ من وجوه[3] ، أذكر واحدا منها وهو : أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية ، لأنه غير معقول ، فيكون موجودا إمّا داخله وإمّا خارجه ، والأول باطل ، فتعيّن الثاني ، فلزمت المباينة .

وأما ثبوته بالفطرة فإنّ الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلوّ بقلوبهم عند التضرّع إلى الله تعالى من غير تعلّم معلّم ، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من اجتالته الشياطين والأهواء .

يقول ابن عبد البرّ[4] :

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة ٣٨١/١ برقم (٥٣٧) وغيره ، وله طرق وشواهد تجدها في كتاب : دفاع عن حديث الجارية رواية ودراية ، تأليف : سليم الهلالي . والحديث أورده الشوكاني في نيل الأوطار ٦١/٩ باب ما يصير به الكافر مسلما ، وقال : أخرجه مسلم ومالك في الموطأ وأبو داود والنسائي من حديث معاوية بن الحكم السلمي .

(٢) انظر : مجموع فتاوى لابن تيمية ٢١٩/٣ ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٣٦١ واجتماع الجيوش الاسلامية له ٣٩ وما بعدها .

(٣) ذكر صاحب شرح العقيدة الطحاوية ( صفحة ٣٢٥) ثلاثة وجوه ، وذكر ابن القيم ثلاثين دليلا عقليا على اثبات صفة العلو ( انظر : مختصر الصواعق المرسلة ٣٥٥ وما بعدها ) .

(٤) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي أبو عمر ، من كبار حفاظ الحديث ، يقال له حافظ المغرب ، قال الذهبي : كان في أصول الديانة على مذهب السلف ، ولم يدخل في علم الكلام ، له مؤلفات عظيمة منها : التمهيد ، وجامع بيان العلم وفضله ، توفي ٤٦٣هـ .( وفيات الأعيان : ابن خلكان ٦٦/٧ وسير أعلام النبلاء : الذهبي ١٥٣/١٨ ) .

(( ومن الحجّة في أنّه سبحانه وتعالى على العرش فوق السموات السبع ،أنّ الموحّدين أجمعين من العرب والعجم اذا كربهم أمر، أونزلت بهم شدّة، رفعوا وجوههم الى السماء ، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها الى السماء يستغيثون الله ربّهم تبارك وتعالى ، هذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه الى أكثر من حكايته ، لأنه اضطراري ، لم يخالفهم فيه أحد ولا أنكره عليهم مسلم ))(١)

هذه بعض الأدلّة التي تدلّ على اثبات صفة العلوّلله تعالى ، وهوما اتّفق عليه السلف الصالح من الفقهاء المجتهدين والمحدّثين ، فما رأي الشوكاني في هذه الصفة؟

يضطرب كلام الشوكاني بين كتاب وآخر، ففي رسالته التحف في مذاهب السلف أثبت الشوكاني صفة العلولله تعالى ضمن اثباته صفة الاستواء ، فذكر في صدر الرسالة في صيغة السؤال الموجّه اليه : أن الله سبحانه في سمائه، مستوعلى عرشه ، بائن من خلقه ، وعلمه في كل مكان ، والدليل آيات الاستواء ، والصعود والرفع .(٢) وقوله تعالى : (( أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ))(٣) ومن السنن حديث الجارية ،(٤)

---

(١) التمهيد : ابن عبدالبر ١٣٤/٧ وانظر أيضا الاستدلال بالفطرة على علو الله تعالى في: مجموع فتاوى لابن تيمية ٦١/٤ وشرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العز الحنفي - ٣٢٥ - ٣٢٨ .

(٢) الاستواء كقوله تعالى:(الرحمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى)( سورة طه : آية ٥ ) والصعود كقوله تعالى:(( إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيبُ)) ( سورة فاطر: آية ١٠) والرفع كقوله تعالى:(( بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ)) ( سورة النساء : آية ١٥٨ ) .

(٣) سورة الملك : آية ١٦
قال شارح الطحاوية (ص ٣٢٠): وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد الوجهين: إما أن تكون فِيْ بمعنى عَلَى وإما أن يراد بالسماء العلو، لايختلفون في ذلك ، ولايجوز الحمل على غيره ١٠هـ قلت: فالأول كقوله تعالى:(( قُلْ سِيْرُوْا فِيْ الأَرْضِ )) ( سورة الأنعام : آية ١١ ) أي على الأرض ، والثاني كقوله تعالى:(( وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)) ( سورة طه : آية ٥٣) وقوله :(( وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيْهَا مِنْ بَرَدٍ)) ( سورة النور: آية ٤٣) أي من عال ، لأن السماء قد تطلق على جهة العلو.( انظر تفسير ابن كثير في هذه الآيات ،وانظر مجموع فتاوى لابن تيمية ١٠٦،٦٨/٥ وفتح القدير: الشوكاني ٤١/٤ ) .

(٤) تقدم تخريجه قبل قليل انظر صفحة (٣٢٣) .

والنزول [١] وعمران بن حصين [٢] وقوله صلى الله عليه وسلم : (( ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ))[٣] وغيرذلك من الآيات المتواترة والأحاديث المتكاثرة [٤] ... الى أن قال في اثبات صفة الاستواء : نحن نثبت ما أثبته الله لنفسه من استوائه على عرشه على هيئة لا يعلمها الا هو وكيفية لا يدري بها سواه ، ولا نكلّف أنفسنا غيرهذا ، فليس كمثله شيئ لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا يحيط عباده به علما ، وهكذا يقولون ( يعني السلف ) في مسألة الجهة [٥] ( يعني العلو ) ، والأدلة في ذلك طويلة كثيرة في الكتاب والسنة ، وقد جمع أهل العلم منها لا سيّما أهل الحديث مباحث طوّلوها بذكر آيات قرآنية وأحاديث صحيحة ، وقد

---

(١) حديث النزول : هوقوله صلى الله عليه وسلم : ينزل ربّنا تبارك وتعالى كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخرفيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفرله ؟ أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب الدعاء والصلاة من آخر الليل الفتح ٣/٣٥، ٣٦ برقم (١١٤٥) وأيضا ( ٦٣٢١، ٧٤٩٤) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والاجابة فيه ١/٥٢١ برقم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفي الباب عن غيرواحد من الصحابة يجزم الواقف على أحاديثهم أن حديث النزول متواتر .

(٢) لعلّه يقصد حديث عمران بن حصين الذي قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي : يا حصين كم تعبد اليوم إلهًا ؟ قال أبي : سبعة ، ستّا في الأرض ، وواحدا في السماء ، قال : فأيّهم تُعِدّ لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذي في السماء . الحديث ( أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب ( ٧٠ ) ٥/٤٨٥ برقم ( ٣٤٨٣ ) وقال هذا حديث غريب ، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/١ دار الفكر ، وعلقه في خلق أفعال العباد ١٣٤ ضمن عقائد السلف ، والبيهقي في الأسماء والصفات ٥٣٤ وسنده ضعيف . )

(٣) تقدم تخريجه قبل قليل . انظر صفحة (٣٢٢) .

(٤) لعل الأنسب أن يقال : من الآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة .

(٥) لم يرد لفظ (( الجهة )) لا في الكتاب ولا في السنة ، وعليه فلا ينبغي اثباتها ولا نفيها وجملة القول فيها : أنه ان أريد بها أمر وجودي غيرالله كان مخلوقا ، والله تعالى فوق خلقه لا يحصره ولا يحيط به شيئ من المخلوقات ، فانه بائن من المخلوقات ، وأن أريد بالجهة أمر عدمي ، وهو ما فوق العالم ، فليس هناك الا الله وحده ، وهذا المعنى الأخير هو المراد من كلام المثبتين للعلو . ( انظر : مختصر العلو للذهبي ( ٧١، ٨٢ ) وأيضا نقض تأسيس الجهمية لابن تيمية ( ١/٥٠٢ ) والتدمرية له ( ٤٥ ) ومناهج الأدلة لابن رشد ( ١٧٨ ) تحقيق محمود قاسم ط ٣/ القاهرة .)

وقفت من ذلك على مؤلف بسيط في مجلد واحد[١]؛ جمعه مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي ـ رحمه الله ـ[٢] استوفى فيه كلّ ما فيه دلالة على الجهة من كتاب أو سنة أو قول صاحب .[٣]

وبيّن ـ رحمه الله ـ ثبوت العلوّ لله بالفطرة فقال :

(( ... بل هذا مما يجده كلّ فرد من أفراد الناس في نفسه ، ويحسّه في فطرته وتجذبه اليه طبيعته كما تراه في كلّ من استغاث بالله سبحانه وتعالى وا لتجأ اليه ، ووجّه أدعيته الى جانبه الرفيع ، وعزّه المنيع ، فانّه يشير عند ذلك بكفّه أو يرمي الى السماء بطرفه ، ويستوي في ذلك عند عروض أسباب الدعاء وحدوث بواعث الاستغاثة ، ووجود مقتضيات الازعاج ، وظهور دواعي الالتجاء ، عالم الناس وجاهلهم ، والماشي على طريقة السلف والمقتدي بأهل التأويل القائلين بأنّ الاستواء هو الاستيلاء، كما قال جمهور المتأوّلين والأقيال .))[٤]

هذا ما قاله الشوكاني في رسالته التحف وهو كلام صحيح لا غبار عليه ، أما في تفسيره للآيات فلم يسلك مسلكا صحيحا حيث أوّل ظاهر الآيات تأويلا أشعريا ولم يظهر منها صفة العلوّ لله تبارك وتعالى ، واليك بعض الأمثلة من تفسيره :

قال ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى : (( وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ))[٥]

(( والعلي : يراد به علو القدرة والمنزلة . وحكى الطبري عن قوم أنّهم قالوا : هو العلي عن خلقه ، بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه

---

(١) وهو كتاب : العلو للعلي الغفار. طبع مرات ، ثم اختصره الألباني مقتصرا على الصحيح الثابت منه .

(٢) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، أبو عبد الله ، حافظ مؤرّخ، علاّمة محقق محدّث العصر، وشيخ الجرح والتعديل ، له التصانيف الجزيلة في الحديث وأسماء الرجال والتواريخ تقارب المائة، منها : سير أعلام النبلاء ، وميزان الاعتدال ، والكبائر. توفي ٧٤٨هـ ( طبقات الشافعية الكبرى : السبكي ( ٢١٦/٥ ) وشذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي ( ١٥٣/٦ ) ومفتاح السعادة : طاش كبرى زادة ( ٢٣٩/١ ) .

(٣) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ١١،١ ضمن الرسائل السلفية .

(٤) المصدر السابق ١١ .

(٥) سورة البقرة : آية ٢٥٥ .

قال ابن عطية .(١) : وهذا أقوال جهلة مجسّمين ، وكان الواجب أن لا تحكى

ثم قال (أي الشوكاني ):

(( والخلاف في اثبات الجهة معروف في السلف والخلف ، والنزاع فيه كائن بينهم ، والأدلة من الكتاب والسنة معروفة ، ولكن الناشئ على مذهب يرى غيره خارجا عن الشرع ، ولا ينظر في أدلته ، ولا يلتفت اليها ، والكتاب والسنة هما المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل ، ويتبين به الصحيح من الفاسد ، (( وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ))(٢) ولا شك أن هذا اللفظ يطلق على الظاهر والغالب ، كما في قوله : (( إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ )) (٣)

وقال الشاعر :

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر ·))(٤)

ويظهر لي أن الشوكاني - رحمه الله - يقصد بالظاهر والغالب من معنى (( العلي )) علو القدرة والمنزلة ، كما فسّره في أول الكلام ، وكما يفهم من المثالين الذين مثّل بهما ، وقد فسّر كلمة (( علا )) في الآية بمعنى : تكبر وتجبر بسلطانه ، نقلا عن المفسّرين . (٥)

وأيّد ماذهبت اليه أنه فسّر قوله تعالى : (( وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ))(٦) قال: (( ومعنى ( فوق عباده ) : فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم ، لا فوقية المكان ، كما تقول : السلطان فوق رعيته؛ أي بالمنزلة والرفعة ·))(٧)

وفسّر قوله تعالى : (( عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ ))(٨) قال :

---

(١) عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية المحاربي أبو محمد مفسر فقيه أندلسي من أهل غرناطة له : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز توفي ٥٤٢هـ وقيل غيره ( تذكرة الحفاظ: الذهبي ( ١٢٦٦/٤ ) والأعلام : الزركلي ( ٢٨٢/٣ ) ومعجم طبقات الحفّاظ والمفسّرين : عبدالعزيز السيروان ( ٢٦٣ )

(٢) سورة المؤمنون : آية ٧١ . (٣) سورة القصص : آية ٤ .

(٤) فتح القدير: الشوكاني ٢٧٢/١ . (٥) انظر: المصدر السابق ١٥٨/٤ .

(٦) سورة الأنعام : آية ٦١،١٨ .

(٧) فتح القدير: الشوكاني ١٠٤/٢ وانظر أيضا ١٢٤/٢ .

(٨) سورة الرعد : آية ٩ .

(( المتعال : العظيم الذي كل شيئ دونه ، المتعالي عما يقوله المشركون أوالمستعلي على كل شيئ بقدرته وعظمته وقهره ))[1]

وقال في قوله تعالى : (( تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ))[2] أي الى المكان الذي ينتهون اليه ، وقيل: الى عرشه .))[3]

قلت ، والصحيح ما ذهب اليه السلف من أن الضمير راجع الى لفظ الجلالة لأنه أقرب اليه ذكرا . قال البخاري ـ رحمه الله ـ :(( باب قول الله تعالى:((تعرج الملائكة والروح اليه)) ... يقال ، ذي المعارج : الملائكة تعرج الى الله.))[4] وهذه الآية يستدل بها على علوّه تعالى فوق خلقه .

وقال في قوله تعالى : (( أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ))[5] و(( أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ))[6] :

(( قال المفسّرون : أي عقوبة من في السماء ، وقيل: قدرته ، وسلطانه ، وعرشه ، وملائكته ، وقيل: من في السماء من الملائكة ، وقيل: جبريل .[7]

قلت ، لم يصرّح الشوكاني في تفسير (( من في السماء )) بأنّه هو الله عزوجل أي أنّه في العلوّ المطلق ، بائن عن خلقه ، بل نقل أقوال المفسّرين المخالفين لمذهب السلف في تأويل معنى الآية ، ولم يعقّب عليها، والحقّ ما ذهب اليه السلف من أن المراد هو الله عزّوجلّ ، لأنّه تعالى في السماء الذي هو العلوّ المطلق ، وهو في علياءه فوق عرشه بائن من خلقه .

وهكذا فلم يثبت الشوكاني ـ رحمه الله ـ من خلال هذه الآيات وأمثالها أنّ الله سبحانه وتعالى عال فوق خلقه ، بائن عنه ، لا يحصره ، ولا يحيط به شيئ من المخلوقات ، كما أثبته في رسالته التحف التي بيّن فيها مذهب السلف الصالح في الصفات ، ولم يفرّق بين صفة وأخرى ، بل أجراها على ظاهرها مع اعتقاد

---

(١) فتح القدير ، الشوكاني ٦٧/٣ . (٢) سورة المعارج ، آية ٤ .
(٣) فتح القدير ، الشوكاني ٢٨٨/٥ . (٤) انظر ، الفتح ( ٤٢٦/١٣ ) .
(٥) سورة الملك ، آية ١٦ . (٦) سورة الملك ، آية ١٧ .
(٧) فتح القدير ، الشوكاني ٢٦٢/٥ .

معناها من دون تأويل ولا تعطيل ، ومن دون تشبيه ولا تمثيل .[1] ولعلّ ما قرّره في رسالته هذه هو الذي يمثّل منهجه الحقيقي الذي يرجع اليه في هذه القضية

## د ـ صفة الوجه

لم ينصّ الشوكاني ـ رحمه الله ـ في رسالته التحف على صفة الوجه ضمن الصفات التي أثبتها لله على مذهب السلف ، الّا أنّنا نفهم من كلامه أنّه أثبت صفة الوجه لله تعالى كما أثبت غيرها من الصفات التي نطق بها كتاب الله وأفصحت عنها سنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم ،من اقرارها وامرارها على الظاهر بغير تكييف وتمثيل ولا تأويل ولا تعطيل .[2] وعلى وجه لا يعلمه الا الله ، فانه القائل : (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))[3] .[4]

وصفة الوجه من الصفات الخبرية التي لا تثبت الا بالسمع ، وقد ورد ذكرها في مواضع كثيرة من القرآن والسنة .

فمن القرآن قوله تعالى : (( كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ))[5]

وقوله : (( كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ))[6]

وقوله : (( وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ))[7]

وغير ذلك من الآيات الدالة على ثبوت صفة الوجه لله تعالى .

ومن السنّة قوله صلى الله عليه وسلم : (( جنّتان من فضّة آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربّهم عزوجل الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ))[8] .

---

(١) انظر : التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٨ ضمن الرسائل السلفية .
(٢) انظر : المصدر السابق ١ . (٣) سورة الشورى : آية ١١ .
(٤) انظر : التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ١٠ ضمن الرسائل السلفية .
(٥) سورة القصص : آية ٨٨ . (٦) سورة الرحمن : آية ٢٦،٢٧ .
(٧) سورة الروم : آية ٣٩ .
(٨) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ( الفتح ٤٣٢/١٣ برقم (٧٤٤٤)، ومسلم في كتاب الايمان،باب اثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربّهم سبحانه ( ١٦٣/١ برقم ١٨٠ ) .

وغيره من الأحاديث [١] وقد روي تفسير المزيد في قوله تعالى :(( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ))[٢] بالنظر الى وجه الله الكريم عن كثير من الصحابة .[٣]

والشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآيات لم يثبت صفة الوجه لله تعالى حقيقة ، بل أوّله بالذات ، ولم أقف على تصريحه باثبات صفة الوجه لله تعالى من خلال تفسيره .

فقال في معنى الآية الأولى ، (( كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ )) : أي ذاته .[٤]

وقال في الآية الثانية : (( وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ )) : (( الوجه :عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده ، وقيل معنى : يبقى وجه ربك : تبقى حجته التي يتقرّب بها اليه ))[٥]

والصحيح اثبات الوجه في الآية لله تعالى حقيقة على ما يليق به ، وعدم تأويله بالذات أوبغيرها ، لأنّ التأويل حمل للكلام على غيرمعناه الحقيقي ، ولا يصحّ ذلك الا بقرينة مانعة من حمله على الحقيقة ، وليس هنا أيّ قرينة صحيحة تمنع ذلك .[٦]

والقول باثبات الوجه لله على ما يليق بجلاله وعظمته قول السلف ، وقد قرّره الشوكاني ـ رحمه الله ـ في رسالته التحف ، واتّخذه منهجا لاثبات جميع ما وصف الله تعالى به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير زيادة ولا نقص كما ذكرنا .

---

(١) انظر : ما أورده ابن خزيمة من الأحاديث والآثار في هذا المعنى في كتاب التوحيد (٢٤/١ ـ ٤٤) والآجري في الشريعة ( ٢٥١ ) ، والدارمي في نقضه على المريسي ( ٥١٧ـ٥١٩ ) ، وابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ( ٣٣٥ ـ ٣٤٤ ) . (٢) سورة يونس : آية ٢٦ .

(٣) انظر : نقض الدارمي على المريسي ( ٥١٦، ٥١٨ ) ضمن عقائد السلف ، والسنة لعبد الله ابن الامام أحمد تحقيق د/محمد سعيد القحطاني (برقم ٤٤٣، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٨٤) والشريعة للآجري ( ٢٥٢ ) والتمهيد لابن عبد البر (١٥٧/٧ ) وتفسير ابن كثير (٤١٧/٣) وأيضا فتح القدير : للشوكاني ( ٤٤١/٢ ) .

(٤) فتح القدير : الشوكاني ١٨٩/٤ . (٥) المصدر السابق ١٣٦/٥ .

(٦) انظر : ما أورده الدارمي من ردوده على المعطلين لهذه الصفة في نقض الدارمي على المريسي (٥١٥) وما بعدها ، ضمن عقائد السلف ، وابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ( ٣٣٦ ـ ٣٤٤ ) .

ط ـ صفة العين

إنّ ما قلناه في صفة الوجه نقول أيضا في صفة العين ، فانّ الشوكاني ـ رحمه الله ـ لم ينصّ في رسالته التحف على هذه الصفة ضمن الصفات التي أثبتها لله تعالى ، لكنّ كلامه يدلّ على أنّه أثبت هذه الصفة ، لأنّه لم يفرّق بين صفة وأخرى ، بل أثبت جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة وأجراها على ظاهرها مع اعتقاد معناها من دون تأويل ولا تعطيل ، ومن دون تشبيه ولا تمثيل.(١)

وهذا هو المذهب الحق الذي عليه سلف الأمة وأئمّتها ، غير أن الشوكاني في تفسيره لم ينهج هذا المذهب ، فلم يظهر من الآية صفة العين لله ، ويذهب في معظم تفسيراته للآيات طريقة المؤوّلة .

وفيما يلي أذكر بعض الأمثلة من تفسيره :

قال في تفسير قوله تعالى : (( فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ))(٢) : (( أي متلبّسا بحفظنا وكلائتنا ))(٣)

وقال في قوله تعالى : (( وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ))(٤) : (( أي بمرأى ومنظر منّا ، وفي حفظنا وحمايتنا ، فلا تبال بهم ))(٥).

ومثل هذا فسّر قوله تعالى : ـ عن سفينة نوح عليه السلام ـ (( تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ))(٦)

قال : (( بمنظر ومرأى منا ، وحفظ لها ، كما في قوله تعالى : (( وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ،)) وقيل : بأمرنا ، وقيل : بوحينا ، وقيل بالأعين النابعة من الأرض وقيل بأعين أوليائنا من الملائكة الموكّلين بحفظها .))(٧)

وفي قوله تعالى ـ عن موسى عليه السلام ـ : (( ... وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ))(٨) قال :

---

(١) انظر : التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ( ٥، ٨، ١٠ ) ضمن الرسائل السلفية .
(٢) سورة المؤمنون : آية ٢٧ .
(٣) فتح القدير : الشوكاني ٤٨١/٣ .
(٤) سورة الطور : آية ٤٨ .
(٥) فتح القدير : الشوكاني ١٠٢/٥ .
(٦) سورة القمر : آية ١٤ .
(٧) فتح القدير : الشوكاني ١٢٣/٥ .
(٨) سورة طه : آية ٣٩ .

(( أي ولتربّي وتغذّي بمرأى منّي ، يقال : صنع الرجل جاريته : اذا ربّاها وصنع فرسه : اذا داوم على علفه والقيام عليه ، وتفسير : على عيني : بمرأى منّي صحيح . قال النحّاس [1] : وذلك معروف في اللغة ، ولكن لا يكون في هذا تخصيص لموسى فأنّ جميع الأشياء بمرأى من الله ))[2]

وقال ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى : (( وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ))[3] :

(( أي اعمل السفينة متلبّساً بأعيننا : أي بمرأى منّا ، والمراد : بحراستنا لك وحفظنا لك ، وعبّر عن ذلك بالأعين لأنّها آلة الرؤية ، والرؤية هي التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب،وجمع الأعين للتعظيم لا للتكثير، وقيل : المعنى (( بأعيننا )) : بعلمنا ، وقيل : بأمرنا.))[4]

قلت : والصواب اثبات صفة العين في هذه الآيات لله تبارك وتعالى ، ومن لوازم اثباتها ما ذكره الشوكاني من تفسيرات للعين،فاذا أثبتنا صفة العين أثبتنا اللوازم من الرؤية والكلاءة والحفظ والحراسة وما شابه ذلك .

قال ابن خزيمة ـ بعد أن ساق هذه الآية ـ :

(( فواجب على كلّ مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبّت الخالق البارئ لنفسه من العين،وغير مؤمن : من ينفي عن الله تبارك وتعالى ما قد ثبّته الله في محكم تنزيله ))[5]

فالشاهد من الآيات أنّ فيها اثبات العينين لله تعالى حقيقة على ما يليق به

---

(١) أحمد بن محمد بن اسماعيل المرادي المصري أبو جعفر النحّاس ، مفسّر، أديب له اعراب القرآن،وناسخ القرآن ومنسوخه ،توفي ٣٣٨هـ( وفيات الأعيان: ابن خلكان( ٢٩/١ ) والبداية والنهاية : ابن كثير( ٢٢٢/١١) والأعلام : الزركلي ( ٢٠٨/١ )

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٣٦٥/٣ . (٣) سورة هود : آية ٣٧ .

(٤) فتح القدير: الشوكاني٤٩٧/٢ وانظر رد الشيخ السفاريني على هذه التأويلات في كتابه لوامع الأنوار ( ٢٤٠/١،٢٤١ )

(٥) كتاب التوحيد : ابن خزيمة ( ٩٧/١ ) تحقيق د/ عبد العزيز الشهوان .

سبحانه،أما اضافة لفظ العين اليه سبحانه في بعض الآيات مفردة وفي بعضها مجموعة فتلك جائزة في لغة العرب ، فان أضافوا الواحد المتّصل الى مفرد أفردوه ،كقوله تعالى : (( وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِيْ )) [١] ومثل قوله : (( بِيَدِهِ الْمُلْكُ )) [٢]، ويقال : رأيت بعيني وسمعت بأذني،والمراد عيناي وأذناي وان أضافوا الى جمع ظاهر أومضمر فالأحسن جمعه مشاكلة للفظ كما في قوله تعالى : (( تَجْرِيْ بِأَعْيُنِنَا )) [٣] وقوله تعالى : (( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا أَنْعَامًا )) [٤] وان أضافوه الى اسم مثنّى فالأفصح في لغتهم جمعه كقوله تعالى : (( اِنْ تَتُوْبَا اِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوْبُكُمَا )) [٥] والمراد قلباكما ومثله قوله تعالى : (( وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوْا أَيْدِيَهُمَا )) [٦] أي يديهما . فيعبّرىها عن الاثنين بلفظ الجمع .[٧]

ويدلّ على اثبات صفة العين لله تعالى من السنة قوله صلى الله عليه وسلم :
(( إنّ الله لا يخفى عليكم ، إنّ الله ليس بأعور - وأشار بيده الى عينه - وإنّ المسيح الدجّال أعور عين اليمنى ، كأنّ عينه عنبة طافية )) [٨]

قال الامام الدارمي : (( العور عند الناس ضدّ البصر ، والأعور عندهم ضدّ البصير بالعينين )) [٩]

والحديث يدلّ على اثبات العينين لله تعالى ، صفة من صفاته على ما يليق بجلاله وعظمته ، فهو صلى الله عليه وسلم ينفي نقص العور عن الله تبارك وتعالى والعور في المخلوق نقص ، فكل نقص تنزه عنه المخلوق فالله أحق بالتنزه عنه ،

---

(١) سورة طه : آية ٣٩ . (٢) سورة الملك : آية ١ .
(٣) سورة القمر : آية ١٤ . (٤) سورة يس : آية ٧١ .
(٥) سورة التحريم : آية ٤ . (٦) سورة المائدة : آية ٣٨ .
(٧) انظر : مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ( ٢٧،٢٥/١ ) وأيضا شرح العقيدة الواسطية للهراس ٦٣ .
(٨) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ولتصنع على عيني . ( الفتح ٤٠١/١٣ برقم ٧٤٠٧ )
(٩) ردّ الامام الدارمي على المريسي . ضمن عقائد السلف ٤٠١ .

وكلّ كمال اتّصف به المخلوق وأمكن أن يتّصف به الخالق ، فالخالق أولى بالاتّصاف به من كلّ مخلوق .[1]

ولا يقتضي اثبات صفة العينين لله أن تكونا مشابهتين للمخلوقات لأنّ المقصد اثبات وجود وكمال ، لا اثبات تشبيه ، وهذا ما قرّره الشوكاني - رحمه الله - في اثبات جميع الصفات لله تعالى في رسالته التحف .[2] وهو الحقّ الذي عليه السلف أهل السنة والحديث .[3] كما حكى الامام أبو الحسن الأشعري عنهم .[4]

ي - صفة اليد

أثبت الشوكاني - رحمه الله - في رسالته : التحف . صفة اليد لله تعالى مع غيرها من الصفات ، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات .[5] بل على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف ولا تكلّف ، ولا قيل وقال ولا قصور في شيئ من المقال .[6]

وقد دلّ على هذا الاثبات القرآن الكريم والسنّة المطهّرة :

فمن القرآن قوله تعالى : (( يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ))[7]

---

(١) انظر: مجموع فتاوى لابن تيمية (١٤١/٩ )،وشرح العقيدة الواسطية للهراس(٢٣، ٢٤ ).

(٢) انظر: ص ( ١٠، ١٢ ) ضمن الرسائل السلفية .

(٣) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة ( ٩٦/١ - ١٠٥) تحقيق د/ عبد العزيز الشهوان،والاعتقاد للبيهقي(٥٣- ٥٥) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٤١٢/٣) وعقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني(٥) تحقيق بدر البدر،والعقيدة الحموية الكبرى لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى(٤٥٨/١) ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٢٢، ٢٣) ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢٣٨/١ - ٢٤١ )

(٤) انظر: مقالات الاسلاميين له (٢٨٥/١، ٢٩٠، ٣٤٥) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (ط ٢/ ١٣٨٩هـ) مكتبة النهضة المصرية ، والابانة في أصول الديانة له (٢٢) وأيضا (١٢٠، ١٢١) - تحقيق د/ فوقية حسين محمود .

(٥) انظر: التحف في مذاهب السلف ، الشوكاني(١٠) ضمن الرسائل السلفية ، وقد نصّ فيه صفة اليد مع السمع والبصر والاستواء .

(٦) المصدر السابق ١٢ .

(٧) سورة الفتح ، آية ١٠ .

وقوله تعالى : (( قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ))(١)

وقوله : (( بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ))(٢)

وقوله سبحانه : (( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ))(٣)

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : (( إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزوجل ، وكلتا يديه يمين ))(٤)

وقوله صلى الله عليه وسلم : في حديث احتجاج آدم على موسى : (( احتجّ آدم وموسى عليهما السلام عند ربّهما ، فحجّ آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ... الحديث . (٥)

وغير ذلك من الآيات والأحاديث (٦) التي تدلّ دلالة واضحة على اثبات اليدين لله تعالى حقيقة ، وهما صفة ذاتية له سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته ، وليستا جارحتين ، ولا قدرتين ، ولا نعمتين ، بل يدان لا كالأيدي ،لأنه تعالى :(( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))(٧)

والقول بهذا الاثبات مع التنزيه قول السلف أهل السنة رضوان الله عليهم ومنهم الشوكاني - رحمه الله - في رسالته التحف . غير أنه في تفسيره لهذه الآيات وأمثالها لم ينهج مذهب السلف ، حيث يؤوّل تأويلا على خلاف ما يدلّ عليه ظاهر الآية ، معتمدا في الغالب على نقول من المفسّرين المخالفين لمذهب السلف دون تعقيب عليها .

وفيما يلي نأخذ بعض الأمثلة من تفسيره :

---

(١) سورة ص : آية ٧٥ . (٢) سورة المائدة : آية ٦٤ .
(٣) سورة يس : آية ٧١ .
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الامارة باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر (١٤٥٨/٣) برقم ( ١٨٢٧ ) وأورد الشوكاني مثله في فتح القدير ( ٦٤/٢ )
(٥) تقدم تخريجه في صفحة (١٩٤) .
(٦) انظر : ما أورده ابن خزيمة من الأحاديث والآثار في هذا المعنى في كتاب التوحيد (١١٩/١ - ١٧٧) تحقيق د/ عبد العزيز الشهوان ، والآجري في الشريعة (٣٢١، ٣٢٢) وشيخ الاسلام ابن تيمية في مجموع فتاوى: (٨٨/٥، ٨٩) وابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة ( ٣٢٣ - ٣٣٥ )
(٧) سورة الشورى : آية ١١ .

قال في تفسيره لقوله تعالى: (( إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ))[1]

(( والمعنى: إنّ عقد الميثاق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كعقده مع الله سبحانه من غير تفاوت . وقال الكلبي[2]: المعنى إنّ نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة. وقيل: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء . وقال ابن كيسان[3]: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم.))[4]

وقال في قوله تعالى: (( وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ))[5] :

(( اليد عند العرب تطلق على الجارحة ، ومنه قوله تعالى: (( وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ))[6]. وعلى النعمة، يقولون: كم يد لي عند فلان . وعلى القدرة، ومنه قوله تعالى: (( قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ))[7]. وعلى التأييد، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (( يد الله مع القاضي حين يقضي ))[8]. ويطلق على معان أخر. وهذه الآية على طريق التمثيل ... فمراد اليهود هنا - عليهم لعائن الله - أنّ الله بخيل .))[9]

وقال في قوله تعالى: (( بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ))[10]:

(( أي بل هو في غاية ما يكون من الجود، وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الردّ عليهم ، بإثبات ما يدلّ على غاية السخاء، فانّ نسبة الجود الى اليدين أبلغ من نسبته الى اليد الواحدة ، وقيل: المراد بقوله: بل يداه مبسوطتان: نعمة الدنيا الظاهرة ونعمته الباطنة ، وقيل: نعمة المطر والنبات، وقيل: الثواب

---

(١) سورة الفتح : آية ١٠ .

(٢) محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الكلبي أبو القاسم: فقيه، من العلماء بالأصول واللغة، من أهل غرناطة. من كتبه: التسهيل لعلوم التنزيل في التفسير، وتقريب الوصول الى علم الأصول. توفي ٧٤١هـ (انظر: الدرر الكامنة: ابن حجر ٤٤٦/٣، والأعلام: الزركلي ٣٢٥/٥)

(٣) محمد بن أحمد بن ابراهيم أبو الحسن المعروف بابن كيسان، عالم بالعربية نحوا ولغة، من أهل بغداد. من كتبه: معاني القرآن، وغريب الحديث. توفي ٢٩٩هـ (انظر: شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٢٣٢/٢، والأعلام: الزركلي ٣٠٨/٥)

(٤) فتح القدير : الشوكاني ٤٨/٥ . (٥) سورة المائدة : آية ٦٤ .

(٦) سورة ص : آية ٤٤ . (٧) سورة آل عمران : آية ٧٣ .

(٨) أخرجه أحمد في المسند (٤١٤/٥)، والترمذي بلفظ: انّ الله مع القاضي. (٦١٨/٣ برقم ١٣٣٠) وقال: هذا حديث حسن غريب . وكذلك ابن ماجة في كتاب الأحكام (٧٧٥/٢ برقم ٢٣١٢)

(٩) فتح القدير : الشوكاني ٥٧/٢ . (١٠) سورة المائدة : آية ٦٤ .

والعقاب .))[1]

وقال في قوله تعالى : (( تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ))[2]

(( واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء ))[3]

وفي قوله تعالى : (( قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ )) :[4]

(( أي ما صرفك وصدّك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة ، وأضاف خلقه الى نفسه تكريما له وتشريفا، مع أنه سبحانه خالق كل شيء ، كما أضاف الى نفسه الروح ، والبيت ، والناقة ، والمساجد ، وقيل : اليد هنا بمعنى التأكيد والصلة مجازا ،

كقوله : (( وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ )) [5] ، وقيل : أراد باليد القدرة ، يقال : مالي بهذا الأمر يد، ومالي بهيدان . أي قدرة ، ومنه قول الشاعر :

تحمّلت من زلفاء ما ليس له يد × _ × ولا للجبال الراسيات يدان .

وقيل : التثنية في اليد للدلالة على أنها ليس بمعنى القوة والقدرة ، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه .))[6]

قلت : وهذا الذي رواه الشوكاني _ رحمه الله _ بصيغة التمريض كغيره هو الصحيح الذي دلّت عليه النصوص ، ولا يمكن حمل اليدين في الآية على القدرة أونحوها ، لأنّ قدرة الله أكثر من أن تحصى، ومحال أن تكون قدرتين لا أكثر ، وأيضا لوكانت اليدان بمعنى القدرة أونحوها لم يكن لآدم عليه السلام على ابليس خصوصية يتميز بها ، لأنّ ابليس أيضا ، بل سائرالمخلوقات قد خلقها الله تعالى بقدرته ، فدلّ هذا على أنّ اليدين صفة حقيقية لله وليس

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ٥٧/٢ . (٢) سورة الملك : آية ١ .
(٣) فتح القدير : الشوكاني ٢٥٨/٥ . (٤) سورة ص : آية ٧٥ .
(٥) سورةالرحمن : آية ٢٧ . (٦) فتح القدير : الشوكاني ٤٤٥/٤ .

معناها القدرة ، والا لم يكن لهذا معنى .[1]

وقد قرّر ذلك الشوكاني - رحمه الله تعالى - اذ قال :

(( فقد شرّف سبحانه آدم بشرف ، وكرّم بكرامة ، لا يوازيها شيء من شرف العناصر ، وذلك أنّ الله خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، والجواهر في أنفسها متجانسة ، وانّما تشرف بعارض من عوارضها . ))[2]

هذا بالاضافة الى أنّ لفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله قط الا في اليد الحقيقية .[3]

يقول الهراس شارح العقيدة الواسطية : (( لفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله الا في اليد الحقيقية ، ولم يرد قط بمعنى القدرة أو النعمة ، فانه لا يسوغ أن يقال : خلقه الله بقدرتين ، أو بنعمتين ، على أنه لا يجوز اطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة أو غيرهما ، الا في حق من اتصف باليدين على الحقيقة ، ولذلك لا يقال للريح يد ، ولا للماء يد . ))[4]

أمّا ذكر اليد بلفظ الافراد في بعض النصوص ، وفي بعضها بلفظ التثنية ، وبلفظ الجمع في البعض الآخر ، فانّ لغة العرب تتّسع لذلك ، كما تقدّم بيانه في صفة العين ، فانّ ما يصنع بالاثنين قد ينسب الى الواحد ، تقول : رأيت بعيني ، وسمعت بأذني ، والمراد : عيناي وأذناي ، وكذلك الجمع يأتي بمعنى المثنّى أحيانا ، كقوله تعالى : (( إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ))[5] والمراد : قلباكما .[6]

يقول ابن القيم - رحمه الله - : (( إنّ لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع :

---

(١) انظر : كتاب التوحيد لابن خزيمة (١١٨/١) وما بعدها ، تحقيق : د/عبد العزيز الشهوان ، والابانة لأبي الحسن الأشعري (١٢٥ - ١٢٨) تحقيق : د/فوقية حسين محمود ، والشريعة للآجري (٣٢٣ - ٣٢٥) وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (٥،٤) تحقيق : بدر البدر ، والاعتقاد للبيهقي (٥٣) ، ومجموع فتاوى لابن تيمية (٣٦٩/٦) ، ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٣٢٢) وما بعدها .

(٢) فتح القدير : الشوكاني (٤٤٥/٤)

(٣) انظر : مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٣٢٤) وانظر أيضا الابانة لأبي الحسن الأشعري (١٢٦ - ١٢٨) تحقيق : د/فوقية حسين محمود ، ومجموع فتاوى لابن تيمية (٣٦٥/٦)

(٤) شرح العقيدة الواسطية للهراس (٥٦)

(٥) سورة التحريم ، آية ٤ . (٦) انظر شرح العقيدة الواسطية للهراس ٦٢ ، وانظر أيضا مجموع فتاوى لابن تيمية ٤٥/٣، ٤٦ و ٣٧٠/٦ ، ومختصر الصواعق المرسلة : لابن القيم ٢٧ .

مفردا ومثنّى ومجموعا . فالمفرد كقوله :(( بِيَدِهِ الْمُلْكُ ))[1] والمثنّى كقوله (( خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ))[2] والمجموع كقوله :(( عَمِلَتْ أَيْدِينَا ))[3] فحيث ذكر اليد مثنّاة أضاف الفعل الى نفسه بضمير الافراد ،وعدّى الفعل بالباء اليهما فقال :(( خَلَقْتُ بِيَدَيَّ )) وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل اليها ولم يعدّ الفعل بالباء . فهذه ثلاثة فروق ، فلا يحتمل ( خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ) من المجاز ما يحتمله ( عَمِلَتْ أَيْدِينَا ) فانّ كلّ أحد يفهم من قوله ( عَمِلَتْ أَيْدِينَا ) ما يفهمه من قوله : عملنا وخلقنا ، كما يفهم ذلك من قوله :(( فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ))[4] وأمّا قوله :(( خَلَقْتُ بِيَدَيَّ )) فلو كان المراد منه مجرّد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل الى الفاعل معنى ، فكيف وقد دخلت عليها الباء ؟ فكيف اذا ثنّيت ؟

وسرّ الفرق أنّ الفعل قد يضاف الى يدذي اليد والمراد الاضافة اليه كقوله :(( بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ )) (( بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ )) ،وأمّا اذا أضيف اليه الفعل ثمّ عدّى بالباء الى يده مفردة أو مثنّاة فهو مما باشرته يده . ولهذا قال عبدالله بن عمرو :(( إنّ الله لم يخلق بيده الا ثلاثا : خلق آدم بيده ، وغرس جنّة الفردوس بيده ، وكتب التوراة بيده ، فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك ،ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كلّ شيئ مما خلق بالقدرة .))[5]

ومما يبعد حمل اليد على القدرة أو النعمة أو نحوهما زيادة على ما ذكر، ما ورد من اثبات الكفّ ، والأصابع، واليمين، والقبض، لله تعالى . أمّا في اثبات الأصابع واليمين والقبض فأورد الشوكاني ـ رحمه الله ـ حديثين جاء بذكر هذه الصفات :

الحديث الأوّل: ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد انّا نجد أنّ الله يحمل السموات يوم القيامة على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، فيقول: أنا الملك . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول

---

(١) سورة الملك : آية ١ . (٢) سورة ص : آية ٧٥ . (٣) سورة يس : آية ٧١
(٤) سورة الشورى : آية ٣٠ .
(٥) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٢٧، ٢٨ .

الحبر، ثمّ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (( وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ))(١)

والحديث الثاني: ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (( يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثمّ يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ ))(٢)

قال الشوكاني بعد ذكر الحديثين: (( وفي الباب أحاديث وآثار تقتضي حمل الآية (أي قوله تعالى: والسموات مطويات بيمينه:)(٣) على ظاهرها من دون تكلّف لتأويل ولا تعسّف لقال وقيل. ))(٤)

بهذا يوافق الشوكاني مذهب السلف في اثبات هذه الصفات، وكان عليه أن يسلك هذا المسلك في تفسير جميع النصوص الواردة باضافة اليد الى الله تعالى، فلا يؤوّلها تأويلا بعيدا عمّا يدلّ عليه ظاهرها، ولا يقع في تناقض كان باستطاعته عدم الوقوع فيه لو طبّق هذا المنهج في جميع تفسيره للنصوص.

ك - صفة الساق

وردت كلمة " ساق " في القرآن الكريم في قوله تعالى: (( يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ))(٥)

في هذه الآية أورد الشوكاني - رحمه الله - أقوال المفسرين في معنى الساق فقال:

(( قال الواحدي(٦): قال المفسرون في قوله: (عن ساق) عن شدّة من الأمر. قال ابن قتيبة(٧): أصل هذا أنّ الرجل اذا وقع في أمر عظيم يحتاج الى الجدّ فيه شمّر عن ساقه، فيستعار الكشف عن الساق في موضع الشدّة. وقيل: ساق الشيء

---

(١) سورة الزمر: آية ٦٧ . والحديث تقدم تخريجه في صفحة (٢٥٩ هامش رقم ٧) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي. (الفتح ٤٠٤/١٣ برقم ٧٤١٢)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢١٤٨/٤ برقم ٢٧٨٧)

(٣) سورة الزمر: آية ٦٧ . (٤) فتح القدير: الشوكاني ٤٧٧/٤ (٥) سورة القلم: آية ٤٢

(٦) علي بن أحمد بن محمد بن متوية أبو الحسن الواحدي مفسّرا لم يا لأدب، وصفه الذهبي بأنه امام علماء التأويل. له: البسيط، والوسيط، والوجيز، كلها في التفسير. توفي ٤٦٨هـ (انظر سير أعلام النبلاء: الذهبي ٣٣٩/١٨، والبداية والنهاية: ابن كثير ١١٤/١٢)

(٧) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٧٠) .

أصله وقوامه، كساق الشجرة وساق الانسان، أي يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه. وقيل: يكشف عن ساق جهنّم. وقيل: عن ساق العرش. وقيل: هو عبارة عن القرب. وقيل: يكشف الربّ عن نوره.))[1]

والشوكاني -رحمه الله- لم يرجّح لديه قول من هذه الأقوال، لأنّه وجد أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسّر معنى الآية، منها:

ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (( يكشف ربّنا عن ساقه، فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقا واحدا.))

قال الشوكاني: ((وهذا الحديث ثابت من طرق في الصحيحين[2] وغيرهما[3]، وله ألفاظ في بعضها طول، وهو حديث مشهور معروف ... الى أن قال - بعد أن ساق عدّة أحاديث في معنى الآية -: وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عرفت، وذلك لا يستلزم تجسيما ولا تشبيها، فليس كمثله شيء. وأنشد:

دعوا كلّ قول عند قول محمد ... فما آمن في دينه كمخاطر.))[4]

قلت: إنّ ما ذهب اليه الشوكاني من اثبات صفة الساق لله تعالى على ما يليق بجلاله، وتفسير معنى الساق في الآية بما في الحديث هو مذهب السلف.

قال الامام البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: "باب: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ ثمّ أورد الحديث.[5] أي حديث أبي سعيد الخدري المذكور، ففيه التصريح في أنّ الله تعالى يكشف عن ساقه، وعند ذلك يسجد له المؤمنون.

أمّا الآية فليست نصّا في أنّ الساق صفة لله تعالى، لأنّه جاء نكرة غير معرّف بالاضافة الى الله تعالى.

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني ٢٧٥/٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: يوم يكشف عن ساق. (الفتح ٥٣١/٨ برقم ٤٩١٩) وفي كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة الى ربّها ناظرة. من حديث طويل (الفتح ٤٢٩/١٣ برقم ٧٤٣٩) ومسلم في كتاب الايمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٦٧/١، ١٦٨ برقم ١٨٣)

(٣) أخرجه أيضا أحمد في المسند (١٧/٣، ٦٠) والدارمي في سننه، كتاب الرقاق، باب في سجود المؤمنين يوم القيامة (٤٢٠/٢ برقم ٢٨٠٣) والحاكم في المستدرك (٣٨٥/٢، ٣٨٦) وابن منده في الردّ على الجهمية (٤٠ برقم ٨) تحقيق: د/علي ناصر الفقيهي.

(٤) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢٧٧/٥، ٢٧٨) (٥) انظر الفتح لابن حجر (٥٣١/٨ حديث رقم ٤٩١٩)

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ :

(( ولا ريب أنّ ظاهر القرآن لا يدلّ على أنّ هذه من الصفات، فانّه قال: يوم يكشف عن ساق، نكرة في الاثبات، لم يضفها الى الله، ولم يقل: عن ساقه، فمع عدم التعريف بالاضافة لا يظهر أنّه من الصفات الا بدليل آخر.))[1] وهو الحديث المذكور، فانّه يدلّ دلالة واضحة على أنّه صفة لله تعالى، فلا يجوز تأويله بعد ذلك .

وقد أوضح العلامة ابن القيم هذا الموضوع اذ قال ـ بعد ذكر الآية ـ :

(( والصحابة متنازعون في تفسير الآية على المراد بها : انّ الربّ تعالى يكشف عن ساقه،[2] ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيما يذكر أنّه من الصفات أم لا في غير هذا الموضع . وليس في ظاهر القرآن ما يدلّ على أنّ ذلك صفة لله تعالى، لأنّه سبحانه لم يضف الساق اليه، وانّما ذكره مجرّدا عن الاضافة منكرا ، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن ، انّما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحّته، وهو حديث الشفاعة الطويل، وفيه :" فيكشف الربّ عن ساقه" الحديث . ومن حمل الآية على ذلك قال، قوله تعالى:( يوم يكشف عن ساق) مطابق[3] لقوله صلى الله عليه وسلم :" ( فيكشف عن ساقه ) وتنكيره للتعظيم والتفخيم، كأنّه قال: يكشف عن ساق عظيمة، قالوا: وحمل الآية على الشدّة لا يصحّ بوجه، فانّ لغة القوم أن يقال: كشفت الشدّة عن القوم، لا كشفت عنها ، كقوله تعالى:(( فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ))[4] فالعذاب هو المكشوف، لا المكشوف عنه ، وأيضا فهناك تحدث شدّة لا تزول الا بدخول الجنة ، وهنا لا يدعون الى السجود، وانّما يدعون اليه أشدّ ما كانت الشدّة .))[5]

**ثانيا: ذكر جملة من الصفات الفعلية وكلام الشوكاني عنها**

**أ ـ صفة الاستواء**

---

(١) مجموع فتاوى (٣٩٤/٦، ٣٩٥)

(٢) انظر الأقوال في معنى الآية في: تفسير الطبري (٣٩/٢٩)، والردّ على الجهمية لابن منده (٣٦ ـ ٤٠) تحقيق/د. علي بن ناصر الفقيهي، وتفسير ابن كثير (٤٣٥/٤)، وفتح القدير للشوكاني (٢٧٨/٥)

(٣) في الأصل: مطابقا . ولعل الصواب رفعه، لأنّه خبر لمبتدأ وهو: قوله تعالى .

(٤) سورة الزخرف، آية ٥٠

(٥) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٢٥ .

أثبت الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ صفة الاستواء لله عزّ وجلّ بما تقرّر في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمّة ، وهو من الصفات التي تدلّ على عظمة الله تعالى وعلوّه المطلق على جميع خلقه .

وقد ورد إثبات صفة الاستواء لله تبارك وتعالى في القرآن الكريم في سبعة مواضع هي :

قوله تعالى :(( إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ))(١)

وقوله :(( اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ))(٢)

وقوله :(( الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ))(٣)

وقوله :(( ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ ))(٤)

وقوله :(( اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ))(٥)

وقوله سبحانه :(( هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ))(٦)

هذه الآيات تدلّ دلالة واضحة لا تحتمل أيّ تأويل على أنّ الله تعالى مستوٍ على عرشه بذاته حقيقة ، استواء يليق بجلاله وكمال عظمته ، لا على وجه التمثيل والمشابهة للمخلوقات .(٧)

يقول الشوكاني :(( ومن جملة الصفات التي أمرّها السلف على ظاهرها ، وأجروها على ما جاء به القرآن والسنة من دون تكلّف ولا تأويل صفة الاستواء ... يقولون : نحن نثبت ما أثبته الله لنفسه من استوائه على عرشه على هيئة لا يعلمها إلا هو ، وكيفية لا يدري بها سواه ، ولا نكلّف أنفسنا غير هذا ، فليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا يحيط عباده به علماً ، وهكذا يقولون في مسألة الجهة(٨) ..... والأدلة في ذلك طويلة كثيرة في الكتاب والسنة ، وقد جمع أهل العلم منها ـ لا سيّما أهل

---

(١) وردت هذه الآية في موضعين : سورة الأعراف آية ٥٤ ، وسورة يونس آية ٣
(٢) سورة الرعد آية ٢ (٣) سورة طه آية ٥ (٤) سورة الفرقان : آية ٥٩
(٥) سورة السجدة آية ٤ (٦) سورة الحديد آية ٤
(٧) انظر التحف في مذاهب السلف للشوكاني ١٠ ضمن الرسائل السلفية .
(٨) تقدّم التعليق عليها في صفحة (٣٢٥ هامش رقم ٥) .

الحديث ـ مباحث طوّلوها بذكر آيات قرآنية وأحاديث صحيحة[1] .....

ويقول أيضاً : إنّ الاستواء والكون على ما نطق به الكتاب والسنة، من دون تكييف، ولا تكلّف، ولا قيل، ولا قال، ولا قصور في شيء من المقال، فمن جاوز هذا المقدار بافراط أو تفريط فهو غير مقتدياً بالسلف، ولا واقف في طريق النجاة، ولا معتصم عن الخطأ، ولا سالك في طريق السلامة والاستقامة .))[2]

هذا ما قاله ـ رحمه الله ـ في رسالته التحف، ولم يخالفه ما قاله في تفسيره، ففي قوله تعالى: (( ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ))[3] قال: (( قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقّها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح، أنّه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذي يليق به، مع تنزّهه عمّا لا يجوز عليه .

ثمّ بيّن ـ رحمه الله ـ معنى الاستواء في لغة العرب، وهو العلوّ والاستقرار، كما قال الجوهري[4] : استوى على ظهر دابّته : أي استقرّ، واستوى إلى السماء : أي صعد وحكى عن أبي عبيدة[5] أنّ معنى استوى هنا : علا . ومثله قول الشاعر :

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة ... وقد حلّق النجم اليماني فاستوى .

أي علا وارتفع .))[6]

وبهذا المعنى فسّر الشوكاني كلمة الاستواء الواردة في القرآن[7] .

أمّا معنى العرش فننقل عن الجوهري قال: (( هو سرير الملك . ويطلق العرش على

---

(١) مثل كتاب: العلوّ للعلي الغفار للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) كما أشار إليها الشوكاني في التحف صفحة ١١، وكتاب اثبات صفة العلوّ لابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ) وكتاب العرش لأبي بكر بن أبي شيبة ( ت ٢٣٥هـ )، وكتاب العرش لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت ٤٠١هـ) والرسالة العرشية لشيخ الاسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، وكتاب اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم (ت ٧٥١هـ) ( ذكر هذه الكتب الدكتور أحمد ابن عطية الغامدي في مقدمة تحقيقه لكتاب اثبات صفة العلوّ لابن قدامة صفحة ٤٣ )

(٢) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ١٢ ضمن الرسائل السلفية .

(٣) سورة الأعراف : آية ٥٤ .

(٤) تقدّمت ترجمته في صفحة (٩٦) .

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٢١٩) .

(٦) فتح القدير : الشوكاني ٢١١/٢ .

(٧) انظر المصدر السابق ٦٠/١، و ٥٠٧/٤، و ١٠٥/٥ .

معان أخر منها : عرش البيت : سقفه ، وعرش البئر : طيّها بالخشب ، ويطلق على الملك والسلطان والعزّ . ثمّ بيّن ـ رحمه الله ـ المعنى الصحيح المراد في الآية فقال :

(( وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن ، وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما ، وهو المراد هنا . ))(١)

ومثل هذا فسّر الشوكاني كلمة الكرسيّ في قوله تعالى: (( وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ))(٢) وقال ردّا على أقوال المؤولة : (( ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي إلا مجرّد خيالات تسبّبت عن جهالات وضلالات . ))(٣)

قلت : ما ذكره الشوكاني هو التفسير الصحيح الذي عليه السلف أهل السنّة ، فإنّهم قالوا بإثبات ما أثبتته النصوص من أنّ العرش حقيقة موجودة ، وأنّه فوق السموات ، وأنّه أعظم مخلوقات الله تعالى ، وأنّه جسم مجسّم خلقه سبحانه ، واستوى عليه لحكمة أرادها ، لا لحاجة منه إليه ، وهو من الأمور الغيبية التي يجب علينا الإيمان بها كما أخبر الله ورسوله .(٤)

أمّا معنى الاستواء فكما فسّره الشوكاني بأنّه هو العلوّ ، والسلف يؤمنون بأن الله استوى على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته ، لا تشبيه فيه باستواء المخلوقين ، ولا يعلم كيفية الاستواء إلا الله سبحانه . كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ حينما سئل عن: كيف استوى على العرش ؟ فأجاب: الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .(٥)

وهذا الجواب من الإمام مالك صالح لكلّ سؤال يوجّه ، وهو يبحث عن كيفية صفة من صفات الله تعالى ، مثل النزول ، والمجيء ، والوجه ، واليد ، وغيرها ، وهذا ما ذهب إليه الإمام أبو الحسن الأشعري كما نقل عنه الشوكاني : أنّه سبحانه مستو على

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ٢١١/٢ وانظر من تلك الأحاديث ما أورده ابن خزيمة في كتاب التوحيد برقم (١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤) واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة برقم (٦٥٩، ٦٦٠) والذهبي في العلوّ برقم (٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤) المختصر ، وابن أبي شيبة في كتاب العرش، تحقيق: محمد بن حمد الحمود ، والشوكاني في تفسيره (٢٧٣/١) غير أنّ بعض الأحاديث فيها مقال ، وليس هنا محلّ لبسطه .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٥٥ . (٣) فتح القدير : الشوكاني ٢٧٢/١ .

(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العزّ الحنفي ٣٠٩ ـ ٣١٢ .

(٥) أورده الشوكاني في تفسيره : فتح القدير ٢١٢/٢ وتقدم تخريجه في صفحة ٢٦٤ .

عرشه بغير حدّ ولا كيف ( استواء منزّها من الحلول والاتحاد )[1].. وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذين يمرّون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل .[2]

ب ـ صفة المجيء والإتيان والنزول

لم ينصّ الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في رسالته التحف على صفة المجيء والاتيان، غير أنّ ما يفهم من كلامه أنّه أثبتها كما أثبت جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة من غير تأويل ولا تمثيل . قال :(( انّ المذهب الحقّ في الصفات هو امرارها على ظاهرها، من غير تأويل، ولا تحريف، ولا تكلّف، ولا تعسّف، ولا جبر، ولا تشبيه، ولا تعطيل، وانّ ذلك هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم . ))[3]

وإذا كان الشوكاني وافق السلف في رسالته التحف فانّه خالفهم في تفسيره للآيات، وسلك مسلك أهل التأويل تبعا لما نقله عنهم . وإليك بعض الأمثلة من تفسيره :ـ

قال في قوله تعالى :(( هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ))[4] :(( المعنى : هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحساب والعذاب في ظلل من الغمام والملائكة . ونقل عن الأخفش[5] قال : وقد يحتمل أن يكون معنى الاتيان راجعا إلى الجزاء، فسمّى الجزاء اتيانا كما سمّى التخويف والتعذيب في قصة ثمود اتيانا فقال :(( فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ))[6]، وقال في قصة النضير :(( فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ))[7] ... وقيل : إنّ المعنى : يأتيهم أمر الله وحكمه . وقيل : إنّ قوله ( في ظلل ) بمعنى : بظلل . وقيل : المعنى يأتيهم ببأسه في ظلل . ))[8]

وفي تفسير قوله تعالى :(( هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ

---

(١) انظر الإبانة لأبي الحسن الأشعري ٢١، ١١٣ تحقيق/ د. فوقية حسين محمود .
(٢) فتح القدير : الشوكاني ٣/٣٥٧ .
(٣) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ٨ (٤) سورة البقرة : آية ٢١٠ .
(٥) لعله سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ثم البصري أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط نحوي، عالم باللغة والأدب، تلمذ لسيبويه، وكان معتزليا، له : معاني القرآن، تفسير القرآن. توفي ٢١٥هـ (انظر : مفتاح السعادة : طاش كبرى زادة ١/١٥٠، والأعلام : الزركلي ٣/١٠١)
(٦) سورة النحل : آية ٢٦ (٧) سورة الحشر : آية ٢ (٨) فتح القدير : الشوكاني ١/٢١٠، ٢١١

أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ))[1] قال: (( أن تأتيهم الملائكة: أي ملائكة الموت لقبض أرواحهم، وعند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ( أو يأتي ربك ) يا محمد كما اقترحوه بقولهم: (( لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ))[2]. ثم أورد الأقوال في معنى اتيان الله فقال: قيل معناه: أو يأتي أمر ربك بإهلاكهم، وقيل المعنى: أو يأتي كل آيات ربك، بدليل قوله: ( أو يأتي بعض آيات ربك )، وقيل: هو المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وقد جاء في القرآن حذف المضاف كثيراً، كقوله: (( وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ))[3] وقوله: (( وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ))[4] أي حب العجل، وقيل: اتيان الله: مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه، كقوله تعالى: (( وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ))[5] [6]

قلت: إن الأقوال الثلاثة الأولى باطلة، والقول الأخير الذي رواه الشوكاني بصيغة التمريض كغيره هو القول الصحيح الذي دلت عليه النصوص، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها، وكان على الشوكاني أن يختاره ويرد على الأقوال المخالفة له، وقد أوردت عدة روايات تؤيد هذا القول منها:

ما أخرجه ابن أبي حاتم[7] وأبو الشيخ[8] عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ( أو يأتي ربك ) قال: يوم القيامة.

ومما أخرجه عبد الرزاق[9]، وعبد بن حميد[10]، وابن المنذر[11]

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٨ . (٢) سورة الفرقان: آية ٢١ .
(٣) سورة يوسف: آية ٨٢ . (٤) سورة البقرة: آية ٩٣ .
(٥) سورة الفجر: آية ٢٢ . (٦) فتح القدير: الشوكاني ١٨١/٢ .
(٧) عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم، حافظ للحديث، عالم برجاله، له: الجرح والتعديل، والتفسير. توفي ٣٢٧هـ ( انظر: ميزان الاعتدال: الذهبي ٣٠١/٢ (٤٩٦٥)، والأعلام: الزركلي ٣٢٤/٣ )
(٨) عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، المعروف بأبي الشيخ، من حفاظ الحديث، له: العظمة، وطبقات المحدثين بأصبهان. توفي ٣٦٩هـ ( انظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي ٢٧٦/١٦، والأعلام: الزركلي ١٢٠/٤، ومقدمة كتاب العظمة تحقيق: رضاء الله المباركفوري )
(٩) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، أبو بكر الصنعاني، من حفاظ الحديث الثقات، له: المصنف في الحديث. توفي ٢١١هـ ( انظر: ميزان الاعتدال: الذهبي ٣٢٣/٣ (٥٠٤٤)، وتقريب التهذيب: ابن حجر ٣٥٤ برقم (٤٠٦٤) )
(١٠) عبد بن حميد بن نصر الكسي، أبو محمد، من حفاظ الحديث، له: تفسير القرآن، ومسنده. توفي ٢٤٩هـ ( انظر: تذكرة الحفاظ: الذهبي ٥٣٤/٢، وتقريب التهذيب: ابن حجر ٣٦٨ برقم ٤٢٦٦ )
(١١) محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، أبو بكر، فقيه مجتهد من الحفاظ، من كتبه: المبسوط في الفقه، وتفسير القرآن. توفي ٣١٩ هـ ( انظر: طبقات الشافعية الكبرى : ===

وابن أبي حاتم عن قتادة[١] ( أو يأتي ربّك ) قال: يوم القيامة في ظلل من الغمام.

ومن مقاتل[٢] في تفسير الآية مثله.[٣]

فيرأتي وجدت أنّ الشوكاني أوّل أيضا قوله تعالى:(( وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ))[٤] اذ قال في معناه: " أي جاء أمره وقضاؤه، وظهرت آياته". وأورد عدّة أقوال في معنى الآية كلّها مخالفة لمذهب السلف.[٥] فانّ السلف - رحمهم الله - يثبتون في هذه الآيات الثلاث صفتين من صفات الفعل له سبحانه، وهما صفتا الاتيان والمجيئ، والذي عليه أهل السنة والجماعة الايمان بذلك على حقيقته والابتعاد من التأويل الذي هو في الحقيقة الحاد وتعطيل.[٦]

والآيات الثلاث صريحة في بابها لا تقبل شيئا من تلك التأويلات:

فالآية الأولى[٧] تتوعّد هؤلاء المصرّين على كفرهم وعنادهم واتباعهم للشيطان بأنّهم ما ينتظرون الا أن يأتيهم الله عزّوجلّ في ظلل من الغمام لفصل القضاء بينهم وذلك يوم القيامة، فيجزى كلّ عامل بعمله، ان خيرا فخير، وان شرّا فشرّ، ولهذا قال بعد ذلك:(( وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ))[٨]

والآية الثانية[٩] أشدّ صراحة، اذ لا يمكن تأويل الاتيان فيها بأنّه اتيان الأمر أو الحكم أو العذاب أو ما شابه ذلك من التأويلات الفاسدة ما أنزل الله بها من سلطان، لأنّه سبحانه فرّق فيها بين اتيان الملائكة واتيان نفسه واتيان أمره سبحانه.[١٠]

---

=== السبكي ١٢٦/٢، ولسان الميزان: ابن حجر ٢٧/٥، والأعلام: الزركلي ٢٩٤/٥ )

(١) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي البصري، مفسّر حافظ ضرير أكمه. توفّي ١١٨هـ (انظر: ميزان الاعتدال: الذهبي ٣٠٥/٤ (٦٨٦٤)، وتقريب التهذيب: ابن حجر ٤٥٣ برقم ٥٥١٨، والأعلام: الزركلي ١٨٩/٥ )

(٢) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، أبو الحسن، من أعلام المفسّرين، كان متروك الحديث، من كتبه: التفسير الكبير، والردّ على القدرية، توفّي ١٥٠هـ ( انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٦٠/١٣، وميزان الاعتدال: الذهبي ٢٩٨/٥ (٨٧٤١)

(٣) فتح القدير: الشوكاني ١٨٢/٢ . (٤) سورة الفجر: آية ٢٢ .

(٥) انظر فتح القدير : الشوكاني ٤٤٠/٥ .

(٦) انظر شرح العقيدة الواسطية للهراس ٥٧ .

(٧) أي آية (٢١٠) من سورة البقرة كما تقدم (٨) انظر تفسير ابن كثير ٢٥٥/١، ٢٥٦ .

(٩) أي آية (١٥٨) من سورة الأنعام كما تقدم .

(١٠) انظر مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٣٦٧ .

وكذلك القول في الآية الثانية[1] فانه لا يمكن حملها على مجيء العذاب أو الأمر أو القضاء، لأنّ المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفا صفوفا اجلالا وتعظيما له.[2]

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (( والاتيان والمجيء من الله تعالى نوعان: مطلق ومقيّد. فاذا كان مجيء رحمته أو عذابه كان مقيّدا كما في الحديث: ( حتى جاء الله بالرحمة والخير)[3] ومنه قوله تعالى: (( وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ))[4] وقوله: (( بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ ))[5] وفي الأثر: ( لا يأتي بالحسنات الا الله ).

النوع الثاني: المجيء والاتيان المطلق، كقوله: (( وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ ))[6]، وقوله: (( هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ))[7] وهذا لا يكون الا مجيئه سبحانه، هذا اذا كان مطلقا، فكيف اذا قيّد بما يجعله صريحا في مجيئه نفسه، كقوله: (( إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ آيَاتُ رَبِّكَ ))[8] فعطف مجيئه على مجيء الملائكة، ثمّ عطف مجيء آياته على مجيئه. ومن المجيء المقيّد قوله تعالى: (( فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ))[9].))[10]

وعلى هذا بطلت أقوال المؤولة الذين لم يستندوا الا الى بعض الشبه التي علّقت بأوهامهم وعقولهم الفاسدة.

هذا ما يتعلّق بالاتيان والمجيء، أمّا النزول فلم أقف على كلام الشوكاني عنه الا ما نصّ عليه في صدر رسالة التحف ضمن السؤال الموجّه اليه.[11] وهذا دليل على أنّه ـ رحمه الله ـ وافق السلف في اثبات صفة النزول لله تعالى من غير تأويل ولا تشبيه، على وجه لا يعلمه الا هو، لأنه أعلم بكيفية ذاته، وما هية صفاته، بل العلم كلّه له،

---

(١) أي آية (٢٢) من سورة الفجر كما تقدم. (٢) انظر تفسير ابن كثير ٥٤٥/٤.

(٣) أخرجه مسلم بلفظ: ( فجاء الله بخير) انظر كتاب الامارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٤٧٦/٣ برقم ١٨٤٧).

(٤) سورة الأعراف: آية ٥٢. (٥) سورة المؤمنون: آية ٧١.

(٦) سورة الفجر: آية ٢٢. (٧) سورة البقرة: آية ٢١٠.

(٨) سورة الأنعام: آية ١٥٨. (٩) سورة النحل: آية ٢٦.

(١٠) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٣٦٩.

(١١) انظر التحف في مذاهب السلف للشوكاني ص ١ ضمن الرسائل السلفية.

فانه القائل: (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))[1] [2]

وأيد ما ذهبت اليه أن الشوكاني أورد حديث النزول في تفسيره، قال :

(( وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة الى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟" ))[3]

هذا الحديث نص صريح في اثبات صفة النزول لله تبارك وتعالى، والسلف يثبتونها مع اعتقادهم عدم مشابهة نزوله لنزول خلقه .

وفي بيان ذلك قال الامام ابن خزيمة - رحمه الله -:(( نشهد شهادة مقر بلسانه، مصدق بقلبه، مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب، من غير أن نصف الكيفية، لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا الى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه عليه الصلاة والسلام بيان ما بالمسلمين الحاجة اليه من أمر دينهم، فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية، اذ النبي صلى الله عليه وسلم لم يصف لنا كيفية النزول . ))[4]

ج - صفة المعية ( معية الله لخلقه )

أثبت الشوكاني - رحمه الله - صفة المعية لله تعالى، لما تقرر بالأدلة من الكتاب والسنة أنه تبارك وتعالى مع خلقه عامة بعلمه وقدرته وسلطانه، وأنه مع عباده المؤمنين خاصة بنصره وتأييده ومعونته .

قال تعالى:(( هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ))[5]

---

(١) سورة الشورى : آية ١١ (٢) انظر التحف في مذاهب السلف : الشوكاني ١٠-٩
(٣) فتح القدير : الشوكاني ٢٢٥/١ والحديث تقدم تخريجه في صفحة (٣٢٥ هامش رقم ١).
(٤) كتاب التوحيد لابن خزيمة ٢٨٩/١، ٢٩٠ تحقيق د/عبدالعزيز الشهوان .
(٥) سورة الحديد : آية ٤ .

قال الشوكاني: قوله: (معكم) أي بقدرته وسلطانه وعلمه .(١)

وقال تعالى: (( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ))(٢) أي يعلم ما يتناجون به ، لا يخفى عليه منه شيء .(٣)

وقال تعالى: (( وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ))(٤) " والمعنى: إني معكم بالنصر والعون.(٥)

وقال سبحانه عن موسى وهارون - عليهما السلام -: (( إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ))(٦) " والمعنى: بالنصر لهما .(٧)

ومثله قوله تعالى: (( وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ))(٨) وقوله: (( وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ))(٩) وقوله: (( إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ))(١٠)

وغير ذلك من الآيات التي يستفاد منها إثبات معيّة الله لخلقه ، وهي معيّة عامّة كما في الآيتين الأوليين ، ومقتضى هذه المعيّة إحاطته سبحانه بخلقه وعلمه بجميع أعمالهم ، ومعيّة خاصّة بعباده المؤمنين كما تدل عليه بقيّة الآيات ، ومقتضى هذه المعيّة النصر والتأييد والمعونة والحفظ .

وفي الحديث القدسي: (( أنا عند ظنّ عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ))(١١)

يقول الشوكاني في شرح هذا الحديث :

(( فيه تصريح بأنّ الله تعالى مع عباده عند ذكرهم له ، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليه برحمته ، ويمدّه بتوفيقه وتسديده ، فإن قلت: هو مع جميع عباده كما قال سبحانه وتعالى: (( وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ))(١٢) وقوله جل ذكره: (( مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ١٦٦/٥ .
(٢) سورة المجادلة : آية ٧ .
(٣) فتح القدير : الشوكاني ١٨٦/٥ .
(٤) سورة المائدة : آية ١٢ .
(٥) فتح القدير : الشوكاني ٢١/٢ .
(٦) سورة طه : آية ٤٦ .
(٧) فتح القدير : الشوكاني ٣٦٨/٣ .
(٨) سورة الأنفال : آية ٤٦ .
(٩) سورة الأنفال : آية ١٩ .
(١٠) سورة النحل : آية ١٢٨ .
(١١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه) (الفتح ٣٩٥/١٣ برقم ٧٤٠٥) وأخرجه أيضا برقم (٧٥٠٥، ٧٥٣٧)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٠٦٧/٤ برقم ٢٦٧٥)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب في حسن الظن بالله عز وجل (٥٤٢/٥ برقم ٣٦٠٣)، وابن ماجه في كتاب الأدب، باب فضل العمل (١٢٥٥/٢ برقم ٣٨٢٢)، وأحمد في المسند (٢٥١/٢، ٣١٥)
(١٢) سورة الحديد : آية ٤ .

إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ... الآية ))[1] . قلت : هذه معيّة عامّة، وتلك معيّة خاصّة خاصة للذاكر على الخصوص بعد دخوله مع أهل المعيّة العامّة ، وذلك يقتضي مزيد العناية ووفور الاكرام له والتفضّل عليه ، ومن هذه المعيّة الخاصّة ما ورد في الكتاب العزيز من كونه مع الصابرين[2]، وكونه مع الذين اتقوا[3]، وما ورد هذا المورد في الكتاب العزيز والسنة ، فلا منافاة بين اثبات المعيّة الخاصّة واثبات المعيّة العامّة .))[4]

قلت : وهذا التقسيم بين المعيّة العامّة والمعيّة الخاصّة تقسيم صحيح دلّت عليه النصوص من الكتاب والسنة كما ذكرنا .[5]

والسلف يثبتون معيّة الله لخلقه حقيقة ، ولا تنافي علوّه على خلقه واستواءه على عرشه ، فانّ معيّته ليست كمعيّة المخلوق للمخلوق ، فانّه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقد جمع الله بينهما ( أي بين المعيّة والعلوّ ) في قوله سبحانه :

(( هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ))[6]

فأخبر سبحانه أنّه فوق العرش يعلم كلّ شيء، وهو معنا أينما كنّا .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : (( انّ كلمة : (مع) في اللغة اذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة الا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال ، فاذا قيّدت بمعنى من المعاني دلّت على المقارنة في ذلك المعنى، فانّه يقال : ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا . ويقال : هذا المتاع معي لمجامعته لك ، وان كان فوق رأسك . فالله مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة .))[7]

ويقول في موضع آخر موضّحا معنى المعيّة : (( اذا قال : هذا مع هذا . فانّه يعني

---

(١) سورة المجادلة : آية ٧

(٢) انظر آية ١٥٣، ٢٤٩ من سورة البقرة، وآية ٤٦، ٦٦ من سورة الأنفال .

(٣) انظر آية ١٩٤ من سورة البقرة، وآية ٣٦، ١٢٣ من سورة التوبة، وآية ١٢٨ من سورة النحل.

(٤) تحفة الذاكرين : الشوكاني ١١ (٥) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية ٢٤٩/١١، ٢٥٠

(٦) سورة الحديد : آية ٤ (٧) مجموع فتاوى لابن تيمية ١٠٣/٥

بها لمجامعة والمقارنة والمصاحبة ، ولا يدل على قرب احدى الذاتين من الأخرى،ولا اختلاطها بها ، فلهذا كان اذا قيل: هومعهم ، دل على أن علمه وقدرته وسلطانه محيط بهم ، وهومع ذلك فوق عرشه ، كما أخبر القرآن والسنة بهذا ،وقال تعالى:(( هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ))[1] فأخبر سبحانه أنه مع علوه على عرشه يعلم كل شيء ، فلا يمنع علوه عن العلم بجميع الأشياء .))[2]

وعلى هذا فقد ناقض الشوكاني – رحمه الله تعالى – كلامه حين ذكر في نهاية رسالته التحف أن تفسير المعيّة بالعلم شعبة من شعب التأويل الذي ذمّه السلف ، قال – بعد أن ساق الآيات القرآنية في اثبات المعيّة – :

(( نقول في مثل هذه الآيات: هكذا جاء القرآن أن الله سبحانه مع هؤلاء ، ولا نتكلف تأويل ذلك كما يتكلف غيرنا بأن المراد بهذا الكون وهذه المعيّة هو كون العلم ومعيّته ، فان هذا شعبة من شعب التأويل تخالف مذاهب السلف، وتباين ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم .))[3]

ولعل الشوكاني – رحمه الله – لم يقف على أقاويل السلف في هذه الآيات عند اثبات صفة المعيّة في رسالته التحف، والا لما وقع في هذا الوهم .

ويؤيد هذا أنه فسّر المعيّة في الآيتين[4] بأنها معيّة العلم ، وفي بقيّة الآيات بمعيّة النصر والتأييد ،لا معيّة الذات كما تقدم ، وقال في قوله تعالى في حكاية عن المنافقين :(( قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ))[5]:(( أي معناه : مصاحبوكم في دينكم وموافقوكم عليه ))[6]

وقد فسّر السلف – رحمهم الله – معنى المعيّة في الآيتين بأنها معيّة العلم لا معيّة الذات ، لأن الله سبحانه افتتح الآيتين بالعلم بهم وختمهما به ، فدل هذا على أنه

---

(١) سورة الحديد : آية ٤ . (٢) مجموع فتاوى لابن تيمية ٤٩٩/٥ .
(٣) التحف في مذاهب السلف :الشوكاني ١٢ ضمن الرسائل السلفية .
(٤) أعني الآية ٤ من سورة الحديد ،والآية ٧ من سورة المجادلة كما تقدم .
(٥) سورة البقرة : آية ١٤ (٦) فتح القدير : الشوكاني ٤٤/١ .

أراد العلم بهم وبأعمالهم، لا أنه نفسه في كل مكان معهم .

هكذا قال الإمام أحمد[1]، والدارمي[2]، والآجري[3]، وابن قتيبة[4]، والبيهقي[5]، وابن جرير الطبري[6]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[7]، وابن قدامة[8]، وابن القيم[9]، وابن كثير[10]، والشوكاني[11]، وغيرهم كثير .

يقول ابن عبد البر - رحمه الله - : (( أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل ، قالوا في تأويل قوله تعالى : (( مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ )) : هو على العرش ، وعلمه في كل مكان ، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله . ))[12]

قال الألباني تعليقاً على هذا النص : (( في هذا النص رد صريح لما ذهب إليه الإمام الشوكاني في آخر تحفته أن تأويل هذه الآية ، وآية : (( وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ )) بالمعية العلمية إنما هو شعبة من شعب التأويل المخالف لمذهب السلف، وما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم .

كذا قال ، وكأنه لم يقف على هذا النص من الحافظ ابن عبد البر ، ولا على ما سبق من القول عن الأئمة الفحول ، كسفيان الثوري ، ومالك ، ومقاتل بن حيان[13] الذين فسروا الآيتين بمثل ما نقل ابن عبد البر إجماع الصحابة ومن بعدهم عليه ، فلا تغتر إذن بما زعمه الشوكاني من المخالفة ، فإن لكل عالم زلة ، ولكل جواد كبوة . ))[14]

---

(١) انظر الرد على الجهمية والزنادقة (١٣٨ - ١٤١) تحقيق : د/ عبد الرحمن عميرة .
(٢) انظر الرد على الجهمية ( ٢٦٨، ٢٦٩ ) ضمن عقائد السلف .
(٣) انظر الشريعة ( ٢٨٨ )
(٤) انظر تأويل مختلف الحديث ( ١٧١ ) تحقيق : عبد القادر أحمد عطا .
(٥) انظر الأسماء والصفات ( ٥٤١، ٥٤٢ )
(٦) انظر تفسيره ( ٢١٦/٢٧ و ١٢/٢٨ )
(٧) انظر مجموع فتاوى ( ١٠٣/٥، ٤٩٥، ٤٩٦ ) قال - رحمه الله - : وهو مأثور عن ابن عباس، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وسفيان الثوري ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم .
(٨) انظر ذم التأويل (٤٥، ٤٦) تحقيق : بدر بن عبد الله البدر . الدار السلفية .
(٩) انظر مختصر الصواعق المرسلة ( ٣٩٢ - ٣٩٥ )
(١٠) انظر تفسيره (٣٢٦/٤، ٣٤٥ ) (١١) انظر فتح القدير : (١٦٦/٥، ١٨٦، ١٨٧ )
(١٢) نقله عنه الذهبي في العلو ( انظر مختصره ٢٦٨ برقم ٣٢٧ )
(١٣) قال الحافظ ابن حجر في التقريب (٥٤٤ برقم ٦٨٦٧) مقاتل بن حيان النبطي أبو بسطام البلخي الخزاز ، صدوق فاضل ، أخطأ الأزدي في زعمه أن وكيعاً كذبه ، وإنما كذب الذي بعده . من السادسة . مات قبيل الخمسين بأرض الهند .
(١٤) مختصر العلو للذهبي ( ٢٦٨ ) اختصار الألباني .

قلت: إنّ الشوكاني في موقفه من صفة المعيّة× مخالف لمنهج السلف وموافق لمنهج أهل التفويض الذين لا يفهمون معاني نصوص الصفات ويفوّضون معرفتها الى الله تعالى ، وهو منهج غير صحيح كما ذكرنا .

×في تحفته

هـ - صفة المحبّة والغضب

لم ينصّ الشوكاني - رحمه الله - على صفة المحبّة والغضب في رسالته التحف، وتحدّث عنهما من خلال تفسيره للآيات والأحاديث .

ففي تفسير قوله تعالى: (( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ))[1] قال: (( الحبّ والمحبّة : ميل النفس الى الشيء ، يقال: أحبّه فهو محبّ ، وحبّه يحبّه بالكسر فهو محبوب ، ثمّ نقل عن الأزهري[2] قال: محبّة العبد لله ورسوله : طاعته لهما واتّباعه أمرهما ، ومحبّة الله للعباد : انعامه عليهم بالغفران .))[3]

قلت : والصواب الذي عليه السلف - رحمهم الله - اثبات المحبّة صفة حقيقية لله تعالى على ما يليق بجلاله وكماله ، وتأويل المحبّة بالانعام هو من التأويلات المذمومة وتغيير للصفة بلازمها وهو باطل . والشوكاني نقل هذا التأويل عن الأزهري ولم يعقّب عليه ،وكأنّه مقبول عنده ،وهو مردود .

واثبات صفة المحبّة لله قد دلّ عليها الكتاب والسنة واجماع سلف الأمة محبّة تليق بجلاله تعالى،كما يقال في سائر الصفات .

يقول الشيخ الهراس في شرح العقيدة الواسطية[4] - عند ذكر المصنّف لآيات المحبّة في اثبات الصفة :(( وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ))[5] (( وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ))[6] (( فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ))[7] (( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ))[8] (( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ))[9] - :

---

(١) سورة آل عمران : آية ٣١ .
(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (١٢٩) .
(٣) فتح القدير : الشوكاني ٣٣٣/١
(٤) صفحة ٤٨ .
(٥) سورة البقرة : آية ١٩٥
(٦) سورة الممتحنة : آية ٨
(٧) سورة التوبة : آية ٧ . (٨) سورة البقرة : آية ٢٢٢ . (٩) سورة آل عمران: آية ٣١ .

(( تضمّنت هذه الآيات اثبات أفعال له تعالى، ناشئة عن صفة المحبّة، ومحبّة الله عزّوجلّ لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به، وهي من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلّق بمشيئته، فهو يحبّ بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة .))

أمّا رأي الشوكاني في صفة الغضب فنجد أنّه أوّلها بارادة العقوبة والانتقام .

قال في شرح الحديث :(( من أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله ))[1] :(( قوله : فقد باء بغضب من الله : أي انقلب ورجع بغضب لازم له . ومعنى الغضب في صفات الله : ارادة العقوبة .))[2]

وقال في قوله تعالى - حكاية عن موسى عليه السلام عندما قال لقومه - :(( أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ))[3] :

(( والغضب : العقوبة والنقمة .))[4]

ونقل عن القرطبي قال : ومعنى الغضب في صفة الله : ارادة العقوبة ، أو نفس العقوبة . وعن الزمخشري قال : هو ارادة الانتقام من العصاة وانزال العقوبة لهم ، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك اذا غضب على من تحت يده .[5]

قلت : هذا الذي ذكره الشوكاني ونقله عن الآخرين في تأويل الغضب بارادة الانتقام تأويل مذموم وتفسير للصفة بلوازمها ، والصواب اثبات صفة الغضب على ما يليق بالله تعالى دون تكييف أو تمثيل أو تحريف ، كاثبات غيرها من الصفات الفعلية الاختيارية التي تتعلّق بمشيئته ، كالرضا ، والعداوة ، والولاية ، والمحبّة ، والبغض ، واللعن ، والكره ، ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة .

---

(١) أخرجه أبو داود بهذا اللفظ في كتاب الأقضية ، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها ( ٢٣/٤ برقم ٣٥٩٨ ) وسنده ضعيف ، وله شواهد ومتابعات بعضها صحيح وبعضها حسن . ( انظر : ارواء الغليل للألباني ٣٥٠/٧، ٣٥١، وسلسلة الأحاديث الصحيحة له ٧٢٢/١، ٧٢٣ برقم ٤٣٧، و١٩/٣، ٢٠ برقم ١٠٢١، ومشكاة المصابيح بتحقيقه ١٠٧٢/٢ برقم ٣٦١١ )

(٢) نيل الأوطار : الشوكاني ٢٠٥/١٠ .

(٣) سورة طه : آية ٨٦ .

(٤) فتح القدير : الشوكاني ٣٨٠/٣

(٥) المصدر السابق ٢٤/١، وانظر تفسير القرطبي ٢٣٤/١١، والكشاف للزمخشري ٧٩/٣ .

" فهذه صفات ربّنا التي وصف بها نفسه في كتابه ، ووصفه بها نبيّه ، وليس في شيئ منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير ،ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير ، لم تره العيون فتحدّه كيف هو ؟ ،ولكن رأته القلوب في حقائق الايمان "[١]

وبعد ، فهذه جملة من صفات الباري التي تحدّث عنها الشوكاني ــ رحمه الله تعالى ــ في مؤلّفاته ، وقد تبيّن مما ذكرنا أنّ الشوكاني في رسالته التحف أثبت جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة على منهج السلف دون تفريق بين صفة وأخرى .

وقد نصّ ــ رحمه الله ــ في التحف على بعض الصفات ، وهي : الاستواء ، والعلوّ ، والمحبّة ( على خلاف مع السلف كما ذكرنا ) ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، والنزول ، واليد . أمّا بقيّة الصفات فلم ينصّ عليها ، بل تحدّث عنها جملة بمثل قوله :

(( انّ المذاهب الحقّ في الصفات هو امرارها على ظاهرها ، من غير تأويل ، ولا تحريف ، ولا تكلّف ، ولا تعسّف ، ولا جبر ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، وانّ ذلك هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم . ))[٢]

غير أنّ الشوكاني ــ رحمه الله ــ لم يلتزم بهذا المنهج عند تفسيره لآيات الصفات ، فأوّل بعضها تأويلا مذموما ، ونصر تأويله أهل التعطيل المذموم .

ومن الصفات التي أوّلها في تفسيره : الوجه ، والعين ،واليد، والعلوّ ، والمجيئ ، والاتيان ، والمحبّة ، والغضب ، على التفصيل الذي ذكرته .

وقد ذهب بعض الباحثين [٣] الى أنّ الشوكاني تدرّج عن بعض هذه التأويلات في رسالته التحف ، لأنّها من آخر ما ألّف ،ولم يؤيّد ما ذهب اليه بأي دليل الّا حسن الظنّ به .

وذكر الدكتور عبد الغني قاسم في كتابه : الامام الشوكاني حياته وفكره[٤] أنّ

---

(١) قاله ابن أبي زمنين،ونقل عنه شيخ الاسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية الكبرى صفحة ٢٤ ط/ السلفية .

(٢) انظر التحف في مذاهب السلف ، الشوكاني ٨ ضمن الرسائل السلفية .

(٣) انظر ، الشوكاني مفسّرا ، للدكتور محمد حسين الغماري ١٩٧ ط/١ دار الشروق. وتبعه صاحب الرسالة ، الامام الشوكاني وآراؤه الاعتقادية في الالهيات (ص ٢٣٨) رسالة ماجستير جامعة أمّ القرى .

(٤) انظر صفحة ( ١٩٥ ) ط/ ١ مؤسسة الرسالة .

تاريخ تأليف التحف هو ١٢٢٨ سنة هـ . قال - بعد ذكر عدد طبعاته -:

(( وتوجد المخطوطة ضمن مجموع (٥٩) ( م ،ج ،ك ) ( م ،ش ) ،وفيها أنها انتهى من تحريرها في ربيع الآخر ١٢٢٨ سنة هـ ،وهي بخطه ( يعني الشوكاني ) . ))

هذا ولم أقف على نص الشوكاني على تاريخ فراغه من التأليف في الطبعات التي بين أيدينا [1]

وعلى ما ذهب اليه الدكتور عبد الغني قاسم فان الشوكاني - رحمه الله تعالى - ألف التحف قبل فراغه من تفسيره : فتح القدير . بسنة ، لأنه فرغ منه في ١٢٢٩هـ سنة كما نص عليه في ختامه [2] ، ولا يخفى أن تأليف: فتح القدير . يحتاج الى مدة طويلة ، بينما لا يحتاج تأليف مثل التحف الا الى وقت يسير ، وقد يكون في جلسة واحدة فقط .

وعلى أي حال فان من الانصاف أن أقول : إن الشوكاني - رحمه الله - على مذهب السلف ، وكان يحبه ويدعوا اليه ،كما هو ظاهر لكل من قرأ رسالته التحف، غير أنه - كما يبدو لي - لم يفهم مذهب السلف في مسألة الصفات فهما جيدا ، ومما يدلني على ذلك :

أ - ما خالف السلف في صفة المعية كما تقدم ، مع أنه ذكر أنه وقف على كتاب : العلو . للذهبي [3] الذي أورد فيه الكثير من الأحاديث والآثار المؤيدة والموضحة لمذهب السلف . وكذلك ما خالفهم في مسألة خلق القرآن .

ب - ومما يدلني على ذلك أيضا ما ذكره - رحمه الله تعالى - في كتابه : ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول [4] وقد فرغ من تأليفه ١٢٣١هـ سنة كما نص عليه في ختامه [5] أي بعد : فتح القدير . بسنتين . قال ما نصه :

---

(١) وهي الطبعة المنيرية ١٣٤٣هـ سنة ، وطبعة دار الكتب العلمية ضمن الرسائل السلفية ١٣٤٨هـ = ١٩٣٠م ، وطبعة دار الصحابة للتراث ١٤٠٩هـ سنة ،بتحقيق سيد عاصم علي، وطبعة مكتبة ابن الجوزي ١٤٠٩هـ سنة ،بتحقيق سليم بن عيد الهلالي وعلي حسن علي عبد الحميد ، وطبعة شركة السلام العالمية ،ضمن : عقيدة الفرقة الناجية ،بدون تاريخ .

(٢) انظر فتح القدير : الشوكاني ٥٢٤/٥ ،وانظر قائمة مؤلفات الشوكاني التي وضعتها (ص ٧٧).

(٣) كما أشار اليه في رسالة التحف ، صفحة ١١ ضمن الرسائل السلفية .

(٤) انظر صفحة ١٧٦ . (٥) انظر صفحة ٢٨٧ .

(( الفصل الثاني : فيما يدخله التأويل[1] وهو قسمان: أحدهما: أغلب الفروع ، ولا خلاف في ذلك ، والثاني : الأصول كالعقائد وأصول الديانات ، وصفات الباري عزّوجلّ، وقد اختلفوا في هذا القسم على ثلاثة مذاهب ، الأوّل: أنّه لا مدخل للتأويل فيها ، بل يجري على ظاهرها ، ولا يؤول شيئ منها ، وهذا قول المشبّهة . والثاني: أنّ لها تأويلا ، ولكن نمسك عنه ، مع تنزيه اعتقادنا عن التشبيه والتعطيل، لقوله تعالى:(( وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ))[2] . قال ابن برهان[3]: وهذا قول السلف. قلت ( أي الشوكاني ): وهذا هو الطريقة الواضحة والمنهج المصحوب بالسلامة عن الوقوع في مهاوي التأويل لما لا يعلم تأويله إلا الله ، وكفى بالسلف الصالح قدوة لمن أراد الاقتداء ، وأسوة لمن أحبّ التأسّي، على تقدير عدم ورود الدليل القاضي بالمنع من ذلك ، فكيف وهو قائم موجود في الكتاب والسنة . والمذهب الثالث : أنّها مؤوّلة . قال ابن برهان: والأوّل من هذه المذاهب باطل ، والآخران منقولان عن الصحابة ، ونقل هذا المذهب الثالث عن علي وابن مسعود وابن عباس وأمّ سلمة .)) اهـ .

قلت : هذا وهم من الشوكاني ، والظاهر أنّ الأوّل هو قول السلف وليس المشبّهة كما زعم ، فانّ مذهب السلف اثبات الصفات واجراؤها على ظواهرها من غير تأويل ولا تشبيه ، وتفويض كنهها وكيفيتها الى الله تعالى، كما قرّره ـ رحمه الله ـ في رسالته التحف . أمّا الثاني فهو قول المفوّضة أو القريب منه ، وليس قول السلف كما زعم ، لأنّ السلف لا يقولون انّ لها تأويلا ولكنّا نمسك عنه ، بل يثبتون معناها من غير تصوّر لمشابهة ولا تمثيل، وأمّا ما نقله عن ابن برهان فهو باطل، لأنّه لم يرد حرف واحد في التأويل المعروف عندهم عن السلف ، وكلّ ما نقل فهو

---

(١) والمراد بالتأويل هنا هو التأويل الاصطلاحي عند المتأخرين من الأصوليين وغيرهم وهو صرف الكلام عن ظاهره الى معنى يحتمله ، وحمل الظاهر على المحتمل المرجوح بدليل يصيره راجحا . ( انظر ارشاد الفحول للشوكاني ١٧٦ ) .

(٢) سورة آل عمران : آية ٧ .

(٣) أحمد بن علي بن برهان ، أبو الفتح ، فقيه بغدادي، غلب عليه علم الأصول ، من تصانيفه : البسيط والوسيط والوجيز في الفقه والأصول. توفّي ٥١٨هـ ( انظر : شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٦١/٤ ، والأعلام : الزركلي ١٧٣/١ ) .

كذب واختراع[1]. والشوكاني - رحمه الله - نقل هذا الكلام ولم يعقّب عليه، وكأنّه مقبول عنده وهو مردود . وهكذا لكلّ عالم زلّة ولكلّ جواد كبوة ، والعصمة لله سبحانه ولمن عصمه من الأنبياء والمرسلين .

---

(١) انظر مجموع فتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية ( ٥/٦٠ ، وأيضا ٢٩٤/٦ ) ، وذمّ التأويل لابن قدامة ٤٠ تحقيق: بدر بن عبد الله البدر .

# الفصل الرابع
# في نواقض التوحيد

ويشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : الشرك وأنواعه وكلام الشوكاني عليه

المبحث الثاني : ذكر نماذج من الأعمال الشركية وكلام الشوكاني عليها

المبحث الثالث ، تحقيق شرك القبوريين والوثنيين وبيان أن شركهما واحد

المبحث الرابع : البدع وكلام الشوكاني عليها

## ( الفصل الرابع )

## في نواقض التوحيد

### المبحث الأول: الشرك وأنواعه وكلام الشوكاني عليه

#### معنى الشرك

الشرك في اللغة يطلق على المخالطة والمصاحبة .

قال صاحب اللسان: (( الشِّرْكَة والشَّرِكَة سواء مخالطة الشريكين، يقال: اشتركنا بمعنى تشاركنا ، وقد اشترك الرجلان وتشاركا ، وشارك أحدهما الآخر، والشريك: المشارك ،والشرك كالشريك ،والجمع أشْراك وشُرَكاء . ))(١)

ويطلق أيضا على النصيب .

قال الأزهري: (( الشرك بمعنى الشريك، وهو بمعنى النصيب،وجمعه أشراك ،كشبر وأشبار . ))(٢)

قال الأصفهاني: (( شرك : الشَّركة والمشاركة خلط الملكين، وقيل: هو أن يوجد شيئ لاثنين فصاعدا ، عينا كان ذلك الشيئ أو معنى ، كمشاركة الانسان والفَرَس في الحيوانية ،ومشاركة فَرَس وفَرَس في الكُمْتَة والدُّهْمَة (٣) يقال: شركتُه وشاركتُه وتشاركوا واشتركوا واشتركتُه في كذا . قال: (( وأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ))(٤) وفي الحديث: (( اللهمّ أشرِكْنا في دعاء الصالحين ))(٥)

وفي الاصطلاح : ما يناقض التوحيد ويضاده ، وهو أن يجعل الانسان لله تعالى شريكا ونداّ فيما يجب أن يكون حقّا خالصا لله تعالى ، بمعنى أن يصرف شيئا من خصائص الربوبية والألوهية لغير الله تعالى .

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في توضيح معنى الشرك :

---

(١) لسان العرب : ابن منظور (٤٤٨/١٠ مادة : شرك )

(٢) تهذيب اللغة : الأزهري (١٧/١٠ مادة : شرك )

(٣) الكمتة :لون ليس بأشقر ولا أدهم ،والدهمة :السواد ( انظر تهذيب اللغة للأزهري (١٥٦/١٠ مادة :كمت ) و( ٢٢٤/٦ مادة :دهم )

(٤) سورة طه : آية ٣٢

(٥) المفردات للأصفهاني ( ٢٥٩ مادة :شرك )والحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ،والذي وقفت عليه ما رواه الترمذي في كتاب الدعوات،باب (١١٠) قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر حينما استأذنه في العمرة : (( أي أخي أشركنا في دعائك )) ( ٥٢٣/٥ برقم ٣٥٦٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقد تقدم تخريجه في صفحة (٢٤١) .

(( إنّ الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به ، أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه ، أو التقرّب إلى غيره بشيئ مما لا يتقرّب به إلا إليه ، ومجرّد تسمية المشركين لما جعلوه شريكا بالصنم والوثن والإله لغير الله ، زيادة على التسمية بالولي والقبر والمشهد ، كما يفعله كثير من المسلمين ، بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن ، إذ ليس الشرك هو مجرّد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسمّيات ، بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئا يختص به سبحانه ، سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلق عليه الجاهلية أو أطلق عليه اسما آخر ، فلا اعتبار بالاسم قط . ))[1]

وعلى هذا المعنى الشامل من الشرك جعل الشوكاني ـ رحمه الله ـ شرك الوثنيين والقبوريين شركا واحدا ، لا فرق بينهما ، لأنّ كلّا منهم يصرف لغير الله ما هو مختص بالله سبحانه من أنواع العبادة ، كما سيأتي تفصيله في مبحث مستقل إن شاء الله .

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الشرك به في كثير من الآيات ، كقوله تعالى :
(( وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ))[2]

قال الشوكاني في تفسير الآية : (( أي لا تشركوا به شيئا من الأشياء من غير فرق بين حيّ وميّت ، وجماد وحيوان ، ولا تشركوا به شيئا من الإشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر والأصغر ، والواضح والخفيّ . ))[3]

وكقوله سبحانه : (( فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ))[4] أي من خلقه ، سواء كان صالحا أو طالحا ، حيوانا أو جمادا .[5]

أقسام الشرك

وينقسم الشرك باعتبار أنواع التوحيد الثلاثة التي ذكرناها إلى ثلاثة أقسام : الشرك في الربوبية ، والشرك في الألوهية ، والشرك في الأسماء والصفات . وكلّ منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقا ، وقد يكون أكبر بالنسبة إلى ما هو أصغر منه ،

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٣٤ مكتبة الصحابة الإسلامية .
(٢) سورة النساء : آية ٣٦ .    (٣) انظر فتح القدير : الشوكاني ٤٦٤/١ .
(٤) سورة الكهف : آية ١١٠ .    (٥) فتح القدير : الشوكاني ٣١٨/٣ .

وقد يكون أصغر بالنسبة لما هو أكبر منه ٠

القسم الأول : الشرك في توحيد الربوبيّة

وهو اثبات فاعل مستقل غير الله تعالى ، كشرك من يجعل الانسان مستقلًا باحداث فعله ، وشرك من يجعل الأجسام الطبيعيّة من الشمس والقمر والنجوم والجبال ونحوها كما يقوله الطبيعيون ، أو العقول كما تقوله الفلاسفة ، أو الأرواح والنفوس كما يقوله عبّاد القبور ، أو الملائكة ، أو غير ذلك من المخلوقات ، ومن هذا القسم شرك فرعون اذ قال منكرًا الربّ الخالق : (( وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ))[1] وقال مدعيًا لنفسه الربوبيّة : (( أَنَا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَى ))[2] وأمثاله ممّن يدعي لنفسه الربوبيّة ، أو يدعي أنّه يملك أو يرزق أو يدبّر شيئا من دون الله تعالى ٠

ومن هذا القسم شرك المجوس [3] القائلين باسناد حوادث الخير الى النور ، وحوادث الشر الى الظلمة ، وشرك الصابئة [4] الذين ينسبون الى الكواكب العلويات تدبير أمر العالم ، ومثل هؤلاء كثير من عبّاد القبور الذين يزعمون بأنّ أرواح الأولياء تتصرّف بعد الموت ، فيقضون الحاجات ، ويفرجون الكربات ويحفظون من التجأ اليهم ، وهذا الأخير اعتنى الشوكاني - رحمه الله - اعتناء كبيرا بالكلام عليه كما سيأتي ٠

وهذا الشرك من أخبث شرك في العالم ، اذ يتضمّن من التعطيل ، وجحد

---

(١) سورة الشعراء : آية ١١٠ ٠ (٢) سورة النازعات : آية ٢٤ ٠

(٣) المجوس : هم الذين يعبدون النار ، لأنهم يعتقدون أنّها أعظم شيئ في الدنيا ، ويسجدون للشمس اذا طلعت،وينكرون نبوّة آدم ونوح عليهما السلام ، وقالوا : لم يرسل الله عزوجلّ الا رسولا واحدا لاندري من هو ، ويقولون باثبات أصلين: النور والظلمة ،وقد نشأت المجوسية في بلاد الفرس ( انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الرازي (٨٦)والملل والنحل: الشهرستاني (٢٣٣/١) ، والبرهان : السكسكي (٩٠) ٠

(٤) الصابئة : الصابئ في اللغة هو التارك لدينه الذي شرع له الى دين غيره ، والصابئة : أمّة كبيرة ، وهو القوم الذين بعث فيهم ابراهيم عليه السلام ، وكانوا بحران ، فهي دار الصابئة وهم على قسمين: صابئة حنفاء ، وصابئة مشركين، والمشركون منهم هم الذين يعبدون الكواكب والبروج، ويعظّمونها ويصوّرونها في هياكلهم ٠( انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : الفخر الرازي (٩٠) والملل والنحل : الشهرستاني (٥/٢)

الالهية والربوبية ، واستناد الخلق الى غيره سبحانه وتعالى مالم يتضمّنه شرك أمة من الأمم ، وشرك القدرية مختصر من هذا ، وباب يدخل منه اليه ، ولهذا شبّههم الصحابة - رضي الله عنهم - بالمجوس.[1] كما تقدم بيانه.[2]

وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على أصحاب هذا الشرك في كثير من الآيات:
قال تعالى : (( أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ))[3]

قال الشوكاني : (( أي كيف يجعلون لله شريكا لا يخلق شيئا ، ولا يقدر على نفع لهم ، ولا دفع عنهم ( وهم يخلقون ) أي وهؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون ( ولا يستطيعون لهم نصرا ) ان طلبه منهم ، ( ولا أنفسهم ينصرون ) ان حصل عليهم شيئ من جهة غيرهم ، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز . ))[4]

وقال سبحانه في وصف آلهتهم :
(( وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ))[5]

قال الشوكاني في تفسير الآية : (( أي لا يقدرون على أن يجلبوا لأنفسهم نفعا ، ولا يدفعوا عنها ضررا ، وقدّم ذكر الضرّ لأنّ دفعه أهمّ من جلب النفع ، واذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع والنفع فيما يتعلّق بأنفسهم ، فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم ، ثمّ زاد في بيان عجزهم ، فنص على هذه الأمور فقال : (( ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا )) أي لا يقدرون على إماتة الأحياء ولا إحياء الموتى ، ولا بعثهم في القبور . ))[6]

---

(١) انظر: تجريد التوحيد المفيد : المقريزي (٨٩،٩٠) ضمن عقيدة الفرقة الناجية .
(٢) انظر: صفحة (١٤١) .
(٣) سورة الأعراف : آية ١٩١،١٩٢ .
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٢٧٤/٢ .
(٥) سورة الفرقان : آية ٣ .
(٦) فتح القدير: الشوكاني ٦١/٤ .

فالذي يتّصف بهذه الأوصاف الناقصة كيف يعبدونه ويستغيثون به في قضاء الحاجات ، ويعرضون عن الربّ العظيم القادر على كلّ شيئ الذي له الخلق والأمر وحده ، لا اله غيره ، ولا ربّ سواه .

القسم الثاني : الشرك في توحيد الأسماء والصفات .

وهو نوعان : أحدهما : تشبيه الخالق بالمخلوق ، كمن يقول : يد الله كيدي ، وسمعه كسمعي ، وبصره كبصري ، واستواؤه كاستوائي ، وهو شرك المشبّهة الذين ردّ الله سبحانه عليهم بقوله : (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ )) (١) وقوله : (( وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا .)) (٢)

يقول الشوكاني عن هاتين الآيتين :

(( وقد يغني هؤلاء ( المشبّهة ) وأمثالهم كلمتان من كتاب الله تعالى ، وصف بهما نفسه ، وأنزلهما على رسوله ، وهما : ( ولا يحيطون به علما ) و ( ليس كمثله شيئ ) فان هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب ، وتضمّنت بما يعين أولى الألباب السالكين في تلك الشعاب ، فالكلمة منها دلّت دلالة بيّنة على أنّ كلّ ما تكلّم به البشر في ذات الله وصفاته على وجه التدقيق ودعاوي التحقيق فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل ، مخلوط بخلوط هي منافية للعلم ، ومباينة له ، فانّ الله سبحانه قد أخبرنا أنّهم لا يحيطون به علما ، فمن زعم أن ذاته كذا أوصفته كذا ، فلا شك أنّ صحّة ذلك متوقّفة على الاحاطة ، وقد نفيت عن كلّ فرد من الأفراد علما ... وأمّا الكلمة وهي ( ليس كمثله شيئ ) فبها يستفاد نفي المماثلة في كلّ شيئ ، فيدفع بهذه الآية في وجه المجسّمة ، وتعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع والبصير ، وعند ذكر السمع ، والبصر ، واليد ، والاستواء ، ونحو ذلك ممّا اشتمل عليه الكتاب والسنة ، فتقرّر

---

(١) سورة الشورى : آية ١١ .
(٢) سورة طه : آية ١١٠ .

بذلك لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات ))(١)

والثاني : اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الإله الحق ٠

قال تعالى : (( وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ))(٢)

قال قتادة : (( يلحدون في أسمائه : يشركون )) ٠

وقال ابن عبّاس : (( الإلحاد : أن يدعوا اللات والعزّى في أسماء الله )) ٠

وقال ابن جريج (٣) : (( اشتقّوا العزّى من العزيز ، واشتقّوا اللات من الله ))

أورد الشوكاني ــ رحمه الله ــ هذه الأقوال في تفسيره ، وقال :

(( والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه : إمّا بالتغيير ، كما فعله المشركون ، فإنّهم أخذوا اسم اللات من الله ، والعزّى من العزيز ، ومناة من المنان ، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها ، أو بالنقصان منها ، بأن يدعوه ببعضها دون بعض ٠ ))(٤)

القسم الثالث : الشرك في توحيد الألوهية والعبادة ٠

وهو نوعان : أحدهما : شرك أكبر

وهو أن يتّخذ العبد نِدّاً لله تعالى في العبادة ، يدعوه ، أو ينذر له ، أو يذبح له ، أو يخافه ، أو يصرف له أيّ نوع من أنواع العبادة ، كشرك مشركي مكة أيام بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا في آلهتهم : (( هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا

(١) التحف في مذاهب السلف : الشوكاني (١٠،٩) ضمن الرسائل السلفية ٠

(٢) سورة الأعراف : آية ١٨٠ ٠

(٣) عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج ، ثقة ، فقيه ، فاضل ، كان إمام أهل الحجاز في عصره ، رومي الأصل ، من موالي قريش ، قال الذهبي : كان ثبتاً ، لكنه يدلّس ، توفي ١٥٠ هـ ، ( تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ( ١٠/٤٠٠ ) ، وتذكرة الحفاظ : الذهبي (١٦٩/١) وتقريب التهذيب : ابن حجر ( ٣٦٣ ) برقم ( ٤١٩٣ ) ) ٠

(٤) فتح القدير : الشوكاني ٢/٢٦٨ ، ٢٧٠ ٠ وتقدّم بيان هذا الموضوع في (ص ٢٨٧ ، ٢٨٨) ٠

عِندَ اللهِ )) [١] وقالوا : (( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى )) [٢] والمراد بهذا القول : الشفاعة [٣] لهم في الدنيا . ومن هذا النوع شرك عبّاد القبور (( الذين جعلوا بعض خلق الله شريكا له ، ومثلا ، وندّا ، فاستغاثوا به فيما لا يستغاث فيه الا بالله ، و طلبوا منه ما لا يطلب الا من الله ، مع القصد والارادة )) [٤]

وهذا النوع من الشرك هو الذي قال الله سبحانه فيه :

(( وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا )) [٥]

(( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ )) [٦]

(( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ )) [٧]

(( إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ )) [٨]

(( لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ )) [٩]

والآيات في النهي عن هذا الشرك وبيان بطلانه كثيرة جدّا ، والكتب السماوية كلّها من أوّلها الى آخرها تبطل هذا الشرك ، وتقبّح أهله ، وتنصّ على أنّهم أعداء الله تعالى ، وجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم متّفقون على ذلك من أوّلهم الى آخرهم ، وما أهلك الله تعالى من الأمم السابقة الا بسبب هذا

---

(١) سورة يونس : آية ١٨ . (٢) سورة الزمر : آية ٣ .

(٣) ذكر الشوكاني (فتح القدير ٤/٤٤٩) أن المراد بقولهم : الا ليقرّبونا الى الله زلفى : الشفاعة ، كما حكاه الواحدي عن المفسرين . قال قتادة : كانوا اذا قيل لهم من ربّكم وخالقكم ، ومن خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله ، فيقال لهم : ما معنى عبادتكم للأصنام ؟ قالوا : ليقرّبونا الى الله زلفى ، وليشفعوا لنا عنده ا هـ قلت : أي في الدنيا لينصروا نزال الغيث الخ ، لا في الآخرة ، لأنّهم ينكرون البعث .

(٤) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٢٩ وانظر أيضا ٦٨ مكتبة الصحابة الاسلامية .

(٥) سورة النساء : آية ٣٦ . (٦) سورة النحل : آية ٣٦ .

(٧) سورة يونس : آية ١٨ . (٨) سورة المائدة : آية ٧٢ .

(٩) سورة لقمان : آية ١٣ .

الشرك ومن أجله .

يقول الشوكاني ـ رحمه الله ـ في بيان هذا النوع من الشرك :

(( وقد تقرّر أنّ شرك المشركين الذين بعث الله اليهم خاتم رسله صلى الله عليه وسلم لم يكن الّا باعتقادهم أنّ الأنداد التي اتّخذوها تنفعهم وتضرّهم، وتقرّبهم الى الله، وتشفع لهم عنده، مع اعترافهم بأنّ الله سبحانه هو خالقها وخالقهم، ورازقها ورازقهم، ومحييها ومحييهم، ومميتها ومميتهم :(( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى )) (١) (( فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ )) (٢) (( وَإِنْ كُنَّا لَفِيْ ضَلاَلٍ مُبِيْنٍ ، إِذْ نُسَوِّيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ )) (٣) (( وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُوْنَ ))(٤) (( هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ))(٥) ، وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبّيك لا شريك لك، الا شريكا هو لك، تملكه وما ملك .

واذا تقرّر هذا فلا شك أنّ من اعتقد في ميّت من الأموات، أو حيّ من الأحياء، أنّه يضرّه أو ينفعه إمّا استقلالا ، أو مع الله تعالى، أو ناداه، أو توجّه اليه، أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق، فلم يخلص التوحيد لله، ولا أفرده بالعبادة، اذ الدعاء بطلب وصول الخير اليه، ودفع الضرّ عنه هو نوع من أنواع العبادة، ولا فرق بين أن يكون هذا المدعوّ من دون الله أو معه حجرا، أو شجرا، أو ملكا، أو شيطانا، كما كان يفعل ذلك الجاهليّة، وبين أن يكون انسانا من الأحياء أو الأموات، كما يفعله الآن كثير من المسلمين، وكلّ عالم يعلم هذا ويقرّبه، فانّ العلة واحدة، وعبادة غير الله تعالى وتشريك غيره معه يكون للحيوان، كما يكون للجماد، وللحيّ كما يكون للميّت ))(٦)

---

(١) سورة الزمر : آية ٣ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢٢ .
(٣) سورة الشعراء : آية ٩٧، ٩٨ .
(٤) سورة يوسف : آية ١٠٦ .
(٥) سورة يونس : آية ١٨ .
(٦) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٣٢، ٣٣ .

بيان خطورة هذا النوع من الشرك

بيّن الشوكاني ـ رحمه الله ـ أنّ الشرك الأكبر مما ينافي التوحيد في عبادة الله عزوجل ويناقضه ، وأنّ خطره عظيم ، لما يلي : ـ

١ ـ انّه يحبط العمل :

قال تعالى : (( وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ))(١)

والحبوط : هو البطلان (٢) أي بطلت أعمالهم ، لأن الشرك يخرجهم من الملّة الاسلامية .

وقال تعالى : (( وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ ، وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ))(٣)

قال الشوكاني في تفسير الآية :

(( هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل ، لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك ، ووجه ايراده على هذا الوجه التحذير والانذار للعباد من الشرك ، لأنه اذا كان موجبا لاحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير ، فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى ، قال : وهذه الآية مقيّدة بالموت على الشرك ، كما في الآية الأخرى ، وهي قوله تعالى : (( وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ )) (٤) ، فقوله : (( في الدنيا والآخرة )) أي أنّه لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا ، فلا يأخذ شيئا مما يستحقه المسلمون ، ولا يظفر بحظ من حظوظ الاسلام ، ولا ينال شيئا من ثواب الآخرة الذي يوجبه الاسلام ، ويستحقّه أهله .))(٥)

---

(١) سورة الأنعام : آية ٨٨ . (٢) فتح القدير : الشوكاني ١٣٧/٢ .
(٣) سورة الزمر : آية ٦٥ . (٤) سورة البقرة : آية ٢١٧ .
(٥) انظر فتح القدير : الشوكاني (٤٧٤/٤ ، وأيضا ٢١٨/١ ) .

٢ ـ إنّ صاحبه خالد مخلّد في النار اذا مات مصرّا عليه ، وإنّ الله لا يغفر له الّا اذا تاب في وقت التوبة .

قال تعالى : (( إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ))(١)

وقال : (( إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ))(٢)

قال الشوكاني : (( أي ضلّ عن الحقّ ضلا لا بعيدا ، لأنّ الشرك أعظم أنواع الضلال ، وأبعدها من الصواب ))(٣)

وقال : (( هذا الحكم ( أي عدم الغفران ) يشمل جميع طوائف الكفّار من أهل الكتاب وغيرهم ولا يختصّ بكفّار أهل الحرب ، لأنّ اليهود قالوا : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقالوا : ثالث ثلاثة . ولا خلاف بين المسلمين أنّ المشرك اذا مات على شركه ، لم يكن من أهل المغفرة التي تفضّل الله بها على غير أهل الشرك ، حسبما تقتضيه مشيئته ، وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة ، يغفر لمن يشاء ، ويعذّب من يشاء ))(٤)

قلت : وهذا ما أجمع عليه السلف أهل السنة والجماعة ، وخالفهم في ذلك المعتزلة ، وسيأتي الحديث عنه في الفصل التالي ان شاء الله .

٣ ـ إنّه أنظع ظلم ، وأعظم جريمة .

قال تعالى : (( الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ )) (٥)

(( أي لم يخلطوه بظلم ، والمراد بالظلم الشرك ، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود ( رضي الله عنه ) قال : لما نزلت هذه الآية شقّ

---

(١) سورة المائدة : آية ٧٢ .
(٢) سورة النساء : آية ١١٦ .
(٣) فتح القدير : الشوكاني ٥١٦/١ .
(٤) المصدر السابق : ٤٧٥/١ .
(٥) سورة الأنعام : آية ٨٢ .

ذلك على أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وقالوا : أيّنا لم يظلم نفسه ؟
فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : ليس هو كما تظنّون، انّما هو كما قال لقمان
: (( يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ))[1] [2]

وقد وصف الله الكفّار بأنّهم ظالمون في قوله : (( وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ))[3]
وهذا دليل على أنّ كلّ كافر ظالم لنفسه.[4]

ووجه كونهم ظالمين أنّ الظلم وضع الشيئ في غير موضعه، ويترتّب عليه الفساد، والخسران الكبير، وعبادة غير الله وضع لها في غير موضعها، اذ العبادة حقّ الله على عباده، فصرفهم ايّاها لغير مستحقّها ظلم وكذب عليه.

قال تعالى : (( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ))[5]

قال الشوكاني : (( أي لا أحد أظلم منهم لأنفسهم، لأنّهم افتروا على الله كذبا بقولهم لأصنامهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله.))[6]

كما بيّن سبحانه وتعالى أنّ الشرك من أعظم جريمة في قوله :
(( وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ))[7]

فالاشراك بالله في عبادته تأليه لغيره سبحانه، وتأليه غيره سبحانه كفر وتكذيب له في قوله :(( شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ))[8]
وفي قوله : (( فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ))[9]

قال ابن القيم رحمه الله ـ في بيان جريمة الشرك :

---

(١) سورة لقمان : آية ١٣ .
(٢) فتح القدير، الشوكاني (١٣٥/٢) وانظر أيضا (٢٣٨/٤) والحديث أخرجه البخاري في عدّة مواضع انظر الفتح (١٠٩/١) حديث رقم (٣٢) وهنا يذكر مواضع وروده، وأخرجه أيضا مسلم في كتاب الايمان باب صدق الايمان واخلاصه (١١٤/١) برقم (١٢٤)
(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٤ .
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٢٧١/١ .
(٥) سورة هود : آية ١٨ .
(٦) فتح القدير، الشوكاني ٤٩٠/٢ .
(٧) سورة النساء : آية ٤٨ .
(٨) سورة آل عمران : آية ١٨ .
(٩) سورة محمد : آية ١٩ .

(( إنّ الشرك لمّا كان أظلم الظلم ، وأقبح القبائح ، وأنكر المنكرات ، كان أبغض الأشياء وأكرهها له ، وأشدّ مقتا لديه ، ورتّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتّبه على ذنب سواه ، وأخبر أنّه لا يغفره ، وأنّ أهله نجس ، ومنعهم من قربان حرمه ، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم ، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين ، وجعلهم أعداء له سبحانه وتعالى ، ولملائكته ، ولرسله ، وللمؤمنين ، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم ... وهذا لأنّ الشرك هضم لحقّ الربوبيّة ، وتنقص لعظمة الالهيّة ، وسوء ظنّ بربّ العالمين ))(١)

والثاني : شرك أصغر

وهو كلّ وسيلة يتوصّل بها الى الشرك ، ما لم يكن يبلغ درجة العبادة ، وهو غير مخرج من الملّة الا اذا بلغ درجة الشرك الأكبر ، وهو من الكبائر ، وصاحبه لا يخلد في النار ، بل هو تحت مشيئة الله تعالى كسائر الذنوب والمعاصي التي دون الشرك الأكبر ، ان شاء عذّبه وان شاء غفر له . (( كيسير الرياء ، والتصنع للخلق ، والحلف بغير الله ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : (( من حلف بغير الله فقد أشرك بالله ))(٢) وقول الرجل للرجل : ما شاء الله وشئت ، هذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، ومالي الا الله وأنت وأنا متوكّل على الله وعليك ، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا . وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده )) .(٣)

وقد ذكر الشوكاني ـ رحمه الله ـ أنّ من هذا النوع من الشرك ما روى ابن أبي حاتم (٤) عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير قوله تعالى :(( فَلَا تَجْعَلُوا

---

(١) اغاثة اللهفان : ابن القيم ( ٦٠/١ ) تحقيق / محمد حامد الفقي .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٢٥/١)، وأبو داود في كتاب الايمان والنذور ، باب في كراهية الحلف بالآباء (٥٧٠/٣) برقم (٣٢٥١)، والترمذي في كتاب النذور والأيمان ، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (١٤/٤) برقم (١٥٣٥) وقال : حديث حسن ، والحاكم في المستدرك ٥٢/١ وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي . وصحّحه الألباني في ارواء الغليل (١٨٩/٨) برقم (٢٥٦١) وغاية المرام (١٣٤) برقم (٢٥٩) .

(٣) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني (٧١) نقلا عن ابن القيم .

(٤) في تفسيره (٨١/١) وقال صاحب تيسير العزيز الحميد (ص ٥٨٧): سنده جيد .

لله أندادًا وأنتم تعلمون ))[1] أنه قال: (( الأنداد أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك ، يا فلان وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل: لولا الله وفلان . هذا كله شرك . ))[2]

وقال بعد سرده هذا الأثر: (( وما كان بهذه المنزلة من الخفي وعدم الظهور فلا يطلع على كثير منه إلا من تدبّر الكتاب العزيز كلية التدبّر، وتفكّر في آياته أكمل التفكير، ونظر في السنّة المطهّرة أبلغ النظر، وتتبّع ما ورد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أتمّ التتبّع، وكثيرا ما ترى من له في العلم نصيب ، وفي الفهم حظّ ، يقع في نوع من الأنواع التي جاءنا النصّ النبوي بأنّها من الشرك ،ويستعمله ذاهلا عن كونه كذلك ، بعدالعلم به بوجه من الوجوه ، أو جاهلا له مع علمه بكثير من المعارف العلمية . ))[3]

وهذا النوع من الشرك مما ينافي كمال التوحيد في عبادة الله عزّوجلّ وينا قضه ،وهو وان كان لا يخرج من الملّة فانّ صاحبه على خطر عظيم ، ينقص من أجره شيئ كثير، وقد يحبط منه العمل الذي وقع فيه هذا الشرك . وفي هذا ذكر الشوكاني ـ رحمه الله ـ أحاديث كثيرة .[4]

منها حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: (( جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :لا شيئ له . فأعادها ثلاث مرّات ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيئ له ، ثمّ قال: إنّ الله لا يقبل من العبد إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه . ))[5]

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٢ .

(٢) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٢٨ وانظر أيضا رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّوجلّ ص ٧ ( مخطوط )

(٣) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّوجلّ : الشوكاني ص ٧، ٨ ( مخطوط )

(٤) انظر: قطر الولي على حديث الوليّ ٤٥٧ ـ ٤٥٩، وفتح القدير ٣١٩/٣، والدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد ٢٥، ٢٦ مكتبة الصحابة الاسلامية .

(٥) تقدم تخريجه في صفحة (٣١٢) . وأورده الشوكاني في قطر الولي ٤٥٧ .

أنه قال: (( أنا خير الشركاء، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري ، فأنا بريء منه ، وهو للذي أشرك . ))[1]

وذكر الشوكاني مثالا للشرك الأصغر وهو الرياء وما ورد في التحذير عنه ،وقال في معنى الرياء: اظهار الجميل ليراه الناس ،لا لاتّباع أمر الله.[2]

وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من الرياء ، وسمّاه تارة بشرك خفي وتارة بشرك أصغر، وخاف على الصحابة رضي الله عنهم منه ، وهم أبرّ الأمة أعمالا وأقواها ايمانا .

فعن محمود بن لبيد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا : وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول عزّ وجلّ اذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا الى الذين كنتم تراءون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟. ))[3]

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجّال؟ قالوا : بلى يا رسول الله. قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلّي،فيزين صلاته ،لما يرى من نظر رجل . ))[4]

قال الشوكاني بعد سرده هذه الأحاديث :(( فاذا كان مجرّد الرياء الذي هو فعل الطاعة لله عزّ وجلّ،مع محبّة أن يطّلع عليها غيره ،أو يثني عليه بها ،أو يستحسنها شركا ، فكيف بما هو محض الشرك ؟ . ))[5]

---

(١) أخرجه أحمد بهذا اللفظ في المسند (٣٠١/٢) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٢٨٩/٤ برقم ٢٩٨٥) ولفظه :(( أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه )) والحديث بلفظه أورده الشوكاني في فتح القدير (٣١٩/٣) ،والدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد ٢٥ .

(٢) فتح القدير ، الشوكاني ( ٥٢٩/١ )

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤٢٨/٥) ،والطبراني في الكبير (٢٩٩/٤) ،والبغوي في شرح السنة برقم (٤١٣٥) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٦٩/١) :رواه أحمد باسناد جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٢/١، ٢٢٢/١٠) :رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وأورده الشوكاني في قطر الولي (٤٥٨) وقال: اسناده جيد. وقال الألباني في تعليقه عليه : ورجاله ثقات،لكن اختلفوا في صحبة محمود بن لبيد. ( انظر كتاب الايمان لأبي عبيد القاسم ٨٧ بتحقيقه )

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣٠/٣) وابن ماجه في كتاب الزهد ،باب الرياء والسمعة (١٤٠٦/٢ برقم ٤٢٠٤) والحاكم في المستدرك (٣٢٩/٤) وصحّحه ،ووافقه الذهبي. قال الألباني: واسناده جيد. ( انظر مشكاة المصابيح بتحقيقه ١٤٦٦/٣ برقم ٥٣٣٣)

(٥) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٣٦ .

وقال:(( والأحاديث الواردة في كون الرياء مبطلا للعمل موجبا للاثم كثيرة جداً، واردة في أنواع من الرياء: الرياء في العلم، الرياء في الجهاد، الرياء في الصدقة، والرياء في أعمال الخير على العموم، ومجموعها لا يفي بها إلا مصنف مستقل، والرياء هو أضر المعاصي الباطنة وأشرها مع كونه لا فائدة فيه إلا ذهاب أجر العمل، والعقوبة على وقوعه في الطاعة، فلم يذهب به مجرد العمل، بل لزم صاحبه مع ذهاب عمله الاثم البالغ .))[1]

## المبحث الثاني: ذكر نماذج من الأعمال الشركية وكلام الشوكاني عنها

إن ما ينافي التوحيد أو كماله من الأعمال الشركية كثيرة جداً، منها ما هو جلي، ومنها ما هو خفي يجهله غالب الخاصة فضلا عن العامة .

لهذا تناول الشوكاني - رحمه الله - نماذج من الأعمال الشركية التي يجب على كل مسلم معرفتها ليعلم منها، وليكون على بينة من أمرها حتى لا يقع فيها .:

### ١ - من الأعمال الشركية الاستغاثة بغير الله .

كالاستغاثة بالأموات، والاستعانة بهم، ومناجاتهم عند الحاجة، من نحو: على الله وعليك يا فلان، وأنا بالله وبك، وما يشابه ذلك، وتعظيم قبورهم، واعتقاد أن لهم قدرة على قضاء حوائج المحتاجين وإنجاح طلبات السائلين .[2]

قال الشوكاني:(( وقد ذكر أهل العلم أنه يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله سبحانه وتعالى، وأن كل غوث من عنده، وإذا حصل شيء من ذلك على يد غيره، فالحقيقة له سبحانه ولغيره مجاز[3] ومن أسمائه: المغيث والغياث))[4]

ومن هذا النوع من الشرك الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم والاستشفاع به بعد وفاته، كما جرى على ألسنة كثير من الناس عند نزول النوازل .

---

(١) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٤٥٩ .
(٢) انظر الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٣ مكتبة المحابة الاسلامية .
(٣) والصحيح أن يقال: إذا حصل شيء من الغوث على يد غيره تعالى فيما يقدر عليه من أمور الدنيا فهو له حقيقة لا مجازا، بمعنى أنه يقدر على الغوث فيما يقدر عليه، لا بمعنى أنه يخلقه أو يملكه أو يدبره .
(٤) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٥ مكتبة المحابة الاسلامية .

وقد بيّن الشوكاني ـ رحمه الله ـ أنّ هذا العمل شرك بالله تعالى، لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد صار تحت أطباق الثرى ، وأنّه لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعا ، فكيف يملكه لغيره ، وقد أمره الله سبحانه أن يقول للناس :(( قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا )) (١)

قال الشوكاني في تفسير الآية :

(( أي لا أقدر على جلب نفع لها ، ولا دفع ضرّ عنها ، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري ... وفي هذه أعظم واعظ وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجّيراه (٢) المناداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه ، وكذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه ، فإنّ هذا مقام ربّ العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم ، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء ، أو ملك من الملائكة ، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ، ويترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كلّ شيء ، الخالق، الرازق ، المعطي ، المانع؟. وحسبك بما في هذه الآية موعظة ، فإنّ هذا سيّد ولد آدم وخاتم الرسل، يأمره الله بأن يقول لعباده : (( لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا )) فكيف يملكه لغيره ، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ، ومنزلته لا تبلغ الى منزلته لنفسه فضلا من أن يملكه لغيره ، فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عزّ وجلّ !! كيف لا يتيقّظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبّهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى: لا إله إلا الله . ومدلول: قل هو الله أحد .)) (٣)

٢ ـ النذر لغير الله

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ :(( النذر في اللغة : الإيجاب، وفي الشرع: ما أوجبه المكلّف على نفسه (٤) تعظيما لله تعالى. وهو نوع من أنواع العبادة يجب صرفه

---

(١) سورة يوسف ، آية ٤٩ .
(٢) جاء في تهذيب اللغة للأزهري (٤٣/٦ مادة :هجر) :هِجِّيرَى الرجل:كلامه ودأبه وشأنه .
(٣) فتح القدير ، الشوكاني (٤٥٠/٢) .
(٤) المصدر السابق (٣٤٧/٥) .

لله وحده .

قال تعالى: (( ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ )) (1)

وقال تعالى: (( يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا )) (2)

ولكونه عبادة يجب الوفاء بها إذا نذره لله ، فيكون نذره لغير الله تعالى شركا به في العبادة ، كالنذور الواقعة من عبّاد القبور لأمواتهم تقرّبا إليهم ، ليقضوا لهم حاجاتهم ، وليشفعوا لهم .

وقد ذكر الشوكاني - رحمه الله - هذه النذور ، وبيّن أنها نذر في معصية الله ، وقد صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (( لا نذر في معصية الله ))(3) وهي أيضا من النذر الذي لا يبتغي به وجه الله ، بل كلها من النذور التي يستحق بها فاعلها غضب الله وسخطه ، لأنها تفضي بصاحبها في الغالب إلى ما يفضي به اعتقاد الإلهية في الأموات من تزلزل قدم الدين ، إذ لا يسمح بأحب أمواله وألصقها بقلبه إلا وقد زرع الشيطان في قلبه من محبة ذلك القبر وصاحبه ، والمغالات في الاعتقاد به ما لا يعود فيه إلى الإسلام سالما . نعوذ بالله من الخذلان . ولا شك أن هؤلاء المغرورين المخدوعين لو طلب منهم طالب أن ينذر بذلك الذي نذر به لقبر ميّت على ما هو طاعة من الطاعات وقربة من القربات لم يفعل ولا كاد ... ))(4)

ومما قال - رحمه الله - عن هذه النذور: (( ومن جملة هذه الوصايا الطاغوتية والنذور الشيطانية ، ما يفعله كثير من الناس من النذور والوصايا على قبور الأموات ، فإنه لا مقصد لهم بذلك إلا استجلاب الخير واستدفاع الشر من صاحب القبر ، وهو قد صار بين أطباق الثرى ، يعجز عن نفع نفسه فضلا عن نفع غيره ! فلا يصحّ شيء من ذلك .

---

(1) سورة الحج : آية ٢٩ . (2) سورة الإنسان : آية ٧ .

(3) أخرجه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور ، باب من رأى عليه كفّارة إذا كان في معصية (٥٩٤/٣ ، برقم ٣٢٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها ، ولفظه: (( لا نذر في معصية ، وكفارته كفّارة يمين )) وأخرجه أيضا الترمذي في كتاب النذور والأيمان ، باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نذر في معصية (٨٧/٤ برقم ١٥٢٤ ، ١٥٢٥) ، والنسائي في كتاب الأيمان والنذور ، باب كفّارة النذور (٢٦/٧ ، ٢٧ برقم ٣٨٣٣ - ٣٨٣٩) ، وابن ماجه في كتاب الكفّارات ، باب النذر في المعصية (٦٨٦/١ برقم ٢١٢٤ ، ٢١٢٥) ، وأحمد في المسند (٢٤٧/٦) . وصحّحه الألباني في إرواء الغليل (٢١٤/٨ برقم ٢٥٩٠) ومشكاة المصابيح (١٠٢٣/٢ برقم ٣٤٣٥) .

(4) شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني ١٠ ، ١١ ضمن الرسائل السلفية .

بل يتوجه على أهل الولايات صرفه في مصالح المسلمين، ويعرّفون الناس بقبح ما يصنعونه من ذلك ، وأنه من الأمور التي لا يحل اعتقادها ، وأن الضرّ والنفع واستجلاب الخير واستدفاع الشر بيد الله عزّ وجلّ، ليس لغيره فيه حكم ، ولا له عليه اقتدار ، فان رجعوا من ذلك وتابوا ، وإلا انتقل صاحب الولاية معهم الى ما هو أشد من ذلك، ولا يدعهم حتى يتوبوا .))[1]

وقال ـ رحمه الله ـ في موضع آخر :(( وأمّا النذر على القبور فلكون ذلك ليس من النذر في الطاعة ، ولا من النذر الذي يبتغي به وجه الله تعالى، بل قد يكون من النذر في المعصية ، الناشئة عن اعتقاد باطل في صاحب القبر ،كما يتفق ذلك كثيرا .

وقد أخرج أبو داود بإسناد صالح عن سعيد بن المسيب :(( أنّ أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ،فسأل أحدهما صاحبه القسمة ،فقال: ان عدت تسألني القسمة ، فكل مالي في رتاج الكعبة .[2] فقال عمر : إنّ الكعبة غنيّة عن مالك ، كفّر عن يمينك ، ولا تنذر في معصية الرب ، ولا في قطيعة الرحم ، ولا فيما لا تملك .))[3]

واذا كان هذا في الكعبة ، فغيرها من المشاهد والقبور أولى .))[4]

٣ ـ الذبح لغير الله

ومن أعمال الشرك الذبح لغير الله .

قال تعالى:(( وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ))[5]

قال الشوكاني:(( والمراد هنا : ما ذكر عليه اسم غير الله ، كاللات والعزّى، اذا كان الذابح وثنيّا ، والنار اذا كان الذابح مجوسيّا ... ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من الذبح على قبورهم ،فانه مما أهلّ به لغير الله ، ولا فرق بينه وبين الذبح

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني ٢٠٣ .

(٢) قال الخطابي ـ رحمه الله ـ:قوله :(رتاج الكعبة ) :أصل الرتاج الباب،وليس يراد به الباب نفسه ،وانما المعنى أن يكون ماله هديا الى الكعبة ،أو في كسوة الكعبة والنفقة عليها ،أو نحو ذلك من أمرها ( معالم السنن شرح سنن أبي داود ٥٨١/٣ ،وانظر أيضا ما قاله ابن الأثير في النهاية ١٩٣/٢ مادة : رتج .)

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور باب اليمين في قطيعة الرحم (٥٨١/٣ برقم ٣٢٧٢) ولفظه :( ... فقال له عمر :إنّ الكعبة غنية عن مالك،كفّر عن يمينك،وكلّم أخاك،سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:لايمين عليك،ولانذر في معصية الرب،وفي قطيعة الرحم ، وفيما لاتملك.) صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٢٨٦/٢ برقم ٧٧٩٣) .

(٤) الدراري المضية شرح الدرر البهية : الشوكاني ٣٥٦/٢ مكتبة التراث الاسلامي .

(٥) سورة البقرة : آية ١٧٣ .

للوثن ))[1] أي كلاهما شرك بالله عزّ وجلّ، لأنّ الذبح نوع من أنواع العبادة التي تعبّد الله العباد بها ، فلا يجوز صرفه لغيره .

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(( لعن الله من ذبح لغير الله ))[2]

قال الشوكاني:(( المراد به أن يذبح لغير الله تعالى، كمن ذبح للصنم ،أو الصليب، أو لموسى،أو لعيسى عليهما السلام ، أو الكعبة ،ونحو ذلك . فكلّ هذا حرام ،ولا تحلّ هذه الذبيحة ، سواء كان الذابح مسلماً أو كافراً ، وإليه ذهب الشافعي وأصحابه ، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له كان ذلك كفراً ، فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتداً .))[3]

وقال ـ رحمه الله ـ في موضع آخر عمّا يفعله كثير من الناس من نحر المواشي عند صاحب القبر متقرّباً به إليه راجياً ما يضمر حصوله له منه ، أنّه لا فرق بين نحر النحائر لأحجار منصوبة يسمّونها وثناً ،وبين قبر لميّت يسمّونه قبراً ، ومجرّد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحقّ شيئاً ، ولا يؤثر تحليلاً ولا تحريماً ... ولا شكّ أنّ النحر نوع من أنواع العبادة التي تعبّد الله العباد بها ،كالهدايا ،والفدايا ،والضحايا،فالمتقرّب بها إلى القبر، والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلاّ تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه ،واستدفاع الشرّ به ،وهذه عبادة لا شكّ فيها . وكفاك من شرّ سماعه ،ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم (إنّا لله وإنّا إليه راجعون) والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((لاعقر في الاسلام ))[4] قال عبد الرزّاق[5]:كانوا يعقرون عند القبر ،يعني بقرة أو شياه .رواه أبو داود[6]

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ١٧٠/١ . .

(٢) تقدّم تخريجه في صفحة( ٢٢٧) .

(٣) نيل الأوطار : الشوكاني ٦٨/١٠ .

(٤) قال ابن الأثير:كانوا يعقرون الابل على قبور الموتى:أي ينحرونها،ويقولون:إنّ صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته ،فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته ،وأصل العقر :ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم .(النهاية ٢٧١/٣ مادة :عقر )

(٥) تقدّمت ترجمته في صفحة(٤٣٧) .

(٦) في كتاب الجنائز ،باب كراهية الذبح عند القبر(٥٥١/٣ برقم ٣٢٢٢)ورواه أيضاً أحمد (١٩٧/٣)،وصحّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير(١٢٥٢/٢ برقم ٧٥٣٥)وأحكام الجنائز ٢٠٣

باسناد صحيح عن أنس بن مالك ٠))(١)

٤ ـ الحلف بغير الله

ومن الأعمال الشركية الحلف بغير الله ،كالحلف بالنبي،أو الكعبة ،أو الأمانة ، أو الحياة ،أو بولي من الأولياء ،أو بالشرف،أو بغيرذلك من المخلوقات،كل ذلك من الشرك الذي يدخل في قوله صلى الله عليه وسلم :(( من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك ))(٢) وهو من الشرك الأصغر كما هو من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر .

قال الشوكاني:(( قال العلماء : السرّ في النهي عن الحلف بغير الله أنّ الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه ، والعظمة في الحقيقة إنّما هي لله وحده ، فلا يحلف إلا بالله وذاته وصفاته ، وعلى ذلك اتّفق الفقهاء ٠))(٣)

وذكر ـ رحمه الله ـ أحاديث كثيرة فيها النهي عن الحلف بغير الله٠ منها(٤) :

حديث ابن عمر ( رضي الله عنهما )أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سمع عمر وهو يحلف بأبيه٠ فقال:(( إنّ الله نهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله تعالى أو ليصمت ٠))(٥) وفي لفظ :(( من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله ))(٦)

وحديث أبي هريرة ( رضي الله عنه ) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(( من حلف فقال في حلفه : باللات والعزّى فليقل:لا اله إلا الله ))(٧)

قال الشوكاني:(( وهذه الأحاديث في دواوين الاسلام ، وفيها أنّ الحلف بغير الله يخرج به الحالف عن الاسلام ، وذلك لكون الحلف بشيء مظنّة تعظيمه ،فكيف

---

(١) شرح الصدور في تحريم رفع القبور : الشوكاني ١١ ضمن الرسائل السلفية ٠

(٢) تقدّم تخريجه في صفحة (٣٧٣) ٠ (٣) نيل الأوطار : الشوكاني ١٦٠/١٠ ٠

(٤) انظر ما أورده الشوكاني من هذه الأحاديث في: نيل الأوطار (١٥٨،٢١/١٠ ـ ١٦٠) ، والدراري المضية شرح الدرر البهية (٣٥٢/٢) ،والدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد ١٨ ،ورسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّوجلّ ٨٠٧ ( مخطوط )

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان،باب لا تحلفوا بآبائكم ( الفتح ٥٣٨/١١ برقم ٦٦٤٦) ومسلم في كتاب الأيمان،باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (١٢٦٦/٣ برقم ١٦٤٦)٠

(٦) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب مناقب الأنصار،باب أيام الجاهلية ( الفتح ١٨٣/٧ برقم ٣٨٣٦)،ومسلم في كتاب الأيمان،باب النهي عن الحلف بغير الله ( ١٢٦٦/٣ برقم ١٦٤٦)

(٧) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور،باب لا يحلف باللات والعزّى ولا بالطواغيت ( الفتح ٥٤٥/١١ برقم ٦٦٥٠)،ومسلم في كتاب الأيمان،باب من حلف باللات والعزّى فليقل: لا اله إلا الله٠( ١٢٦٧/٣ برقم ١٦٤٧ )

بما كان شركا محضا يتضمّن التسوية بين الخالق والمخلوق في طلب النفع أو استدفاع الضرّ، وقد يتضمّن تعظيم المخلوق زيادة على تعظيم الخالق، كما يفعله كثير من المخذولين، فإنّهم يعتقدون أنّ لأهل القبور من جلب النفع ودفع الضرّ ما ليس لله. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .))(١)

وقال - رحمه الله - في موضع آخر، وقد سئل عن الحلف بغير الله، كالحلف بالسلطان، والأولياء، والقرآن، من دون قصد تعظيم المحلوف به، بل لأجل الاعتياد بذلك في المحاورة :

(( هذا لا يحلّ لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وقد ورد النهي عنه في الأحاديث الصحيحة، وورد أيضا في الأحاديث ما يفيد أنّ فاعل ذلك يكفر إذا كان حلفه باللات والعزّى ونحو ذلك من الطواغيت، وورد أنّ من فعل ذلك لم يرجع إلى الإسلام سالما، وهذه أحاديث صحيحة ثابتة في دواوين الإسلام، فإنّ سبق لسان الحالف إلى شيء من ذلك لأجل تمرّنه عليه، فعليه أن يتدارك نفسه بالاستغفار، ويعوّد لسانه ونفسه الخير ما استطاع، ولا يقع فيما نهى عنه الشارع وتوعّد عليه، فإنّ النفس قابلة للتعليم إذا عوّدت خيرا ما قد اعتادته عادت إلى الموافقة ولو بعد حين .))(٢)

ويلاحظ على إجابة الشوكاني هذه أمران :-

١ - إنّه جعل الحلف بالقرآن كالحلف بمخلوق من مخلوقات الله، كما يتّضح من صيغة السؤال، وهذا رأي باطل قال به المعتزلة وأتباعهم، والصحيح أنّ القرآن كلام الله تكلّم الله به حقيقة بلفظه ومعناه، وهو سبحانه موصوف بالكلام، فعلى هذا يكون الحلف بالقرآن حلفا بصفة من صفات الله سبحانه، وصفات الله سبحانه غير مخلوقة، فالقرآن غير مخلوق، والحلف به جائز لأنّه حلف بكلام الله، وينعقد به اليمين، وهذا ما أجمع عليه السلف أهل السنة، وقد احتجّوا فيما احتجّوا به بقول النبي صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ١٨ مكتبة الصحابة الإسلامية.
(٢) إرشاد السائل إلى دلائل المسائل : الشوكاني ٤٦، ٤٧ ضمن الرسائل السلفية.

(( أعوذ بكلمات الله التامّات ))[1] قالوا : فقد استعاذ بها ، ولا يستعاذ بمخلوق .[2]

هذا وقد تقدّم أنّ الشوكاني ذهب مذهب الواقفية في القول بخلق القرآن .[3]

٢ ـ يظهر من كلام الشوكاني أنّه مخالف لمذهب الجمهور الذي يقول : إنّ من حلف بغير الله لا يكفر كفرا ينقله من الملة ، لكنّه من الشرك الأصغر ، كما نصّ على ذلك ابن عباس رضي الله عنهما .[4] وأمّا كونه صلى الله عليه وسلم أمر من حلف باللات والعزّى أن يقول : لا إله إلا الله ، فلأنّ هذا كفّارة له كما قال في نصّ الحديث : ( ومن حلف فقال في حلفه باللات والعزّى فليقل لا إله إلا الله ) . فهذا كفّارة له في كونه تعاطى صورة تعظيم الصنم ، حيث حلف به ، لا أنّه لتجديد إسلامه ، ولو قدّر ذلك فهو تجديد لإسلامه لنقصه بذلك ، لا لكفره .[5]

والصواب في هذه المسألة أنّه إذا كان الحالف بغير الله لا يعتقد أنّ عظمة المحلوف به كعظمة الله لم يكن الشرك شركا أكبر يخرج صاحبه عن الملّة ، بل كان شركا أصغر .[6] أمّا إذا اعتقد أنّ عظمة المحلوف به كعظمة الله أو أعظم منها فهذا شرك أكبر بلا ريب . ولعلّ هذا هو مراد الشوكاني في تكفيره من حلف بغير الله ، بدليل كلامه السابق . والله أعلم .

## ٥ ـ السحر وأنواعه

ومن الأعمال الشركية الخطيرة التي تناقض التوحيد : السحر ، ومعناه ـ كما قال الشوكاني ـ : ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنّه ماء ، وما يظنّه راكب السفينة أو الدابّة من أنّ الجبال تسير ، وهو مشتقّ من سحرت الصبي أي إذا خدعته ، وقيل غير ذلك .[7]

---

(١) تقدّم تخريجه في (ص ٣١٩) .

(٢) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٣٣٦/١) ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي (١٩١)

(٣) انظر : صفة الكلام ، ورأي الشوكاني في القول بأنّ القرآن غير مخلوق . صفحة (٣١٥ـ٣٢١) .

(٤) تقدّم في صفحة (٣٧٤)

(٥) انظر تيسير العزيز الحميد : سليمان بن عبد الله ٥٩٣

(٦) انظر فتح الباري : ابن حجر (٥٤٠/١١)

(٧) انظر فتح القدير : الشوكاني (١١٩/١)

وأحسن ما قيل في معنى السحر هو: المخادعة والتأثير في عالم العناصر بمقتضى القدرة المحدودة، بمعين من الجن، أو بأدوية، أو أسرار مستمدة ذات لدى الساحر.(١) لما في هذا المعنى من الشمول لما كان من السحر عن طريق التخييل والمخادعة، وما كان منه حقيقة يؤثر بمعين من الشياطين أو غيرها.

ويدخل السحر في الشرك من جهتين: من جهة ما فيه من استخدام الشياطين، ومن التعلق بهم، والتقرب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه، ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب، ودعوى مشاركة الله في علمه، وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وهذا من شعب الشرك.(٢)

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ :

(( وقد اختلف هل له حقيقة أو لا ؟ فذهب المعتزلة وأبو حنيفة(٣) إلى أنه خداع لا أصل له ولا حقيقة، وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم سحر، سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، حتى كان يخيل إليه أنه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه، ثم شفاه الله سبحانه.(٤) ))

(ص ١٧)

---

(١) انظر كتاب السحر بين الحقيقة والخيال: د/ أحمد بن ناصر، ط/١٤٠٨هـ مكتبة التراث بمكة.

(٢) انظر القول السديد في مقاصد التوحيد، عبد الرحمن بن سعدي (٩٣-٩٥) مؤسسة مكة للطباعة.

(٣) أما المعتزلة فمعلوم أنهم أنكروا حقيقة السحر وتأثيره (انظر مثلا: الكشاف للزمخشري: ١٧٣/١) وأما أبو حنيفة فلم أهتد إلى كلامه في الموضوع، والذي أقف عليه ما ذكره الملا علي القاري أحد أعلام الحنفية في شرحه لكتاب الفقه الأكبر (ص ٢٢٠) حيث قال: إن السحر والعين حق عندنا خلافا للمعتزلة ١٠هـ ومن المنكرين حقيقة السحر كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٣٣/١٠) أبو جعفر الاستراباذي من الشافعية، وأبو بكر الرازي من الحنفية وابن حزم الظاهري، وطائفة.

(٤) فتح القدير: الشوكاني (١١٩/١) والحديث أخرجه البخاري من حديث طويل في كتاب الطب، باب السحر (الفتح ٢٣٢/١٠ برقم ٥٧٦٣، ٥٧٦٦) ومسلم في كتاب السلام، باب السحر (١٧١٩/٤ برقم ٢١٨٩) ولفظ الحديث كما رواه البخاري: (( عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَحَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ من بني زُرَيق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم ـ أو ذات ليلة ـ وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: يا عائشة، أشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعُ الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: من طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في أيّ شيء؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطة، وجُفِّ طَلْع نخلةٍ ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذَرْوان. فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة، كأنّ ماءها نُقاعة الحناء، وكأنّ رؤوس نخلها رؤوس الشياطين. قلت: يا رسول الله أفلا استخرجتَه؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرًّا. فأمر بها فدُفنت. )) وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء. وقد أنكره كثير من أهل الكلام وغيرهم وقابلوه بالتكذيب، وقولهم مردود ===

وذهب الشوكاني ـ رحمه الله ـ مذهب أهل السنة في أنّ السحر له حقيقة وله تأثير بإذن الله. واستدلّ بقوله تعالى: (( ... فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ))[1] إذ قال في تفسيره للآية:

(( في إسناد التفريق إلى السحرة، وجعل السحر سببا لذلك دليل على أنّ للسحر تأثيرا في القلوب بالحبّ والبغض، والجمع والفرقة، والقرب والبعد، ولا تنافي بين قوله: (( فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ )) وبين قوله: (( وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ )) فإنّ المستفاد من جميع ذلك أنّ للسحر تأثيرا في نفسه، ولكنّه لا يؤثّر ضررا إلا فيمن أذن الله بتأثيره فيه، وقد أجمع أهل العلم على أنّ له تأثيرا في نفسه، وحقيقة ثابتة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة وأبو حنيفة. ))[2]

واستدلّ ـ رحمه الله ـ أيضا بحديث عائشة المتقدم ذكره، لأنّه مصرّح بإثبات السحر، وأنّه أشياء دفنت وأخرجت، وهذا كلّه يبطل ما قاله المنكرون، فإحالة كونه من الحقائق محال، ولا يستنكر في العقل أنّ الله سبحانه يخرق العادة عند النطق بكلام، أو تركيب أجسام، أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر، وإذا شاهد الإنسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم، ومنها مسقمة كالأدوية الحادّة، ومنها مضرّة كالأدوية المضادّة للمرض، لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوى قتّالة، أو كلام مهلك، أو مسؤدّ إلى التفرقة.[3]

أمّا ما زعمه المنكرون للحديث[4] من أنّ سحر النبي صلى الله عليه وسلم يحطّ منصب النبوّة، ويشكّك فيها، وأنّ تجويزه يمنع الثقة بالشرع، فهو زعم باطل، لأنّ الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وعصمته فيما يتعلّق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل.[5]

---

=== أهل العلم (انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٨٦٥/٢ ـ ٨٦٧) تحقيق: علي محمد البجاوي، وزاد المعاد لابن القيم (١٢٤/٤)، وبدائع الفوائد له (٢٤٩/٢ـ٢٥٢) ط/ القاهرة، وشرح النووي لمسلم (١٧٤/١٤ـ١٧٥).

(١) سورة البقرة: آية ١٠٢ . (٢) فتح القدير: الشوكاني (١٢١/١)

(٣) انظر نيل الأوطار: الشوكاني (٤٣/٩) نقلا عن المازري .

(٤) من المنكرين من أهل السنة: أبو بكر الجصّاص في تفسيره: أحكام القرآن (٦٠/١) تحقيق: محمد صادق قمحاوي، ط/ ١٤٠٥هـ دار إحياء التراث. ومن المعاصرين سيد قطب في تفسيره: في ظلال القرآن (٤٠٠٨/٦) دار الشروق .

(٥) انظر نيل الأوطار: الشوكاني (٤٣/٩) .

ولأنّ السحر الذي أصابه صلى الله عليه وسلم كان مرضاً من الأمراض، عارضاً – أصابه في بدنه – شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما، فإنّ المرض يجوز على الأنبياء.[1] لأنّهم بشر، وجانب البشرية فيه عرضة للسقم والمرض والمحن والشدائد، كما لا يخفى.

ونقل الشوكاني عن القاضي عياض[2] قال ردّاً على هذا الزعم:

(( وقد جاءت روايات هذا الحديث مبيّنة أنّ السحر إنّما تسلّط على جسده ( صلى الله عليه وسلم ) وظواهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده،... وكلّ ما جاء في الروايات من أنّه يخيّل إليه أنّه فعل شيئاً ولم يفعله ونحوه، فمحمول على التخيّل بالبصر، لا بخلل تطرّق إلى العقل، وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة، ولا طعناً لأهل الضلالة. والله أعلم. اهـ ))[3]

وذكر الشوكاني – رحمه الله تعالى – أنواعاً كثيرة من أعمال السحر التي هي شرك بالله. منها:

أ – الكهانة والتنجيم وما في معناهما

قال ابن الأثير: (( الكاهن: الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدّعي معرفة الأسرار، وقد كان في العرب كهنة، فمنهم من كان يزعم أنّ له تابعاً من الجنّ ورئيّاً يلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنّه يعرف الأمور بمقدّمات أسباب يستدلّ بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا يخصّونه باسم العرّاف، كالذي يدّعي معرفة الشيء المسروق، ومكان الضالّة، ونحوهما. ))[4]

ونقل الشوكاني عن القاضي عياض قال: (( كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب: أحدها يكون للإنسان وليّ من الجنّ يخبره بما يسترقه من السماء، وهذا القسم بطل من حين بعث الله تعالى نبيّنا صلى الله عليه وسلم.[5] الثاني: أن يخبره بما يطرأ أو يكون

(١) انظر بدائع الفوائد لابن القيم (٢/٢٥٠) (٢) سبقت ترجمته في صفحة (١٦٨).

(٣) انظر نيل الأوطار، الشوكاني (٦/٤٣) وقارن: الشفا للقاضي عياض (٢/٨٦٦) تحقيق: علي محمد البجاوي

(٤) النهاية، ابن الأثير (٤/٢١٤، ٢١٥ مادة: كهن).

(٥) أشار إلى ذلك قوله تعالى: (( وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ )) ( سورة الحجر: آية ١٧، ١٨ )، وقوله: (( وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ )) ( سورة الصافات: آية ٨ – ١٠ ) أي يرمى الشياطين من كلّ جانب من جوانب السماء بالشهب إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع

=== ===

في أقطار الأرض ، وما خفي عنه مما قرب أو بعد ، وهذا لا يبعد وجوده ، ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين وأحالوهما ، ولا استحالة في ذلك ولا بعد في وجوده ، لكنّهم يصدقون ويكذبون ، والنهي عن تصديقهم والسماع منهم عامّ ٠ والثالث: المنجّمون. ( وسيأتي الحديث عنهم ) وهذه الأضرب كلّها تسمّى كهانة ٠))[1]

وقد ألحقت الكهانة والعرّافة بالسحر لكونهما مشابهين له من حيث اشتمالهما على الاخبار بما يخفى على الآخرين، مع دعوى علم الغيب، أو سلوك الطرق المحرّمة في الحصول على ذلك ٠

وقد ورد في النهي عن اتيان الكهّان وتصديقهم أحاديث كثيرة ، أوردها الشوكاني – رحمه الله – في مؤلفاته[2]، منها :-

حديث أبي هريرة ( رضي الله عنه ) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(( من أتى كاهنا أو عرّافا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ٠))[3]

وحديث عمران بن حصين ( رضي الله عنه ) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(( ليس منا من تَطيّر ، أو تُطيّر له ، أو تَكهّن ، أو تُكهّن له ، أو سَحر ، أو سُحر له ، ومن عقد عقدة ، ومن أتى كاهنا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله

---

== وكذلك قوله – حكاية عن الجنّ –: (( وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ))( سورة الجنّ :آية ٨، ٩) قال الشوكاني في تفسير الآية :(( أي وانّا كنّا معشر الجنّ قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع لاستماع الأخبار من السماء ٠٠٠ وذلك أنّ مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء ،فيلقونها الى الكهنة ،فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله صلى الله عليه وسلم بالشهب المحرقة ،وهو معنى قوله :( فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ) أي أرصد له ليرمى به ٠( فتح القدير ٣٠٥/٥)

(١) نيل الأوطار : الشوكاني (٤٥/٩)

(٢) انظر فتح القدير (١٢٣/١، ١٢٤) ،ونيل الأوطار (٤٥/٩، ٤٦) ،والدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد ( ٢٣، ٢٤ ) ٠

(٣) أخرجه أحمد في المسند ( ٤٢٩/٢ ) ،والحاكم في المستدرك ( ٨/١ ) ، وقال: صحيح على شرط الشيخين ٠ ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى ( ١٣٥/٨، ١٨٣ )٠ وصحّحه صاحب تيسير العزيز الحميد ( ص ٤٠٩ ) ٠

عليه وسلم .)) (١)

قال الشوكاني: (( والعلّة الموجبة للحكم بالكفر ليست إلا اعتقاد أنّه مشارك الله تعالى في علم الغيب ، مع أنّه في الغالب يقع غير مصحوب بهذا الاعتقاد ، ولكنّ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .)) (٢)

وظاهر الحديث أنّه الكفر الحقيقي ، وقيل هو الكفر المجازي ، وقيل فيه تفصيل ، فمن اعتقد أنّ الكاهن أو العرّاف يعرف الغيب ، ويطّلع على الأسرار الالهية كان كافراً حقيقياً ، كمن اعتقد تأثير الكواكب ، وإلا فلا .(٣) ولعلّ هذا التفصيل هو الراجح ، لأنّه الموافق لمنطوق الحديث ومفهومه ، وهو تكفير من أتاه ، واعتقد صدقه ، وأنّه يعلم الغيب ، دون من أتاه ولم يعتقد ذلك ، أو شكّ في خبره ، فلا يحكم عليه بالكفر ، بل إنّه ارتكب أكبر الكبائر ، ورتّب عليه وعيد شديد ، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً )) (٤) فهذا حكم من سأله مطلقاً ، والأوّل حكم من سأله وصدّقه بما قال .

أمّا التنجيم فهو ضرب من الكهانة ، وهذا الضرب يخلق الله فيه لبعض الناس قوّة ما ، لكنّ الكذب فيه أغلب .(٥)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (( صناعة التنجيم التي مضمونها الأحكام والتأثير ، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية ، والتمزيج بين القوى الفلكية والقوابل الأرضية ، صناعة محرّمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، بل هي محرّمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل .)) (٦)

---

(١) أخرجه البزار ، كما في ( كشف الأستار ٣/٣٩٩،٤٠٠ برقم ٣٠٤٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١١٧) : ورجاله رجال الصحيح ، خلا اسحق بن الربيع وهو ثقة . قال المنذري في الترغيب (٤/٣٣) : رواه البزار باسناد جيد ، ورواه الطبراني من حديث ابن عباس دون قوله : ومن أتى .الخ. باسناد حسن . ورواه من حديث عمران بن حصين ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١٠٣) : وفيه اسحق بن الربيع العطار ، وثّقه أبو حاتم ، وضعّفه عمرو بن علي ، وبقية رجاله ثقات . والحديث صحّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/١٥٦ برقم ٥٤٣٥)

(٢) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٢٤ مكتبة الصحابة الاسلامية .

(٣) انظر نيل الأوطار : الشوكاني ( ٩/٤٦ )

(٤) أخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب تحريم الكهانة واتيان الكهّان (٤/١٧٥١ برقم ٢٢٣٠)

(٥) انظر نيل الأوطار : الشوكاني (٩/٤٥) نقلا عن القاضي عياض .

(٦) مجموع فتاوى : ابن تيمية (٣٥/١٩٢) .

فعلم التنجيم المحرّم هو ما يزعم أهله من أنّهم يعرفون ما يكون في المستقبل من أمور عامّة وأحداث لم تقع أنّها ستقع في زمن معيّن ، وخاصّة عن طريق النجوم والنظر فيها ، كإخبارهم عن أوقات مجيئ المطر ، وهبوب الرياح ، وتغيّر الأسعار ، وما كان يماثلها من الأمور ، حيث إنّهم يدّعون أنّ للكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها تأثيرا في الأمور السفلية ، والتنجيم بهذا يكون من ادّعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، كما دلّت على ذلك النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة .

قال تعالى : (( إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ))[1] وقال سبحانه : (( عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ))[2]. قال الشوكاني : (( وليس المنجّم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى ، وينظر في الكفّ ، ويزجر بالطير ، ممن ارتضاه من رسول ، فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، فهو كافر بالله ، مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه . ))[3]

وقال ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى : (( وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ))[4] :

(( انّه لا علم لأحد من خلقه بشيئ من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها ، وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهّان ، والمنجّمين ، والرمليين ، وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، ولا يحيط به علمهم ، ولقد ابتلي الاسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالّة ، والأنواع المخذولة ، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بخير خطّة السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : (( من أتى كاهنا أو منجّما فقد كفر بما أنزل على محمد . ))[5] صلى الله عليه وسلم .

وقد أورد الشوكاني ـ رحمه الله ـ أحاديث كثيرة فيها النهي والتحذير عن التنجيم .[6]

منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

---

(١) سورة فاطر : آية ٣٨ . (٢) سورة الجنّ : آية ٢٦، ٢٧ .

(٣) فتح القدير : الشوكاني (٥/٣١١) (٤) سورة الأنعام : آية ٥٩ .

(٥) فتح القدير : الشوكاني (٢/١٢٣) والحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وجميع المرويات التي وقفت عليها في هذا الموضوع ليس فيها كلمة (منجّما ) ، بل هي إنّما بلفظ (كاهنا ) أو (عرّافا ) ، أو (ساحرا ) . ( انظر مثلا : الترغيب والترهيب للمنذري ٤/٣٣ـ٣٦) ، ومجمع الزوائد للهيثمي ٥/١١٧، ١١٨ )

(٦) انظر : نيل الأوطار (٩/٤٧) ، وفتح القدير (٢/١٤٦) ، والدر النضيد (ص ٢٣)

النظر في النجوم .(١)

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (( من اقتبس علماً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد ))(٢)

قال الشوكاني في شرح الحديث: (( أي فكما أنّ تعلّم السحر والعمل به حرام ، فكذا تعلّم علم النجوم والكلام فيه حرام . ونقل عن الخطّابي قال : والمنهي عنه ما يدّعيه أهل التنجيم من علم الحوادث والكوائن التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان، ويزعمون أنّهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها ، واجتماعها وافتراقها، وهذا تعاطٍ لعلم استأثر الله به ،لا يعلم الغيب أحد سواه ، فأمّا علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحسّ،كالذي يعرف به الزوال ،وجهة القبلة ،وكم مضى وكم بقي ، فغير داخل فيما نهي عنه . ))(٣)

قال - رحمه الله -: (( فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكّر والاعتبار ، وما ورد في جواز النظر في النجوم فهو مقيّد بالاهتداء والتفكّر والاعتبار ، كما يدلّ عليه حديث ابن عمر ( رضي الله عنهما ) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( تعلّموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البرّ والبحر ،ثمّ انتهوا ))(٤)

قلت : وقد دلّ على ذلك قوله تعالى: (( وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الايمان(٣٠٦/٤ برقم ٥١٩٨) تحقيق:محمد السعيد زغلول،والخطيب البغدادي في تاريخه (١٣٤/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٧/١، ٣١١) ،وأبو داود في كتاب الطبّ،باب في النجوم (٢٢٦/٤برقم ٣٩٠٥) ،وابن ماجة في كتاب الأدب،باب تعلّم النجوم (١٢٢٨/٢ برقم ٣٧٢٦) وصحّحه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد ( انظر تيسير العزيز الحميد ص ٤٠٠) قال الشوكاني: حديث ابن عباس سكت عنه أبو داود والمنذري،ورجال اسناده ثقات ( نيل الأوطار ٤٧/٦ ،وانظر أيضاً الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد ٢٣) وقال الألباني: اسناده جيد ورجاله كلّهم ثقات ( سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٣٥/٢ برقم ٧٩٣) .
قال الشوكاني،ومعنى ( زاد ما زاد )أي زاد من علم النجوم كمثل ما زاد من السحر،والمراد أنّه اذا ازداد من علم النجوم فكأنّه ازداد من علم السحر،وقد علم أنّ أصل علم السحر حرام ، والازدياد منه أشدّ تحريماً،فكذا الازدياد من علم التنجيم ( نيل الأوطار ٤٧/٩) .

(٣) نيل الأوطار : الشوكاني (٤٧/٩) وانظر معالم السنن شرح سنن أبي داود (٢٢٦/٤، ٢٢٧)

(٤) انظر فتح القدير : الشوكاني(١٤٦/٢ )وقال في الحديث:أخرجه ابن مردويه والخطيب ( أي في كتاب النجوم )من ابن عمر.اهـ قلت : وأخرجه الديلمي في كتاب الفردوس (٤٣/٢ برقم ٢٢٤٨ )تحقيق:محمد السعيد زغلول،والبيهقي في شعب الايمان(٢٦٩/٢برقم ١٧٢٣) من حديث أبي هريرة. قال المناوي في فيض القدير(٢٥٦/٣) :قال عبد الحق:وليس اسناده مما يحتجّ به. وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير(٣٥/٣ برقم ٢٤٥٥) .

ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ))[1] وقوله :(( وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ))[2] قال الشوكاني في تفسيرالآية :(( وهذا احدى منافع النجوم التي خلقها الله لها ،ومنها ماذكره اللهفي قوله :(( وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ))[3] (( وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ))[4] ومنها جعلها زينة للسماء[5] ومن زعم غيرهذا لقوا عدفقدأعظم على الله الفرية ))[6]

ويلحق بالتنجيم المنهي عنه الاستسقاء بالنجوم ، وهو ـ كما قال الشوكاني ـ: قول القائل: مُطِرْنَا بنوء كذا ، أوسئوال المطرمن الأنواء ، فان كان ذلك على جهة اعتقاد أنها المؤثرة في نزول المطرفهوكفر .

وقدثبت في الصحيح من حديث زيدبن خالد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( يقول الله سبحانه : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافربالكواكب ، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا[7] وكذا ، فذلك كافربي ومؤمن بالكواكب ))[8]

قال الشوكاني في بيان معنى الحديث :

(( ولا يخفى على عارف أن العلة في الحكم بالكفر هي ما في ذلك من ايهام المشاركة ، وأين ذلك ممن يصرح في دعائه عندما يمسه الضربقوله : يا الله ويا فلان، وعلى الله وعلى فلان ؟ فان هذا يعبدربين، ويدعوا ثنين، وأما من قال: مطرنا بنوء

---

(١) سورةالأنعام : آية ٩٧ . (٢) سورةالنحل : آية ١٦ .

(٣) سورةالصافات : آية ٧ . (٤) سورةالملك : آية ٥ .

(٥) كما في قوله تعالى:(( إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ )) ( سورةالصافات:آية ٦)

(٦) فتح القدير : الشوكاني(١٢٣/٢) .

(٧) قال ابن الأثير: " والأنواء هي ثمان وعشرون منزلةً ،ينزل القمر كل ليلة في منزلة منها،ومنه قوله تعالى:(( وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ))( سورةيس:آية ٣٩) ويسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت في الشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة ، وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه اليها ،فيقولون: مُطرنا بنوء كذا ،وانما سمّي نوءًا لأنه اذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق،ينوء نوءًا : أي نهض وطلع. ( النهاية ١٢٢/٥ مادة : نوأ )

(٨) نيل الأوطار : الشوكاني (١٠٤/٥)،والدرالنضيدله ( ٢٥ ) والحديث أخرجه البخاري في كتاب الأذان،باب يستقبل الامام الناس اذا سلّم ( الفتح ٣٨٨/٢ برقم ٨٤٦)وأخرجه أيضا برقم ( ١٠٣٨،٤١٤٧،٧٥٠٣ )،ومسلم في كتاب الايمان، باب بيان كفرمن قال مُطرنا بالنوء ( ٨٣/١ برقم ٧١ )

كذا فهو لم يقل: أمطره ذلك النوء، بل قال: أمطره به، وبين الأمرين فرق ظاهر.))[1]

فالأوّل كفر صريح وشرك أكبر، والثاني كفر دون كفر، اذا اعتقد القائل أنّ الله هو المنزل للمطر، وهو من باب الشرك الخفي في الألفاظ، كقوله: لولا فلان لم يكن كذا.[2] ونحو ذلك. والله أعلم.

ب - التطيّر

ومن أنواع السحر التطيّر.

قال الشوكاني - رحمه الله -: (( وأمّا التطيّر فهو الطيرة بكسر الطاء المهملة وفتح المثناة التحتية، وقد تسكن، وهي التشاؤم بالشيئ، وكان ذلك يصدّهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه.))[3]

وقال في موضع آخر: (( والتطيّر: التشاؤم، وأصله الشيئ المكروه من قول أو فعل أو مرئي، وكانوا يتطيّرون بالسوانح والبوارح[4]، فينفرون الظباء والطيور، فان أخذت ذات اليمين تبرّكوا به، ومضوا في سفرهم وحوائجهم، وان أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم وتشاءموا، فكانت تصدّهم في كثير من الأوقات عن مصالحهم، فنفى الشرع ذلك وأبطله ونهى عنه، وأخبر أنّه ليس له تأثير بنفع ولا يضرّ.))[5]

ومن هذا النوع تطيّر آل فرعون بموسى عليه السلام، كما حكى الله سبحانه في كتابه العزيز وردّ عليهم بقوله: (( فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ))[6]

قال الشوكاني: (( أي سبب خيرهم وشرّهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط هو من عند الله ليس بسبب موسى ومن معه، وكان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه، ولهذا عبّر بالطائر عن الخير والشرّ الذي يجري بقدر الله وحكمته

---

(١) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٢٥ مكتبة الصحابة الاسلامية.

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله (٤٥٨ - ٤٦١).

(٣) نيل الأوطار: الشوكاني (١٣٣/١٠).

(٤) جاء في تهذيب اللغة للأزهري (مادة: سنح وبرح): السانح: ما أتاك عن يمينك من طائر أو ظبي أو غير ذلك، يتيمّن به، تقول: سنح لنا سنوحًا، والبارح: من الظباء والطير خلاف السانح.

(٥) نيل الأوطار: الشوكاني (٤٨/٩) وانظر أيضا فتح القدير له (٢٣٧/٢)

(٦) سورة الأعراف: آية ١٣١.

ومشيئته.))[١]

وقد جاء النهي عن التطيّر في أحاديث كثيرة، أوردها الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتبه.[٢]

منها ما أخرجه أحمد بسنده عن قطن بن قبيصة عن أبيه[٣] أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( إنّ العيافة، والطرق، والطيرة، من الجبت ))[٤]

ومعنى العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرّها، وهو من عادة العرب كثيرا، وهو كثير في أشعارهم.[٥] ومعنى الطرق: أي الضرب بالحصى الذي يفعله النساء، وقيل: الخط في الرمل.[٦]

قال الشوكاني:[٧] (( وهذه الأمور إنما كانت من الجبت ( أي من أعمال السحر) والشرك، لأنها مظنّة للتعظيم الجالب للاعتقاد الفاسد.))[٨] بأنها تجلب له النفع، أو تدفع عنه الضرّ. وهو مناقض للتوحيد في عبادة الله عزّ وجلّ.

ومنها حديث أنس رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح، والفأل الصالح: الكلمة الحسنة ))[٩]

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢٣٧/٢)

(٢) انظر: نيل الأوطار (٤٨/٩ ـ ٥١)، والدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد (٢٣)، ورسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ (٨،٧) ( مخطوط )

(٣) قال الحافظ ابن حجر: قطن بن قبيصة بن المخارق الهلالي، أبو سهلة البصري، صدوق، من الثالثة، أخرج له أبو داود والنسائي. وأبوه قبيصة بن المخارق بن عبد الله الهلالي، صحابي، سكن البصرة، أخرج له مسلم وأبو داود والنسائي (انظر التقريب برقم ٥٥١٥،٥٥٥٤).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٦٠/٥) وفيه: قال عوف: (العيافة زجر الطير، والطرق: الخط في الأرض، والجبت: قال الحسن: إنه الشيطان، وانظر أيضا (٤٧٧/٣)، وأبو داود في كتاب الطبّ، باب في الخط وزجر الطير (٢٢٨/٤، ٢٢٩ برقم ٣٩٠٧) قال النووي: إسناده حسن (رياض الصالحين ٤٩٣ برقم ١٦٧٠ ط/دار الكتب) وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: إسناده جيد (انظر تيسير العزيز الحميد ٣٩٨) وكذلك قال الشوكاني في الدر النضيد ٢٣.

(٥) انظر النهاية لابن الأثير (٣٣٠/٣ مادة: عيف) (٦) انظر المصدر السابق (١٢١/٣ مادة: طرق)

(٧) تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله ٤٠٠

(٨) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٢٣ مكتبة الصحابة الاسلامية.

(٩) أخرجه البخاري في كتاب الطبّ، باب الفأل ( الفتح ٢٢٥/١٠ برقم ٥٧٥٦) وأخرجه أيضا برقم (٥٧٧٦)، ومسلم في كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم. (١٧٤٦/٤ برقم ٢٢٢٤).

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( الطيرة شرك، ( ثلاثا ) وما منّا إلا، ولكنّ الله يُذهبه بالتوكل ))[1]

هذا الحديث صريح في تحريم الطيرة وأنّها من الشرك ، لما فيها من تعلّق القلب على غير الله ٠

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: (( وإنّما جعل الطيرة من الشرك، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ التطيّر يجلب لهم نفعا أو يدفع عنهم ضررا إذا عملوا بموجبه ، فكأنّهم أشركوه مع الله تعالى٠ ومعنى ( أذهبه بالتوكل)، أنّ ابن آدم إذا تطيّر، وعرض له خاطر من التطيّر أذهبه الله بالتوكيل والتفويض إليه ، وعدم العمل بما خطر من ذلك، فمن توكل سلم ، ولم يؤاخذه الله بما عرض له من التطيّر ٠ ))[2]

وقد ورد في بعض الأحاديث ما يظنّ بعض الناس أنّه يدلّ على التطيّر٠ منها :

حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (( لا عدوى ولا طيرة ، والشؤم في ثلاث : في المرأة ،والدار ،والدابّة ))[3] وفي رواية عند مسلم :(( إن كان الشؤم في شيئ ففي الفرس والمسكن والمرأة ))[4]

وقد ورد هذا الحديث عن عدد من الصحابة ، وبألفاظ مختلفة ، فقد رواه عبد الله ابن عمر ،وأبو هريرة ،وسهل بن سعد ،وجابر ،وغيرهم ٠

وقد تكلّم العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ على هذا الحديث ، وأجابوا عنه بعدّة أجوبة٠[5]

وذكر الشوكاني بعض أقوالهم قال:

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٨٩/١، ٤٣٨، ٤٤٠) ،وأبو داود في كتاب الطبّ،باب في الطيرة (٤/ ٢٣٠ برقم ٣٩١٠) ،والترمذي في كتاب السير،باب ما جاء في الطيرة (١٣٧/٤، ١٣٨ برقم ١٦١٤ )وقال: هذا حديث حسن صحيح٠٠٠ سمعت محمد بن اسماعيل يقول:كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث:(وما منا،ولكن الله يذهبه بالتوكل) قال سليمان:هذا عندي قول عبد الله بن مسعود وما مناه وأخرجه أيضا ابن ماجه في كتاب الطبّ،باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (١١٧٠/٢ برقم ٣٥٣٨) ،والحاكم في المستدرك(١٧/١ )وقال :صحيح سنده ،ثقات رواته ،ووافقه الذهبي٠ وصحّحه الألباني في غاية المرام (١٨٦ برقم ٣٠٣ ) وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧١٦/١ برقم ٤٢٩) وقال:فالحديث صحيح بكامله ٠

(٢) نيل الأوطار ، الشوكاني (٤٨/٩)

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطبّ،باب الطيرة ( الفتح ٢٢٣/١٠ برقم ٥٧٥٣) ،ومسلم في كتاب السلام ،باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (١٧٤٧/٤ برقم ٢٢٢٥)

(٤) انظر صحيح مسلم ،كتاب السلام ،باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (١٧٤٨/٤ برقم ٢٢٢٥ مكرر)

(٥) انظر حكاية أقوالهم في مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢٥٣/٢ ـ ٢٥٧) نشر/رئاسة إدارة

(( قال النووي [١] : اختلف العلماء في حديث: ( الشؤم في ثلاث)٠ فقال مالك ـ رحمه الله ـ : هو على ظاهره ، وان الدار قد يجعل الله تبارك وتعالى سكناها سببا للضرر أو الهلاك ، وكذا اتخاذ المرأة المعينة أو الفرس أو الخادم قد يحصل الهلاك عنده بقضاء الله تعالى٠ وقال الخطابي[٢] وكثيرون : هو في معنى الاستثناء من الطيرة ، أي الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها ، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس ، أو خادم ، فليفارق الجميع بالبيع ونحوه ، وطلاق المرأة٠ وقال آخرون: شؤم الدار ضيقها وسوء جيرانها وأذاهم ، وشؤم المرأة عدم ولادتها وسلاطة لسانها وتعرضها للريب ، وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها ٠ وقيل غير ذلك ٠ ))[٣]

ورجح الشوكاني قول الامام مالك قال: (( والراجح ما قاله مالك وهو الذي يدل عليه حديث أنس الذي ذكرنا [٤] ، فيكون حديث الشؤم مخصصا لعموم حديث : ( لا طيرة ) فهو في قوة : لا طيرة إلا في هذه الثلاث ٠ وقد تقرر في الأصول أنه يبنى العام على الخاص مع جهل التاريخ ، وادعى بعضهم أنه اجماع ، والتاريخ في أحاديث الطيرة والشؤم مجهول ٠ ))[٥]

---

=== البحوث، وفتح الباري لابن حجر (٧١/٦ ـ ٧٤)، وتيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله (٤٢٨ ـ ٤٣٢) وللشوكاني رسالة بعنوان: اتحاف المهرة على حديث لا عدوى ولا طيرة ، وهي مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ـ مجاميع متوكلية ـ ولم أتمكن من الاطلاع عليها، وقد أشار اليها المؤلف في نيل الأوطار (١٣٢/١٠) ٠

(١) انظر شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢ ) ٠

(٢) انظر معالم السنن شرح سنن أبي داود (٢٣٦/٤، ٢٣٧) ٠

(٣) انظر نيل الأوطار: الشوكاني (٤٩/٩)

(٤) يقصد حديث أنس الذي قال: ( قال رجل: يا رسول الله إنا كنا في دار كثير فيها عددنا، كثير فيها أموالنا، فتحولنا الى دار أخرى، فقل فيها عددنا، وقلت فيها أموالنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذروها ذميمة ) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في الطيرة (٢٣٩/٤ برقم ٣٩٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد، باب الشؤم في الفرس (انظر فضل الله الصمد ٣٧٣/٢ برقم ٩١٨)، ومالك في الموطأ، باب ما يتقى من الشؤم (٩٧٢/٢ برقم ٢٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٤١١/١٠) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧٣/٦): ان اسناد عبد الرزاق صحيح٠ والحديث حسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٩١/٢ برقم ٤٥٨٩ ) وسلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٣٢/٢ برقم ٧٩٠ ) ٠

(٥) نيل الأوطار : الشوكاني ( ٤٩/٩، ٥٠ ) ٠

قلت : والذي رجّحه الشوكاني هو أيضاً قول الخطّابي ومن معه كما تقدّم .

ولا يظنّ أنّهم يقصدون بالتطيّر بهذه الثلاثة على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية فانّ ذلك خطأ ، وانّما يقصدون أنّ هذه الأشياء الثلاث هي أكثر ما يتطيّر به الناس، فمن وقع في نفسه شيئ أبيح له أن يتركه ، ويستبدل به غيره . وهذا كما قال ابن القيم – رحمه الله تعالى – :

(( اخباره صلى الله عليه وسلم بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه اثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه ، وانّما غايته أنّ الله سبحانه قد يخلق منها أعيانا مشؤومة على من قاربها وساكنها ، وأعيانا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شرّ ، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدا مباركا يريان الخير على وجهه ، ويعطي غيرهما ولدا مشئوما يريان الشرّ على وجهه ، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها ، فكذلك الدار والمرأة والفرس ، والله سبحانه خالق الخير والشرّ ، والسعود والنحوس ، فيخلق بعض هذه الأعيان سعودا مباركة ، ويقضي بسعادة من قارنها ، وحصول اليمن والبركة له ، ويخلق بعضها نحوسا يتنحس بها من قارنها ، وكلّ ذلك بقضائه وقدره ، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبّباتها المتضادّة والمختلفة . ))(١)

ومثله ما قاله الحافظ ابن رجب الحنبلي(٢) وهو من أحسن ما قيل في هذا الصدد اذ قال – بعد ذكر الأقوال – :

(( والتحقيق أن يقال في اثبات الشؤم في هذه الثلاث ... أنّ هذه الثلاث أسباب يقدر الله تعالى بها الشؤم واليمن ويقرنه ، ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابّة أن يسأل الله تعالى من خيرها وخير ما جبلتْ عليه ، ويستعيذ به من شرّها وشرّ ما جبلت عليه ، كما في حديث عمرو بن شعيب(٣)

---

(١) مفتاح دار السعادة : ابن القيم (٢٥٧/٢)

(٢) أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي ، حافظ للحديث ، من العلماء المتقنين ، له مصنفات كثيرة منها : جامع العلوم والحكم ، وشرح العلل للترمذي ، توفّي (٧٩٥هـ) ( انظر ترجمته في : شذرات الذهب : ابن العماد ٣٣٩/٦ ، والذيل على طبقات الحنابلة ، مقدمة الجزء الأول ، والبدر الطالع : الشوكاني ٣٢٨/١)

(٣) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص أبو ابراهيم السهمي ، اضطرب قول أئمة الجرح والتعديل فيه ، وغالبهم على توثيقه ، وانّما أنكروا عليه بعض رواياته عن أبيه عن جدّه . قال الحافظ ابن حجر في التقريب : صدوق ، أخرج له الأربعة . توفّي (١١٨هـ ) ( انظر ميزان الاعتدال : الذهبي ١٨٣/٤ برقم ٦٣٨٣ ، والتقريب : ابن حجر ٤٢٣ برقم ٥٠٥٠)

عن أبيه [١]، عن جدّه [٢]، عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه أبو داود وغيره [٣].

وكذا ينبغي لمن سكن داراً أن يفعل ذلك، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم قوماً سكنوا داراً فقلّ عددهم وقلّ مالهم أن يتركوها ذميمة.[٤] فترك ما لا يجد الإنسان فيه بركة، من دار أو زوجة أو دابة، غير منهي عنه، وكذلك من اتجر في شيء فلم يربح فيه ثلاث مرّات، فإنّه يتحوّل عنه.)) [٥]

بهذا يتبيّن أنّ الشؤم موجود في بعض الأشياء، لكنّ التشاؤم بهذه الأشياء هو الممنوع، فالواجب على المسلم المؤمن بالله أن يعتقد أنّ كلّ شيء من الله تعالى، ولا مانع من أن يبتعد عن بعض الأعيان المشؤومة حقّاً، لا ما يتوهّمه، أو يوسوس له الشيطان فيه، لأنّ الاسترسال في ذلك يفتح عليه أبواب من الشيطان تفسد عليه دينه وحياته.

أمّا وجه تخصيص هذه الثلاثة بالذكر، فقيل: إنّ الحصر فيها بالنسبة إلى العادة لا بالنسبة إلى الخلقة، وقيل: إنّما خصّت بالذكر لطول ملازمتها.

قال المازري [٦]: مجمل هذه الرواية: إن يكن الشؤم حقّاً فهذه الثلاث أحقّ به، بمعنى أنّ النفوس يقع فيها التشاؤم بهذه أكثر مما يقع بغيرها.[٧]

ج ـ تعليق التمائم ونحوها

ومن أنواع السحر تعليق التمائم [٨] وما أشبهها.

---

(١) أبوه هو شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، روى عن جدّه الأعلى: عبد الله بن عمرو بن العاص، قال الحافظ ابن حجر: صدوق، ثبت سماعه من جدّه، من الثالثة (انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ١٨١/٥، والتقريب: ابن حجر ٢٦٧ برقم ٢٨٠٦)

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، الصحابي الجليل، وأحد العبادلة الفقهاء. ( التقريب : ابن حجر ٣١٥ برقم ٣٤٩٩ )

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح، باب في جامع النكاح (٦١٦/٢ برقم ٢١٦٠)، وابن ماجة في كتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا دخلت عليه أهله (٦١٧/١ برقم ١٩١٨)، والحاكم في المستدرك (١٨٥/٢) وقال: هذا حديث صحيح. ووافقه الذهبي. والبيهقي في السنن الكبرى (١٤٨/٧) قال العراقي في تخريج الإحياء (٣٢٨/١): إسناده جيد.

(٤) تقدم تخريجه قبل قليل في صفحة (٣٩٥ هامش رقم ٤).

(٥) لطائف المعارف: ابن رجب الحنبلي ١٥٧ ط/ دار الجيل.

(٦) محمد بن علي بن عمر محمد التميمي المازري المالكي، الشيخ الإمام، كان بصيراً بعلم الحديث، قال عنه القاضي عياض: لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض أفقه منه بمذهبهم. توفي (٥٣٦هـ) (انظر سير أعلام النبلاء: الذهبي ١٠٤/٢٠، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ١١٤/٤)

(٧) انظر الفتح: ابن حجر (٧٢/٦). (٨) جعلت تعليق التمائم من أنواع السحر تجاوزاً، لأنّه ليس دائماً من السحر، فقد يكون من السحر وقد لا يكون.

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ :(( فمن ذلك ما ورد في تعليق التمائم ، أنه من الشرك، وتعليق الخيط في اليد للحمى .))[1] وذكر أحاديث كثيرة في حكم التمائم والتولة[2] وما أشبههما .

منها : ما أخرجه أحمد في مسنده عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا بيده حَلْقة من صُفْر فقال: ما هذه ؟ قال: من الواهِنة . قال: انزعها فإنها لا تزيدك إلا وَهْنا ، ولو متَّ وهي عليك ما أفلحت ))[3]

والواهنة ـ كما قال ابن الأثير ـ :(( عِرْق يأخذ في المَنْكِب وفي اليد كلها ، فيُرْقَى منها ، وقيل: هو مرض يأخذ في العَضُد ، وربما عُلِّق عليها جنس من الخَرَز يقال لها : خَرَزُ الواهنة ، وهي تأخذ الرجالَ دون النساء ، وإنما نهاه عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم ، فكان عنده في معنى التمائم المنهي عنها .))[4]

وأخرج أحمد أيضا عن عقبة بن عامر ( رضي الله عنه ) مرفوعا :(( من تعلق تميمة فلا أتمَّ الله له ، ومن تعلق وَدَعَة فلا ودع الله له ))[5]

والودعة جمع من الوَدَع بالفتح والسكون، قال ابن الأثير :(( وهو شيء أبيض يُجْلب من البحر يُعَلَّق في حُلوق الصبيان وغيرهم ، وإنما نهى عنها لأنهم كانوا يعلقونها مخافة العين .))[6]

قال الشوكاني في شرح الحديث :(( قوله :( فلا أتمَّ الله له ) فيه الدعاء على من اعتقد في التمائم وعلقها على نفسه بضد قصده وهو عدم التمام لما قصده من التعليق، وكذلك قوله : ( فلا ودع الله له ) فإنه دعاء على من فعل ذلك .))[7]

---

(١) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عز وجل : الشوكاني ٨ ( مخطوط ) .
(٢) سيأتي تفسيرمعناهما (ص ٣٩٩) .
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤٤٥/٤)، وابن ماجة في كتاب الطب، باب تعليق التمائم (١١٦٧/٢ برقم ٣٥٣١) قال الشوكاني: وإسناده لا بأس به ( الدر النضيد ص ١٣) ومثله قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد ( انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ١٩ تحقيق محمد حامد الفقي) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣/٥): رواه ابن ماجة وأحمد والطبراني، وفيه مبارك بن فضالة ، وهو ثقة ، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات. وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٠١/٣ برقم ١٠٢٩) .
(٤) النهاية : ابن الأثير (٢٣٤/٥ مادة : وهن )
(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٥٤/٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣/٥): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجاله ثقات .
(٦) النهاية : ابن الأثير (١٦٨/٥ مادة : ودع )
(٧) نيل الأوطار : الشوكاني (١٤٤/١٠)

ومنها حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( إنّ الرُّقى ، والتمائمَ ، والتِّوَلة شرك . ))(1)

ففي هذا الحديث تصريح بأنّ هذه الثلاثة كلّها من الشرك ، والمراد بالرقى في الحديث ما فيها لا ستعانة بغير الله ، أو لا يفهم معناها. أمّا إذا كانت من القرآن الكريم أو من الأدعية المباحة فجائز ، كما ثبت في الحديث الصحيح عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: (( كنّا نرقي في الجاهلية ،فقلنا : يا رسول الله ،كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا عليّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك ))(2) وفي الموضوع أحاديث كثيرة .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: (( في هذا الحديث دليل على جواز الرقى والتطبّب بما لا ضرر فيه ، ولا منع من جهة الشرع، وان كان بغير أسماء الله وكلامه ، لكن اذا كان مفهوما ، لأنّ ما لا يفهم لا يؤ مَن أن يكون فيه شيئ من الشرك)).(3)

والمراد بالتمائم : هي خرزات كان العرب تعلّقها على أولادهم ، يمنعون بها العين في زعمهم ، فأبطلها الاسلام .(4)

واختلف العلماء فيما اذا كانت التمائم من القرآن أو الأدعية الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم الى قولين، أرجحهما عندي المنع، لعموم النهي في استعمالها ولا مخصّص له ، ولسدّا لذريعة التي تفضي الى تعليق ما ليس كذلك .(5)

أمّا التولة : فهي ضرب من السحر ، وقد جاء تفسيرها عن ابن مسعود رضي الله عنه كما أخرجه الحاكم وصحّحه(6) ، أنّه دخل على امرأته وفي عنقها شيئ معقود ،فجذبه فقطعه ، ثمّ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (( إنّ الرُّقى والتمائم والتولة شرك )) قالوا : يا أبا عبد الله ،هذه التمائم والرقى قد عرفناها،فما التولة ؟

---

(1) أخرجه أحمد في المسند (٣٨١/١) ،وأبوداود في كتاب الطب،باب في تعليق التمائم (٢١٢/٤ برقم ٣٨٨٣) ،وابن ماجة في كتاب الطب،باب تعليق التمائم (١١٦٧/٢ برقم ٣٥٣٠ ) وحسّنه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٨٤/٢ برقم ٤٥٥٢) وانظر أيضا سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٨٤/١ برقم ٣٣١)

(2) أخرجه مسلم في كتاب السلام ،باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك (١٧٢٧/٤ برقم ٢٢٠٠ ) وأبوداود في كتاب الطب،باب ما جاء في الرقى (٢١٤/٤ برقم ٣٨٨٦)

(3) نيل الأوطار : الشوكاني (١٤٥/١٠) . (4) انظر المصدر السابق (١٤٣/١٠) .

(5) انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد :عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ص ١٢٧،١٢٨)

(6) المستدرك ( ٢١٧/٤ ) ووافقه الذهبي .

قال: شيء يصنعه النساء، يتحبّبن به الى أزواجهن . يعني من السحر .

وقيل: هي خيط يُقرأ فيه من السحر، أو قرطاس يُكتب فيه شيء منه يتحبّب به النساء الى قلوب الرجال، أو الرجال الى قلوب النساء .(١)

وقد نهى الشارع عن هذه الثلاثة، وجعلها شركا، وما ذلك الا لكونها مظنّة لأن يصحبها اعتقاد أنّ لغير الله تأثيرا في الشفاء من الداء، وفي المحبّة والبغضاء، فكيف بمن نادى غير الله، وطلب منه ما لا يطلب الا من الله، واعتقد استقلاله بالتأثير، أو اشتراكه مع الله عزّ وجلّ ؟ .(٢)

## المبحث الثالث: تحقيق شرك القبوريين والوثنيين وبيان أنّ شركهما واحد

### المقارنة بين شرك الوثنيين وعبّاد القبور

يقارن الشوكاني ـ رحمه الله ـ أحوال عبّاد القبور بأحوال مشركي الجاهلية الأولى فوجد أنّ أحوالهما واحدة، بل الأوّل أغلظ شركا من الثاني .

وقد وصف ـ رحمه الله ـ عبّاد القبور بأنّهم x(( عمدوا الى جماعة من الأموات الذين لا يستطيعون توصية، ولا الى أهلهم يرجعون، فقصدوهم في المهمّات، وعكفوا على قبورهم، ونذروا لهم النذور، ونحروا لهم النحائر، وفزعوا اليهم عند المهمّات، فتارة يطلبون منهم من الحاجات ما لا يقدر عليه الا الله عزّ وجلّ، وخصّوهم بالنداء، وأفردوهم بالطلب، وتارة ينادونهم مع الله عزّ وجلّ، ويصرخون بأسمائهم مع اسم الله سبحانه، فيأتون بكلمات تقشعرّ لها جلود من يعلم معنى: لا اله الا الله، ويعرف مدلول: قل هو الله أحد، وتلاعب بهم الشيطان في ذلك، ونقلهم من مرتبة الى مرتبة، ومن منزلة الى منزلة، حتى استعظموا من جانب هؤلاء الأموات الذين خلقهم الله ورزقهم وأحياهم وأماتهم ما لا يستعظمونه من جانب بارئ البريّة، وخالق الخلق، يستعظمون جلّ اسمه وتعالى قدره ولا اله غيره .

وأفضى ذلك الى أنّ أحدهم يحلف بالله تعالى فاجرا، ولا يحلف بمن يعتقده من الأموات، ويقدم على المعصية في المساجد التي هي بيوت الله، ولا يقدم عليها

---

(١) نيل الأوطار : الشوكاني ( ١٤٣/١٠ )

(٢) انظر الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني (ص ١٤، ١٥) مكتبة الصحابة الاسلامية .

عند قبر من يعتقده . وتزايد الشرّ، وعظمت المحنة، وتفاقمت المصيبة، حتى صار كثير منهم ينسبون ما أصابهم من الخير في الأنفس والأموال والأهل الى ذلك الميت ، وما أصابهم من الشرّ في ذلك اليه ، وقد صار تحت أطباق الثرى، وغُيِّب عن أعين البشر ، وصار مشغولا عما جزاه من جرّ نفع اليه، أو دفع ضرّ عنه ، منتظرا لما ينتظر له مثله من الأموات ، لا يدري ما نزل به من هؤلاء النوكاء[1]، ولا يشعر بما ألصقوه به، ولو علم بذلك لجالدهم بالسيف ، ودفعهم بما يقدر عليه .))[2]

وذكر الشوكاني أحاديث وردت في حكم من يقرّب لغير الله ، منها :

ما أخرجه الترمذي وصحّحه من أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حنين، ونحن حديثو عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عليها، وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط[3]، فمررنا بسدرة، فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنوا اسرائيل لموسى : (( اِجْعَلْ لَنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ))[4] لتركبنّ سنن من قبلكم .[5]

في هذا الحديث بيّن الشوكاني - رحمه الله- أنّ هؤلاء (( انما طلبوا أن يجعل لهم شجرة ينوطون بها أسلحتهم ،كما كانت الجاهلية تفعل ذلك ، ولم يكن من قصدهم أن يعبدوا تلك الشجرة ، أو يطلبوا منها ما يطلبه القبوريون من أهل القبور، فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أنّ ذلك بمنزلة الشرك الصريح ، وأنه بمنزلة طلب آلهة غير الله تعالى))[6]

فكيف بهؤلاء القبوريين الذين يعكفون عند القبور والأضرحة والمشاهد، وينادون صاحبها، ويدعونه تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال ؟ انّهم بذلك (( قد

(١) النوكاء: الحمقاء والجاهلون. جاء في تهذيب اللغة للأزهري (١٠/٣٨٣ مادة :نوك): النوك: الحمق، والأنوك : الأحمق ، وجمعه النوكى .

(٢) أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني ٢١٣ تحقيق:محمد عثمان الخشت .

(٣) هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم ،أي يعلّقونه بها،ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها،فنهاهم عن ذلك (النهاية لابن الاثير ١٢٨/٥ مادة :نوط)

(٤) سورة الأعراف : آية ١٣٨ .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٢١٨/٥) والترمذي في كتاب الفتن،باب ما جاء لتركبنّ سنن من قبلكم (٤١٣/٤ برقم ٢١٨٠)وقال :هذا حديث حسن صحيح،وابن جرير في تفسيره (٣١/٩، ٣٢)وصحّحه الألباني في كتاب السنة لابن أبي عاصم (٣٧/١ برقم ٧٦) ،كما صحّحه الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول لابن الأثير(٣٤/١٠)

(٦) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ١٦ مكتبة الصحابة الاسلامية .

جعلوا بعض خلق الله شريكا له ومثلا ونداً ، فاستغاثوا به فيما لا يستغاث فيه إلا بالله ، وطلبوا منه ما لا يطلب إلا من الله مع القصد والإرادة .))[1]

وقرر رحمه الله أن من اعتقد في ميت من الأموات ، أو حي من الأحياء أنه يضره أو ينفعه إما استقلالا أو مع الله تعالى ، أو ناداه أو توجه إليه أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق، فلم يخلص التوحيد لله ولا أفرده بالعبادة ، إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه ودفع الضر عنه هو نوع من أنواع العبادة ، ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله أو معه حجرا أو شجرا أو ملكا أو شيطانا، كما كان يفعل ذلك في الجاهلية ، وبين أن يكون انسانا من الأحياء أو الأموات،كما يفعله الآن كثير من المسلمين، وكل عالم يعلم هذا ويقر به ، فان العلة واحدة ، وعبادة غير الله تعالى وتشريك غيره معه يكون للحيوان كما يكون للجماد ، وللحي كما يكون للميت، فمن زعم أن ثم فرقا بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنه يضر أو ينفع، وبين من اعتقد في ميت من بني آدم أو حي منهم أنه يضر أو ينفع أو يقدر على أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فقد غلط غلطا بيناً وأقر على نفسه بجهل كثير، فان الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه أو التقرب إلى غيره بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه ، ومجرد تسمية المشركين لما جعلوه شريكا بالصنم والوثن والإله لغير الله زيادة على التسمية بالولي والقبر والمشهد كما يفعله كثير من المسلمين، بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن، إذ ليس الشرك هو مجرد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسميات ، بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئا يختص به سبحانه ، سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلقه عليه الجاهلية ، أو أطلق عليه اسما آخر ، فلا اعتبار بالاسم قط .

ثم قال :(( ... وقد علم كل عالم أن عبادة الكفار للأصنام لم تكن إلا بتعظيمها واعتقاد أنها تضر وتنفع، والاستعانة بها عند الحاجة ،والتقرب لها في بعض الحالات

---

(١) انظر الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٢٩ مكتبة الصحابة الاسلامية .

بجزء من أموالهم ، وهذا كله قد وقع من المعتقدين في القبور ، فانهم قد عظموها الى حد لا يكون الا لله سبحانه ، بل ربما يترك العاصي منهم فعل المعصية اذا كان في مشهد من يعتقده أو قريبا منه ، مخافة تعجيل العقوبة من ذلك الميت ، وربما لا يتركها اذا كان في حرم الله ، أو في مسجد من المساجد ، أو قريبا من ذلك ، وربما حلف بعض غلاتهم بالله كاذبا ، ولم يحلف بالميت الذي يعتقده ، وأما اعتقادهم أنها تضر وتنفع فلولا اشتمال ضمائرهم على هذا الاعتقاد لم يدع أحد منهم ميتا أو حيا عند استجلابه لنفع أو استدفاعه لضر قائلا : يا فلان افعل لي كذا وكذا ، وعلى الله وعليك ، وأنا بالله وبك . ))(١)

وعلى هذا الأساس فلا فرق بين الشركين أي شرك عبّاد القبور وشرك الوثنيين عبّاد الأصنام ، فكل منهما يصرفون العبادة لغير الله تعالى ، وخالفوا ما نفته ( لا اله الا الله ) وعكسوا مدلولها ، بل اذا قارنّا جيدا بين الشركين نجد أن الأول أعظم وأغلظ شركا من الثاني ، كما سيبيّنه لنا الشوكاني في الفقرة التالية :

<u>شرك القبوريين أعظم من شرك أهل الجاهلية</u>

يقرر الشوكاني ـ رحمه الله ـ أن شرك عبّاد القبور أعظم من شرك مشركي أهل الجاهلية الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الأول وصل الى ما لم يصل اليه الثاني . ويدلل على ذلك بقوله تعالى : (( هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ))(٢) ، وقوله سبحانه : (( فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ))(٣)

يقول الشوكاني في تفسير الآية الأولى :

(( وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد ..... وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون الى أصنامهم في هذه الحالة

---

(١) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٣٣، ٣٤، ٣٥ مكتبة الصحابة الاسلامية .
(٢) سورة يونس : آية ٢٢ . (٣) سورة العنكبوت : آية ٦٥ .

وما يشابهها ، فيا عجبا لما حدث في الاسلام من طوائف يعتقدون في الأموات ، فاذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات، ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون، كما تواتر ذلك الينا تواترا يحصل به القطع، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية ، وأين وصل بها أهلها ؟ والى أين رمى بهما الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم ؟ حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه من عبّاد الأوثان ٠ فانّا لله وانّا اليه راجعون ٠ ))[1]

ويقول في موضع آخر :

(( هؤلاء القبوريون قد وصلوا الى حدّ في اعتقادهم في الأموات لم يبلغه المشركون في اعتقادهم في أصنامهم ، وهو أنّ الجاهلية كانوا اذا مسّهم الضرّ دعوا الله وحده ، وانّما يدعون أصنامهم مع عدم نزول الشدائد من الأمور ، كما حكاه الله منهم بقوله :(( وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ))[2] وبقوله تعالى:(( قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ))[3]، وبقوله تعالى:(( وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ))[4]، وبقوله تعالى:(( وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ))[5] بخلاف المعتقدين في الأموات فانّها اذا دهمتهم الشدائد استغاثوا بالأموات، ونذروا لهم النذور، وقلّ من يستغيث بالله سبحانه في تلك الحال، وهذا يعلم كلّ من له بحث عن أحوالهم ٠

وأورد الشوكاني مثالين في ذلك ، قال :

(( ولقد أخبرني بعض من ركب البحر للحج أنّه اضطرب اضطرابا شديدا، فسمع من أهل السفينة من الملاحين وغالب الراكبين معهم ينادون الأموات، ويستغيثون بهم ، ولم يسمعهم يذكرون الله قط، قال: ولقد خشيت في تلك الحال الغرق ، لما شاهدته من الشرك بالله ، وقد سمعنا عن جماعة من أهل البادية أنّ كثيرا منهم اذا حدث له ولد جعل قسطا

---

(١) فتح القدير : الشوكاني ( ٤٣٥/٢ )

(٢) سورة الاسراء : آية ٦٧ ٠ (٣) سورة الأنعام : آية ٤٠ ٠

(٤) سورة الزمر : آية ٨ ٠ (٥) سورة لقمان : آية ٣٢ ٠

من ماله لبعض الأموات المعتقَدين، ويقول انه قد اشترى ولده من ذلك الميّت الفلاني بكذا ، فاذا عاش حتى يبلغ سنّ الاستقلال دفع ذلك الجعل لمن يعتكف على قبر ذلك الميّت من المحتالين لكسب الأموال .))[1]

وهكذا أحوال عبّاد القبور في كثير من بلدان المسلمين، انّهم يعتقدون في أمواتهم ما اعتقده مشركوا الجاهلية في أصنامهم ، ويشركون في الرخاء والشدّة على حدّ سواء، في حين يشرك أهل الجاهلية في الرخاء، ويخلصون الدعاء لله في الشدّة ،كما ذكرنا .

الشبه الواردة وردّ الشوكاني عليها

هناك بعض الشبه في هذا الموضوع أوردها الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ وردّ عليها . منها :

أ ـ إنّ كفر القبوريين الذين يعكفون على قبور من يعتقدونه من الأموات، فيدعونهم ويطلبون منهم ما لا يقدر عليها لا الله ، من الكفر العملي، لا الكفر الاعتقادي، بدليل ما ورد في كفر تارك الصلاة :(( بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة ))[2]، وما ورد فيمن ترك الحجّ من قوله تعالى :(( وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ))[3]، وكقوله تعالى : (( وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ))[4]، وما ورد في كفر من أتى حائضا،[5] أو كاهنا ، أو عرّافا[6]، أو قال لأخيه

---

(١) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٦٦،٦٧ مكتبة الصحابة الاسلامية .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الايمان، باب اطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨٨/١ برقم ٨٢ ) ولفظه :(إنّ بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة )، وأبو داود في كتاب السنة ، باب في ردّ الارجاء (٥٨/٥ برقم ٤٦٧٨)، والترمذي في كتاب الايمان، باب في ترك الصلاة (١٤/٥ برقم ٢٦٢٠)وقال :حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب اقامة الصلاة، باب فيمن ترك الصلاة (٣٤٢/١ برقم ١٠٧٨)، وأحمد في المسند (٣٨٩/٣) .

(٣) سورة آل عمران ، آية ٩٧ . (٤) سورة المائدة ، آية ٤٤ .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٤٠٨/٢،٤٧٦)، وأبو داود في كتاب الطب، باب في الكاهن (٢٢٥/٤ برقم ٣٩٠٤)، والترمذي في كتاب الطهارة ،باب في كراهية اتيان الحائض (٢٤٣/١ برقم ١٣٥ )، وابن ماجة في كتاب الطهارة ،باب النهي عن اتيان الحائض (٢٠٩/١ برقم ٦٣٩)وصحّحه الألباني في ارواء الغليل (٦٨/٧ برقم ٢٠٠٦)

(٦) تقدّم تخريجه في صفحة (٣٨٧) .

يا كافر[1]، ومن ذلك ما عقده البخاري في صحيحه من كتاب الايمان في كفر دون كفر[2]، وجعل هذا من الكفر الذي لا ينافي الايمان من كل وجه.))[3]

فهذه الأنواع من الكفر، وان أطلقها الشارع على فعل هذه الكبائر، فانه لا يخرج بها العبد من الايمان، فالذي يدعو الأولياء، ويهتف بهم عند الشدائد، ويطوف بقبورهم، ويقبل جدرانها، وينذر لها، فانه كفر عملي لا اعتقادي، لأنه مؤمن بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وباليوم الآخر، لكن زين له الشيطان أن هؤلاء عباد الله الصالحين، ينفعون، ويشفعون، ويضرون، فاعتقدوا ذلك، كما اعتقد ذلك أهل الجاهلية في الأصنام.

وقد نسب الشوكاني هذا الكلام للعلامة محمد بن اسماعيل الأمير[4] - رحمه الله - في شرحه لأبياته[5]، وأجاب عليه فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (الفتح ١٠/ ٥٣١ برقم ٦١٠٣) ولفظه: (اذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما)، ومسلم في كتاب الايمان، باب بيان حال ايمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (٧٩/١ برقم ٦٠)، والترمذي في كتاب الايمان، باب ما جاء فيمن رمى أخاه بكفر (٥٥/٥ برقم ٢٦٣٧).

(٢) انظر الفتح (١٠٤/١ برقم ٢١) من كتاب الايمان.

(٣) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عز وجل: الشوكاني ص٩ (مخطوط)

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة ٢٦

(٥) انظر الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد للشوكاني (٥٧ - ٦٤)، وانظر شرح الصنعاني لأبياته التي يرد بها على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو مخطوط تحت رقم (٩٢٥) ميكروفيلم، بالجامعة الاسلامية، ورقة (١٠٨) من الرسالة قبل الورقة الأخيرة.
وكلام الصنعاني هنا مخالف تماما لما قرره في كتابه: تطهير الاعتقاد من أدران الالحاد، فـفي هذا الكتاب بين - رحمه الله - أن شرك القبوريين هو بعينه الشرك الذي كان تفعله الجاهلية، وانما كان الجاهلية يفعلونه لما يسمونه وثنا وصنما، والقبوريون لما يسمونه وليا وقبرا ومشهدا، والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني. (انظر ص ١٣٨) كما بين - رحمه الله - أن القبوريين يأتون بشركيات ما بلغ اليها المشركون عباد الأصنام. (انظر ص ١٤٣). ولم أقف على تأريخ تأليف هذه الرسالة وتأليف تطهير الاعتقاد لأتمكن من معرفة ما رأيه الأول والثاني، ولعله - رحمه الله - قال الكلام السابق ثم رجع عنه في هذا الكتاب، لأنه لا يعقل رجوع مثله عن الحق الى الباطل. والله أعلم.

(( ليس هذا بصحيح ولا مستقيم ، فانّ من يدعوا لأموات،ويهتف بهم عندا لشدائد ، ويطوف بقبورهم ، ويطلب منهم ما لا يقدرعليه إلّا الله سبحانه ،لايصدرمنه ذلك إلّا عن اعتقاد ،كاعتقاد أهل الجاهلية في أصنامهم ، هذا ان أراد من الميّت الذي يعتقده ما كان تطلبه الجاهلية من أصنامها من تقريبهم الى الله ، فلا فرق بين الأمرين ، وان أراد استقلال من يدعوه من الأموات،بأن يطلب ما لا يقدرعليه إلّا الله عزّوجلّ،فهذا أمر لم تبلغ اليه الجاهلية ، فانّهم قالوا ما حكاه الله عنهم :(( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ))[1] ولم يدّعوا لأصنامهم أنّهم يستقلّون بايصال لهم الى ما يطلبونه دون الله عزّوجلّ، فهذا هو شرك الجاهلية الذي بعث الله لأجله رسله ،وأنزل فيه كتبه ، وقاتلهم الأنبياء عليه ، وأمّا الخلق،والرزق،والموت،والحياة ،ونحو ذلك،فالجاهلية يقرّون في جاهليتهم ،وقبل بعثة الرسول اليهم بأنّ الله سبحانه هو المستقلّ بذلك. (( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ))[2]،(( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ))[3])[4].

وقال في موضع آخر:(( انّه لا شكّ أنّ الكفرينقسم الى كفراعتقاد وكفرعمل،لكن دعوى أنّ ما يفعله المعتقدون في الأموات من كفر العمل في غاية الفساد ... فليت شعري ما هو الحامل لهم على الدعاء،والاستغاثة ،وتقبيل الجدران،ونذر النذورات،هل هو مجرّد اللعب والعبث من دون اعتقاد ؟ فهذا لا يفعله إلّا مجنون،أم الباعث عليه الا اعتقاد في الميّت ؟ فكيف لا يكون هذا من كفر الاعتقاد الذي لولاه لم يصدر فعل من تلك الأفعال ؟ .))[5]

ب ــ قال الشوكاني ــ رحمه الله ــ:(( انّ من الشبه الباطلة التي يوردها المعتقدون في الأموات أنّهم ليسوا كالمشركين من أهل الجاهلية ، لأنّهم انّما يعتقدون في الأولياء والصالحين،وأولئك اعتقدوا في الأوثان والشياطين، وهذه الشبه داحضة تنادي على

---

(١) سورة الزمر ، آية ٣ . (٢) سورة الزخرف ، آية ٩ .
(٣) سورة الزخرف ، آية ٨٧ .
(٤) رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّوجلّ : الشوكاني ( ص ١٠٤٩ ) (مخطوط)
(٥) الدرالنضيد في اخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٦٤،٦٥ مكتبة الصحابة الاسلامية .

صاحبها بالجهل، فإنّ الله سبحانه لم يحذر من اعتقد في عيسى عليه السلام، وهو نبي من الأنبياء، بل خاطب النصارى بتلك الخطابات القرآنية، ومنها: (( يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ))(١)، وقال لمن كان يعبد الملائكة: (( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ))(٢) ولا شك أنّ عيسى والملائكة أفضل من هؤلاء الأولياء والصالحين الذين صار هؤلاء القبوريون يعتقدونهم، ويغلون في شأنهم، مع أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أكرم الخلق على الله، وسيّد ولد آدم، وقد نهى أمّته أن تغلو فيه، كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام .))(٣)

كما ورد في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( لا تُطْروني كما أَطْرَتِ النصارى ابنَ مريم، فإنّما أنا عبده، فقولوا : عبد الله ورسوله ))(٤)

ومعنى الإطراء: مجاوزة الحدّ في المدح والكذب فيه(٥) أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادّعوا فيه الإلهية، فهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم يرض أن يغلو في شأنه أحد من أمّته، فكيف من غلا فيمن دونه من الأولياء وغيرهم، ووصفه بالألوهية ؟ إنه قد اتّخذهم آلهة من دون الله، وضاهى النصارى في شركهم .

ج ـ قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ: (( فإن قلت : إنّ هؤلاء القبوريين يعتقدون أنّ الله تعالى هو الضارّ النافع، والخير والشرّ بيده، وإن استغاثوا بالأموات قصدوا إنجاز ما يطلبونه من الله سبحانه .

قلت : وهكذا كانت الجاهلية، فإنّهم كانوا يعلمون أنّ الله هو الضارّ النافع

---

(١) سورة النساء : آية ١٧١ . (٢) سورة سبأ : آية ٤٠، ٤١

(٣) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني ٤٧ مكتبة الصحابة الإسلامية .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى: واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها . ( الفتح ٥٥١/٦ برقم ٣٤٤٥ ) .

(٥) النهاية لابن الأثير (١٢٣/٣ مادة : طرا ) .

وأنّ الخبر والشر بيده ، وإنما عبدوا أصنامهم لتقربهم إلى الله زلفى، كما حكاه الله عنهم في كتابه العزيز.[1] كما تقدّم .

د - (( فإن قلت : هؤلاء المعتقدون في الأموات لا يعلمون بأنّ ما يفعلونه شرك، بل لو عرض أحدهم على السيف لم يقرّ بأنه مشرك بالله ، ولا فاعل لما هو شرك، بل ولو علم أدنى علم أنّ ذلك شرك لم يفعله .

قلت : الأمر كما قلت ، ولكن لا يخفى عليك ما تقرّر في أسباب الردّة أنه لا يعتبر في ثبوتها العلم بمعنى ما قاله من جاء بلفظ كفري، أو فعل فعلاً كفريّاً، وعلى كلّ حال فالواجب على كلّ من اطلع على شيء من هذه الأقوال والأفعال التي اتّصف بها المعتقدون في الأموات أن يبلغهم الحجّة الشرعية ، ويبيّن لهم ما أمر الله ببيانه ، فيقول لهم : إنّ هذا الذي يفعلونه هو الشرك الذي كانت عليه الجاهلية ، وهو الذي بعث الله رسوله بهدمه ، وأنزل كتبه في ذمّه ، وأخذ على النبيّين أن يبلغوا عباده أنهم لا يؤمنون حتى يخلصوا له التوحيد ، ويعبدوه وحده ، فإذا علموا بهذا علماً لا يبقى معه شك ولا شبهة ،ثمّ أصرّوا على ما هم فيه من الطغيان والكفر بالرحمن،وجب عليه أن يخبرهم بأنهم إذا لم يقلعوا من هذه الغواية ،ويعودوا إلى ما جاء هم به رسول الله على الله عليه وسلم من الهداية ،فقد حلّت دماؤهم وأموالهم ، فإن رجعوا،وإلّا فالسيف هو الحكم العدل،كما نطق به الكتاب المبين،وسنة سيّد المرسلين في إخوانهم المشركين .))[2]

قلت : ما ذهب إليه الشوكاني من تعليم الجاهل وإقامة الحجّة عليه قول صحيح دلّت عليه النصوص من الكتاب والسنة ، فلا يجوز لأحد أن يكفّر أحداً من المسلمين إلّا بعد أن تقام الحجّة عليه، وتزال الشبهة منه .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله -:(( وليس لأحد أن يكفّر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجّة ، وتبيّن له المحجّة ، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلّا بعد إقامة الحجّة وإزالة الشبهة .))[3]

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد : الشوكاني (ص ٣٦) مكتبة المعارف الاسلامية .

(٢) انظر المصدر السابق (ص ٤٣،٤٤)

(٣) مجموع فتاوى : ابن تيمية (٤٦٦/١٢) .

فالواجب بيان ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه وتبليغه للناس لإقامة الحجّة عليهم ، وهذا البيان والتبليغ مناط أحكام الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى: (( وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ))[1] ، وقال: (( وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ))[2]

وعلى هذا الأساس فانّ الجاهلين بالتوحيد يعذرون في ارتكابهم أعمال الشرك اذا لم تقم عليهم الحجّة ،ولم تبيّن لهم المحجّة ، ككونهم حديثي العهد بالاسلام ، أوكونهم في ديار بعيدة عن العلماء ، أوفي ديار فيها العلماء ،ولكنّ كثيرا منهم لبّسوا على الناس دينهم ، وزيّنوا لهم الشرك، وأتوا عليه من البراهين التي تبرر وقوعهم فيه ، أوما شابه ذلك . ولا يعذرون اذا استفاض العلم بأمور التوحيد ، وقامت الحجّة عليهم بدعوة العلماء ، ويبطل عذرهم ان أصرّوا بعد تعليمهم على اعتقاد الشرك وفعله وقوله ، لأنّهم في هذه الحالة آثروا باختيارهم الكفر على الايمان ، والشرك على التوحيد ، فهم لذلك كافرون ومشركون، فان تابوا قبل موتهم نجوا ان شاء الله ، وان ماتوا مصرّين على شركهم وكفرهم فهم من أهل النار كسائر الكفّار والمشركين .

وقد بيّن الشوكاني ــ رحمه الله تعالى ــ موقفه من هذه القضية في موضع آخر قال :

(( إنّ الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الاسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه الاّ ببرهان أوضح من شمس النهار ، فانّه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أنّ من قال لأخيه : يا كافر ، فقد باء بها أحدهما .[3] وفي لفظ آخر : من دعا رجلا بالكفر ، أوقال : عدوّ الله ،وليس كذلك ،الاّ حار عليه .[4] أي رجع× ففي هذه الأحاديث وما ورد موردها أعظم زاجر وأكبر واعظ عن التسرّع في التكفير ، وقد قال الله عزّوجلّ: (( وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ))[5] فلابدّ من شرح الصدر بالكفر ، وطمأنينة القلب به ، وسكون النفس اليه ، فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشرّ ، لاسيّما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الاسلام . ))[6]

× وفي لفظ في الصحيح: ((فقد كفر أحدهما))

(١) سورة الاسراء : آية ١٥ . (٢) سورة الأنعام : آية ١٩ .
(٣) تقدّم تخريجه في صفحة (٤٠٦) .
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الايمان،باب بيان حال ايمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (٧٩/١، ٨٠ برقم ٦١) ، وأحمد في المسند (١٦٦/٥) .
(٥) سورة النحل : آية ١٠٦ .
(٦) السيل الجرار المتدفّق على حدائق الأزهار : الشوكاني (٥٧٨/٤) تحقيق/ محمود ابراهيم زايد .

وقد سئل – رحمه الله – عن : هل يعذر الجاهل ؟ وعن قوله تعالى: (( فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ))[١] هل الجملة خبرية أو حالية ؟ فقال:

(( الظاهر فيه أنّ الجملة حالية، والمراد أنّكم لاتجعلوا لله أندادا في حالة علمكم بأنّه لا أنداد لله عزّ وجلّ، وأنّه المنفرد بالالهية، والمستحقّ للعبادة وحده لاشريك له، وهذا يعلمه كلّ من بلغته الدعوة الاسلامية، وصار من جملة المنتمين الى الاسلام، فلله الحجة البالغة، ولم يكن للعباد على الله حجة بعد ارسال الرسل وانزال الكتب قال تعالى: (( لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ))[٢] (( وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ))[٣] .....

فان قلت: قد يجهل بعض المسلمين بعض أسباب الردّة الموجبة لوقوعه في الكفر، ويجهل بعض أنواع الشرك، بل قد يجهل ذلك كثير من أهل العلم، حتى ينبّه عليه فيتنبّه، كما يعرف ذلك من عرف أحوال الناس، ويدلّ على ذلك ما أخرجه الامام أحمد في المسند من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: (( خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: يا أيها الناس اتّقوا هذا الشرك، فانّه أخفى من دبيب النمل. فقيل له: فكيف نتّقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ فقال: قولوا: اللهمّ انّا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه ))[٤] وقد روي من وجه آخر من حديث أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل، فقال أبو بكر: وهل الشرك الا من دعا لله الها آخر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل . الحديث ))[٥]

ثم قال – رحمه الله – بعد سرد الأحاديث: (( اذا كان من جملة أنواعه ( أي الشرك ) ما هو أخفى من دبيب النمل، كما نطق بها الصادق المصدوق، فمعلوم أنّه يجهله غالب الخاصّة فضلا عن العامّة . ))[٦]

أي أنّه يعذر بجهله، وقد يأثم لتقصيره في تعلّم أمور دينه الواجبة، وهذه الأنواع أغلبها من الشرك الأصغر، كما أشار اليه ابن عباس رضي الله عنهما عند تفسيره لكلمة ( الأنداد ) في قوله تعالى: (( فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ )) كما تقدّم .[٧] والله أعلم .

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٢ . (٢) سورة النساء: آية ١٦٥ . (٣) سورة الاسراء: آية ١٥ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤٠٣/٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٣/١٠، ٢٢٤): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، ووثّقه ابن حبان. وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب (٩١/١ برقم ٣٣)

(٥) قال الشوكاني: رواه من هذا الوجه أبو يعلى الموصلي. قلت: ورواه ابن المنذر كما في الدر المنثور للسيوطي (٥٤/٤) والحديث صحّحه الأرناءوط في تخريج مسند أبي بكر (ص ١٧) وذلك لشواهده الكثيرة، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٤/١ برقم ٣٧٣١)

(٦) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني (ص ٦٠٥) . (٧) راجع صفحة (٣٧٤) .

## المبحث الرابع: البدع وكلام الشوكاني عليها

### تعريف البدعة وبيان أنّ كلّها مردودة

البدعة نقيض السنة ، مشتقّ من بَدَعَ الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعًا، إذا أوجده على غير مثال سابق، وابْتَدَعَه وأَبْدَعَه بمعنى واحد ، واسم الفاعل من أَبْدَع المُبْدِع، ومن ابْتَدَعَ المُبْتَدِع، ومن أسماء الله تعالى الحسنى البديع، فهو سبحانه بديع السموات والأرض، لأنّه أبدعها وأحدثها على غير مثال سابق، كما قال تعالى:(( بَدِيعُ السموَاتِ وَالأَرْضِ ))[١] ،والبديع أيضا: الذي ليس قبله شيء، والله سبحانه وتعالى هو الأوّل الذي ليس قبله شيء . والبِدْع: ما كان أوّلا ولم يسبقه شيء، كما قال تعالى:(( قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ))[٢] أي ما كنت أوّل رسول أرسل الى أهل الأرض، بل أرسل قبلي رسل كثيرون .

ويقال لمن أتى بأمر لم يسبقه اليه أحد : أتى ببدعة ، ومنه قوله تعالى:(( وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ))[٣] [٤] .

فالبدعة اسم هيئة من الابتداع، وهي كلّ ما أحدث واخترع على غير مثال سابق، وهي بهذا المعنى تقال في المدح والذمّ ، لأنّ المراد أنّه أتى بشيء مخترع على غير مثال سابق، سواء كان خيرا أو شرّا، ولكنّ لفظ البدعة غلب على الحدث المكروه في الدين. قال ابن الأثير:(( وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفا في الذمّ ))[٥].

أمّا البدعة في الشرع فقد تعدّدت تعاريفها وتنوّعت، لاختلاف أنظار العلماء في مفهومها ومدلولها، فمنهم من أطلق البدعة على كلّ مستحدث من الأشياء ، سواء كان مذموما أو غير مذموم ، وسواء كان العبادات أو العادات أو غيرها،[٦] ومنهم من ضيّقوا مدلولها فلا يطلقونها إلا على حادث مذموم ، وقالوا: إنّ البدعة كلّها ضلالة ، سواء جعلت دينا قويما وصراطا مستقيما في العبادات، أو شملت العادات والعبادات معا . وهذا هو الرأي

---

(١) سورة البقرة، آية ١١٧ . (٢) سورة الأحقاف، آية ٩ . (٣) سورة الحديد، آية ٢٧ .

(٤) انظر: الصحاح للجوهري(١١٨٣/٣) ،وتهذيب اللغة للأزهري(٢٤٠/٢، ٢٤١) ،ولسان العرب لابن منظور(٧/٨) ،والمفردات للأصفهاني (ص ٣٨، ٣٩) مادة : بدع .

(٥) النهاية : ابن الأثير (١٠٧/١) .

(٦) وقد سلك هذا المسلك عدد من العلماء ،منهم: الامام الشافعي(ت ٢٠٤ هـ) كما روى عنه أبو نعيم في الحلية (١١٣/٦) ،وأبو شامة في الباعث على انكار البدع والحوادث(ص ٣٥)تحقيق: عادل عبد المنعم أبو العباس،ومنهم الامام الغزالي(ت ٥٠٥ هـ) في الاحياء(٣/٢) ط/ دار المعرفة ،وابن الجوزي(ت ٥٩٧ هـ) في تلبيس ابليس(ص ١٦) ط/دار الكتب العلمية ،وابن

====

المختار الذي ذهب إليه كثير من العلماء المتقدّمين والمتأخّرين[1]، ومنهم الشوكاني الذي نحن بصدد الحديث عنه .

وأحسن ما عرّف به ما ذكره ابن رجب الحنبلي - رحمه الله - حيث عرّف البدعة وبيّن المراد منها فقال: (( المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدلّ عليه، وأمّا ما كان له أصل من الشرع يدلّ عليه فليس ببدعة شرعا وإن كان بدعة لغة . ))[2]

فالبدعة إذا هي كلّ ما لم يشرعه الله تعالى في كتابه، أو على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكن على عهد الصحابة دينا يعبد الله به أو يتقرّب به إليه، سواء كان ذلك في الاعتقاد، أو الأقوال، أو الأعمال. وعلى هذا فلا تكون البدعة إلّا مذمومة، كما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في إحدى خطبه، قال: (( أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة ))[3]

هذا الحديث نصّ في ذمّ البدعة لا يحتمل أيّ تأويل، حيث وصفها بأنّها ضلالة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن هذا الحديث:

---

==== الأثير (ت ٦٠٦ هـ) في النهاية (١٠٦/١، ١٠٧)، والعزّ بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) في قواعد الأحكام (١٢٧/٢) ط/دار الاستقامة، وشهاب الدين أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ) في الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص ٣٥، ٣٦)، والحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) في الفتح (٢٩٨/٤، و ١٣/ ٢٦٦، ٢٦٧)، وغيرهم .

(١) منهم الإمام مالك (ت ١٧٩ هـ) كما روى عنه القرافي في الفروق (٢٢٩/٤) ط/دار إحياء الكتب العربية، والإمام أحمد (ت ٢٤١ هـ) كما روى عنه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٥٦/١ برقم ٣١٧)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥٠) ط/دار الحديث، ومجموع فتاوى (٣١٩/٢٧)، والشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) في الاعتصام (٣٧/١ - ٤١، ١١٣، ١٤١ - ١٤٥) ط/دار المعرفة، وابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠ هـ) في إيثار الحقّ على الخلق (ص ١٠٧ - ١٠٩) ط/دار الكتب العلمية، وغيرهم. ومن المتأخّرين: الشيخ رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ) في تفسيره المنار (٦٦٠/٩)، ومحمد صدّيق حسن خان (ت ١٣٠٧ هـ) في الدين الخالص (٢٠/٣، ٢١) ط/دار التراث .

(٢) جامع العلوم والحكم : ابن رجب (ص ٢٥٢) ط/مصطفى البابي الحلبي .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٥٩٢/٢ برقم ٨٦٧)، والنسائي في كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة . (١٨٨/٣، ١٨٩ برقم ١٥٧٨)، وابن ماجة في كتاب المقدّمة، باب اجتناب البدع والجدل (١٧/١ برقم ٤٥) من حديث جابر بن عبد الله .

(( هذا نصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فلا يحلّ لأحد أن يدفع دلالته على ذمّ البدع، ومن نازع في دلالته فهو مراغم .))[1]

ويدلّنا الحديث على ثلاثة أشياء :

الأوّل: انّ خير الحديث وخير الارشاد هو كتاب الله تبارك وتعالى .

الثاني: انّ خير الهدي وخير من نقذكتاب الله وحمل تعاليمه وبلّغها وهدى بها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالث: انّ شرّ الأمور الابتداع والإحداث لكلّ بدعة ضلالة ، ويعتبر ضلالة تجب محاربتها، والوقوف في سبيلها، فكيف يكون هذا حسنا ؟ وكيف تأتي الحسنة مع هذا الضلال الذي توصف به ؟ .

وقد ذهب الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ الى هذا المعنى في تفسير البدعة ، فلم يقسّمها الى حسنة وسيئة ، أو الى الأحكام الخمسة كما قسّمها بعض العلماء[2]، بل بيّن رحمه الله أنّ البدعة كلّها ضلالة ، لأنّ ذمّ البدعة ما لم يقيّده شيئ، فكيف تكون البدعة حسنة وهي مذمومة ؟ .

واستدلّ ـ رحمه الله ـ بحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(( من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ ))[3] وفي رواية لأحمد :(( من صنع أمرا من غير أمرنا فهو مردود ))[4] قائلا في شرحه :

(( قوله :( ليس عليه أمرنا ) المراد بالأمر هنا واحد الأمور، وهو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقوله :( فهو ردّ ) المصدر بمعنى اسم المفعول،كما بيّنته الرواية الأخرى ... وهذا الحديث من قواعد الدين، لأنّه يندرج تحته من الأحكام ما لا يأتي عليه الحصر ، وما أصرحه وأدلّه على ابطال ما فعله الفقهاء من تقسيمهم البدع الى أقسام ، وتخصيص الردّ ببعضها بلا مخصّص من عقل ولا نقل .

وأرشد ـ رحمه الله ـ الى طريق مناقشة القائلين ببدعة حسنة والردّ عليهم قائلا :

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم : ابن تيمية (ص ٢٤٤) ط/ دار الحديث .

(٢) يعتبر العزّ بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) رأس القائلين بالتقسيم ،وأوّل من قسّم البدع على الأحكام الخمسة ومثّل لها،ثم بيّن بالأمثلة ما يراه مندرجا تحتها ( انظر قواعد الأحكام له ٢/١٧٢ وما بعدها، ط/دار الاستقامة ،وانظر شرح النووي لمسلم ٦/١٥٤،١٥٥ ) وهو تقسيم مخترع ليس له دليل .

(٣) تقدّم تخريجه في صفحة ( ٧٩ ) .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٦/٧٣) .

(( فعليك اذا سمعت من يقول هذه بدعة حسنة بالقيام في مقام المنع مسندا له بهذه الكلّية [١] وما يشابهها، من نحو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (كلّ بدعة ضلالة) [٢] طالبا لدليل تخصيص تلك البدعة التي وقع النزاع في شأنها بعد الاتفاق على أنّها بدعة، فان جاءك به قبلته، وان كاع [٣] كنت قد ألقمته حجرا، واسترحت من المجادلة .

ومن مواطن الاستدلال لهذا الحديث كلّ فعل أو ترك وقع الاتفاق بينك وبين خصمك على أنّه ليس من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخالفك في اقتضائه البطلان أو الفساد، متمسّكا بما تقرّر في الأصول من أنّه لا يقتضي ذلك الا عدم أمر يؤثر عدمه في العدم كالشرط، أو وجود أمر يؤثر وجوده في العدم كالمانع، فعليك بمنع هذا التخصيص الذي لا دليل عليه الا مجرّد الاصطلاح مسندا لهذا المنع بما في حديث الباب من العموم المحيط بكلّ فرد من أفراد الأمور التي ليست من ذلك القبيل قائلا: هذا أمر ليس من أمره، وكلّ أمر ليس من أمره ردّ، فهذا ردّ، وكلّ ردّ باطل، فهذا باطل، فالصلاة مثلا التي ترك فيها ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو فعل فيها ما كان يتركه ليست من أمره، فتكون باطلة بنفس هذا الدليل، سواء كان ذلك الأمر المفعول أو المتروك مانعا باصطلاح أهل الأصول، أو شرطا، أو غيرهما، فليكن منك هذا على ذكر .

ثم قال ــ رحمه الله +: وهذا الحديث مقدّمة كبرى في اثبات كلّ حكم شرعيّ ونفيه،
نقلا عن الطوخي
لأنّ منطوقه مقدّمة كلّية، مثل أن يقال في الوضوء بماء نجس: هذا ليس من أمر الشرع، وكلّ ما كان كذلك فهو مردود، فهذا العمل مردود، فالمقدّمة الثانية ثابتة بهذا الدليل، وانّما يقع النزاع في الأولى، ومفهومه أنّ من عمل عملا عليه أمر الشرع فهو صحيح، فلو اتّفق أن يوجد حديث يكون مقدّمة أولى في اثبات كلّ حكم شرعيّ ونفيه لاستقلّ الحديثان بجميع أدلّة الشرع، لكنّ هذا الثاني لا يوجد، فاذن حديث الباب نصف أدلّة الشرع .)) [٤]

(( فلا يبقى فعل، ولا قول، ولا اعتقاد، لم يأت بها الشرع الا وأمكن الاستدلال على ردّه بهذا الحديث الصحيح، وهكذا العمل في سائر الكلّيات )) [٥]

---

(١) أي في الحديث السابق . (٢) تقدّم تخريجه قبل قليل صفحة (٤١٣) .
(٣) جاء في مختار الصحاح (ص ٢٤٣ مادة: ك وع): وكاع عن الشيء: من باب باع، ويكاع أيضا لغة في (كعّ) عنه ويكعّ، بالكسر: اذا هابه وجبن عنه .
(٤) نيل الأوطار: الشوكاني (٢/١٣٥، ١٣٦) . (٥) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ص ١٩٢)

وصفوة القول في الموضوع: أنّ تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة أو إلى الأحكام الخمسة أمر مخترع لا يدلّ عليه دليل شرعيّ، بل هو في نفسه متدافع، لأنّ من تعريف البدعة الذي عرّفناه وقال به العلماء أنّه لا يدلّ عليه دليل شرعيّ، لا من نصوص الشرع، ولا من قواعده، ولو كان هناك ما يدلّ من الشرع على وجوب أو ندب أو إباحة لما كان يسمّى هذا العمل بدعة، ولكانت داخلة تحت الأمر أو النهي بالدليل، فكيف نسمّيها بدعة ونقسّمها ؟ .

أمّا ما يستدلّون به من قول عمر رضي الله عنه لمّا جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد، وخرج، ورآهم يصلّون كذلك، قال: نعمت البدعة هذه.(١) فالحقّ في ذلك أنّ مراد عمر أنّ هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت، ولكن له أصل في الشريعة يرجع إليه، لأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحثّ على قيام رمضان ويرغب فيه .

ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ذات ليلة، فصلّى بصلاته ناس، ثمّ صلّى الليلة القابلة، فكثر الناس، ثمّ اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمّا أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنّي خشيت أن تفرض عليكم. وذلك في رمضان.(٢)

ففي هذا ما يدلّ على كونها سنّة، فإنّ قيامه صلى الله عليه وسلم أوّلاً بهم دليل على صحّة القيام في المسجد جماعة في رمضان، وامتناعه بعد ذلك من الخروج خشية الافتراض لا يدلّ على امتناعه مطلقاً، لأنّ زمانه كان زمان وحي وتشريع، فيمكن أن يوحى إليه، فيعمل به الناس بالإلزام، فلمّا زالت علّة التشريع بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع الأمر إلى أصله، وعلى هذا سمّاها عمر بن الخطاب بدعة، أي باعتبار ظاهر الحال من حيث تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا أنّها بدعة في المعنى .

وفي صدد ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:

(( أكثر ما في هذا تسمية عمر تلك بدعة مع حسنها، وهذه تسمية لغوية، لا تسمية شرعية،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب صلاة التراويح باب فضل من قام رمضان. (الفتح ٢٩٤/٤، ٢٩٥ - برقم ٢٠١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٥٢٤/١ برقم ٧٦١)، ومالك في الموطأ كتاب الصلاة في رمضان، باب الترغيب في الصلاة في رمضان (١١٣/١ برقم ١) واللفظ له .

وذلك أنّ البدعة في اللغة تعمّ كلّ ما فعل ابتداء من غير مثال سابق، وأمّا البدعة الشرعية فكلّ ما لم يدلّ عليه دليل شرعيّ، فاذا كان نصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دلّ على استحباب فعل أو ايجابه بعد موته، أو دلّ عليه مطلقا، ولم يعمل به الا بعد موته، ككتاب الصدقة الذي أخرجه أبو بكر رضي الله عنه، فاذا عمل أحد ذلك العمل بعد موته صحّ أن يسمّى بدعة في اللغة ،لأنّه عمل مبتدأ ... ثمّ ذلك العمل الذي يدلّ عليه الكتاب والسنة ليس بدعة في الشريعة، وان سمّي بدعة في اللغة، فلفظ البدعة في اللغة أعمّ من لفظ البدعة في الشريعة، وقد علم أنّ قول النبي صلى الله عليه وسلم :( كلّ بدعة ضلالة ) لم يرد به كلّ عمل مبتدأ ، فانّ دين الاسلام ،بل كلّ دين جاءت به الرسل فهو عمل مبتدأ، وانّما أراد : ما ابتدئ من الأعمال التي لم يشرعها هو صلى الله عليه وسلم .))(١)

وبهذا يتبيّن أنّ البدع كلّها ضلالة ، وكلّها احداث في دين الله عزّ وجلّ بما لم يشرعه ، وتقسيمها الى حسنة وسيئة تقسيم باطل مردود ، وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فانّما ذلك من البدع اللغوية لا الشرعية .

من الأدلّة التي تدلّ على وجوب الاتّباع والنهي عن البدعة

وقد جاءت الأدلّة الكثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التي تدلّ على وجوب الاتّباع والنهي عن البدع ومحدثات الأمور. منها :

قوله تعالى:(( وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ))(٢).

قال الشوكاني:(( والحقّ أنّ هذه الآية عامّة في كلّ شيء يأتي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أمر، أو نهي، أو قول، أو فعل، وان كان السبب خاصّا، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكلّ شيء أتانا به من الشرع فقد أعطانا اياه وأوصله الينا، وما أنفع هذه الآية وأكثرها فائدة .))(٣)

وقوله تعالى:(( وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ،ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ))(٤)

قال الشوكاني في تفسير الآية :(( والصراط: الطريق، وهو طريق دين الاسلام،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم : ابن تيمية (ص ٢٤٩،٢٥٠) ط/ دار الحديث .
(٢) سورة الحشر : آية ٧ . (٣) فتح القدير : الشوكاني (١٩٨/٥) .
(٤) سورة الأنعام : آية ١٥٣ .

والمستقيم : المستوي الذي لا اعوجاج فيه ))[1]

فدلّت الآية على أنّ الشارد من طريق الله وشرعه مخالف لأمر الله تبارك وتعالى، والمبتدع مخالف ومتّبع لما اخترع، كما دلّت الآية على أنّ السالك لطريق غير طريق الله مبتعد عن سبيل المؤمنين، وأنّ صراط الله واضح مستقيم، وشريعته لا تحتاج الى من يخترع فيها، ويكون بعد ذلك مستحسنا، وفي هذا المعنى ورد قول الحقّ تبارك وتعالى:

(( وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ))[2]

وأمّا الأحاديث في هذا الموضوع فكثيرة جدّا ، منها :

حديث العرباض بن سارية قال: صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح، فوعظنا موعظة بليغة ذَرَفَتْ منها العيون[3] ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنّها موعظة مودّع، فأوصنا. فقال:(( أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وان كان عبدا حبشيّا، فانّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنّتي، وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين، عضّوا عليها بالنواجذ[4] وإيّاكم ومحدثات الأمور، فانّ كلّ بدعة ضلالة ))[5]

ومنها حديث أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلمّا أُخبروا كأنّهم تَقَالُّوها[6] فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟، قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. قال أحدهم : أمّا أنا فانّي أصلّي الليل أبدا ، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوّج أبدا . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:(( أنتم الذين قلتم كذا

---

(١) فتح القدير : الشوكاني (١٧٨/٢) . (٢) سورة النحل : آية ٩ .

(٣) ذَرَفَتِ العينُ تَذْرِفُ: اذا جرى دمعها . ( النهاية لابن الأثير ١٥٩/٢ مادة :ذرف ) .

(٤) هذا مثل في شدّة الاستمساك بأمر الدين، لأنّ العضّ بالنواجذ عضّ بجميع الفم والأسنان، وهي أواخر الأسنان. وقيل: التي بعد الأنياب. (النهاية لابن الأثير ٢٥٢/٣ مادة :عضض ).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٢٦/٤) ، وأبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة (١٣/٥ - ١٥ برقم ٤٦٠٧) ، والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٤٣/٥ برقم ٢٦٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في المقدّمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١٥/١ برقم ٤٢) ، والحاكم في المستدرك (٩٧/١) وقال: هذا حديث صحيح لا علة له. ووافقه الذهبي، والبغوي في شرح السنة (٢٠٥/١ برقم ١٠٢) وقال: هذا حديث حسن. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٦٤٧/٢، ٦٤٨ برقم ٩٣٧) .

(٦) أي استقلّوها، وهو تفاعل من القلّة. ( النهاية لابن الأثير ١٠٤/٤ مادة : قلل ).

وكذا ، أما والله إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنّي أصوم وأفطر ، وأصلّي وأرقد ، وأتزوّج النساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي ))(١)

فهذه النصوص من الكتاب والسنة تدلّ على وجوب الاتّباع والابتعاد عن البدع ومحدثات الأمور .

نماذج من البدع التي تكلّم عليها الشوكاني

هناك كثير من البدع التي عمّت وطمت في أرجاء العالم الاسلامي، حتى أصبحت عند الكثير من الناس سنّة متّبعة ، شاب عليها الكبير ، وشبّ عليها الصغير ، في الوقت الذي تركوا فيه تعاليم الاسلام ، وهجروا سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وسأذكر فيما يلي بعضاً منها مما تعرّض له الشوكاني - رحمه الله تعالى - في كتبه وبيّنه وأوضحه :

١ - بدعة الرافضة

بيّن الشوكاني - رحمه الله تعالى - بدعة هذه الطائفة الضالّة ، وخطورتها على الاسلام وأهله ، ومن بين ما ذكر من بدعهم :

أ - معاداتهم للصحابة رضوان الله عليهم .

فذكر - رحمه الله - ما صارت الرافضة أقمأهم الله تصنعه بهؤلاء الصحابة الذين هم رءوس الأولياء ، ورؤساء الأتقياء ، وقدوة المؤمنين ، وأسوة المسلمين ، وخير عباد الله أجمعين ، من الطعن ، واللعن ، والثلب ، والسبّ ، والشتم ، والثلم ، قال :

(( وانظر الى أيّ مبلغ بلغ الشيطان الرجيم بهؤلاء المغرورين المجترئين على هذه الأعراض المصونة المحترمة المكرّمة ، فيا لله العجب من هذه العقول الرقيقة ، والأفهام الشنيعة ، والأذهان المختلّة ، والادراكات المعتلّة ، فانّ هذا التلاعب الذي تلاعب الشيطان ، يفهمه أقصر الناس عقلاً ، وأبعدهم فطانة ، وأجمدهم فهماً ، وأقصرهم في العلم باعاً ، وأقلّهم اطّلاعاً ، فانّ الشيطان لعنه الله سوّل لهم بأنّ هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم الذين لهم المزايا التي لا يحيط بها حصر ، ولا يحصيها حدّ ، ولا عدّ ، أحقاء بما يهتكون من أعراضهم الشريفة ، ويجحدون من مناقبهم المنيفة ، حتى كأنّهم لم يكونوا هم الذين أقاموا أعمدة الاسلام بسيوفهم ، وأوصلوا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح . ( الفتح ٥/٩ برقم ٥٠٦٣ ) ، ومسلم في كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح . ( ١٠٢٠/٢ برقم ١٤٠١ ) .

دين الاسلام إلى أطراف المعمور، من شرق الأرض وغربها، ويمينها وشمالها، فاتسعت رقعة الاسلام، وطبّقت الأرض شرائع الايمان، وانقطعت علائق الكفر، وانقصمت حباله .

يا لله العجب، بما دون خير عباد الله، وأنفعهم للدين الذي بعث به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم لم يعاصروهم، ولا عاصروا من أدركهم، ولا أذنبوا اليهم بذنب، ولا ظلموهم في مال، ولا دم، ولا عرض، بل قد صاروا تحت أطباق الثرى، وفي رحمة واسع الرحمة منذ مئين من السنين .))(١)

كما بيّن ـ رحمه الله تعالى ـ أنّ كراهة الرافضة ومعاداتهم للصحابة لم يرد بها الا هدم السنة النبوية. قال :

(( واعلم أنّ لهذه الشنعة الرافضية، والبدعة الخبيثة، ذيلا هو أشرّ ذيل، وويلا هو أقبح ويل، وهو أنّهم لمّا علموا أنّ الكتاب والسنة يناديان عليهم بالخسارة والبوار بأعلى صوت، عادوا السنة المطهّرة، وقدحوا فيها وفي أهلها بعد قدحهم في الصحابة رضي الله عنهم، وجعلوا المتمسّك بها من أعداء أهل البيت، ومن المخالفين للشيعة لأهل البيت، فأبطلوا السنة المطهّرة بأسرها، وتمسّكوا في مقابلها وتعوضوا عنها بأكاذيب مفتراة مشتملة على القدح المكذوب المفترى في الصحابة، وفي جميع الحاملين للسنة المهتدين بهديها، العاملين بما فيها، الناشرين لها في الناس، من التابعين وتابعيهم إلى هذه الغاية، وسمّوهم بالنصب(٢) والبغض لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولأولاده، فأبعد الله الرافضة وأقمأهم .))(٣)

هذا وقد اعتنى الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ اعتناء كبيرا بالردّ على هذه الطائفة الضالّة في هذا الموضوع، فقد ألّف كتابين، أحدهما : درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة(٤) بيّن فيه مناقب وفضائل كلّ من الصحابة والقرابة ـ رضوان الله عليهم ـ،

---

(١) قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني (ص ٢٩٤) .

(٢) النواصب، والناصبية، وأهل النصب : هم الذين يبغضون عليّا رضي الله عنه وأصحابه، وسمّي ذلك لأنّهم نصبوا له أي عادوه وأظهروا له الخلاف . ( انظر : لسان العرب : ابن منظور ٧٦٢/١ مادة : نصب، ومجموع فتاوى : ابن تيمية ٣٠١/٢٥ ) .

(٣) قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني (ص ٣٠٥، ٣٠٦)، وانظر أدب الطلب له (ص ٩٦) .

(٤) حققه الدكتور/ حسين بن عبد الله العمري، وطبعه دار الفكر بدمشق، عام ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م .

والثاني: ارشاد الغبي الى مذهب أهل البيت في صحب النبي.[1] نقل فيها اجماع أهل البيت من ثلاث عشرة طريقة على عدم ذكر الصحابة بسبّ أو ما يقاربه ، وقد أثارت هذه الرسالة ثائرة الرافضة في أيّامه ، وحكى أنّه وقعت هذه الرسالة بأيدي جماعة من الرافضة الذين بصنعاء المخالفين لمذهب أهل البيت، فجالوا، وصالوا، وتعصّبوا، وتحزّبوا، وأجابوا بأجوبة ليس فيها الاّ محض السباب والمشاتمة.[2] قال - رحمه الله -: وكلّ من عنده أدنى معرفة يعلم أنّي لم أذكر فيها الاّ مجرّد الذبّ عن أعراض الصحابة الذين هم خير القرون، مقتصراً على نصوص الأئمة من أهل البيت، ليكون ذلك أوقع في نفوس من يكذب عليهم ، وينسب الى مذهبهم ما هم منه براء .))[3]

ب - اعتقادهم بعصمة علي رضي الله عنه .

ومن بدع هذه الطائفة قولهم بعصمة علي رضي الله عنه ، وهو قول فاسد .

يقول الشوكاني - رحمه الله تعالى - :(( عصمة علي وحجّيّة قوله ذهب الى القول بهما جماعة من أهل البيت، وذهب جماعة منهم وسائر المسلمين أجمعين الى أنّ المعصوم انّما هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الخصوص، والحجّة انّما هي ما جاء عن الله وعنه )).[4]

وأورد ما استدلّ به القائلون بعصمة علي رضي الله عنه من الأحاديث ، منها :

حديث :(( علي مع القرآن، والقرآن مع علي، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض ))[5]

وحديث:(( من فارق عليّاً فارقني، ومن فارقني فقد فارق الله ))[6]

ومنها حديث:(( هذا فاروق هذه الأمّة ، يفرّق بين الحقّ والباطل. يعني عليّاً . ))[7]

---

(١) وهو رسالة لم تزل مخطوطة ،وتوجد في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ضمن مجموع (٨٣) صفحة (٨٠ - ٩١) ولم أتمكّن من الاستفادة منها. وقد تحدث الشوكاني عن فضائل الصحابة وعن التفضيل بينهم وغيرهم في عدّة مواضع من كتبه ( انظر مثلاً: فتح القدير ٢/٥١،٣٩٨،٤٠٠، - ٤٠١ ،وأيضاً ٥/١٦٩،١٩٧،١٩٨ . ونيل الأوطار ١٠/٢٤٨ - ٢٥٠ ) .

(٢) انظر حكايات الكتاب وما تسبّب منه من اختلاف بين المؤلف وجماعة الرافضة في اليمن في عصره في: البدر الطالع (١/٢٢٣،٢٢٤،٢٣٤،٢٣٥ ) ،وأيضاً: قطر الولي على حديث الولي (ص ٢٩٨) وقد ذكرت شيئاً منها في باب التمهيد (ص ٣٢) .

(٣) البدر الطالع : الشوكاني (ص ٢٢٤) .

(٤) عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد : الشوكاني (ص ٢٤٥) ضمن أمناء الشريعة .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/١٢٤) وصحّحه ووافقه الذهبي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٣٤) : رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه صالح بن أبي الأسود وهو ضعيف .

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/١٢٤) وصحّحه ،قال الذهبي في التلخيص: بل هو منكر ،وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٣٥) : رواه البزار ورجاله ثقات .

(٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٠٢) : رواه الطبراني والبزار عن أبي ذرّ ،وفيه عمرو بن سعيد المصري وهو ضعيف .

وحديث: (( أنا وهذا حجّة على أمّتي يوم القيامة - يعني عليّاً ))[1] ونحو هذا الحديث كثير .[2]

وبيّن - رحمه الله - أنّ الجمهور أجاب عنها بأجوبة مختلفة، منها: القدح في أسانيد بعضها، ومنها: المنع من دلالتها على المطلوب، ومنها: الالزام بأنّه لا يختصّ ذلك بعلي عليه السلام[3]، بل ثبتت العصمة وحجّيّة القول لجماعة من الصحابة وردفيهم ما يدلّ على نحو ما دلّت عليه هذه الأحاديث، كما ورد في حقّ ابن مسعود ( رضي الله عنه ) أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (( رضيت لأمّتي ما رضي لها ابن أمّ عبد ))[4]، وما ورد في أبي عبيدة ( رضي الله عنه ) من أنّه (( أمين هذه الأمّة ))[5]، وما ورد في حقّ أبي بكر وعمر ( رضي الله عنهما ) من حديث حذيفة عند الترمذي أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (( اقتدوا باللذَيْنِ من بعدي أبي بكر وعمر ))[6] وما أخرجه الشيخان من حديث ابن

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخه (٨٨/٢) عن أنس، قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٣٧٣): رواه الخطيب عن أنس مرفوعاً، وهو موضوع، والمتهم به مطر بن أبي مطر، قال في الميزان: هذا باطل. ( انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٥ / ٢٥٢ ) .

(٢) انظر عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد : الشوكاني (ص ٢٤٥، ٢٤٦) ضمن أمناء الشريعة. وقد جمع الشوكاني مثل هذه الأحاديث وانتقدها في كتابه : الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ( انظر: ص ٣٤٢ - ٣٨٤) . وتقدّم الحديث عنها في (ص ٨٩٨٦).

(٣) إنّ قول الشوكاني: ( عليه السلام ) بعد ذكر علي لا تعني أكثر من معناها الذي تدلّ عليه اللغة، ولا ينبغي تحميلها أكثر من ذلك، لأنّ الشوكاني لم يستعملها لعلي فقط، بل يطلقها على غيره كما هو ثابت، كما أنّ الشوكاني يذكر عليّاً ويترضّى عنه في معظم ذكره لعلي ، ولا يخفى أنّ السلام على الموتى قد شرعه الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عندما أتى المقبرة: (( السلام عليكم دار قوم مؤمنين )) ( أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، (٦٦٩/٢ برقم ٩٧٤ ). وقد ذكر البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة قال: باب مناقب فاطمة عليها السلام. ( انظر الفتح ١٣١/٧ ) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٧/٣، ٣١٨) وصحّحه، ووافقه الذهبي، وقد روي الحديث بزيادة فيه بلفظ: (( وكرهت لأمّتي ما كره لها ابن أمّ عبد )) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٠/٩): رواه البزار والطبراني في الأوسط باختصار الكراهة، ورواه في الكبير منقطع الاسناد، وفي اسناد البزار محمد بن حميد الرازي، وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله وثّقوا . والحديث صحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٢٥/٣ برقم ١٢٢٥).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه (الفتح ١١٦/٧، ١١٧، برقم ٣٧٤٤، ٣٧٤٥)، والترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح (٦٢٣/٥ برقم ٣٧٩٠، ٣٧٩١)، وابن ماجة في المقدمة، باب فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضائل خباب (٥٥/١ برقم ١٥٤)، وأحمد في المسند (١/ ١٨)

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما - كليهما (٥٧٠/٥ برقم ٣٦٦٢، ٣٦٦٣)، وقال: هذا حديث حسن، وابن أبي عاصم في السنة (٥٣١/٢ برقم ١١٤٨، ١١٤٩) قال الألباني: حديث صحيح. ( انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٣٣/٣ - ٢٣٦ برقم ١٢٣٣) .

عباس ( رضي الله عنهما ) أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (( اللهمّ فقّهه في الدين ))[1] وفي رواية : (( اللهمّ علّمه الكتاب ))[2] فهذه الأحاديث ونحوها تدلّ على عصمة كلّ فرد من أفراد الصحابة أو جماعة منهم ، ولم يقل به أحد .

ثمّ ردّ - رحمه الله - على قول الرافضة القائلين بعصمة علي، والحسَنَيْن، والبتول رضي الله عنهم ، وبيّن أنّه إذا كانت قد وردت فيهم أحاديث بأنّهم من أهل الجنة، فانّه لا تلازم بين دخول الجنة والعصمة، وإلا أثبتنا العصمة للعشرة المبشّرين، وكلّ أفراد الصحابة الذين وردت فيهم أحاديث تدلّ على أنّهم من أهل الجنة ، كعبد الله بن عبد السلام ، وحارثة بن سراقة ، وطلحة بن عبد الله ، وكأصحاب بدر ، وأهل بيعة الرضوان ، وغيرهم . فلو كان دخول الجنة مستلزما للعصمة كان أكثر أكابر الصحابة معصومين ، واللازم باطل، فالملزوم مثله .[3]

وهكذا أبطل الشوكاني - رحمه الله تعالى - البدع التي ابتدعتها الرافضة وشدّد عليهم ، وقد نهج منهج أهل السنة في مناقشتهم ، وفي دعوتهم إلى التمذهب بالاسلام جملة ، وإلى عدم الرجوع إلى أقوال العلماء المتعصّبين ، بل إلى الكتاب والسنة اللذين أمرنا الله باتباعهما ، ولم يأمرنا باتباع غيرهما .

## ٢ - بدعة المتصوّفة

ذكر الشوكاني - رحمه الله تعالى - المفاسد التي أصابت دين الاسلام وفرّقت كلمة المسلمين، ومنها ما صار عليه هذه الطائفة المدعوة بالمتصوّفة . قال :

(( فقد كان أوّل هذا الأمر يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة إلى أعلى مبلغ ، ومشى على هدي الشريعة المطهرة ، وأعرض عن الدنيا ، وصدّ عن زينتها ، ولم يغتر ببهجتها ، ثم حدث أقوام جعلوا هذا الأمر طريقا إلى الدنيا ، ومدرجا إلى التلاعب بأحكام الشرع ، ومسلكا إلى أبواب اللهو والخلاعة ، ثم جعلوا لهم شيخا يعلّمهم كيفية السلوك ، فمنهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء ( الفتح ٢٤٤/١ برقم ١٤٣ ) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب في فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ( ١٩٢٧/٤ برقم ٢٤٧٧ ) ، وأحمد في المسند ( ٢٦٦/١ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ) .

(٢) مسند الامام أحمد ( ٣٥/٦ ) .

(٣) انظر عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد : الشوكاني ( ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ) ضمن أمناء الشريعة .

من يكون مقصده صالحا وطريقته حسنة ، فيلقّن أتباعه كلمات تباعدهم من الدنيا وتقرّبهم من الآخرة ، وينقلهم من رتبة إلى رتبة على أعراف يتعارفونها، ولكنّه لا يخلو غالب ذلك من مخالفة للشرع وخروج عن كثير من آدابه ))(١)

وبيّن الشوكاني أنّ الخير كلّ الخير في الكتاب والسنة ، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه ، وان جائنا أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة وأتقاهم لله تعالى وأخشاهم له في الظاهر ، فانّه لا زهد لمن لم يمش على الهدي النبوي ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم ، فانّ الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنصب وايقاعها على أبلغ الوجوه ، بل انّما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة بموافقة الشرع والمشي على الطريقة المحمدية ، واعتبرْ بالخوارج ، فقد وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بما وصف من تلك العبادات والمجاهدات التي لا تبلغ عبادتنا ولا مجاهدتنا الى شيئ منها ، ولا تعتبر بالنسبة اليها ، ومع هذا فقال:(( إنّها لا تجاوز تراقيهم ))(٢) وقال:(( إنّهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ))(٢) وقال:(( إنّهم كلاب النار ))(٣) فانظر كيف كانت مجاهداتهم وعباداتهم وقيامهم الليل وصيامهم النهار نقمة عليهم وبلية ومحنة لهم لم تعد عليهم بنفع قط الا ما أصيبوا به من الخسار والنكال والوبال ، فكانت تلك الطاعات الصورية من صلاة وصيام وتهجد وقيام هي نفس المعاصي الموجبة للنار .

وهكذا كلّ من رام أن يطيع الله على غير الوجه الذي شرعه لعباده وارتضاه لهم ، فانّه ربّما يلحق بالخوارج بجامع وقوع ما أطاعوا الله به على غير ما شرعه لهم في كتابه وعلى لسان رسوله . ثم قال:

(( واني لأخشى أن يكون من هذا القبيل ما يقع من كثير من المتصوّفة من تلك

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني (ص ٢١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في عدّة مواضع في صحيحه ( انظر الفتح ٤٣٤/٦ برقم ٣٣٤٤) ومسلم في كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٧٤٠/٢ برقم ١٠٦٣ ـ ١٠٦٨) وتمامه كما في الموضع الأخير عن يسير بن عمرو قال: سألت سهل بن حنيف هل سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الخوارج ؟ فقال: سمعته ( وأشار بيده نحو المشرق): (( قوم يقرأون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .))

(٣) أخرجه ابن ماجة في المقدّمة باب في ذكر الخوارج (٦١/١ برقم ١٧٣) بلفظ: الخوارج كلاب النار وأحمد في المسند (٣٥٥/٤) عن ابن أبي أوفى وابن أبي عاصم في السنة (٤٢٤/٢ ـ برقم ٩٠٤) قال الألباني: حديث صحيح ورجال اسناده ثقات رجال الشيخين . ( انظر مشكاة المصابيح ١٠٥٥/٢ برقم ٣٥٥٤) .

الأقوال والأفعال التي ظاهرها التنفير عن الدنيا، والبعد عن أهلها، والفرار عن زينتها، مع تلك الوظائف التي يلازمونها من التخشع، والانكسار، والتلهب، والتأسف، والصراخ تارة، والهدوء تارة أخرى، والرياضيات، والمجاهدات، وملازمة أذكار يذكرون بها لم ترد في الشرع، على صفات لم يأذن الله بها، مع ملازمة تلك الثياب الخشنة الدرنسة، والقعود في تلك المساطب القذرة، وما ينضم إلى ذلك من الهيام، والشطح، والأحوال التي لو كان فيها خير لكانت لرسول الله وأصحابه الذين هم خير القرون .))[1]

وقد ابتدعت المتصوفة أمورا كثيرة ودعوا إليها، ولم تكن عند الزهاد السابقين، ومنها ترك الزواج، وإدامة الجوع، ومواصلة الصوم، والعزلة والخلوة، والغناء، والوجد[2]، وتقسيم الدين إلى حقيقة وشريعة، وتقديس الأولياء، وتفضيلهم على الأنبياء، ومنها القول بالفناء[3]، والحلول، ووحدة الوجود، والاتحاد بين المخلوق والخالق[4] وهكذا تدرج هؤلاء المتصوفة إلى أن شرعوا لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله، وأعلنوا عن أنفسهم أنهم أهل الله وأحباؤه، ولهم صلاحية ليست للأنبياء والرسل، إذ في إمكانهم أن يأخذوا الدين وشرائعه عن الله مباشرة بغير واسطة، ودون حاجة إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد تسربت هذه الأمور البدعية إلى صفوف المسلمين منذ زمن قديم، ولا زال تؤدي

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ص ٢١٩، ٢٢٠) .

(٢) قال الجرجاني: الوجد: ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع. (التعريفات: ص ٢٥٠ )، وعرفه الغزالي بأنه حال تتوسط السماع والرقص، فالسماع يثمر في القلب حالة تسمى الوجد، ويثمر الوجد تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما بحركة موزونة فتسمى التصفيق والرقص. ( انظر الإحياء ٢/٢٩٣ وما بعدها. ط/ دار المعرفة ) .

(٣) قال الجرجاني: الفناء: سقوط الأوصاف المذمومة كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة، والفناء فناءان: أحدهما ما ذكرنا، وهو بكثرة الرياضة. والثاني عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق. ( التعريفات ص ١٦٩ )، وفسر طائفة من المتصوفة الفناء بفناء الكلية، أي فناء البشرية، فمنهم من ترك الطعام والشراب، وتوهم أن البشرية هي القالب، والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها، فيجوز أن يكون موصوفا بالصفات الإلهية. ( انظر اللمع للطوسي ص ٥٤٣ تحقيق: د/عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي ) .

(٤) الفرق الدقيق بين هذه الاصطلاحات الصوفية الثلاث: أن وحدة الوجود هو القول بأن الكون والله شيء واحد، وكل شيء في الكون هو الله لا غير، وكان ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) من أشهر المتصوفة القائلين بها. والحلول: يستلزم الاثنينية: اللاهوت والناسوت، حيث نزلت اللاهوت وحلت في الناسوت، كما اعتقد النصارى في المسيح عليه السلام، وكان الحلاج (ت ٣٠٩ هـ) من أشهر المتصوفة القائلين به. أما الاتحاد فهو على عكس الحلول، أي رفعت الناسوت واتحدت باللاهوت، كما اعتقد البراهمة والهندوس وأمثالهم. ( انظر: البوذية تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها: رسالة الماجستير للباحث ص ٤٩١ - ٤٩٢) .

دورها في إفساد الأمة الإسلامية في كثير من البلدان، ولا يزال بعض الناس من المنتسبين للعلم وغيرهم مغترين بها، ومتحمّسين في الدفاع عنها وعن أهلها .

وقد تصدّى لها وكشف عن حقائقها كثير من علماء المسلمين[1]، منهم الإمام الشوكاني الذي نحن بصدد الحديث عنه، فقد تناول ـ رحمه الله تعالى ـ في كثير من كتبه هذه الأمور بالنقد الشديد، وخاصّة في كتابه: قطر الولي على حديث الولي أو ولاية الله والطريق إليها، ورسالته: الصوارم الحدّاد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد. وهي ما زالت مخطوطة.[2] حيث نقل فيها أقوال العلماء أهل السنة في الحكم على ما تضمّنته الكتب الصوفية من الضلال والإضلال، مثل الفصوص، والفتوحات لابن عربي[3]، والبد لابن سبعين[4]، والإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي[5] وشعر ابن الفارض[6] المسمّى بالقصيدة التائية[7].

---

(١) هناك الكثير من العلماء المتقدمين والمتأخرين ألّفوا في الردّ على التصوّف والمتصوّفة وكشف حقائقه، منهم: ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تلبيس إبليس، وابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) في: ذمّ ما عليه مدّعوا التصوّف، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في كثير من مؤلّفاته، مثل: الاستقامة، وبغية المرتاد، ومجموعة الرسائل والمسائل، واقتضاء الصراط المستقيم، وحقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، وبرهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ) في: مصرع التصوّف. ومن المتأخّرين: عبد الرحمن الوكيل في: هذه هي الصوفية، وإحسان إلهي ظهير في: التصوّف المنشأ والمصادر، ومحمد فهر شفقة في: التصوّف بين الحقّ والخلق.

(٢) في ١٦ ورقة، وتوجد في مكتبة الجامعة الإسلامية، تحت رقم (٥٦٢) ميكروفيلم .

(٣) محمد بن علي بن محمد ابن عربي المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقّب بالشيخ الأكبر، قال عنه الذهبي: قدوة القائلين بوحدة الوجود، له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، أشهرها: فصوص الحكم، والفتوحات المكية. توفّي (٦٣٨ هـ) في دمشق. (انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال: الذهبي ٥/١٠٥، ١٠٦، وجمهرة الأولياء وأعلام التصوّف: محمود المنوفي ٢/٢٠١، والأعلام: الزركلي ٦/٢٨١، ٢٨٢) .

(٤) أبو محمد عبد الحقّ بن إبراهيم بن سبعين الإشبيلي، من زهّاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود، له أتباع ومريدون يعرفون بالسبعينية، له مؤلفات منها: بدّ العارف وعقيدة المقرّب الكاشف، وأسرار الحكمة الشرقية، ورسائل ابن سبعين. توفّي (٦٦٩ هـ) ـ (انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ابن كثير ١٣/٢٦١، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٥/٣٢٩، والأعلام: الزركلي ٣/٢٨٠) .

(٥) عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، من علماء المتصوّفة، وأصحاب الاتحاد ووحدة الوجود، له كتب كثيرة، منها: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، والمناظر الإلهية. توفّي (٨٣٢ هـ) (الأعلام: الزركلي ٤/٥٠، ٥١) .

(٦) شرف الدين أبو حفص عمر بن علي السعدي الحموي المعروف بابن الفارض، من أشعر المتصوّفة، ويلقّب بسلطان العاشقين في فلسفة تتصل بالاتحاد ووحدة الوجود، كان يكثر العزلة، وكان يرقص ويتواجد حينما يغنّين له بالدفّ والشبابة. توفّي (٦٣٢ هـ) (انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال: الذهبي ٤/١٣٤، وجمهرة الأولياء وأعلام التصوّف: محمود المنوفي ٢/٢٤٥ ـ ٢٤٨، والأعلام: الزركلي ٥/٥٥، ٥٦) .

(٧) انظر الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد: الشوكاني (ورقة ١٤، ١٥، ١٦) (مخطوط) .

وغير ذلك .

وفيما يلي بعض الأبيات التي قالها في هؤلاء :

فهم الذين تلاعبوا بين الورى ⁂ بالدين وانتدبوا لقصد خرابه
قد نهج الحلاج[1] طرق ضلالهم ⁂ وكذاك محيي الدين لا حيا به
وكذاك فارضهم بتائيّاته ⁂ فرض الضلال عليهم ودعا به
وكذا ابن سبعين المهين فقد غدا ⁂ متطورا في جهله ولعابه
رام النبوءة لا لعا لعثوره ⁂ روم الذباب مصيره كعقابه
وكذلك الجيلي أجال جواده ⁂ في ذلك الميدان ثمّ سعى به
إنسانه إنسان عين الكفر لا ⁂ يرتاب فيه سابح بعبابه
والتلمساني[2] قال قد حلّت له ⁂ كلّ الفروج فخذ بذا وكفى به
نعقوا بوحدتهم على رؤوس الملا ⁂ ومن المقال أتوا بعين كذابه
إن صحّ ما نقل الأئمّة عنهم ⁂ فالكفر ضربة لازب لصحابه
لا كفر في الدنيا على كلّ الورى ⁂ إن كان هذا القول دون نصابه
قد ألزمونا أن ندين بكفرهم ⁂ والكفر شرّ الخلق من يرضى به
فدع التعسّف في التأوّل لا تكن ⁂ كفتى يغطّي جيفة بثيابه
قد صرّحوا أنّ الذي يعنونه ⁂ هو ظاهر الأمر الذي قلنا به
هذي فتوحات الشؤم شواهد ⁂ أنّ المراد له نصوص كتابه .[3]

كما جمع في هذه الرسالة ما صدر من هؤلاء المتصوّفين المخذولين من المقالات التي[4] كلّ واحدة منها من أكفر الكفر، كقولهم بالاتحاد، ووحدة الوجود، وتخطئة الأنبياء، وتصويب الكفار، ورفع أنفسهم على الأنبياء، وكلامهم على القرآن . وقال: (( فإن كنت لا تحكم بواحدة من هذه المقالات على صاحبها بالكفر فما فرعون، وهامان، ونمرود، لديك في عداد

---

(١) هو الحسين بن منصور الحلاج، أبو مغيث، فارسي الأصل، أحد زنادقة الصوفية، اشتهر منه القول بالحلول. قال ابن النديم: كان محتالا مشعبذا يتعاطى مذاهب الصوفية، ويدّعي عند أصحابه الإلهية، ويقول بالحلول، وأنّ الإلهية قد حلّت فيه، وأنّه هو هو، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك، ومذاهب الصوفية للعامة، ولمّا عرف السلطان خبره على صحّته قطع يديه ثم أحرقه بالنار في آخر سنة (٣٠٩هـ) (انظر الفهرست: ابن النديم ٢٦٩ـ٢٧١، وانظر ترجمته في: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي (١١٢/٨)، وطبقات الصوفية: السلمي ٣٠٧، وميزان الاعتدال: الذهبي ٧١/٢ ) .

(٢) هو أبو الربيع عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن علي بن العابدي الكوفي ثم التلمساني، أحد زنادقة الصوفية، ومن القائلين بالوحدة المطلقة، يتبع طريقة ابن عربي في أقواله وأفعاله، من مصنفاته: شرح أسماء الله الحسنى، وشرح الفصوص لابن عربي توفي (٦٩٠ هـ) (انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ابن كثير ٣٢٦/١٣، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٤١٢/٥، والأعلام: الزركلي ١٣٠/٣) .

(٣) الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد: الشوكاني (ورقة ٤) (مخطوط)

(٤) انظر من الحلاج وشطحاته في ورقة (٦)، ومن ابن الفارض، وابن عربي، وابن سبعين، والتلمساني، وعبد الكريم الجيلي، في ورقة (٦، ٧، ٩، ١٠، ١٢)

الكفرة، والله المستعان والمدعو يوم الجمع .))[١]

وأكد - رحمه الله - أن القيام على هؤلاء المتصوفة من أعظم الواجبات، لأنهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء .[٢]

وأقتصر فيما يلي على ذكر بعض البدع التي وقعوا فيها، وخصوصا التي تكلم عليها الشوكاني - رحمه الله تعالى - في مؤلفاته. ومنها :

أ- الزهد الصوفي

يرى المتصوفة أن الزهد من أهم أسس التصوف وشروطه، وهو عندهم قطع علائق الدنيا وشواغلها، والتجرد من شهوة البطن والفرج، ويهدف إلى تربية النفس وإضعاف الجسم، فتتقوى على حسابه الروح على حد زعمهم. وله نظم وأساليب ينظمونها لتربية مريديهم، وفي كتبهم تفصيل دقيق عنها، لا مجال هنا لبسطها .[٣]

قال الجنيد سيد هذه الطائفة[٤] قولته المشهورة :

(( ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات .))[٥]

وقال أبو يزيد البسطامي[٦]: (( إنه وجد المعرفة بالله ببطن جائع، وبدن عار ))[٧]

وقد أنكر الشوكاني - رحمه الله - الزهد الصوفي المخالف للإسلام، لأنه هو الذي يضعف جسم المؤمن، ويحول دون قيامه بأدواره الحياتية نحو نفسه وأسرته ومجتمعه. وقرر

---

(١) العوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد: الشوكاني (ورقة ١٧) (مخطوط)

(٢) انظر المصدر السابق (ورقة ١٤)

(٣) انظر على سبيل المثال: اللمع للسراج الطوسي (ص ٧٢، ٧٣) والرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/٢٨٩-٢٩٧، ٣٢٤-٣٣٢، ٣٧٢-٣٧٩) تحقيق د/عبد الحليم محمود ومحمود بن شريف، وكشف المحجوب للهجويري (٢/٥٦٩-٥٧١) ترجمة د/ سعاد عبد الهادي قنديل. وإحياء علوم الدين للغزالي (٤/١٨٩-٢٤٢)، وعوارف المعارف للسهروردي (١٠٤-١٠٧، ١٧٤، ١٧٥) ضمن ملحق الإحياء.

(٤) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، عدّه العلماء شيخ مذهب التصوف توفي (٢٩٧هـ) (انظر ترجمته في: الفهرست: ابن النديم ٢٦٤، وتاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٧/٢٤١، وصفة الصفوة: ابن الجوزي ٢/٤١٦، والبداية والنهاية: ابن كثير ١١/١٢١) .

(٥) طبقات الصوفية: السلمي (ص ١٥٨) .

(٦) طيفور بن عيسى البسطامي، فارسي، يعدّ من أكبر أئمة التصوف، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية، له أخبار كثيرة، منها أنه ادّعى لنفسه المعراج كما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم المعراج، فأخرجوه من بسطام، ورموه بالإلحاد. توفي (٢٦١هـ) (انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال: الذهبي ٢/٣٤٦، ٣٤٧، ولسان الميزان: ابن حجر ٣/٢١٤، ٢١٥ .)

(٧) طبقات الصوفية: السلمي (ص ٧٤)، والرسالة القشيرية: القشيري (١/٦٠٥) .

أنه :(( لا زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه ، وهو من أهل النار ....

والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه ، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعي على نفسه وعلى من يعول، ... مخالف لما شرعه الله لعباده ، واقع في النهي القرآني، وهكذا من حرم حلالا، أو حلل حراما، فانه يدخل في المسرفين،ويخرج عن المقتصدين .))(1)

وقد أنكر الله سبحانه وتعالى على الذين يحرمون ما أحله الله من طيبات الطعام والشراب والمزينات، كبعض المتنطعين، في قوله عز وجل:

(( قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللهِ الَّتِيْ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ))(2)

قال الشوكاني في تفسير الآية :(( الزينة : ما يتزين به الانسان من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة ، كالمعادن التي لم يرد نهي عن التزين بها،والجواهر ،ونحوها، وقيل الملبوس خاصة ، ولا وجه له ، بل هو من جملة ما تشمله الآية ، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة اذا لم يكن مما حرمه الله ، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة ، ولم يمنع منها مانع شرعي، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطا بينا ... وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس، فانه لا زهد في ترك الطيب منها، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للانكار على من حرم ذلك على نفسه ،أو حرم على غيره .))(3)

فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر انما هو في فعل ما ندب الله عباده اليه ،وعمل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،وسنه لأمته ،واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون، اذ كان خير الهدي هدي نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .(4)

وبين الشوكاني ــ رحمه الله تعالى ــ أن هذا الزهد الصوفي ناتج من غلوهم في العبادة ،وافراطهم في الطاعة ،على وجه تخرج به عن الحد الذي حده الله ،والمقدار الذي قدره ، وهذا الغلو ممنوع منه ومنهي عنه ، وذلك كمن يصوم ولا يفطر ، ويقوم الليل ولاينام ، ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه ، ولهذا يقول الصادق المصدوق ( صلى الله

---

(1) فتح القدير : الشوكاني (200/2) . (2) سورة الأعراف : آية 32 .
(3) فتح القدير : الشوكاني (200/2) . (4) انظر المصدر السابق (69/2) .

عليه وسلم ) فيما صحّ عنه : (( أمّا أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأنكح النساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي ))(١)

فليس في الاسلام زهد بهذا المعنى التصوّفي ، وانّما الزهد المشروع اذا قلنا إنّ هناك زهداً هو ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة ، وأمّا كلّ ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع ، بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع .(٢)

ب ـ العزلة

ومن مظاهر الزهد الصوفي العزلة ، ومعناها ـ كما قال الجرجاني ـ : هي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع .(٣)

والعزلة عند عامّة الصوفية هي الوحدة ، والانفراد ، والانقطاع ، عن مخالطة الناس ، وأسلوبها مختلفة باختلاف الطرق الصوفية ، اذ كلّ طريقة لها أسلوبها الخاصّة في العزلة والخلوة .(٤)

وقد اعتنوا بها اعتناء كبيراً ، وعقدوا لها فصلاً خاصّاً في كتبهم ، وساقوا الأقوال والحكايات في بيان فضيلتها ، وحثّ طوائفهم على التزامها .(٥)

ومن الأمثلة ما قاله القشيري(٦) في رسالته : (( الخلوة صفة أهل الصفوة ، والعزلة من أمارات الوُصْلة ، ولا بدّ من المريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ، ثم في نهايته من الخلوة لتحقّقه بأنسه ))(٧)

وقال الجنيد : (( من أراد أن يسلم له دينه ، ويستريح بدنه وقلبه ، فليعتزل الناس ، فانّ هذا زمان وحشة ، والعاقل من اختار فيه الوحدة ))(٨)

---

(١) انظر فتح القدير : الشوكاني (٢/٥٣٠) والحديث تقدّم تخريجه في صفحة (٤١٨، ٤١٩) .
(٢) انظر مجموعة الرسائل والمسائل : ابن تيمية (٢٢٦/١) ، وأيضاً تلبيس ابليس : ابن الجوزي (ص ١٤٦) .
(٣) انظر التعريفات : الجرجاني (ص ١٥٠) .
(٤) انظر على سبيل المثال شروط العزلة والخلوة عند الطريقة التيجانية في كتاب : رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد الفوتي ، المطبوع على هامش : جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني ، لعلي بن حرازم بن العربي (١٥٣/٢ وما بعدها ) ط/ مصطفى البابي الحلبي ، عام (١٣٨٠هـ) .
(٥) انظر : قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢٣٨/٢) ، وحياة القلوب للأسنوي على هامش قوت القلوب (٩٣/٢ ـ ٩٩) ، والرسالة القشيرية للقشيري (٢٥٨/١ ـ ٣٠٤) ، والاحياء للغزالي (٢٢٨/٢ ، ٢٢٩) ، وعوارف المعارف للسهروردي (ص ١٢١ ـ ١٣٠) ، وكشف المحجوب للهجويري (٢٧٠/١ ، ٢٧١) .
(٦) سبق له ترجمة في صفحة (٢٩٠) .   (٧) الرسالة القشيرية : القشيري (٢٩٨/١) .
(٨) المصدر السابق (٣٠٢/١) ، وأيضاً حياة القلوب على هامش قوت القلوب : الأسنوي (٩٣/٢) .

وغيرهذا من الأقوال الصوفية التي تدعو هذه الأمة الى العزلة، والى اضعاف الكيان الاسلامي بترك الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك الجهاد في سبيل الله.

وقد نقد الشوكاني - رحمه الله - هذه البدعة الصوفية واستنكرها، فقال في تعليقه على قول أبي القاسم القشيري: (( ولا يتمّ قرب العبد من الحقّ الاّ ببعده من الخلق ))[1]:

(( فهذا انّما يكون فيمن لا ينفع فيه للعباد، أمّا من كان ينفعهم بعلمه، أو بموعظته، أو بجهاده، أو بانكاره المنكرات، أو بالقيام فيهم بما أوجب الله على مثله القيام به، فهذا يكون قربه من الخلق أقرب الى الحقّ، وهو مقام الأنبياء، ومقام العلماء الذين أخذ الله عليهم البيان للناس ... وقد جاء في السنة أنّ المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أحبّ الى الله من المؤمن الذي لا يخالطهم. ))[2]

ج - الولاية الصوفية

وهي من أكثر الأشياء التي يدندن حولها المتصوّفة قديما وحديثا، وقد فصّل الشوكاني - رحمه الله تعالى - موضوع الولاية تفصيلا دقيقا، وأفرد لها تأليفا في كتابه الموسوم بقطر الولي على حديث الولي، أو ولاية الله والطريق اليها، وهو شرح لحديث الولي: (( من عادى لي وليّا فقد آذنته بالحرب .. الحديث ))[3] ردّا على دعاوي المتصوّفة وأمثالهم التي استخدمت هذا الحديث لدعم آرائها الباطلة.

ففي هذا الكتاب تعرّض - رحمه الله - لمفهوم الولي، وصفاته، ووسائل تزكيته لنفسه، وثمرة مجاهداته وقرباته، وما يصادفه من كرامات وأمثالها، فرجّح أنّ المراد بوليّ الله هو العالم بالله تعالى، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته. قال:

(( وهذا التفسير للوليّ هو المناسب لمعنى الوليّ المضاف الى الربّ سبحانه، ويدلّ على ذلك ما في الآيات القرآنية، كقوله سبحانه: (( أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ

---

(١) انظر الرسالة القشيرية: القشيري (٢٥٨/١).

(٢) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٤١٧، ٤١٨) والحديث أخرجه أحمد في المسند (٤٣/٢، ٣٦٥/٥)، والترمذي في كتاب صفة القيامة، باب رقم (٥٥) (٥٧٢/٤ برقم ٢٥٠٧)، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (١٣٣٨/٢ برقم ٤٠٣٢) بألفاظ مختلفة، وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٥٢/٢ برقم ٩٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع (الفتح ٣٤٨/١١ برقم ٦٥٠٢) وقد تقدّم جزء من الحديث في صفحة (٣٥١).

يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ))(١) وكقوله سبحانه :(( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ))(٢) وغير ذلك من الآيات، فأولياء الله هم خلّص عباده القائمون بطاعاته المخلصون له.))(٣)

ومقياس الولاية والولي هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فحقّ على الوليّ وإن بلغ في الولاية إلى أعلى مقام وأرفع مكان أن يكون مقتديا بالكتاب والسنة، وازنا لأفعاله وأقواله بميزان هذه الشريعة المطهّرة، واقفا على الحدّ الذي رسم فيها، غير زائغ عنها في شيئ من أموره، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنّه قال:(( كلّ أمر ليس عليه أمرنا فهو ردّ ))(٤) وإذا ورد عليه وارد يخالف الشريعة ردّه، واعتقد أنّه من الشيطان، ويدافع ذلك بحسب استطاعته، وبما تبلغ إليه قدرته. ومن خالف هذا ممن يطلق عليه اسم الوليّ فليس من أولياء الله عزّوجلّ. ويستدلّ الشوكاني لذلك بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فانّه مع كونه من كبار الأولياء، ومع كون الرسول صلى الله عليه وسلم شهد له بأنّه من المحدَّثين(٥)، فلم يكن يعتمد على ذلك، بل كان دليله الكتاب والسنة في كلّ ما يعمل وما يدع، فكان يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويشاورونه، ويراجعهم ويراجعونه، ويحتجّ عليهم ويحتجّون عليه بالكتاب والسنة، ويرجعون جميعا إليهما.(٦)

قال:(( وإنّ ذلك هو المعيار الذي يعرف به الحقّ من الباطل، فمن ظهر منه شيئ مما

---

(١) سورة يونس ، آية ٦٢ ـ ٦٤ . (٢) سورة المائدة ، آية ٥٤ ـ ٥٦ .

(٣) انظر قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني (ص ٢٣٧، ٢٣٨)، وانظر أيضا ما ذكره في تفسيره فتح القدير (٤٣٦/٢) .

(٤) تقدّم تخريجه في صفحة (٧٩) .

(٥) كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(( لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثون، فان يك في أمّتي أحد فانّه عمر )) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب ( الفتح ٥٢/٧ برقم ٣٦٨٩) من أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (١٨٦٤/٤ برقم ٢٣٩٨) عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ للبخاري، ومعنى محدثون، أي ملهمون، والملهَم هو الذي يلقى في نفسه الشيئ فيخبر به حدسا وفراسة، وهو نوع يختصّ به الله عزّوجلّ من يشاء من عباده الذين اصطفى مثل عمر (النهاية لابن الأثير ٣٥٠/١ مادة حدث)

(٦) انظر قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني (ص ٢٥٠، ٢٥١) .

يخالف هذا المعيار فهو ردٌّ عليه، ولا يجوز لأحد أن يعتقد فيه أنّه وليّ الله .)) [1]

قلت : وهذا المعيار الشرعي الذي قرّره الشوكاني هو ما اتّفق عليه العلماء أهل السنة والجماعة [2] بخلاف المبتدعة من أهل التصوّف الذين يطلقون كلمة الوليّ على أئمتهم ومشايخهم، مراعين فيها اعتبارات أخرى غير هذه الاعتبارات الشرعية، كوقوع الكرامات والمكاشفات ونحوها، حيث جعلوا مجرّد وقوعها دليلا على فضل صاحبها، حتى ولو وقعت من فاجر، قالوا هذه كرامة للشيخ الطريقة الفلانية، وهكذا ، فأصبحت كلمة الوليّ والولاية محصورة في طائفة خاصّة، بعد أن كانت صفة محتملة لأيّ انسان مؤمن يقوم بنصرة دين الله من عباد الله المؤمنين .

وقد نقد الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الظاهرة الصوفيّة، ووضع المقياس في قبول الواقعات والمكاشفات اذ قال :

(( إنّ المعيار الذي لا يزيغ، والميزان الذي لا يجور، هو ميزان الكتاب والسنة ، فمن كان متّبعا لهما معتمدا عليهما فكراماته وجميع أحواله رحمانية ، ومن لم يتمسّك بهما، ويقف عند حدودهما، فأحواله شيطانية .[3] فلا يجوز للوليّ أن يعتقد في كلّ ما يقع له من الواقعات والمكاشفات أنّ ذلك كرامة من الله سبحانه ، فقد يكون من تلبيس الشيطان ومكره ، بل الواجب عليه أن يعرض أقواله وأفعاله على الكتاب والسنة ، فان كانت موافقة لها فهي حقّ وصدق وكرامة من الله سبحانه ، وان كانت مخالفة لشيئ من ذلك، فليعلم أنّه مخدوع ممكور به ، قد طمع منه الشيطان فلبس عليه .[4] كما نشاهده في الذين لهم تابع من الجنّ، فانّه قد يظهر على يده ما يظنّ من لم يستحضر هذا المعيار أنّه كرامة ، وهو في الحقيقة مخارق شيطانية ، وتلبيسات ابليسية ، ولهذا تراه يظهر من أهل البدع، بل من أهل الكفر ، وممن يترك فرائض الله سبحانه وتعالى، ويتلوّث بمعاصيه ، لأنّ الشيطان أميل اليهم للاشتراك بينه وبينهم في مخالفة ما شرعه الله سبحانه لعباده .)) [5]

---

(١) قطر الوليّ على حديث الوليّ : الشوكاني (ص ٢٥٣).

(٢) انظر، تفسير الطبري (١١٨/١٥)، وتفسير البغوي (٣٥٩/٢)، وتفسير الفخر الرازي (١٢٥/١٧ ـ ١٢٨)، وتفسير ابن كثير (٤٣٨/٢)، وكتاب النبوات لابن تيمية، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان له، ضمن مجموع فتاوى (١٥٦/١١ ـ ٣١١)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٥٦٠، ٥٧٢، ٥٧٣)، والفتح لابن حجر (٣٥٠/١١) .

(٣) قطر الوليّ على حديث الوليّ : الشوكاني (ص ٢٧٢) .

(٤) المصدر السابق (ص ٢٤٩) .

(٥) المصدر السابق (ص ٢٥٣) .

وأنكر الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ ما يسمّى بالكرامات الصوفيّة (١) التي وقعت عن طريق الرياضة والمجاهدة ، إذ قال :

(( وقد يظهر شيئ مما يظنّ أنه كرامة من أهل الرياضة وترك الاستكثار من الطعام والشراب، على ترتيب معلوم وقانون معروف، حتى ينتهي حاله إلى أن لا يأكل إلا في أيام ذوات العدد ، ويتناول بعد مضيّ أيام شيئا يسيرا، فيكون له بسبب ذلك بعض صفاء من الكدورات البشرية ، فيدرك ما لا يدركه غيره ، وليس هذا من الكرامات في شيئ، ولو كان من الكرامات الربّانيّة والتفضّلات الرحمانية لم يظهر على أيدي أعداء الله ، كما يقع كثيرا من المرتاضين من كفرة الهند الذين يسمّونهم الآن بالجوكية ٠ ))(٢)

وهكذا فقد رفض الشوكاني أن تكون أعمال المرتاضين وأمثالهم من السحرة والكهّان، أو المجانين والمرضى من قبيل كرامات الأولياء، لأنّ كرامات الأولياء إنّما أكرمهم الله بها، لأنّهم أحبّاؤه وأولياؤه ، بخلاف أولئك فمنهم من أبعده عن هذا التكريم لأنّه عدوّ الله ٠

ومن بدع المتصوّفة ما ادّعاه بعضهم من عصمة الأولياء من الأخطاء والمعاصي كما قال القشيري: (( إنّ من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء العصمة من المعاصي والمخالفات ))(٣) وقال ابن عربي: (( إنّ من شرط الامام الباطن أن يكون معصوما ))(٤) وقد يعبّرون عن هذه العصمة بالحفظ(٥). وهم في هذا قلّدوا الرافضة الذين يعتقدون العصمة لأئمّتهم ٠

وقد ردّ عليهم الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ وبيّن أنّ من جعل ما امتنّ به الله على عباده الصالحين من المحبّة لهم وما ترتّب عليها عصمة كعصمة الأنبياء فهو مخطئ مخالف للاجماع،

---

(١) انظر حكايات الصوفية في كراماتهم في: لطائف المنن: عبد الوهاب الشعراني (١/١٧١) ، والرسالة القشيرية: القشيري (٢/٦٧٣ـ٧١٣) ، وكشف المحجوب: الهجويري (٢/٤٦٤ـ٤٧٣) ، وتلبيس ابليس: ابن الجوزي (ص ٣٧٧ـ٣٨٧) ، وهذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل (ص ـ ١١٦ ـ ١٢٣) ٠

(٢) قطر الوليّ على حديث الوليّ: الشوكاني (ص ٢٥٣) ٠ والجوكية ( Yogism ) نسبة إلى جوكا ( Yoga ) ومعناها فعل الربط والسيطرة والتحكّم ، وهي فلسفة دينية ظهرت خلال عام (٨٠٠ ق م ) تقريبا، ولم يعرف بالتحديد أوّل من أسّسها، والهدف من الجوكية تحرير النفس عن شهوات الجسد، من طريق الممارسات والتدريبات الروحية والجسدية ، ويوصل هذا الهدف إلى الاتصال والاتحاد بالله ، كما يزعمون٠ ولمزيد من التفاصيل عن هذا المذهب انظر: قصة الحضارة : ول ديورانت (٢/٢٦٠ـ٢٦٧) ترجمة د/زكي نجيب محمود: القاهرة ١٩٦٨م ، والفلسفات الهندية: د/علي زيعور (ص ٣٤٢،٣٤٣) دار الأندلس للطباعة ١٩٨٠م ، والهند القديمة: د/محمد اسماعيل الندوي (ص ١٠٨ـ١١٠) دار الشعب ٠

(٣) الرسالة القشيرية: القشيري (٢/٦٦٧) ٠ (٤) الفتوحات المكية: ابن عربي (٣/١٨٣) ٠

(٥) انظر التعرّف لمذهب أهل التصوّف: الكلاباذي (ص ١٤٧) تحقيق/محمود أمين النواوي ، والرسالة القشيرية : القشيري (٢/٦٦٥) ٠

فإنّ العصمة بهذا المعنى خصّ الله سبحانه رسله وملائكته، ولم يجعلها لأحد من خلقه، فإنّ هذا المقام هو مقام النبوّة، لا مقام الولاية، ولا يخالف في ذلك إلّا جاهل أو زائغ.[1]

د ـ عقيدة الاتحاد بين المخلوق والخالق

ومن بدع المتصوّفة قولهم بالاتحاد بين المخلوق والخالق، وهو عقيدة اكتسبوها من الديانات والفلسفات الأجنبية، كالهندية، وغيرها. ومفاد هذا القول: أنّ وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى، ليس وجودها غيره، ولا شيء سواه ألبتة، وأنّ السالك المتصوّف إذا وصل إلى حالة الفناء[2]، وتحقّقت لديه المعرفة[3]، وتخلّص من جميع علائق المادّة، تضمحلّ ذاته في ذات الله، وصفاته في صفاته، ويغيب عن كلّ ما سواه، فلا يرى شيئاً في الوجود إلّا الله، ومن هنا تصدر عنهم شطحات وعبارات فاسدة تشعر بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود.[4]

وفرّعوا على هذه المقالة الملعونة فروعاً كفريّة، منها تصويب عبدة الأوثان، ومنها تخطئة الأنبياء في الإنكار عليهم، ومنها عدم صحّة لا إله إلّا الله، كما صرّح بذلك ابن عربي قال: لأنّ الاستثناء يستلزم التعدد، ولا تعدد. قال ابن تيمية: ولهذا كان يقول ابن سبعين وأصحابه في ذكرهم: ليس إلّا الله.[5]

ومما يستندون إليه على مقالتهم المخذولة قوله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربّه عزّ وجلّ قال: (( من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. الحديث ))[6]

---

(١) انظر قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٤٤٩). (٢) تقدّم تعريفها في صفحة (٤٢٥)

(٣) المعرفة في اصطلاح الصوفية هي العلم بلا واسطة الناشئ عن الكشف والشهود، وهي من أخصّ صفاتهم، ولهذا المعنى قال ذو النون المصري: "حقيقة المعرفة اطّلاع الحق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار. وقال ـ لما سئل بم عرفت ربّك؟ ـ: عرفت ربّي بربّي، ولولا ربّي لما عرفت ربّي. (انظر الرسالة القشيرية: القشيري ٢/٦٠٦، وكشف المحجوب: الهجويري ٢/٥١٦)

(٤) انظر: الفرق بين الفرق: البغدادي (ص ٢٤٨)، والصوارم الحداد: الشوكاني (ورقة ٦) (مخطوط)، وفي التصوّف الإسلامي وتاريخه: نيكلسون (ص ١٣٤) ترجمة / أبو العلا عفيفي القاهرة ١٣٦٦هـ، والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم متز (٢/٦٢، ٦٣) ترجمة / محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي. وانظر من كتب القوم: الفتوحات المكية لابن عربي (١/٣٥٤، ٢/٥٩)، وشرح القاشاني على فصوص الحكم له (ص ٢٩٥) (فصّ حكمة إمامية في كلمة هارونية) ط/١٣٨٦هـ، والإنسان الكامل للجيلي (١/٣١، ٣٢) ط/مصطفى البابي الحلبي ١٤٠٢هـ، وكشف المحجوب للهجويري (٢/٤٦٩).

(٥) الصوارم الحدّاد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد: الشوكاني (ورقة ٦، ٧) (مخطوط)

(٦) سبق تخريجه في صفحة (٣٥١).

يقول الشوكاني – وهو يبيّن رأي المتصوّفة في معنى الحديث –:

(( والاتحادية زعموا أنه على حقيقته، وأنّ الحقّ تعالى عين العبد، واحتجّوا بمجيء جبريل في صورة دِحْيَة [1]. قالوا: فهو روحاني خلع صورته وظهر بمظهر البشر، قالوا: والله سبحانه أقدر على أن يظهر في صورة الوجود الكلّي أو بعضه – تعالى الله من ذلك علوّاً كبيراً – )) [2]

ويردّ – رحمه الله – على هذه المقالة الفاسدة، بعد أن عرض الأقوال في معنى الحديث، والشروح التي ذكرها الحافظ ابن حجر في كتابه الفتح، وناقشها، قائلا مبيّنا منشأ الخطأ عندهم:

(( والحاصل أنّ قول الاتحادية يقضي عقل كلّ عاقل ببطلانه، ولا يحتاج الى نصب الحجّة معهم. وأصل الشبهة الداخلة عليهم من قول الثنوية [3]، فانّهم جعلوا الهين اثنين الخير والهاً للشرّ، فاله الخير النور، واله الشرّ الظلمة، وجعلوهما أصل الموجودات كلّها، فاذا غلب النور صار العبد نورانيّاً، واذا غلبت الظلمة صار العبد ظلمانيّاً.

وغفلوا عن كون هذا المذهب الكفري يردّ عليهم بادئ بدء، فانّ الظلمة غير النور، والشيء الذي حلا به غير هذا الحال. )) [4]

(( والحديث كلّه يردّ عليهم، فانّ قوله: من عادى لي وليّاً. يردّ عليهم، لأنّه يقتضي وجود معادٍ ومعادى، ومعادى لأجله، ويقتضي وجود موالٍ وموالَى، ويقتضي وجود مؤذِن ومؤذَن، ومحارِب ومحارَب، ومتقرِّب ومتقرَّب اليه، وعبد ومعبود، ومحِبّ ومحَبّ، وهكذا الى آخر الحديث فهو جميعه يردّ على الاتحادية المتمسّكين به من حيث لا يشعرون. )) [5]

وبيّن – رحمه الله تعالى – في موضع آخر أنّ القرآن كلّه مصرّح خلاف مقالتهم الشنيعة، فهذه فاتحة الكتاب، قد اشتملت على أكثر من عشرة أدلّة مبطلة لهذه المقالة، لأنّ الله جلّ جلاله قد أثبت فيها حامداً ومحموداً، وربّاً ومربوباً، وراحماً ومرحوماً، ومالكاً ومملوكاً، وعابداً ومعبوداً،

---

(١) هو دحية بن خليفة أحد الصحابة، كان جميلا حسن الصورة، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورته. ( انظر النهاية لابن الأثير ١٠٧/٢ وانظر الحديث في مسند الامام أحمد (١٠٧/٢) وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٠/٣ برقم ١١١١)

(٢) قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني (ص ٤٣١)، وانظر هذا الكلام المخذول في: الانسان الكامل لعبد الكريم الجيلي (٧٤/٢ – ٧٧).

(٣) قال الشهرستاني: الثنوية: هم الذين أثبتوا أصلين اثنين مدبّرين قديمين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد، يسمّون أحدهما النور والثاني الظلمة، ويزعمون أنّ الظلمة والنور يختلفان في الجوهر، والطبع، والفعل، والمكان، والأجناس، والأبدان، والأرواح. ( انظر الملل والنحل ٢٤٤/٢ ) تحقيق/محمد سيد كيلاني.

(٤) قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني (ص ٤٣٨). (٥) المصدر السابق (ص ٤٣٧، ٤٣٨).

ومستعينا ومستعانا به ، وهاديا ومهديا، ومُنْعِما ومُنْعَما عليه ، وغاضبا ومغضوبا عليه وغير ذلك (١) .

أمّا معنى الحديث: ( كنت سمعه الذي يسمع به الخ ) كما اختاره الشوكاني فهو : أي كنت سمعه بنوري الذي أقذف فيه ، فيسمع سماعا لا كما يسمعه أمثاله من بني آدم ، وكذلك بقية الجوارح . قال : (( فأيّ مانع من أن يمدّ الله سبحانه عبده من نوره ، فيصير صافيا من كدورات الحيوانية الإنسانية ، لاحقا بالعالم العلوي ، سامعا بنور الله ، مبصرا بنور الله ، باطشا بنور الله ، ماشيا بنور الله ، وما في هذا من منع أو من أمر لا يجوز على الرّبّ سبحانه ، وقد سأله رسوله وطلبه من ربّه (٢) . ووصف الله عباده بقوله : (( نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ (٣) )) وليس في هذا ما يخالف موارد الشريعة ، ولا ما ينافي ادراك عقول المتشرّعين العارفين بالكتاب والسنة . )) (٤)

هـ ـ رفع التكاليف الشرعية

ومن الأمور المبتدعة لهذه الطائفة ـ كما قاله الشوكاني ـ ما يحكي عن بعض المتلاعبين بالدين المدّعين للتصوّف أنّهم يزعمون أنّهم وصلوا الى ربّهم ، فانقطعت عنهم التكاليف الشرعية ، وخرجوا من جيل المسلمين المؤمنين ، وسقط عنهم ما كلّف الله به العباد في هذه الدار ، فاذا صحّ هذا فانما يقوله أحد من أولياء الرحمن ، بل يقوله أولياء الشيطان ، لأنّهم خرجوا الى حزبه ، وصاروا من جملة أتباعه .

فالعجب لهؤلاء المغرورين ، فانّهم رفعوا أنفسهم عن طريقة الأنبياء وطبقة الملائكة ، فانّ الأنبياء حالهم معروف من المداومة العبادة لله في كلّ حال ، والازدياد من التقرّبات المقرّبة الى الله حتى توفّاهم الله تعالى ، وكذلك الملائكة ، فانّهم كما وردت بذلك الأدلة لا ينفكّون عن العبادة لله ، وصارت أذكاره سبحانه من التسبيح والتهليل هي زادهم الذي

---

(١) العوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد : الشوكاني (ورقة ٧) (مخطوط) .

(٢) كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من دعائه صلى الله عليه وسلم : أللهمّ اجعل في قلبي نورا ، وفي بصري نورا ، وفي سمعي نورا ، وعن يميني نورا ، وعن يساري نورا ، وفوقي نورا ، وتحتي نورا ، وخلفي نورا ، واجعل لي نورا . ( أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب الدعاء اذا انتبه من الليل ( الفتح ١١/١٢٠ برقم ٦٣١٦) واللفظ له ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/٥٢٦ برقم ٧٦٣) ، وأحمد في المسند (١/٢٨٤ ، ٣٤٣) .

(٣) سورة التحريم : آية ٨ .

(٤) قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني (ص ٤٣٣ ، ٤٣٤) .

يعيشون به، وغذاؤهم الذي يتغذّون به .

فحاشا لأولياء الله سبحانه أن يقع من أحقرهم في هذه المرتبة العظيمة وأدناهم في هذا المنصب الجليل هذا الزعم الباطل، والدعوى الشيطانية، وانّما ذلك الشيطان سوّل لجماعة من أتباعه ومطيعيه، واستنزلهم، وأخرجهم من حزب الله الى حزبه، ومن طاعة الله الى طاعته، ومن ولاية الله سبحانه الى ولايته .[1]

قال الشوكاني: (( وقد رأينا في ترجمة جماعة من أهل الله وأوليائه أنّهم سمعوا خطابا من فوقهم، ورأوا صورة تكلّمهم، وتقول: يا عبادي قد وصلتَ اليّ، وقد أُسقطت عنك التكاليف الشرعية بأسرها، فعند أن يسمع منهم السامع ذلك يقول: ما أظنّك أيّها المتكلّم الا شيطانا، فأعوذ بالله منك، فعند ذلك تتلاشى تلك الصورة، ولا يبقى لها أثر .

فقد بلغ كيد الشيطان الى هذا الكيد العظيم، ولكنّه لم ينفق كيده هذا على أولياء الله سبحانه، فردّوه في نحره، حتى أنّه قد يتطاير عند ذلك التلاشي شررا كما وقع لكثير منهم .))[2]

وهكذا أبطل الشوكاني – رحمه الله – بدع هذه الطائفة، وقرّر أنّ دعوى الولاية اذا لم تكن مربوطة بالشرع مقيّدة بالكتاب والسنة ضلّ صاحبها وهو لا يدري، ومكر به وهو لا يشعر، ووقع في مغاضب الله سبحانه وهو يظنّ أنّه في مراضيه .[3]

٣ – <u>بدعة القبوريين</u>

ومن البدع السيئة على هذه الأمة، والتي حذّرمنها الاسلام ونهى عنها نهيا شديدا بدعة القبوريين، من تشييد القبور، وبنائها، وتسريجها، وتزيينها، واتخاذها مساجد، وما الى ذلك، وما يترتّب عليها من الاعتقادات الفاسدة في أصحاب القبور .

وقد وصف الشوكاني هذه البدعة بأنّها أعظم ما أصيب به دين الاسلام من الدواهي الكبار، والمفاسد التي لا يوقف لها في الضرر على مقدار .[4] قال :

(( ومن أعظم الذرائع الشيطانية والوسائل الطاغوتية أنّهم بالغوا في التأنق في عمارة قبور من يعتقدونه من الصالحين، ونصبوا عليها القباب، وجعلوا على أبوابها الحجاب، ووضعوا عليها من الستور العالية والآلات الرائعة ما يبهر الناظر اليه، ويدخل الروعة في

---

(١) قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني (ص ٤٨٦، ٤٨٧) .
(٢) المصدر السابق (ص ٤٨٧) . (٣) انظر المصدر السابق (ص ٤٨٨) .
(٤) انظر أدب الطلب ومنتهى الأرب ، الشوكاني (ص ٢١٢) .

قلبه ، ويدعوه إلى التعظيم ، كما جبلت عليه طبائع العوام ، من دخول المهابة في قلوبهم ، والروعة في عقولهم ، بما يتعاطاه المريدون لذلك، كما يفعله غالب ملوك الدنيا، من المبالغة في تزيين منازلهم ، وتعظيمها، والتأنق في بنائها، والاستكثار من الحجاب، والخدم ، والعياح ، والجلبة ، وارتباط الأسود ، ونحوها من الحيوانات، ولبس فاخر الثياب، قاصدين بذلك تربية المهابة لهم ، والمخافة منهم ، وصنع هؤلاء القبوريون كصنعهم ، ففعلوا في الأموات من جوانب التعظيم ، وأسباب الهيبة ، ما يكون له من التأثير في قلوب من يزورهم من العامة ما لا يقادر قدره ، ثم يزيد ذلك قليلا قليلا ، حتى يحصل لهم من الاعتقاد في أولئك الأموات ما يقدح في إسلامهم ، ويخدش في توحيدهم .))(١)

أ ـ بدعة اتّخاذ القبور مساجد

ورد النهي عن اتخاذ القبور مساجد عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث، أوردها الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ منها :

١) ما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه سلم عند موته أنّه كان يقول: (( لعنة الله على اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد )) يحذر ما صنعوا .(٢)

٢) ما أخرجه أحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا :(( إنّ من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، ومن يتّخذ القبور مساجد ))(٣).

٣) ما أخرجه مسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه ، أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (( ... ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إنّي أنهاكم عن ذلك ))(٤)

والحديث يدلّ على تحريم اتخاذ قبور الأنبياء مساجد . قال العلماء : وإنّما نهى صلى

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني (ص ٢١٤) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة ، باب (٥٥) حدثنا أبو اليمان ( الفتح ٦٣٣/١ برقم ٤٣٥ ، ٤٣٦) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٣٧٧/١ برقم ٥٣١) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤٠٥/١ ، ٤٣٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاقتضاء (ص ١٥٨) : ـ وإسناده جيد . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧/٢) : رواه الطبراني في الكبير ، وإسناده حسن . وحسّنه الألباني في أحكام الجنائز (ص ٢١٧) ، وانظر أيضا : تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد له (ص ١٩) .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٣٧٧/١ برقم ٥٣٢) .

الله عليه وسلم من اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدا خوفا من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، وربما أدّى ذلك الى الكفر، كما جرى لكثير من الأمم الخالية .(1)

والأحاديث في هذا الباب كثيرة (2) وفيها التصريح بلعن من اتخذ القبور مساجد، مع أنه لا يعبد إلا الله، وذلك لقطع ذريعة التشريك، ودفع وسيلة التعظيم .(3)

قال الشوكاني - رحمه الله - :

(( وورد ما يدلّ على أنّ عبادة الله عند القبور بمنزلة اتخاذها أوثانا تعبد، كما أخرجه مالك في الموطّأ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( اللهمّ لا تجعل قبري وثنا يعبد، اشتدّ غضب الله على قوم اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد ))(4)

وبالغ في ذلك حتى لعن زائرات القبور، كما أخرجه أهل السنن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (( لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج ))(5)

ولعلّ وجه تخصيص النساء بذلك لما في طباعهنّ من النقص المفضي الى الاعتقاد والتعظيم بأدنى شبهة . ولا شكّ أنّ علّة النهي عن جعل القبور مساجد، وعن تسريجها، وتجصيصها، ورفعها، وزخرفتها، هي ما ينشأ عن ذلك من الاعتقادات الفاسدة، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنّ أمّ سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: (( أولئك اذا مات فيهم العبد الصالح - أو الرجل الصالح - بنوا على قبره مسجدا، وصوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله ))(6). ولا بسن

---

(1) نيل الأوطار، الشوكاني (199/2) .

(2) ذكرها الشوكاني في: شرح الصدور في تحريم رفع القبور (ص 7) ضمن الرسائل السلفية، ونيل الأوطار (87/5)، وجمع شيخنا ناصر الدين الألباني هذه الأحاديث التي بلغت 14 حديثا في كتابه: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد (انظر من ص 9 - 20) .

(3) الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد، الشوكاني (ص 18، 19) .

(4) أخرجه مالك في الموطّأ في كتاب قصر الصلاة في السفر، باب جامع الصلاة (172/1 برقم 85) وصحّحه الألباني في أحكام الجنائز (ص 217)، وتحذير الساجد (ص 18، 19) .

(5) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب في زيارة القبور (557/3 برقم 3236)، والترمذي في كتاب الصلاة، باب كراهية أن يتخذ القبر مسجدا (136/2 برقم 320)، والنسائي في كتاب الجنائز، باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور (94/4، 95 برقم 2043)، وابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ما جاء في النهي عن زيارة النساء القبور (502/1 برقم 1574، 1575، 1576) بدون قوله: ( والمتخذين عليها المساجد والسرج)، والحاكم في المستدرك (374/1)، وضعّفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (258/1-260 برقم 225)، وتحذير الساجد (ص 43، 44)، ومشكاة المصابيح (230/1 برقم 740) بهذا السياق، والحديث صحيح لغيره إلا اتخاذ السرج، فانّه منكر لم يأت إلا من هذا الطريق الضعيف .

(6) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة (الفتح 633/1 برقم 434)، واللفظ له، وأخرجه أيضا برقم (427، 1341، 3878)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب

خزيمة عن مجاهد: (( أفرأيتم اللاتَ والعزّى ))[1] قال: كان يلتّ لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره.[2] وكلّ عاقل يعلم أنّ لزيادة الزخرفة للقبور وإسبال الستور الرائعة عليها، وتسريجها، والتأنّق في تحسينها، تأثيرًا في طبائع غالب العوام، ينشأ عنه التعظيم والاعتقادات الباطلة، وهكذا إذا استعظمت نفوسهم شيئًا مما يتعلّق بالأحياء، وبهذا السبب اعتقد كثير من الطوائف الإلهية في أشخاص كثيرة.))[3]

قلت: وقد ناقض كلام الشوكاني هنا ما ذكره في: تحفة الذاكرين. من استجابة الدعاء عند قبور الأنبياء عليهم السلام، وعند قبور الصالحين، قال: (( ووجه ذلك مزيد الشرف ونزول البركة فيها.))[4] وهو قول مردود، لأنّه لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح تخصيص هذه الأماكن وتفضيلها على غيرها، بل ثبت أنّه صلى الله عليه وسلم حرّم اتّخاذها مساجد، لما يترتّب عليه من اعتقادات فاسدة، كما بيّناه، واتخاذ القبر مسجدًا يقصد منه الصلاة والدعاء عنده، كما يقصد بناء المسجد عليه.[5]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:

(( إنّ المنقول عن السلف أنّهم كرهوا قصد القبور للدعاء، متأوّلين في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (( لا تتّخذوا قبري عيدًا ))[6] ... وما أحفظ لا عن صحابي، ولا عن تابعيّ، ولا عن إمام معروف أنّه استحبّ قصد شيئ من القبور للدعاء عنده، ولا روى أحد في ذلك شيئًا، لا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من الأئمة المعروفين.))[7]

---

===== النهي من بناء المساجد على القبور (٢٧٥/١ برقم ٥٢٨).

(١) سورة النجم: آية ١٩.

(٢) وروى أيضًا ابن جرير عنه في تفسيره (٥٨/٢٧)، كما روى البخاري مثل هذا القول عن ابن عباس في صحيحه، كتاب التفسير، باب (أفرأيتم اللات والعزى) (الفتح ٤٧٨/٨ برقم ٤٨٥٩).

(٣) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ص ١٩، ٢٠).

(٤) تحفة الذاكرين: الشوكاني (ص ٥٩). (٥) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ابن تيمية (ص ١٤٢).

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٣٦٧/٢)، وأبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (٥٣٤/٢ - برقم ٢٠٤٢)، قال شيخ الإسلام في الاقتضاء (ص ٢٩٠): إسناده حسن، وإنّ رواته كلّهم ثقات مشاهير. وحسّنه الألباني، وقال: وهو على شرط مسلم، وهو صحيح بما له من طرق وشواهد. (انظر أحكام الجنائز ص ٢١٩). ومعنى الحديث كما قال الشوكاني: أي لا تتخذوا قبري موسمًا يجتمعون فيه كما يفعله كثير من عباد القبور يجعلون لمن يعتقدونه من الأموات أوقاتًا معلومة يجتمعون عند قبورهم ويعكفون عليها، كما يعرف ذلك كلّ أحد من الناس من أفعال المخذولين الذين تركوا عبادة الله الذي خلقهم ورزقهم ثم يميتهم ويحييهم، وعبدوا عبدًا من عباد الله صار تحت أطباق الثرى، لا يقدر على أن يجلب لنفسه نفعًا ولا يدفع عنها ضرًّا. (شرح الصدور في تحريم رفع القبور (ص ٨، ٩) ضمن الرسائل السلفية).

(٧) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية (ص ٣٣٣، ٣٣٤) ط/ دار الحديث.

ويقول: (( وما في قبور الأنبياء والصالحين من كرامة الله ورحمته، وما لها عند الله من الحرمة والكرامة فوق ما يتوهمه أكثر الخلق، لكن كل هذا لا يقتضي استحباب الصلاة أو قصد الدعاء والنسك عندها، لما في قصد العبادات عندها من المفاسد التي حذرمنها الشارع كما تقدم، فإن اعتقاد استجابة الدعاء عندها وفضله قد أوجب أن تنتاب لذلك وتقصد، وربما اجتمع القبوريون عندها اجتماعات كثيرة في مواسم معينة، وهذا بعينه هو الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (( لا تتخذوا قبري عيدا ))[1]، وبقوله: (( لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ))[2]، وبقوله صلى الله عليه وسلم: (( لا تتخذوا القبور مساجد، فإن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ))[3]

هذا وقد اشترط الشوكاني - بعد كلامه السابق في استجابة الدعاء وفضله عند قبور الأنبياء والصالحين - أن لا تنشأ عن ذلك مفسدة، وهي أن يعتقد في ذلك الميت ما لا يجوز اعتقاده، كما يقع لكثير من المعتقدين في القبور، فإنهم قد يبلغون الغلو بأهلها إلى ما هو شرك بالله عز وجل، فينادونهم مع الله، ويطلبون منهم ما لا يطلب إلا من الله عز وجل، وهذا معلوم من أحوال كثير من العاكفين على القبور، خصوصا العامة الذين لا يفطنون لدقائق الشرك[4].

قلت: إذا كان الأمر كذلك فكيف القول باستجابة الدعاء وفضله عند هذه القبور وهو وسيلة لهذه المفسدة العظيمة وذريعة لها، ودفع المفاسد مقدم على جلب المصالح، كما قاله العلماء، أي إذا كانت هناك مصالح، وأين المصالح في تحري الدعاء عند هذه القبور لاعتقاد استجابة الدعاء وفضله عندها؟ بل يؤدي ذلك إلى مفاسد عديدة، كما ذكرها شيخ الإسلام، وكما بينها الشوكاني وحذر منها في عديد من مؤلفاته كما تقدم بيانه، وكما سيأتي في هذا البحث. ويكفينا في الامتناع عنه أنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن الصحابة ومن

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل صفحة (٤٤١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور (الفتح ٢٣٨/٣ برقم ١٣٣٠)، وأخرجه في مواضع أخرى (انظر الفتح حديث رقم ٤٣٦،٤٣٥)، ومسلم في كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٣٧٦/١ برقم ٥٢٩).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية (ص ٣٣٩). والحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولعله - رحمه الله - أراد حديث مسلم الذي تقدم تخريجه قبل قليل بلفظ: (( ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك. )).

(٤) انظر: تحفة الذاكرين: الشوكاني (ص ٥٩) قال رحمه الله - بعد الكلام السابق -: وقد جمعت في ذلك رسالة مطولة سميتها: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد. وهذا مما يدل على أنه ألف تحفة الذاكرين بعد الدر النضيد.

بعدهم من السلف الصالح، ولو كان خيراً لسبقونا إليه .

ب ـ بدعة تشييد القبور وتحصينها

أفرد الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ هذا الموضوع لأهمّيته في رسالة بعنوان: شرح الصدور في تحريم رفع القبور، قال فيها :

(( اعلم أنّه قد اتفق الناس سابقهم ولاحقهم ،وأوّلهم وآخرهم ،من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى هذا الوقت، أنّ رفع القبور والبناء عليها بدعة من البدع التي ثبت النهي عنها، واشتدّ وعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاعلها . ))(١)

فعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصّص القبر، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه .(٢) وزاد في لفظ الترمذي: وأن يكتب عليه .(٣)

وفي هذا التصريح بالنهي عن البناء على القبور ، وهو يصدق على من بنى على جوانب حفرة القبر ، كما يفعله كثير من الناس من رفع قبور الموتى ذراعاً فما فوقه ،لأنّه لا يمكن أن يجعل نفس القبر مسجداً، فذلك مما يدلّ على أنّ المراد بعض ما يقربه مما يتصل به ، ويصدق على من بنى قريباً من جوانب القبر كذلك، كما في القباب ،والمساجد ،والمشاهد الكبيرة ،على وجه يكون القبر في وسطها، أو في جانب منها، فانّ هذا بناء على القبر، لا يخفى على من له أدنى فهم .(٤)

قال:(( وفي الحديث دليل على تحريم البناء على القبر، وفصّل الشافعي وأصحابه فقالوا : ان كان البناء في ملك الباني فمكروه ، وان كان في مقبرة مسبلة فحرام . ولا دليل على هذا التفصيل، وقد قال الشافعي: رأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنى، ويدلّ على الهدم حديث أبي الهياج الأسدي،عن علي رضي الله عنه قال:(( أبعثك على ما بعثني عليه

---

(١) شرح الصدور في تحريم رفع القبور، الشوكاني (ص ٤) ضمن الرسائل السلفية .
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز ،باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه (٦٦٧/٢ برقم ٩٧٠) والسياق له ،والنسائي في كتاب الجنائز ،باب تجصيص القبور (٨٨/٤ برقم ٢٠٢٩).
(٣) انظر كتاب الجنائز ،باب ما جاء في كراهية تجصيص القبور والكتابة عليها (٣٦٨/٣ برقم ١٠٥٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح .قال الحاكم :النهي عن الكتابة على شرط مسلم وهي صحيحة غريبة ، ووافقه الذهبي ( المستدرك ٣٧٠/١) .
(٤) انظر شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ٨) ضمن الرسائل السلفية .

رسول الله عليه وسلم : أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبرا مُشْرِفا إلا سوّيته .))[1] ،فقوله : ( ولا قبرا مشرفا إلا سوّيته ) فيه أنّ السنة أنّ القبر لا يرفع رفعا كثيرا،من غير فرق بين من كان فاضلا ومن كان غير فاضل، والظاهر أنّ رفع القبور زيادة على القدر المأذون فيه محرّم ، كما صرّح بذلك أصحاب أحمد وجماعة من أصحاب الشافعي ومالك، والقول بأنّه غير محظور لا يصحّ ، ومن رفع القبور الداخل تحت الحديث دخولا أوّليا القبب، والمشاهد المعمورة على القبور ، وأيضا هو من اتخاذ القبور مساجد ، وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم فاعل ذلك .))[2] كما تقدّم .

(( وفي هذا أعظم دلالة على أنّ تسوية كلّ قبر مشرف بحيث يرتفع زيادة على القدر المشروع واجبة متحتمة ، فمن اشراف القبور أن يرفع سمكها، أو يجعل عليها القباب أو المساجد ، فانّ ذلك من المنهيّ عنه بلا شك ولا شبهة ، ولهذا أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث لهدمها أمير المؤمنين، ثم انّ أمير المؤمنين بعث لهدمها أبا الهياج الأسدي في أيّام خلافته .))[3]

وردّ الشوكاني ــ رحمه الله تعالى ــ على الامام يحيى بن حمزة[4] الذي ذهب الى جواز رفع القباب والمشاهد على قبور الفضلاء والملوك دون غيرهم ، ودليله الذي استدلّ به هو استعمال المسلمين مع عدم النكير .[5]

قال ( أي الشوكاني ) :(( إنّ هذا كان أوّل نداء بهذه البدعة صدر في الديار اليمنية وقد تابعه المؤلّفون في الفقه بهذا التصريح والجواز تقليدا له واقتداء به ، فأبطل هذه الفتوى بأدلّتها من الكتاب والسنة بمثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم :(( كلّ عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ ))[6] ورفع القبور وبناء القباب عليها ليس عليه أمر رسول الله صلى الله

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز،باب الأمر بتسوية القبر(٦٦٦/٢ برقم ٩٦٩)،وأبوداود في كتاب الجنائز،باب في تسوية القبر(٥٤٨/٣ برقم ٣٢١٨)، والترمذي في كتاب الجنائز باب ما جاء في تسوية القبور(٣٦٦/٣ برقم ١٠٤٩) وقال: حديث حسن .

(٢) نيل الأوطار ، الشوكاني (٧٨/٥،٧٩، وأيضا ٨١) .

(٣) شرح الصدور في تحريم رفع القبور ،الشوكاني(ص ٧،٨) ضمن الرسائل السلفية ،وانظر أيضا أدب الطلب ومنتهى الأرب ، الشوكاني(ص ١١٤) ،ورسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّوجلّ، الشوكاني (ص ٢١) ( مخطوط ) .

(٤) يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم الحسيني العلوي الطالبي،من أكابر أئمة الزيدية وعلمائهم في اليمن،يروى أنّ كراريس تصانيفه زادت على عدد أيام عمره ،وتلقّب بالمؤيد بالله ،من تصانيفه ،الشامل في أصول الدين،والحاوي في أصول الفقه ،والانتصار في الفقه ،توفي(٧٠٥هـ)(انظر البدر الطالع ،الشوكاني ٣٣١/٢،والأعلام ،الزركلي ١٤٣/٨) .

(٥) انظر شرح الصدور في تحريم رفع القبور ،الشوكاني(ص ٤) ضمن الرسائل السلفية.

(٦) تقدّم تخريجه في صفحة (٧٩) .

عليه وآله وسلم كما عرفناك بذلك، فهو ردّ على قائله، أي مردود عليه. والذي شرع للناس هذه الشريعة الاسلامية هو الربّ سبحانه وتعالى بما أنزله في كتابه على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. فليس لعالم وان بلغ من العلم الى أرفع رتبة وأعلى منزلة أن يكون بحيث يقتدى به فيما خالف الكتاب والسنة أو أحدهما، بل ما وقع منه الخطأ بعد توفية الاجتهاد حقّه يستحقّ به أجراً، ولا يجوز لغيره أن يتابعه.)) (١)

وعلّق ـ رحمه الله ـ في موضع آخر على هذا القول، قال:

(( هذا اغترار بما وقع من الناس، لا سيّما الملوك والأكابر من رفع قبورهم، وجعل القباب عليها، وهذا حرام بالأدلة الصحيحة الثابتة في الصحيح وغيره من طرق توجب العلم اليقين، فمنها الأمر بتسوية القبور كما تقدم، ومنها النهي عن البناء عليها كما تقدم أيضاً، ومنها النهي عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن فاعل ذلك، وغير ذلك مما هو مبيّن في كتب السنة.

وبالجملة فما هذه أوّل شريعة صحيحة وسنة قائمة تركها الناس واستبدلوا بها غيرها، ولكن هذه البدعة قد صارت وسيلة لضلال كثير من الناس، لاسيّما العوام، فانّهم اذا رأوا القبر وعليه الأبنية الرفيعة والستور الغالية، وانضمّ الى ذلك ايقاد السرج عليه، تسبّب عن ذلك الاعتقاد في ذلك الميت، ولا يزال الشيطان يرفعه من رتبة الى رتبة، حتى يناديه مع الله سبحانه، ويطلب منه ما لا يطلب الا من الله عزّ وجلّ، ولا يقدر عليه سواه، فيقع في الشرك.

فليت شعري ما وجه تخصيص قبور الفضلاء بهذه الداهية الدهياء، والمعصية الصماء العمياء، فانّهم أحقّ من غيرهم باتباع السنة في قبورهم، وترك ما حرّمته الشريعة على الناس.)) (٢)

وهكذا نهج الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ منهج أهل الحقّ في الاستناد الى مرجعية الكتاب والسنة، والردّ على المخالفين لهما.

ج ـ بدعة كتابة الاسم على القبور

ومن البدع التي انتشرت في معظم بلاد المسلمين كتابة الاسم على القبور.

وقد ورد النهي عنها في حديث جابر الذي رواه الترمذي والحاكم وصحّحه قال (أي جابر):

(( نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجصّص القبور، وأن يكتب عليها، وأن ينـ

---

(١) انظر شرح الصدور في تحريم رفع القبور، الشوكاني (ص ١٢٠٩) ضمن الرسائل السلفية.
(٢) السيل الجرار المتدفّق على حدائق الأزهار، الشوكاني (١/٣٦٧، ٣٦٨).

عليها ، وأن توطأ ))[١]

قال الحاكم : (( هذا حديث على شرط مسلم ، وقد خرّج بإسناده غير الكتابة ، فإنها لفظة صحيحة غريبة ، وليس العمل عليها، فإن أئمة المسلمين من الشرق إلى الغرب مكتوب على قبورهم ، وهو عمل أخذ به الخلف عن السلف . ))

قلت : وقول الحاكم هذا مردود ، وقد تعقّب عليه الذهبي قائلا: ما قلت طائلا،ولا نعلم صحابيا فعل ذلك، وإنما هو شيئ أحدثه بعض التابعين فمن بعدهم ، ولم يبلغهم النهي .[٢]

وكانوا يفعلون هذا بأهل العلاج والفضل، ثم تزايد الشر، وصاروا يفعلون ذلك لمن له رئاسة دنيوية ، وإن كان من أفجر الفجرة .

ونقل الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ تصريح جماعة من أهل الفقه بأنه لا بأس بذلك إذا كان الميت فاضلا، واحتجّوا بأنّ بعض السلف استحسنوا رفع القبور، وتزيين القبور، وكتابة الاسم عليها، فقال ردّا عليهم :

(( فلا كثر الله في أهل العلم من أمثال من استحسن مخالفة الشرع من السلف الذين صرتم تقوّلون عليهم بما لم يقولوه ، فإنه إذا صحّ ما تزعمونه من أنه استحسن ذلك بعض السلف فلا حجّة في استحسان من استحسن مخالفة الشرع كائنا من كان، فإنه مبتدع، ومخالف للشرع، وعاص لله ولرسوله وللشريعة المطهّرة .

ولقد تزلزل بهذا السبب أقدام كثير من العباد عن الاسلام ، وذهب بهذه الذريعة إيمان جماهير من الأنام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . ))[٣]

وقال في موضع آخر ردّا عليهم :

(( وأقول: لا حجّة في أحد خالف السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كائنا من كان، قلّ عددهم أو كثر ، فليس لهم أن يشرعوا للناس غير ما شرعه الله ، بل يحملون على الخطأ، وعدم العناية بأمر الشرع، والتساهل في أمر الدين . وما هذا بأوّل باب من أبواب الشرع أهمله الناس، وخالفوا فيه السنة الواضحة ، والشرائع الثابتة ، ولاسيّما بعد أن استعلى الجهل على العلم ، وغلبت آراء الرجال ما جاء في الكتاب والسنة ، وصار التقليد والتمذهب هو المعروف عند الجمهور، وغيره المنكر، ولا اعتبار بسكوت أهل العلم

---

(١) تقدّم تخريجه قبل قليل صفحة (٤٤٣) .
(٢) انظر المستدرك للحاكم وبهامشه التلخيص للذهبي (٣٧٠/١) .
(٣) أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني (ص ٢١٦، ٢١٧) .

الذين هم أهله، فإنهم مغلوبون، مكثورون، مخبوطون بسوط العامة الذين منهم الملاطين وجنودهم ... واطباق أهل المشرق والمغرب على الكتابة هو كاطباقهم على رفع القبور، وتجصيصها، ووضع القباب عليها، وجعلها مساجد، فخالفوا ما تقدم عنه صلى الله عليه وآله وسلم، مع مخالفتهم لما ثبت في الصحيح عنه ثبوتاً لا يخالف فيه مخالف، من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (( لا تجعلوا قبري مسجداً، لا تجعلوا قبري وثناً، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.))[1] وكان هذا القول من آخر ما قاله في مرض موته.))[2]

د ـ ما يترتب على هذه البدع من مفاسد

ذكر الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ مفاسد كثيرة تترتب على بدعة القبوريين في تشييد القبور، وتجصيصها، وتزيينها، وكتابة الاسم عليها، واتخاذها مساجد، ونحو ذلك، وبيّن أنّ في هذه البدع من الفتنة العظيمة لهذه الأمّة، ومن المكيدة البالغة التي كادهم الشيطان بها، وقد كاد بها من كان قبلهم من الأمم السالفة، كما حكى الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه العزيز، وكان أوّل ذلك من قوم نوح عليه السلام، قال الله سبحانه: (( قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا، وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا، وَلَا سُوَاعًا، وَلَا يَغُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرًا ))[3] كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلمّا ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلمّا ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنّما كانوا يعبدونهم وهم يسقون المطر فعبدوهم، ثم عبدتهم العرب بعد ذلك. وقد حكى معنى هذا في صحيح البخاري عن ابن عبّاس رضي الله عنهما[4]. وقال قوم

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٤٦/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٧/٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: (( أللهمّ لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.)) وسنده صحيح. ( صحّحه الألباني في تحذير الساجد ص ١٨، ١٩) وللحديث روايات أخرى متعدّدة، ذكرت بعضها قبل قليل.

(٢) أدب الطلب ومنتهى الأرب، الشوكاني (ص ٢١٥، ٢١٦). (٣) سورة نوح: آية ٢١ ـ ٢٣.

(٤) ولفظ البخاري: قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما (( صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أمّا وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأمّا سواع فكانت لهُذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيف بالجرف عند سَبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نَسْر فكانت لحمير لآل ذي الكَلاَع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسّخ العلم عُبِدَت.)) ( الفتح ٨/ ٥٣٥ حديث رقم ٤٩٢٠ ).

من السلف: إنّ هؤلاء كانوا قوما من الصالحين من قوم نوح، فلمّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم .(١)

وهذا أوّل انحراف وجد في تاريخ البشرية عن عقيدة التوحيد، ومنشأه هو الغلوّ في تعظيم الصالحين ورفعهم إلى مرتبة الآلهة المعبودة .

ودلّت هذه القصّة على أنّ الغلوّ في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله، لأنّهم تركوا بذلك دين الاسلام، وكفروا بعبادة تلك الصور، واتخذوهم شفعاء من دون الله، كما قد وقع مثل ذلك في هذه الأمّة من عبّاد القبور، فانّ الشيطان أدخلهم في الشرك من باب الغلوّ في الصالحين، والافراط في محبّتهم، فألقى اليهم أنّ البناء ووضع القباب والمشاهد على القبور من محبّة أهلها، ثم ينقلهم من رتبة إلى رتبة إلى أن اتخذوها أوثانا يعبدونها من دون الله .

قال الشوكاني ـ وهو يصف المفاسد التي ترتّبت على تشييد القبور في زمانه ـ :

(( ... وكم سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي بها الاسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفّار للأصنام، وعظم ذلك، فظنّوا أنّها قادرة على جلب النفع ودفع الضرّ، فجعلوها مقصدا لطلب قضاء الحوائج، وملجأ لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربّهم، وشدّوا اليها الرحال، وتمسّحوا بها، واستغاثوا . وبالجملة انّهم لم يدَعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلاّ فعلوه، فانّا لله وانّا اليه راجعون .))(٢)

كما وصفها في موضع آخر قال: (( ولا شكّ ولا ريب أنّ السبب الأعظم الذي نشأ معه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زيّنه الشيطان للناس من رفع القبور، ووضع الستور عليها، وتجصيصها، وتزيينها بأبلغ زينة، وتحسينها بأكمل تحسين، فانّ الجاهل اذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عليه قبّة، فدخلها، ونظر على القبور الستور الرائعة، والسرج المتلألئة، وقد سطعت حوله مجامر الطيب، فلا شكّ ولا ريب أنّه يمتلئ قلبه تعظيما لذلك القبر، ويضيق ذهنه عن تصوّر ما لهذا الميت من المنزلة، ويدخله من الروعة والمهابة

---

(١) انظر شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ٦، ٧) ضمن الرسائل السلفية، وانظر أيضا الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ص ٢٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٥/٣٠٠، ٣٠٢) .

(٢) نيل الأوطار: الشوكاني (٥/٧٦) .

ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين، وأشد وسائله إلى ضلال العباد، وما يزلزله عن الإسلام قليلاً قليلاً حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، فيصير في عداد المشركين، وقد يحصل له هذا الشرك بأول رؤية لذلك القبر الذي صار على تلك الصفة، وعند أول زورة له، إذ لا بد أن يخطر بباله أن هذه العناية البالغة من الأحياء بمثل هذا الميت لا تكون إلا لفائدة يرجونها منه، إما دنيوية أو أخروية، فيستصغر نفسه بالنسبة إلى من يراه من أشباه العلماء زائراً لذلك القبر، وعاكفاً عليه، ومتمسحاً بأركانه. وقد يجعل الشيطان طائفة من إخوانه من بني آدم يقفون على ذلك القبر، يخادعون من يأتي إليه من الزائرين، يهولون عليهم الأمر، ويصنعون أموراً من أنفسهم، وينسبونها إلى الميت، على وجه لا يفطن لها من كان من المغفلين، وقد يصنعون أكاذيب مشتملة على أشياء يسمونها كرامات لذلك الميت، ويبثونها في الناس، ويكررون ذكرها في مجالسهم، وعند اجتماعهم بالناس، فتشيع وتستفيض، ويتلقاها من يحسن الظن بالأموات، ويقبل عقله ما يروى عنهم من الأكاذيب، فيرويها كما سمعها، ويتحدث بها في مجالسه، فيقع الجهال في بلية عظيمة من الاعتقاد الشركي، وينذرون على ذلك الميت بكرائم أموالهم، ويحبسون على قبره من أملاكهم ما هو أحبها إلى قلوبهم، لاعتقادهم أنهم ينالون بجاه ذلك الميت خيراً عظيماً وأجراً كبيراً، ويعتقدون أن ذلك قربة عظيمة، وطاعة نافعة، وحسنة متقبلة، فيحصل بذلك مقصود أولئك الذين جعلهم الشيطان من إخوانه من بني آدم على ذلك القبر، فإنهم إنما فعلوا تلك الأفاعيل، وهولوا على الناس بتلك التهاويل، وكذبوا بتلك الأكاذيب، لينالوا جانباً من الحطام من أموال الطغام.))(1)

وفي هذا الصدد ذكر الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ حكاية واقعة ذكرها أهل التاريخ في كتبهم عن بعض الخلفاء العباسيين، وتفيد مدى تأثير الغلو في التهويل والتعظيم في عوام الناس.

وخلاصة الحكاية: أنه قدم على أحد الخلفاء العباسيين رسول من بعض الممالك النائية، فاحتفل الخليفة بجمع أعيان مملكته وأكابرها، وجعلهم في الأمكنة التي سيمر الرسول بها، ثم أوقف خاصته، وهم جمع جم بإيوان كبير، وقد بالغ في تحسين فرشه وستوره وتأنق في كل أموره، وجعل نفسه في مكان مشرف على ذلك الإيوان، على صفة في غاية

---

(١) شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ١٠٤٩) ضمن الرسائل السلفية.

التهويل والتعظيم ، فما زال ذلك الرسول يدخل من مكان الى مكان ، ويمرّ بجماعة جماعة ، حتى وصل الى ذلك الايوان ، فامتلأ مهابة وروعة ، وتعاورته أسباب التعظيم والتهويل من كل جهة ، وقد نصبت في المنزل الذي فيه الخليفة الآلات المبرّقة من الذهب والفضّة والأحجار الكريمة من الجواهر ، وظهر وجه الخليفة وعليه من الثياب ونحوها ما هو الغاية في الحسن والنهاية في البهاء ، فلمّا رآه الرسول قال للممسكين بيده : أهذا الله ؟ فقال : لا ، بل هو خليفة الله .

قال الشوكاني بعد سرد الحكاية : (( فانظروا - أرشدك الله - الى أيّ حالة بلغ بهذا المسكين ما رآه من التهويل والتعظيم ، وانظر الحكمة البالغة فيما ورد عن الشارع من الزجر عن رفع القبور ، وتجصيصها ، وتسريجها ، ونحو ذلك . ))(١)

قلت : وهذا كلّه من سدّ باب الشرك ووسائله ، لأنّ الشارع الحكيم اذا حرّم شيئا حرّم أسبابه ووسائله ، واذا نهى عن شيئ نهى عن كلّ ما يوصّل اليه ويقرب منه ، ومن ذلك أنّ الاسلام لمّا جاء بالنهي عن الشرك ، نهى عن أسبابه ، وسدّ ذرائعه الموصّلة اليه والمسببة له .

ولذلك كان البناء على القبور ، ووضع القباب لها ، واتخاذها مساجد ، سببا في وقوع الشرك ، وهذه بلية مشاهدة - كما بيّنها الشوكاني - في بلدان كثيرة ، وخصوصا في زماننا هذا ، حيث أصبحت هذه المشاهد تقصد وتشدّ الرحال اليها ، ويقع عندها الشرك والمنكرات ، ما لا يشكّ معه عاقل من وجوب اقتلاع تلك المشاهد الوثنية وعدم ابقاء أيّ أثر لها .

والله أسأل أن يبصر المسلمين بأمور دينهم ، وأن يردّهم للعمل بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّوجل : الشوكاني (ص ٢٠، ٢١) (مخطوط) .

# الفصل الخامس

## في تعريف الإيمان وما يتعلق به من مسائل

ويشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : تعريف الإيمان لغة وشرعا

المبحث الثاني : بيان أهمية الايمان

المبحث الثالث : زيادة الإيمان ونقصانه

المبحث الرابع : العلاقة بين مسمى الايمان والإسلام

المبحث الخامس: حكم مرتكب الكبيرة

# ( الفصل الخامس )

## في تعريف الايمان وما يتعلق به من مسائل

### المبحث الأول : تعريف الايمان لغة وشرعا

#### تعريف الايمان لغة

الايمان : مصدر من آمن يؤمن ايمانا،فهو مؤمن، وهو مشتق من الأمن .

قال الجوهري:(( الايمان: التصديق، والله تعالى المؤمن،لأنه أمن عباده من أن يظلمهم ، وأصل آمن أأمن بهمزتين،... والأمن ضدّ الخوف ))(١)

وقال ابن منظور: (( الايمان ضدّ الكفر، والايمان بمعنى التصديق، ضدّه التكذيب، يقال: آمن به قوم وكذب به قوم ))(٢)

وقال الاصفهاني:(( آمن انّما يقال على وجهين، أحدهما متعدّيا بنفسه ،يقال: آمنته أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله مؤمن . والثاني غير متعدّ ، ومعناه صار ذا أمن . وقوله تعالى:(( وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ))(٣) قيل معناه : بمصدّق لنا، الا أنّ الايمان هو التصديق الذي معه أمن ))(٤)

وخلاصة ما سبق أنّ الايمان في اللغة معناه التصديق الذي معه أمن ، وليس مجرّد التصديق .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ :

(( فانّ الايمان مشتقّ من الأمن، فانّما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر ،كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر،... فاللفظ متضمّن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة ،كما يدلّ عليه الاشتقاق والاستعمال، ولهذا قالوا :(( وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ))(٥) أي لا تقرّ بخبرنا،ولا تثق به ،ولا تطمئنّ اليه ، ولو كنّا صادقين، لأنّهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك ،فلو صدقوا لم يأمن لهم .))(٦)

---

(١) الصحاح : الجوهري(٢٠٧١/٥ مادة :أمن) (٢) لسان العرب: ابن منظور(٢١/١٣ مادة : أمن)
(٣) سورة يوسف : آية ١٧ . (٤) المفردات: الاصفهاني(٢٦ مادة : أمن)
(٥) سورة يوسف : آية ١٧ . (٦) مجموع فتاوى : ابن تيمية ( ٢٩١/٧، ٢٩٢ )

## تعريف الإيمان شرعاً

عرّف أهل السنة والجماعة الإيمان بأنّه تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان، وأنّ الأعمال كلّها داخلة في مسمّى الإيمان .[(١)]

وقد نقل الإجماع عنهم على هذا ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ حيث قال :

(( أجمع أهل الفقه والحديث على أنّ الإيمان قول وعمل ولا عمل إلّا بنية ،والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، والطاعات كلّها عندهم إيمان، إلّا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه ، فإنّهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمّى إيماناً . ))[(٢)]

وقال الآجري ـ رحمه الله ـ:

(( اعلموا ـ رحمنا الله تعالى وإيّاكم ـ أنّ الذي عليه علماء المسلمين أنّ الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح ، ثمّ اعلموا : أنّه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلّا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقاً ، ولا تجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح ، فإذا كملت فيه هذه الثلاث الخصال كان مؤمناً . ))[(٣)]

وقد أثبت الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ ما أثبته السلف في تعريف الإيمان، وهو قول واعتقاد وعمل، ولا يكون مؤمناً إلّا أن يجتمع فيه هذه الخصال الثلاث . فقال:

(( والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله ، وتصديق الإقرار بالفعل ))[(٤)]

---

(١) انظر : كتاب الإيمان لأبي عبيد (ص ٥٣، ٥٤، ٧٦) تحقيق الألباني، وصريح السنة لابن جرير (ص ٢٥) تحقيق: بدر بن يوسف المعتوق، والسنة لابن الخلال (٥٨١/٣، ٥٨٢) تحقيق: د. عطية الزهراني، والإبانة لابن بطة (٨١١/٢ ـ ٨٢٧) تحقيق: رضا بن نعسان، وكتاب الإيمان لابن مندة (٣٣١/١) تحقيق: د. علي بن ناصر الفقيهي، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٨٣٠/٤ ـ ٨٨٩)، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص ٦٧ ـ ٧١) تحقيق: بدر البدر، ومسائل الإيمان لأبي يعلى (ص ١٥٢) تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، والاعتقاد للبيهقي (ص ١١٥ـ١٢١)، وكتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث نقل فيه إجماع الصحابة والتابعين على أنّ الإيمان قول وعمل (انظر: ص ١٢١، ٢٦٤ـ٢٧١) ط/ دار الكتب العلمية ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٣٧٣)، وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٦١/١ ـ ٦٣) .

(٢) التمهيد : ابن عبد البر (٢٣٨/٩) .

(٣) الشريعة : الآجري ( ص ١١٩) .

(٤) فتح القدير : الشوكاني (٣٥/١) .

وقال في تفسيره لقوله تعالى: (( الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ))[1] :

(( الإيمان في اللغة التصديق ...... وللتابعين أقوال، والراجح ما تقدم من أنّ الإيمان الشرعي يصدق على جميع ما ذكرهنا، ثمّ نقل عن ابن جرير قال: والأولى أن تكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولا واعتقادا وعملا، وتدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل. وقال ابن كثير: إنّ الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادا وقولا وعملا، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي، وأحمد ابن حنبل، وأبو عبيد[2]، وغير واحد إجماعا أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وقد ورد فيه آيات كثيرة. ))[3]

قلت: ومن هذه الآيات قوله تعالى: (( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ))[4]

ووجه الدلالة من هذه الآيات أنّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل للإيمان حقيقة إلا بالعمل على هذه الشروط، فجعل سبحانه هذه الأعمال كلّها إيمانا، والذي يزعم أنّه بالقول فحسب يجعله مؤمنا حقًّا وإن لم يكن هناك عمل، فهو معاند ومخالف لما تدلّ عليه هذه الآيات.

وقوله تعالى: (( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ))[5]

ووجه الدلالة من الآية تسميته سبحانه وتعالى الصلاة إيمانا، لاجتماعها على نية وقول وعمل.[6] كما يدلّ عليه ما ورد في سبب نزولها، فقد أخرج البخاري في

---

(١) سورة البقرة : آية ٣ .
(٢) هو القاسم بن سلام بن عبد الله أبو عبيد، الإمام الحافظ، اشتغل بالحديث والأدب والفقه، وكان ذا دين وسيرة جميلة ومذهب حسن، له تصانيف كثيرة منها : غريب الحديث، والأمثال، والأموال. توفي (٢٢٤ هـ) ( انظر ترجمته في: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ١٢/٤٠٣، وطبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى ١/٢٥٩، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ١٠/٤٩٠ )
(٣) فتح القدير : الشوكاني (١/٣٤، ٣٥) وانظر تفسير الطبري (١/١٠١)، وتفسير ابن كثير (١/٤٣)
(٤) سورة الأنفال : آية ٢ ـ ٤ . (٥) سورة البقرة : آية ١٤٣ .
(٦) انظر فتح القدير : الشوكاني (١/١٥٤) .

صحيحه أنّ هذه الآية نزلت في الذين ماتوا من الصحابة قبل تحويل القبلة، وهم على الصلاة إلى بيت المقدس، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فنزلت هذه الآية.(١)

ومنها قوله تعالى: (( الٓمٓ ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ )) إلى قوله تعالى: (( وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ))(٢) .

ذكر هذه الآية أبو عبيد القاسم بن سلام(٣) دليلا على أنّ الأعمال من الايمان، قال: (( أفلست تراه تبارك وتعالى قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل، ولم يكتف منهم بالاقرار دون العمل حتى جعل أحدهما من الآخر، فأيّ شيئ يتبع بعد كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومنهاج السلف بعده، الذين هم موضع القدوة والإمامة ))(٤)

وقد دلّ على دخول الأعمال في الايمان من السنة أحاديث كثيرة، منها :

حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لوفد عبد القيس: (( آمركم بأربع : الايمان بالله وحده، وهل تدرون ما الايمان بالله؟ شهادة أن لا اله الاّ الله، وأنّ محمدا رسول الله، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المَغنَم الخُمس ))(٥)

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (( الايمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة(٦)، فأفضلها قول: لا اله الاّ الله، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الايمان ))(٧)

---

(١) انظر كتاب الايمان، باب الصلاة من الايمان. ( الفتح ١١٨/١ برقم ٤٠)

(٢) سورة العنكبوت : آية ١ ـ ١٠ . (٣) تقدّمت ترجمته قبل قليل ص ٤٥٤ .

(٤) كتاب الايمان لأبي عبيد (ص ٦٦) تحقيق: الألباني .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الايمان، باب أداء الخمس من الايمان. ( الفتح ١٥٧/١ برقم ٥٣) واللفظ له، ومسلم في كتاب الايمان، باب الأمر بالايمان بالله ورسوله (٤٦/١ برقم ١٧)

(٦) قال الألباني في تخريج هذا الحديث: " لا شك أنّ الأخذ بالأقل هو المتيقّن عند اضطراب الرواة وعدم امكان ترجيح وجه من وجوه الاضطراب، وليس الأمر كذلك هنا في نقدي، لأنّ رواية مسلم عن سليمان بلفظ: (الايمان بضع وسبعون شعبة) أرجح من رواية البخاري عنه بلفظ: (الايمان بضع وستون شعبة)، لأنّها من طريقين، كما سبقت الاشارة اليه عن أبي عامر عنه، خلافا لقول الحافظ ابن حجر". ( انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٧١/٤ برقم ١٧٦٩)

(٧) أخرجه مسلم بهذا اللفظ في كتاب الايمان، باب عدد شعب الايمان. (٦٣/١ برقم ٣٥)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب الحياء (فضل الله الصمد ٥٤/٢ برقم ٥٩٨) وفي صحيحه، كتاب الايمان، باب أمور الايمان. ( الفتح ٦٧/١ برقم ٩) بلفظ: ( الايمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الايمان ) .

ومنها أيضا حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أيّ العمل أفضل ؟ فقال: إيمان بالله ورسوله ، قيل: ثمّ ماذا ؟ قال: الجهاد في سبيل الله ، قيل: ثمّ ماذا ؟ قال: حجّ مبرور .))(1)

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تدلّ على أنّ أعمال الجوارح داخلة في مسمّى الايمان، وأنّه لا ينفع القول والتصديق بدون العمل، وهذا ما قرّره الشوكاني رحمه الله تعالى،(2) وهو القول الحقّ الذي أجمع عليه سلف هذه الأمّة - عليهم رحمة الله تعالى - .

والمؤمن في الحقيقة يكفيه دليل واحد من كتاب الله أو سنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكي يعتقد ذلك ، فكيف وقد تضافرت الأدلّة الصريحة من كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم على صحّة مذهب السلف رحمهم الله تعالى .

## المبحث الثاني: بيان أهمّية الايمان

يجب على كلّ مؤمن أن يعرف أركان الايمان، وهي الايمان بالله ،وملائكته ،وكتبه ، ورسله ،واليوم الآخر ،وبالقدر خيره وشرّه ، لأنّ الايمان بهذه المغيّبات أساس هذا الدين، لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل ايمان أحد جحدها أو جحد واحدا منها،حتى يقرّ ويؤمن بها جميعا .

فالايمان بالله له أهمّية قصوى، لأنّ سعادة الانسان في الدارين مبنيّة على قوّة ايمانه بالله تعالى وقربه منه ، فمن أطاع الله تبارك وتعالى،وآمن به ايمانا حقّا،واجتنب ما نهى عنه ،فقد فاز فوزا عظيما ، كما أنّ نجاة الانسان من عذاب الله تبارك وتعالى، ومن عقابه الذي توعّد به الكافرين هو الايمان به عزّوجلّ .

وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تحثّ على الايمان بالله تعالى وتبيّن أهمّيته. فمن ذلك: قوله تعالى :(( وَالْعَصْرِ،إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ،إِلَّا الَّذِينَ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الايمان،باب من قال إنّ الايمان هو العمل.( الفتح ٩٧/١ برقم ٢٦)،ومسلم في كتاب الايمان،باب كون الايمان بالله تعالى أفضل الأعمال. (٨٨/١ برقم ٨٣) .

(2) انظر فتح القدير : الشوكاني (٥٤/١) وأيضا (٢٦٧/١) .

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ))[١]

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في معنى الآية :(( إنّ كلّ انسان في المتاجر والمعاصي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحقّ حتى يموت، ( إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) أي جمعوا بين الايمان بالله والعمل الصالح، فإنّهم في ربح لا في خسر، لأنّهم عملوا للآخرة، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها ،( وتواصوا بالحقّ ) أي وصّى بعضهم بعضاً بالحقّ الذي يحقّ القيام به، وهو الايمان بالله والتوحيد والقيام بما شرعه الله واجتناب ما نهى عنه ،( وتواصوا بالصبر ) أي بالصبر عن معاصي الله سبحانه، والصبر على فرائضه.))[٢]

وقد بيّن الله سبحانه أنّ الايمان سبب لحصول رغد العيش وطيبه في قوله تعالى :
(( وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ))[٣]
وقوله سبحانه :(( مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ))[٤]

وسبب للأمن في الآخرة ،كما في قوله تعالى:(( الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ))[٥] .

وسبب للتثبيت عند سؤال القبر والنجاة من عذابه ،كما في قوله سبحانه :(( يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ))[٦]

وسبب لرضوان الله تعالى، ولدخول جنّته، وللنجاة من النار ،كما في قوله تعالى:
(( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ،رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ،ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ))[٧] وقوله سبحانه :(( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ،تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ،ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ))[٨]

---

(١) سورة العصر .
(٢) فتح القدير : الشوكاني (٤٩١/٥،٤٩٢).
(٣) سورة الأعراف : آية ٩٦ .
(٤) سورة النحل : آية ٩٧ .
(٥) سورة الأنعام : آية ٨٢ .
(٦) سورة ابراهيم : آية ٢٧ .
(٧) سورة البينة : آية ٧،٨ .
(٨) سورة الصف : آية ١٠،١١ .

كما بيّن سبحانه وتعالى أنّ الايمان سبب لهدايته الى الجنّة في قوله عزّ وجلّ :

(( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ))(١)

قال الشوكاني في معنى الآية :(( (انّ الذين آمنوا) أى فعلوا الايمان الذي طلبه الله منهم ،(وعملوا الصالحات) التي يقتضيها الايمان ،وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين ،(يهديهم ربّهم بايمانهم )أى يرزقهم الهداية بسبب هذا الايمان المضموم اليه العمل الصالح ، فيصلون بذلك الى الجنّة ٠ ))(٢)

فالايمان له أهمية بالغة ،وتظهر أهميته بمعرفة فوائده وثماره ، وقد بيّن الشوكاني - رحمه الله تعالى - هذه الأهمية في عدّة مناسبات في مؤلفاته ، فقال مثلا عند تفسيره لقوله تعالى :(( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ١٠لآية ))(٣) : (( وكأنّه سبحانه وتعالى أراد أن يبيّن أنّ هذه الملّة الاسلامية وحال من قبلها من سائر الملل يرجع الى شيء واحد ،وهو أنّ من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا استحقّ ما ذكره الله من الأجر ، ومن فاته ذلك فاته الخير كلّه ، والأجر دقّه وجلّه ٠ ))(٤)

كما بيّن - رحمه الله - فوائد الايمان وثماره ،فقال في فوائد الايمان بالقدر :

(( ومن فوائد رسوخ الايمان بهذه الخصلة أنّه يعلم أنّه ما وصل اليه من الخير على أي صفة كان ،وبيد من اتفق ،فهو منه عزّ وجلّ ، فيحصل له بذلك من الحبور والسرور ما لا يقادر قدره ،لما له سبحانه من العظمة التي تضيق أذهان العباد عن تصوّرها ، وتقصر عقولهم عن ادراك أدنى منازلها ٠ (٥) وانّ من لازم ذلك أن يضيف الى قدر الله كلّ ما يناله من خير وشرّ غير متعرّض للأسباب التي يتعلّق بها كثير من الناس ، واذا مكّنه الله من الايمان بهذه الخصلة كما ينبغي ،وعلم أنّها من عند الله سبحانه بقدره السابق لكلّ عبد من عباده ،هانت عليه المصائب، لعلمه بأنّ ذلك من عند الله سبحانه ،وما كان من عند الله سبحانه فالرضى به والتسليم له شأن كلّ عاقل، لأنّه خالقه وموجده من العدم ، فهو

---

(١) سورة يونس ، آية ٩ ٠
(٢) فتح القدير ، الشوكاني (٤٢٧/٢) ٠
(٣) سورة البقرة ، آية ٦٢ ٠
(٤) فتح القدير ، الشوكاني (٩٣/١) ٠
(٥) قطر الولي على حديث الولي ، الشوكاني ( ص ٤١٤ )

حقه وملكه، يتصرّف به كيف يشاء كما يتصرّف العباد في أملاكهم من غير حرج عليهم.))[1]

وذكر - رحمه الله - مبيّناً أهمية مسائل الايمان والاسلام: أنّها عظيمة جداً، لأنّ الله سبحانه علّق بها السعادة والشقاوة، والجنّة والنار.[2]

## المبحث الثالث: زيادة الايمان ونقصانه

إنّ الايمان الذي دلّت عليه الأدلّة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ايمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات والعبادات، من ذكر الله والتفكّر في الكون وما فيه من عجائب المخلوقات، وأداء النوافل، والمسارعة الى كلّ عمل يقرّب من الله تعالى، وينقص بفعل المعاصي، واتيان المنكرات والفواحش، وكلّ عمل يبعد العبد من الله عزّ وجلّ.

والقول بزيادة الايمان ونقصانه قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، وقد أجمعوا عليه[3]، وهو القول الحقّ الذي دلّت عليه النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا عبرة بمن خالف ذلك من أهل البدع والأهواء.[4]

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى:

(( الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ))[5]

وقوله تعالى: (( وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ))[6]

---

(١) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٤١٣).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (١٢٨/٣).

(٣) انظر: كتاب الايمان لأبي عبيد (ص ٧٢)، والسنة لابن الخلال (٥٨١/٣، ٥٨٢)، والابانة لابن بطة (٨٢٩/٢ وما بعدها)، والشريعة للآجري (ص ١١١ - ١١٨)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٨٨٥/٦ - ٩٥٧)، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص ٦٧-٧١) ومسائل الايمان لأبي يعلى (ص ٤٠٤-٤٠٧)، والاعتقاد للبيهقي (ص ١١٥)، والحجة في بيان المحجة لأبي القاسم اسماعيل الأصبهاني (٤٠٥/١، ٤٠٦) تحقيق: د. محمد بن ربيع المدخلي. ومجموع فتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية (٢٢٣/٧).

(٤) وهم الخوارج والمعتزلة والمرجئة وأتباعهم، وقد ذكر عنهم شيخ الاسلام ابن تيمية أصلا، وهو أنّ الايمان عندهم كلّ لا يتجزأ، فاذا ذهب بعضه ذهب كلّه، وذكر أنّ هذا الأصل عند المبتدعة في الايمان، كالخوارج، والمعتزلة، والمرجئة، فعلى قول المعتزلة يكون الايمان هو مجموع ما أمر الله به، فاذا ذهب منه شيئ لم يبق مع صاحبه من الايمان شيئ فيخلد في النار. (انظر مجموع فتاوى ٢٢٣/٧).

(٥) سورة آل عمران: آية ١٧٣.

(٦) سورة الأنفال: آية ٢.

وقوله تعالى: (( وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ))(١)

وقوله سبحانه: (( هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ))(٢) .

وغير ذلك من الآيات الدالّة على زيادة الإيمان . والآيات في معناها كثيرة جدّاً .

وأمّا الأدلّة من السنة فمنها : حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( ما من نبي بعثه الله في أمّة قبلي إلا كان له من أمّته حواريون وأصحاب يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره، ثم إنّها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل . ))(٣)

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين ))(٤) والمراد نفي الكمال، ونظائره كثيرة .

ومنها حديث شعب الإيمان المتقدّم ذكره(٥)، وحديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرّة من خير ))(٦)

---

(١) سورة التوبة : آية ١٢٤، ١٢٥ . (٢) سورة الفتح : آية ٤ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأنّ الإيمان يزيد وينقص. ( ٧٠/١ برقم ٥٠ ) .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حبّ الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان. ( الفتح ٧٥/١ برقم ١٥ )، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب محبّة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين. ( ٦٧/١ برقم ٤٥ ) .

(٥) انظر صفحة (٤٥٥) .

(٦) أخرجه البخاري في عدّة مواضع، انظر كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه. ( الفتح ١٢٧/١ برقم ٤٤ ) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. ( ١٨٢/١ برقم ١٩٣ ) .

فهذه بعض أدلة السلف من القرآن الكريم والسنة المطهرة تدل على أن الايمان يزيد وينقص ، وان كان بعضها فيه لفظ الزيادة فقط، فانها تدل بطريقة الالتزام على النقص، لأن الشيء الذي يقبل الزيادة يقبل النقص ، والا فلا معنى للزيادة ، اذ لا يمكن أن يتصور شيء قابل للزيادة غير قابل للنقصان .

روى الآجري بسنده أنه قيل لسفيان بن عيينة : الايمان يزيد وينقص ؟ قال: أليس تقرأون القرآن (( فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ))[1] في غير موضع. قيل: وينقص ؟ قال: ليس شيء يزيد الا وهو ينقص .[2]

وروى ابن أبي عمر العدني[3] بسنده عن سفيان قال: الايمان قول وعمل يزيد وينقص، فقال له أخوه ابراهيم بن عيينة[4]: يا أبا محمد، لا تقل ينقص . فغضب وقال: اسكت يا صبي ، بل ينقص حتى لا يبقى منه شيء .[5]

وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان في الايمان عن عدد كبير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

فعن ابن عباس وأبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله عنهم ،كلهم قالوا : الايمان

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٧٣ .  (٢) أخرجه الآجري في الشريعة (ص ١١٧).

(٣) محمد بن يحيى بن أبي عمر أبو عبد الله العدني الدراوردي،ويقال له: ابن أبي عمر ، عالم بالحديث،وحدث عن فضيل بن عياض وطبقته ،وسمع منه مسلم بن الحجاج والترمذي، قال الحافظ في التقريب (ص ٥١٣ برقم ٦٣٩١) :صدوق صنف المسند ،وكان لازم ابن عيينة . له كتاب الايمان والمسند في الحديث،توفي (٢٤٣ هـ)( انظر ترجمته في:تذكرة الحفاظ: الذهبي ٧٦/٢،وشذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي ١٠٤/٢ ) .

(٤) ابراهيم بن عيينة أبو اسحاق أخو سفيان بن عيينة ،كان اماما خيرا،قال يحيى بن معين: كان مسلما صدوقا،ولم يكن من أصحاب الحديث ،توفي (١٩٩هـ)( انظر:الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم ١١٨/٢ ،وميزان الاعتدال:الذهبي ٥١/١ ،والتقريب:ابن حجر ٩٢ برقم ٢٢٧).

(٥) أخرجه العدني في كتاب الايمان ( ص ٩٤ برقم ٢٨ ) تحقيق: حمد بن حمدي الحربي ، قال المحقق : اسناده حسن ، وأخرجه الآجري في الشريعة ( ص ١١٧ )،وابن بطة في الابانة ( ٨٥٥/٢ برقم ١١٥٥ )، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ( ٩٦٠/٥ برقم ١٧٤٥ ).

يزيد وينقص.(١)

وعن عمير بن حبيب رضي الله عنه - وهو من الصحابة(٢) قال: الإيمان يزيد وينقص. قيل له: ما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عز وجل وخشينا، فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه.(٣)

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل والرجلين في الحلق فيقول: (( تعالوا نزدد إيمانا ))(٤)

كما ثبت هذا المعنى عن جمع غفير من التابعين ومن بعدهم من الأئمة، كالأوزاعي، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ومالك، والإمام أحمد، والشافعي، والبخاري، وإسحق بن راهويه(٥)، وأبي عبيد، وغيرهم.(٦) كلهم مجمعون على القول بزيادة الإيمان ونقصانه.

وقد نهج الشوكاني - رحمه الله - منهج هؤلاء السلف في هذه المسألة، وبيّن أنّ الإيمان يزيد وينقص، يزيد بعمل الطاعات وأعمال الخير، وينقص بترك الطاعات وفعل المعاصي.

ومما يستدل به على ذلك قوله تعالى: (( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ))(٧)

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٣١٤/١ برقم ٦٢٢، ٦٢٣)، والآجري في الشريعة (ص ١١١)، وابن بطة في الإبانة (٨٤٤/٢، ٨٤٥ برقم ١١٢٦-١١٣٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٤٤/٥، ٩٤٥ برقم ١٧٠٩، ١٧١١)، والقاضي أبو يعلى في مسائل الإيمان (ص ٤٠٤).

(٢) هو جد أبي جعفر الخطمي، وهو صحابي أيضا (انظر التقريب لابن حجر ص ٤٣١ برقم ٥١٨٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (ص ٧)، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٣١٥/١ برقم ٦٢٤)، وابن جرير في صريح السنة (ص ٢٥ برقم ٢٨)، والآجري في الشريعة (ص ١١١، ١١٢) وابن بطة في الإبانة (٨٤٥/٢ برقم ١١٣١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٤٩/٥ برقم ١٧٢١)، والصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص ٦٧ برقم ١٠٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (ص ٣٦)، والآجري في الشريعة (ص ١١٢)، وابن بطة في الإبانة (٨٤٧/٢ برقم ١١٣٤)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٤١/٥ برقم ١٧٠٠)، وأبو يعلى في مسائل الإيمان (ص ٤٠٤).

(٥) إسحق بن راهويه بن مخلد التميمي المعروف بابن راهويه، سيد الحفاظ، وشيخ المشرق في زمانه، قال الإمام أحمد عنه: لا أعرف لإسحق في الدنيا نظيرا، وقال النسائي فيه: أحد الأئمة، ثقة، مأمون. توفي (٢٣٨هـ) (سير أعلام النبلاء، الذهبي ٣٥٨/١١، والبداية والنهاية، ابن كثير ٣٣١/١٠).

(٦) انظر: السنة لابن الخلال (٥٨١، ٥٨٢)، والشريعة للآجري (ص ١١٦، ١١٧)، والإبانة لابن بطة (٨٥٠/٢ - ٨٥٢)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٨٩٣ - ٨٩٤)، والاعتقاد للبيهقي (ص ١٢٠، ١٢١).

(٧) سورة الأنفال: آية ٢.

قال: (( والمراد من حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الإيمان المخلصين لله، فالحصر باعتبار كمال الإيمان، لا باعتبار أصول الإيمان.

ثم أورد - رحمه الله - قول أهل السنة والمخالفين لهم في مسألة زيادة الإيمان. قال: ((قيل: والمراد بزيادة الإيمان هو زيادة انشراح الصدور وطمأنينة القلب وانثلاج الخاطر عند تلاوة القرآن، وقيل: المراد بزيادة الإيمان زيادة العمل، لأن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه.))[(١)]

وقال في قوله تعالى: (( الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ))[(٢)]: (( أي ازدادوا طمأنينة ويقينا، وفيه دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ))[(٣)] كما قال هذا المعنى في قوله تعالى: (( وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ))[(٤)] وقوله تعالى: (( لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ))[(٥)]

ومما يستدل به من الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: (( جددوا إيمانكم. قيل: كيف نجدد إيماننا يا رسول الله؟ قال: أكثروا من قول: لا إله إلا الله ))[(٦)]

قال الشوكاني: (( وفي الحديث دليل على أن هذه الكلمة الشريفة كما كانت محصلة للإسلام ابتداء تكون مجددة له إذا قال القائل من المسلمين والمؤمنين بها، فمن قال: لا إله إلا الله. فقد تجدد إيمانه الحاصل من قبل، ومعلوم أن ذلك يقتضي قوة الإيمان وزيادة على ما كان عليه قبل أن يقول هذه الكلمة.))[(٧)]

## المبحث الرابع: العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢٨٥/٢). (٢) سورة آل عمران: آية ١٧٣ .
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٤٠٠/١)
(٤) سورة محمد: آية ١٧ وانظر فتح القدير: الشوكاني (٣٥/٥) .
(٥) سورة الفتح: آية ٤ وانظر فتح القدير: الشوكاني (٤٥/٥) .
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٦/٤)، وأحمد في المسند (٣٥٩/٢) من طريق صدقة بن موسى السلمي الدقيقي عن أبي هريرة. قال الحاكم: صحيح الإسناد. ورده الذهبي بقوله: قلت: صدقة ضعفوه. قال المنذري في الترغيب (٤١٥/٢): رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن. قلت: كذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠، وأيضا ٥٢/١) والحديث ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٣٠٠/٢ برقم ٨٩٦) .
(٧) تحفة الذاكرين: الشوكاني (ص ٢٦٠، ٢٦١) .

أنّ اسم الايمان تارة يذكر مفردا غير مقرون باسم الاسلام ، وتارة يذكر مقرونا به ، وكذلك اسم الاسلام تارة يذكر مفردا غير مقرون باسم الايمان، وتارة يذكر مقرونا به ، وبالتالي فانهما أحيانا يكونان بمعنى واحد فهما مترادفان، وأحيانا يراد من أحدهما معنى يغاير لمعنى الآخر فهما متغايران .

ويمكن حصر ذلك في الأقسام التالية :

١ ـ وردت آيات في القرآن الكريم وأحاديث في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم تدلّ على أنّ الاسلام هو الأعمال الظاهرة ،والايمان هو الأعمال الباطنة .

فمن القرآن قوله تعالى :(( قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ))(١) ففرّقت الآية الكريمة بين الاسلام والايمان حيث أثبتت لهم الاسلام ونفت منهم الايمان، فدلّ ذلك على تغايرهما ، وأنّ المراد بالايمان الأعمال الباطنة من تصديق القلب واقراره ومعرفته ، وبالاسلام الأعمال الظاهرة من استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له ، فليس كلّ مسلم مؤمنا، لأنّه قد يكون الايمان ضعيفا كايمان هؤلاء الأعراب، فكلّما كثرت الذنوب والمعاصي والاعراض عن الله كلّما ضعف الايمان في القلب ، ولا يزال كذلك حتى لا يبقى فيه مثقال ذرّة ، ولذلك فلا يتحقّق القلب به تحقّقا تامّا مع عمل جوارحه أعمال الاسلام ، فيكون مسلما وليس بمؤمن الايمان التام .

ومن الأحاديث حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل ،وفيه قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : (( أخبرني عن الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله ،وأنّ محمدا رسول الله ،وتقيم الصلاة ،وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ،وتحجّ البيت ان استطعت اليه سبيلا. قال: صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدّقه . قال: فأخبرني عن الايمان . قال: أن تؤمن بالله ،وملائكته ،وكتبه ، ورسله ،واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه . قال: صدقت . قال: فأخبرني عن الاحسان . قال: أن تعبد الله كأنّك تراه ،فان لم تكن تراه فانّه يراك ...))(٢) ففي هذا الحديث فرّق الرسول صلى الله عليه وسلم بين الاسلام والايمان ،حيث خصّ الايمان بالأعمال

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٤ .
(٢) تقدّم تخريجه في صفحة (١٣٢) .

القلبية الاعتقادية، والاسلام بالأعمال الظاهرة .

ومنها حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رهطا ـ وسعد جالس ـ فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا هو أعجبهم الي، فقلت: يا رسول الله، مالك عن فلان ؟ فوالله اني لأراه مؤمنا . فقال: أو مسلما . فسكت قليلا، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي، فقلت : مالك عن فلان ؟ فوالله اني لأراه مؤمنا . فقال: أو مسلما . ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي . وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا سعد، اني لأعطي الرجل وغيره أحب الي منه، خشية أن يكبه الله في النار . (١)

فهذه الأدلة تدل على أن الاسلام والايمان متغايران .

٢ ـ وردت آيات وأحاديث تفيد أن الأعمال الظاهرة داخلة في معنى الايمان، وأن الأعمال الباطنة داخلة في معنى الاسلام .

فمن الآيات قوله تعالى: (( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ))(٢) وقوله تعالى: (( وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ))(٣) ومنها قوله تعالى: (( إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ))(٤) (( وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ))(٥) (( الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ))(٦) فيدخل في الاسلام معنى الايمان، كما يدخل في الايمان معنى الاسلام، لأن الايمان الذي دعا الله عباده اليه وافترضه عليهم هو الاسلام الذي جعله الله دينا وارتضاه لعباده ودعاهم اليه، وهو ضد الكفر الذي سخطه ولم يرضه لعباده .

ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: (( الايمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا اله الا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الايمان، باب اذا لم يكن الاسلام على الحقيقة ( الفتح ١/١٠٠ برقم ٢٧ ) واللفظ له، ومسلم في كتاب الايمان، باب تألف من يخاف على ايمانه لضعفه (١٣٢/١ برقم ١٥٠). ومعنى (خشية أن يكبه الله في النار) أي أتألف قلبه باعطائه مخافة من كفره اذا لم يعط ( شرح النووي لصحيح مسلم ١٨٠/٢ )

(٢) سورة الحجرات : آية ١٥ . (٣) سورة المائدة : آية ٥ .

(٤) سورة آل عمران : آية ١٩ . (٥) سورة آل عمران : آية ٨٥ .

(٦) سورة المائدة : آية ٣ .

شعبة من الايمان ))[١]

ومنها حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، ما الاسلام؟ قال: أن يسلم قلبك لله عزّوجلّ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ، قال: فأيّ الاسلام أفضل؟ قال: الايمان ـ قال: وما الايمان؟ قال: تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت ، قال: فأيّ الايمان أفضل؟ قال: الهجرة. قال: فما الهجرة؟ قال: تهجر السوء. قال: فأيّ الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد.[٢] ففي هذا الحديث جعل النبي صلى الله عليه وسلم الايمان أفضل الاسلام، وأدخل فيه الأعمال.

٣ ـ وردت آيات وأحاديث تفيد أنّ الاسلام والايمان مترادفان.

منها قوله تعالى: (( فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ))[٣]

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (( تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا ربّ، أنا الصلاة. فيقول: إنّك على خير. فتجيء الصدقة فتقول: يا ربّ أنا الصدقة. فيقول: إنّك على خير. ثم يجيء الصيام فيقول: أي ربّ أنا الصيام. فيقول: انّك على خير. ثم تجيء الأعمال على ذلك، فيقول الله عزّ وجلّ: إنّك على خير. ثم يجيء الاسلام، فيقول: يا ربّ أنت السلام وأنا الاسلام، فيقول الله عزّوجلّ: انّك على خير بك اليوم آخذ، وبك أعطي، فقال الله عزّوجلّ في كتابه: (( وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ))[٤] ))[٥]

وقد تحدّث علماء السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ عن هذه المسألة، واختلفوا فيها، وصنّفوا فيها تصانيف متعددة، فمنهم من ذهب الى أنّ الاسلام والايمان شيء واحد، أي هما

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (٤٥٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١١٤/٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٩/١): رواه أحمد والطبراني في الكبير بنحوه، ورجاله ثقات.

(٣) سورة الذاريات، آية ٣٥، ٣٦. (٤) سورة آل عمران: آية ٨٥.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٣٦٢/٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤٥/١٠): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط، وفيه عباد بن راشد، وثّقه أبو حاتم وغيره، وضعّفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح، وصحّحه أحمد شاكر في تخريجه للحديث ( انظر المسند بتحقيقه ٢٠٢/١٦ برقم ٨٧٢٧ ).

مترادفان، يراد بأحدهما ما يراد بالآخر.(١) ومنهم من فرّق بينهما وأنّ الاسلام غير الايمان.(٢) واستدلّوا بالآيات والأحاديث التي أوردتها في القسم الأوّل.

وقد ذهب الى التفريق بينهما الامام الشوكاني رحمه الله تعالى ـ اذ قال:

(( والاسلام: الانقياد والاستسلام لأمر الله سبحانه، فكلّ مؤمن مسلم، ومن ذلك قوله: (( قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ))(٣) وقد أوضح الفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الاسلام والايمان في الحديث في الصحيحين وغيرهما الثابت من طرق أنّه سئل عن الاسلام، فقال: أن تشهد أن لا اله الّا الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحجّ البيت، وتصوم رمضان. وسئل عن الايمان، فقال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشرّه.(٤) فالمرجع في الفرق بينهما هو هذا الذي قاله الصادق المصدوق، ولا التفات الى غيره مما قاله أهل العلم في رسم كلّ واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة مختلّة متناقضة، وأمّا ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الاسلام والايمان فذلك باعتبار المعاني اللغوية، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.))(٥)

---

(١) وهو قول البخاري (ت ٢٥٦هـ) في صحيحه ( انظر الفتح ٦٠/١، ١٤٠) ، ومحمد بن نصر المروزي (ت ٢٩٤هـ) في تعظيم قدر الصلاة (٤٠٢/١ و ٥٠٦/٢ ـ ٥٣١) تحقيق: د. عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي. وابن مندة (ت ٣٩٥هـ) في كتاب الايمان (٣٢١/١، ٣٢٢) ، وابن حزم (ت ٤٥٦هـ) في المحلى (٣٨/١) ، وابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) في التمهيد (٢٤٩/٩، ٢٥٠) .

(٢) وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين منهم: عبد الله بن عباس، والحسن، ومحمد بن سيرين. ( انظر كتاب الايمان لابن مندة ٣١١/١) قال الحافظ ابن رجب: وقد نقل التفريق بينهما عن كثير من السلف، منهم: قتادة (ت ١١٧هـ) ، وداود بن أبي الهند (ت ١٤٠هـ) ، وأبو جعفر الباقر (ت ١١٤هـ) ، والزهري (ت ١٢٤هـ) ، وحماد بن زيد (ت ١٩٧هـ) ، وابن مهدي (ت ١٩٨هـ) وشريك (ت ١٧٧هـ) ، وابن أبي ذئب (ت ١٥٨هـ) ، وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) ، وأبو خيثمة (ت ٢٣٤هـ) ، ويحيى بن معين (ت ٢٠٣هـ) ، وغيرهم، على اختلاف بينهم في صفة التفريق بينهما، وكان الحسن (ت ١١٠هـ) ، وابن سيرين (ت ١١٠هـ) يقولان مسلم، ويهابان مؤمن. ( جامع العلوم والحكم ٢٦/١ ) .

(٣) سورة الحجرات، آية ١٤ .

(٤) تقدّم تخريجه في صفحة (١٣٣) .

(٥) فتح القدير، الشوكاني (٨٩/٥) وانظر أيضا: السيل الجرار (٥٨٤/٤، ٥٨٥) ونيل الأوطار (٦١/٩، ٦٢) .

وأرجح الأقوال في هذه المسألة وما ذهب إليه أكثر أهل العلم [1] من أن الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما شمل الدين كله أصوله وفروعه من اعتقاداته وأفعاله الظاهرة والباطنة، وإذا قرن بينهما وذكرا معا فعند ذلك يفترقان في المعنى، فيراد بالإسلام الأعمال الظاهرة: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ويراد بالإيمان الاعتقادات الباطنة: وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وهذا القول هو الذي تجتمع عليه النصوص الواردة في هذه المسألة، وبه يزول الاختلاف.

فيقال: إذا اجتمعا افترقا، كما في حديث جبريل، حيث فرّق بينهما، فخصّ الإيمان بالأعمال الباطنة، والإسلام بالأعمال الظاهرة. وإذا افترقا اجتمعا وتلازما، كما في حديث وفد عبد القيس [2] حيث فسّر الإيمان بما فسّر به الإسلام في حديث جبريل، وكما في حديث عمرو بن عبسة [3] حيث فسّر الإسلام بما فسّر به الإيمان. ومن هذا النوع قوله تعالى: (( إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ )) [4] (( وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ )) [5] (( وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا )) [6]

وعلى هذا فقول الشوكاني – رحمه الله تعالى – في تفسير الآية الأولى حكاية عن الجمهور: إنّ الإسلام هنا بمعنى الإيمان، وإن كانا في الأصل متغايرين كما في حديث جبريل، لأنه قد يسمّى كلّ واحد منهما باسم الآخر كما ورد ذلك في الكتاب والسنة [7] قول فيه نظر، لأنّ غاية ما قاله الجمهور أهل السنة أنّ الإيمان والإسلام متلازمان، لا أنّ مسمّى أحدهما هو مسمّى الآخر، فإنّ هذا لا يعرف عن أحد من السلف، ولم ينقل عن أحد من أئمة الإسلام المشهورين [8]. فالإسلام المذكور في الآية يدخل فيه معنى الإيمان على سبيل التلازم والارتباط، لا أنه بمعنى الإيمان كما قال الشوكاني.

---

(١) انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية (ص ١٥، ١٤٨، ٢٢٢)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص ٣٩٢–٣٩٤)، وجامع العلوم والحكم لابن رجب (٢٦/١ وما بعدها) والفتح لابن حجر (١٤١/١)

(٢) تقدّم ذكره في صفحة (٤٥٥).

(٣) انظر صفحة (٤٦٦).

(٤) سورة آل عمران: آية ١٩.

(٥) سورة آل عمران: آية ٨٥.

(٦) سورة المائدة: آية ٣.

(٧) انظر فتح القدير: الشوكاني (٣٢٦/١).

(٨) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٣٦٤/٧).

وما أحسن ما شبّه شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - الايمان والاسلام بالروح والبدن اذ قال: (( فلا يوجد عندنا روح الا مع البدن، ولا يوجد بدن حيّ الا مع الروح، وليس أحدهما الآخر، فالايمان كالروح، فانه قائم بالروح ومتّصل بالبدن، والاسلام كالبدن، ولا يكون البدن حيّا الا مع الروح، بمعنى أنهما متلازمان، لا أنّ مسمّى أحدهما هو مسمّى الآخر. ))(١)

## المبحث الخامس: حكم مرتكب الكبيرة

### معنى الكبيرة

الكبيرة لغة من الكِبْر، قال ابن منظور(٢) - رحمه الله -: (( الكِبْر: الاثم الكبير، وما وعد الله عليه النار، والكِبْرة كالكبر: التأنيث للمبالغة، وفي التنزيل العزيز: (( وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ... ))(٣) وفي الأحاديث ذكر الكبائر في غير موضع، واحدتها كبيرة: وهي الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعا لتعظيم أمرها. ))(٤)

واختلف العلماء في معنى الكبيرة شرعا على أقوال كثيرة(٥) أوردها الشوكاني - رحمه الله تعالى - ستة أقوال، أوجزها فيما يلي:

١ - إنّ الذنوب كلّها كبائر، وانّما يقال لبعضها صغيرة بالاضافة الى ما هو أكبر منها، كما يقال: الزنا صغيرة بالاضافة الى الكفر، والقبلة المحرّمة صغيرة بالاضافة الى الزنا. وهو قول الاسفرايني(٦)

---

(١) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٣٦٧/٧).

(٢) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم الأنصاري الأفريقي المعروف بابن منظور، أديب لغوي، شارك في علوم كثيرة، له مصنفات منها: لسان العرب، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، توفي (٧١١ هـ) (انظر شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٢٦/٦، والأعلام: الزركلي ١٠٨/٧).

(٣) سورة الشورى: آية ٣٧. (٤) لسان العرب: ابن منظور (٤٤٣/٦ مادة: كبر).

(٥) انظر الأقوال في تعريف الكبيرة في: مجموع فتاوى الشيخ الاسلام ابن تيمية (٦٥٧/١) ومدارج السالكين لابن القيم (٣٢١/١ - ٣٢٧)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي (ص ٤١٧-٤١٨)، وشرح مسلم للنووي (٨٥/٢ - ٨٧)، وفتح الباري لابن حجر (٤١٠/١٠ - ٤١٢)، والزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي (٥/١ - ١٠).

(٦) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران، أبو اسحاق الاسفرايني الشافعي، الفقيه، المتكلم، الأصولي، ترجم له ابن عساكر في عداد رجال الطبقة الثانية من الأشاعرة. من مؤلفاته: الحلي في أصول الدين والرد على الملحدين، ومسائل الدور، وتعليقه في أصول

والجويني[1]،والقشيري [2]،وغيرهم .

٢ ـ المراد بالكبائر التي يكون اجتنابها سببا لتكفير السيئات هي الشرك،واستدلوا على ذلك بقراءة من قرأ :(( ان تجتنبوا كبير ما تنهون عنه ))،وعلى قراءة الجمع فالمراد أجناس الكفر .

٣ ـ الكبيرة : كلّ ذنب ختمه الله بنار،أو غضب،أو لعنة،أو عذاب . قاله ابن عباس رضي الله عنهما .

٤ ـ الكبائر : ما نهى الله عنه في هذه السورة ( يعني سورة النساء ) الى ثلاث وثلاثين آية . قاله ابن مسعود رضي الله عنه .

٥ ـ كلّ ذنب نسبه الله الى النار فهو كبيرة . قاله سعيد بن جبير .

٦ ـ الكبائر : كلّ ذنب رتّب الله عليه الحدّ ، أو صرّح بالوعيد فيه . قاله جماعة من أهل الأصول. وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره .[3]

والقول المختار لدى الشوكاني هو :(( كلّ ذنب توعّد الله عليه بالنار،أو ذمّ فاعله ذمّا شديدا ))[4]

ورجّح في موضع آخر،قال ـ نقلا عن القرطبي[5] في المفهم ـ : الراجح أنّ كلّ ذنب نصّ على كبره،أو عظمه،أو توعّد عليه بالعقاب،أو علّق عليه حدّ،أو اشتدّ النكير عليه فهو كبيرة . وهذا الكلام في غير ما قد ورد النصّ الصريح فيه أنّه كبيرة من الكبائر أو أكبر

---

=== الفقه ،توفّي (٤١٨هـ)( انظر تبيين كذب المفترى لابن عساكر ٢٤٣،وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١١١/٣) .

(١) تقدّمت ترجمته في صفحة ٣٦ .

(٢) تقدّمت ترجمته في صفحة (٢٩٠) .

(٣) فتح القدير : الشوكاني (٤٥٧/١،٤٥٨) وانظر أيضا ارشاد الفحول الى تحقيق الحقّ من علم الأصول : الشوكاني (ص ٥٢،٥٣) .

(٤) فتح القدير : الشوكاني (١١٢/٥)

(٥) هو أحمد بن عمر بن ابراهيم أبو العباس الأنصاري القرطبي،فقيه مالكي،من رجال الحديث يعرف بابن المزين،من كتبه : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ،توفّي (٦٥٦هـ) ـ (انظر : البداية والنهاية : ابن كثير ٢٠٢/١٣،وشذرات الذهب : ابن العماد ٢٧٣/٥)

الكبائر .(١)

قلت : وهذا ضابط جيّد في تعريف الكبيرة استقاه من أقوال السلف كقول ابن عبّاس رضي الله عنهما الذي هو أحسن الأقوال في تعريف الكبيرة ، وقد اختاره شيخ الاسلام ابن تيمية (٢) والحافظ ابن حجر (٣) رحمهما الله تعالى .

وكما اختلفوا في تحقيق معنى الكبيرة وماهيتها اختلفوا في عددها ، فقيل: هي سبع ، وقيل: هي تسع ، وقيل: عشر ، وقيل: اثنتا عشرة ، وقيل: أربع عشرة ، وقيل: ستّ وثلاثون ، وقيل: سبعون ، وإلى السبعين أنهاها الحافظ الذهبي في جزء صنّفه في ذلك.(٤) وقد جمع ابن حجر الهيتمي(٥) فيها مصنّفاً حافلاً سمّاه : الزواجر في الكبائر ، وذكر فيه نحو أربعمائة معصية ، وبالجملة فلا دليل يدلّ على انحصارها في عدد معيّن .(٦)

تقسيم الذنوب الى كبيرة وصغيرة

دلّت نصوص الكتاب والسنة على أنّ الذنوب تنقسم الى كبائر وصغائر ، وهو ما أجمع عليه جمهور السلف رحمهم الله تعالى .

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ :(( وقد اختلف الناس هل المعاصي منقسمة الى صغائر وكبائر أم هي قسم واحد ، فذهب الجمهور الى أنّها منقسمة الى صغائر وكبائر ، ويدلّ على ذلك قوله سبحانه وتعالى :(( إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ )) (٧) وقوله :(( وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ))(٨) ، ويدلّ عليه ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم متواتراً من تخصيص بعض الذنوب باسم الكبائر ، وبعضها بأكبر الكبائر . وذهب جماعة الى أنّ المعاصي قسم واحد ، ومنهم الأستاذ

---

(١) انظر نيل الأوطار : الشوكاني (٢٤٣/١٠) . (٢) انظر مجموع فتاوى : ابن تيمية (٦٥٤/١١ ، ٦٥٥)
(٣) انظر فتح الباري (١٨٤/١٢) . (٤) وهو كتابه : الكبائر .
(٥) هو أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري ، شهاب الدين ، شيخ الاسلام ، أبو العبّاس ، فقيه مصري شافعي ، له تصانيف كثيرة منها : تحفة المحتاج لشرح المنهاج ، والصواعق المحرّقة على أهل البدع والضلال والزندقة ، توفّي (٩٧٤ هـ) ( انظر البدر الطالع : الشوكاني ١٠٩/١ ، والأعلام : الزركلي ٢٣٤/١ ) .
(٦) انظر إرشاد الفحول : الشوكاني (ص ٥٢ ، ٥٣) ، وأيضاً فتح القدير : الشوكاني (٤٥٨/١) .
(٧) سورة النساء : آية ٣١ .
(٨) سورة الحجرات : آية ٧ .

أبو اسحاق[1]، والجويني، وابن فورك[2] ومن تابعهم، قالوا : إنّ المعاصي كلّها كبائر، وانّما يقال لبعضها صغيرة بالنسبة الى ما هو أكبر، كما يقال: الزنا صغيرة بالنسبة الى الكفر، والقبلة المحرّمة صغيرة بالنسبة الى الزنا، وكلّها كبائر، قالوا : ومعنى قوله : ( ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ) ان تجتنبوا الكفر كفّرت عنكم سيئاتكم التي هي دون الكفر. والقول الأوّل أرجح.))[3] قلت : وهو قول السلف الذي دلّت عليه النصوص.

واستدلّ الشوكاني - رحمه الله- بأحاديث كثيرة على هذا القول منها :

حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : ما هي يا رسول الله ؟ قال: الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله الا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ))[4]

قال الشوكاني: (( وفي الحديث دليل على أنّ هذه السبع المذكورة من كبائر الذنوب ))[5]

ومنها حديث أنس رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبائر، أو سئل عن الكبائر، فقال: الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين ، وقال: ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر ؟ قال: قول الزور، أو قال: شهادة الزور.[6]

وقد ذكر الثلاث المذكورة في الحديث في الآيتين :

الأولى: (( وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ))[7]

والثانية : (( فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ))[8]

ومنها حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(( ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر، قلنا : بلى يا رسول الله، قال ثلاثا : الاشراك بالله ،

---

(١) هو أبو اسحاق الاسفرايني الذي تقدمت ترجمته في ص ٤٦٩ (٢) تقدمت ترجمته في ص ٢٩٨

(٣) ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول: الشوكاني (ص ٥٢) وانظر أيضا نيل الأوطار: الشوكاني (٢٤٣/١٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا باب قول الله تعالى: (( ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما.. الآية )) (الفتح ٤٦٢/٥ برقم ٢٧٦٦) وأخرجه أيضا برقم (٥٧٦٤، ٦٨٥٧)، ومسلم في كتاب الايمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٢/١ برقم ٨٩).

(٥) نيل الأوطار، الشوكاني (١١٨/٩، ١١٩). (٦) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر (الفتح ٤١٩/١٠ برقم ٥٩٧٧)، ومسلم في كتاب الايمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٩١/١، ٩٢ برقم ٨٨).

(٧) سورة الاسراء، آية ٢٣. (٨) سورة الحج ، آية ٣٠.

وعقوق الوالدين ، وكان متّكئا فجلس،وقال: ألا وقول الزور. فما زال يكرّرها حتى قلنا ليته سكت .[١]

قال الشوكاني:(( وفي الحديث ( أي حديث أنس وحديث أبي بكرة ) انقسام الذنوب الى كبير وأكبر ... ويؤخذ من الحديث ثبوت الصغائر، لأنّ الكبائر بالنسبة اليها أكبر منها . والاختلاف في ثبوت الصغائر مشهور، وأكثر ما تمسّك به من قال ليس في الذنوب صغيرة كونه نظرا الى عظم المخالفة لأمر الله ونهيه ، فالمخالفة بالنسبة الى جلال الله كبيرة ، لكن لمن أثبت الصغائر أن يقول: وهي بالنسبة الى ما فوقها صغيرة ، كما دلّ عليه حديث الباب ، وقد فهم الفرق بين الصغيرة والكبيرة من مدارك الشرع، ويدلّ على ثبوت الصغائر قوله تعالى:(( إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ))[٢] فلا ريب أنّ السيّئات المكفّرة ههنا هي غير الكبائر المجتنَبة ، لأنّه لا يكفّر الا ذنب قد فعله المذنب ، لا ما كان مجتنبا من الذنوب ، فانّه لا معنى لتكفيره ، والكبائر المراد في الآية مجتنبة ، فالسيّئات المكفّرة غيرها ، وليست الا الصغائر، لأنّها المقابلة لها . وكذلك يؤيّد ثبوت الصغائر حديث تكفير الذنوب الوارد في الصلاة والوضوء مقيّدا باجتناب الكبائر .[٣] فثبت أنّ من الذنوب ما يكفّر بالطاعات، ومنها ما لا يكفّر، وذلك عين المدعى، ولهذا قال الغزالي[٤]: انكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه . ثم إنّ مراتب الصغائر والكبائر تختلف بحسب تفاوت مفاسدها .))[٥]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب،باب عقوق الوالدين من الكبائر ( الفتح ٤١٩/١٠ برقم ٥٩٧٦ )،ومسلم في كتاب الايمان،باب بيان الكبائر وأكبرها (٩١/١ برقم ٨٧) .

(٢) سورة النساء ، آية ٣١ .

(٣) كقوله صلى الله عليه وسلم :(( الصلوات الخمس،والجمعة الى الجمعة ،ورمضان الى رمضان، مكفّرات لما بينهنّ،ما اجتنبت الكبائر )) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة ،باب الصلوات الخمس (٢٠٩/١ برقم ٢٣٣)،وقوله صلى الله عليه وسلم :(( ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها الا كانت كفّارة لما قبلها من الذنوب،ما لم يؤت كبيرة . وذلك الدهر كلّه )) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة ،باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (٢٠٦/١ برقم ٢٢٨) .

(٤) سبقت له ترجمة في صفحة (٣٦) .

(٥) نيل الأوطار ، الشوكاني (٢٣٤/١٠،٢٣٥) .

قلت : إنّ ما ذهب اليه الشوكاني هنا في اثبات الصغيرة والكبيرة هو القول الحق الذي عليه جمهور أهل السنّة .

حكم مرتكب الكبيرة

أمّا حكم مرتكب الكبيرة فانّ عقيدة أهل السنة والجماعة في ذلك أنّ من ارتكب كبيرة دون الشرك ولم يستحلّها فانّه لا يكفر، بل يسمّى مؤمنا ناقص الايمان، فهو مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته ، واذا مات مصرّا عليها ولم يتب منها فانّ أمره الى الله تعالى، ان شاء غفر له ذنبه ، وأدخله الجنّة ابتداء تفضّلا منه سبحانه ، وان شاء عذّبه بقدر ذنبه عدلا منه سبحانه ثم يخرجه من النار ويدخله الجنة، لأنه لا يخلد في النار الا المشرك. وقال بعضهم: يوازن بين حسناته وسيئاته فمن رجّحت حسناته على سيئاته نجا ودخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته عذب بقدر سيئاته.[1]

قال أبو عثمان الصابوني[2] ـ رحمه الله تعالى ـ مقرّرا عقيدة السلف في هذه المسألة : (( ويعتقد أهل السنة أنّ المؤمن وان أذنب ذنوبا كثيرة ، صغائر كانت أو كبائر ، فانّه لا يكفر بها ، وان خرج من الدنيا غير تائب منها ، ومات على التوحيد والاخلاص، فانّ أمره الى الله عزّ وجلّ ، ان شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالما غانما غير مبتلى بالنار ، ولا معاقب على ما ارتكبه من الذنوب، واكتسبه ثم استصحبه الى يوم القيامة من الآثام والأوزار ، وان شاء عاقبه وعذّبه مدّة بعذاب النار ، واذا عذّبه لم يخلده فيها ، بل أعتقه وأخرجه منها الى نعيم دار القرار . ))[3]

وقد خالفت في ذلك فرق المعتزلة والخوارج والمرجئة الخالصة التي تقول: لا يضرّ مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، ومن نحا نحوهم ، وخالفوا نصوص الكتاب والسنة ، حيث أنّ الخوارج كفّروا مرتكب الكبيرة ، وأخرجوه من الايمان، وحكموا عليه بالخلود في نار جهنم ، ووافقهم المعتزلة على الخلود في نار جهنم في الآخرة ، أمّا في الدنيا فقالوا : إنّه يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر ، وانّما هو في منزلة بين المنزلتين، أمّا المرجئة فقد فتحوا باب شرّ عظيم ، وهوّنوا أمر المعاصي حيث قالوا : انّه لا يضرّ مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة . وعلى هذا فمرتكب الكبيرة عندهم

(١) انظر لوامع الأنوار البهية: السفاريني ( ٣٧٩/١ ) .
( ٢) تقدّمت ترجمته في صفحة (٢٦٩) .
( ٣) عقيدة السلف أصحاب الحديث : الصابوني (ص ٧١، ٧٢) تحقيق بدر البدر .

مؤمن كامل الايمان ولا يدخل نار جهنم ، وهذا مبني على اخراجهم العمل من مسمّى الايمان[1].

والحقّ ما قاله أهل السنة والجماعة وأجمعوا عليه ، وقد حكى ذلك الامام البغوي ـ رحمه الله تعالى ـ فقال : (( اتّفق أهل السنة على أنّ المؤمن لا يخرج عن الايمان بارتكاب شيئ من الكبائر اذا لم يعتقد اباحتها ، واذا عمل شيئا منها فمات قبل التوبة لا يخلد في النار ، كما جاء به الحديث، بل هو الى الله ، ان شاء عفا عنه ، وان شاء عاقبه بقدر ذنوبه ، ثم أدخله الجنة برحمته . ))[2]

وقد نهج الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ منهج أهل السنة وقرّره في هذه المسألة ، واستدلّ بما استدلّوا به من الكتاب والسنة .

فمن الكتاب قوله تعالى : (( إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ))[3]

قال الشوكاني عند تفسيره للآية : (( هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفّار من أهل الكتاب وغيرهم ، ولا يختصّ بكفّار أهل الحرب ، لأنّ اليهود قالوا : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقالوا ثالث ثلاثة ، ولا خلاف بين المسلمين أنّ المشرك اذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضّل الله بها على غير أهل الشرك، حسبما تقتضيه مشيئته ، أمّا غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة ، يغفر لمن يشاء ، ويعذّب من يشاء . ثم نقل عن ابن جرير قال : قد أبانت هذه الآية أنّ كلّ صاحب كبيرة في مشيئة الله عزّوجلّ ، ان شاء عذّبه ، وان شاء عفا عنه ، ما لم تكن كبيرته شركا بالله عزّوجلّ ، وظاهره أنّ المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضّلا منه ورحمة ، وان لم يقع من ذلك المذنب توبة . ))[4]

---

(١) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٦٩٧) ، وانظر من كتب الفرق : الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٥٥ ، ٩٤ ، ١٩٤ ، ١٩٥) ، والتبصير في الدين للاسفراييني (ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٩٧) وانظر أيضا : كتاب الايمان لأبي عبيد (ص ٩٩ ـ ١٠٢) ، ومسائل الايمان لأبي يعلى (ص ٣٢٣ ـ ٣٢٦) ، والتمهيد لابن عبد البر (٢٤٢/٤ ، ٢٤٣) ، ومجموع فتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية (١١/ ١٨٤ ، ١٨٥ وأيضا ٣٧/١٣ ، ٣٨) ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص ٤١٧) ، وجامع العلوم والحكم لابن رجب (٢٩/١) ، وشرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة شرح لملا علي القاري (ص ١٠٢ ـ ١٠٥)

(٢) شرح السنة للبغوي (١٠٣/١) . (٣) سورة النساء : آية ٤٨ .

(٤) فتح القدير : الشوكاني (٤٧٥/١ ، ٤٧٦) ، وانظر تفسير الطبري (١٢٦/٥) .

وقوله تعالى :(( قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ))(١)

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ :(( قوله :( إنّ الله يغفر الذنوب) فالألف واللام قد صيّرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده، فهو في قوّة : انّ الله يغفر كلّ ذنب كائناً ما كان إلا ما أخرجه النصّ القرآني وهو الشرك :(( إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ))(٢) ... ثم قال : واذا تقرّر لك هذا فاعلم أنّ الجمع بين هذه الآية وبين قوله :(( إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ))(٢) هو أنّ كلّ ذنب كائناً ما كان ما عدا الشرك بالله مغفور لمن يشاء الله أن يغفر له، على أنّه يمكن أن يقال إنّ إخباره لنا بأنّه يغفر الذنوب جميعاً يدلّ على أنّه يشاء غفرانها جميعاً، وذلك يستلزم أنّه يشاء المغفرة لكلّ المذنبين من المسلمين، فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية . وأمّا ما يزعمه جماعة من المفسّرين من تقييد هذه الآية بالتوبة وأنّها لا تغفر إلا ذنوب التائبين..وزعموا أنّهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات، فهو جمع بين الضبّ والنون، وبين الملاح والحادي، وعلى نفسها براقش تجني، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيّدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فان التوبة من المشرك يغفر الله بها ما فعله من الشرك باجماع المسلمين، وقد قال :(( إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ))(٢) فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة . وقد قال سبحانه :(( وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ))(٣) قال الواحدي(٤) : المفسّرون كلّهم قالوا : انّ هذه الآية في قوم خافوا إنّ أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبي صلى الله عليه وآله وسلم . قلت ( أي الشوكاني ) : هب انّها في هؤلاء القوم فكان ماذا ؟ فانّ الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب، كما هو متّفق عليه بين أهل العلم، ولو كانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مقيّدة بأسبابها غير

---

(١) سورة الزمر : آية ٥٣ .

(٢) سورة النساء : آية ٤٨، ١١٦ .

(٣) سورة الرعد : آية ٦ .

(٤) سبقت له ترجمة في صفحة (٣٤٠) .

متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف من الأمة أن لم ترتفع كلها ، واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله .

وفي السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما في هذا الباب ما إن عرفه المطلع عليه حق معرفته ،وقدره حق قدره ،علم صحة ما ذكرناه ، وعرف حقية ما حررناه .))[1]

ومن الأحاديث التي يستدل بها على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :(( ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، وإن زنى وإن سرق ، وإن زنى وإن سرق ، وإن زنى وإن سرق .))[2]

قال الشوكاني:(( وفي الحديث دليل على أن هذه الكلمة التي هي كلمة التوحيد إذا مات العبد على قولها ، وكانت خاتمة كلامه الذي يتكلم به فإنه مختاراً أوجبت له الجنة ، ولم يضره ما تقدم من المعاصي، وإن كانت كبائر كالزنا والسرق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .))[3]

قلت : والصحيح أن الحديث محمول على من وحّد ربّه ومات على ذلك تائباً من الذنوب التي أشير إليها في الحديث، فإنه موعود بهذا الحديث بدخول الجنة ابتداء ، وعلى هذا قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ بعد سوق الحديث :(( هذا عند الموت أو قبله إذا تاب وندم وقال لا إله إلا الله غفر له .))[4] أما من تلبّس بالذنوب المذكورة ومات من غير توبة ،فظاهر الحديث أنه أيضاً داخل في ذلك، لكن مذهب أهل السنة أنه في مشيئة الله تعالى، إن شاء يعفو عنه ويدخله الجنة ابتداء ، وإن شاء يعذّبه بها ثم يدخله الجنة بعد ذلك، وهذا ما قرّره الشوكاني كما تقدّم .

فالصواب أن يحمل قوله هنا :( ولم يضره ما تقدم من المعاصي) على ما تقدم من أنه مقيّد بمشيئة الله تعالى،إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ابتداء ،وإن شاء عذّبه بقدر ذنبه ولا يخلد في النار .

---

(١) فتح القدير : الشوكاني (٤٧٠/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب الثياب البيض،( الفتح ٢٩٤/١٠ برقم ٥٨٢٧ ) ومسلم في كتاب الإيمان،باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ،ومن مات مشركاً دخل النار.(٩٥/١ برقم ٩٤)
(٣) تحفة الذاكرين : الشوكاني (ص ٢٩٠) .
(٤) انظر الفتح (٢٩٥/١٠ برقم ٥٨٢٧) .

ويدلّ على ذلك حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ: (( بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، ثمّ ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه.))[1] وهذا المفسّر مقدّم على المبهم.[2]

والشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ كما قرّر عقيدة أهل السنة في هذه المسألة فإنه أنكر على المخالفين لهم من الفرق المنحرفة، كالمعتزلة والمرجئة وأمثالهم.

فعند تفسيره لقوله تعالى: (( فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ))[3] تعرّض الشوكاني لمسألة خلود أهل الكبائر في النار، ولمعنى الاستثناء في الآية، وقرّر قول أهل السنة فيها، وأورد روايات كثيرة عن السلف تدلّ على خروج من دخل النار من عصاة الموحّدين[4] ثمّ أورد كلام الزمخشري المعتزلي في هذا الموضوع، قال:

(( ولقد تكلّم صاحب الكشّاف في هذا الموضع بما كان له في تركه سعة، وفي السكوت عنه غنى، فقال: ولا يخدعنّك عنه قول المجبرة[5] أنّ المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار، فإنّ الاستثناء الثاني[6] ينادي على تكذيبهم، ويسجّل بافترائهم، وما ظنّك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت[7] من عبد الله بن عمرو بن

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع متعددة، انظر كتاب الإيمان، باب رقم (١١) (الفتح ٨١/١ برقم ١٨)، ومسلم في كتاب الحدود، باب الحدود كفّارات لأهلها (١٣٣٣/٣ برقم ١٧٠٩).

(٢) انظر الفتح لابن حجر (٢٩٥/١٠). (٣) سورة هود: آية ١٠٦، ١٠٧.

(٤) انظر فتح القدير، الشوكاني (٥٢٦/٢، ٥٢٧).

(٥) يريد بهم أهل السنة، لأنّ المعتزلة يقولون: فاعل الكبيرة وسط بين المؤمن والكافر، وخلوده في النار أبديّ، كما سبق أن بيناه.

(٦) يقصد به الاستثناء في الآية التالية، وهي قوله تعالى: (( وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ )) (سورة هود: آية ١٠٨)

(٧) جاء في اللسان (٩٦/٢ مادة: نبت) والنابت من كلّ شيء: الطريّ حين ينبت صغيراً، وما أحسن نابتة بني فلان: أي ما ينبت عليه أموالهم وأولادهم، ونبتت لهم نابتة: إذا نشأ لهم نشأ صغير. وإنّ بني فلان لنابتة شرّ، والنوابت من الأحداث: الأغمار.

العاص: (( ليأتينّ على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيه أحد ))[1] ثمّ قال ( أي صاحب الكشّاف ): وأقول: ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث . اهـ [2]

وردّ عليه الشوكاني قائلاً: (( أمّا الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما صحّ عنه في دواوين الاسلام التي هي دفاتر السنة المطهّرة ، وكما صحّ عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر ، فما لك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته ، وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة ، وأيّ مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمّة ، فالاستثناء الأوّل يحمل على معنى الّا ما شاء ربّك من خروج العصاة من هذه الأمّة من النار ، والاستثناء الثاني يحمل على معنى الّا ما شاء ربّك من عدم خلودهم في الجنّة كما يخلد غيرهم ، وذلك لتأخّر خلودهم اليها مقدار المدّة التي لبثوا فيها في النار . وقد قال بهذا من أهل العلم من قدّمنا ذكره ، وبه قال ابن عبّاس ( رضي الله عنهما ) حبر الأمّة . وأمّا الطعن على صاحب رسول الله ، وحافظ سنّته ، وعابد الصحابة ، عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، فالى أين يا محمود ، أتدري ما صنعت ، وفي أيّ وادٍ وقعت ، وعلى أيّ جنب سقطت ؟ ومن أنت حتى تصعد الى هذا المكان ، وتتناول نجوم السماء بيديك القصيرة ، ورجلك العرجاء ، أما كان لك في مكسرى طلبتك من أهل النحو واللغة ما يردّك عن الدخول فيما لا تعرف ، والتكلّم بما لا تدري ، فيا لله العجب ، ما يفعل القصور في علم الرواية ، والبعد عن معرفتها الى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ، ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه . ))[3]

كما يردّ ـ رحمه الله تعالى . على أهل الإرجاء فيما ذهبوا اليه .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: الحديث أخرجه البزار ثم ساقه بسنده الى ابن عمرو . ولفظه: ( يأتي على النار زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد يعني من الموحّدين) كذا فيه ، ورجاله ثقات ، والتفسير لا أدري ممن هو . ( انظر الكشاف ٤٣١/٢ هامش رقم (١) ، وانظر كلام الألباني على الحديث في: رفع الأستار لابطال أدلّة القائلين بفناء النار للصنعاني ص ٨٢) وسيأتي الكلام عن مسألة فناء النار في صفحة ٦٢٣ .

(٢) انظر الكشاف للزمخشري (٤٣٠/٢، ٤٣١) .

(٣) فتح القدير : الشوكاني (٥٢٧/٢، ٥٢٨) .

فعند تفسيره لقوله تعالى: (( لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى، وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ))(1) قال في معنى الآية: (( أي لا يصلاها صليا لازما على جهة الخلود إلا الأشقى وهو الكافر، وان صلاها غيره من العصاة فليس صليه كصليه. ))(2)

ثم أورد ـ رحمه الله ـ أقوال المفسّرين في معنى الآية، وقال: (( والأولى حمل الأشقى والأتقى على كلّ متّصف بالصفتين المذكورتين، ويكون المعنى أنّه لا يصلاها صليا تامّا لازما إلا الكامل في الشقاء، وهو الكافر، ولا يجنّبها ويبعد عنها تبعيدا كاملا بحيث لا يحوم حولها فضلا عن أن يدخلها إلا الكامل في التقوى، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولا غير لازم، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيدا غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل في التقوى عنها. ))(3)

وردّ الشوكاني على المرجئة الذين استدلوا بهذه الآية على ارجائهم، فزعموا أنّه لا يدخل النار إلا كافر. فقال:

(( والحاصل أنّ من تمسّك من المرجئة بقوله: ( لا يصلاها إلا الأشقى ) زاعما أنّ الأشقى الكافر، لأنّه الذي كذّب وتولّى، ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين، فيقال له: فما تقول في قوله: ( وسيجنّبها الأتقى ) فانّه يدل على أنّه لا يجنّب النار إلا الكامل في التقوى، فمن لم يكن كاملا فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنّب النار، فان أوّلت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى، فخذ اليك هذه مع تلك، وكن كما قال الشاعر:

على أنّني راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا عليّ ولا ليه. ))(4)

وهكذا بيّن الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ منهج أهل السنة في هذه المسألة الخطيرة، وردّ على المخالفين لهم من أهل الأهواء والبدع ردّا وفيّا. والله الهادي الى سواء السبيل.

---

(1) سورة الليل: آية ١٥ ـ ١٧.    (2) فتح القدير: الشوكاني (٥/٤٥٣).

(3) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(4) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

# البَابُ الثَّاني

## منهج الإمَام الشوكاني في الإيمان بالنبوّات والمعاد

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : في الإيمَان بالنبوات

الفصل الثاني : في الإيمَان بالمعَاد أو اليوم الآخر

## (( الباب الثاني ))

## منهج الإمام الشوكاني في الإيمان بالنبوات والمعاد

### تمهيد

تقدّم أن بيّنت في الباب الأوّل منهج الإمام الشوكاني - رحمه الله تعالى - في الإيمان بالله تعالى الذي يشمل أنواع التوحيد الثلاثة: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وفيما ينافيه من الأعمال الشركية والبدعية، وفي تعريف الإيمان وما يتعلّق به من مسائل.

وفي هذا الباب أبيّن منهج الإمام الشوكاني فيما تبقّى من أصول العقيدة الإسلامية، ألا وهو الإيمان بالنبوّات وما يتعلّق به من مسائل، والإيمان بالمعاد أو اليوم الآخر.

والله أسأله التوفيق والرشاد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

# الفصل الأول

# في الإيمان بالنبوات

ويشتمل على المباحث الآتية :

المبحث الأول : تعريف النبوة والنبي والرسول

المبحث الثاني : حاجة البشرية إلى النبوة

المبحث الثالث : معنى الإيمان بالأنبياء والرسل عليه الصلاة والسلام

المبحث الرابع : التفاضل بين الأنبياء

المبحث الخامس اتفاق الأنبياء والرسل على الغرض الواحد وتصديق بعضهم بعضًا

المبحث السادس : من صفات الأنبياء والرسل ووظائفهم

المبحث السابع : الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبشاراته في الكتب السابقة

المبحث الثامن : من دلائل النبوة

المبحث التاسع : الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة

المبحث العاشر : الإيمان بوجود الجن والشياطين

## (( الفصل الأوّل ))

## في الايمان بالنبوّات

### المبحث الأوّل: تعريف النبوّة والنبيّ والرسول

#### تعريف النبوّة

النبوّة في اللغة لها ثلاثة اشتقاقات : إمّا أن تكون مشتقّة من النَبَأ فتكون بمعنى الاخبار، اذ النبأ هو الاخبار، وإمّا أن تكون مشتقّة من النَبْوَة والنَبَاوَة ،وكلاهما يدلّ على الارتفاع، فتكون بمعنى الرفعة والعلوّ، وإمّا أن تكون مشتقّة من النّبِي : وهو بمعنى الطريق، فتكون النبوّة بمعنى أنّها الطريق الى الله عزّوجلّ .

جاء في لسان العرب : النبأ : الخبر، والجمع أنباء، وانّ لفلان نبأ : أى خبرا . والنبي : المخبر عن الله . وقيل: النبي مشتقّ من النباوة : وهي الشيء المرتفع، والنبي أيضا : الطريق الواضح .(١)

والحقّ أنّ النبوّة الشرعية تشمل كلّ هذه المعاني، اذ النبوّة اخبار عن الله عزّوجلّ، وهي رفعة لصاحبها لما فيها من التشريف والتكريم ، وهي الطريق الموصّلة الى الله سبحانه . ومع ذلك فانّ أولى هذه المعاني بلفظ النبوّة ،وكذلك النبي، هو اشتقاقها من النبأ ، لأنّ النبي منبأ من الله ، وهو كذلك ينبئ الناس عن الله ،وتتحقّق نبوّته بمجرّد ذلك، وبهذا التحقّق تثبت له أوصاف العلوّ والرفعة ، وكونه طريقا الى معرفة الله تعالى .

ويؤيّد ذلك ما ورد في القرآن الكريم في عدّة آيات من اطلاق النبأ على الخبر، كقوله تعالى: (( نَبِّئْ عِبَادِيْ أَنِّيْ أَنَا الْغَفُوْرُ الرحِيْمُ ))(٢) ،وقوله سبحانه : (( نَبَّأَنِيَ الْعَلِيْمُ الْخَبِيْرُ ))(٣)

أمّا النبوّة في الشرع فهي صفة تحدث في الشخص بعد أن يصطفيه الله عزّوجلّ،

---

(١) انظر لسان العرب : ابن منظور (١٦٢/١ ــ ١٦٤ مادة : نبأ )
(٢) سورة الحجر : آية ٤٩ .
(٣) سورة التحريم : آية ٣ .

فيخبره بخبر السماء، فان كلّفه بتبليغها الى الناس يكون نبيّا ورسولا، وان لم يكلّف بذلك فهو نبي فقط، وهذا هو المشهور عند العلماء كما سأبينه .

والنبوة فضل إلهي ومنحة ربّانية يهبها لمن يشاء من عباده، ويختارلها من يريد من خلقه، وهي لا تدرك بالجدّ والتعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة، وانّما هي اصطفاء واختيار، فلا تكون الّا لمن اختاره الله تبارك وتعالى لها ممن هم أهل لحملها، كما قال تعالى: (( اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ))[1] وقال في معرض الحديث عن بعض الرسل: (( وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ))[2] .

تعريف النبي والرسول

النبي لغة: مشتق مما اشتقت منه كلمة النبوّة، أي من النبأ وهو الخبر، كما في قوله تعالى: (( عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ))[3]. وقيل: من النَبْوة، وهو ما ارتفع من الأرض . قال الشوكاني: وآثر لفظ النبي لما فيه من الدلالة على الشرف والرفعة على ما قيل أنّه من النَبْوة، وهي ما ارتفع من الأرض، قال في الصحاح: ان جعلت لفظ النبي مأخوذا من ذلك فمعناه أنّه شرف على سائر الخلق . وأصله غير الهمزة، وهو فعيل بمعنى مفعول .[4] ومنه قوله تعالى: (( وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ))[5]. وقيل: النبي هو الطريق الواضح، لأنّ العرب تطلق لفظ النبي على عَلَم من أعلام الأرض التي يهتدي بها، وسمّي النبي بذلك لأنّه علم يهتدي به الخلق الى الله تبارك وتعالى .[6]

والرسول لغة: مشتق من الارسال، ومعناه: البعث والتوجيه، فاذا بعثت شخصا في القيام بمهمّة ما فهو رسولك . قال تعالى حكاية عن ملكة سبأ: (( وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ

---

(١) سورة الحج: آية ٧٥ . (٢) سورة ص: آية ٤٧ .

(٣) سورة النبأ: آية ١، ٢ .

(٤) نيل الأوطار: الشوكاني (١٩/١) وانظر الصحاح: الجوهري (٢٥٠٠/٦ مادة: نبا ).

(٥) سورة مريم: آية ٥٧ .

(٦) انظر الصحاح للجوهري (٧٤/١ مادة: نبأ ) و (٢٥٠٠/٦ مادة: نبا من المعتل) ، والمفردات للأصفهاني (ص ٤٨١، ٤٨٢ مادة: نبأ )، والنهاية لابن الأثير (٤،٣/٥ مادة: نبأ )، ولسان العرب لابن منظور (١٦٢/١ – ١٦٤ مادة: نبأ )

إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ))(١)، ويجمع الرسول على أَرْسُل، ورُسُل، ورُسْل، ورُسَلاء، وسمّوا الرسل بذلك لأنّهم مبعوثون وموجّهون من قبل الله عزّ وجلّ، لتبليغ الخلق أمر الله ووحيه.(٢)

أمّا تعريف النبي والرسول شرعاً فتعدّدت أقوال العلماء في تعريفهما ، وقد ذكر الشوكاني ـ رحمه الله ـ بعض هذه الأقوال، قال :

(( والنبي في لسان الشرع : من بعث إليه بشرع، فإن أمر بتبليغه فرسول، وقيل: هو المبعوث إلى الخلق بالوحي لتبليغ ما أوحاه، والرسول قد يكون مراداً فيه، وقد يختصّ بمن هو صاحب كتاب ، وقيل: هو المبعوث لتجديد شرع أو تقريره ، والرسول هو المبعوث للتجديد فقط ، وعلى الأقوال النبي أعمّ من الرسول.))(٣)

وقال في موضع آخر: (( قيل: الرسول: الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عياناً ومحاورته شفاهاً ، والنبي: الذي يكون إلهاماً أو مناماً . وقيل: الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه ، والنبي: من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله، ولم ينزل عليه كتاب ، ولا بدّ لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة.))(٤)

والقول المشهور في تعريفهما هو القول الأوّل الذي ذكره الشوكاني وقرّره ، وهو أنّ الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، فالرسول أخصّ من النبي، فكلّ رسول نبيّ، وليس كلّ نبي رسولاً . (٥)

وقد اعترض على هذا التعريف الشيخ محمد الأمين الشنقيطي(٦) ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله عزّ وجلّ: (( وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ))(٧) لأنّه يدلّ على أنّ كلاً منهما مرسل، وأنّهما مع ذلك بينهما تغاير. وأورد ـ رحمه الله ـ القول بأنّ النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقلّ مع المعجزة التي ثبتت بها نبوّته ، وأنّ النبي المرسل الذي هو غير الرسول هو من لم ينزل عليه كتاب وإنّما أوحي أن يدعو الناس إلى

---

(١) سورة النمل : آية ٣٥ .

(٢) انظر: الصحاح للجوهري (١٧٠٩/٤)، والمفردات للأصفهاني (ص ١٩٥)، ولسان العرب لابن منظور (٢٨٣/١١، ٢٨٤) مادة : رسل .

(٣) نيل الأوطار : الشوكاني (١٩/١). (٤) فتح القدير : الشوكاني (٤٦١/٣) .

(٥) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص ١٦٧)، ولوامع الأنوار البهية : السفاريني (٤٩/١)، والوحي المحمدي: محمد رشيد رضا (ص ٤٧) ط/٩ المكتب الإسلامي .

(٦) تقدّمت ترجمته في صفحة (٢٦٨) . (٧) سورة الحج : آية ٥٢ .

الى شريعة رسول قبله ، كأنبياء بني اسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة ، كما بيّنه تعالى بقوله : (( يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ))[1] .[2]

قلت : وهذا هو الراجح في تعريف النبي والرسول والفرق بينهما ، وهو الذي أشار اليه الشوكاني في القول الأخير بصيغة التمريض .

وقد ذهب الى هذا القول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال :

(( فالنبي هو الذي ينبئه الله ، وهو ينبئ بما أنبأ الله به ، فان أرسل مع ذلك الى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله اليه فهو رسول ، وأمّا اذا كان انّما يعمل بالشريعة قبله ، ولم يرسل هو الى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول ، ..... الى أن قال : فقوله : (( وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ))[3] دليل على أنّ النبي مرسل ، ولا يسمّى رسولا عند الاطلاق ، لأنّه لم يرسل الى قوم بما لا يعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنّه حق . ))[4]

فما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هو الموافق لمعنى الآية الكريمة التي أوضحت أنّ الرسول مرسل من الله ، وكذلك النبي .

## المبحث الثاني : حاجة البشرية الى النبوّة

لا شك أنّ النبوّة ضرورة من ضرورات حياة البشر ، لا غنى عنها بحال من الأحوال ، فحاجة البشرية الى النبوّة كحاجة الحياة الى الروح ، فكما أنّ الحياة لا تصلح ولا تقوم بدون الروح كذلك البشرية لا تصلح الا باتّباع هدي النبوّة .

وتظهر ضرورة النبوّة وحاجة البشرية اليها بوضوح اذا عرفنا أنّ الانسان مكوّن من روح وجسد ، وأنّ العالم عالمان علوىّ وسفليّ ، وأنّ الحياة حياتان : أولى تنقضي ، وثانية تدوم ولا تنتهي ، وأنّ بين الحياتين برزخا تقضي فيه الأرواح فترة ما بين موت الانسان وبعثه للحياة الثانية . وبيان ذلك أنّ كون الانسان روحا يقتضي وحيا الهيّا يخبره عن الروح ، وصفاتها ، وأحوالها ، وأسباب كمالها ونقصانها ، وسعادتها ، وشقائها . وأنّ كون الانسان جسما يقتضي كذلك وحيا الهيّا يبيّن له فيه طرق المحافظة على جسمه ، ويضع له

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٤ . (٢) انظر أضواء البيان : محمد الأمين الشنقيطي (٧٣٥/٥) .
(٣) سورة الحج : آية ٥٢ . (٤) كتاب النبوّات : ابن تيمية (ص ٢٥٥، ٢٥٦) .

القوانين التي تساعده على بقائه صالحا في المدّة المحدّدة له من هذه الحياة ، وأنّ كون العالم عالمين علويّا وسفليّا يقتضي وحيا الهيّا يخبره عن العالم العلويّ وما فيه ،لعجز الانسان عن معرفة ذلك بوسائله الخاصّة وادراكه دون الوحي الالهي، وأنّ كون الحياة حياتين يقتضي كذلك وحيا الهيّا يعرف الانسان بواسطته الحياة الثانية ، ماذا فيها، وما الذي يتمّ للانسان يوم ينتقل اليها ؟ وما الى ذلك . اذ مثل هذا لا يدركه الانسان بواسطة عقله مجرّدا عن الوحي الالهي بحال من الأحوال .(١)

وليعلم أنّ العقل البشري مهما بلغ في كماله فانّه لا يكفي وحده لهداية البشر، لأنّ دوره في الحياة محدود بالتفكّر في الوجود من حوله ،فلا بدّ له من نعمة من الله سبحانه ، وهذه النعمة هي ارسال الرسل والأنبياء الى هذه البشرية الحائرة التي هي في أمسّ الحاجة الى هداية الله حتى تعرف الطريق السويّ، وتعرف شرع الله ،وحينئذ تصبح النبوّة أمرا لازما للبشرية جمعاء، وحاجة ملحّة لها ،كي تخرجها من الظلمات الى النور، ومن الضلال الى الهدى، ومن عبودية العباد الى عبوديّة ربّ العباد .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ مبيّنا حاجة العباد الى الأنبياء والرسل وتعاليمهم :

(( ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كلّ ضرورة الى معرفة الرسول وما جاء به ، وتصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر، فانّه لا سبيل الى السعادة والفلاح، لا في الدنيا ولا في الآخرة الا على أيدي الرسل، ولا سبيل الى معرفة الطيّب والخبيث على التفصيل الاّ من جهتهم ، ولا ينال رضى الله ألبتة الاّ على أيديهم ، فالطيّب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس الاّ هديهم وما جاءوا به ، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميّز أهل الهدى من أهل الضلال ، فالضرورة اليهم أعظم من ضرورة البدن الى روحه والعين الى نورها ، والروح الى حياتها ، فأيّ ضرورة وحاجة فرضت ، فضرورة العبد وحاجته الى الرسل فوقها بكثير .))(٢)

---

(١) انظر عقيدة المسلم : أبو بكر الجزائري (ص ٢٠٧، ٢٠٨) .
(٢) زاد المعاد : ابن القيّم (٦٩/١) تحقيق/ شعيب وعبد القادر الأرناءوط .

وقد بيّن الشوكاني – رحمه الله تعالى – أنّ من فضل الله على الناس كافّة بعثة الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربّهم وتبيين طرائق الحقّ لهم [1]، وأنّه لا فضل أعظم من النبوّة ونزول الوحي [2] لشدّة حاجة الناس إليهما. قال تعالى: (( وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ))[3] فالله سبحانه وتعالى لا يترك عباده سدى ولم يخلقهم عبثا، بل أرسل إليهم رسلا مبشّرين ومنذرين، يبشّرونهم بالسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إنْ هم أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ويخوّفونهم من عقاب الله وعذابه إنْ هم أشركوا بالله وجعلوا له أندادا. قال تعالى: (( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ))[4] فلا يهلك سبحانه من عصاه بالكفر والحال أنّهم غافلون عن الأعذار والإنذار بإرسال الرسل وإنزال الكتب، بل إنّما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم، وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم[5]. قال تعالى: (( وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ))[6] وقال سبحانه وهو يوضّح الغاية من بعثة الأنبياء والرسل: (( رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ))[7].

والنبوّة – كما ذكر الشوكاني – هي الواسطة في وصول الكمالات العلمية والعملية إلينا من الرفيع عزّ سلطانه وتعالى شأنه، وذلك لأنّ الله تعالى لمّا كان في نهاية الكمال ونحن في نهاية النقصان لم يكن لنا استعداد لقبول الفيض الإلهي[8]، لتعلّقنا بالعلائق البشرية والعوائق البدنية، وتدنّسنا بأدناس اللذّات الحسّية والشهوات الجسمية، وكونه تعالى في غاية التجرّد ونهاية التقدّس، فاحتجنا في قبول الفيض منه[8] جلّ وعلا إلى واسطة له وجه تجرّد ونوع تعلّق، فبوجه التجرّد يستفيض[8] من الحقّ، وبوجه التعلّق يفيض[8] علينا، وهذه الواسطة هم الأنبياء، وأعظمهم رتبة وأرفعهم منزلة نبيّنا صلى الله عليه وسلم[9].

---

(1) انظر فتح القدير، الشوكاني (٢٧/٣). (2) انظر المصدر السابق (٥١٤/١).

(3) سورة النساء، آية ١١٣. (4) سورة النحل، آية ٣٦.

(5) انظر فتح القدير، الشوكاني (١٦٣/٢) وأيضا (٢١٤/٣).

(6) سورة الإسراء، آية ١٥. (7) سورة النساء، آية ١٦٥.

(8) جاء في اللسان (٢١٠/٧–٢١٣ مادة فيض): فاض الماء والدمع ونحوهما يفيض فيضا وفيوضة وفيوضا وفيضانا وفيضوضة أي كثر حتى سال على ضفة الوادي، ونهر فيّاض أي كثير الماء، ورجل فيّاض أي وهّاب جواد، ورجل فيض وفيّاض أي كثير المعروف، وقولهم: أعطاه فيضا من فيض أي أعطاه قليلا من كثير. اهـ. أما كلمة (الفيض الإلهي) فهي من المصطلحات الصوفية الفلسفية، استمدّوها من مصادر أفلاطونية حديثة التي تقول: كلّ شيء فيض من الله أو تجلّ له. وهي كلمة استعملها أصحاب وحدة الوجود وما يجري مجراها للتعبير عن نظرياتهم الفاسدة. ولعلّ الشوكاني رحمه الله لم يقصد من هذه الكلمة معناها الاصطلاحي لدى القوم، لأنّ موقفه من هؤلاء معروف كما أسلفنا. والله أعلم. (انظر معنى هذا الاصطلاح في التعريفات للجرجاني (ص ١٦٩)، والفلسفة الصوفية في الإسلام للدكتور عبد القادر محمود (ص ٣١–٣٣) ط/ دار الفكر العربي).

(9) نيل الأوطار، الشوكاني (١٨/١).

## المبحث الثالث: معنى الايمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

إنّ الايمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من الايمان بالغيب الذي وصف الله المؤمنين بأنهم يؤمنون به ،كما قال تعالى: (( الٓمٓ ، ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ))(١)، وهو ركن من أركان الايمان التي يجب الايمان بها كما دلّت على ذلك الأدلّة الكثيرة من كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم :

كقوله تعالى: (( ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ،وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ))(٢)

قال الشوكاني: (( قوله : ( لا نفرّق بين أحد من رسله ): أي لا نكفر بما جاءت به الرسل ،ولا نفرّق بين أحد منهم ،ولا نكذّب به . ))(٣)

وكقوله تعالى مخاطبا لأهل الكتاب: (( فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ))(٤) أي آمنوا بأنه سبحانه اله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وبأنّ رسله صادقون مبلّغون عن الله ما أمرهم بتبليغه ، ولا تكذّبوهم ، ولا تغلوا فيهم ، فتجعلوا بعضهم آلهة .(٥)

وقوله تعالى: (( قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ، وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ))(٦)

وفي حديث جبريل وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال: (( أن تؤمن بالله ،وملائكته ،وكتبه ،ورسله ،واليوم الآخر ،وتؤمن بالقدر خيره وشرّه . ))(٧)

ومعنى الايمان بالأنبياء والرسل هو التصديق الجازم بأنّ لله عزّ وجلّ رسلا وأنبياء أرسلهم لارشاد الخلق الى ما فيه خيرهم في معاشهم ومعادهم ، فيجب الايمان

---

(١) سورة البقرة : آية ١ ـ ٣ . (٢) سورة البقرة : آية ٢٨٥ .
(٣) فتح القدير : الشوكاني (٣٠٦/١). (٤) سورة النساء : آية ١٧١ .
(٥) فتح القدير : الشوكاني (٥٤١/١). (٦) سورة آل عمران : آية ٨٤ .
(٧) تقدّم تخريجه في صفحة (١٣٢) .

بكلّ نبي ورسول سمّى الله منهم في كتابه على التفصيل، والايمان جملة بأنّ لله رسلا غيرهم وأنبياء لا يعلمهم إلّا هو سبحانه وتعالى .

قال تعالى: (( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ))(١)، وقال تعالى: (( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ))(٢) أي ولكل أمّة من الأمم الخالية في وقت من الأوقات رسول يرسله الله اليهم، ويبيّن لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة.(٣)

ومثل هذا قوله تعالى: (( وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ))(٤) أي نبيّ يدعوهم الى ما فيه هدايتهم ورشادهم.(٥)

والواجب الايمان بجميع الأنبياء والرسل دون تفريق بينهم، فمن آمن بالبعض وكفر بالبعض الآخر فقد كفر بالجميع، كما قال تعالى: (( إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا، أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ))(٦)

قال الشوكاني في تفسير الآية: (( لمّا فرغ من ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفّار من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، لأنّهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل والكتب المنزّلة، والكفر بذلك كفر بالله، وينبغي حمل قوله تعالى: ( انّ الذين يكفرون بالله ورسله ) على أنّها تستلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل، ×لكنّهم لمّا كفروا بالبعض كان ذلك كفرا بالله وبجميع الرسل. ومعنى: ( ويريدون
لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعا فانّ أهل الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله،
أن يفرّقوا بين الله ورسله ) أنّهم كفروا بالرسل بسبب كفرهم ببعضهم وآمنوا بالله، فكان ذلك تفريقا بين الله وبين رسله. ( ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ): هم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد ( عليهما الصلاة والسلام )، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ).))(٧)

والرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم خمسة وعشرون نبيّا ورسولا يجب الايمان بهم على التفصيل، بمعنى أنّه يتعيّن التصديق برسالاتهم بأشخاصهم وأسمائهم لأنّهم

---

(١) سورة غافر : آية ٧٨ . (٢) سورة يونس : آية ٤٧ .
(٣) فتح القدير : الشوكاني (٤٤٩/٢). (٤) سورة الرعد : آية ٧ .
(٥) فتح القدير : الشوكاني (٦٨/٣). (٦) سورة النساء : آية ١٥٠، ١٥١ .
(٧) فتح القدير : الشوكاني (٥٢٢/١).

ذكروا في القرآن. منهم ثمانية عشر قد ذكروا في قوله تعالى: (( وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ))(١)

وذكر السبعة الباقون مفرّقين في عدّة سور من القرآن الكريم، وهو آدم (٢)، وإدريس(٣)، وهود(٤)، وصالح(٥)، وشعيب(٦)، وذو الكفل(٧)، وخاتمهم محمد(٨) عليهم الصلاة والسلام.

وهناك أعداد كبيرة لا نعرفها ويجب الإيمان بها إجمالا.

قال الشوكاني - رحمه الله - عند تفسير قوله تعالى: (( فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ))(٩):

(( قيل جملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ))(١٠)

ومما يستدلّ به على ذلك حديث أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جمّا غفيرا.(١١) وفي رواية: قلت: يا رسول الله، كم النبيّون؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا. قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر. وفي رواية أخرى: خمسة عشر.(١٢) وهو حديث ليس بالقويّ كما يقال. وعلى كلّ فإنّنا لا نجزم بعدد معيّن لا نزيد عليه ولا ننقص منه، بل نؤمن بكلّ ما نبأ الله من نبي، وبكلّ ما أرسل من رسول ممن عرف نبوّتهم ورسالتهم وهم

---

(١) سورة الأنعام: آية ٨٣ - ٨٦. (٢) انظر آية (٣٣) من سورة آل عمران.
(٣) انظر آية (٥٦) من سورة مريم. (٤) انظر آية (٥٠) من سورة هود.
(٥) انظر آية (٧٣) من سورة الأعراف. (٦) انظر آية (٨٥) من سورة الأعراف.
(٧) انظر آية (٨٥) من سورة الأنبياء. (٨) انظر آية (٤٠) من سورة الأحزاب.
(٩) سورة البقرة: آية ٢١٣. (١٠) فتح القدير: الشوكاني (٢١٣/١).
(١١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٨/٥، ١٧٩) قال الهيثمي في المجمع (١٦٠/١): رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط بنحوه، وعند النسائي طرف منه، وفيه المسعودي وهو ثقة، ولكنه اختلط.
(١٢) انظر فتح القدير للشوكاني (٥٣٩/١، وأيضا ٦٩/١) والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٩٧/٢) قال الذهبي في التلخيص: فيه المعدى ليس بثقة. وأخرجه ابن حبان في صحيحه (انظر الإحسان ٧٧/٢ برقم ٣٦١) قال المحقق: إسناده ضعيف جدّا. وأخرجه أحمد في المسند (٢٦٦/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٢/٣ برقم ٣٥٧٦) قال الهيثمي في المجمع (١٥٩/١): رواه أحمد والطبراني في الكبير وقال: كم عدد الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة

قليلون ، وممن لم يعرف وهم جمّ غفير .

## المبحث الرابع: التفاضل بين الأنبياء

وردفي القرآن الكريم ما يدلّ على أنّ الانبياء عليهم الصلاة والسلام متفاضلون ، وأنّ بعضهم أفضل من بعض . كما قال تعالى: (( تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ . الآية ))(١) فهذه الآية تدلّ على المفاضلة بين الرسل والأنبياء، وأنّ بعضهم أفضل من بعض .

قال الشوكاني - رحمه الله تعالى - :(( والمراد بتفضيل بعضهم على بعض أنّ الله سبحانه وتعالى جعل بعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر ، فكان الأكثر مزايا فاضلا والآخر مفضولا . وكما دلّت هذه الآية على أنّ بعض الأنبياء أفضل من بعض كذلك دلّت الآية الأخرى وهي قوله تعالى: (( وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ))(٢) . " أي أنّ هذا التفضيل على علم منه بمن هو أعلى مرتبة ، وبمن دونه ، وبمن يستحقّ مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله ... وقد اتخذ الله ابراهيم خليلا، وموسى كليما ، وجعل عيسى كلمته وروحه ، وجعل لسليمان ملكا عظيما ، وغفر لمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، وجعله سيّد ولد آدم . وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفّار مما يحكيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ارتفاع درجته عند ربّه عزّ وجلّ ." (٤)(٣)

وقد أجمعت الأمّة على أنّ الرسل أفضل من الأنبياء ، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم ، وأفضل الرسل والأنبياء خمسة وهم : محمد صلى الله عليه وسلم ، ونوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، عليهم الصلاة والسلام . وهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل ، وقد خصّهما الله سبحانه بالذكر في آيتين من كتابه :

قال تعالى: (( شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ))(٥)

---

==== وعشرون ألفا . ومداره على عليّ بن يزيد وهو ضعيف .

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٣ . (٢) سورة الاسراء : آية ٥٥ .

(٣) فتح القدير : الشوكاني (٢٦٨/١). (٤) المصدر السابق (٢٣٥/٣).

(٥) سورة الشورى : آية ١٣ .

وقال تعالى: (( وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ))(١)

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ: (( ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل، لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة، ومن أولي العزم من الرسل، وتقديم ذكر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى ٠ ))(٢)

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو خاتمهم، وقد فضّله الله سبحانه وتعالى بأمور دون بقية الرسل والأنبياء، منها ما أخبرنا صلى الله عليه وسلم بأن الله خصّه دون غيره بستّ لم يعطها أحدا من الأنبياء قبله، قال: (( فُضِّلتُ على الأنبياء بستّ: أُعْطِيتُ جوامع الكلم(٣)، ونُصِرت بالرعب، وأُحلّت لي الغنائم، وجُعِلتْ لي الأرض طهورا ومسجدا، وأُرْسِلتُ إلى الخلق كافّة، وخُتم بي النبيّون٠ ))(٤)

وقد وردت أحاديث تنهى عن تفضيل بعض النبيين على بعض، فمن ذلك: ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( لا تخيّروا بين الأنبياء ))(٥)، وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: (( لا تفضّلوا بين أنبياء الله ))(٦)، وفي رواية أخرى: (( لا تخيّروني على موسى ))(٧) ٠

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧ ٠ (٢) فتح القدير: الشوكاني (٢٦٤/٤) ٠

(٣) وفي الرواية الأخرى: (بُعثت بجوامع الكلم) قال الهروي: يعني به القرآن، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة، وكلامه صلى الله عليه وسلم كان بالجوامع، قليل اللفظ كثير المعاني ٠ (شرح النووي لمسلم ٥/٥) ٠

(٤) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ٠ (٣٧١/١ برقم ٥٢٣) ٠

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص الخ (الفتح ٨٦/٥ برقم ٢٤١٢)، وفي كتاب الديات، باب إذا لطم المسلم يهوديّا عند الغضب (الفتح ٢٧٤/١٢ برقم ٦٩١٦)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم (١٨٤٥/٤ برقم ٢٣٧٤)

(٦) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإنّ يونس لمن المرسلين) الخ (الفتح ٥١٩/٦ برقم ٣٤١٤)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم (١٨٤٤/٤ برقم ٢٣٧٣) ٠

(٧) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد ٠ (الفتح ٥٠٨/٦ برقم ٣٤٠٨)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم ٠ (١٨٤٤/٤ برقم ٢٣٧٣ مكرر) ٠

وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين الآية المذكورة وبين هذا الحديث، فقال قوم: إنّ هذا القول منه صلى الله عليه وسلم كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وإنّ القرآن ناسخ للمنع من التفضيل، وقيل: إنّه قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل التواضع[1]، كما قال: (( لا يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متى ))[2] تواضعاً مع علمه أنّه أفضل الأنبياء، كما يدلّ عليه قوله: (( أنا سيّد ولد آدم ))[3]، وقيل: إنّما نهى عن ذلك قطعاً للجدال والخصام في الأنبياء، فيكون مخصوصاً بمثل ذلك، لا إذا كان صدور ذلك مأموناً[4]، وقيل: إنّ النهي إنّما هو من جهة النبوّة فقط، لأنّها خصلة واحدة لا تفاضل فيها، ولا نهي عن التفاضل بزيادة الخصوصيّات والكرامات[5]، وقيل: إنّ المراد النهي عن التفضيل لمجرّد الأهواء والعصبية.[6]

ويرى الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ أنّه لا تعارض بين الآية والحديث. قال بعد سرد هذه الأقوال:

(( وفي جميع هذه الأقوال ضعف، وعندي أنّه لا تعارض بين القرآن والسنة، فإنّ القرآن دلّ على أنّ الله فضّل بين أنبيائه على بعض، وذلك لا يستلزم أنّه يجوز لنا أن نفضّل بعضهم على بعض، فإنّ المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله لا تخفى عليه منها خافية، وليست بمعلومة عند البشر، فقد يجهل أتباع نبيّ من الأنبياء بعض مزاياه وخصوصيّاته فضلاً عن مزايا غيره، والتفضيل لا يجوز إلّا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلاً وهذا مفضولاً، لا قبل العلم ببعضها أو بأكثرها أو بأقلّها، فإنّ ذلك تفضيل بالجهل، وإقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له، وهو ممنوع منه، فلو فرضنا أنّه لم يرد إلّا القرآن في الإخبار لنا بأنّ الله فضّل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل

---

(١) هو قول ابن قتيبة في كتابه: تأويل مختلف الحديث (ص ٨٨) تحقيق: عبد القادر أحمد عطا.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإنّ يونس لمن المرسلين) (الفتح ٥١٩/٦ برقم ٣٤١٢، ٣٤١٣، ٣٤١٦) ولفظه كما في الموضع الأخير: "لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى". ومسلم في كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام (١٨٤٦/٤ برقم ٢٣٧٦، ٢٣٧٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق (١٧٨٢/٤ برقم ٢٢٧٨).

(٤) وهو قول شارح العقيدة الطحاوية (انظر ص ١٧٠).

(٥) هو ما رجّحه القرطبي في تفسيره (٢٦٢/٣، ٢٦٣).

(٦) ذكر الشوكاني هذه الأقوال في فتح القدير (٢٦٩/١)، وانظر تفسير القرطبي (٢٦٢/٣، ٢٦٣) وشرح النووي لمسلم (٣٨/١٥)، وتفسير ابن كثير (٣١١/١)، والفتح لابن حجر (٥١٤/٦).

على أنه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الأنبياء، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك، وإذا عرفت هذا علمت أنه لا تعارض بين القرآن والسنة بوجه من الوجوه، فالقرآن فيه الإخبار من الله بأنه فضل بعض أنبيائه على بعض، والسنة فيها النهي لعباده أن يفضلوا بين أنبيائه، فمن تعرض للجمع بينهما زاعماً أنهما متعارضان فقد غلط غلطاً بيّناً.))(١)

قلت: ما ذهب إليه الشوكاني - رحمه الله تعالى - قول صحيح، فإنّ مقام التفضيل ليس إلينا، وإنّما هو إلى الله عزّ وجلّ، وعلينا الانقياد والتسليم له والإيمان به، ولكن لا يخفى أنّ تفضيل الله بعضهم على بعض إنّما هو بما منح من الفضائل وأعطي من الوسائل، أمّا النبوّة في نفسها فلا تتفاضل، وقد أخبرنا الله سبحانه ببعض مزايا أنبيائه، فمنهم رسل، وأولو العزم، ومنهم من اتّخذ خليلاً، ومنهم من كلّم الله، ورفع بعضهم درجات، كما أخبرنا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ببعض فضائله.

وقد أشار ابن عباس رضي الله عنهما إلى هذا إذ قال: (( إنّ الله فضّل محمداً صلى الله عليه وسلم على الأنبياء وعلى أهل السماء. فقالوا: يا ابن عباس، بم فضّل على أهل السماء؟ قال: إنّ الله قال لأهل السماء: (( وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ))(٢)، وقال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم: (( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ))(٣). قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: قال الله عزّ وجلّ: (( وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ))(٤)، وقال الله عزّ وجلّ لمحمد صلى الله عليه وسلم: (( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ))(٥) فأرسله إلى الجنّ والإنس.))(٦)

وأرى أنّ أقوال العلماء في الجمع بين القرآن والسنة في هذه المسألة لها وجه

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢٦٦/١). (٢) سورة الأنبياء: آية ٢٩.
(٣) سورة الفتح: آية ١، ٢. (٤) سورة إبراهيم: آية ٤.
(٥) سورة سبأ: آية ٢٨.
(٦) أخرجه الدارمي في مسنده باب ما أعطي النبي صلى الله عليه وسلم من الفضل. (٣٨/٢ برقم ٤٦) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٤/٨، ٢٥٥): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، غير الحكم بن أبان وهو ثقة، ورواه أبو يعلى باختصار كثير.

من الصواب ، ولا مانع من القول بها حيث لا تتعارض ، فأقول : إنّ النهي عن التفضيل بين الأنبياء انّما يكون لمن يقوله برأيه لا من يقوله بدليل، أومن يقوله على وجه الفخر، أوعلى وجه الا نتقاص بالمفضول، أومن يقوله بحيث يؤدّي الى الخصومة والتنازع، أوما شابه ذلك ، كمجادلة أهل الكتاب، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة ، لأنّ المخايرة اذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما الى الازدراء بالآخر، فيفضي الى الكفر، فأمّا اذا كان التخيير مستندا الى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي[1]. والله أعلم .

المبحث الخامس: اتفاق الأنبياء والرسل على الغرض الواحد وتصديق بعضهم بعضا

إنّ المهمّة الكبرى التي بعث الله من أجلها الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي دعوة الخلق الى عبادته ، واقامة دينه ، وافراده بجميع أنواع العبادة ، والتحذير من الشرك، وكذلك تذكيرهم بالبعث والنشور، وعلى هذا اتّفق جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وصدّق بعضهم بعضا ، فما من نبي أرسله الله الا وكان أوّل ما يدعو قومه اليه هو عبادة الله وحده لا شريك له .

كما قال تعالى:(( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ))[2]

وقال تعالى:(( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ))[3]

وقال سبحانه :(( شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ))[4]

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير الآية ( شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا ): أي من التوحيد ،ودين الاسلام ،وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل، وتوافقت عليها الكتب .( والذى أوحينا اليك ) من القرآن،وشرائع الاسلام ،والبراءة من الشرك .( وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى ) مما تطابقت عليه الشرائع، ثم بيّن ما وصّى

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر هذه الأقوال في الفتح (٥١٤/٦) .
(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٥ .  (٣) سورة النحل : آية ٣٦ .
(٤) سورة الشورى : آية ١٣ .

به هؤلاء . فقال: (أن أقيموا الدين) أي توحيد الله والايمان به وطاعة رسله وقبول شرائعه .))(١)

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الأنبياء إخوة لِعَلّات، أمّهاتهم شتّى ودينهم واحد.))(٢)

وقد اهتمّ الشوكاني – رحمه الله تعالى – اهتماما بالغا ببيان هذه المسألة، حيث ألف رسالة مختصرة سمّاها: ارشاد الثقات الى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات . وأورد فيها النصوص من القرآن الكريم، ومن الكتب السابقة، كالتوراة، والزبور، والانجيل، مما يدلّ على اتفاق أنبياء الله وكتبه على اثبات كلّ مقصد من هذه المقاصد، أي التوحيد والمعاد والنبوات، وتصديق بعضهم بعضا .

قال – رحمه الله تعالى – في الفصل الأوّل في بيان اتفاق الشرائع على التوحيد:

((اعلم أنّه قد روى جماعة من أكابر علماء الاسلام أنّ الشرائع كلّها اتّفقت على اثبات التوحيد على كثرة عدد الرسل المرسلين، وكثرة كتب الله عزّ وجلّ المنزّلة على أنبيائه، فانّه أخرج ابن حبّان والبيهقي بسندين حسنين من حديث أبي ذرّ : (( إنّ الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، وانّ الكتب المنزّلة مائة وأربعة كتب ))(٣) فالتوحيد هو دين العالم أوّله وآخره وسابقه ولاحقه .))(٤)

وذكر ما في التوراة والزبور والانجيل من النصوص المصرّحة باثبات التوحيد، وقال:(٥)

(( وبالجملة فكتب الله عزّ وجلّ بأسرها ورسله جميعا متفقون على التوحيد والدعاء اليه ونفي الشرك بجميع أقسامه، وأمّا دعاء المتقدّمين على موسى الى التوحيد فقد تضمّنت التوراة حكاية ما كانوا عليه من التوحيد والدعاء اليه ونفي الشرك، فانّها قد حكت ما وقع منهم من عند أبينا آدم ومن بعده من الأنبياء، كنوح، وابراهيم، ولوط،

---

(١) فتح القدير : الشوكاني (٤/٥٣٠) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها) (الفتح ٦/٥٥١ برقم ٣٤٤٣) واللفظ له، ومسلم في كتاب الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام (٤/١٨٣٧ برقم ٢٣٦٥). قال العلماء: أولاد العلات: هم الاخوة لأب من أمّهات شتى، وأما الاخوة من الأبوين فيقال لهم: أولاد الأعيان. قال الجمهور العلماء: معنى الحديث: أصل ايمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فانّهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف . (شرح النووي لمسلم ١٥/١١٩، ١٢٠) .

(٣) لم أقف على الحديث بهذا اللفظ والذي أقف عليه هو ما تقدّم تخريجه في صفحة (٤٩٢) .

(٤) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٥) . (٥) انظر المصدر السابق (من ص ٥ – ٨) .

واسحق، واسماعيل، ويعقوب، ويوسف، الى قيام موسى سلام الله عليهم أجمعين .))[1]

قلت : وقد تضمّن القرآن الكريم في آيات متعدّدة حكاية ما كانوا عليه من دعوة التوحيد[2]، كما أشار اليه سبحانه وتعالى في قوله :(( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ))[3]

فالأنبياء يتفقون فيما جاءوا به من الدعوة الى التوحيد، ويصدّق بعضهم بعضا، وهذا دليل على صدق كلّ منهم على حدة منفردا عن الآخرين، لأنّه اذا كانت دعوتهم واحدة ولا تعارض فيما بينهما، ثم أخبر السابق عن اللاحق، وآمن اللاحق بالسابق، كان هذا دليل صدقهم مع عدم رؤية بعضهم بعضا ، ولا ينافي ذلك ما اختلفوا فيه في الفروع دون الأصول، فانّ شرائع الأنبياء مختلفة لاختلاف الأزمان والأقوام والأماكن التي أرسل فيها الرسل. قال تعالى:(( لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ))[4] .

وقد بيّن ذلك الشوكاني - رحمه الله تعالى - في الفصل الثالث في اثبات النبوات. قال:(( اعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام على كثرة عددهم ،واختلاف أعصارهم ،وتباين أنسابهم ،وتباعد مساكنهم ،قد اتّفقوا جميعا على الدعاء الى الله عزّوجلّ، وصار الآخر منهم يقرّ بنبوّة من تقدّمه وبصحّة ما جاء به ، واذا خالفه في تحليل بعض ما حرّمه الله على لسان الأوّل، أو تحريم ما أحلّه الله له ولأمّته ،فهو مقرّ بأنّ الحكم الأوّل تحليلا أو تحريما هو حقّ، وهو حكم الله عزّوجلّ، وأنّه الذي تعبّد الله به أهل تلك الملّة السابقة ، واختاره لهم كما اختار للملّة اللاحقة ما يخالفه ، والكلّ من عند الله عزّوجلّ، وذلك جائز عقلا وشرعا في ملّة واحدة فضلا عن الملل المختلفة .

وبالجملة فلا شكّ ولا ريب أنّ الأنبياء متفقون على تصديق بعضهم بعضا ، وانّ ما جاء به كلّ واحد منهم هو من عند الله عزّوجلّ, وقد عرفناك فيما سبق أنّ عددهم بلغ الى مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا . ولا خلاف بين أهل النظر أنّ اتفاق مثل هذا العدد

---

(١) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٨،٩) .

(٢) انظر مثلا: ما قاله نوح عليه السلام لقومه في آية (٥٩) من سورة الأعراف،وهود عليه السلام في آية (٦٥) من سورة الأعراف،وما لح عليه السلام في آية (٧٣) من سورة الأعراف،وابراهيم عليه السلام في آية (١٦) من سورة العنكبوت،والأسباط ( وهم أولاد يعقوب) في آية (١٣٣) من سورة البقرة ، ويوسف عليه السلام في آية (٣٨ - ٤٠) من سورة يوسف .

(٣) سورة الأنبياء : آية ٢٥ .

(٤) سورة المائدة : آية ٤٨ .

يفيد العلم الضروري بصدق ما اتّفقوا عليه ، بل اتفاق عُشر هذا العدد ، بل اتفاق عُشر عُشره يفيد ذلك .))[١]

وأورد الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ ما في التوراة والانجيل[٢] من هذا الاتفاق والتصديق فيما بينهم ، قال :

(( فانّ التوراة قد اشتملت على حكاية حال الأنبياء من لدن آدم الى بعثة موسى ، وفيها التصريح بتصديق بعضهم بعضا ، ولم يقع من أحد منهم الانكار لنبوّة أحد ممن تقدّمه ، ثم جاء من بعد موسى وهارون أنبياء بني اسرائيل ، وكلّ واحد منهم يقرّ بمن تقدّمه ، وثبتت نبوّته ، كما اشتمل على ذلك كتب نبوّاتهم ، وكثير منهم كان يجاهد من يعبد الأصنام من بني اسرائيل وغيرهم ، وقد وقعت لهم قصص وحروب مع من كان يعبد الصنم المعروف ( ببعل ) الذي ذكره الله سبحانه في القرآن[٣] ، وكذلك كان لهم قصص وحروب مع من كان يعبد غيره من الأصنام ، وهكذا داود وسليمان وهما من أنبياء بني اسرائيل ، وممن يدين بالتوراة ، ما زالا في حرب مع عبّاد الأصنام ، كما يحكي ذلك الزبور وكتاب داود ، وكما تحكيه وصايا سليمان وهي كتاب مستقلّ .

وهكذا الانجيل ، فانّ المسيح عليه السلام كان يحتجّ على المخالفين له من اليهود بنصّ التوراة في غالب فصوله المشتملة على حكاية المسائل التي أنكرها عليه اليهود . ومع هذا فلم يقع اختلاف بينهم قط في الدعاء الى توحيد الله واثبات المعاد وصحّة نبوّة كلّ واحد منهم ، وصدقه فيما جاء به من الشرع ، وفيما حكاه عن الله سبحانه ... وكثيرا ما كان يقع التبشير من السابق منهم باللاحق كما هو مصرّح به في التوراة من تبشير موسى بيوشع بن نون ، وكما هو مصرّح به في الزبور من تبشير داود بعيسى ، وهو الرابع عشر

---

(١) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٢٥،٢٦) .

(٢) ومما يجدر بنا ذكره هنا أنّ التوراة والانجيل الموجودتين الآن غير التوراة والانجيل اللتين أُنزلهما الله على موسى وعيسى عليهما السلام هدى للناس، فالتوراة التي بين أيدي اليهود اليوم محرّفة مغيّرة، وكذلك الانجيل عند النصارى، بل فقد الانجيل الذي أتى به عيسى عليه السلام والذي فيه هدى ونور على مرّ الزمان ولم يعد له وجود، وانّما يوجد الآن قصص ألّفها التلاميذ وغير التلاميذ لم تسلم من المسخ والتحريف بالزيادة والحذف كما هو واضح لدى مقارنتها ببعضها، ويطلق اسم الانجيل عرفا الآن على هذه القصص التي كتبت بعد زمان المسيح عليه السلام ونسبت الى كاتبيها، وهي كثيرة، ولكن التي تعترف بها الفرق النصرانية وتأخذ بها أربعة وهي: انجيل متى، وانجيل مرقس، وانجيل لوقا، وانجيل يوحنا . ( انظر: الجواب الصحيح لشيخ الاسلام ابن تيمية ١/٢٨٠،٢٨١، وهداية الحيارى لابن القيم ١٠٦ـ١٠٩ ط الجامعة الاسلامية، واظهار الحق لرحمت الله الهندي ٨٣ـ١٧٦، ٢٠٥ـ٢٤٩)

(٣) وذلك في قوله تعالى: ((أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)) (الصافات: آية ١٢٥).

من أولاده ، فانّ بين داود والمسيح أربعة عشر أبا ، وقيل أكثر من ذلك حسبما يحكيه ما وقع في بعض نسخ الانجيل، وكما وقع من يحيى بن زكريا المسمّى عندهم يوحنّا ، فانّه بشّر بالمسيح مع اتصال عصره بعصره ، فانّ يحيى بن زكريا انّما قتل بعد أن بعث الله المسيح كما يحكي ذلك الانجيل .))[1]

هذا خلاصة ما في التوراة والانجيل كما أورده الشوكاني مما يدلّ على اتفاق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة الى عقيدة التوحيد وتصديق بعضهم بعضا .

## المبحث السادس: من صفات الأنبياء والرسل ووظائفهم

### ١ ـ من صفات الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام)

اقتضت حكمة الله تعالى العلية أن لا يصطفي لابلاغ دينه وتحمّل رسالته الا صفوة الخلق وأفضلهم ، اذ أنّ اختصاصهم بالكمال والفضل يوجب على الأمم تصديقهم والسير على نهجهم في جميع شئون الحياة .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم هؤلاء الصفوة المختارة بالثناء العاطر، ووصفهم بأسمى الصفات العالية ، فيصفهم تارة بالطاعة والانابة ، وأخرى بالتضحية والايثار ، وبالصدق والنزاهة ، كلّ ذلك ليدلّ على أنّهم الصفوة المختارة من خلق الله والمثل العليا الكاملة للبشرية .

قال تعالى: (( وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ))[2] وقال سبحانه في النبي صلى الله عليه وسلم: (( وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ))[3] .

وصفات الأنبياء الكرام كثيرة وردت في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكنّي أقتصر هنا في هذا المبحث على بعض الصفات التي بيّنها الشوكاني ـ رحمه الله ـ وتكلّم عليها في كتبه .

فمن تلك الصفات :

---

(١) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٢٦) .
(٢) سورة الأنبياء : آية ٧٣ .
(٣) سورة القلم : آية ٤ .

أ ـ البشريّة

أي كون الرسول من جنس البشر. والدليل على هذا قوله تعالى حكاية عن الرسل: (( قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ))(١)

قال الشوكاني في معنى الآية: (( أي ما نحن في الصورة والهيئة إلا بشر مثلكم، ولكنّ الله يتفضّل على من يشاء منهم بالنبوّة. ))(٢)، وقوله تعالى: (( قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ))(٣) أي إنّ حالي مقصور على البشرية، لا يتخطّاها إلى الملكية، ومن كان هكذا فهو لا يدّعي الإحاطة بكلمات الله، إلا أنّه امتاز عنهم بالوحي إليه من الله سبحانه، وكفى بهذا الوحي فارقاً بينه وبين سائر أنواع البشر.(٤)

وفي الحديث عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( إنّما أنا بشر، وإنّكم تختصمون إليّ ... الحديث ))(٥)

قال الشوكاني في معنى الحديث: (( البشر يطلق على الجماعة والواحد بمعنى أنّه منهم، والمراد أنّه مشارك للبشر في أصل الخلقة، ولو زاد عليهم بالمزايا التي اختصّ بها في ذاته وصفاته.(٦) وهذا حصر له في البشرية باعتبار من أنكر ثبوت ذلك ونازع فيه عناداً وجحوداً، وأما باعتبار غير ذلك مما هو فيه فلا ينحصر في وصف البشرية، إذ له صفات أخر، ككونه جسماً، حيّاً، متحرّكاً، نبيّاً، رسولاً، بشيراً، نذيراً، سراجاً منيراً، وغير ذلك.(٧)

ومن الحكمة في كون الرسل من جنس البشر:

١) أنّهم أقدر على القيادة والتوجيه، لأنّهم من جنس قومهم، يحسّون بإحساسهم ويعرفون نوازعهم وطبائعهم، فيعيشون فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي فرضها الله عليهم، وهم بهذا يصلحون قدوة وأسوة لهم، بخلاف لو أنّهم من جنس الملائكة.

٢) أنّه أعظم في الابتلاء والاختبار. ففي الحديث القدسي فيما روى صلى الله عليه

---

(١) سورة ابراهيم: آية ١١ . (٢) فتح القدير: الشوكاني (٩٨/٣) .
(٣) سورة الكهف: آية ١١٠، وسورة فصّلت: آية ٦ .
(٤) انظر فتح القدير: الشوكاني (٣١٨/٣) .
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الحيل، باب (١٠) ( الفتح ٣٥٥/١٢ برقم ٦٩٦٧)، ومسلم في كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٣٣٧/٣ برقم ١٧١٣) .
(٦) نيل الأوطار: الشوكاني (٢١٢/١٠).
(٧) المصدر السابق (٢٧٣/٣) .

وسلم عن ربّه :(( إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ))[1] ومعنى الحديث كما قال النووي – رحمه الله – :(( أي لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة ، وغير ذلك من الجهاد في الله حقّ جهاده ، والصبر في الله تعالى، وغير ذلك، وأبتلي بك من أرسلتك اليهم ، فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعته ، ومن يتخلّف وينابذ بالعداوة والكفر ،ومن ينافق .))[2]

٣) إنّ في هذا إكراما لمن سبقت لهم منه الحسنى، فانّ اختيار الله لبعض عباده ليكونوا رسلا تكريم وتفضيل. قال تعالى:(( أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ))[3].

فكان ارسال الرسل من البشر ضروريّا لكي يتمكّنوا من مخاطبتهم والفهم منهم ، ولو بعث الله رسله الى الناس من الملائكة لما أمكنهم ذلك، قال تعالى:(( وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا، قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ))[4]

بيّن الشوكاني – رحمه الله تعالى – في تفسيره لآية أنّ هذا الاعتقاد الشامل لهم ، وهو انكار أن يكون الرسول من جنس البشر هو الذي منعهم عن الايمان بالكتاب وبالرسول، فأمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن شبهتهم هذه فقال:( قل لو كان ..... الآية ) أي لو وجد وثبت أنّ في الأرض بدل من فيها من البشر ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشي الانس مطمئنّين مستقرّين فيها ساكنين بها لنزّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا حتى يكون من جنسهم . قال : وفيه اعلام من الله سبحانه بأنّ الرسل ينبغي أن تكون من جنس المرسل اليهم ، فكأنّه سبحانه اعتبر في تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين : الأوّل : كون سكّان الأرض ملائكة ، والثاني : كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم الى السماء، اذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا اليها،وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه ، فلا يكون في بعثة الملائكة اليهم فائدة .))[5]

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها،باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار . (٢١٩٧/٤ برقم ٢٨٦٥ ) .

(٢) شرح النووي لمسلم (١٩٨/١٧).

(٣) سورة مريم : آية ٥٨ .

(٤) سورة الاسراء : آية ٩٤،٩٥ .

(٥) فتح القدير : الشوكاني (٢٦٠/٣) .

ومقتضى بشريّة الأنبياء والرسل أنّهم يتصفون بالصفات التي لا ينفكّ عنها البشرية، فيأكلون ويشربون، ويصحّون ويمرضون، وينكحون النساء، ويمشون في الأسواق، وتعتريهم العوارض التي تمرّ على البشر، من ضعف، وشيخوخة، وموت . قال تعالى: (( وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ))[1] أي ان الرسل أسوة لسائر أفراد بني آدم في حكم الطبيعة، يأكلون كما يأكلون، ويشربون كما يشربون، والجسد جسم الانسان، ( وما كانوا خالدين ) بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر.[2] وقال سبحانه: (( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ))[3] .

ومقتضى كونهم بشرا أنّهم ليسوا بآلهة، وليس فيهم من خصائص الألوهية شيء. ولذلك فقد ردّ الله سبحانه وتعالى على النصارى الذين غلوا في عيسى عليه السلام واتخذوه الها في عدة آيات في كتابه، كقوله تعالى: (( لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ))[4] أي لا أحد يقدر أن يمنع ذلك، واذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك فلا اله الا الله، ولا ربّ غيره، ولا معبود بحقّ سواه، ولو كان المسيح الها كما تزعم النصارى لكان له من الأمر شيء، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أقلّ حال، ولم يقدر على أن يدفع عن أمّه الموت عند نزوله بها .[5] وكقوله تعالى: (( لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ))[6] (( مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ))[7]

بيّن الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير هذه الآية أنّ المسيح ابن مريم ليس هو الا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، وما وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه الها، فقد كان لمن قبله من الرسل مثلها، ومن كان يأكل الطعام كسائر المخلوقين فليس بربّ، بل هو عبد مربوب ولدته النساء، فمتى يصلح لأن يكون ربّا ؟ وأما قولهم :

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٨ .　(٢) فتح القدير : الشوكاني (٣٩٩/٣) .
(٣) سورة الرعد : آية ٣٨ .　(٤) سورة المائدة : آية ١٧ .
(٥) انظر فتح القدير : الشوكاني (٢٤/٢) .
(٦) سورة المائدة : آية ٧٣ .　(٧) سورة المائدة : آية ٧٥ .

انّه كان يأكل الطعام بناسوته لا بلاهوته فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الاله بغير الاله ، واجتماع الناسوت باللاهوت ، ولو جاز باختلاط القديم [1] بالحادث لجاز أن يكون القديم حادثا ، ولو صحّ هذا في حقّ عيسى لصحّ في حقّ غيره من العباد .[2]

ب ـ الذكورة

أي كون الرسل من الرجال دون النساء ، ويدلّ على هذا صيغة الحصر التي وردت في قوله تعالى :(( وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ))[3]

قال الشوكاني :(( وتدلّ الآية على أنّ الله سبحانه لم يبعث نبيّا من النساء ولا من الجنّ ، وهذا يردّ على من قال : إنّ في النساء أربع نبيّات : حواء ، وآسية ، وأمّ موسى ، ومريم ، وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمرا معروفا عند العرب ، حتى قال قيس بن عاصم [4] في سجاح المتنبّئة [5] :

أضحت نبيّتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والأقوام كلّهم ... على سجاح ومن باللوم أغرانا .))[6]

وقوله تعالى في موضع آخر :(( وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ))[7] أي لم نرسل قبلك الى الأمم السابقة الا رجالا من البشر ، ولم نرسل اليهم ملائكة .[8]

هذا وقد ذهب بعض العلماء الى أنّ الله أنعم على بعض النساء بالنبوّة ،كما نقل

---

(١) تقدّم التعليق على تسمية الله تعالى باسم : القديم . انظر صفحة (٢٥٩ هامش رقم ١) .

(٢) انظر فتح القدير : الشوكاني (٢/٦٤) .  (٣) سورة يوسف : آية ١٠٩ .

(٤) قيس بن عاصم بن سنان المنقري السعدي التميمي ،أبو علي ،أحد أمراء العرب وعقلائهم ، والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم ،كان شاعرا اشتهر وساد في الجاهلية ،وهو ممن حرّم على نفسه الخمر فيها ،ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد تميم عام (٩ هـ) فأسلم ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمّا رآه : هذا سيّد أهل الوبر . واستعمله على صدقات قومه ،توفّي نحو (٢٠ هـ) ( انظر البداية والنهاية لابن كثير ٥/٤٥ والتقريب لابن حجر ٤٥٧ برقم ٥٥٨١ ،والأعلام للزركلي ٥/٢٠٦) .

(٥) سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية من بني يربوع ،أمّ صادر ،متنبّئة مشهورة ، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار ،رفيعة الشأن في قومها ،ادّعت النبوّة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ،وكانت في بني تغلب بالجزيرة ،وتزوّجها مسيلمة الكذّاب ،وبعد مقتله أسلمت وهاجرت الى البصرة ،وتوفّيت بها نحو (٥٥ هـ) ( انظر البداية والنهاية لابن كثير ٦/٣٤ ،والأعلام للزركلي ٣/٧٨) .

(٦) فتح القدير : الشوكاني (٣/٦٠) .  (٧) سورة الأنبياء : آية ٧ .

(٨) فتح القدير : الشوكاني (٣/٣٩٩) .

من الأشعري، والقرطبي، وابن حزم[1]. وهو رأي مرجوح، والصحيح ما قاله الشوكاني والجمهور[2]، لصريح ما دلت عليه الآيتان المذكورتان، ولأن الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة، والأنوثة تقتضي التستر، وتنافي الاشتهار، لما بين الاشتهار والاستتار من التمانع.[3] ولا يخفى أن الذكورة أكمل من الأنوثة، ولذلك جعل الله القوامة للرجال على النساء في قوله تعالى: (( اَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ))[4]، وأخبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن النساء ناقصات عقل ودين.[5]

## ج ـ العصمة

أي يكون الرسل والأنبياء معصومين في تحمّل الرسالة والتبليغ عن الله، فلا ينسون شيئا مما أوحاه الله إليهم، ولا يكتمون شيئا منه. قال تعالى: (( يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ))[6]، وقال سبحانه: (( وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ))[7] ومعصومين أيضا عن ارتكاب الذنوب والمعاصي مما يزري بمناصبهم.

والعصمة ثابتة للأنبياء والرسل دون غيرهم، وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله بها، وميّزهم على سائر البشر.

وقد اتّفقت الأمّة على عصمتهم في التبليغ عن الله، فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين[8]. أما عصمتهم في غير ما يتعلّق بالتبليغ عن الله، فاختلف الناس فيه اختلافا واسعا، وقد أورد الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ أقوالهم قال:

(( ذهب الأكثر من أهل العلم إلى عصمة الأنبياء بعد النبوّة من الكبائر، وقد حكى

---

(١) انظر الفتح لابن حجر (٥٤٢/٦). (٢) انظر المصدر السابق (٥٤٢/٦، ٥٤٣).

(٣) انظر لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢٦٦/٢).

(٤) سورة النساء: آية ٣٤.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (الفتح ٤٨٣/١ برقم ٣٠٤) وأخرجه أيضا في (١٤٦٢، ١٩٥١، ٢٦٥٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (٨٧/١ برقم ٧٩).

(٦) سورة المائدة: آية ٦٧. (٧) سورة النجم: آية ٣، ٤.

(٨) انظر: مجموع فتاوى لابن تيمية (٢٨٩/١٠، ٢٩٠)، وانظر: الشفا للقاضي عياض (٧٨٥/٢) تحقيق: علي محمد البجاوي.

القاضي أبو بكر[١] اجماع المسلمين على ذلك، وكذا حكاه ابن الحاجب[٢] وغيره من متأخري الأصوليين، وكذا حكوا الاجماع على عصمتهم بعد النبوّة مما يزري بمناصبهم كرذائل الأخلاق، والدناآت، وسائر ما ينفر عنهم، وهي التي يقال لها صغائر الخسة، كسرقة لقمة، والتطفيف بحبّة ..... وأما الصغائر التي لا تزري بالمنصب ولا كانت من الدناآت، فاختلفوا هل تجوز عليهم؟ واذا جازت هل وقعت منهم أم لا؟ فنقل امام الحرمين[٣] عن الأكثرين الجواز عقلا، وكذا نقل ذلك عن الأكثرين ابن الحاجب، ونقل امام الحرمين، وابن القشيري[٤] عن الأكثرين أيضا عدم الوقوع. قال امام الحرمين: الذي ذهب اليه المحصلون أنه ليس في الشرع قاطع في ذلك نفيا أو اثباتا، والظواهر مشعرة بالوقوع، ونقل القاضي عياض[٥] تجويز الصغائر ووقوعها عن جماعة من السلف منهم أبو جعفر الطبري[٦] وجماعة من الفقهاء والمحدّثين، قالوا ولا بدّ من تنبيههم عليه.))[٧]

قلت: ولعل هذا هو القول الراجح في المسألة.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – :(( القول بأنّ الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الاسلام وجميع الطوائف، حتى انه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي[٨] أنّ هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم الا ما يوافق هذا القول.))[٩]

---

(١) المعروف بالباقلاني، وقد تقدمت ترجمته في صفحة (٢٩٧).

(٢) عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب، النحوي، المالكي، الأصولي، الفقيه، من تصانيفه: الكافية في النحو، والشافية في الصرف، ومنتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل في أصول الفقه، توفي (٦٤٦ هـ) (انظر: وفيات الأعيان: ابن خلكان ٣١٤/١، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١٣٣/١).

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٦).

(٤) هبة الرحمن بن عبد الواحد بن أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن، أبو الأسعد القشيري النيسابوري، خطيب نيسابور، وكبير القشيرية في وقته، روى عنه ابن عساكر وابن السمعاني وآخرون، توفي (٥٤٦ هـ) (انظر: لسان الميزان: ابن حجر ١٨٧/٦، وطبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٣٢٢/٤).

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (١٦٨). (٦) تقدمت ترجمته في صفحة (١٨١).

(٧) ارشاد الفحول الى تحقيق الحقّ من علم الأصول: الشوكاني (ص ٣٣، ٣٤) وقارن الشفا للقاضي عياض (٧٨٦/٢) تحقيق: علي محمد البجاوي.

(٨) علي بن محمد بن سالم الثعلبي، أبو الحسن، سيف الدين الآمدي، متكلّم أصولي، له نحو عشرين مصنّفا منها: الاحكام في أصول الأحكام، وغاية المرام في علم الكلام، توفي (٦٣١هـ) (انظر: لسان الميزان: ابن حجر ١٣٤/٣، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١٦٠/٢)

(٩) مجموع فتاوى لابن تيمية (٣١٩/٤).

ودليلهم على ذلك ما ورد في القرآن الكريم منسوباً إلى جماعة من الأنبياء من ارتكابهم بعض المخالفات التي لا يقبل التأويل في جملتها وإن قبل ذلك في آحادها، كما وقع لآدم عليه السلام من أكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الأكل منها، وقال في حقه: (( وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ))[1]، ونوح عليه السلام حين دعا ربه في ابنه الكافر. وقال تعالى في حقه: (( قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ))[2]، وموسى عليه السلام حين أراد نصرة الذي من شيعته، فوكز خصمه القبطي فقضى عليه: (( قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ))[3] وداود عليه السلام حين تسرّع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني. قال تعالى عنه: (( فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ))[4] وما ورد عن نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم في مواقف متعدّدة لا مجال هنا لبسطها[5]، وقال تعالى له: (( لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ))[6]، وغير هؤلاء ممن ورد في القرآن الكريم ارتكابه بعض المخالفات وعاتبه ربّه سبحانه.[7]

وقد ذهب الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: إرشاد الفحول. إلى وجوب تأويل هذه النصوص بما يخرجها عن ظاهرها بوجه من الوجوه، لامتناع وقوع مثل هذه الذنوب منهم بعد النبوّة.[8] وقد اختلفت هذه التأويلات اختلافاً واسعاً وانتشرت عند الكتّاب والباحثين، وهي تأويلات من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية.[9]

والذي أراه راجحاً في هذه المسألة أنّه لا يمتنع وقوع هذه الصغائر من الأنبياء

---

(١) سورة طه : آية ١٢١ ،وانظر القصّة من آية ١١٦ من نفس السورة .
(٢) سورة هود : آية ٤٦ ،وانظر آية ٤٥،٤٧ من نفس السورة .
(٣) سورة القصص : آية ١٥،١٦ .
(٤) سورة ص : آية ٢٤،٢٥ ،وانظر القصّة من آية ٢١ من نفس السورة .
(٥) انظر تفصيلها في الشفا للقاضي عياض (٨١٥/٢ ـ ٨٢٢) .
(٦) سورة الفتح : آية ٢ .
(٧) انظر تفصيل الموضوع في الشفا للقاضي عياض(٨١٠/٢ ـ ٨١٢)وأيضاً إرشاد الفحول للشوكاني (ص ٣٤،٣٥) .
(٨) انظر إرشاد الفحول للشوكاني(٣٤،٣٥) (٩) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٣١٣/١٠).

بعد النبوّة، لأنّها لا تزري بمنصبهم، ولا كانت من الدناآت، فهم بشر من البشر، عصمهم الله في تحمّل الرسالة وتبليغها، وهذه العصمة لا تلازمهم في كلّ أمورهم، فقد تقع منهم بعض المخالفات الصغيرة بحكم كونهم بشرا، ولكنّ الله ينبّههم اليها، ويوفّقهم للتوبة منها من غير تأخير.

ومعلوم أنّه لم يقع ذنب من نبي الا وقد سارع الى التوبة والاستغفار، والله سبحانه وتعالى لم يذكر في القرآن شيئا من ذلك عن نبي من الأنبياء الا مقرونا بالتوبة والاستغفار، كقول آدم وزوجته عليهما السلام: (( رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ))[1]، وقول نوح عليه السلام: (( رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ))[2]، وقول ابراهيم الخليل عليه السلام: (( وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ))[3]، وغير ذلك.

فالأنبياء لا يقرّون على الذنوب مطلقا، لأنّ الله عصمهم من ذلك، وهذا ما اتفق عليه جمهور الناس الموافق للآثار المنقولة من السلف.[4]

وقد ذهب الشوكاني – رحمه الله تعالى – في تفسيره الى مثل ما قلنا، ففي قوله تعالى عن آدم عليه السلام: (( وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ))[5] قال:

" أي عصاه بالأكل من الشجرة، فغوى فضلّ عن الصواب، أو عن مطلوبه، وهو الخلود بأكل تلك الشجرة ". وأورد أقوال بعض المفسّرين في معنى الآية منها ما قاله القاضي ابن العربي: لايجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم . قال الشوكاني: قلت: لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله في كتابه بأنّه عصاه، وكما يقال: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين ".[6]

ويرى بعض العلماء أنّ عصيان آدم كان قبل النبوّة بدليل ما في هذه الآية، فانّه ذكر الاجتباء والهداية بعد ذكر المعصية، واذا كانت المعصية قبل النبوّة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا، لأنّ قبل النبوّة لا شرع علينا في تصديقهم.[7]

---

(١) سورة الأعراف: آية ٢٣ . (٢) سورة هود: آية ٤٧ .
(٣) سورة الشعراء: آية ٨٢ .
(٤) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٢٩٣/١٠)، وانظر أيضا الشفا للقاضي عياض (٧٨٩/٢) .
(٥) سورة طه: آية ١٢١، ١٢٢ . (٦) فتح القدير: الشوكاني (٣٩٠/٣) .
(٧) انظر تفسير القرطبي (٢٥٧/١١) وقد نسب هذا القول الى ابن فورك، وانظر أيضا فتح القدير للشوكاني (٣٩٠/٣) .

قلت : تأويل عصيان آدم عليه السلام قبل النبوّة حسن لولا أنّه وقع بعد صدور الأمر والنهي اليه بلا واسطة ، وهو قوله تعالى : (( وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ))(١) وهو ما جعلناه من أمارات نبوّته .

أمّا عصمة الأنبياء والرسل عن السهو والنسيان فلم تثبت عند جمهور أهل السنة ، خلافا للرافضة ، فانّهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل ، وينقلون ذلك الى من يعتقدون امامته .(٢)

وقد ذهب الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ مذهب جمهور أهل السنة في جواز النسيان عليه صلى الله عليه وسلم فيما ليس طريقه البلاغ ، ولا يقرّ عليه ، بل لا بدّ أن يتذكّره .(٣) واستدلّ بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث منها :-

حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (( ... انّما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فاذا نسيت فذكّروني ))(٤) ، وحديث ذي اليدين(٥) الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا صلّى بهم احدى صلاتي العَشِي(٦) ركعتين : أَقَصُرَتِ الصلاة أم نَسِيتَ يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أَنْسَ ولم تُقْصَر . فقال : أكما يقول ذو اليدين ؟ فقال الناس : نعم . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى اثنتين أخريين ، ثمّ سلّم ، ثمّ كبّر ، فسجد مثل سجوده أو أطول .. الحديث . وفي رواية متّفق عليها : لما قال : لم أنس ولم تقصر . قال : بلى قد نَسِيتَ .(٧)

---

(١) سورة البقرة : آية ٣٥ .
(٢) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٣٢٠/٤) .
(٣) انظر : نيل الأوطار للشوكاني (٦٩/٣) ، وانظر أيضا : ارشاد الفحول له (ص ٣٥) ، وتحفة الذاكرين له (ص ٣٢٥) .
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة ، باب التوجّه نحو القبلة حيث كان ( الفتح ٦٠٠/١ برقم ٤٠١ ) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب السهو في الصلاة والسجود له ( ٤٠٠/١ برقم ٥٧٢ ) .
(٥) اسمه الخِرْبَاق بن عمرو ، ولقبه ذو اليدين لطول كان في يديه ، وهو معنى قوله : بسيط اليدين . ( شرح النووي لمسلم ٦٨/٥ ، ٦٩ ، وانظر أيضا الفتح لابن حجر ١٢١/٣ ) .
(٦) يريد صلاة الظهر والعصر ، لأنّ ما بعد الزوال الى المغرب عشي ( النهاية لابن الأثير ٢٤٢/٣ مادة : عشا ) .
(٧) أخرجه البخاري في كتاب الأذان ، باب هل يأخذ الامام اذا شك بقول الناس ( الفتح ٢/ ٢٤٠ برقم ٧١٤ ) وفي كتاب السهو ، باب من لم يتشهد في سجدتي السهو ( الفتح ١١٨/٣ برقم ١٢٢٨ ) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب السهو في الصلاة والسجود له . ( ٤٠٣/١ ـ ٤٠٥ برقم ٥٧٣ ، ٥٧٤ ) .

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ :(( فيه ( أي هذا الحديث )دليل على جواز دخول السهو عليه صلى الله عليه وآله وسلم في الأحكام الشرعية ، وقد نقل القاضي عياض والنووي الاجماع على عدم جواز دخول السهو في الأقوال التبليغية ، وخصا الخلاف بالأفعال، وقد تعقبا .[1] قال الحافظ : نعم اتفق من جوز ذلك على أنه لا يقر عليه ، بل يقع له بيان ذلك، إما متصلا بالفعل أو بعده ، كما وقع في هذا الحديث .[2] وفائدة جواز السهو في مثل ذلك بيان الحكم الشرعي اذا وقع مثله لغيره ، وأما من منع السهو مطلقا منه صلى الله عليه وآله وسلم[3] فأجابوا عن هذا الحديث بأجوبة منها : أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم :( لم أنس ) على ظاهره وحقيقته ، وأنه كان متعمدا لذلك ليقع منه التشريع بالفعل، لكونه أبلغ من القول . ويكفي في رد هذا تقريره صلى الله عليه وآله وسلم لذي اليدين على قوله :( بلى قد نسيتَ )، وأصرح من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ( انما أنا بشر، أنسى كما تنسون ) وهو متفق عليه من حديث ابن مسعود .))[4]

٢ ـ من وظائف الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام )

ولهؤلاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وظائف جليلة ومهمات جسيمة بيّنها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم . وأذكر منها ـ كما تكلم عليها الشوكاني رحمه الله في مؤلفاته ـ :

أ ـ دعوة الخلق الى عبادة الله وحده ، وهذه ـ في الحقيقة ـ هي الوظيفة الأساسية التي بعثت من أجلها الرسل الكرام ، وأنزلت من أجلها الكتب السماوية .[5] قال تعالى :(( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ))[6]،وقال مخاطبا لسيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم :(( وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ))[7] ، أي ادع الناس الى الله والى توحيده ، والعمل بفرائضه ، واجتناب معاصيه ،(ولاتكونن من المشركين) فيه تعريض لغيره ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يكون من المشركين بحال من الأحوال .[8]

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض (٧٦٨/٢)،وشرح النووي لمسلم (٦١/٥) .
(٢) انظر هذا الكلام المنقول في الفتح (١٢١/١) . (٣) وهم الرافضة وأتباعهم .
(٤) نيل الأوطار : الشوكاني (٣٦٢/٣،٣٦٣) . (٥) انظر الدر النضيد : الشوكاني (ص ٣١) .
(٦) سورة النحل : آية ٣٦ . (٧) سورة القصص : آية ٨٧ .
(٨) فتح القدير : الشوكاني (١٨٩/٤) .

وقد بذل الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام جهودا عظيمة في سبيل دعوة الناس إلى الله، واستعملوا فيه أساليب مختلفة، من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وغير ذلك. كما قصّه الله تعالى علينا في كتابه العزيز، ولا يتسع المقام هنا لبسطه.

ب - تبليغ شريعة الله إلى البشر. وقد أدّى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هذه الوظيفة على أكمل الوجوه. قال تعالى - وهو يثني عليهم -: (( الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ))(١)

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تبيّن هذه الوظيفة العظيمة للرسل، كقوله تعالى: (( مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ))(٢)، وقوله سبحانه مخاطبا لسيّد المرسلين صلى الله عليه وسلم: (( فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ))(٣) قال الشوكاني في تفسير الآية: (( أي فليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة، ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم ( وعلينا الحساب ) أي محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها وليس عليك. ))(٤) فعلى الرسول التبليغ أمّا التوفيق في الإجابة فهو من الله وحده، يعطيه لمن يشاء، ولهذا قال: (( لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ))(٥) (( أي ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهديّين قابلين لما أمروا به ونهوا عنه ( ولكنّ الله يهدي من يشاء ) هداية توصله إلى المطلوب ))(٦)

وكقوله مخاطبا للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: (( يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ))(٧) قال الشوكاني في تفسير الآية: (( العموم الكائن في ( ما أنزل ) يفيد أنّه يجب عليه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلّغ جميع ما أنزل الله إليه لا يكتم منه شيئا، وفيه دليل على أنّه لم يسرّ إلى أحد مما يتعلّق بما أنزله الله إليه شيئا، ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: من زعم أنّ محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كتم شيئا من الوحي فقد كذب.(٨) وفي صحيح البخاري من حديث أبي جحيفة وهب

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٩. (٢) سورة المائدة: آية ٩٩. (٣) سورة الرعد: آية ٤٠.

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٩٠/٣). (٥) سورة البقرة: آية ٢٧٢.

(٦) فتح القدير: الشوكاني (٢٩٢/١). (٧) سورة المائدة: آية ٦٧.

(٨) أخرجه البخاري في كتاب التفسير: ( يأيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك ) ( الفتح ١٢٤/٨ برقم ٤٦١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معنى قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى. الخ) (١٥٩/١ برقم ١٧٧).

ابن عبدالله السوائي قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيءٌ من الوحي مما ليس في القرآن ؟ فقال: لا . والذي فَلَق الحَبّة وبَرَأَ النَسَمَة[1] الا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة[2]. قلت: وما في هذه الصحيفة ؟ قال: العقل، وفِكَاكُ الأَسِيْر[3]، وأن لا يُقتل مسلمٌ بكافر.))[4]

وقد ناقض كلام الشوكاني هذا ما ذهب اليه في كتابه نيل الأوطار[5] من اختصاص علي رضي الله عنه بشيءٍ من الأسرار دون غيره، وقال في الحديث السابق أنه: (( لا يلزم منه نفي ما ينسب الى علي من علم الجفر[6] ونحوه أو يقال هو مندرج تحت قوله: الا فهما يعطيه الله تعالى رجلا في القرآن.)) وهو قول مردود، ولعلّ الشوكاني رحمه الله رجع عنه بدليل كلامه السابق، وقد تقدّم أن كتابه نيل الأوطار من أوائل الكتب التي ألّفها[7]، فشأنه في هذا كشأنه في المسائل التي بينتها في باب التمهيد[8] والله تعالى أعلم .

وفي هذا الحديث ردّ على الشيعة وأتباعهم الذين زعموا أن عند أهل البيت لا سيّما عليّا رضي الله عنه أشياء من الوحي خصّهم النبي صلى الله عليه وسلم بها لم يطّلع غيرهم عليها، فحلف - رضي الله عنه - أنه ليس شيءٌ من ذلك سوى القرآن، وأنه عليه الصلاة والسلام لم يخصّ بالتبليغ والارشاد قوما دون قوم، وانّما وقع التفاوت من قبل الفهم، فمن رزق فهما وادراكا ووفّق للتأمل في آياته والتدبّر في معانيه فتح عليه أبواب العلوم[9] .

قال الشوكاني: (( وقد بلّغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته ما نزل اليهم، وقال لهم في غير موطن: هل بلّغت ؟ فيشهدون له بالبيان[10]. فجزاه الله عن أمته خيرا.

---

(١) أي خلق ذات الروح. (النهاية لابن الأثير (٤٩/٥ مادة: نسم) .
(٢) أي الورقة المكتوبة. ( الفتح لابن حجر ٢٤٧/١) .
(٣) العقل: أي الدية، سمّيت به لأنهم كانوا يعطون فيها الابل ويربطونها بفناء دار المقتول بالعقال وهو الحبل. وفكاك الأسير: أي تخليص الأسير من يد العدوّ، أي فيها حكمها. (انظر: الفتح لابن حجر ٢٤٧/١) .
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٥٩/٢). والحديث أخرجه البخاري في عدة مواضع، انظر كتاب العلم باب كتابة العلم (الفتح ٢٤٦/١ برقم ١١١)، والترمذي في كتاب الديات، باب ما جاء لا يقتل مسلم بكافر (١٧/٤ برقم ١٤١٢) وقال: حديث حسن صحيح .
(٥) انظر (١٣٣/٨) عند شرحه للحديث السابق .
(٦) قال أهل المعرفة بهذا العلم: هو عبارة عن العلم الاجمالي بلوح القضاء والقدر على كلّ ما كان وما يكون كلّيا وجزئيّا. والجفر هو لوح القضاء الذي هو عقل الكل ... وقد ادعت طائفة أن عليا وضع الحروف في جلد الجفر يستخرج منها بطرق مخصوصة وشرائط معينة ألفاظ مخصوصة تدلّ على ما في لوح القضاء والقدر ... ( انظر: أبجد العلوم: صديق حسن خان (٢١٤/٢) ط/ دار الكتب العلمية.)
(٧) انظر القائمة (ص ٧٧) .
(٨) انظر (ص ٨٣ - ٩٢ ) .
(٩) انظر: الفتح لابن حجر (٢٤٧/١) .
(١٠) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجّة النبي صلى الله عليه وسلم (٨٩٠/٢ برقم ١٢١٨) في حديث طويل ولفظه: (( وقد تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده ان اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عنّي، فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت . )) وأخرج نحوه أبوداود في كتاب المناسك، باب صفة حجّة النبي صلى الله عليه وسلم (٤٦٢/٢ برقم ١٩٠٥)، وابن ماجة في المناسك باب حجّة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٠٢٥/٢ برقم ٣٠٧٤)، وأخرج الحاكم في المستدرك (٣٣٠/١) من حديث طويل وفيه: (( يأيها الناس انّما أنا بشر ورسول الله، فأذكركم الله ان كنتم تعلمون أنّي قصرت عن شيء من تبليغ رسالات ربّي كما ينبغي لها أن تبلّغ، وان كنتم تعلمون أنّي قد بلّغت رسالات ربّي لما أخبرتموني. فقام الناس، وقالوا: نشهد أنك قد بلّغت رسالات ربّك ونصحت لأمّتك وقضيت الذي عليك .)) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

ثم إنّ الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعاً لما يظنّ أنه حامل على كتم البيان، وهو خوف لحوق الضرر من الناس، وقد كان ذلك بحمد الله، فانه بيّن لعباد الله ما نزل اليهم على وجه التمام، ثم حمل من أبى من الدخول في الدين على الدخول فيه طوعاً أو كرهاً، وقتل صناديد الشرك، وفرّق جموعهم وبدّد شملهم، وكانت كلمة الله هي العليا .))(١)

ج ـ التبشير والانذار .

قال تعالى: (( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ))(٢)

قال الشوكاني: (( أي كانوا على دين واحد، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ))(٣)

ومعنى مبشّرين ومنذرين أي مبشّرين لمن أطاعهم بما أعدّ الله له من الجزاء العظيم، ومنذرين لمن عصاهم بما له عند الله من العذاب الوبيل .(٤)

وقد قصر الله سبحانه مهمّة الرسل على هاتين الوظيفتين في قوله: (( وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ))(٥)

وتبشير الرسل وانذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشّرون المؤمنين الطائعين بالحياة الطيبة (( مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ))(٦) كما يبشّرونهم في الآخرة بالجنّة ونعيمها (( وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ))(٧)، وينذرون الكافرين والعصاة بالشقاء الدنيوي (( وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ))(٨)، كما ينذرونهم عذاب الله في الآخرة (( وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ))(٩)

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى سيد الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام بشأن هذه المهمّة في عدّة آيات بصيغة الحصر، كقوله تعالى: (( إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ))(١٠)، وقوله: (( إِنَّمَا

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٦٠/٢) . (٢) سورة البقرة : آية ٢١٣ .
(٣) فتح القدير للشوكاني (٢١٣/١) . (٤) المصدر السابق (١١٨/٢) وأيضاً (٢٨٨/٤) .
(٥) سورة الأنعام : آية ٤٨ ، وسورة الكهف: آية ٥٦ .
(٦) سورة النحل : آية ٩٧ . (٧) سورة النساء : آية ١٣ .
(٨) سورة طه : آية ١٢٤ . (٩) سورة النساء : آية ١٤ .
(١٠) سورة هود : آية ١٢ .

أَنْتَ مُنْذِرٌ ))(١).

قال الشوكاني في تفسير الآية: (( وجاء في ( إنّما أنت منذر ) بصيغة الحصر، لبيان أنّه صلى الله عليه وآله وسلم مرسل لإنذار العباد، وبيان ما يحذرون عاقبته، وليس عليه غير ذلك، وقد فعل ( صلى الله عليه وسلم ) ما هو عليه، وأنذر أبلغ انذار، ولم يدعْ شيئاً مما يحصل به ذلك إلّا أتى به وأوضحه وكرّره، فجزاه الله عن أمّته خيراً. ))(٢)

هذه أهمّ وظائف الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهناك وظائف أخرى كثيرة تفرّعت عن هذه الوظائف، كاصلاح النفوس وتزكيتها، وتصحيح العقائد المنحرفة، والتذكير بالنشأة والمصير، وغير ذلك من الأمور التي بعث الله لأجلها رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

## المبحث السابع: الايمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وبشاراته في الكتب السابقة

### الايمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم

الايمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وأنّ الله أرسله إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وأنّه عبد الله وصفيّه من خلقه، أصل عظيم من أصول الايمان، اذ لا يحصل لأحد الايمان الصحيح حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم رسول ربّ العالمين، وسيد الأوّلين والآخرين، وخاتم النبيين.

فيجب على كلّ عبد الاعتقاد الجازم بأنّه عليه الصلاة والسلام امام المتّقين الذي يقتدى به في الخير كلّه، وأنّه وحده الذي تجب طاعته والاقتداء به دون سواه. قال تعالى: (( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ))(٣) وقال تعالى: (( وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ))(٤).

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله تعالى: (( النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ))(٥): (( أي هو أحقّ بهم في كلّ أمور الدين والدنيا، وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم، وان كانوا محتاجين اليها، ويجب عليهم أن يحبّوه زيادة على حبّهم أنفسهم، ويجب عليهم

---

(١) سورة الرعد: آية ٧.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٦٨/٣).
(٣) سورة آل عمران: آية ٣١.
(٤) سورة الحشر: آية ٧.
(٥) سورة الأحزاب: آية ٦.

أن يقدّموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم ، وبالجملة فاذا دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم بشيئ ودعتهم أنفسهم الى غيره وجب عليهم أن يقدّموا ما دعاهم اليه ويؤخّروا ما دعتهم أنفسهم اليه ، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم ، ويقدّموا طاعته على ما تميل اليه أنفسهم وتطلبهم خواطرهم .))(١)

ويجب أن نعتقد أنّه عليه الصلاة والسلام مبعوث الى عامّة الجنّ والانس، عربهم وعجمهم ، وأصفرهم وأحمرهم .

قال تعالى:(( قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ))(٢)

وقال تعالى:(( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ))(٣)

وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن الجنّ أنّهم قالوا :(( يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ))(٤) وهذا يدلّ على أنّهم آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم .

أمّا قول بعض الطوائف من النصارى وأمثالهم إنّه صلى الله عليه وسلم رسول الى العرب خاصّة فظاهر البطلان، ويكفي في الردّ على هذه الفرية أن نبيّن لهم تناقضهم ، فانّ تصديقهم بالرسالة يقتضي تصديقه في كلّ ما يخبر به ، وقد قال إنّه رسول الله الى الناس عامّة ، والرسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتما ، فقد أرسل رسله ، وبعث كتبه في أقطار الأرض، الى كسرى،وقيصر،والنجاشي،والمقوقس،وسائر ملوك الأطراف، يدعو الى الاسلام .(٥)

كما يجب أن نعتقد أنّه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين .

قال تعالى:(( مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ))(٦)

وفي الحديث :(( فُضِّلْتُ على الأنبياء بستّ . وفيه ... وخُتِمَ بي النبيّون ))(٧)

---

(١) فتح القدير : الشوكاني (٤/٢٦١). (٢) سورة الأعراف : آية ١٥٨ .
(٣) سورة سبأ : آية ٢٨ . (٤) سورة الأحقاف : آية ٣١ .
(٥) انظر:شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي(ص ١٧٨)،وانظر ما كتب شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه : الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح. في الردّ على شبهات رجل نصراني،وإحدى تلك الشبهات التي أطال شيخ الاسلام في الردّ عليها زعم ذلك النصراني أنّ محمدا مرسل الى العرب دون غيرهم .
(٦) سورة الأحزاب : آية ٤٠ . (٧) تقدّم تخريجه في صفحة (٤٩٤) .

ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنّه لا يبعث رسول من بعده إلى قيام الساعة .

أمّا نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان كما أخبر به المصطفى صلى الله عليه وسلم فهو حقّ وصدق، ولكنّه لا ينزل ليحكم بشريعة التوراة والإنجيل، بل يحكم بشريعة القرآن، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى .

تبشير الكتب السابقة بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم

إنّ مما يدلّ على ثبوت نبوّة نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم تبشير الكتب السابقة، كالتوراة والزبور والإنجيل بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وقد بيّن الشوكاني - رحمه الله تعالى - هذه البشارات، حيث أورد العديد من النصوص التي وردت في هذه الكتب، والتي تفيد البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم .

ومن الملاحظ أنّ الشوكاني قد نقل النصوص من النسخة الموجودة في عهده، والتي لم يعمّها التبديل والتحريف كما عمّها الآن، لأنّي وجدت كلمات منها ساقطة من النسخ التي بين أيدينا ( وهي العهد القديم والعهد الجديد ) خاصّة ما يتعلّق باسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما سأنبّه عليه في موضعه إن شاء الله .

ولا يخفى أنّ هذا دليل على وقوع الحذف والتحريف أيضاً على يد المتأخّرين بعد الإمام الشوكاني حين قدموا تلك الكتب أخيراً للتداول بين الناس في العصر الحديث عن طريق الطباعة .[1]

وينبغي أن يعلم أنّ الاستشهاد بهذه النصوص ليس معناه إقراراً بصحّتها أو اعترافاً بأنّها الوحي الصحيح الذي أنزله الله سبحانه على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، بل إنّما هو من قبيل إقامة الحجّة، ليزداد الذين آمنوا إيماناً مع إيمانهم، وتكميل الفائدة لمن كان في قلبه ريب وفي صدره حرج .[2]

---

(١) ذكر الشيخ رحمت الله الهندي - رحمه الله تعالى - عدداً من طبعات هذه الكتب، وأثبت أنّ التبديل والتغيير عند كلّ طباعة بمنزلة الأمر الطبيعي لهذه الفرقة، لوجود اختلاف لفظي ومعنوي في كثير من الآيات بين كلّ طبعة وأخرى. ( انظر مقدمة كتاب: إظهار الحقّ، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا ٤٠/١، ٤١ وانظر أيضاً ما بيّنه شيخ الإسلام ابن تيمية من هذا التحريف في كتابه : الجواب الصحيح ٣٨٠/١، ٣٨١ ) .

(٢) انظر إرشاد الثقات : الشوكاني (ص ٣٤) .

## تبشير التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم

فمن البشارات التي جاءت في التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم ما يذكره الشوكاني ـ رحمه الله ـ عن التوراة أنه في الفصل السابع عشر من السفر الأول[1] منها : (( قال الله سبحانه لإبراهيم : وقد سمعت قولك في اسماعيل، وها أنا مبارك فيه ، وأثمره ، وأكثره بمأذ مأذ )) انتهى. قوله ( بمأمأذ ) هو اسم محمد بالعبرانية ، وهذا صريح في البشارة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.[2]

قلت : هذه الكلمة لا توجد في العهد القديم الذي بين أيدينا، ويوجد في هذا الموضع ما نصه : (( وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا اثني عشر رئيسا يلد ، وأجعله لأمة كبيرة ))[3]

ولا شك أن يد التحريف أسقطت الكلمة المذكورة ، وعلى كل فان هذا النص أيضا فيه بشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه وعد من الله سبحانه لإبراهيم في حق اسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ، فقوله : ( لأمة كبيرة ) يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن في ولد اسماعيل من كان لأمة كبيرة غيره ، اذ رسالته عامة ، وقد قال الله تعالى لنا قلادعاء ابراهيم واسماعيل في حقه عليهم السلام : (( رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ))[4]

ويؤيد هذا ما جاء في سفر التكوين : (( وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك ))[5] فابن الجارية هو اسماعيل جد محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمة العظيمة هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم .[6]

ومن بشارات التوراة ـ كما يذكره الشوكاني ـ ما جاء في الفصل الثالث والثلاثين

---

(١) أي سفر التكوين .

(٢) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٢٧) ، وانظر اظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندي (٥١٨/٢) وقد ذكر ـ رحمه الله ـ أن العلماء صرحوا بأن من أسمائه صلى الله عليه وسلم ( ماد ماد ) كما في الشفا للقاضي عياض (انظر ٣٢١/١) حيث قال : ومن أسمائه في الكتب السالفة : ماذ ماذ ، ومعناه : طيب طيب ... حكاه كعب الأحبار .

(٣) العهد القديم ، سفر التكوين ، الاصحاح ١٧ فقرة ٢٠ .

(٤) سورة البقرة ، آية ١٢٩ . (٥) الاصحاح ٢١ فقرة ١٣ .

(٦) انظر اظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندي (٥١٧/٢) .

من السفر الخامس[1] ما لفظه: (( يا الله الذي تجلّى نوره من طور سينا، وأشرق نوره من جبل سَيْعِير[2]، ولوّح[3] به من جبل فاران، وأتى ربوة القدس بشريعة نور من يمينه لهم ))

انتهى .

ويعلّق الشوكاني على هذا النصّ فيقول:

(( قال جماعة من العلماء: إنّ معنى تجلّى نور الله سبحانه من طور سينا أو مجيئه من طور سينا هو انزال التوراة على موسى بطور سينا، ومعنى اشراقه من جبل ( سَيْعِير ): انزال الانجيل على المسيح، وكان المسيح من ( سَيْعِير ) أو ( ساعير ) وهي أرض الخليل من قرية منها تدعى ( ناصرة ) وباسمها سمّي أتباعه نصارى، ومعنى لوّح به من جبل فاران أو استعلن من جبل فاران: انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، وجبال فاران هي جبال مكة بلا خلاف[4] بين علماء المسلمين وأهل الكتاب .

ومما يؤيّد هذا ما في التوراة في السفر الأوّل منها ما لفظه:

(( وغدا ابراهيم فأخذ الغلام يعني اسماعيل، وأخذ خبزا وسقاء من ماء، ودفعه الى هاجر، وحمله عليها، وقال لها: اذهبي . فانطلقت هاجر، فظلت سبعا، ونفد الماء الذي كان معها، فطرحت الغلام تحت شجرة، وجلست مقابلته على مقدار رمية سهم، لئلّا تبصر الغلام حين يموت، ورفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الغلام، فدعا ملك الله هاجر، وقال لها: مالك يا هاجر لا تخشي، فانّ الله قد سمع صوت الغلام حيث هو، فقومي فاحملي الغلام، وشدّي يديك به، فانّي جاعلك لأمّة عظيمة، وفتح الله عينيها، فبصرت ببئر ماء فسقت الغلام، وملأت سقاها، وكان الله مع الغلام، فربّى وسكن في برية فاران . )) انتهى.[5]

ولا خلاف أنّ اسماعيل سكن أرض مكة فعلم أنّها فاران، وقد حكى الله سبحانه في القرآن الكريم ما يفيد هذا، فقال حاكيا عن ابراهيم: (( رَبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ

---

(١) أي سفر التثنية . (٢) في العهد القديم: سعير (انظر سفر التثنية: الاصحاح ٣٣ فقرة ١) .

(٣) في العهد القديم: وتلألأ . ( انظر سفر التثنية: الاصحاح ٣٣ فقرة ١) .

(٤) قال الياقوت الحموي في معجم البلدان (٢٢٥/٤ مادة: فاران): فاران: بعد الألف راء، وآخره نون: كلمة عبرانية معرّبة، وهي من أسماء مكة ذكرها في التوراة، قالوا: وفاران: اسم لجبال مكة .

(٥) انظر العهد القديم: سفر التكوين: الاصحاح ٢١ من فقرة ١٤ ـ ٢١ مع اختلاف يسير في الألفاظ والحروف .

غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ))(١)

ولا خلاف في أنّ المراد بهذا الوادي أرض مكة ، وفي الأحاديث الصحيحة الحاكية لقصّة ابراهيم مع هاجر وولدها اسماعيل ما يفيد هذا ويوضّحه ·))(٢)

ومما يؤيّد هذه البشارة – كما يذكره الشوكاني – ما جاء في نبوّة النبي حبقوق، ولفظه :

(( جاء الله من التيمن، وظهر القدس على جبال فاران، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد ، وملك يمينه رقات الأمم ، وأنارت الأرض لنوره ، وحملت خيله في البحر )) (٣) انتهى·

وفي هذا التصريح بجبال فاران مع التصريح باسم نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله :( وامتلأت الأرض من تحميد أحمد ) تصريحاً لا يبقى بعده ريب لمرتاب ·(٤)

قلت : هذه العبارة لا توجد في نصّ العهد القديم ، ولا شك أنّ يد التحريف والتبديل قد أسقطتها ، وما ذلك بأوّل تحريف وتبديل وتغيير منهم ، وقد قال تبارك وتعالى في كتابه العزيز :(( وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ))(٥)

تبشير الزبور بمحمد صلى الله عليه وسلم - -

قال الشوكاني – رحمه الله تعالى –:(( ومن البشارات بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الزبور لداود عليه السلام ما لفظه :(( انّ ربّنا عظيم محمود جدّا ، ومحمد قد عمّ الأرض كلّها فرحا )) (٦) انتهى· ففي هذا التصريح باسمه صلى الله عليه وآله وسلم ·

ومن ذلك قوله في موضع آخر :(( ويجوز من البحر الى البحر، ومن لدن الأنهار الى منقطع الأرض، وتخزي أهل الجزائر بين يديه ، ويلحس أعداؤه التراب، ويسجد له ملوك الفرس، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ، ويخلص البائس المضطهد ممن هو أقوى منه وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرأف بالمساكين والضعفاء، ويصلّى عليه ، ويبارك في

---

(١) سورة ابراهيم ، آية ٣٧ · (٢) ارشاد الثقات : الشوكاني(ص ٢٧،٢٨) ·

(٣) انظر العهد القديم ،كتاب النبي(حبقوق) الاصحاح ٣ من فقرة ٣ مع سقوط العبارة : ( وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وملك يمينه رقات الأمم ) ·

(٤) ارشاد الثقات : الشوكاني(ص ٢٩) · (٥) سورة البقرة : آية ٧٥ ·

(٦) انظر العهد القديم بالمزمور ٤٨ من فقرة ١ مع سقوط ما يتصل بمحمد صلى الله عليه وسلم ·

كلّ حين )) انتهى.[1]

ويعلّق الشوكاني على هذا النصّ فيقول: (( وهذه الصفات أيضاً ليست لأحد من الأنبياء غيره ، فانّه لم يملك أحد منهم من البحر الى البحر ، ومن لدن الأنهار الى منقطع الأرض كما ذلك معلوم لكلّ أحد ، بل الذي انتشرت شريعته وبلغت سيوف أمّته الى هذا المقدار هو نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم . وهكذا قوله : ( ويسجد له ملوك الفرس ) فانّه لم يفتح الفرس ، ويستعبد أهلها ويضرب عليهم الجزية الا أمّة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم . وهكذا قوله : ( وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ) فانّها لم تدن الأمم كلّها لغيره . وهكذا قوله : ( ويصلّى عليه ويبارك في كلّ حين ) فانّ هذا يختصّ بنبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم ، لاستمرار ذلك له في كلّ وقت ، ووقوع الأمر القرآني به ، ولم يكن ذلك لغيره من الأنبياء . ))[2]

ومن البشارات ـ كما يذكرها الشوكاني ـ ما جاء في نبوّة أشعيا ما لفظه : (( انّي جعلت أمرك يا محمد يا قدوس الربّ اسمك موجوداً الى الأبد ))[3] انتهى. وما في نبوّة دانيال النبى حيث صرّح فيها باسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثل ما تقدّم في نبوّة حبقوق فقال : (( ستنزع في مسيك اعراقاً وترتوي السهام بأمرك يا محمداً رتواء . ))[4]

وفي موضع آخر من كتابه هذا التصريح ببعثة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال بعد ذكر التبشير بالمسيح ما لفظه : (( حتى أبعث نبي بني اسماعيل الذي بشّرت به هاجر ، وأرسلت اليها ملائكة فبشّروها ، فأوحي الى ذلك النبي ، وأعلمه الاسماء وأزينه بالتقوى ، وأجعل البر شعاره ، والتقوى جهده ، والصدق قوله ، والوفاء طبيعته ، والقصد سيرته ، والرشد سنّته ، بكتاب مصدّق لما بين يديه من الكتب ، وناسخ لبعض ما فيها ، أسري به اليّ ، وأرقيه من سماء الى سماء حتى يعلو ، فأدنيه وأسلم عليه ، وأوحي اليه ، ثم أردّه الى عبادي بالسرور والغبطة حافظاً لما استودع ، صادعاً بما أمر ، يدعوا الى توحيدي باللين من القول والموعظة الحسنة ، لا فظّ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، رءوف بمن والاه ، رحيم بمن

---

(١) انظر العهد القديم المزمور ٧٢ لسليمان عليه السلام ، من فقرة ٨ ـ ١٥ مع اختلاف يسير .
(٢) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٢٩ ، ٣٠) .
(٣) لم أجد هذه العبارة في العهد القديم في الباب المذكور ، ولعلّ يد التحريف أسقطتها ، كما أسقطت أمثالها .
(٤) لم أجد هذا النصّ أيضاً في الكتاب المذكور .

آمن به حتى من هاداه ))[1] انتهى.

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ: (( ولا ريب أنّ هذه صفات نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّه لم يبعث الله نبيّاً من بني إسماعيل سواه. ومثل هذه الصفات ما في حديث عبدالله بن عمرو عند البخاري وغيره أنّه قيل له: أخبِرنا ببعض صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، قال: إنّه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: (( يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً، وحِرْزًا للأمّيّين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكّل، لست بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يجزي السيئة بالحسنة، ويعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعيناً عمياء، وآذاناً صمًّا، وقلوباً غلفاً، بأن يقولوا لا إله إلا الله. ))[2]

وقال: قيل: قد يراد بلفظ التوراة جنس الكتب المتقدمة من التوراة والزبور والانجيل وسائر كتب أنبياء بني إسرائيل، فعلى هذا يكون المراد بقول عبدالله بن عمرو: ( إنّه لموصوف في التوراة ) هذه الصفات المذكورة في نبوة دانيال.[3] ولا مانع من أن تكون هذه الصفات كانت موجودة في التوراة فحذفتها اليهود، فما ذلك بأوّل تحريف وتبديل وتغيير منهم.[4]

## تبشير الانجيل بمحمد صلى الله عليه وسلم

ومن البشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم في الانجيل ـ كما يذكره الشوكاني رحمه

---

(١) كذلك لم أجد هذا النصّ في نبوة دانيال، ولعل يد التحريف أسقطتها.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق. ( الفتح ٤٠٢/٤ برقم ٢١٢٥ )، وفي كتاب التفسير سورة الفتح، باب: ( إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً ) ( الفتح ٤٤٩/٨ برقم ٤٨٣٨ ) عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وأخرجه الدارمي في المقدمة، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب قبل مبعثه. ( ١٦/١ برقم ٦ ) عن ابن سلام، وأحمد في المسند ( ١٧٤/٢ ) عن عبدالله بن عمرو. قال الشوكاني في فتح القدير ( ٢٨٩/٤ ): وقد ذكر البخاري في صحيحه في البيوع هذا الحديث فقال: وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبدالله بن سلام، ولم يقل عبدالله بن عمرو، وهذا أولى، فعبدالله بن سلام هو الذي كان يحتمل عن التوراة، فيخبر بما فيها اهـ. قلت: ولا مانع أن يكون عطاء بن يسار حمله عن كلّ منهما. ( انظر الفتح ٤٠٣/٤ ).

(٣) أي على أساس أنّها كانت موجودة في النسخة المخطوطة التي نقل عنها الشوكاني، لأنّ النسخة المطبوعة والموجودة الآن ليس فيها هذا النصّ.

(٤) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٣٢).

الله- ما جاء في الفصل الخامس عشر من الانجيل الذي جمعه يوحنّا :

(( إنّ الفارقليط روح الحقّ الذي يرسله الله هو يعلم كل شيء ))

وفي موضع آخر منه :(( والفارقليط روح القدس الذي يرسله الله هو يعلم كلّ شيء، وهو يذكركم ما قلت لكم ))

وفي موضع آخر منه :(( اذا جاء الفارقليط الذي أرسله الله روح الحقّ الذي هو يشهدلي، قلت لكم هذا حتى اذا كان، يؤمنون به، ولا يشكون فيه.))(١)

وفي الفصل السادس عشر منه ( أي من انجيل يوحنّا ): (( لكنّي أقول لكم الحقّ: انّه خير لكم أن أنطلق، لأنّه ان لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط، فاذا انطلقت أرسلته اليكم، فهو يوبّخ العالم على الخطيئة، وعلى البر، وعلى الحكم، أمّا على الخطيئة فانّهم لم يؤمنوا بي، وأمّا على البر فانّي منطلق ولستم تروني، وأمّا على الحكم فانّ رئيس هذا العالم يدان، وأنّ له كلاما كثيرا لستم تطيقون كلّه الآن، لكن اذا جاء روح الحقّ ذاك، فهو يرشدكم الى جميع الحقّ، لأنّه ليس ينطق من عنده، بل يتكلّم بما يسمع ،ويخبركم بكلّ ما يأتي.)) انتهى.(٢)

ويعلّق الشوكاني على هذه النصوص فيقول:

(( وقد تكرّر ذكر ( الفارقليط ) في الانجيل، وأنذر به المسيح، وبشّر به قومه في غير موضع منه، وقد اختلفوا في المراد با ( الفارقليط) في لغتهم على أقوال. وذهب الأكثرون

---

(١) لا توجد هذه النصوص بالذات في العهد الجديد في الموضع المشار اليه، وانّما يوجد ما هو قريب منه ،مثل قوله في فقرة (٢٦):(( ومتى جاء المُعَزِّي الذي سأرسله أنا اليكم من الآب روح الحقّ الذي من عند الربّ ينبثق فهو يشهدلي)) كما يوجد في الاصحاح الرابع عشر قبله ما نصّه :(١٥)(( ان كنتم تحبّونني فاحفظوا وصاياي.(١٦) وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعَزِّيًا آخر ليمكث معكم الى الأبد.(١٧) روح الحقّ الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأمّا أنتم فتعرفونه ،لأنّه ماكثٌ معكم ،ويكون فيكم.(٢٦) وأمّا المُعَزِّي الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمي فهو يعلّمكم كلّ شيء، ويذكركم بكلّ ما قلته لكم.(٢٩) وقلت لكم الآن قبل أن يكون،حتى متى كان يؤمنون.)) فقد وردهنا لفظ :( المُعَزِّي ) بدلا من :( الفارقليط ).

(٢) هكذا في العهد الجديد ،يوحنّا ، الاصحاح ١٦ من فقرة ٧ - ١٣ مع اختلاف يسير، ومن ذلك الاختلاف ذكر كلمة : ( المُعَزِّي ) بدل :( الفارقليط ).

من النصارى أنّها المخلّص ، قالوا : هومشتق من ( الفاروق ) أومن ( فارق )،قالوا: ومعنى ( ليط ) كلمة تزاد ،كما يقال: رجل هو ، وحجرهو، وجاهل هو .

وقد تقرّر أنّه لا نبيّ بعد المسيح غير نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذه البشارات قد تضمّنت أنّه سيأتي بعد المسيح نبي يخلّص تلك الأمة مما هم فيه ، ويوبّخهم على الخطية ، ويتكلّم بما يسمع، ويخبر بكلّ ما يأتي، ولم يكن هذا لأحد بعد المسيح غير نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم .

ومما يدلّ على أنّ المراد بالفارقليط هو نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم أنّه وقع الحذف بهذا اللفظ من بعض نسخ الانجيل، مع ثبوته في غالبها[1]، وليس ذلك إلاّ تغييرا وتبديلا من النصارى، لما يعلمونه من أنّ المراد بهذا اللفظ هو التبشير بنبيّ يأتي بعد المسيح، وأنّها ستقوم بذلك الحجّة عليهم ، فحذفوا هذا اللفظ لهذه العلّة .))[2]

يقول الشيخ رحمت الله الهندي[3] في صدد بيان معنى:( الفارقليط ) وتحليله :

(( إنّ من عادة أهل الكتاب أن يترجموا الأسماء ولا يبقوها على لفظها، وعيسى عليه السلام كان يتكلّم بالعبرانية لا باليونانية ، فاذا لا يبقى شك في أنّ الانجيلي الرابع ( أى يوحنّا ) ترجم اسم المبشّر به باليونانية بحسب عادتهم ، ثم مترجموا العربية عرّبوا اللفظ اليوناني بفارقليط .

ثم يذكر- رحمه الله- أنّه قد وجد رسالة صغيرة باللغة الأردوية لبعض القسس،سنة ١٢٦٨هـ م طبعت في ( كلكتا )، وكانت في تحقيق لفظ ( الفارقليط )، وملخص كلامه أنّ هذا اللفظ معرّب من اللفظ اليوناني، فان قلنا انّ هذا اللفظ اليوناني الأصلي ( باركليطوس ) فيكون بمعنى المعزّي والمعين والوكيل، وان قلنا انّ اللفظ الأصلي ( بيركلوطوس ) يكون قريبا من معنى محمد وأحمد . ويدّعي صاحب الرسالة أنّ علماء

---

(١) انظر مزيدا لتفصيل من هذا في كتاب اظهار الحقّ للشيخ رحمت الله الهندى (٥٣٨/٢ - ٥٥١) تحقيق: د/ أحمد حجازى السقا .

(٢) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٣٢،٣٣) .

(٣) رحمت الله بن خليل بن نجيب العثماني الكيرانوي الهندي،باحث عالم بالدين والمناظرة ،جاور بمكة وتوفّي بها ( ١٣٠٨ هـ) وأسّس بها مدرسة نظامية تربوية وسمّاها: المدرسة الصولتية ،له مؤلفات مفيدة أشهرها: اظهار الحقّ، وهو من أفضل الكتب في موضوعه ،ألّفه بالعربية ،وترجم الى لغات شتى.( انظر ترجمته في مقدمة كتاب اظهار الحقّ ٢٨/١ - ٣٦، وفي الأعلام للزركلي ١٨/٣ ) .

المسلمين التبس الأمر عليهم ،ففهموا أنّ اللفظ في الأصل ( بيركلوطوس ) وقالوا إنّ عيسى بشّر بمحمد عليهما الصلاة والسلام .

ويرد الشيخ - رحمه الله تعالى - على ذلك فيقول :

(( إنّ التفاوت بين اللفظين يسير جدًّا ، وإنّ الحروف اليونانية كانت متشابهة ، فتبديل ( بيركلوطوس ) بـ ( باراكلي طوس ) في بعض النسخ من الكاتب قريب القياس، ثم رجّح أهل التثليث المنكرين هذه النسخة على النسخ الأخرى ... ومثل هذا الأمر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس ببعيد ، بل لا يبعد أن يكون من المستحسنات . ))(١) اهـ.

قلت : وعلى كلٍّ فانّ الكلمة ان كانت في الأصل ( بيركلوطوس ) بمعنى محمد أو أحمد أو محمود فانّ عيسى عليه السلام قد بشّر بمحمد صلى الله عليه وسلم صراحة ، كما أشار تبارك وتعالى الى ذلك في كتابه الكريم في قوله :(( وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ))(٢)، وان سلّمنا أنّها كانت ( باراكلي طوس ) بمعنى المعزّي والمعين والوكيل فانّ عيسى عليه السلام قد كنّى عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنّ هذه المعاني كلّها تصدق عليه .

## إشارة القرآن والسنة الى بشارات الكتب السابقة

وقد حكى الله سبحانه في القرآن الكريم ما تضمّنه الكتب المنزّلة والرسل المرسلة من التبشير بنبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم ما يغني عن جميع ما ذكرناه من نصوص تلك الكتب، وانّما أردنا بالنقل منها الزام الحجّة وتكميل الفائدة لمن كان في قلبه ريب وفي صدره حرج .(٣)

فمن ذلك قوله تعالى :(( الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ))(٤). وقال عزّ وجلّ :(( الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ))(٥) وقال سبحانه :

---

(١) انظر اظهار الحقّ : رحمت الله الهندي (٥٣٩،٥٣٨/١) تحقيق/د :أحمد حجازي السقا .
(٢) سورة الصفّ ، آية ٦ . (٣) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٣٤) .
(٤) سورة الأعراف ، آية ١٥٧ . (٥) سورة البقرة : آية ١٤٦ .

(( يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ))[1] والمراد بآيات الله ما في كتبهم من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.[2] وقال سبحانه: (( وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ))[3] أي كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المنعوت في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة.

وقد روى البيهقي بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ( رضي الله عنهم ) قالوا: كانت العرب تمر بالیهود فیؤذونهم، وكانوا يجدون محمداً في التوراة فيسألون الله أن يبعثه نبياً فيقاتلون معه العرب، فلما جاء محمد كفروا به حين لم يكن من بني اسرائيل.[4]

ومن ذلك قوله تعالى: (( وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي، قَالُوا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ))[5]

قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهم: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.[6]

هذا بعض ما اشتمل عليه الكتاب العزيز، وفي الأحاديث ما يؤيد ذلك ويؤكده.

وقد أورد الشوكاني ـ رحمه الله ـ أحاديث وقصصاً كثيرة في هذا الصدد.[7] منها:

ما ثبت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب لما سأله هرقل ملك الروم عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: (( إن يكن ما تقوله حقاً إنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن منكم، ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.))[8]

---

(١) سورة آل عمران، آية ٧٠ (٢) فتح القدير، الشوكاني (٣٥١/١). (٣) سورة البقرة، آية ٨٩

(٤) فتح القدير: الشوكاني (١١٢/١، ١١٣) والأثر أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٥٣٦) تحقيق/د.عبدالمعطي قلعجي، قال الشوكاني، وقد روي نحو هذا عن ابن عباس من غير وجه بألفاظ مختلفة ومعانيها متقاربة، وروي عن غيره من السلف نحو ذلك.

(٥) سورة آل عمران: آية ٨١ . (٦) تفسير ابن كثير (٣٨٦/١).

(٧) انظر إرشاد الثقات: الشوكاني ( من ص ٣٥ ـ ٤٤ ).

(٨) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب (٦) من حديث طويل ( انظر الفتح ٤٣/١ برقم ٦)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل

===

ومن ذلك ما أخرجه البيهقي بإسناد صحيح من حديث أنس بن مالك أنّ غلاماً يهودياً كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا يهوديّ، أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة نعتي وصفتي ومخرجي؟ قال، لا. قال الفتى: بلى والله يا رسول الله، إنّا نجد في التوراة نعتك وصفتك ومخرجك، وإنّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنّك رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أقيموا هذا من عند رأسه وَلُوا أخاكم.[1]

وأمثال هذا كثيرة جدّاً يطول المقام ببسط بعضها فضلاً عن كلّها. وفي القرآن الكريم والسنة النبوية من دلائل اثبات النبوّات على العموم واثبات نبوّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم على الخصوص ما لا يخفى على كلّ باحث.

وفي المبحث التالي أذكر شيئاً منها على التفصيل الذي ذكره الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في مؤلفاته.

## المبحث الثامن: من دلائل النبوة

اقتضت حكمة الله سبحانه العلية أن لا يرسل رسله إلا بالدلائل والحجج والبراهين المبينة للدلالة على صدقهم في دعواهم أنهم رسل الله، كي تقوم الحجّة على الناس، ولا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم. قال تعالى: (( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ))[2] أي بالمعجزات البيّنة، والشرائع الظاهرة، والعلامات الواضحة التي تدلّ على صدقهم.[3]

وآيات الرسل مختلفة، هذا يأتي بآية وآيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها، فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوّة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية.[4]

---

=== يدعوه إلى الإسلام. (١٣٩٥/٣ برقم ١٧٧٣) واللفظ له.

(١) ارشاد الثقات، الشوكاني (ص ٣٦، ٣٧) والحديث أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٧٢/٦) تحقيق/د. عبد المعطي قلعجي. ومعنى: ( وَلُوا أخاكم ) : أي صلوه وتولوا أمره.

(٢) سورة الحديد: آية ٢٥.

(٣) انظر فتح القدير، الشوكاني (١٧٧/٥) وأيضاً (١١٨/١).

(٤) انظر المصدر السابق (٦٨/٣).

ودلائل نبوّة الأنبياء كثيرة كما وردت في الكتاب والسنة ، وأقتصر في هذا المبحث على ذكر بعض من دلائل نبوّة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه ، لأن ثبوت نبوّته تستلزم ثبوت نبوّة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ووجه ذلك ـ كما قال الشوكاني رحمه الله ـ أنّ ثبوت نبوّته صلى الله عليه وسلم يستلزم ثبوت جميع ما أخبر به وصحّته ، ومما أخبر به ثبوت نبوّة جميع الأنبياء ، فكان في ذكر دلائل نبوّته صلى الله عليه وسلم ما يغني عن ذكر نبوّة سائر الأنبياء .[1]

فمن دلائل نبوّة النبي صلى الله عليه وسلم :

القرآن الكريم معجزة الرسول الخالدة

وهو من أعظم الدلائل التي أعطيها رسولنا صلى الله عليه وسلم .

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في بيان هذه المعجزة :

(( واعلم أنّ دلائل نبوّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم يطول تعدادها ، ويتعسّر ذكرها ، وقد صنّف أهل العلم في ذلك[2] مصنّفات مبسوطة مشتملة على كثير منها ، ولو لم يكن منها إلا هذا الكتاب العزيز الذي جاء به من عند الله سبحانه مشتملا على مصالح المعاش والمعاد ، وتحدّى به فرسان الكلام وأبطال البلاغة ، وأفراد الدهر في العلم بهذه اللغة العربية ، وقال لهم : (( فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ))[3] ثم قال لهم : (( فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ))[4] ثم قال لهم : (( فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ))[5] فلم يقدروا على ذلك ، وكاعوا عنه[6] ، وعجزوا على رءوس الأشهاد ، وكان أكابر بلغائهم وأعاظم فصحائهم إذا سمعوا القرآن اعترفوا بأنّه لا يشبه نظمهم ولا نثرهم ، وأقرّوا ببلاغته ، كما قال الوليد بن المغيرة لمّا سمع النبي

---

(١) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٦٨) .

(٢) منهم ـ كما ذكر الشوكاني ـ الامام أبو بكر بن عبد الله بن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ) ، والامام أبو اسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ) ، والامام أبو جعفر الفريابي (ت ٣٠١هـ) ، والامام أبو زرعة الرازي (ت ٢٦٤هـ) ، والامام أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠هـ) ، والامام أبو الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ) ، والامام أبو نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ) ، والامام أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، والامام أبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، والامام أبو عبد الله المقدسي (ت ٦٤٣هـ) ، وغير هؤلاء . ( انظر ارشاد الثقات ص ٤٩ ) .

(٣) سورة الطور : آية ٣٤ .　　(٤) سورة هود : آية ١٣ .

(٥) سورة البقرة : آية ٢٣ .

(٦) كاع عن الشيئ من باب باع : اذا هابه وجبن عنه . ( مختار الصحاح ٢٤٣ مادة : كوع ) .

صلى الله عليه وسلم يقرأ: (( إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ))[١] فقال: أعِدْ. فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: والله له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمُغْدِق[٢]، وما يقول هذا البشر. ))[٣]

ومما يدلّ على أنّ القرآن الكريم أكبر معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم أنّها شتمل على أعظم تشريع، وعلى قدر من العلوم الالهيّة، والحقائق العلمية، والقوانين الكونية، كما اشتمل على الإخبار بمغيّبات عديدة فكانت كما أخبر، واشتمل كذلك على قدر من قصص الأمم الماضية والأنبياء السابقين، وما جاءوا به، والى من بعثهم الله، وما قالوا لقومهم، وما أجابوا به، وما جرى بينهم من الحوادث، كلّياتها وجزئياتها، وكون هذا النبي متقدّما على هذا، وهذا كان متأخرا عن هذا، مع كثرة عددهم، وطول مددهم، واختلاف أنواع قومهم، واختلاف ألسنتهم وتباين لغاتهم، موافقا لما اشتملت عليه الكتب السابقة، كالتوراة والانجيل، ومصدّقا له. يأتي بهذه الأمور كلّها نبيّ أمّيّ لم يكن كاتبا ولا قارئا، ولم يخالط الذين درسوا تاريخ الأمم وعرفوا أخبارها[٤] ويتحدّى كلّ الخلق على الاتيان بمثله، فتعجز البشرية ومعها الجنّ كلّهم عن الاتيان بمثله.

قال تعالى: (( قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ))[٥] وقال: (( وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ))[٦].

(( وقد كان هذا، فانّه لم يعارض القرآن معارض، ولا جاء بمثل بعضه أحد، لا من مسلم ولا كافر، ولا من إنس ولا جنّ، وقد نفى سبحانه أن يفعلوا ذلك، كما قال: (( فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ))[٧] فأخبر سبحانه أنّهم لم يفعلوا، ولم يقع ما يخالف هذا النفي المؤكد ألبتة. ))[٨]

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: (( وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل

---

(١) سورة النحل: آية ٩٠.
(٢) الغدق بفتح الدال: المطر الكبار القطر، والمُغْدِق مُفْعِل منه. (النهاية ٣٤٥/٣ مادة: غدق)
(٣) ارشاد الثقات: الشوكاني (ص ٤٧، ٤٨). (٤) انظر المصدر السابق (ص ٤٢، ٤٣).
(٥) سورة الاسراء: آية ٨٨. (٦) سورة البقرة: آية ٢٣.
(٧) سورة البقرة: آية ٢٤. (٨) ارشاد الثقات: الشوكاني (ص ٥١).

وقومها ، لأنها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة في أيام النبوة وفيما بعدها والى الآن .))(١)

قلت ، وهذا التحدي وهو نفي الاتيان بسورة من أمي مثل محمد في أميته ما زال قائما ، وقد مضى عليه الآن أكثر من الألف والأربعمائة سنة ، ولا يؤمل أبدا أن يأتي أحد فيبطله ، وقد قال تعالى :( ولن تفعلوا ) .

قال الشوكاني – رحمه الله تعالى – بعد أن بيّن ما في القرآن الكريم من أخبار الأنبياء وأنه موافق لما في التوراة والانجيل من غير مخالفة :

(( ومعلوم لكل عاقل يعرف أحوال نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وكان منذ ولد الى أن بعثه الله عز وجل بين قومه وهم قوم مشركون لا يعرفون شيئا من أحوال الأنبياء، ولا يدرون بشيء من الشرائع، ولا يخالطون أحدا من اليهود والنصارى، ولا يعرفون شيئا من شرائعهم ، وان عرفوا فردا منها فليس ذلك الا في مثل ما هو متقرر بينهم ، يعلمون به في عباداتهم ومعاملاتهم باعتبار ما يشتهر عنهم في ذلك ... وكان هذا النبي العربي الأمي لا يعلم الا بما يعلمون، ولا يدري الا بما يدرون، بل قد يعلم الواحد منهم المتمكن من قراءة الكتب وكتابة المقروء بغير ما يعلمه هذا النبي، فبينما هو على هذه الصفة بين هؤلاء القوم البالغين في الجهالة الى هذا الحد جاءنا بهذا الكتاب العظيم الحاكي لما ذكرناه من تفاصيل أحوال الأنبياء وقصصهم ، وما جرى لهم مع قومهم على أكمل حال وأتم وجه ، ووجدناه موافقا لما في تلك الكتب غير مخالف لشيء منها ، كان هذا من أعظم الأدلة الدالة على ثبوت نبوته على الخصوص، وثبوت نبوة من قبله من الأنبياء على العموم .

ومثل دلالة هذا الدليل لا يتيسر لجاحد ،ولا لمكابر ،ولا لزنديق مارق أن يقدح فيها بقادح ، أو يعارضها بشبهة من الشبه كائنة ما كانت،ان كان ممن يعقل ويفهم ويدري بما يوجبه العقل من قبول الأدلة الصحيحة التي لا تقابل بالرد ، ولا تدفع بالمعارضة ، ولا تقبل التشكيك، ولا تحتمل الشبهة .))(٢)

فالقرآن الكريم أكبر معجزة أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم لتدل على صدق نبوته وثبوت رسالته ، وهو معجزة خالدة ومفتوحة للأجيال كلها، يستمدون منه ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم :(( ما من الأنبياء من نبي الا قد أُعطِيَ من

---

(١) فتح القدير : الشوكاني(٥٣/١). (٢) ارشاد الثقات : الشوكاني(ص ٤١،٤٢) .

الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ))(١)

## إخباره صلى الله عليه وسلم بالمغيّبات من دلائل نبوّته

يقول الشوكاني - رحمه الله تعالى -:

(( ومن أعظم دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم التي لا يجد الجاحدون إلى جحدها سبيلا، ولا يمكن إسنادها إلى تعليم بشر، ولا نسبتها إلى سحر، أنّه صلى الله عليه وسلم كان يسئل عن أمور ماضية يتعنته بها أهل الكتاب والمشركون، فينزل جبريل في تلك الحالة، فيخبره بها في الموضع الذي سألوه فيه من غير أن يفارقه أو يذهب إلى أحد من الناس يستعلم. وذلك كسئوالهم له عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، ونحو ذلك من الأمور التي غالبها غير مذكور في التوراة ونحوها، بل قد يخبرهم ابتداء بشيئ من أحوال الأنبياء لم يكن في التوراة التي هي مرجع أهل الملل في تعرّف أحوال الأنبياء من لدن آدم إلى موسى، وذلك كقصّة هود، وصالح، وشعيب، وكثير من أحوال إبراهيم، وإسحق، وإسماعيل، ويعقوب، ويوسف، ومثل قصّة الخضر مع موسى، ومثل أحوال سليمان، كقصّة البساط، وقصّة العفريت، وقصّة الهدهد. فإنّ هذه لم تكن في التوراة، ولم يسمع عن أحد من أهل الكتاب أنّه زوّر ذلك أو كذّبه، بل انبهروا وأعجبوا منه.(٢)

ولو لم يكن من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم إلّا ما وقع من الإخبار بالأمور الغيبية التي وقعت كما أخبر به، ولم يتخلف شيئ منها، وهي كثيرة جداً، وقد اشتمل القرآن الكريم على شيئ من ذلك، كقوله عزّ وجلّ: (( هُوَ الَّذِيْ أَرْسَلَ رَسُوْلَهُ بِالْهُدَى وَدِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيْدًا ))(٣) فوقع صدق هذا الخبر، وأظهر الله سبحانه دين الإسلام على جميع الأديان. وكذا قوله: (( آلم، غُلِبَتِ الرُّوْمُ، فِيْ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ، فِيْ بِضْعِ سِنِيْنَ ))(٤) فوقع ما أخبر به القرآن بعد المدة التي ذكرها، وذلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأوّل ما نزل (الفتح ٨/ ٦١٨ برقم ٤٩٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس الخ (١/١٣٤ برقم ١٥٢) واللفظ له.

(٢) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٤٤، ٤٥).

(٣) سورة الفتح: آية ٢٨.

(٤) سورة الروم: آية ١ - ٤.

معلوم لا يختلف فيه الناس . وكذلك قوله سبحانه: (( لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ))[(١)] ووقع هذا كما أخبر به سبحانه، فدخلوا المسجد الحرام آمنين محلّقين ومقصّرين كما وعدهم، وغير ذلك من الآيات.[(٢)]

وأورد الشوكاني ــ رحمه الله ــ أحاديث كثيرة في أخباره صلى الله عليه وسلم بالمغيبات.[(٣)]

منها: ما في صحيح البخاري من حديث أنس (رضي الله عنه) قال: جاء عبد الله بن سلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مقدمه المدينة، فقال: إنّي سائلك عن ثلاثة لا يعلمها إلا نبي: ما أوّل أشراط الساعة؟، وما أوّل طعام يأكله أهل الجنة؟، والولد ينزع إلى أمّه أو إلى أبيه؟. قال: أخبرني جبريل آنفاً. قال عبد الله: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة. أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنة فزيادة[(٤)] كبد الحوت، وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمّه. فقال عبد الله بن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّك رسول الله.[(٥)]

قال الشوكاني ــ بعد أن أورد هذا الحديث وأمثاله ــ:

(( ففي هذه الأحاديث اعتراف هؤلاء السائلين من اليهود أنّ تلك المسائل التي سألوه عنها لا يعلمها إلا نبي، وقد أخبرهم بما سألوه، وصدّقوه في جميع ذلك، فاندفع بذلك شكّ كلّ حاسد، وبطل عنده ريب كلّ ملحد.))[(٦)]

ومنها ــ كما يذكره الشوكاني ــ ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث حذيفة أنّه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً، ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وأنّه

---

(١) سورة الفتح، آية ٢٧ . (٢) ارشاد الثقات، الشوكاني (ص ٥٠، ٥١).

(٣) انظر المصدر السابق (ص ٤٤ ــ ٤٧ وأيضاً ٥٠ ــ ٥٧).

(٤) الزيادة والزائدة شيء واحد وهو طرف الكبد وهو أطيبها. (انظر شرح النووي لمسلم ٣/٢٢٧).

(٥) أخرجه البخاري في عدّة مواضع انظر مواضع وروده في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذرّيته. (الفتح ٦/٤١٧، ٤١٨ برقم ٣٣٢٩) ومسلم في كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة الخ. (١/٢٥٢ برقم ٣١٥).

(٦) ارشاد الثقات، الشوكاني (ص ٤٧).

ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه .[1] وناهيك بهذا ، فإن الإخبار بجميع الحوادث المستقبلة إلى قيام الساعة أمر عظيم .

وقد كان حذيفة راوي هذا الحديث مرجعاً للصحابة في معرفة أحوال الفتنة ، ومعرفة أهل النفاق ، وتمييز أهل الحق من أهل الباطل ، لما حفظ في هذا المقام الذي قامه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك سؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الفتن فقال : إن بينك وبينها باباً ، فقال : هل يُفتح أو يُكسر ؟ فقال : بل يُكسر ، فعرف عمر أنه الباب ، وأنه يُقتل ، كما أخبر حذيفة من سأله عن ذلك : هل علم عمر ذلك ؟ فقال : نعم كما يعلم أن دون غد الليلة ، فإني حدثته بحديث ليس بالأغاليط ، وهذا ثابت في الصحيح .[2]

ومن ذلك ما ثبت في البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال لعدي بن حاتم : (( لئن طالت لك حياة لتُفتحن كنوز كسرى . فقال عدي : كسرى بن هرمز ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : كسرى بن هرمز ))[3] وقد كان هذا كما أخبر به صلى الله عليه وسلم ، ففتح المسلمون مملكة كسرى بن هرمز ، وأخذوا كنوزه ، واستولوا على بلاده ، وضربوا على رعيته الخراج والجزية . قال عدي : وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز .[4]

وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي فيها إخباره صلى الله عليه وسلم بالأمور الغيبية التي وقعت كما أخبر . وقد تكفلت بذكرها كتب الحديث والسير .

<u>بعض معجزات النبي صلى الله عليه وسلم</u>

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ :

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب وكان أمر الله قدراً مقدوراً . ( الفتح ٥٠٣/١١ برقم ٦٦٠٤ ) ، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبي صلى الله عليه وسلم فيما يكون إلى قيام الساعة ( ٢٢١٧/٤ برقم ٢٨٩١ مكرر ) .

(٢) أخرجه البخاري في عدة مواضع في صحيحه ، انظر كتاب مواقيت الصلاة ، باب الصلاة كفارة ( الفتح ١١/٢ برقم ٥٢٥ ) ، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الفتن التي تموج كموج البحر . ( ٢٢١٨/٤ برقم ١٤٤ ) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام . ( الفتح ٧٠٦/٦ برقم ٣٥٩٥ ) من حديث طويل . ومسلم في كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل الخ . ( ٢٢٣٦/٤ ، ٢٢٣٧ برقم ٢٩١٨ ، ٢٩١٩ ) .

(٤) إرشاد الثقات ، الشوكاني ( ص ٥٢ ، ٥٣ ) .

(( ومن دلائل نبوّته وبراهين رسالته ما وقع من الآيات البيّنات والبراهين المعجزات .

فمن ذلك :

١ ـ انشقاق القمر

وقد نطق بذلك الكتاب العزيز ، قال الله عزّ وجلّ : (( اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ))(١)

يقول الشوكاني في تفسيره : (( والمراد : الانشقاق الواقع في أيّام النبوّة معجزة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف ))(٢) .

وأورد ـ رحمه الله ـ ما ثبت من الأحاديث(٣) في ذلك ، منها :

ما في الصحيحين عن أنس ( رضي الله عنه ) : (( أنّ أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرّتين ))(٤)

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ( رضي الله عنهما ) قال : (( انشقّ القمر على زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ))(٥)

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر ( رضي الله عنهما ) في قوله تعالى : ( اقتربت الساعة وانشقّ القمر ) قال : (( قد كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشقّ القمر فلقتين(٦) فَلْقَةٌ من دون الجبل ، وفلقة من خلف الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهمّ اشهد . ))(٧)

وقد شاهد هذه المعجزة الناس في أنحاء الجزيرة العربية ، فإنّ كفار أهل مكة لم يصدقوا ، وقالوا : هذا سحر ابن كَبْشة(٨) فانتظروا ما يأتيكم به السُّفّار ، فإنّ محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلّهم ، فجاء السُّفّار ، وأخبروا أنّهم

---

(١) سورة القمر : آية ١، ٢ . (٢) فتح القدير : الشوكاني (٥/١٢٠) .

(٣) انظر إرشاد الثقات : الشوكاني (ص ٥٧، ٥٨) وفتح القدير : الشوكاني (٥/١٢٣، ١٢٤) .

(٤) أخرجه البخاري في عدة مواضع انظر كتاب المناقب باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم انشقاق القمر ( الفتح ٦/٧٣٠ برقم ٣٦٣٧) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب انشقاق القمر (٤/٢١٥٩ برقم ٢٨٠٢) .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب سؤال المشركين الخ . ( الفتح ٦/٧٣٠ برقم ٣٦٣٨) وأخرجه أيضا برقم (٣٨٧٠، ٤٨٦٦) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين باب انشقاق القمر . (٤/٢١٥٩ برقم ٢٨٠٣) .

(٦) الفلق بالسكون : الشقّ . ( النهاية لابن الأثير ٣/٤٧١ مادة : فلق)

(٧) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين باب انشقاق القمر (٤/٢١٥٩ برقم ٢٨٠١) .

(٨) يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان المشركون ينسبون النبي صلى الله عليه وسلم

====

قد رأوه .(١)

## ٢ ـ الاسراء والمعراج

أي الاسراء به صلى الله عليه وسلم والعروج من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، كما قال عنه سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: (( سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ))(٢) ثم الى السموات العلا، حيث رأى من آيات ربّه الكبرى، والى سدرة المنتهى، حيث كلّمه ربّه وقرّبه، كما أخبر عنه سبحانه في قوله: (( أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ))(٣)

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ: (( ومن دلائل نبوته صلى الله عليه وآله وسلم معوده ليلة المعراج الى ما فوق السموات، وقد نطق بهذا الكتاب العزيز، وتواترت به الأحاديث تواترا لا يشك من له أدنى إلمام بعلم السنة(٤)، ولا ينكر ذلك الا متزندق، وليس بيده الا مجرّد الاستبعاد، وليس ذلك مما تدفع به الأدلّة، ويبطل به الضروريات، والا لكان مجرّد انكار وقوع الشيء المبرهن على وقوعه كافيا في دفعه، وذلك خلاف العقل والنقل .))(٥)

وذهب ـ رحمه الله ـ مذهب جمهور أهل السنة في أنّ الاسراء والمعراج كانا ببدنه وروحه معا، ويقظة لا مناما(٦) لأنّ بذلك تتحقّق له هذه المعجزة العظيمة .

قال ـ بعد أن أورد الأقوال في الموضوع ـ:

(( والذى دلّت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب اليه معظم السلف والخلف

---

==== الى أبي كبشة وهو رجل من خزاعة خالف قريشا في عبادة الأوثان، وعبد الشعرى العبور، فلما خالفهم النبي صلى الله عليه وسلم في عبادة الأوثان شبّهوه به . وقيل غير ذلك . ( انظر النهاية لابن الأثير ١٤٤/٤ مادة : كبش ) .

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٦٦/٢) من عبد الله بن مسعود، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (١٢١/٣) .

(٢) سورة الاسراء : آية ١ . (٣) سورة النجم : آية ١٢ ـ ١٨ .

(٤) انظر مرويات الاسراء والمعراج في صحيح البخاري ومسلم وكتب السنن والصحاح والمسانيد وفي تفسير الطبري (٢/١٥ـ١٦)، وتفسير ابن كثير (٢/٣ـ١٦) بطرقها المختلفة .

(٥) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٥٨) .

(٦) انظر على سبيل المثال: تفسير الطبري (١٦/١٥، ١٧)، والشريعة للآجري (ص ٤٩٠، ٤٩١)، والحجة في بيان المحجة لأبي القاسم اسماعيل الأصبهاني (٥١١/١) تحقيق/د : محمد بن ====

من أنّ الاسراء بجسده وروحه يقظة الى بيت المقدس، ثم الى السماء، ولا حاجة الى التأويل وصرف هذا النظم القرآني وما يماثله من ألفاظ الأحاديث الى ما يخالف الحقيقة، ولا مقتضى لذلك الا مجرّد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنّه لا يستحيل عليه سبحانه شيء ، ولو كان ذلك مجرّد رؤيا كما يقوله من زعم أنّ الاسراء بالروح فقط، وأنّ رؤيا الأنبياء حقّ، لم يقع التكذيب من الكفرة للنبي صلى الله عليه وسلم عند اخباره لهم بذلك حتى ارتدّ من ارتدّ ممن لم يشرح بالايمان صدرا ، فانّ الانسان قد يرى في نومه ما هو مستبعد ، بل ما هو محال، ولا ينكر ذلك أحد .))[(١)]

فلو أنّ رجلا قال: إنّه قد ذهب الى السماء هذه الليلة. فلا يناقشه أحد، لأنّ المسألة رؤية ، فاذا كان موقف الكفار من النبي صلى الله عليه وسلم ليقولوا له : أتدّعي أنّك أتيتها في ليلة ونحن نضرب اليها أكبادا لا بل شهرا ؟ ليؤكّد أنّهم فهموا أنّها لم تكن لا مناما ولا روحا، وانّما كانت يقظة بروحه وجسده معا، والّا لما صدر هذا الاعتراض .

" ثم قولهم لأبي بكر رضي الله عنه : هذا صاحبك يزعم أنّه قد أسري بها لليلة الى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته ؟ فقال أبوبكر رضي الله عنه : أوقال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال أبوبكر رضي الله عنه : فأنا أشهد ان قال ذاك لقد صدق، قالوا : تصدقه بأنّه جاء الشام في ليلة واحدة ورجع قبل أن يصبح ؟ فقال أبوبكر رضي الله عنه : نعم ،أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء غدوة وعشية ....

كلّ هذا دليل - لمن عقل وميز- على أنّ الله عزّوجلّ خصّ نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأنّه أسرى بجسده وعقله ، وشاهد جميع ما رأى في السموات، ودخوله الجنة ، وجميع ما رأى من آيات ربّه عزّوجلّ، وفرض عليه الصلاة ، كلّ ذلك لا يقال: منام ،بل بجسده وعقله ، وفضيلة خصّه الله عزّوجلّ بها، فمن زعم أنّه منام فقد أخطأ في قوله وقصّر في حقّ نبيّه صلى الله عليه وسلم ،

---

==== ربيع بن هادي المدخلي، والشفا للقاضي عياض (٢٤٦/١) تحقيق/علي محمد البجاوي، وتفسير ابن كثير (٢٥/٣) وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٢٤٧). قال القاضي عياض:وهو قول ابن عباس،وجابر،وأنس،وحذيفة ،وعمر ،وأبي هريرة ،ومالك بن صعصعة ،وأبي حبة البدري،وابن مسعود ،والضحاك،وسعيد بن جبير ،وقتادة ،وابن المسيّب، وابن شهاب،وابن زيد ،والحسن،وابراهيم ،ومسروق،ومجاهد ،وعكرمة ،وابن جريج ، ..... وهو قول الطبري،وابن حنبل،وجماعة عظيمة من المسلمين، وقول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

(١) فتح القدير : الشوكاني (٢٠٧/٣) .

وردّا لقرآن والسنة ، وتعرّض لعظيم ." (١)

وقد استشهد الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ بما في التوراة والانجيل ردّا على المتزندقين المنكرين لهذه المعجزة . قال:

(( وقد رفع الله سبحانه الى السماء ادريس عليه السلام ، وثبت في السفر الثاني من أسفار الملوك في التوراة أنّ ايليا رُفِع الى السماء (٢) وبعض تلامذته ينظر اليه . وشاع ذلك، ولم يخالف فيه أحد من اليهود ، وايليا هذا هو المسمّى في القرآن الياس .

وهكذا ثبت في الأناجيل كلّها أنّ الله سبحانه رفع عيسى عليه السلام بعد الصلب في زعمهم ، كما هو محرّر هنالك، ولا يخالف في ذلك أحد من النصارى، وقد نطق القرآن الكريم بأنّه رفعه اليه ، ولم يصلب، والى ذلك ذهب بعض طوائف النصارى . )) (٣)

واذا ثبت رفع عيسى عليه السلام فلا غرابة ولا امتناع عقلا في صعود النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، فانّ كلّا منهما معجزة من المعجزات التي أعطاها الله سبحانه لرسله وأنبيائه ، والذي رفعهما هو الله تعالى، والله على كلّ شيئ قدير .

٢ ـ ومن دلائل نبوّته صلى الله عليه وسلم :

ما يذكره الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه : ارشاد الثقات. (٤) فمن ذلك:

أ ) ما في الصحيحين وغيرهما عن أنس ( رضي الله عنه ) :(( أنّ النبي صلى الله عليه وسلم دعا بماء،فأتي بقدح رحراح (٥)، فجعل القوم يتوضئون )) وفي لفظ لهما:(( فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه صلى الله عليه وسلم )) وفي لفظ لهما :((فتوضأ الناس وشربوا)) وفي لفظ البخاري:(( فشربنا وتوضّأنا، فقلت: كم كنتم ؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا، كنّا خمس عشرة مائة )) (٦) وللحديث طرق وألفاظ في الصحيحين وغيرهما، وحاصلها أنّهم شربوا وتوضّأوا وهم هذا العدد المذكور .

---

(١) انظر الشريعة : الآجري (ص ٤٩٠،٤٩١) .
(٢) انظر العهد القديم ،الملوك الثاني،الاصحاح الثاني،فقرة ( ١١،١ ) .
(٣) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٥٨) . (٤) انظر من صفحة ( ٥٧ ـ ٦٨ ) .
(٥) قال ابن الأثير: الرحراح: القريب القعر مع سعة فيه . ( النهاية ٢٠٨/٢ مادة :رحرح )
(٦) أخرجه البخاري في عدّة مواضع في صحيحه بألفاظ مختلفة ،انظر كتاب الوضوء ،باب التماس الوضوء اذا حانت الصلاة . ( الفتح ٣٢٥/١ برقم ١٦٩ ) ،ومسلم في كتاب الفضائل ،باب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم . (١٧٨٣/٤ برقم ٢٢٧٩) .

ب ) ما في الصحيحين وغيرهما من حديث جابر ( رضي الله عنه ) : (( أنّ شاتها التي ذبحها لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع صاع من شعير قد أكل منها من كان يحفر الخندق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ألف، وذلك لأنّ رسول الله بصق في البُرْمَة [(١)] وبصق في العجين، وبارك في ذلك . قال جابر : فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه ، وانحرفوا ، وإنّ بُرمَتَنا لتَغِطُّ كما هي [(٢)] ، وإنّ عجينَنا ليُخْبَزُ كما هو . )) [(٣)]

ج ) ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جابر ( رضي الله عنه ) قال : (( كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع من جذوع النخل، فلمّا صُنِع المنبر وقام عليه سمعوا لذلك الجذع صوتا كصوت العِشَار [(٤)] حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت . )) [(٥)]

د ) ما في الصحيحين وغيرهما من حديث جابر بن سمرة ( رضي الله عنه ) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (( إنّي لأعرف حجرا بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبْعَث، إنّي لأعرفه الآن . )) [(٦)]

هـ ) ومن دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ما جاء في القرآن الكريم من تأييد الله سبحانه له بالملائكة ، كقوله عزّ وجلّ : (( أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ )) [(٧)] ، وقوله : (( أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ، بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ )) [(٨)] ، وقوله عزّ وجلّ : (( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا )) [(٩)] ونحو ذلك من الآيات .

---

(١) قال ابن الأثير : البُرْمة : القِدْر مطلقا، وجمعها بِرَام ، وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن . ( النهاية ١٢١/١ مادة برم ) .

(٢) أي تغلي ويسمع غطيطها . ( النهاية لابن الأثير ٣٧٢/٣ مادة غطط )

(٣) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ( الفتح ٤٥٧/٧ برقم ٤١٠٢ ) ، ومسلم في كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك ... الخ ( ١٦١٠/٣، ١٦١١ برقم ٢٠٣٩ ) واللفظ له ، مع اختصار من جهة الشوكاني .

(٤) العِشَار بالكسر جمع عُشَرَاء كنُفَسَاء ، وهي الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر . ( مختار الصحاح ١٨٢ مادة : عشر ) .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر ( الفتح ٤٦١/٢ برقم ٩١٨ ) وفي كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ( الفتح ٦٦٦/٦ برقم ٣٥٨٥ ) ، والترمذي في كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ( ٥٥٤/٥ برقم ٣٦٢٧ ) عن أنس بن مالك، ولم أجد هذا الحديث في صحيح مسلم كما أشار إليه الشوكاني .

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم ... الخ ( ١٧٨٢/٤ برقم ٢٢٧٧ ) ، والترمذي في كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ( ٥٥٣/٥ برقم ٣٦٢٤ ) ولم أجد هذا الحديث في صحيح البخاري كما أشار إليه الشوكاني .

(٧) سورة الأنفال : آية ٩ . (٨) سورة آل عمران : آية ١٢٤، ١٢٥ . (٩) سورة الأحزاب : آية ٩ .

وقد شوهدت الملائكة في بعض حروبه صلى الله عليه وسلم . ففي الصحيحين عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: (( بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، اذ سمع ضربة سوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُوم [1]، فنظر الى المشرك أمامه فخرّ مستلقيا، فنظر اليه، فاذا قد خطم أنفه [2] وشق وجهه كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة ))[3] وذلك يوم بدر .

وغير ذلك من المعجزات الكثيرة الدالة على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وصدق ما أخبر به .

قال الشوكاني - رحمه الله تعالى - بعد سرد هذه الروايات :

(( واعلم - أرشدني الله واياك - أن دلائل نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لا يحيط بها القلم وان طال شوطه، وقد صنف أهل العلم في ذلك مؤلفات مبسوطة مطولة كما عرفناك سابقا ... وأن دلائل نبوة سائر الأنبياء قد اشتمل على كثير منها القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكذلك التوراة والزبور وسائر كتب أنبياء بني اسرائيل والانجيل، وانما اقتصرنا على ذكر بعض دلائل نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم لأن ثبوت نبوته تستلزم ثبوت نبوة جميع الأنبياء عليهم السلام، لأنه صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بأنهم أنبياء الله سبحانه، كما اشتمل على ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة، فثبوت نبوته يستلزم ثبوت نبوة سائر الأنبياء . ))[4]

## المبحث التاسع : الايمان بالملائكة والكتب المنزّلة

جعلت هذا المبحث والمبحث الذي بعده ضمن الكلام على النبوات لأن لهما صلة قوية به، اذ ان من لوازم الايمان بالأنبياء الايمان بجميع ما أخبروا به، ومن ذلك الايمان

---

(١) قال ابن الأثير: جاء في التفسير أنه اسم فرس لجبريل عليه السلام، أراد: أَقْدِمْ يا حَيْزُوم، فحذف حرف النداء، والياء فيه زائدة . ( النهاية ٤٦٧/١ مادة : حيزم ) .

(٢) في نص مسلم : خطم . بالخاء المعجمة، والخطم : الأثر على الأنف . ( انظر النهاية ٢/٥٠ مادة : خطم ) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الامداد بالملائكة في غزوة بدر . (١٣٨٤/٣، ١٣٨٥ برقم ١٧٦٣) ولم أجد هذا الحديث في صحيح البخاري كما أشار اليه الشوكاني .

(٤) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ٦٨) .

بالملائكة، والايمان بالكتب المنزّلة، وكذلك الايمان بوجود الجنّ والشياطين .

وحيث انّي لم أجد للشوكاني في الموضوعين الأوّلين الآ كلاماً قليلاً جمعتهما في مبحث واحد .

الايمان بالملائكة

إنّ الايمان بالملائكة ركن من أركان عقيدة المؤمن، بحيث لا يتمّ إيمانه إلّا اذا آمن بالملائكة .

قال تعالى: (( لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ))[1]، وقال: (( ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ))[2] .

فذكر سبحانه في الآيتين أركان الايمان، وذكر من بينها الايمان بالملائكة .

كما ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث عمر المعروف بحديث جبريل[3] أركان الايمان الستّة، وذكر من بينها الايمان بالملائكة .

والملائكة خلق عظيم، وعددهم كثير لا يحصيهم إلّا الله عزّ وجلّ، خلقهم من نور، وطبعهم على طاعة الله، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ويسبّحون الليل والنهار ولا يفترون .

قال تعالى: (( فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ))[4]

وصفات الملائكة كما وردت في الكتاب والسنة كثيرة، وقد أشار الشوكاني – رحمه الله تعالى – الى بعضها، كما أشار الى بعض أعمالهم .

فمن صفات الملائكة زيادة على ما أسلفناه :

أنّهم لا يعصون الله فيما أمرهم، ولا يتراخون عن انجاز أمره سبحانه[5] . كما قال تعالى عنهم: (( لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ))[6] قال الشوكاني: (( أي يؤدّونه في وقته من غير تراخ، لا يؤخّرونه عنه، ولا يقدّمونه . ))[7]

---

(١) سورة البقرة : آية ١٧٧ . (٢) سورة البقرة : آية ٢٨٥ .
(٣) تقدّم تخريجه في صفحة (١٣٣) . (٤) سورة فصّلت : آية ٣٨ .
(٥) قطر الولي على حديث الولي : الشوكاني (ص ٤٩٣) .
(٦) سورة التحريم : آية ٦ . (٧) فتح القدير : الشوكاني (٢٥٤/٥) .

وأنّهم عباد مكرمون . كما وصفهم الله سبحانه في قوله :(( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ))[1] ،وقوله :(( بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ))[2]

قال الشوكاني في تفسير الآية :(( أي بل هم عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم ، مقرّبون عنده ، ولا يقولون شيئا حتى يقوله ، أو يأمرهم به ، وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم . وهم بأمره يعملون . : أي هم العاملون بما يأمرهم الله به ، التابعون له ، المطيعون لربّهم .))[3]

وإذا كانوا موصوفين بهذه الصفات الكريمة فهل هم أفضل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن صالحي البشر . ؟

اختلف الناس في هذه المسألة اختلافا كثيرا ، وأطالوا الكلام فيها في غير طائل ، وقد وصف الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ هذه المسألة بأنّها ليست مما كلّفنا الله بعلمه ، فالكلام فيها لا يعنينا.[4] وقال : (( وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم ،ولا يترتّب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية ، بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .))[5]

وردّ ـ رحمه الله ـ على استدلال الفريقين[6] ببعض الآيات القرآنية ، كاستدلالهم بقوله تعالى :(( وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ))[7] قال :

(( وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلّق به فائدة ، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء ، أو الأنبياء على الملائكة ، ومن جملة ما تمسّك به مفضّلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية ، ولا دلالة لها على المطلوب، لما عرفت من إجمال الكثير وعدم تبيينه ، والتعصّب في هذه المسألة هو الذي حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا

---

(١) سورة الذاريات : آية ٢٤ . (٢) سورة الأنبياء : آية ٢٦، ٢٧ .
(٣) انظر فتح القدير : الشوكاني (٤٠٤/٣، ٤٠٥) .
(٤) انظر المصدر السابق (١٩٥/٢) . (٥) المصدر السابق (١١٨/٢) وانظر أيضا (٤٩٥/٢)
(٦) أي مفضّلو الأنبياء على الملائكة وهم جمهور أهل السنة ،ومفضّلو الملائكة على الأنبياء وهم المعتزلة وبعض الأشاعرة ،كأبي إسحاق الاسفراييني،وأبي بكر الباقلاني،والحاكم ، والحليمي،وفخر الدين في المعالم ،وأبي شامة . حكى ذلك السفاريني في لوامع الأنوار البهية (٤٠٠/٢) ،وانظر أيضا شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٣٣٨) ،وشرح كتاب الفقه الأكبر للملا علي القاري (ص ١٧٧) .
(٧) سورة الإسراء : آية ٧٠ .

بالجميع حتى يتمّ لنا التفضيل على الملائكة ، وتمسّك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء ، ولا دلالة بها على ذلك ، فإنّه لم يقم دليل على أنّ الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير ، ولو سلّمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنّه أفضل من بني آدم ، بل غاية ما فيه أنّه لم يكن الانسان مفضّلا عليه ، فيحتمل أن يكون مساويا للانسان ، ويحتمل أن يكون أفضل منه ، ومع الاحتمال لا يتمّ الاستدلال .))[1]

كما ردّ - رحمه الله تعالى - على احتجاج الزمخشري صاحب الكشاف ببعض الآيات على ما ذهب اليه في عدّة مواضع .[2] وقال :(( وعلى كلّ حال فما أردأ الاشتغال بهذه المسألة ، وما أقلّ فائدتها ، وما أبعدها عن أن تكون مركزا من المراكز الشرعية الدينية وجسرا من الجسور .))[3]

قلت : وقد ذهب الشوكاني في رأيه هذا مذهب التوقّف عن القول بالتفضيل ، وهو قول الامام أبي حنيفة - رضي الله عنه - كما حكى عنه شارح العقيدة الطحاوية ورجّحه .[4]

ولشيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - رأي جيد في المسألة ، وهو أنّ الأنبياء وصالحي البشر أفضل من الملائكة باعتبار كمال النهاية ، وذلك انما يكون اذا دخلوا دار القرار ، ونالوا الزلفى ، وسكنوا الدرجات العلا فلا يظهر فضلهم في ابتداء أحوالهم ، وانّما يظهر فضلهم عند كمال أحوالهم ، بخلاف الملك الذي تشابه أوّل أمره وآخره .[5]

وأرى أنّ ما قاله الشوكاني صريح بأنّه لا يترتّب على هذه المسألة فائدة ، بل هي من فضول القول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا . والله أعلم .

وقد وكّلهم الله بوظائف عديدة وأعمال مختلفة ، وجعلهم سفراء بينه وبين خلقه ، منهم جبريل عليه السلام وهو أفضلهم ، لأنّه أمين الوحي . قال تعالى :(( نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ))[6] قال الشوكاني :(( والروح الأمين : جبريل عليه السلام .))[7] وهو قول جمهور المفسّرين .[8]

---

(١) فتح القدير : الشوكاني (٢٤٤/٣) . (٢) انظر المصدر السابق (٥٤٢/١)،(٢٢/٣، ٢٣) .
(٣) المصدر السابق (٥٤٢/١) . (٤) انظر صفحة ٣٣٨ .
(٥) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٦٥/١١) .
(٦) سورة الشعراء : آية ١٩٣، ١٩٤ . (٧) فتح القدير : الشوكاني (١١٤/٤) .
(٨) انظر تفسير الطبري (١١١/١٩) وتفسير البغوي (٣٩٨/٣) وزاد المسير لابن الجوزي (١١٤/٦)، وتفسير القرطبي (١٣٨/١٣) وتفسير ابن كثير (٣٦٠/٣) .

ومنهم الحفظة. قال تعالى: (( وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ))(١) قال الشوكاني: (( والحافظين: الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم، ويكتبونها في الصحف، ووصفهم الله بأنهم كرام لديه، يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد. ))(٢) وقال عزّ وجل: (( لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ))(٣) أي لكلّ من هؤلاء معقّبات، والمعقّبات: المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه، ويكون بدلا منه، وهم الحفظة من الملائكة، والمراد أنّ الحفظة من الملائكة من جميع جانبه.(٤)

فعن علي رضي الله عنه في هذه الآية قال: (( ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن تقع عليه حائط، أو ينزوي في بئر، أو يأكله سبع، أو غرق، أو حرق، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر. ))(٥)

وقد ورد في ذكر الحفظة الموكّلين بالانسان أحاديث كثيرة مذكورة في كتب الحديث.

ومنهم حملة العرش، كما قال تعالى: (( وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ))(٦)

ومنهم خزنة النار، كما قال سبحانه: (( وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ))(٧) يعني ما جعلنا المدبّرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة.(٨)

ومنهم الموكّلون بأعمال شتّى، كقبض الأرواح، وعذاب القبر، والنفخ في الصور يوم القيامة، وخدمة أهل الجنة، وغير ذلك.

وقد اختار الله سبحانه منهم رسلا، كما قال تعالى: (( اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ))(٩) والرسل من الملائكة هم: جبريل، واسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل.(١٠) قال الشوكاني في الآية: ( الله يصطفي من الملائكة رسلا)

---

(١) سورة الانفطار: آية ١٠ – ١٢. (٢) فتح القدير: الشوكاني (٥/٣٩٦).

(٣) سورة الرعد: آية ١١. (٤) فتح القدير: الشوكاني (٣/٦٩).

(٥) قال الشوكاني في تفسيره (٣/٧١): أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ، وأخرج مثله ابن جرير في تفسيره (انظر ١٣/١١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر زاد المسير لابن الجوزي (٤/٣١٢).

(٦) سورة الحاقة: آية ١٧. (٧) سورة المدثر: آية ٣١.

(٨) فتح القدير: الشوكاني (٥/٣٣٠). (٩) سورة الحج: آية ٧٥.

(١٠) فتح القدير: الشوكاني (٤/٣٣٧). وانظر تفسير الطبري (١٧/٢٠٤)، وتفسير البغوي (٣/٢٩٩)، وزاد المسير لابن الجوزي (٥/٤٥٣)، وتفسير القرطبي (١٤/٣١٩).

كجبريل ، واسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل. ( و ) ويصطفي أيضا رسلا ( من الناس ) ، وهم الأنبياء، فيرسل الملك الى النبي، والنبي الى الناس، أويرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته ، أولتحصيل ماينفعكم ، أولانزال العذاب عليهم .))(١)

الايمان بالكتب المنزّلة

ومن أركان الايمان التي لا يصحّ ايمان عبدالّا باستكمالها بالايمان بها كلّها الايمان بالكتب السماويةالتي أنزلها الله عزّوجلّ على أنبيائه ورسله .

وقددلّت آيات كثيرة على أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن على نبينا محمدصلى الله عليه وسلم ، وأنزل الكتب السابقة قبله على من سبقه من الأنبياء والمرسلين .

قال تعالى: (( الٓمٓ ۝ اللهُ لآ إِلٰهَ إِلّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ))(٢)

وقال تعالى: (( يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ))(٣)

هذه الآية كافية في الدلالة على وجوب الايمان بكتب الله المنزّلة عموما وبالقرآن الكريم خاصّة .

قال الشوكاني في تفسيره : "( والكتاب الذي نزّل على رسوله ) :هوالقرآن،( والكتاب الذي أنزل من قبل) : هوكلّ كتاب .(٤)" الذي أنزله الله على رسله وأنبيائه ، خاصّة تلك الكتب التي وردذكرها في القرآن، وهي: الزبورالذي أنزل على داود عليه السلام ،والتوراة الذي أنزل على موسى عليه السلام ، والانجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام .

وهناك كتب أخرى سوى هذه أنزلها الله على أنبياء، لا يعرف أسماء تلك الكتب وعددها الّا الله سبحانه ، ويجب علينا الايمان بها جميعا .

وقدمدح الله سبحانه من آمن بها جميعا وجعل لهم الهداية والفلاح في قوله تعالى: (( وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولٰئِكَ عَلَى هُدًى

---

(١) فتح القدير : الشوكاني (٤٧٠/٣) . (٢) سورة آل عمران : آية ١ – ٤ .
(٣) سورة النساء : آية ١٣٦ . (٤) فتح القدير : الشوكاني (٥٢٤/١) .

مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ))[1]

قال الشوكاني في تفسيره: (( والمراد بما أنزل الى النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، وما أنزل من قبله هو الكتب السالفة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: أي يصدّقونك بما جئت به من الله، وما جاءبه مَن قبلك من المرسلين، لا يفرّقون بينهم، ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربّهم. ))[2]

واتّفقت الأمة على أنّ القرآن الكريم أعظم الكتب السماوية كلّها، وقد تضمّن من العلوم، والحكم، والمواعظ، والقصص، والترغيب، والترهيب، وذكر أخبار من سبق، وأخبار ما يأتي من البعث والنشور، والجنة والنار، ما لم يشتمل عليه كتاب غيره.

قال تعالى: (( وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ))[3]

قال الشوكاني: (( أي بيانا له، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: (( مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ))[4] أي ما تركنا في القرآن من شيئ من أمر الدين إمّا تفصيلا أو إجمالا. ))[5]

وخصائص القرآن الكريم كثيرة، وقد أشار اليها الشوكاني - رحمه الله - في تفسيره أذكر منها:

١ - إنّه آخر ما أنزله الله من الكتب السماوية، وذلك لختم النبوّة بنبوّة صاحبه المنزّل عليه صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: (( مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ))[6]. وإنّ ما يحمله من التشريع الإلهي عامّ لكلّ الناس في أيّ مكان كانوا وفي أيّ زمان وجدوا، وذلك لعموم رسالة صاحبه المنزّل عليه صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: (( تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ))[7] وقال: (( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ))[8] بخلاف الكتب السابقة فانّها كانت خاصّة في المكان والزمان، ولا عموم فيها.[9]

---

(١) سورة البقرة : آية ٤، ٥ . (٢) فتح القدير : الشوكاني (٣٦/١، ٣٧)، وانظر تفسير الطبري (١٠٥/١)
(٣) سورة النحل : آية ٨٩ .
(٤) سورة الأنعام : آية ٣٨ . (٥) فتح القدير : الشوكاني (١١٤/٢) وانظر أيضا (١٨٧/٣) .
(٦) سورة الأحزاب : آية ٤٠ . (٧) سورة الفرقان : آية ١ .
(٨) سورة الأعراف : آية ١٥٨ . (٩) انظر فتح القدير : الشوكاني (٢٥٤/٢) .

٢ ـ إنّه مصدّق لما قبله من كتب الله، كالتوراة والانجيل والزبور، وموافق له في الدعوة الى الله والى توحيده ونفي الشرك بجميع أقسامه، وان خالفه في بعض الأحكام.[1]
قال تعالى: (( وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ))[2].

٣ ـ إنّه خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى، لما اشتمل عليه من الاعجاز الذي تتقاصر دونه قوة المخلوقين.[3] كما تقدّم بيانه.[4]

٤ ـ إنّه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها، وذهاب الريب، وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه، كما أنّه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوّذ، ونحو ذلك.

وانّه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا، ولما في تلاوته وتدبّره من الأجر العظيم الذي يكون سببا لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه.[5] قال تعالى: (( وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ))[6]

٥ ـ إنّه ناسخ لكلّ الكتب السماوية السابقة، كما أنّ شريعة الاسلام نسخت كل الشرائع، فلا شرعة ولا منهاج الا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.[7]

٦ ـ إنّ الله سبحانه وتعالى تكفّل بحفظه من أيدي التحريف والتبديل. قال تعالى: (( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ))[8] أي عن كلّ ما لا يليق به من تصحيف، وتحريف، وزيادة، ونقص، ونحو ذلك.[9] في حين أنّه سبحانه قد وكل حفظ الكتب السابقة الى أصحابها. قال تعالى: (( بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ))[10] ولذلك فقد لحقها كثير من التحريف والتبديل، بل الموجود منها اليوم يخالف تماما ما أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام، لأنّها كتبت بواسطة بعض الأتباع ونسبت اليه.[11] وسبب ذلك أنّ تلك الكتب أنزلت الى أمم معيّنة ولفترة محدودة، فأدّت غرضها، وانتهت مهمّتها، أما القرآن العظيم فقد تكفّل الله بحفظه، لأنّها الرسالة الخالدة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (١٣٩/٢) وانظر أيضا ارشاد الثقات له (ص ٨).
(٢) سورة الأنعام: آية ٩٢.
(٣) انظر فتح القدير: الشوكاني (٤٨٧/٢).
(٤) انظر صفحة (٥٢٨ ـ ٥٣٠).
(٥) انظر المصدر السابق (٢٥٣/٣).
(٦) سورة الاسراء: آية ٨٢.
(٧) انظر فتح القدير: الشوكاني (٤٨/٢).
(٨) سورة الحجر: آية ٩.
(٩) فتح القدير: الشوكاني (١٢٢/٣).
(١٠) سورة المائدة: آية ٤٤.
(١١) انظر فتح القدير: الشوكاني (٥٤١/١).

المبحث العاشر : الايمان بوجود الجنّ والشياطين

إنّ الايمان بوجود الجنّ والشياطين جزء من عقيدة المؤمن، لما ثبت في ذلك في الكتاب والسنة واجماع الأمّة ، ولم ينكر ذلك الا شرذمة قليلة من بعض طوائف المسلمين ممن قلّ علمه وضعف عقله .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله – : (( لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجنّ، ولا في أنّ الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم اليهم ، وجمهور طوائف الكفار على اثبات الجنّ، أمّا أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرّون بهم كاقرار المسلمين، وان وجد فيهم من ينكر ذلك، وكما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك كما يوجد في طوائف المسلمين كالجهمية والمعتزلة من ينكر ذلك، وان كان جمهور الطائفة وأئمّتها مقرّين بذلك .

وهذا لأنّ وجود الجنّ تواترت به أخبار الأنبياء تواترا معلوما بالاضطرار ، ومعلوم بالاضطرار أنّهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة ، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضا قائمة بالانسان أو غيره كما يزعمه بعض الملاحدة . ))[1]

وقد اعتنى الشوكاني – رحمه الله تعالى – بهذا الموضوع، وأفرده بالبحث في رسالة صغيرة[2] أورد فيها الأدلّة الدالّة على وجود الجنّ والشياطين، وردّ على المنكرين على وجودهما من بعض المعتزلة وأمثالهم .

قال رحمه الله في مقدّمتها : (( واعلم أنّه لم يتقدّم الى انكار ذلك ( أي وجود الجنّ ) من الصحابة والتابعين وعلماء الاسلام أحد قط، وانّما هي مقالة مرويّة عن جماعة من الفلاسفة وجمهور الزنادقة ، وهؤلاء لا نتكلّم معهم في هذا المقام ، فانّهم لا يتمسّكون بشيء من الحجج القرآنية والأحاديث النبوية ، ولا يلتفتون الى شيء من ذلك، وقد فرغ منهم الشيطان وأخرجهم من زمرة الاسلام ، ولكنّا نتكلّم ههنا مع بعض العاملين بذلك من المعتزلة ، فقد نقل ذلك جماعة عن جمهورهم ، ونقله آخرون عن البعض منهم ، وهذه الطائفة من أهل الاسلام ، ومن المتمسّكين بشرائعه ، وان خالفوا في بعض المسائل الأصولية

---

(١) مجموع فتاوى : ابن تيمية (١٩/١٠ وانظر أيضا ١٣، ٣٢).

(٢) وهي ما زالت مخطوطة بعنوان: بحث في وجود الجنّ . وتوجد في ضمن مجموع (٥٩) مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، من ورقة (٢٣١ – ٢٣٣) بخط الامام الشوكاني، بدون تاريخ .

خلافاً يدفعه النصوص القرآنية ومتواتر السنة ، فلم يكن ذلك منهم كيداً للدين، ولا دفعاً في وجه شريعة المسلمين، بل تمسّكوا بشبه أشبهت عليهم قالوا بها وقصّروا عن العلم بغيرها مما يدفعها ويرفع لبسها ، ولكن الشأن في انكار من أنكر منهم وجود الجنّ، فانّه لا يكون الاّ أحد رجلين، إمّا معاند لا يتقيّد بالكتاب والسنة ، وهذا لا ينبغي الكلام معه ، وإمّا جاهل جهلاً منكراً لا يعرف معه كتاب الله سبحانه ، بل لا يعرف معه سورة الرحمن وسورة الجنّ، بل لا يعرف ورود القرآن بالاستعاذة من الشيطان . ومثل هذا وان كان معذوراً مما هو فيه من الجهل، لكنّه غير معذور في التكلّم بما ليس من شأنه ، وأجهل منه من حكى عنه هذه المقالة المردودة ودوّنها في كتب العلم ، ونصب له خلافاً في هذه المسألة التي هي معلومة للنساء والصبيان فضلاً عن الرجال، فضلاً عن أهل العلم . وليس بأيدي هؤلاء الاّ مجرّد الاستبعاد والرجوع الى تخيّلات مختلة وعلل معتلّة مع قطع النظر عن هذه الشريعة المحمّدية ، بل مع قطع النظر عن الشرائع المتقدّمة على هذه الشريعة ، فانّها متّفقة على وجودهم ، وكذلك أهلها متّفقون على ذلك مقرّون به كاقرار المسلمين .))[1]

ثمّ أورد ـ رحمه الله ـ أدلّة من الكتاب والسنة وأخبار الثقات، وهي كثيرة لا مجال هنا لبسطها، وسأذكر شيئاً منها .

فمن الكتاب قوله تعالى في خلق الانس والجان:(( خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ، وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ))[2]،وفي بيان العلة في خلقهما :(( وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ))[3]..

وقوله تعالى في الاخبار عن استماع الجنّ لقراءة النبي صلى الله عليه وسلم وما دار بينهم من أحاديث :(( قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ))[4]

وقوله تعالى في الاخبار عن ابليس أبي الجنّ والشياطين،وفسقه عن أمره ،وفي النهي عن اتّخاذه وذرّيته أولياء:(( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ))[5]

---

(١) بحث في وجود الجنّ : الشوكاني ( ورقة ١ ) ( مخطوط ) .
(٢) سورة الرحمن : آية ١٤، ١٥ . (٣) سورة الذاريات : آية ٥٦ .
(٤) سورة الجنّ : آية ١، ٢ . (٥) سورة الكهف : آية ٥٠ .

وقوله سبحانه في الاخبار بأنّ شياطين الجنّ وشياطين الانس يوحي بعضهم الى بعض الباطل والكذب، لتضليل الناس، واغوائهم بالفتن والشرور: (( وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ))(١) وغير ذلك من الآيات.

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الاخبار عن القرين من الجنّ والذي وكّل بكلّ انسان: (( ما منكم من أحد الا وقد وُكِّلَ به قرينُه من الجنّ )) قالوا: وايّاك؟ يا رسول الله، قال: وايّاي، الا أنّ الله أعانني عليه فأسلمُ(٢)، فلا يأمرني الا بخير.))(٣)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الاخبار عن دخول الشيطان مع الانسان بيته، وتناوله من طعامه وشرابه: (( اذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، واذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، واذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء.))(٤)

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الاخبار عن رؤيته للجنّ وعن غذائهم: (( أتاني داعي الجنّ، فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآن.)) قال ( أي الراوي وهو عبد الله بن مسعود ): فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال ( أي الرسول صلى الله عليه وسلم ): (( لكم كلّ عَظْمٍ ذُكر اسم الله عليه يقع في أيديكم، أوفر ما يكون لحماً، وكلّ بَعَرةٍ علفٌ لدوابّكم )) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (( فلا تستنجوا بهما، فانّهما طعام إخوانكم ))(٥)

---

(١) سورة الأنعام: آية ١١٢.
(٢) برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه: أسلم أنا من شرّه وفتنته. ومن فتح قال: إنّ القرين أسلم، من الاسلام، وصار مؤمنا لا يأمرني الا بخير. ( شرح النووي لمسلم ١٥٧/١٧ ).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان الخ (٢١٦٧/٤ برقم ٢٨١٤).
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، (١٥٩٨/٣ برقم ٢٠١٨)
(٥) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجنّ (٣٣٢/١ برقم ٤٥٠).

وغيرهذا من الأحاديث الواردة في اثبات وجود الجنّ والشياطين وفي تفصيل أحوالهم.[1]

قال الشوكاني بعد سوق الأحاديث: (( وبعد هذا كله فكثير من عباد الله قد اجتمع بالجنّ، وسمع كلامهم، وسألوه وسألهم، وهذا موجود في كلّ عصر من العصور، قد تتبّعنا من وقع له ذلك من الثقات، فثبت لنا بذلك التواتر المعنوي،[2] بل راقم هذه الأحرف غفر الله له قد سمع كلامهم غير مرّة، وطال بينه وبينهم الخطاب، وبعضهم أخذ بيدي وقبّلها، وكانت كفّه أكبر ما يكون من أيدي الناس.))[3]

هذا ما بيّنه الشوكاني - رحمه الله - من الأدلة المثبتة لوجود الجنّ والشياطين.

وقد ذهب - رحمه الله - مذهب القائلين بأنّ جميع الجنّ ولد ابليس كما أنّ جميع الانس هم ولد آدم، وأنّ الشياطين هم مردة الانس والجنّ.[4] وهذا مذهب الجمهور الذي رجّحه شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - اذ قال: (( والشياطين هم مردة الانس والجنّ، وجميع الجنّ ولد ابليس.))[5]

والجنّ أجناس مختلفة، منهم المؤمن، والكافر، والبرّ، والفاجر، قال تعالى اخبارا منهم: (( وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ))[6] أي جماعات متفرّقة وأصنافا مختلفة.[7]

وهل أرسل الله اليهم رسلا منهم؟

اختلف العلماء في هذا على قولين: قيل: فيهم رسل، لقوله تعالى: (( يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ))[8]، وقيل: الرسل من الانس، والجنّ فيهم النذر. وهذا قول الجمهور من العلماء سلفا وخلفا، وهو الراجح.[9]

ورجّح الشوكاني - رحمه الله تعالى - هذا القول في تفسيره، قال:

---

(١) وقد أورد الشوكاني أكثر من عشرين حديثا في هذا الصدد (انظر بحث في وجود الجنّ (ورقة ١ - ٣) (مخطوط).

(٢) هو الشوكاني نفسه. (٣) المصدر السابق (ورقة ٣).

(٤) انظر المصدر السابق (ورقة ١)، وانظر أيضا فتح القدير (٣٠٣/٥).

(٥) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٧/١٥) وانظر أيضا (٢٣٥/٤).

(٦) سورة الجنّ: آية ١١. (٧) فتح القدير: الشوكاني (٣٠٦/٥).

(٨) سورة الأنعام: آية ١٣٠. (٩) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٢٣٤/٤، و١١/ ٣٠٧)، وآكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجانّ للقاضي بدر الدين الشبلي (ص ٣٤، ٣٥) تعليق عبد الله محمد الصديق، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ١٧٧)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢٢٣/٢).

(( الحق أنّه لم يرسل الله إليهم ( أي الجنّ ) رسلا منهم ، بل الرسل جميعا من الإنس، وإن أشعر قوله : ( ألم يأتكم رسل منكم ) بخلاف هذا ، فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز دالّة على أنّ الله سبحانه لم يرسل الرسل إلاّ من بني آدم.))[1]

وبيّن هذا في موضع آخر قال: (( وظاهر الآيات القرآنية أنّ الرسل من الإنس فقط، كما في قوله تعالى: (( وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ))[2]، وقال: (( وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ))[3]، وقال سبحانه في إبرهيم الخليل ( عليه السلام ): (( وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ))[4]

فكلّ نبيّ بعثه الله بعد إبراهيم فهو من ذريته ، وأمّا قوله تعالى في سورة الأنعام : (( يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ )) فقيل المراد من مجموع الجنسين، وصدق على أحدهما وهم الإنس، كقوله : (( يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ))[5] أي من أحدهما.))[6]

واختلفوا أيضا في دخول مؤمني الجنّ الجنّة كما يدخل عصاتهم النار، لقوله تعالى في سورة تبارك : (( وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ))[7]، وقوله تعالى حكاية عن الجنّ : (( وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ))[8]، وغير ذلك من الآيات. فقال الحسن[9]: يدخلون الجنّة. وقال مجاهد[10]: لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار. وذهب طائفة منهم أبو حنيفة - فيما نقل عنه - إلى أنّ المطيعين منهم يصيرون ترابا كالبهائم، ويكون ثوابهم النجاة من النار.[11]

ورجّح الشوكاني القول الأوّل، قال: (( والأوّل أولى لقوله تعالى في سورة الرحمن: (( لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ))[12] ففي هذه الآية، بل في كثير من آيات هذه السورة دليل أنّ الجنّ يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه، وعملوا بفرائضه، وانتهوا

---

(١) فتح القدير : الشوكاني (٣٠٣/٥) . (٢) سورة يوسف : آية ١٠٩ .
(٣) سورة الفرقان : آية ٢٠ . (٤) سورة العنكبوت : آية ٢٧ .
(٥) سورة الرحمن : آية ٢٢ . (٦) فتح القدير : الشوكاني (٢٦/٥) .
(٧) سورة الملك : آية ٥ . (٨) سورة الجنّ : آية ١٥ .
(٩) هو الحسن البصري وقد تقدّمت ترجمته في صفحة (٣٣) .

(١٠) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي، تابعي، شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس قال ابن سعد : مجاهد ثقة فقيه عالم كثير الحديث، توفي (١٠٢هـ) وقيل غير ذلك. ( انظر حلية الأولياء للأصفهاني ٢٧٩/٣ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤٤٩/٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٣٢/٩)
(١١) انظر مجموع فتاوى : ابن تيمية (٢٣٣/٤، ٢٣٤) ، وفتح القدير : الشوكاني (٣٠٣/٥)
(١٢) سورة الرحمن : آية ٧٤ .

عن مناهيه .(١)

ومما يستدل به أيضا قوله تعالى ــ حكاية عن الجن ــ: (( يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ))(٢) اذ قال :

(( وفي هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الانس في الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهي ... وقد قال الله تعالى في مخاطبة الجن والانس: (( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ))(٣) فامتن سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، ولا ينافي هذا الاقتصار ههنا على ذكر اجارتهم من عذاب أليم . ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة ، وهو مقام فضل . ومما يؤيد هذا أيضا ما في القرآن الكريم في غير موضع أن جزاء المؤمنين الجنة ،وجزاء من عمل الصالحات الجنة ، وجزاء من قال لا اله الا الله الجنة ، وغير ذلك مما هو كثير في الكتاب والسنة .))(٤)

قلت : وهذا الذي رجحه الشوكاني هو قول جمهور العلماء(٥) وهو الراجح في هذه المسألة ،لما أيده من الأدلة. والله أعلم .

كما اختلفوا أيضا في رؤية الجن، فذهب بعض الناس الى أنه لا يراهم أحد في الدنيا، ويستدلون بقوله تعالى: (( إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ))(٦) .

وقد سئل شيخ الاسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ عن المراد من هذه الآية فقال :

(( الحمدلله ، الذي في القرآن أنهم يرون الانس من حيث لا يراهم الانس، وهذا حق يقتضي أنهم يرون الانس في حال لا يراهم الانس فيها، وليس فيه أنهم لا يراهم أحد من الانس بحال، بل قد يراهم الصالحون وغير الصالحين أيضا، لكن لا يرونهم في كل حال.))(٧)

---

(١) انظر فتح القدير، الشوكاني (١٤١/٥ وأيضا ٣٠٣) . (٢) سورة الاحقاف : آية ٣١ .

(٣) سورة الرحمن : آية ٤٦، ٤٧ . (٤) فتح القدير : الشوكاني (٢٦/٥) .

(٥) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٣٩/١٩) وأيضا (٢٣٣/٤، ٢٣٤)، و(٣٠٦/١١، ٣٠٧) قال رحمه الله :وهذا القول مأثور عن مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد .وانظر : طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (ص ٧٢٣) تحقيق/ عبد الله ابراهيم الأنصاري وآكام المرجان للقاضي بدر الدين الشبلي (ص ٥٧) وشرح كتاب الفقه الأكبر للملا علي القاري (ص ١٩٩) .

(٦) سورة الأعراف : آية ٢٧ . (٧) مجموع فتاوى : ابن تيمية (٧/١٥) .

وقرّر ـ رحمه الله ـ أنّ من الناس من رآهم ، وفيهم من رآى من رآى، وثبت ذلك عنده بالخبر واليقين، ومن الناس من كلّمهم وكلّموه ، ومن الناس من يأمرهم وينهاهم ، ويتصرّف فيهم ، وهذا يكون للصالحين وغير الصالحين .))[1]

قلت : وهذا حقّ، وقد تواترت أخبار الثقات في رؤيتهم للجنّ ومخاطبتهم لهم ، وهي معروفة في كلّ عصر ، ولا حاجة هنا الى ذكرها .[2]

وقد وافق الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ شيخ الاسلام ابن تيمية فيما ذهب اليه ،فقال في تفسير الآية السابقة :(( وقد استدلّ جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أنّ رؤية الشياطين غير ممكنة ، وليس في الآية ما يدلّ على ذلك، وغاية ما فيها أنّه يرانا من حيث لا نراه ، وليس فيها أنّا لا نراه أبدا ، فانّ انتفاء الرؤية منّا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقا .))[3]

وقرّر الشوكاني ـ رحمه الله ـ أنّ الجنّ كالشياطين يتشكّلون بأشكال مختلفة ، فيتشكّلون بأشكال الانسان والحيوان، وهذا مما دلّ عليه دليل السمع والمشاهدة ، فمن ذلك تشكّل جنّ المدينة في صورة حيّة ،كما في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري،[4] وتشكّل شيطان في صورة انسان في قصّة أبي هريرة عندما كان يحرس الصدقة ،

---

(١) مجموع فتاوى : ابن تيمية (٢٣٢/٤)
(٢) انظر هذه الأخبار على سبيل المثال في كتاب آكام المرجان للقاضي بدر الدين الشبلي (ص ١٨٧، ٢١٧، ٢٢٥)
(٣) فتح القدير : الشوكاني (١٩٧/٢) .
(٤) ومضمون الحديث : أنّ أبا سعيد الخدري قال: كان فتى منّا حديثَ عهدٍ بعرس، فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار ، فيرجع الى أهله ، فاستأذنه يوما،فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ عليك سلاحك،فانّي أخشى عليك قريظة ، فأخذ الرجل سلاحه ، ثم رجع، فاذا امرأته بين البابين قائمة ، فأهوى اليها بالرمح ليطعنها به وأصابته غيرة ، فقالت له : اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني ؟ فدخل فاذا بحيّة عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى اليها بالرمح ،فانتظمها به ،ثم خرج فركزه في الدار ،فاضطربت عليه ، فما يُدرى أيّهما كان أسرع موتا، الحيّة أم الفتى ؟ قال: فجئنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له ،فقال: استغفروا لصاحبكم ثم قال: إنّ بالمدينة جنّا قد أسلموا ، فاذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيّام ،فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانّما هو شيطان . ( أخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب قتل الحيّات وغيرها ( ١٧٥٦/٤ برقم ٢٢٣٦ )، ومالك في الموطأ ، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في قتل الحيّات ( ٩٧٦/٢، ٩٧٧ برقم ٣٣ ) .

كما في صحيح البخاري[1]، وغيرذلك [2] . والله أعلم .

---

(١) وخلاصة القصّة : أنّ أبا هريرة جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراسة تمر الصدقة ( الزكاة ) فكان الجانّ يأتيه في صورة انسان، ويأخذ من تمر الزكاة، فقبضه، وأراد أن يوقع به، فاعتذر للعين فتركه، ثم أتى للمرّة الثالثة، وعندها عزم أبو هريرة على أن يذهب به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير أنّ الشيطان اعتذر كذلك بأنّ له عيالا، وأنّه مضطرّ، وطلب من أبي هريرة أن يعفو عنه ،على أن يعلّمه آية من كتاب الله تعالى،من قرأها فانّ الشيطان لا يقربه، وهذه الآية هي الآية الكرسي، فعفا عنه وتركه، ولما لاقى أبو هريرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بادره النبي صلى الله عليه وسلم قائلا : ما فعل أسيرك البارحة ؟ فقال له أبو هريرة : كان من أمره كذا وكذا ... فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أما انّه قد صدقك وهو كذوب . ( أخرجه البخاري في كتاب الوكالة، باب اذا وكل رجلا الخ ( الفتح ٥٦٨/٤ برقم ٢٣١١ ) وأخرجه أيضا برقم ٣٢٧٥ ، ٥٠١٠ ) .

(٢) انظر : بحث في وجود الجنّ : الشوكاني ( ورقة ٣ ) (مخطوط) .

# الفصل الثانى
# فى الإيمان بالمعاد أو اليوم الآخر

ويشتمل على المباحث الاتية :

المبحث الأول : معنى الإيمان بالمعاد وأدلته
المبحث الثانى : بيان إتفاق الشرائع على اثبات المعاد
المبحث الثالث : تقرير الشوكانى لمذهب السلف فى المعاد ورده على المنكرين
المبحث الرابع : الإيمان بأشراط الساعة
المبحث الخامس : الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وفتنته
المبحث السادس : مستقر الأرواح
المبحث السابع : الإيمان بالنفخ فى الصور
المبحث الثامن : الإيمان بالحشر والموازين والصراط
المبحث التاسع : الشفاعة
المبحث العاشر : الجنة ونعيمها
المبحث الحادى عشر : رؤية الله فى الجنة
المبحث الثانى عشر : النار وعذابها
المبحث الثالث عشر : الجنة والنار باقيتان لا تفنيان

## (( الفصل الثاني ))

## في الإيمان بالمعاد أو اليوم الآخر

### المبحث الأوّل : معنى الإيمان بالمعاد وأدلته

#### تعريف المعاد

المعاد في اللغة : مصدر أو ظرف من عاد يعود عودا وعودة ومعاودة : أى رجع .

جاء في اللسان : والمعاد : المصير والمرجع، والآخرة : معاد الخلق. قال ابن سيدة : والمعاد : الآخرة والحج، وقوله تعالى:(( إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ))[١] يعني مكة عدة للنبي صلى الله عليه وسلم أن يفتحها له ... ويقال: اذكر المعاد : أى اذكر مبعثك في الآخرة.[٢]

وفي الشرع ـ كما قال صاحب شرح المقاصد[٣] :(( هو الرجوع الى الوجود بعد الفناء، أو رجوع أجزاء البدن الى الاجتماع بعد التفرّق، والى الحياة بعد الموت، والأرواح الى الأبدان بعد المفارقة.))[٤]

وعلى هذا يقال ليوم القيامة يوم المعاد، لأنّ الناس يعودون فيه أحياء.[٥]

قال تعالى:(( قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ))[٦]،وقال:(( كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ))[٧] (( أى كما أنشأكم في ابتداء الخلق يعيدكم ))[٨]

وفي الحديث من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم .... وأصلحْ لي آخرتي التي فيها معادي ))[٩] أى ما يعود اليه يوم القيامة.[١٠]

وهناك كلمتان مرادفتان له ،هما البعث والنشور .

---

(١) سورة القصص : آية ٨٥ . (٢) انظر لسان العرب لابن منظور (٣١٧/٣ مادة : عود) ،وانظر تهذيب اللغة للأزهري (١٢٨/٣ مادة : عاد) .

(٣) هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني ،سعد الدين :من أئمة العربية والبيان والمنطق والكلام ،له كتب كثيرة منها: تهذيب المنطق،ومقاصد الطالبين،وشرحه في الكلام ،وشرح العقائد النسفية ،توفّي ( ٧٩٣ هـ)( انظر ترجمته في: مفتاح السعادة :طاش كبرى زادة ١/ ١٩٠،١٩١ وشذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي ٣١٩/٦ـ٣٢١ والبدر الطالع: الشوكاني ٣٠٣/٢ ـ ٣٠٥ والأعلام : الزركلي ٢١٩/٧) .

(٤) شرح المقاصد للتفتازاني (٨٢/٥) تحقيق/ د .عبد الرحمن عميرة .

(٥) انظر فتح القدير : الشوكاني (١٨٨/٤). (٦) سورة يونس : آية ٣٤ .

(٧) سورة الأعراف : آية ٢٩ . (٨) فتح القدير : الشوكاني (١٩٩/٢) .

(٩) أخرجه مسلم في كتاب الذكر ،باب التعوّذ من شرّ ما عمل ومن شرّ ما لم يعمل (٢٠٨٧/٤ برقم ٢٧٢٠)

(١٠) انظر النهاية لابن الأثير (٣١٦/٣ مادة : عود)

قال تعالى في البعث: (( وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ))[1] أي يعيدهم بعدما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدهم بعد العدم.[2]

وقال في النشور: (( فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ))[3] أي كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها. والنشور: البعث: أي الاحياء بعد الموت، يقال: أنشر الله الموتى فنشروا.[4]

فالمراد بهذه الكلمات الثلاث: إحياء الله تعالى الأبدان بعد موتها وفنائها للجزاء والعقاب.

ويطلق لفظ المعاد ويراد به اليوم الآخر بما فيه من تفاصيله، وهو المراد هنا في هذا البحث. والمراد باليوم الآخر فناء هذا العالم كلها، وانتهاء هذه الحياة بكاملها، واقبال الحياة الآخرة وابتدائها، وسمّي ذلك اليوم باليوم الآخر لأنّه اليوم الذي لا يوم بعده، وله أسماء أخرى كثيرة لا يتسع المقام هنا لذكرها.[5]

معنى الايمان بالمعاد

إنّ معنى الايمان بالمعاد هو معنى الايمان باليوم الآخر، وهو التصديق الجازم بكلّ ما أخبر به الله عزّوجلّ في كتابه وأخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم في سنّته مما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وما يكون من النفخ في الصور، وخروج الخلق من القبور، وما يكون يوم القيامة من الأهوال والأفزاع، وتفاصيل الحشر ونشر الصحف، ووضع الموازين، والصراط، والحوض، والشفاعة لمن أذن الله له، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، وما يكون قبل ذلك كلّه من علامات وأشراط، وغير ذلك من الأمور التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والصحيح من سنّة المصطفى صلى الله عليه وسلم، كلّ ذلك داخل في الايمان باليوم الآخر.

---

(١) سورة الحج: آية ٧. (٢) تفسير ابن كثير (٢١٨/٣).

(٣) سورة فاطر: آية ٩. (٤) انظر فتح القدير للشوكاني (٣٤١/٤، وأيضا ٦١/٤).

(٥) وقد اعتنى جمع من أهل العلم بذكر هذه الأسماء، منهم: الغزالي (ت ٥٠٥هـ) في كتابه الاحياء (٥١٦/٤، ٥١٧) ط/ دار المعرفة، والقرطبي (ت ٦٧١هـ) في كتابه التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢٣٣) ط/ السلفية، والحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في كتابه النهاية/ الفتن والملاحم (٢٥٥/١، ٢٥٦) تحقيق/ طه زيني، ومن المعاصرين سيد سابق في كتابه العقائد الاسلامية (ص ٢٦١ ـ ٢٦٤).

## أدلته

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان الستة، وعقيدة من عقائد الإسلام الأساسية، وأصل عظيم من أصول الإيمان، إذ لا يصح إيمان أحد إلا بالإيمان به .

وقد دل على وجوب الإيمان به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما يدل عليه العقل والفطرة السليمة .

فمن الآيات الدالة على وجوب الإيمان باليوم الآخر قوله تعالى: (( لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ))(1)، وقوله سبحانه: (( مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ))(2) وقوله: (( ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ))(3)، وقوله: (( قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ))(4) .

وأمثال هذه الآيات كثيرة جداً، حيث قرن سبحانه الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به عز وجل، وهذا يدل على أهمية الإيمان باليوم الآخر، وأنه من الأسس الهامة التي يقوم عليها بناء العقيدة الإسلامية بعد الإيمان بالله تعالى .

وقد أكثر الله سبحانه من ذكر اليوم الآخر في القرآن الكريم، بحيث لا يكاد يمر القارئ على صحيفة من صحائفه إلا ويجد فيها حديثاً عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، والرد على شبه المنكرين له في كثير من المواضع، كما يجد تفصيل أحوال ذلك اليوم وحوادثه تفصيلا كثيرا قلما يجده في أمور الغيب الأخرى بعد توحيد الله عز وجل .

ومن الأحاديث الدالة على وجوب الإيمان باليوم الآخر قوله صلى الله عليه وسلم: (( الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره . ))(5)، وقوله صلى الله عليه وسلم: (( لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر . ))(6)

---

(1) سورة البقرة: آية ١٧٧ .
(2) سورة البقرة: آية ٦٢ .
(3) سورة الطلاق: آية ٢ .
(4) سورة التوبة: آية ٢٩ .
(5) تقدم تخريجه في صفحة (١٣٣) .
(6) أخرجه الترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره (٣٩٣/٤ برقم ٢١٤٥)، وابن ماجه في المقدمة، باب في القدر (٣٢/١ برقم ٨١)، والحاكم في المستدرك (٣٢/١) وقال: هذا حديث صحيح. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في السنة لابن أبي عاصم (٥٩/١ برقم ١٣٠)، وفي مشكاة المصابيح (٣٧/١ برقم ١٠٤) .

فهذه الآيات والأحاديث تدلّ على وجوب الايمان باليوم الآخر وتبيّن أهمّيته .

وأمّا الفطرة السليمة فهي تدلّ عليه وتهدي اليه ، ولا صحّة لما يزعمه الضالّون من أنّ العقول تنفي وقوعه ، فانّ العقول لا تمنع وقوعه ، بل تدعو الى الايمان به ، فقد ثبت بالبراهين العقلية والمادّية معاً أنّ الكون حادث، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له التي لا تنفكّ عنه بحال، وطروء الفناء على الحوادث في الكون مشاهد في هذه الحياة لا يحتاج الى دليل، وبناء على هذا فإنّ أبديّة الكون وما فيه أمر مستحيل،وإنّ فناءه أمر ممكن لا يوجب اثباته أيّ تناقض عقليّ، وكذلك بعث الخلائق فيه وأحياء للجزاء والعقاب أمر ممكن وجائز لا يوجب اثباته تناقضاً عقليّاً .[1]

وقد سلك القرآن الكريم في اثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية في غاية الوضوح، منها : قوله تعالى:(( أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ))[2] والمعنى - كما قال الشوكاني رحمه الله-:(( ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة ،ثم علقة ،ثم مضغة ،ثم ينفخ فيه الروح ،ثم يخرج الى الدنيا،ثم يتوفّاه بعد ذلك، وكذلك سائر الحيوانات وسائر النبات، فاذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء والايجاد فهو القادر على الاعادة . ))[3]

ومثله قوله تعالى:(( وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ))[4] ،وقوله :(( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ))[5] أي من هو قادر على خلق هذا فهو على اعادتهم هو أدون منه أقدر، وقد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم ، لأنّهم ليسوا بأشدّ خلقاً منهم ،كما قال:(( أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ))[6] .

وأمثال هذه الآيات كثيرة .

ومن تلك المسالك العقلية في القرآن الكريم قوله تعالى:(( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ

---

(١) انظر بحثاً قيّماً في هذا الصدد في كتاب: الاسلام يتحدّى لوحيد الدين خان (ص ٧٩ - ١٠٦ ) تعريب / ظفر الاسلام خان .
(٢) سورة العنكبوت : آية ١٩ .
(٣) فتح القدير : الشوكاني (١٩٧/٤) .
(٤) سورة الروم : آية ٢٧ .
(٥) سورة الاسراء : آية ٩٩ .
(٦) سورة النازعات : آية ٢٧ . وانظر فتح القدير (٢٦١/٣، وأيضاً ٣٨٤/٤) .

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ))(١) ،وقوله :(( وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ))(٢)

وبهذا يتّضح أنّ أدلّة القرآن الكريم عقلية وهي شرعية ، فقد جعل الله سبحانه في الآيتين احياء الأرض بعد موتها نظير احياء الأموات، واخراج النبات منها نظير اخراجهم من القبور، وجعل ذلك آية ودليلا على اثبات البعث، وعلى كمال قدرته سبحانه وتعالى على كل شيئ .

قال الشوكاني - رحمه الله تعالى - في معنى الآية الثانية : ( كذلك نخرج الموتى) : أى مثل ذلك الاخراج وهو اخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم . ( لعلكم تذكّرون ) أى تتذكّرون فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته ، وانّه قادر على بعثكم كما قدر على اخراج الثمرات التي تشاهدونها . ))(٣)

والذين ينكرون البعث لم يتذكّروا ولم يستعملوا عقولهم في التفكّر والتدبّر في قدرة الله ، والّا لما يصدر منهم الانكار .

## المبحث الثاني: بيان اتّفاق الشرائع على اثبات المعاد

انّ الايمان باليوم الآخر والجنة والنار من أصول الايمان التي يشترك فيها الأنبياء جميعا ، وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في آيات عديدة أنّ الانبياء جميعا عرّفوا أممهم باليوم الآخر، وبشّروهم بالجنة ، وأنذروهم النار ، وكفّروا كلّ من ينكره أو يشك فيه .

فمن تلك الآيات قوله تعالى:(( وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ))(٤)

فالكفّار جميعا عندما يُسئلون عند ورودهم النار يقرّون ويعترفون بأنّ رسلهم أتتهم وأنذرتهم بما سيلقونه في ذلك اليوم العظيم ، ولكنّهم كفروا وكذّبوا . والآيات في هذا المعنى كثيرة .

---

(١) سورة فصّلت ، آية ٣٩ . (٢) سورة الأعراف ، آية ٥٧ .

(٣) فتح القدير ، الشوكاني(٢١٤/٢). (٤) سورة الزمر ، آية ٧١ .

وقد بيّن الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ هذا الموضوع في مؤلّف مستقلّ[1] وذكر ما في الكتب السابقة من النصوص التي تتعرّض لليوم الآخر، على الرغم من وجود التحريف في تلك الكتب.

ففي التوراة ـ كما ذكر الشوكاني ـ في أوّلها عند الكلام على ابتداء الخليقة التصريح باسم الجنّة، ولفظه: (( فغرس الله جناناً في عَدْنٍ شرقيّاً، وأبقى ثَمّ آدم الذي خلق وأنبت الله، ثم كلّ شجرة حسن منظرها، وطيب مأكلها، وشجرة الحياة في وسط الجنان، وشجرة معرفة الخير والشرّ، وكان نهر يخرج من عَدْنٍ ليسقي الجنان ومن ثمّ يتفرّق، ويصير أربعة رؤوس، اسم أحدها النيل وهو المحيط بجميع بلد زَوِيلة، الذي ثَمّ الذهب، وذهب ذلك البلد جيد، ثم اللؤلؤ، وحجارة البنور. واسم النهر الثاني جِيحُون، وهو المحيط بجميع بلد الحبشة. واسم النهر الثالث الدجلة، وهو السائر في شرقي الموصل. والنهر الرابع هو الفرات. )) انتهى.[2]

وكما وقع التصريح في التوراة بالجنّة فقد وقع التصريح فيها باسم النار، ولفظها في التوراة: (( شول واشي )) قال علماء اليهود: ومعنى اللفظين: ( جهنّم ).

وفي الفصل الثاني عشر من السفر الثالث من التوراة ما لفظه: (( واحفظوا رسومي وأحكامي فانّ جزاء من عمل بها أن يحيا الحياة الدائمة ))[3] انتهى. ولا حياة دائمة في الدنيا، بل في الآخرة. وفي التوراة من النصوص على هذا المعنى كثير.[4]

قلت: وقد طرأ على التوراة تحريف كثير كما بيّنا، وذهب كثير من هذه النصوص التي تتعرّض لليوم الآخر، ولذلك فانّ معظم اليهود الآن لا يؤمنون به، ولا يعنون به ما تعنيه الأديان السماوية الأخرى من وجود الحساب والجزاء على ما قدّم الانسان في حياته الأولى، انّما كانوا يعنون به شيئاً آخر، وهو أمر دنيويّ لا غير.[5]

والشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ نقل هذه النصوص وأمثالها من النسخة الموجودة في

---

(١) بعنوان: المقالة الفاخرة في بيان اتّفاق الشرائع على اثبات الدار الآخرة، وهو مخطوط. ويوجد في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، بتاريخ ١٢ ربيع الآخر ١٢٢٤هـ بخط الشوكاني، ولم أتمكّن من الاستفادة منه، وقد ذكر ـ رحمه الله ـ مضمون الكتاب في الفصل الثاني من كتابه: ارشاد الثقات الى اتّفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات. وهو مطبوع.

(٢) ارشاد الثقات: الشوكاني (ص ١٠، ١١) والنص في العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الثاني، من فقرة (٨ ـ ١٤) مع وجود اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) لم أجد هذا النص في العهد القديم في الموضع المذكور، ولعلّه سقط في عملية التحريف.

(٤) ارشاد الثقات: الشوكاني (ص ١١)

(٥) انظر: الفصل لابن حزم (٣٠٩/١) ط/ دار الجيل، واليهودية للدكتور أحمد شلبي (ص ١٧٣، ٢٠٢ـ٢٠٤)، والديانات والعقائد لعبد الغفور عطّار (٢٣٧/٢ـ٢٤٧)، ومقارنة الأديان للدكتور
====

عصره ، والتي لم يعمّها التحريف كما عمّها الآن .

وقد ذكر - رحمه الله تعالى - ما في أسفار الأنبياء الأخرى في التوراة من بعض النصوص التي تصرّح بالبعث والنشور، قال :

(( وفي الفصل السادس والعشرين من كتاب النبي أشعيا ما لفظه : (( يقوم الموات ويستيقظ الذين في القبور )) انتهى.[1] ، وقال أيضا في كتابه المذكور في حقيقة تلذّذ أهل الجنّة : (( لا عين تقدر تراه إلّا علم الله تعالى )) انتهى.[2] ، وفي الفصل الثاني عشر من كتاب دانيال ما لفظه : (( وكثير من الهاجعين في تراب الأرض يستيقظون: هؤلاء لحياة أبديّة ، وهؤلاء التعيير وخزي أبديّ )) انتهى.[3]

وفي زبور النبي داود عليه السلام في المزمور السادس منه ما لفظه : (( وأنت يا ربّ نجّ نفسي، وخلّصني من أجل رحمتك، لأنّه ليس في الموتى من ينكرك، ولا في الجحيم من يعترف لك )) انتهى.[4] ، وفي المزمور الرابع والخمسين ما لفظه : (( ليأتي الموت عليهم ، ولينحدروا الى الجحيم أحياء ، لأنّ الشرور في مساكنهم وفي وسطهم )) انتهى.[5]

فهذه النصوص وأمثالها تدلّ على وجود عقيدة البعث والنشور في هذه الكتب على الرغم من وجود تحريف كثير فيهما .

أمّا في الأناجيل النصرانية فقد ذكر الشوكاني عدّة نصوص تدلّ على عقيدة المعاد ، منها :[6]

ما في الفصل الخامس من الانجيل الذي جمعه متّى ما لفظه : (( ومن قال لأخيه يا أحمق فقد وجبت عليه نار جهنّم )) انتهى[7] ، وفي الفصل الخامس والعشرين منه ما لفظه : (( حينئذ يقول الذين عن يساره : اذهبوا عنّي يا ملاعين الى النار المؤبّدة المعدّة لإبليس وجنوده[8] )) ، ومنه أيضا ما لفظه : (( فيذهب هؤلاء الى العذاب الدائم ، والصدّيقيّون الى الحياة المؤبّدة )) .[9]

---

==== عوض الله حجازي (ص ١١٨، ١١٩) .

(١) لا يوجد هذا النص في العهد القديم ، ويوجد ما يشبهه ، كقوله : (( تحيا أمواتك تقوم الجثث، استيقظوا ترنّموا يا سكّان التراب )) ( انظر سفر أشعيا ، الاصحاح السادس والعشرين ، فقرة ١٩) .

(٢) لا يوجد هذا النص في العهد القديم في الموضع المذكور .

(٣) هكذا في العهد القديم ، انظر سفر دانيال ، الاصحاح (١٢) فقرة (٢) مع اختلاف يسير .

(٤) هكذا في المزمور السادس ، فقرة (٣ - ٥) وفيه (ليس في الموت ذكرك . في الهاوية من يحمدك)

(٥) يوجد هذا النص في المزمور الخامس والخمسين ، لا الرابع والخمسين كما ذكر الشوكاني انظر فقرة (١٥) مع اختلاف يسير .

(٦) انظر رسالة ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ١٢-١٤) . (٧) هكذا في انجيل متّى ، الاصحاح (٥) فقرة (٢٢)

(٨) هكذا في فقرة (٤١) من المصدر السابق . (٩) هكذا في فقرة (٤٦) من المصدر السابق .

وفي الانجيل الذي جمعه مرقص في الفصل التاسع ما لفظه : (( فان شككتك يدك فاقطعها، فخيرلك أن تدخل الحياة وأنت أقطع من أن يكون لك يدان وتذهب الى جهنّم في النار حيث دودهم لا يموت،ونارهم لا تطفأ، وان شككتك رجلك فاقطعها، فخيرلك أن تدخل الحياة أعرج من أن يكون لك رجلان وتلقى في جهنّم في النار حيث دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ ))[1] انتهى.

وفي الفصل الثاني عشر منه التصريح (( بأنّ الزنادقة هم الذين يقولون: ليست تكون قيامة ))[2] انتهى .

وفي الانجيل الذي جمعه لوقا في الفصل السادس عشر منه ما لفظه : (( ثمّ مات ذلك الغنيّ وقبر فرفع عينه ، وهو يعذّب في الجحيم ))[3] انتهى. وفي الفصل العشرين منه ما لفظه : (( فأمّا انّ الموتى يقومون فقد أنبأ بذلك موسى ))[4] انتهى. وفي الفصل الثالث والعشرين منه انّ المسيح قال للمصلوب الذي آمن به : (( انّك تكون معي في الفردوس ))[5] انتهى .

وفي الانجيل الذي جمعه يوحنّا في الفصل الخامس منه ما لفظه : (( فانّه ستأتي ساعة يسمع فيها جميع من في القبور صوته ، فيخرج الذين عملوا الحسنات الى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيّئات الى قيامة الدينونة ))[6] انتهى. وفي السادس عشر منه ما لفظه : (( يكون له الحياة المؤبّدة ، وأنا أقيمه في اليوم الآخر )) ، وفي الفصل السابع عشر منه ما لفظه : (( الحقّ والحقّ أقول لكم انّه من يؤمن بحياة دائمة ))[7] انتهى .

هذا بعض ما أورده الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ من نصوص الأناجيل التي تصرح بعقيدة البعث والنشور مما يدلّ على سعة اطّلاعه ـ رحمه الله ـ على كتب القوم وعلمه بها.

قال بعد سوقه النصوص : (( والحاصل أنّ هذا أمر اتّفقت عليه الشرائع ، ونطقت به كتب الله عزّ وجلّ سابقها ولاحقها ، وتطابقت عليه الرسل أوّلهم وآخرهم ، ولم يخالف فيه

---

(١) انظر انجيل مرقس، الاصحاح (٩)، فقرة (٤٣-٤٦) وفيه : ( وان أَعْثَرَتْكَ ) بدل : ( شككتك ).

(٢) انظر فقرة (١٨) من الاصحاح (١٢) وفيه : ( الصدوقيّون ) بدل ( الزنادقة ). والصدوقيّون: فرقة من فرق اليهود لا يؤمنون بالبعث والنشور. (انظر : الفصل لابن حزم (١٧٨/١) ـ واليهودية للدكتور أحمد شلبي (ص ١٧٣) ، واليهودية والمسيحية للدكتور ضياء الرحمن الأعظمي (ص ١٨٩ ـ ١٩٢) .

(٣) انظر فقرة (٢٢، ٢٣) من الاصحاح (١٦) مع اختلاف يسير .

(٤) هكذا في فقرة (٣٧) من الاصحاح (٢٠) . (٥) هكذا في فقرة (٤٣) من الاصحاح (٢٣) .

(٦) هكذا في فقرة (٢٩، ٣٠) من الاصحاح (٥). (٧) لم أجد هذا النص في الموضع المذكور ولا الذي قبله .

أحدمنهم ... كما يحكي ذلك عنهما القرآن الكريم ، فانّ فيه ما يفيد ما كانوا عليه ، وما كانوا يدينون به ، وما قالوا لقومهم ، وما وعدوهم به من خير وشرّ ، بل فيه ما يفيد ما كان عليه أهل الكتب المتأخرة من البعثة لموسى ومن بعده ، وما كانوا يدينون به ، كقوله سبحانه حاكيا عن اليهود : (( وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ))[1] ، وقوله تعالى (حاكيا عن عيسى عليه السلام ) : (( يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ))[2] ، وقوله حاكيا عن موسى[3] الى فرعون : (( يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ )) الى قوله : (( وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ )) الى قوله : (( فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ))[4] ، وقوله : (( إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ، فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ))[5] وقال : (( بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ))[6] .

ونصوص القرآن الحاكية عن اليهود والنصارى وسائر الملل مثل هذا كثيرة جدًّا ، ولا يتّسع المقام لبسطها ، وقد بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل الملّة اليهودية والنصرانية في أكثر بقاع الأرض ، وبلغهم ما حكاه القرآن عن أنبيائهم عن اثبات المعاد واثبات النعيم الجسماني والروحاني ، ولم يسمع عن أحد منهم أنه أنكر ذلك ، أو قال هو خلاف ما في التوراة والانجيل ... الى أن قال : وأهل الكتاب الى عصرنا هذا يقرّون بالمعاد ، والجنّة والنار ، والحساب والعقاب ، والنعيم والثواب ، ولا ينكر منهم منكر ، ولا يخالف فيه مخالف . ))[7]

قلت : إنّ كلام الشوكاني هنا ليس على اطلاقه ، فانّ طائفة من اليهود يسمّون

---

(١) سورة البقرة : آية ١١١ . (٢) سورة المائدة : آية ٧٢ .

(٣) والصواب أنّ الحكاية ليست من موسى وانّما هي عن رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه كما صرّح في أوّل الآية رقم (٢٩) : (( وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ... ))

(٤) سورة غافر : آية ٣٢ ـ ٤٠ . (٥) سورة آل عمران : آية ٥٥ ـ ٥٧ .

(٦) سورة الأعلى : آية ١٦ ـ ١٩ . (٧) ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ١٤ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤) .

بالصادوقيين يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بتوراة موسى، وهم يكذبون بالبعث والنشور، والجنة والنار، ويرون أن ذلك سيكون في الدنيا .(1)

فقد ذكر انجيل متى أن هذه الطائفة جاءوا الى عيسى وجادلوه في القيامة :

(( في ذلك اليوم جاء اليه الصادوقيون الذين يقولون ليس قيامة ))(2)

فانكار اليوم الآخر طارئ على اليهودية بعد فقدان توراة موسى أو تحريفها، وإذا كان بعض اليهود يعتقدون في اليوم الآخر فذلك مرده الى ديانة موسى الصحيحة إذا كان اعتقادهم فيه اعتقادا صحيحا، وهذا أمر لم يصرح به الكتاب المقدس في أسفار العهد القديم الحالية التي بين أيدي اليهود الآن .

وصفوة القول أن عقيدة البعث أو اليوم الآخر موجودة في كل الديانات السماوية، وأن جميع الأنبياء متفقون على الإخبار بها ودعوة قومهم الى الايمان بها، غير أن أتباعهم - بعد أن طرأ على ديانتهم التحريف والتبديل - انحرفوا عنها، فكذبوا بها، أو اعتقدوا بها على غير الصفة التي جاءت بها شريعتهم .

المبحث الثالث: تقرير الشوكاني لمذهب السلف في المعاد ورده على المنكرين

قرر الشوكاني - رحمه الله تعالى - مذهب السلف أهل السنة في الايمان بالمعاد، فقد ذهب السلف أهل السنة الى أن المعاد يكون بالروح والجسد معا، لما دلت عليه النصوص الكثيرة الثابتة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

فمن القرآن قوله تعالى: (( مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ))(3).

قال الشوكاني: (( أي بالبعث والنشور وتأليف الأجسام ورد الأرواح اليها على ما كانت عليه قبل الموت .))(4)

وقوله تعالى: (( أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ))(5) .

قال الشوكاني: (( أي على أن نجمع بعضها الى بعض، فنردها كما كانت مع لطافتها

---

(1) انظر: الفصل لابن حزم (1/178)، واليهودية للدكتور أحمد شلبي (ص ٢٢٩-٢٣١)، ومقارنة الأديان للدكتور عوض الله حجازي (ص ١٢٥، ١٢٦)، واليهودية والمسيحية للدكتور ضياء الرحمن الأعظمي (ص ١٨٩ - ١٩٢) .

(2) انظر فقرة (23) من الاصحاح (22). (3) سورة طه: آية ٥٥ . (4) فتح القدير: الشوكاني (3/370)، وانظر تفسير الطبري (16/175). (5) سورة القيامة: آية ٣، ٤ .

وصغرها، فكيف بكبار الأعضاء، فنبّه سبحانه بالبنان، وهي الأصابع المغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق، فهذا وجه تخصيصها بالذكر.))(١)

ومثله قوله تعالى: (( وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ))(٢)

والمعنى - كما قال الشوكاني -: (( جمعنا الخلائق بعد تلاشي أبدانهم ومصيرها ترابا جمعا تاما على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب.))(٣)

وغير ذلك من الآيات المصرّحة بأنّ البعث يكون بالروح والجسد معا، ويؤيّد هذا ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( ما بين النفختين أربعون .... ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الانسان شيئ الا يبلى الا عظما واحدا وهو عَجْبُ الذَّنَب(٤) ومنه يُركّب الخلق يوم القيامة ))(٥)

فهذا كلّه اشارة الى أنّ ذرّات الانسان لا تفنى أبدا، وانّما تتفرّق أجزاؤه في الأرض، ويبقى منه جزء لا يفنى ولا يتفرّق، وبذلك تكون الاعادة، وهي عبارة عن جمع المتفرّق.

فالبعث لا يتحقّق الا ببقاء الموتى من قبورهم بأجسادهم التي أطاعوا بها أو عصوا بها في الدنيا حتى يتحقّق العدل الالهي باثابة المطيعين وتعذيب العاصين.

وقد بيّنت ذلك نصوص القرآن الكريم المتعلّقة بالعذاب والنعيم يوم القيامة.

كقوله تعالى: (( وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ))(٦)

وقوله تعالى عن عذاب أهل النار: (( كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ))(٧)

وقوله تعالى في نعيم أهل الجنة: (( مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ))(٨) وقوله: (( وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ))(٩)

فهذه النصوص جميعا لا يصحّ معناها ما لم يكن البعث بالروح والجسد معا، اذ القاعدة

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٣٣٦/٥). (٢) سورة الكهف: آية ٩٩. (٣) فتح القدير للشوكاني (٣١٥/٣).

(٤) قال النووي: أي العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص، ويقال له: عجم، بالميم، وهو أوّل ما يخلق من الآدمي، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه. (شرح النووي لمسلم ٩٢/١٨، وانظر النهاية لابن الأثير ١٨٤/٣ مادة: عجب).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ونفخ في الصور الخ (الفتح ٤١٤/٨ برقم ٤٨١٤) - ومسلم في كتاب الفتن، باب ما بين النفختين (٢٢٧٠/٤ برقم ٢٩٥٥) واللفظ له.

(٦) سورة الاسراء: آية ٩٧ . (٧) سورة النساء: آية ٥٦ .

(٨) سورة الانسان: آية ١٣ . (٩) سورة الطور: آية ٢٠ .

المقرّرة لدى المفسّرين أنّ اللفظ لا يعرض عن ظاهره إلا بدليل، وهذا ما قرّره الشوكاني في عدة مواضع في تفسيره [1]، وظاهر الآيات قاطع بكون البعث بالروح والجسد معا .

والشوكاني - رحمه الله تعالى - عندما قرّر مذهب السلف في هذه المسألة فإنه يردّ على المنكرين والمخالفين لمذهب أهل السنة الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع السماوية .

ففي كتابه : ارشاد الثقات - تعرّض - رحمه الله - للردّ على رجل من اليهود زنديق، يقال له موسى بن ميمون[2] اليهودي الأندلسي، وعلى من قلّده من أهل الاسلام، كابن سينا[3]، وغيره، حيث ذهب هؤلاء الى أنّ البعث يكون بالروح فقط دون الجسم .

وقد نقل - رحمه الله - كلاما طويلا لموسى بن ميمون مفاده أنه أثبت المعاد النفساني دون الجسماني .[4]

ومما نقل عنه قوله :(( ... وهذه اللذة ليست لذة طعام أو شراب ... ولا يوجد مثل تمثّل تلك اللذة، بل كما قال النبي داود متعجّبا من عظمتها: ما أكثر ما أجزل خيرك الذي خبأته للعالحين الطائعين لأمرك، وهكذا قال العلماء: العالم المستقبل ليس فيه أكل، ولا شرب، ولا غسل، ولا دهن، ولا نكاح، بل الصالحون باقون فيه، ويستلذّون من نور الله تعالى، يريدون بذلك أنّ تلك الأنفس تستلذّ بما تعقل من الباري بما تستلذّ سائر طبقات الملائكة بما عقلوا من وجوده سبحانه، فالسعادة والغاية القصوى هي الوصول الى هذا الملأ الأعلى .))[5]

فردّ الشوكاني - رحمه الله تعالى - على هذا القول، وبيّن أنه مجرّد زندقة، وأنّ التوراة والزبور والانجيل وكتب سائر الأنبياء منادية بخلاف ذلك. قال :

(( إنّ حصر اللذات النفسانية التي ذكرها لا ينافي حصول اللذات الجسمانية التي

---

(١) انظر فتح القدير : الشوكاني (٢٧٢/١)،(١٩٠/٢، ٢١١)،(٢٠٧/٣)،(٤٧٧/٤) .

(٢) هو موسى بن ميمون بن يوسف بن اسحق، أبو عمران القرطبي، طبيب فيلسوف يهوديّ، ولد وتعلّم في قرطبة، وتنقّل مع أبيه في مدن الأندلس، وتظاهر بالاسلام، فحفظ القرآن، وتفقّه بالمالكية، ودخل مصر، فعاد الى يهوديّته، وأقام في القاهرة ٣٧ سنة، كان فيها رئيسا روحيّا لليهود، له تصانيف كثيرة بالعربية والعبرية، توفّي (٦٠١ هـ)( الأعلام للزركلي ٣٢٩/٧، ٣٣٠) .

(٣) سبق له ترجمة في صفحة (١٠٧) .   (٤) انظر ارشاد الثقات : الشوكاني (ص ١٥ - ١٧) .

(٥) المصدر السابق (ص ١٦، ١٧) نقلا عن كتاب: مشنة التوراة - لموسى بن ميمون .

وردت في كتب الله عزّ وجلّ . وقوله : ( وليست بلذّة طعام أو شراب ) هذا مسلّم ، فإنّ اللذّات النفسانية ليست بلذّة طعام ولا شراب، ولكن من أين يلزم أنّه لا لذّة طعام وشراب ونحوهما في تلك الدار الآخرة ؟ .

فإن كان بالشرع فكتب الله عزّ وجلّ جميعها ناطقة بخلاف ذلك، كما قدّمنا ذلك في كتب الله عزّ وجلّ، وفي القرآن الكريم مما يكثر تعداده ، ويطول إيراده ، وهو لا يخفى مثله على أحد من المسلمين الذين يقرأون القرآن،لبلوغه في الكثرة إلى غاية يشترك في معرفتها المقصّر والكامل، وإن كان بالعقل فليس في العقل ما يقتضي إثبات اللذّة النفسانية ، ونفي اللذّة الجسمانية ، بل لا مدخل للعقل ههنا ، ولا يتعوّل عليه أصلا .

وإن كان لا يعتبر عقل ولا شرع، بل لمجرّد الزندقة والمروق من الأديان كلّها والمخالفة لما ورد في كتب الله سبحانه فبطلان ذلك مستغن عن البيان .

وأمّا قوله : ( كما قال النبي داود متعجّبا في عظمتها: ما أكثر وما أجزل خيرك الذي خبأته للصالحين الطائعين لأمرك ) فهذا عجب منه عليه السلام من كثرة خير الله سبحانه ، وجزالة ما خبأه للصالحين من عباده الطائعين لأمره في الدار الآخرة ، وهو دليل على الملعون لا له ، فإنّ كلامه هذا هو كلام سائر أنبياء الله في استعظام ما أعدّه الله للصالحين من عباده ، كما قال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم : (( في الجنّة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر ))(١) ومثله في القرآن الكريم في قوله تعالى: (( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ))(٢) .(٣)

وهكذا أنكر الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ على المنكرين المعاد الجسماني، وأبطل حججهم التي يستدلّون بها، وبيّن أنّ هذا القول مخالف لما جاءت به رسل الله ونطقت به كتبه ، وأنّ صاحبه مبتدع زنديق، وكذلك من سلك مسلكه من فلاسفة المسلمين، كابن سينا، وأصحاب رسائل إخوان الصفاء، وغيرهم .(٤)

---

(١) أخرجه البخاري في عدّة مواضع في صحيحه ، انظر كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنّة . ( الفتح ٦/٣٦٦ برقم ٣٢٤٤) ، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنّة منزلة فيها. (١/١٧٦ برقم ١٨٩) .

(٢) سورة السجدة : آية ١٧ . (٣) إرشاد الثقات : الشوكاني (ص ١٨، ١٩) .

(٤) وقد حكم شيخ الإسلام ابن تيمية على هؤلاء الفلاسفة المنكرين المعاد لأبدان بالكفر (انظر مجموع فتاوى ٤/٢٨٣ ، وأيضا ٣١٤) ، كما حكم عليهم بالكفر الإمام الغزالي في كتابه : المنقذ من الضلال (ص ١٠٥، ١٠٦) تحقيق/ د. عبد الحليم محمود .

وقد أطال - رحمه الله - في ردّه عليهم (١). وأكتفي بهذا القدر خوفا من الإطالة. والله الهادي إلى سواء السبيل.

## المبحث الرابع: الإيمان بأشراط الساعة

### معنى أشراط الساعة وأدلتها

الأشراط: العلامات، واحدها شرط، بالتحريك، وبه سميت شرط السلطان، لأنّهم جعلوا لأنفسهم علامات يعرفون بها.(٢) والمراد بالأشراط هنا العلامات التي يعقبها قيام الساعة.(٣)

ومعنى الساعة: هو يوم القيامة، وقد تكرّر ذكرها في القرآن والحديث، والساعة في الأصل تطلق بمعنيين: أحدهما أن تكون عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزءا هي مجموع اليوم والليلة. والثاني: أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار أو الليل، يقال: جلست عندك ساعة من النهار. أي وقتا قليلا منه، ثمّ استعير لاسم يوم القيامة. قال الزجاج: معنى الساعة في كلّ القرآن: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، يريد أنّها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم، فلقلّة الوقت الذي تقوم فيه سمّاها ساعة.(٤)

وفي القرآن الكريم ذكر الساعة في عدّة آيات، منها: قوله تعالى: (( وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ))(٥) قال الشوكاني: (( أي القيامة. وسمّيت ساعة لأنّها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا. ))(٦) وقوله سبحانه: (( فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ))(٧) ومعنى أشراطها - كما قال الشوكاني -: (( أي أماراتها وعلاماتها، وكانوا قد قرأوا في كتبهم أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم آخر الأنبياء فبعثته من أشراطها. ))(٨)

---

(١) انظر إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ١٨ - ٢٤).
(٢) النهاية لابن الأثير (٤٦٠/٢ مادة: شرط)، وانظر لسان العرب لابن منظور (٣٢٩/٧، ٣٣٠ مادة: شرط)
(٣) الفتح لابن حجر (٧٩/١٣)
(٤) النهاية لابن الأثير (٤٢٢/٢ مادة: سوع)، وانظر المفردات للأصفهاني (ص ٢٤٨ مادة: ساعة)، ولسان العرب لابن منظور (١٦٩/٨ مادة: سوع)
(٥) سورة الروم: آية ٥٥.
(٦) فتح القدير: الشوكاني (٢٣٢/٤).
(٧) سورة محمّد: آية ١٨.
(٨) فتح القدير: الشوكاني (٣٥/٥).

فأشراط الساعة هي علامات القيامة التي تسبقها وتدل على قربها .

وقد ورد في كتاب الله ذكر جملة من أشراط الساعة سيأتي ذكر بعضها قريبا، وفي سنّة المصطفى صلى الله عليه وسلم ذكر كثير من أشراط الساعة وعلاماتها .

منها : حديث جبريل المشهور حيث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أمارات الساعة قال: أخبرني عن أماراتها، فقال صلى الله عليه وسلم :(( أن تلد الأمة ربّتها [1]، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان .))[2]

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(( لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجّالون كذّابون قريب من ثلاثين، كلّهم يزعم أنّه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْج وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهِمَّ ربَّ المال من يقبل صدقته ، وحتى يَعْرِضَه فيقول الذي يَعْرِضه عليه : لا أَرَبَ لي به [3]، وحتى يتطاولَ الناس في البنيان، وحتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا .))[4]

ومنها حديث حذيفة بن أَسِيد الغفاري رضي الله عنه قال:(( طلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر ،فقال: ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال: إنّها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات . فذكر الدخان، والدجّال، والدابّة ، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب،وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم .))[5]

وغيرها من الأحاديث وهي كثيرة جدّا .

---

(١) قال ابن الأثير :يعني أنّ الأمة تلد لسيدها ولدا فيكون لها كالمولى،لأنّه في الحسب كأبيه ،أراد أنّ السبي يكثر والنعمة تظهر في الناس فتكثر السراري(النهاية ١٧٩/٢ مادة : ربب)

(٢) تقدّم تخريجه في صفحة (١٣٣) .

(٣) أي لا حاجة لي اليه . والأرب: الحاجة ( النهاية لابن الأثير ٣٥/١ مادة : أرب )

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الفتن،باب (٢٥)( الفتح ٨٨/١٣ برقم ٧١٢١) واللفظ له ،ورواه مسلم مفرّقا انظر كتاب الفتن وأشراط الساعة في صحيحه .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ،باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٢٢٥/٤، ٢٢٢٦ برقم ٢٩٠١) ،وأحمد في المسند (٦/٤) .

وهذه العلامات منها ما هو قريب من قيام الساعة، وهو ما يسمّى بعلامات كبرى، كظهور الامام المهدي، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج الدجّال، وطلوع الشمس من مغربها، وغيرها، ومنها ما يكون قبل ذلك، وهو ما يسمّى بعلامات صغرى كما جاء في حديث جبريل وغيره .

ذكر جملة من أشراط الساعة العظام التي تكلّم عليها الشوكاني

تناول الشوكاني – رحمه الله تعالى – جملة من أشراط الساعة في ثنايا كتبه، وخاصّة في كتابه : التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح[1]، وسأقتصر فيما يلي على ذكر جملة منها كما ذكرها الشوكاني وهي :

١ – ظهور المهدي المنتظر

ثبت في الأحاديث الصحيحة أنّ الله تبارك وتعالى يبعث في آخر الزمان خليفة يكون حكماً عدلاً، يلي أمر هذه الأمّة، من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم من سلالة فاطمة، يوافق اسمه اسم الرسول صلى الله عليه وسلم، واسم أبيه اسم أب الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنّه سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً .

قال الشوكاني – رحمه الله تعالى – جواباً عن سؤال ورد اليه عن الأحاديث المتواترة في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح :

(( أمّا الأحاديث الواردة في المهدي فالذي أمكن الوقوف عليه منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شكّ ولا شبهة .))[2]

ثمّ ساق – رحمه الله – تلك الأحاديث، غير أنّه لم يذكر نصوص الأحاديث في معظمها، بل يكتفي بذكر الصحابي الذي رواها والأئمة الذين أخرجوها في كتبهم .[3]

وسأذكر هنا ثلاثة منها خشية الاطالة، وهي كافية في اثبات ظهور المهدي في آخر الزمان علامة من علامة الساعة .

١ ) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (( لا تذهب الدنيا أو لا تنقضي حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي )) أخرجه

---

(١) وهو مخطوط في خمس ورقات، بتاريخ محرم ١٢١٨هـ، ونقل بقلم علي بن علي الشوكاني في شهر رجب ١٣٣٢ هـ .
(٢) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح، الشوكاني (ورقة ١، ٥) .
(٣) انظر المصدر السابق ( ورقة ١ – ٢ ) .

أحمد في المسند، وأبو داود، والترمذي[1] وفي رواية أخرى له بلفظ: (( يلي رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، لو لم يبق آخر الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي ))[2]

٢ ) حديث أم سلمة عند أبي داود بلفظ: (( المهدي من عترتي[3] من ولد فاطمة ))[4]

٣ ) حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد والحاكم بلفظ: (( لا تقوم الساعة حتى تمتلأ الأرض ظلما وجورا وعدوانا، ثم يخرج من أهل بيتي من يملأها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا ))[5]

وغير هذا من الأحاديث الكثيرة التي بلغت حدّ التواتر، وتواترها تواتر معنوي لكثرة طرقها واختلاف مخارجها وصحابتها ورواتها وألفاظها.[6]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٧٧/١، ٤٣٠) وفيه: حتى يملك العرب رجل الخ. قال أحمد شاكر: إسناده صحيح. (انظر المسند بتحقيقه ١٩٩/٥ برقم ٣٥٧٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب المهدي (٤٧٣/٤ برقم ٤٢٨٢) وفي رواية له: (( لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا مني - أو من أهل بيتي - يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا )) صحّحها الألباني في صحيح الجامع الصغير (٩٣٨/٢ برقم ٥٣٠٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في المهدي (٤٣٨/٤ برقم ٢٢٣٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وحسّنه الألباني في مشكاة المصابيح (١٥٠١/٢ برقم ٥٤٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في المهدي (٤٣٨/٤ برقم ٢٢٣١) عن ابن مسعود الشطر الأوّل، وأبي هريرة الشطر الثاني، وفيه: لو لم يبق من الدنيا. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٣٦٥/٢ برقم ٨١٦٠).

(٣) قال الخطّابي: العترة: ولد الرجل لصلبه، ويكون العترة للأقرباء وبني العمومة، ومنه قول أبي بكر رضي الله عنه يوم السقيفة: نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم (معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٤٧٤/٤).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب المهدي (٤٧٤/٤ برقم ٤٢٨٤)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب خروج المهدي (١٣٦٨/٢ برقم ٤٠٨٧)، والحاكم في المستدرك (٥٥٧/٤)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١١٤٠/٢ برقم ٦٧٣٤) وقال في مشكاة المصابيح (١٥٠١/٣ برقم ٥٤٥٣): إسناده جيد. وكذا في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٠٨/١).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٣٦/٣)، والحاكم في المستدرك (٥٥٧/٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية (١٠١/٣، ١٠٢) وقال: مشهور من حديث أبي الصديق عن أبي سعيد. وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٩/١، ٤٠).

(٦) وقد أحصى فضيلة الشيخ عبد المحسن بن حمد العبّاد - حفظه الله - في كتابه: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر، عدد الصحابة الذين رووا أحاديث المهدي فبلغوا ستة وعشرين صحابيا (ص ١٦٦)، وأحصى عدد الأئمة الذين خرّجوا هذه الأحاديث والآثار في كتبهم فبلغوا ستّة وثلاثين إماما (ص ١٦٦ - ١٦٨) كما ذكر - حفظه الله - بعض الذين ألّفوا كتبا في شأن المهدي (ص ١٦٨ - ١٧١) والذين حكموا على أحاديث المهدي بالتواتر (ص ١٧١ - ١٧٤) وذكر بعض العلماء المحققين الذين احتجّوا بأحاديث المهدي واعتقدوا موجبها وهم جمع كبير. (ص ١٨٦ - ٢٠٩).

وقد نصّ على ذلك كثير من العلماء المحققين[1] منهم الإمام الشوكاني - رحمه الله تعالى - في رسالته: التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح. قال بعد سوق الأحاديث:

(( وجميع ما سقناه بالغ حدّ التواتر لا يخفى على من له فضل اطّلاع، فتقرّر بجميع ما سقناه في هذا الجواب أنّ الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة ... وفي هذا المقدار كفاية لمن له هداية. ))[2]

وعلى هذا فلا يلتفت لمن ضعّف هذه الأحاديث أو كذّب بها ممن ليس من فرسان هذا العلم ولا يعتدّ بخلافه.

٢ - ظهور المسيح الدجّال

ومن أشراط الساعة الكبرى ظهور شخص سمّاه الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسيح الدجّال، لكثرة تدجيله وكذبه، يدّعي الألوهية، ويفتن الناس بما يعطاه من خوارق العادات وعجائب الأمور، ففتنته من أعظم الفتن والمحن التي تمرّ على الناس.

قال الشوكاني: (( وسمّي مسيحاً لأنّه ممسوح إحدى العينين، وقيل لأنّه يمسح الأرض أي يطوف بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس. ))[3]

قلت: والقول الأوّل هو الراجح لما جاء في الحديث: (( إنّ الدجّال ممسوح العين ))[4]

وهو مسيح الضلالة يفتن الناس به، أمّا مسيح الهدى فهو عيسى عليه السلام، حيث يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله. فإن الله سبحانه وتعالى خلق المسيحين أحدهما ضدّ الآخر.

وسمّي الدجّال دجّالاً لأنّه يغطّي الحقّ بالباطل، أو لأنّه يغطّي على الناس كفره

---

(١) أذكر منهم: الحافظ أبو الحسن الآبري (ت ٣٦٣هـ) على ما ذكره ابن القيم في كتابه: المنار المنيف في الصحيح والضعيف (ص ١٤٢) تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة، ومحمد بن عبد ربّ الرسول البرزنجي (ت ١١٠٣هـ) في كتابه: الإشاعة لأشراط الساعة (ص ١١٢) ط/ دار الكتب العلمية ومحمد السفاريني (ت ١١٨٨هـ) في كتابه: لوامع الأنوار البهية (٨٤/٢) وأهوال يوم القيامة وعلاماتها الكبرى (ص ١٥) ط/ مؤسسة الكتب الثقافية، ومحمد صديق حسن خان (ت ١٣٠٧هـ) في كتابه: الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة (ص ١١٢) ط/ دار الكتب العلمية، ومحمد جعفر الكتاني (ت ١٣٤٥هـ) في كتابه: نظم المتناثر من الحديث المتواتر (ص ١٤٧) ط/ دار الكتب العلمية.

(٢) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح: الشوكاني (ورقة ٥) (مخطوط)

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٣٤١/١) وانظر النهاية لابن الأثير (٣٢٧/٤)، ولسان العرب لابن منظور (٥٩٤/٢، ٥٩٥) مادة: مسح.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٢٤٨/٤ ===

بكذبه وتلبيسه وتمويهه عليهم ، وقيل غير ذلك .[1]

ولفظة الدجّال أصبحت علَمًا على المسيح الأعور الكذّاب، فإذا قيل الدجّال فلا يتبادر الى الذهن غيره .

وقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر خروج الدجّال في آخر الزمان والتحذير منه ، حيث إنّه صلى الله عليه وسلم وصفه لأمّته وصفا دقيقا لا يخفى على ذي بصيرة ، كما حذّرمنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله أممهم ،ووصفوه لهم أوصافا ظاهرة .

وقد نصّ الشوكاني - رحمه الله تعالى - على تواتر أحاديث الدجّال في رسالته : التوضيح ، وجمع فيها أحاديث كثيرة بلغت مائة حديث، الا أنّه لم يذكر نصوصها وانّما يكتفي بذكر الصحابي الذي رواها،والأئمة الذين خرّجوها في كتبهم .[2]

وحبًّا للاختصار أذكر هنا نصوص بعض الأحاديث :

١ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس،فأثنى على الله بما هو أهله ، ثمّ ذكر الدجّال،فقال:(( إنّي لأُنذركموه ، وما من نبيّ الاّ وقد أنذر قومه ،ولكنّي سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبيّ لقومه ، إنّه أعور، وإنّ الله ليس بأعور.))[3]

٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(( ألا أخبركم عن الدجّال حديثا ما حدّث نبيّ قومه ، إنّه أعور، وإنّه يجيئ معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول إنّها الجنة هي النار، وانّي أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه.))[4]

٣ - وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(( الدجّال ممسوح العين، عليها ظَفَرَةٌ[5] غليظة ، مكتوب بين عينيه كافر، يقرأه كلّ مؤمن كاتب وغير كاتب.))[6]

---

=== برقم ٢٩٣٣ مكرر) عن أنس بن مالك .

(١) انظر لسان العرب لابن منظور (١١/٢٣٦،٢٣٧ مادة :دجل)،والفتح لابن حجر (١٣/٩٧) .

(٢) انظر ورقة (٢،٣) من رسالته : التوضيح ( مخطوط ) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الفتن،باب ذكر الدجّال ( الفتح ١٣/٩٦،٩٧ برقم ٧١٢٧) .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ،باب ذكر الدجّال وصفته وما معه (٤/٢٢٥٠ برقم ٢٩٣٦).

(٥) ظَفَرة : بفتح الظاء والفاء:لحمة تنبت عند المآقي،وقد تمتد الى السواد فتُغَشِّيه. ( النهاية لابن الأثير ٣/١٥٨ مادة : ظفر)

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ،باب ذكر الدجّال وصفته وما معه (٤/٢٢٤٩ - برقم ٢٩٣٤ مكرر)

وغير ذلك من الأحاديث .

قال الشوكاني بعد أن ساق الحديث الموفي المائة :

(( ولنقتصر على هذا المقدار ، فليس المراد هنا إلا بيان كون أحاديث خروج الدجّال متواترة ، والتواتر يحصل بالبعض مما سقناه ، وقد بقيت أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة تركنا ذكرها . ))[1]

وقد ورد في بعض الأحاديث ما يفيد أنّ الدجال هو رجل يقال له : ابن صيّاد . وفي ذلك قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ :

(( وابن صيّاد : اسمه صاف ، وأصله من اليهود .[2] وقد اختلف الناس في أمر ابن صيّاد اختلافا شديدا ، وأشكل أمره حتى قيل فيه كل قول . وظاهر الحديث[3] أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مترددا في كونه هو الدجال أم لا ؟ ومما يدلّ على أنّه هو الدجال ما أخرجه الشيخان وأبو داود عن محمد بن المنكدر[4] قال : كان جابر بن عبد الله يحلف بالله أنّ ابن صيّاد هو الدجال ، فقلت : أتحلف بالله ؟ فقال : إنّي سمعت عمر بن الخطاب يحلف على ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) التوضيح : الشوكاني ( ورقة ٣ ) ( مخطوط )

(٢) وقيل من الأنصار ، وكان صغيرا عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكان شبيها بالدجال في كثير من صفاته ، فانتشر خبره بين الناس ، وشاع أنّه الدجال ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم متوقفا في أمره ، لأنّه لم يوح إليه أنّه الدجال ولا غيره ، وإنّما أوحي إليه بصفات الدجال ، وكان في ابن صيّاد قرائن محتملة ، وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم يحلف أنّه هو الدجال . وقد ترجم له الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٣٣/٣ برقم ٦٦٠٩) قال بعد أن ذكر جملة من الأحاديث في شأنه : (( لا معنى لذكر ابن صيّاد في الصحابة ، لأنّه إن كان الدجال فليس بصحابي قطعا ، لأنّه يموت كافرا ، وإن كان غيره فهو حال لُقِيّه النبي لم يكن مسلما . ( وانظر ترجمته أيضا في شرح النووي لمسلم ٤٦/١٨ ، والنهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ١٢٨/١ تحقيق / د . طه زيني ) .

(٣) وهو حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنّ عمر انطلق مع النبي في رهط قِبَلَ ابن صيّاد حتى وجدوه يلعب مع الصبيان ، وقد قارب ابن صيّاد الحلم ، فلم يشعر حتى ضرب النبي صلى الله عليه وسلم ظهره بيده ، ثمّ قال لابن صيّاد : أتشهد أنّي رسول الله ؟ فنظر إليه ابن صيّاد ، فقال : أشهد أنّك رسول الأمّيين ، فقال ابن صيّاد للنبي صلى الله عليه وسلم : أتشهد أنّي رسول الله ؟ فرفضه وقال : آمنت بالله وبرسله ... فقال عمر رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن يكنه فلن تسلّط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله . متفق عليه ( أخرجه البخاري في صحيحه في عدة مواضع انظر كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبي الخ ( الفتح ٢٥٩/٣ برقم ١٣٥٤ ) واللفظ له ، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صيّاد (٢٢٤٤/٤ برقم ٢٩٣٠ ) وأورده الشوكاني في نيل الأوطار ٦٦/٩ ) .

(٤) محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدَيْر بالتصغير التيمي المدني ، تابعي من الثالثة ثقة فاضل ، مات (١٣٠هـ) أو بعدها ( انظر التقريب لابن حجر ص ٥٠٨ برقم ٦٣٢٧ ) .

فلا ينكره[1] .

قال الشوكاني: وقد أجيب عن التردد منه صلى الله عليه وآله وسلم بجوابين: الأول: أنه تردد صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يعلمه الله بأنه هو الدجال، فلما أعلمه لم ينكر على عمر حلفه. والثاني: أن العرب قد تخرج الكلام مخرج الشك، وإن لم يكن في الخبر شك.

ومما يدلّ على أنه هو الدجال ما أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح[2] عن ابن عمر قال: (( لقيت ابن صياد يوما ومعه رجل من اليهود، فإذا عينه قد طفئت، وهي خارجة مثل عين الحمار، فلما رأيتها قلت: أنشدك الله يا ابن صياد، متى طفئت عينك ؟ قال: لا أدري والرحمن. قلت: كذبتَ وهي في رأسك، قال: فمسحها ونخر ثلاثا ... ))[3]

والذي يظهر لي من كلام الشوكاني أنه يرجّح كون ابن صياد هو الدجال الأكبر، إلا أنه ـ رحمه الله ـ أورد قصة تميم الداري التي تفيد أن الدجال الأكبر غير ابن صياد .

والقصة أخرجها مسلم[4] من حديث فاطمة بنت قيس: (( أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب، فذكر أن تميما الداري أخبره أنه لقي هو وجماعة معه في دير في جزيرة لعب بهم الموج شهرا حتى وصلوا إليها رجلا كأعظم إنسان رأوه قط، وأشدّه وثاقا مجموعة يداه إلى عنقه بالحديد، فقالوا له: ويلك ما أنت ؟ )) فذكر الحديث وفيه: (( أنه سألهم عن نبي الأميين هل بُعث ؟ وأنه قال: إن تطيعوه فهو خير لكم )) وفيه أنه قال: (( إنّي مخبركم عنّي أنا المسيح الدجال، وإنّي أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة.)) وفي بعض طرقه أنه شيخ . قال الحافظ: وسندها صحيح[5].

قال الشوكاني بعد ذكر القصة: (( وهذا الحديث ينافي ما استدل به على أن ابن صياد هو الدجال، ولا يمكن الجمع أصلا، إذ لا يلتئم أن يكون من كان في الحياة النبوية شبه المحتلم، ويجتمع به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويسأله أن يكون شيخا في آخرها

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من رأى ترك النكير من النبي صلى الله عليه وسلم حجة لا من غير الرسول ( الفتح ٣٣٥/١٣ برقم ٧٣٥٥)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (٢٢٤٣/٤ برقم ٢٩٢٩) .

(٢) انظر المصنف (٣٩٦/١١) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، وأخرجه مسلم بمعناه من وجه آخر في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (٢٢٤٦/٤، ٢٢٤٧ برقم ٢٩٣٢ مكرر)

(٣) نيل الأوطار، الشوكاني (٦٨/٩) .

(٤) في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة (٢٢٦١/٤-٢٢٦٤ برقم ٢٩٤٢) .

(٥) انظر الفتح (٣٢٨/١٣) .

مسجونا في جزيرة من جزائر البحر، موثوقا بالحديد، يستفهم عن خبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل خرج أم لا، فينبغي أن يحمل حلف عمر وجابر على أنه وقع قبل علمهما بقصة تميم.))[1]

قلت: وهذا هو الأولى والأرجح، فإن الدجال بعينه هو الذي شاهده تميم موثقا، أما ابن صياد فليس هو الدجال بعينه، وإنما هو دجال من الدجاجلة الذين أنذر بهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (( لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله.))[2] أو أنه شيطان تبدى في صورة الدجال في تلك المدة كما قال الحافظ ابن حجر جمعا بين الأحاديث المختلفة.[3]

قال البيهقي - رحمه الله -: (( فيه ( أي في حديث قصة تميم ) أن الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان غير ابن صياد، وكان ابن صياد أحد الدجالين الكذابين الذين أخبر صلى الله عليه وسلم بخروجهم، وقد خرج أكثرهم ... وأجاب - رحمه الله - عن حديث ابن صياد بأن سكوت النبي صلى الله عليه وسلم على حلف عمر يحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم كان متوقفا في أمره، ثم جاءه التثبت من الله تعالى بأنه غيره على ما تقتضيه قصة تميم الداري، وبه تمسك من جزم بأن الدجال غير ابن صياد، وطريقه أصح، وتكون الصفة التي في ابن صياد وافقت ما في الدجال.))[4]

وقد قال بهذا القول كثير من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية[5] والحافظ ابن كثير[6]، والحافظ ابن حجر[7]، ومحمد السفاريني[8]، وغيرهم. والله أعلم بالصواب.

## ٣ - نزول عيسى عليه السلام

ومن أمارات الساعة الكبرى نزول عيسى عليه الصلاة والسلام. وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أنه ينزل قبل قيام الساعة، فيقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويضع الجزية،

---

(١) نيل الأوطار، الشوكاني (٦٩/٩)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ( الفتح ٧١٣/٦ برقم ٣٦٠٩)، وأخرجه أيضا برقم (٧١٢١)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل الخ (٢٢٤٠/٤ برقم ١٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر الفتح (٣٤٠/١٣) . (٤) نقله عنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٢٨/١٣) ونقله عنه الشوكاني في نيل الأوطار (٦٩/٩).

(٥) انظر مجموع فتاوى (٢٨٣/١١) . (٦) انظر النهاية في الفتن والملاحم (٧٠/١) تحقيق/ د: طه زيني.

(٧) انظر الفتح (٣٤٠/١٣). (٨) انظر لوامع الأنوار البهية (١٠٨/٢): والسفاريني: هو محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الحنبلي، محدث، أصولي، له تصانيف كثيرة منها: البحور الزاخرة في أمور الآخرة، ولوامع الأنوار البهية. توفي (١١٨٨هـ) (انظر ترجمته في معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة ٢٦٢/٨، والأعلام: الزركلي ١٤/٦) .

ويحكم بالقسط ويقضي بشريعة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحيي من شأنها ما تركها الناس، ثمّ يمكث في الأرض ما شاء الله أن يمكث، ثم يموت، ويصلّى عليه ويُدفن .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم آيتين تدلّ على نزول عيسى عليه السلام :

الآية الأولى، قوله تعالى: (( وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ))[1] أي قبل موت عيسى عليه السلام ، فالضمير في ( به ) راجع الى عيسى، وكذلك الضمير في ( موته ). والمعنى: انّه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كلّ كتابيّ في عصره .

ورجّحه الشوكاني - رحمه الله تعالى - هذا القول، وقال:

(( وقد اختار كون الضميرين لعيسى ابن جرير[2] ، وقال به جماعة من السلف[3] ، وهو الظاهر، والمراد: الايمان به عند نزوله في آخر الزمان، كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة ))[4]

وقال رحمه الله - بعد سوق عدّة روايات في معنى الآية -:

(( وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم الى أنّ المراد قبل موت عيسى، كما روي عن ابن عبّاس قبل هذا . وقيّده كثير منهم بأنّه يؤمن به من أدركه عند نزوله الى الأرض . وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما أوضحنا ذلك في مؤلّف مستقل[5] يتضمّن ذكر ما ورد في المنتظر والدجّال والمسيح . ))[6]

والآية الثانية، قوله تعالى: (( وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ))[7] أي أنّ نزول عيسى عليه السلام قبل القيامة علامة على قرب الساعة .

قال الشوكاني - رحمه الله تعالى - في تفسير الآية نقلا عن جماعة من المفسّرين :

(( إنّ المراد: المسيح، وإنّ خروجه مما يعلم به قيام الساعة لكونه شرطا من شروطها، لأنّ الله سبحانه وتعالى ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أنّ خروج الدجّال من أعلام الساعة )) واختار رحمه الله هذا القول وقال: هو أولى .[8]

---

(١) سورة النساء : آية ١٥٩ . (٢) انظر تفسيره (١٨/٦) .

(٣) ذكر ابن كثير في تفسيره (٥٨٩/١، ٥٩٠) أنّ هذا هو قول ابن عبّاس والحسن وقتادة وغيرهم ، وقال: هذا القول هو الحقّ. وانظر أيضا تفسير الطبري (١٨/٦-٢١) .

(٤) فتح القدير : الشوكاني (٥٣٥/١) .

(٥) وهو: التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح ( مخطوط ) .

(٦) فتح القدير: الشوكاني (٥٣٦/١) . (٧) سورة الزخرف: آية ٦١ .

(٨) انظر فتح القدير : الشوكاني (٥٦٢/٤) .

ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى : ( وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ ) بفتح العين واللام ، أي خروجه عَلَم من أعلامها وشرط من شروطها .(١)

ويجب أن نعتقد بأنّ عيسى عليه السلام لم يقتله اليهود ، وانّما رفعه الله إليه ببدنه وروحه ، وأنّه حيّ الآن في السماء ، ولن يموت حتى ينزل قبل قيام الساعة . فقد قال سبحانه وتعالى : (( وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . ))(٢)

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : (( قوله : ( بل رفعه الله إليه ) يبيّن أنّه رفع ببدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنّه ينزل ببدنه وروحه ، اذ لو أريد موته لقال : وما قتلوه وما صلبوه ، بل مات ... ))(٣)

وقال تعالى : (( إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ))(٤) .

قال الشوكاني بعد سوق أقوال المفسّرين في تأويل معنى الوفاة في الآية :

(( ... الصحيح أنّ الله رفعه الى السماء من غير وفاة ، كما رجّحه كثير من المفسّرين(٥) ، واختاره ابن جرير الطبري(٦) . ووجه ذلك أنّه قد صحّ في الأخبار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نزوله وقتله الدجّال . ))(٧)

وقال ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : (( فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ))(٨) :

(( قيل هذا يدلّ على أنّ الله سبحانه توفّاه قبل أن يرفعه ، وليس بشيء ، لأنّ الأخبار قد تضافرت بأنّه لم يمت ، وأنّه باق في السماء على الحياة التي كان عليها في الدنيا ، حتى ينزل الى الأرض آخر الزمان ، وانّما المعنى : فلمّا رفعتني الى السماء .

---

(١) انظر فتح القدير ، الشوكاني (٥٦٢/٤) قال : وهي قراءة ابن عبّاس ، وأبي هريرة ، وأبي مالك الغفاري ، وقتادة ، ومالك بن دينار ، والضحّاك ، وزيد بن علي .

(٢) سورة النساء ، آية ١٥٧ ، ١٥٨ . (٣) مجموع فتاوى ، ابن تيمية (٣٢٣/٤) .

(٤) سورة آل عمران ، آية ٥٥ .

(٥) انظر تفسير البغوي (٣٠٨/١) ، وزاد المسير لابن الجوزي (٣٩٦/١) ، وتفسير الفخر الرازي (٦٨/٨) ، وتفسير القرطبي (٩٨/٤) ، ومجموع فتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية (٣٢٢/٤) ، وتفسير ابن كثير (٣٧٤/١) .

(٦) انظر تفسير الطبري (٢٩١/٣) . (٧) فتح القدير ، الشوكاني (٣٤٤/١) .

(٨) سورة المائدة ، آية ١١٧ .

قيل: الوفاة في كتاب الله سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه : بمعنى الموت . ومنه قوله تعالى:(( اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ))(١). وبمعنى النوم . ومنه قوله تعالى:(( وَهُوَ الذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ))(٢) أي ينيمكم . وبمعنى الرفع . ومنه :(( فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ))(٣)، (( إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ))(٤) (٥)

قلت : وهذا القول هو الصحيح المتعيّن، وهو الذي عليه سلف الأمّة.

وأمّا الأدلّة من السنة على نزول عيسى عليه السلام فهي كثيرة ومتواترة ، سبق ذكر بعضها. وقد أورد الشوكاني في رسالته : التوضيح تسعة وعشرين حديثا (٦)، سأذكر هنا بعضا منها خشية الاطالة :

١ ) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(( والذي نفسي بيده ليوشِكَنّ أن ينزل فيكم ابنُ مريم حَكَمًا عدلا ، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ،(٧) ويفيض المال حتى لا يقبلَه أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها .))(٨) ثمّ يقول أبو هريرة :(( واقرأوا إنّ شئتم :(( وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ))(٩)

٢ ) عن جابر رضي الله عنه قال:(( سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:(( لاتزال طائفة من أمّتي يقاتلون على الحقّ ظاهرين الى يوم القيامة .قال: فينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم : تَعَالَ صَلِّ لنا . فيقول: لا ،إنّ بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله لهذه الأمّة ))(١٠)

٣ ) عن النواس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجّال، ومما ذكر:(( ... ثمّ يبعث الله عيسى بن مريم ،فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدٍّ(١١)

---

(١) سورة الزمر : آية ٤٢ . (٢) سورة الأنعام : آية ٦٠ .
(٣) سورة المائدة : آية ١١٧ . (٤) سورة آل عمران : آية ٥٥ .
(٥) فتح القدير : الشوكاني(٢/٩٥).(٦) انظر ورقة ( ٣ ـ ٥ ) .
(٧) أي يحمل الناس على دين الاسلام ،فلايبقى ذمّي تجري عليه الجزية.(النهاية لابن الأثير ١٩٧/٥ مادة : وضع) .
(٨) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء،باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام (الفتح ٦٦٦/٦ برقم ٣٤٤٨)،ومسلم في كتاب الايمان،باب نزول عيسى حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (١٣٥/١ برقم ١٥٥) .
(٩) سورة النساء،آية ١٥٩ . (١٠) أخرجه مسلم في كتاب الايمان،باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (١٣٧/١ برقم ١٥٦).
(١١) بلدة قريبة من بيت المقدس ( شرح النووي لمسلم ٦٨/١٨) .

فيقتله ... ))[١]

وغير ذلك من الأحاديث .

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ بعد سوق الحديث التاسع والعشرين :

(( فهذه تسعة وعشرون حديثا ينضم إليها أحاديث أخرى ذكر فيها نزول عيسى عليه السلام ، منها ما هو مذكور في أحاديث الدجّال ، ومنها ما هو مذكور في أحاديث المنتظر ، وينضم إلى ذلك أيضا الآثار الواردة عن الصحابة ، فلها حكم الرفع ، إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك ... فالأحاديث الواردة في نزول عيسى متواترة ، وفي هذا المقدار كفاية لمن له هداية .))[٢]

وقد نصّ على تواتر هذه الأحاديث كثير من العلماء المحقّقين ، منهم ابن جرير الطبري[٣] ، وابن كثير[٤] ، ومن المعاصرين الشيخ أحمد شاكر[٥] ، والشيخ الألباني[٦] وغيرهم .

وقد أجمعت الأمّة على نزوله ، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة إلا من شذّ منهم ممن لا يلتفت إلى كلامه ولا يعتدّ بخلافه .

## ٤ ـ خروج يأجوج ومأجوج

ومن علامات الساعة الكبرى خروج يأجوج ومأجوج . وقد ورد ذكر هذه العلامة في القرآن الكريم وفي السنة المطهّرة .

قال تعالى : (( حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ))[٧]

وقال تعالى في سياق قصة ذي القرنين : (( ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ، قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ، قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجّال وصفته وما معه (٢٢٥٣/٤ ـ برقم ٢١٣٧) واللفظ له ، وأبو داود في كتاب الملاحم ، باب خروج الدجّال (٤٩٧/٤ برقم ٤٣٢١)

(٢) التوضيح ، الشوكاني ( ورقة ٥ ) ( مخطوط ) .

(٣) انظر تفسير الطبري (٢٩١/٣) . (٤) انظر تفسير ابن كثير (١٤٣/٤) .

(٥) انظر حاشية مسند الإمام أحمد بتحقيقه (٢٥٧/١٢) .

(٦) انظر شرح العقيدة الطحاوية بتخريجه (ص ٥٦٥) في الهامش .

(٧) سورة الأنبياء ، آية ٩٦، ٩٧ .

فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ءاتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا، قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا ))(١)

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ :

(( يأجوج ومأجوج اسمان عجميان، بدليل منع صرفهما، وبه قال الأكثر، وقيل: مشتقان من أجّ الظليم في مشيه إذا هرول، وتأججت النار إذا تلهّب ... (٢) وهما قبيلتان من الانس(٣).))

واختلف في نسبهم، فقيل هم من ولد يافث بن نوح. وقيل: يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم ...(٤)

قلت : والأوّل هو الراجح، كما قاله الحافظ ابن كثير(٥)، فانهما من ذرّية يافث أبي الترك، ويافث من ولد نوح عليه السلام.

وقد وقع الخلاف في صفتهم كما ذكر الشوكاني، فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة، ومنهم من يقول: لهم مخالب كمخالب السباع، وانّ منهم صنفا يفترش احدى أذنيه ويلتحف بالأخرى. ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة في صفاتهم وأفعالهم.(٦)

قلت : ومعظم هذه الصفات رواياتها ضعيفة(٧)، ولا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الصفات، فان صحّ الخبر فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل والا لم يلتفت اليه.

ومما ورد في أوصافهم من الأحاديث الصحيحة : ما روى الامام أحمد عن ابن حرملة عن خالته قالت: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب، فقال: (( إنّكم تقولون: لا عدوّ، وانّكم لا تزالون تقاتلون عدوّا حتى يأتي يأجوج ومأجوج:

---

(١) سورة الكهف : آية ٩٢ ـ ٩٩ . (٢) فتح القدير : الشوكاني (٣/٣١١) .
(٣) انظر المصدر السابق (٣/٤٢٦) . (٤) المصدر السابق (٣/٣١٢) .
(٥) انظر النهاية في الفتن والملاحم (١/١٥٣) تحقيق: د/طه زيني، وانظر الفتح لابن حجر (١٣/١١٣) .
(٦) فتح القدير : الشوكاني (٣/٣١٢) .
(٧) انظر الفتح لابن حجر (١٣/١١٤) .

عِرَاضُ الوجوه ، صغار العيون، شُهْبُ الشِّعَاف[1] ، من كل حَدَبٍ ينسلون[2] كأنّ وجوههم المَجَانُ المُطْرَقَة[3] .))[4]

قال الشوكاني:(( واختلف في افسادهم الأرض ، فقيل هو أكل بني آدم ، وقيل هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الافساد ، وقيل كانوا يخرجون الى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم الى ذي القرنين في أيّام الربيع فلا يَدَعون فيها شيئا أخضر الا أكلوه .))[5]

ومما ورد ذكرهم في الأحاديث الصحيحة ما يذكره الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسيره من أحاديث ، منها حديث زينب بنت جحش قالت ؛ استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمَّر وجهه ، وهو يقول: لا اله الا الله ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فُتِح اليوم من رَدْم[6] يأجوج ومأجوج مثل هذه )) وحلّق بأصبعِه الابهام والتي تليها . قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم ، اذا كثر الخبث ))[7] .

وحديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(( إنّ يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ، ولا يموت منهم رجل الا ترك من ذرّيته ألفا فصاعدا ))[8]

وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة التي ذكرت يأجوج ومأجوج. ومجموع النصوص الواردة بذكرهم يفيد العلم اليقيني بظهور هذه الأمّة المفسدة في أواخر زمان الدنيا بعد نزول عيسى عليه السلام وقتل الدجّال . فيجب على المؤمن التصديق بما ورد به القرآن والأحاديث

---

(١) الشعاف:جمع شعفة وهي أعلى شعر الرأس، والمراد شهب الشعور ( انظر النهاية لابن الأثير ٤٨١/٢، ٤٨٢ مادة : شعف ) .
(٢) قال الشوكاني،والحَدَبُ كل أكمة من الأرض مرتفعة ،والجمع أحداب ،مأخوذ من حدبة الأرض، ومعنى ينسلون أي يسرعون،والمعنى،أي انّ يأجوج ومأجوج من كل مرتفع من الأرض يسرعون المشي ويتفرّقون في الأرض . ( فتح القدير ٤٢٦/٣) .
(٣) أي التراس التي أُلبست العَقَب شيئا فوق شيء.قال العلماء،ومعناه :تشبيه وجوه الترك في عرضها وتلوّن وجناتها بالترسة المطرقة (انظر النهاية لابن الأثير ١٢٢/٣ مادة :طرق، وشرح النووي لمسلم ٣٦/١٨) .
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٧١/٥) ،قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٨) :رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.
(٥) فتح القدير، الشوكاني(٣١٢/٣). (٦) الردم :ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل، يقال:ردمت الثلمة ردما اذا سددتها،والردم أيضا الاسم وهو السدّ ( انظر النهاية لابن الأثير ٢١٦/٢ مادة ، ردم ،وأيضا فتح القدير للشوكاني ٣١٢/٣) .
(٧) فتح القدير، الشوكاني(٣١٤/٣) والحديث أخرجه البخاري في عدّة مواضع انظر كتاب أحاديث الأنبياء،باب قصّة يأجوج ومأجوج ( الفتح ٤٤٠/٦ برقم ٣٣٤٦) ،ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ،باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج.(٢٢٠٨/٤ برقم ٢٨٨٠ مكرر) واللفظ له .
(٨) فتح القدير، الشوكاني(٣١٤/٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٨): رواه ===

الصحيحة من أمرهم ، ولا يعنينا البحث عن التفصيلات الدقيقة المتعلقة بهم ، فهذا من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .

٥ ـ طلوع الشمس من مغربها

ومن علامات الساعة الكبرى طلوع الشمس من مغربها . وهو ثابت بالكتاب والسنة .

قال تعالى: (( يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا )) (١)

وقد دلت الأحاديث الصحيحة أن المراد ببعض الآيات المذكورة في الآية هو طلوع الشمس من مغربها، وهو قول معظم المفسّرين (٢). وافقهم الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ فقد أورد عند تفسيره للآية عدة روايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . منها ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (( لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها . ثم قرأ الآية . )) (٣)

قال الشوكاني: (( وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي ذرّ مرفوعاً نحوه ، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عبّاس مرفوعاً نحوه أيضاً ..... فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبويّ من وجه صحيح لا قادح فيه فهو واجب التقديم له متحتّم الأخذ به . )) (٤)

قلت : وهذا هو المنهج الصحيح الذي عليه السلف أهل السنة رضوان الله عليهم .

٦ ـ خروج الدابّة

ومن علامات الساعة الدالة على قرب وقتها خروج دابة الأرض في آخر الزمان تكلّمهم وتسمّيهم مؤمناً وكافراً، وذلك عند فساد الناس وتركهم أوامر الله . وهو ثابت بالكتاب والسنة .

أمّا الكتاب فقوله تعالى: (( وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ

---

=== الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات. وقال الحافظ ابن حجر (الفتح ١١٤/٣): أخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن عبد الله بن سلام مثله اهـ. وروى الحاكم طرفاً منه في المستدرك (٤٩٠/٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي .

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٨ . (٢) انظر تفسير الطبري (٦٦/٨ـ١٠٢)، وتفسير البغوي (١٤٤/٢)، وزاد المسير لابن الجوزي (١٥٦/٣، ١٥٧)، وتفسير القرطبي (١٤٥/٧)، وتفسير ابن كثير (٢٠١/٢) . (٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب (٤٠) (الفتح ٣٦٠/١١ برقم ٦٥٠٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٣٧/١ برقم ١٥٧) (٤) فتح القدير: الشوكاني (١٨٢/٢) .

أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ))(١)

وقد اختلف العلماء والمفسرون في هذه الدابّة على أقوال، ذكر الشوكاني - رحمه الله تعالى - سبعة، ولم يرجّح واحداً منها . وهي :

١) انّها فصيل ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة ويكون من أشراط الساعة .

٢) هي دابّة ذات شعر وقوائم طوال يقال لها الجساسة .(٢)

٣) هي دابّة على خلقة بني آدم وهي في السحاب وقوائمها في الأرض .

٤) رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيّل(٣) وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرّ، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كلّ مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعا .

٥) هي الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة، والمراد أنّها هي التي تخرج في آخر الزمان .

٦) هي دابّة ما لها ذنب ولا لحية .

٧) هي انسان ناطق متكلّم يناظر أهل البدع ويراجع الكفّار .

وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره .(٤)

قلت : هذه الأقوال لا تخلو من مقال، إمّا في صحّتها أو نسبتها الى رسول الله المبلّغ من ربّه صلى الله عليه وسلم . والذي يجب الايمان به أنّ الله سبحانه وتعالى سيخرج للناس في آخر الزمان دابّة مخالفة لما يعتاده البشر، فهي من خوارق العادة، كما أنّ طلوع الشمس من مغربها أمر خارق للعادة .

وكما اختلفوا في صفة الدابّة اختلفوا في موضع خروجها، فقيل من جبل الصفا بمكة، وقيل تخرج من جبل أبي قبيس، وقيل لها ثلاث خرجات: خرجة من بعض البوادي حتى يتقاتل عليها

---

(١) سورة النمل : آية ٨٢ .

(٢) أي الجساسة المذكورة في حديث تميم الداري رضي الله عنه في قصّة الدجّال المتقدّم ذكرها وسمّيت بالجساسة لأنّها تَجُسّ الأخبار للدجّال . (النهاية لابن الأثير ٢٧٢/١ مادة: جسس ).

(٣) الأيل بكسر الهمزة وضمّها: الذكر من الأوعال (اللسان: ابن منظور ٣٥/١١ مادة: أول ).

(٤) فتح القدير: الشوكاني (١٥١/٤) وانظر حكاية الأقوال والآثار في هذه الدابّة في: تفسير البغوي (٤٢٩/٣) وتفسير الفخر الرازي (٢١٧/١٢، ٢١٨) وتفسير القرطبي (٢٣٥/١٣، ٢٣٦) وتفسير ابن كثير (٣٨٦/٣-٣٨٨) والاشاعة لأشراط الساعة للشريف محمد البرزنجي (ص ١٧٤، ١٧٥) ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (١٤٦/٢-١٤٩) .

الناس، وتكثر الدماء ثم تكمن، وتخرج في القرى، ثم تخرج من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها، وقيل تخرج من بين الركن والمقام ... وقيل غير ذلك . وقد ذكر الشوكاني تسعة أقوال ولم يرجّح أحداً منها .[1] وغالبها يدور على أنّ خروجها من الحرم المكّي[2]. والله أعلم .

واختلفوا أيضاً في معنى قوله : ( تكلّمهم ) فقيل : تكلّمهم ببطلان الأديان سوى دين الاسلام ، وقيل : تكلّمهم بما يسوءهم ، وقيل : تكلّمهم بقوله تعالى : ( أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ) .[3]

وقرأ الجمهور بكسر ( إنّ ) على الاستئناف، وقرأ الكوفيّون بفتحها، والمعنى على قراءة الفتح : بأنّ الناس . كذا قرأ ابن مسعود ، وعلى هذه القراءة فالذي تكلّم الناس به هو قوله : ( أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون )، وأمّا على قراءة الكسر فالجملة مستأنفة ، ولا تكون من كلام الدابّة ، وقد صرّح بذلك جماعة من المفسّرين .[4] ويكون المعنى: تكلّمهم بما يسوؤهم ، أو ببطلان الأديان سوى دين الاسلام . [5]

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ : (( والصواب من القول في ذلك أنّهما قراءتان متقاربتا المعنى، مستفيضتان في قراءة الأمصار . ))[6]

أمّا الأدلّة من السنة فهي كثيرة منها :

ما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (( ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابّة الأرض . ))[7]

وقد أورد الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره روايات كثيرة في صفة الدابّة ، ومكان خروجها، وما تصنعه، ومتى تخرج ، بعضها صحيح، وبعضها حسن، وبعضها ضعيف .

قال : (( وأمّا كونها تخرج وكونها من علامات الساعة فالأحاديث الواردة في ذلك صحيحة ، ومنها ما هو ثابت في الصحيح ، كحديث حذيفة مرفوعاً : (( لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات،

---

(١) انظر فتح القدير : للشوكاني (١٥١/٤) .
(٢) وانظر الاشاعة لأشراط الساعة للشريف محمد البرزنجي (ص ١٧٦، ١٧٧)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (١٤٤/٢ـ١٤٦) .
(٣) فتح القدير : الشوكاني (١٥٢/٤) . (٤) انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .
(٥) انظر تفسير الطبري (١٦/٢٠) وزاد المسير لابن الجوزي (١٩٣/٦) وتفسير القرطبي (٢٣٧/١٣، ٢٣٨)
(٦) تفسير الطبري (١٦/٢٠) .
(٧) أخرجه مسلم في كتاب الايمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الايمان . (١٣٨/١ برقم ١٥٨ ) .

وذكرمنها الدابّة ، فانّه في صحيح مسلم [1] ،وفي السنن الأربعة ، وكحديث :(( بادروا بالأعمال قبل طلوع الشمس من مغربها، والدجّال، والدابّة.)) فانّه في صحيح مسلم أيضا، من حديث أبي هريرة مرفوعا [2]. وكحديث ابن عمر مرفوعا :(( إنّ أوّل الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابّة على الناس ضحى.)) فانّه في صحيح مسلم أيضا. [3] ))

فيجب الايمان بهذه العلامات كلّها، كما دلّت عليها نصوص الكتاب والسنة ،وأجمع عليها سلف الأمّة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة .

وهناك علامات أخرى غير ما ذكرته وردت في الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وانّما اقتصرت على ما ذكرت لأنّي وجدت فيها للشوكاني كلاما، ومن أراد الاطلاع على علامات الساعة الكثيرة فليراجع الكتب المصنّفة في ذلك وهي كثيرة [4]. والله أعلم .

المبحث الخامس: الايمان بعذاب القبر ونعيمه وفتنته

من أصول أهل السنة والجماعة التي يجب الايمان بها الايمان بعذاب القبر ونعيمه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنّة .

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة على اثبات عذاب القبر ونعيمه ، وأجمع على ذلك سلف الأمّة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقرّر الشوكاني ــ رحمه الله تعالى ــ مذهب السلف في اثبات عذاب القبر ونعيمه ،وخالف المنكرين لذلك، واستدلّ بأدلّة كثيرة من الكتاب والسنة .

أمّا الكتاب فقوله تعالى :(( يُثَبِّتُ اللهُ الذِيْنَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ))[5]

قال الشوكاني :(( قوله :( بالقول الثابت ) أي بالحجّة الواضحة ،وهي الكلمة الطيبة المتقدّم ذكرها، وقد ثبت في الصحيح أنّها كلمة الشهادة : شهادة أن لا اله الّا الله

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (٥٧٠) .
(٢) انظر صحيح مسلم ،كتاب الفتن وأشراط الساعة ،باب في بقية من أحاديث الدجّال (٤/ ـ ٢٢٦٧ برقم ٢٩٤٧) ولفظه :( بادروا بالأعمال ستّا :الدجّال ،والدخان ،ودابّة الأرض.الحديث. )
(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/١٥٣) والحديث أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب في الدجّال وهو أهون على الله عزّوجلّ.(٤/٢٢٦٠ برقم ٢٩٤١) .
(٤) مثل كتاب النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ،وكتاب الاشاعة لأشراط الساعة للبرزنجي،وكتاب أهوال القيامة وعلاماتها الكبرى للسفاريني،وكتاب الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة لصديق حسن خان،وكتاب اتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة للشيخ حمود بن عبد الله التويجري،وأشراط الساعة ليوسف بن عبد الله الوابل،وغير ذلك .
(٥) سورة ابراهيم : آية ٢٧ .

وأنّ محمدا رسول الله ، وذلك اذا قعد المؤمن في قبره . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فذلك قوله تعالى : ( يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ) ... ومعنى ( في الحياة الدنيا ) قال جماعة : المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية القبر ، لأنّ الموتى في الدنيا حتى يبعثوا ، ومعنى ( في الآخرة ) وقت الحساب ، وقيل المراد بالحياة الدنيا وقت المسائلة في القبر ، وفي الآخرة وقت المسائلة يوم القيامة ، والمراد أنّهم اذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم وتردّد ولا جهل ، كما يقول من لم يوفّق : لا أدري . فيقال له : لا دريت ولا تليت ( ويضلّ الله الظالمين ) أي يضلّهم عن حججهم التي هي القول الثابت ، فلا يقدرون على التكلّم بها في قبورهم ولا عند الحساب ، كما أضلّهم عن اتّباع الحقّ في الدنيا . ))(١)

وأورد ـ رحمه الله ـ من الأحاديث ما أخرجه البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (( المسلم اذا سئل في القبر يشهد أن لا اله إلّا الله ، وأنّ محمدا رسول الله ، فذلك قوله سبحانه : ( يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ) . ))(٢)

ومنه قوله تعالى : (( وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ))(٣)

قال الشوكاني : (( وذهب الجمهور أنّ هذا العرض هو البرزخ ، وقيل هو في الآخرة . قال الفرّاء(٤) : ويكون في الآية تقديم وتأخير ، أي أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ، النار يعرضون عليها غدوّا وعشيّا .

ورجّح الشوكاني مذهب الجمهور وردّ على الفرّاء قائلا : (( ولا ملجئ الى هذا التكلّف ، فانّ قوله : ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب يدلّ دلالة واضحة على أنّ ذلك العرض هو في البرزخ . ))(٥)

---

(١) فتح القدير ، الشوكاني (١٠٦/٣، ١٠٧) .

(٢) المصدر السابق (١٠٨/٣) والحديث أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر (الفتح ٢٧٤/٣ برقم ١٣٦٩) ومسلم في كتاب صفة الجنة باب عرض مقعد الميت الخ (٢٢٠١/٤ برقم ٢٨٧١) .

(٣) سورة غافر ، آية ٤٥، ٤٦ .

(٤) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي أبو زكريّا المعروف بالفرّاء ، امام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، وكان يميل الى الاعتزال ، ويتفلسف في تآليفاته ومصنّفاته ، من كتبه : معاني القرآن ، والمذكّر والمؤنّث ، توفّي (٢٠٧هـ) (انظر الفهرست لابن النديم ص ٩٨ـ١٠٠ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٦٦/١، ١٦٧) .

(٥) فتح القدير ، الشوكاني (٤٩٥/٤) .

ومما أورده الشوكاني من الأحاديث في تفسير الآية ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (( إنّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وان كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة. ))[1] زاد ابن مردويه: ثمّ قرأ: ( النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا )[2].

كما استدلّ ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله تعالى: (( وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ))[3] إذ قال: (( أي لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هم أموات، بل هم أحياء ولكن لا تشعرون بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم لأنّكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر بحسب ما يبلغ إليه علمكم الذي هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر، وليسوا كذلك في الواقع، بل هم أحياء في البرزخ. وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة، ودلّت عليه الآيات القرآنية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: (( وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ))[4])[5]

وأمّا ما يستدلّ به من الأحاديث فكثيرة منها:

حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت، فإنّه الآن يُسئل. ))[6]

قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ: (( فيه مشروعية الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه وسؤال التثبيت له، لأنّه يسئل في تلك الحال، وفيه دليل على ثبوت حياة القبر، وقد وردت بذلك أحاديث كثيرة بلغت حدّ التواتر، وفيه دليل أيضا على أنّ الميت يسئل في قبره، وقد وردت به أيضا أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما. ))[7]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي (الفتح ٣/ ٢٨٦ برقم ١٣٧٩) وأخرجه أيضا برقم (٣٢٤٠، ٦٥١٥)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت عليه الخ (٤/٢١٩٩ برقم ٢٨٦٦).

(٢) فتح القدير، الشوكاني (٤/٤٩٦). (٣) سورة البقرة: آية ١٥٤.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٦٩. (٥) فتح القدير، الشوكاني (١/١٥٩).

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر (٣/٥٥٠ برقم ٣٢٢١)، والحاكم في المستدرك (١/٣٧٠) وصحّحه ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في أحكام الجنائز (ص ١٥٦)

(٧) نيل الأوطار، الشوكاني (٥/٨٦).

وقال في حديث عائشة رضي الله عنها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو في الصلاة :

(( اللهمّ إنّي أعوذ بك من عذاب القبر ... الحديث ))[1] .

(( فيه ردّ على المنكرين لذلك ، والأحاديث في هذا الباب متواترة ))[2]

فيجب على المؤمن اعتقاد ثبوت ذلك، والإيمان به ، ولا يعنيه البحث عن كيفيته ، إذ لا يعلمها إلا الله .

## المبحث السادس : مستقرّ الأرواح

تحدّث الشوكاني - رحمه الله تعالى - عن هذه المسألة في رسالة صغيرة بعنوان: بحث في مستقرّ أرواح الأموات[3]. أورد فيها ثمانية أقوال في مستقرّ أرواح الأموات من المؤمنين والعاصين بعد مفارقتها للأجساد . وأختصرها فيما يلي :

القول الأوّل: ذهب الجمهور إلى أنّها في حواصل طيور في الجنة يذهب حيث شاءت .

واستدلّوا بما ورد من الأحاديث التي تضمّن بعضها مستقرّ أرواح الشهداء على الخصوص، وبعضها مستقرّ أرواح المؤمنين على العموم . فمن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(( أرواح الشهداء عند الله في حواصل طيور خضر، تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت، ثمّ تأوي إلى قناديل تحت العرش . ))[4]

وأخرج مالك في الموطّأ وأحمد والنسائي بإسناد صحيح من حديث كعب بن مالك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( إنّما نسمة المؤمن[5] طائر يعلُق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه . ))[6] ومعنى يعلق أي يأكل، وهو بضمّ اللام .

القول الثاني : قال طائفة من الصحابة والتابعين أنّ أرواح المؤمنين عند الله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (الفتح ٢٧٥/٣ برقم ١٣٧٢)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٤١٢/١ برقم ٥٨٩) واللفظ له .

(٢) نيل الأوطار : الشوكاني (١٤٨/٣، ١٤٩)، وانظر أيضاً تحفة الذاكرين (ص ٣٤٨) .

(٣) وهي مخطوطة في ورقتين ونصف ورقة بخط الإمام الشوكاني، وتوجد في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، برقم (٣٧) من مجموع (٥٩) من مجاميع متوكلية، بدون تاريخ .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب بيان أنّ أرواح الشهداء في الجنة الخ (١٥٠٢/٣ برقم ١٨٨٧) مع اختلاف يسير في اللفظ .

(٥) النسمة بفتحتين: الروح والنفس، وكلّ شيء فيه روح فهو نسمة (النهاية لابن الأثير ٤٩/٥ مادة : نسم )

(٦) أخرجه مالك في الموطّأ، كتاب الجنائز (٢٤٠/١ برقم ٤٩) واللفظ له، وأحمد في المسند (٤٥٥/٣)، والترمذي نحوه في كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في ثواب الشهداء (١٥١/٤ برقم ١٦٤١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين (١٠٨/٤ برقم ٢٠٧٣)، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى (٢/ ===

ولم يزيدوا على ذلك . واستدلّوا بمثل ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( الأرواح عند الله في السماء ))[1]. ويندرج في هذا القول قول من قال انّها في السماء السابعة، وقول من قال انّها في دار فيها ...[2] عند الله سبحانه .

القول الثالث : قال جماعة من الصحابة والتابعين إنّ الأرواح تجمع في موضع من الأرض، فأرواح المؤمنين بالجابية[3]، وأرواح الكفّار في بئر برهوت[4]. وقيل بالأردن، وقيل ما بين السموات والأرض . واستدلّوا بمثل ما أخرجه ابن مردويه وابن عساكر من حديث عبد الله بن عمرو: (( انّ أرواح المؤمنين تجمع بالجابية، وأرواح الكفّار تجمع ببئر برهوت . ))[5]، وأخرج ابن أبي الدنيا عن علي قال: (( أرواح المؤمنين في بئر زمزم، وأرواح الكفّار ببئر برهوت . ))[6]

القول الرابع: قالت طائفة إنّ أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكفّار في النار . واستدلّوا بما أخرجه ابن ماجة، والطبراني، والبيهقي باسناد حسن من حديث عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن أمّ مبشر بنت البراء أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( إنّ نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت، ونسمة الكافر في سجّين. ))[7]، وبما أخرجه أبوداود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لمّا رجم الأسلمي الذي اعترف عنده بالزنا، قال: (( والذي نفسي بيده، انّه الآن في أنهار الجنة ينغمس . ))[8]

---

=== ١٤٢٨ برقم ٤٢٧١) وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧٢٩/٢ برقم ٩٩٥) وفي تعليقه على شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٥٦) .

(١) لم أقف على الحديث في سنن ابن منصور المطبوعة بتحقيق حبيب الرحمن الأعظمي وهي مجلّدان، ولعله موجود في مجلّدات أخرى التي لم يعثر عليها حتى الآن حسب علمي.وذكره السيوطي في شرح الصدور (ص٣١٤) ط ١٤٠٧/٣هـ مؤسسة الايمان بيروت .

(٢) كلمة غير مقروءة .

(٣) الجابية بكسر الباء وياء مخفّفة وهي قرية من أعمال دمشق، وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية، وباب الجابية بدمشق منسوب الى هذا الموضع (معجم البلدان، ياقوت الحموي ٩١/٢)

(٤) برهوت بضم الهاء وسكون الواو، واد وبئر بحضرموت، وقيل اسم البلد الذي فيه هذا البئر ( معجم البلدان، ياقوت الحموي ٤٠٥/١)

(٥) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤١٨/١ برقم ١٦٩٤) وذكره ابن القيم في الروح (ص ١٤٦).

(٦) ذكره ابن القيم في الروح (ص ١٤٦) .

(٧) أخرجه البيهقي بهذا اللفظ في البعث والنشور (ص ١٥٣ برقم ٢٠٤)، وابن ماجة في كتاب الجنائز، باب ما جاء فيما يقال عند المريض (٤٦٦/١ برقم ١٤٤٩) بلفظ: انّ أرواح المؤمنين في طير خضر تعلق بشجر الجنة، والطبراني بنحوه في المعجم الكبير (٦٥/١١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٩/٢): رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن اسحق وهو مدلّس، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٨) أخرجه أبوداود في كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك (٥٨١/٤ برقم ٤٤٢٨)، قال الألباني : اسناده ضعيف، فيه عبد الرحمن بن الصامت ابن عمّ أبي هريرة مجهول. (مشكاة المصابيح ١٧٧/٢ برقم ٣٦٣٧) .

وبما أخرجه البزار والطبراني من حديث جابر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن خديجة فقال: (( أبصرتها على نهر من أنهار الجنة في بيت من قصب، لا لغو فيه ولا نصب ))[1] وأصله في الصحيح . ويدلّ على ذلك أحاديث كثيرة مصرّحة بأنّ أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النار .

القول الخامس : قالت طائفة: إنّ أرواح المؤمنين عن يمين آدم، والكفّار عن شماله . واستدلّوا بما ثبت في الصحيح في حديث الاسراء أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لمّا أسري به وجد آدم في سماء الدنيا وأرواح أهل السعادة عن يمينه وأرواح أهل الشقاوة عن يساره، فاذا نظر الى أهل السعادة ضحك، واذا نظر الى أهل الشقاوة بكى ".[2]

قال محمد بن نصر المروزي[3]: إنّ اسحاق بن راهويه[4] قال: وعلى هذا أجمع أهل العلم. وقال ابن حزم[5]: وهو قول جميع أهل الاسلام .[6]

قال الشوكاني: قلت : ولا تصحّ هذه الدعوى للاجماع، فانّ الطوائف مختلفة حسبما قدّمنا، والأدلّة متنافية في الظاهر، وكون أرواح الكفّار في السماء غير مسلّم، وان كان ذلك مجرّد العرض على آدم من دون استقرار فلا بأس، ولكنّ الخلاف في مستقرّ الأرواح .

القول السادس : قالت طائفة: إنّ أرواح المؤمنين والكافرين على أفنية القبور، الا أرواح الشهداء، فانّها في الجنة، وحكاه ابن حزم عن عامّة أصحاب الحديث .[7]

القول السابع : قالت طائفة: إنّ أرواح المؤمنين في علّيّين، وأرواح الكفّار في سجّين. ورجّح هذا القول الحافظ ابن حجر[8].

القول الثامن: قالت طائفة من المتكلّمين إنّ الأرواح تموت بموت الأجساد .

قال الشوكاني: وهذا القول باطل تردّه الأدلّة الصحيحة، وتدفعه الاجماعات المحكية

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٣/٩): رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجالهما رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد، وقد وثّق وخاصة في أحاديث جابر .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الاسراء (الفتح ٥٤٧/١ برقم ٣٤٩)، ومسلم في كتاب الايمان، باب الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم الى السموات وفرض الصلوات (١٤٨/١ برقم ١٦٣) .

(٣) محمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبو عبد الله الامام الحافظ، كان امام عصره في الحديث، وكان من أعلم أهل زمانه باختلاف الصحابة والتابعين، وكان عابدا زاهدا، له مؤلفات عظيمة منها: تعظيم قدر الصلاة، توفي (٢٩٤هـ)( تاريخ بغداد ، للبغدادي ٣١٥/٣، وتذكرة الحفاظ ، للذهبي ٦٥٠/٢) .

(٤) تقدّمت ترجمته في صفحة (٤٦٢) . (٥) تقدّمت ترجمته في صفحة (١٢٨) .

(٦) انظر الفصل في الملل والنحل لابن حزم (١٢٤/٤) .

(٧) في الفصل والملل والنحل (١٢١/٤): " وذهب عوامّ أصحاب الحديث " وليس عامّة أصحاب الحديث كما قال الشوكاني .

(٨) ذكر قوله هذا السيوطي في شرح الصدور ( ص ٢٢٥) .

عن أهل الاسلام من طرق . وقال بعد سرده هذه الأقوال:[1]

(( وقد جمع بين هذه الأقوال بأنّ الأرواح متفاوتة في مستقرّها، وأنّ الأدلة التي قدّمناها

كلّ نوع منها وارد على فريق من الناس ، وهذا جمع حسن . قال القرطبي: الأحاديث

دالّة على أنّ أرواح الشهداء خاصّة في الجنّة دون غيرهم ، فإنّ أرواحهم تكون في السماء تارة

وفي الجنة تارة ، وعلى أفنية القبور تارة ... قال ابن تيمية : الأحاديث متواترة على

عود الروح الى الجسد وقت السؤال، وقال تقي الدين السبكي[2]: عود الروح الى الجسد

ثابت في الصحيح لجميع الموتى فضلا عن الشهداء، وإنّما النظر في استمرارها في البدن،

وفي أنّ البدن يصير حيّاً بها كحالته في الدنيا . ))[3]

قلت : ما قاله الشوكاني في الجمع بين الأقوال، وانّ الأرواح متفاوتة في مستقرّها

قول حسن كما قال . وقد اختار هذا القول ابن القيم في كتابه: الروح [4]. فذكر

أنّ الأرواح متفاوتة في مستقرّها أعظم تفاوت، فمنها أرواح في أعلى علّيين في الملأ

الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . ومنها أرواح الشهداء في حواصل

طير في الجنّة ، ومنها غير ذلك ... ثم قال:

(( وإذا تأمّلت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجّة

ذلك، ولا تظنّ أنّ بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضا، فإنّها كلّها حقّ يصدق

بعضها بعضا، لكنّ الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها، وأنّ لها شأنا غير شأن البدن،

وأنّها مع كونها في الجنة فهي في السماء، وتتّصل بفناء القبر وبالبدن فيه ، وهي أسرع

شيئ حركة وانتقالا، وصعودا وهبوطا، وانّها تنقسم الى مرسلة ومحبوسة ، وعلويّة

وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحّة ومرض، ولذّة ونعيم، وألم أعظم مما كان لها حال اتّصالها

---

(١) ذكر ابن القيم هذه الأقوال وغيرها وناقشها في كتابه: الروح ( انظر من صفحة ١٢٥-١٥٩) ط/ دار الكتب العلمية.

(٢) أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري، شيخ الاسلام في عصره، وأحد الحفّاظ المفسّرين المناظرين، وهو والد التاج السبكي صاحب الطبقات. له من المؤلفات: مختصر طبقات الفقهاء، والاعتبار ببقاء الجنة والنار، وفتاوى. توفي (٧٥٦هـ) ( طبقات الشافعية الكبرى: السبكي ١٤٦/٦، وطبقات الشافعية: الاسنوى ٣٥٠/١، والبدر الطالع: الشوكاني ٤٦٧/١) .

(٣) بحث في مستقرّ أرواح الأموات: الشوكاني ( ورقة ١، ٢، ٣) ( مخطوط ) .

(٤) انظر (ص ١٥٧ ، ١٥٨) .

بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والانطلاق، وما أشبه حالها في هذا البدن بحال ولد في بطن أمه وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن الى هذه الدار.))(١)

## المبحث السابع: الايمان بالنفخ في الصور

ومن الايمان باليوم الآخر الايمان بالنفخ في الصور، كما ورد في الكتاب والسنة.

قال تعالى: (( وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ.))(٢)، وقال: (( فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ.))(٣)

والظاهر أن النفخة نفختان: الأولى يحصل بها الصعق، وفيها هلاك كل شيء الا من شاء الله، والثانية يحصل بها البعث والنشور، كما هو نص في آية الزمر التي ذكرناها.

وذهب جمع من أهل العلم الى أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع، كما في قوله تعالى: (( وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ))(٤)، ونفخة الصعق والقيام، كما في آية الزمر التي ذكرناها. وممن ذهب الى هذا شيخ الاسلام ابن تيمية(٥)، وابن كثير(٦)، والسفاريني(٧)، وغيرهم.

وذهب الشوكاني - رحمه الله تعالى - الى هذا فقال: (( والنفخات في الصور ثلاث: الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة البعث. وقيل: إنها نفختان: الأولى: يحصل بها الصعق، والثانية يحصل بها البعث، وإن نفخة الفزع راجعة الى نفخة الصعق، أو الى نفخة البعث. واختار هذا القشيري والقرطبي.))(٨)

---

(١) الروح: ابن القيم (ص ١٥٨) (٢) سورة الزمر: آية ٦٨.
(٣) سورة الحاقة: آية ١٣ - ١٦ (٤) سورة النمل: آية ٨٧.
(٥) انظر مجموع فتاوى (٤/٢٦٠، ٢٦١).
(٦) انظر النهاية في الفتن والملاحم (١/٢٥٣)، وتفسير ابن كثير (٣/٣٨٩، ٣٩٠).
(٧) انظر لوامع الأنوار البهية (٢/١٦١، ١٦٤).
(٨) فتح القدير: الشوكاني (٤/١٥٤، ١٥٥).

قلت : وهو أيضاً رأي ابن جرير في تفسيره[(١)]، ورجّحه الحافظ ابن حجر في الفتح[(٢)]، واستدل بأدلة كثيرة . منها قوله تعالى: (( يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ))[(٣)] قال ابن عباس: (( الراجفة : النفخة الأولى، والرادفة : النفخة الثانية ))[(٤)] وروي مثل هذا عن جماعة من المفسّرين منهم مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم .[(٥)]

قال القرطبي – رحمه الله –: (( والصحيح أنّهما نفختان فقط، لثبوت الاستثناء بقوله تعالى: ( إلا من شاء الله ) في كلّ من الآيتين[(٦)]، ولا يلزم من مغايرة الصعق للفزع أن لا يحصلا معاً من النفخة الأولى .[(٧)] فإنّ نفخة الفزع إنّما تكون راجعة إلى نفخة الصعق، لأنّ الأمرين لازمان لهما، أي فزعوا فزعاً ماتوا منه . ))[(٨)]

ومما يؤيّد هذا الرأي ما ورد في الأحاديث الصحيحة مصرّحاً بالنفختين، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( ما بين النفختين أربعون ))[(٩)]

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما . ولفظه في أثناء حديث مرفوع: (( ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيْتاً ورفع لِيْتاً[(١٠)] ،ثم يرسل الله مطراً ، كأنّه الطَّل أو الظِّل[(١١)]، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون . ))[(١٢)]

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٩/٢٤، ٣١) .   (٢) انظر (٣٧٧/١١) .

(٣) سورة النازعات : آية ٦، ٧ .

(٤) رواه البخاري معلّقاً في كتاب التفسير سورة النازعات ( الفتح ٥٥٩/٨) وفي كتاب الرقاق، باب نفخ الصور ( الفتح ٣٧٤/١١)، ووصله الطبري في تفسيره (٣١/٣٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس .

(٥) انظر تفسير الطبري (٣١/٣٠، ٣٢)، وتفسير القرطبي (٢٤١/١٣)، وتفسير ابن كثير (٤٩٨/٤) .

(٦) أي الآية ٨٧ من سورة النمل، وآية ٦٨ من سورة الزمر، كما تقدّم .

(٧) التذكرة للقرطبي (ص ١٨٣)، ونقله عنه الحافظ في الفتح (٣٧٧/١١) .

(٨) تفسير القرطبي (٢٤٠/١٣) .

(٩) تقدّم تخريجه في (ص ٥٦٦) .

(١٠) أصغى: أمال، والليت : صفحة العنق، وهي جانبه . (شرح النووي لمسلم ٧٦/١٨) .

(١١) الطلّ: الذي ينزل من السماء في الصحو، والطلّ أيضاً أضعف المطر . (النهاية لابن الأثير ١٣٦/٣ مادة: طلل ) قال النووي: قال العلماء: الأصحّ الطلّ بالمهملة، وهو الموافق للحديث الآخر أنّه كمنيّ الرجال . ( شرح النووي لمسلم ٧٧/١٨) .

(١٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجّال الخ (٢٢٥٩/٤ برقم ٢٩٤٠) .

وفي حديث أوس بن أوس الثقفي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( إنّ أفضل أيّامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قُبض، وفيه الصعقة، وفيه النفخة. ))[(١)]

أمّا حديث الصور الذي ورد فيه: انّ النفخ في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لربّ العالمين.[(٢)] فهو حديث ضعيف ومضطرب، كما يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى[(٣)].

والظاهر من كلام الشوكاني ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآيات أنّه اختار هذا القول مخالفاً لما قرّره هنا لك.

ومما يدلّ على ذلك أنّه فسّر قوله تعالى: (( مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ))[(٤)] قال: (( وهي ( أي صيحة واحدة ) نفخة اسرافيل في الصور، وهذا اخبار عمّا ينزل بهم عند النفخة الأولى، ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية فقال: ( ونفخ في الصور ): وهي النفخة التي يبعثون بها من قبورهم، ولهذا قال: ( فاذا هم من الأجداث ) أي القبور: ( الى ربّهم ينسلون ) أي يسرعون، وبين النفختين أربعون سنة. ))[(٥)]

وقال في قوله تعالى: (( وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ))[(٦)]: (( هذه هي النفخة الأولى. ))[(٧)]

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلتها (٦٣٥/١ برقم ١٠٤٧) ـ والنسائي في كتاب فضل يوم الجمعة، باب اكثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة (٩١/٣ برقم ١٣٧٤)، وابن ماجه في كتاب اقامة الصلاة، باب فضل الجمعة (٣٤٥/١ برقم ١٠٨٥ وأيضا ١٦٣٦)، والحاكم في المستدرك (٢٧٨/١) وصحّحه، ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في التوسّل (ص ٦٤)، ومشكاة المصابيح (٤٣٠/١ برقم ١٣٦١).

(٢) أخرجه ابن جرير مختصرا ومطوّلا في تفسيره (١١٠/١٧، ١٩/٢٠، ٣٠/٢٤، ٣٢/٣٠) وقال في الموضع الأوّل: في اسناده نظر ( لما فيه من ضعف اسماعيل بن رافع المدني وجهالة رجلين من الأنصار ). قال ابن كثير: ورواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغير واحد مطوّلا جدًّا. (تفسير ابن كثير ٢١٣/٣). قلت: واسناده ضعيف لمداره على اسماعيل بن رافع المدني وهو ضعيف. قال الحافظ ابن حجر في التقريب (ص ١٠٤ برقم ٤٤٢): ضعيف الحفظ. قال ابن كثير: وقد نصّ على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه هو متروك. وقال ابن عدي: أحاديثه كلّها فيه نظر إلا أنّه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. ( انظر تفسير ابن كثير ١٥٤/٢، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٣٧٣/٤، ٣٧٤).

(٣) انظر الفتح (٣٧٧/١١). (٤) سورة يس: آية ٤٩ ـ ٥١.

(٥) فتح القدير: الشوكاني (٣٧٣/٤، ٣٧٤).

(٦) سورة الزمر: آية ٦٨. (٧) فتح القدير: الشوكاني (٤٧٥/٤).

وفي قوله تعالى: (( يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ))(١) قال:

(( والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردّد واضطراب كالرعد، وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق. والرادفة: النفخة الثانية التي تكون عند البعث، وسمّيت رادفة لأنّها ردفت النفخة الأولى، كذا قال جمهور المفسّرين. ))(٢)

وقال في تعريف الصور: (( والصور قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء. (٣) والذي ينفخ فيه هو إسرافيل، كما وردت بذلك السنة، وإطلاق هذا الاسم على القرن معروف في لغة العرب. ))(٤)

ومن الأحاديث التي أوردها الشوكاني في هذا الصدد حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصور فقال: قرن ينفخ فيه.(٥)

قال الشوكاني: (( والأحاديث الواردة في كيفية النفخ ثابتة في كتب الحديث، لا حاجة لنا إلى إيرادها ههنا. ))(٦)

وقد اختلف أهل العلم في تعيين من وقع الاستثناء له في قوله تعالى: (( وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ))(٧) فرجّح الشوكاني القول بأنّ المستثنى هو: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل. قال: (( المستثنى: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل رضوان، وحملة العرش، وخزنة الجنة والنار. )) وفسّر الصعق في الآية بأنّها الغشي وزوال العقل.(٨)

وذكر الحافظ ابن حجر عشرة أقوال(٩) وقال بعد سردها:

(( قال البيهقي: استضعف بعض أهل النظر أكثر هذه الأقوال، لأنّ الاستثناء وقع من سكّان السموات والأرض، وهؤلاء ليسوا من سكّانها، لأنّ العرش فوق السموات، فحملته

---

(١) سورة النازعات: آية ٦، ٧ . (٢) فتح القدير: الشوكاني (٣٧٤/٥) .
(٣) المصدر السابق (١٣٠/٢) . (٤) انظر المصدر السابق (٣٧٤/٤) وأيضا (٤٧٥/٤) و(٣٦٥/٥) .
(٥) المصدر السابق (١٣٢/٢) والحديث أخرجه أحمد في المسند (١٦٢/٢، ١٩٢)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور (١٠٧/٥ برقم ٤٧٤٢)، والترمذي في تفسير سورة الزمر (٣٤٨/٥ برقم ٣٢٤٤) وقال: هذا حديث حسن، والدارمي في كتاب الرقائق، باب في نفخ الصور (٤١٨/٢ برقم ٢٧٩٨)، والحاكم في المستدرك (٤٣٦/٢، ٥٠٦) و(٥٦٠/٤) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٨/٣ برقم ١٠٨٠) .
(٦) فتح القدير: الشوكاني (١٣٢/٢)
(٧) سورة الزمر: آية ٦٨ .
(٨) فتح القدير: الشوكاني (٤٧٥/٤) .
(٩) انظر الفتح (٣٧٨/١١، ٣٧٩) .

ليسوا من سكّانها، وجبريل وميكائيل من الصافّين حول العرش، ولأنّ الجنة فوق السموات، والجنة والنار دار مان باتفاق دهما خلقتا للبقاء .))[1]

والذي أراه الأولى بالمسلم التوقّف في تعيين الذين استثناهم الله، لأنّه لم يصحّ في ذلك نصّ يدلّ على المراد .

وهو ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ إذ قال:

(( وأمّا الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإنّ الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكلّ ما استثناه الله، فإنّ الله قد أطلق في كتابه ... والنبي صلى الله عليه وسلم قد توقّف في موسى، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا ؟[2] فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يخبر بكلّ من استثنى الله، ولم يمكننا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء وأمثال ذلك مما لم يخبر به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر . والله أعلم .))[3]

المبحث الثامن: الإيمان بالحشر والموازين والصراط

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالحشر والموازين والصراط، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة .

الحشر

أمّا الحشر فهو عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياء في ساحة واحدة، تدعى عرصات القيامة، وذلك لفصل القضاء، والحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم .

قال تعالى: (( وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ))[4]

قال الشوكاني في تفسير الآية: (( أي الخلائق، ومعنى الحشر: الجمع، أي جمعناهم إلى الموقف من كلّ مكان، فلم نغادر منهم أحداً، أي فلم نترك منهم أحداً .))[5]

---

(١) الفتح (٣٧٩/١١) وانظر التذكرة للقرطبي (ص ١٦٨) .

(٢) ثبت في الصحيح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( إنّ الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أوّل من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثناه الله ؟ ( أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعده ( الفتح ٥٠٨/٦ برقم ٣٤٠٨) .

(٣) مجموع فتاوى لابن تيمية (٢٦١/٤) . (٤) سورة الكهف، آية ٤٧ .

(٥) فتح القدير، الشوكاني (٢٩٢/٣) .

وقال تعالى: (( فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ))[1] "أي لنسوقنّهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا."[2]

وقال سبحانه: (( ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ))[3] " أي والله ليجمعنّكم الله بالحشر إلى يوم القيامة: أي إلى حساب يوم القيامة."[4]

هذه الآيات القرآنية تدل بعمومها على حشر الخلق جميعاً الإنس والجنّ والملائكة.

وقد اختلف العلماء في حشر البهائم، فذهب الشوكاني - رحمه الله تعالى - إلى أنّ ذلك كائن، واستدلّ بقوله تعالى: (( وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ))[5] قال:

(( يعني الأمم المذكورة، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء، ومنهم أبو ذرّ، وأبو هريرة، والحسن، وغيرهم، وذهب ابن عبّاس إلى أنّ حشرها موتها، وبه قال الضحّاك، والأوّل أرجح للآية، ولما صحّ في السنة المطهّرة من أنّه يقاد يوم القيامة للشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء[6]، ولقوله تعالى: (( وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ))[7].))[8]

قلت: ما ذهب إليه الشوكاني وغيره هو الصواب الذي دلّ عليه الكتاب والسنة.[9]

قال العلماء: وليس من شرط الحشر الإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب، وأمّا القصاص من القَرْناء للجَلْحاء فليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها، بل هو قصاص مقابلة.[10]

وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (( ما من دابّة ولا طائر إلا سيحشر يوم القيامة، ثم يقتصّ لبعضها من بعض حتى يقتصّ للجَلْحاء من ذات القرن، ثم يقال لها: كوني تراباً،

---

(١) سورة مريم: آية ٦٨ .
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٣٤٣/٣) .
(٣) سورة النساء: آية ٨٧ .
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٤٩٣/١) .
(٥) سورة الأنعام: آية ٣٨ .
(٦) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء. (انظر كتاب البر باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ برقم ٢٥٨٢). والجلْحاء: هي التي لا قرن لها. (النهاية لابن الأثير ٢٨٤/١ مادة: جلح) .
(٧) سورة التكوير: آية ٥ .
(٨) فتح القدير: الشوكاني (١١٤/٢) .
(٩) انظر: التذكرة للقرطبي (ص ٢٧٣)، وشرح النووي لمسلم (١٣٦/١٦)، ومجموع فتاوى لابن تيمية (٢٤٨/٤) .
(١٠) انظر شرح النووي لمسلم (١٣٦/١٦، ١٣٧) .

فعندذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت ترابا . وان شئتم فاقرأوا : (( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ الآية . ))[1]

ويحشر الناس يوم القيامة حفاة غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلا غير مختونين، كما بدأ الله تعالى خلقهم أولا .

قال تعالى: (( كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ))[2]

قال الشوكاني في تفسير الآية: (( أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم، وأخرجناهم الى الأرض حفاة عراة غرلا، كذلك نعيدهم يوم القيامة . ))[3]

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(( تحشرون حفاة عراة غرلا . قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم الى بعض ؟ فقال: الأمر أشد من أن يهمهم ذاك ))[4]

ويحشر الكافرون على وجوههم، لقوله تعالى: (( وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ))[5]

قال الشوكاني: (( هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسرين: الأول: أنه عبارة عن الاسراع بهم الى جهنم، من قول العرب: قدم القوم على وجوههم، اذا أسرعوا . الثاني: أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في اهانته وتعذيبه . وهذا هو الصحيح، لقوله تعالى: (( يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ))[6] ولما صح في السنة ... قوله: ( عميا وبكما وصما ) هذه هيئة يبعثون عليها في أقبح صورة وأشنع منظر . وقد جمع الله لهم بين عمي البصر وعدم النطق وعدم السمع، مع كونهم مسحوبين على وجوههم . ))[7]

قلت: ما فسره الشوكاني هو الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة كما قال . وقد ثبت في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رجلا قال: يا نبي الله، كيف يحشر

---

(١) فتح القدير، الشوكاني (١١٥/٢) وهذا الأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٨٩/٧)، والحاكم في المستدرك (٣١٦/٢) وصححه، ووافقه الذهبي .
(٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٤ . (٣) فتح القدير، الشوكاني (٤٢٩/٣) .
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب الحشر ( الفتح ٣٨٥/١١ برقم ٦٥٢٧)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢١٩٤/٤ برقم ٢٨٥٩) .
(٥) سورة الاسراء : آية ٩٧ . (٦) سورة القمر : آية ٤٨ .
(٧) فتح القدير، الشوكاني (٢٦١/٣) .

الكافر على وجهه ؟ قال: (( أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟)) قال قتادة: بلى وعزة ربنا .[1] وفي هذا الموضوع أحاديث كثيرة ثابتة في كتب الحديث، ولا يتسع المقام هنا بذكرها .

الموازين

وأمّا الموازين فجمع ميزان، وهو الذي توزن به الحسنات والسيّئات .

وقد ورد ذكر الوزن والموازين في آيات كثيرة من القرآن، كقوله تعالى: (( وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ، فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ))[2]، وقوله تعالى: (( وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ))[3]، وقوله سبحانه: (( فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ))[4].

والشاهد من هذه الآيات الكريمة أنّ فيها اثبات الموازين والوزن يوم القيامة، وأنّ أعمال العباد خيرها وشرّها توزن بالموازين اظهاراً لعدل الله تعالى .

وقد اختلف أهل العلم في وحدة الميزان وتعدّده، فذهب بعضهم الى أنّه واحد، وأنّ الجمع في الآية إنّما هو باعتبار تعدّد الأعمال أو الأشخاص، وذهب آخرون الى أنّ لكلّ شخص ميزانا خاصّا، أو لكلّ عمل ميزان، لظاهر الآية . ورجّح هذا القول الشوكاني – رحمه الله – اذ قال في قوله تعالى: ( فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ): (( وظاهر جمع الموازين المضاف الى العامل أنّ لكلّ واحد من العاملين موازين يوزن بكلّ واحد منها صنف من أعماله . وقيل: هو ميزان واحد عبّر عنه بلفظ الجمع، كما يقال: خرج فلان الى مكة على البغال .))[5]

ورجّح هذا القول الثاني الحافظ ابن حجر[6]، ومحمد السفاريني[7] .

واختلفوا في معنى الوزن، فذهب جمهور أهل السنة الى أنّ المراد به وزن صحائف

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب الحشر ( الفتح ٣٨٥/١١ برقم ٦٥٢٣)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب يحشر الكافر على وجهه (٤/ ٢١٦١ برقم ٢٨٠٦).

(٢) سورة الأعراف، آية ٨، ٩ . (٣) سورة الأنبياء، آية ٤٧ .

(٤) سورة القارعة، آية ٦ – ٩ . (٥) فتح القدير، الشوكاني (١٩١/٢) .

(٦) انظر الفتح (٥٤٧/١٣) .

(٧) انظر لوامع الأنوار البهية (١٨٦/٢) .

أعمال العباد بالميزان وزناً حقيقياً . وأنكر بعض الناس الميزان وذهبوا الى أن الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء .(١)

وذهب الشوكاني* مذهب جمهور أهل السنة اذ قال - بعد سوق الأقوال - :

(( والحق هو القول الأول، وهو الذي قامت عليه الأدلة . ونقل - رحمه الله - ما ذكره الزجاج ردّاً على المنكرين قال: والأولى أن نتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان. كما نقل عن القشيري قال: وقد أجمعت الأمة في الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل، واذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصاً . انتهى ))(٢)

قلت : ما ذهب اليه الشوكاني والجمهور هو الحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، أمّا تأويل المنكرين فهو تأويل فاسد مخالف للنصوص واجماع السلف وأئمتها .

وقد أحسن الشوكاني - رحمه الله تعالى - في ردّه عليهم اذ قال :

(( ... وأمّا المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع اليه ، بل غاية ما تشبّثوا به مجرّد الاستبعادات العقلية ، وليس في ذلك حجّة على أحد ، فهذا اذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم ، وقال كلّ ما شاء، وتركوا الشرع خلف ظهورهم ، وليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتّفق العقلاء عليها، ويتّحد قبولهم لها، بل كلّ فريق يدّعي على العقل ما يطابق هواه ، ويوافق ما يذهب اليه هو، أو من هو تابع له ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم . ))(٣)

قلت : وأمور الآخرة ليست مما تدركها العقول، فالواجب الايمان بها كما جاءت، وعدم البحث عن كيفيتها الا على ضوء ما ورد من النصوص .

وقد ثبت في النصوص وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، كما ثبت أنّ الميزان له كفّتان، والله أعلم بما وراء ذلك من الكيفيّات .(٤)

---

(١) انظر فتح القدير، الشوكاني (١٩٠/٢) وانظر الفتح لابن حجر (٥٤٨/١٣)

(٢) فتح القدير: الشوكاني (١٩٠/٢) . (٣) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص ٤٧٥) وانظر تفسير الطبري (١٢٣/٨، ١٢٤) والشريعة للآجري (ص ٣٨٤-٣٨٧) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٥٨/١، ١٧٧) والحجة في بيان المحجة لأبي القاسم اسماعيل الأصبهاني (٤٦٥/١-٤٦٧) وتفسير ابن كثير (٢١٠/٢) ، ومعارج القبول للشيخ حافظ حكمي (٨٤٨/٢، ٨٤٩) تحقيق/عمر بن محمود أبو عمر .

وقد ورد في كيفية الوزن أحاديث كثيرة، أوردها الشوكاني منها :

حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(( يصاح برجل من أمّتي على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كلّ سجلّ منها مدّ البصر، فيقول: أتنكر من هذا شيئا ؟، أظلمتك كتبتي الحافظون ؟، فيقول: لا يا ربّ، فيقول: ألك عذر أو حسنة ؟، فيَهاب الرجل فيقول: لا يا ربّ. فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة ، وإنّه لا ظلم عليك اليوم ، فتُخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ، فيقول: يا ربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال: إنّك لا تُظلم ، فتوضع السجلات في كِفّة، والبطاقة في كِفّة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة ))[(١)] .

ففي هذا الحديث دليل على أنّ ميزان الأعمال له كفّتان مشاهدتان، وأنّ الأعمال وإن كانت أعراضا فإنّها توزن، والله على كلّ شيئ قدير، وذلك من عقائد أهل السنة ، والأحاديث في ذلك متضافرة .

الصراط

وأمّا الصراط فهو - كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله -:(( جسر منصوب على متن جهنّم بين الجنة والنار، يمرّ الناس عليه على قدر أعمالهم ، فمنهم من يمرّ كلمح البصر ، ومنهم من يمرّ كالبرق، ومنهم من يمرّ كالريح ، ومنهم من يمرّ كالفرس الجواد ، ومنهم من يمرّ كركاب الابل، ومنهم من يَعدو عدوا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف زحفا، ومنهم من يُخطف ويُلقى في جهنّم ، فانّ الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن مرّ على الصراط دخل الجنة .))[(٢)]

وقد وردت أحاديث كثيرة فيها ذكر الصراط، وصفته، وصفة المرور عليه .

والذي عليه أهل الحقّ اثبات الصراط على ظاهره بغير تأويل كما وردت بها الأخبار

---

(١) فتح القدير، الشوكاني (١٩٣/٢) والحديث أخرجه أحمد في المسند (٢١٣/٢) قال الشوكاني: واسناده حسن. والترمذي في كتاب الايمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلّا الله (٢٥/٥ برقم ٢٦٤٠) وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجة في كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (١٤٣٧/٢ برقم ٤٣٠٠)، والحاكم في المستدرك (٦/١، وأيضا ٥٢٩) وقال: صحيح الاسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في شرح العقيدة الطحاوية بتحقيقه (ص ٤٧٣)، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢١٢/١ برقم ١٣٥) .

(٢) العقيدة الواسطية، ابن تيمية (ص ١٥٣) بشرح الدكتور صالح الفوزان .

الصحيحة (١).

والشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ لم يتعرّض للحديث عن الصراط بالتفصيل في كتبه، وقد تحدّث عنه في تفسيره لقوله تعالى: (( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا )) (٢) حيث رجّح القول بأنّ الورود في هذه الآية هو المرور على الصراط .

قال رحمه الله ـ بعد سرد الأقوال في معنى الآية ـ:

(( وقد توقّف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود، وحمله على ظاهره، لقوله تعالى: (( إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ )) (٣) قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها، ومما يدلّ على أنّ الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى: (( وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ )) (٤) فإنّ المراد: أشرف عليه، لا أنّه دخل فيه ... ولا يخفى أنّ القول بأنّ الورود هو المرور على الصراط، أو الورود على جهنّم وهي خامدة فيه جمع بين الأدلّة من الكتاب والسنة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك، لأنّه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعدا عن عذابها، أو بحمله على المضيّ فوق الجسر المنصوب عليها، وهو الصراط . )) (٥)

قلت: والقول بأنّ الورود في الآية هو المرور على الصراط هو أقرب الأقوال إلى الصحّة، وله تشهد النصوص والدلائل، وقد ذهب إليه كثير من العلماء والمفسّرين . (٦)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (( وأمّا الورود المذكور في قوله تعالى: ( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ) فقد فسّره النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح، رواه مسلم في صحيحه عن جابر بأنّه المرور على الصراط . (٧) والصراط هو الجسر، فلا بدّ من المرور عليه لكلّ من يدخل الجنة، من كان صغيرا في الدنيا ومن لم يكن . )) (٨)

ولعلّ شيخ الإسلام يقصد حديث جابر الذي أخرجه مسلم في صحيحه قال: أخبرتني أمّ مبشّر

---

(١) انظر لوامع الأنوار البهية: السفاريني (١٩٢/٢ ـ ١٩٤) .
(٢) سورة مريم: آية ٧١ . (٣) سورة الأنبياء: آية ١٠١ . (٤) سورة القصص: آية ٢٣ .
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٣٤٤/٣) .
(٦) وهو قول عبد الله بن مسعود، وجابر، والحسن، وقتادة، وغيرهم . (انظر: تفسير الطبري ١٦/ ١١٠، وزاد المسير لابن الجوزي ٢٥٦/٥، وتفسير القرطبي ١٣٦/١١، ١٣٧، وتفسير ابن كثير ١٣٩/٣، ١٤٠)، ورجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاوى (٢٧٩/٤)، وابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٧١)، وابن رجب الحنبلي في التخويف من النار (ص ١٩٣ وما بعدها) تحقيق/بشير محمد عيون، والشيخ حافظ حكمي في معارج القبول (٨٥٣/٢) .
(٧) لم أقف على الحديث بهذا النصّ، ولعلّه رحمه الله يقصد حديث جابر الذي ذكرته .
(٨) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٢٧٩/٤) .

أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة: (( لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها . قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة: ( وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ) فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد قال الله عز وجل: (( ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا[1] . )) [2]

فقد أشار صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، وكذلك حال الوارد على النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثيا، فقد بين صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن الورود هو الورود على الصراط .[3]

## المبحث التاسع: الشفاعة

وهي – كما قال الأصفهاني –: (( الانضمام إلى آخر ناصرًا له وسائلا عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ورتبة إلى من هو أدنى ... ))[4]

وقال ابن الأثير: (( هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع، والمُشَفِّع: الذي يقبل الشفاعة، والمُشَفَّع: الذي تقبل شفاعته. ))[5]

فالشفاعة هي طلب وسؤال الخير للغير .[6]

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في الشفاعة، ويثبتون جميع أنواعها التي وردت الأدلة فيهما بإثباتها، كشفاعته صلى الله عليه وسلم لأهل الموقف، وأهل الكبائر من أمته، وغير ذلك من أنواع شفاعته صلى الله عليه وسلم، وشفاعات غيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين، وينفون الشفاعة التي نفتها الأدلة من الكتاب والسنة .

وقرر الشوكاني – رحمه الله تعالى – مذهب أهل السنة والجماعة في الشفاعة، فأثبت

---

(١) سورة مريم: آية ٧٢

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة (١٩٤٢/٤ برقم ٢٤٩٦)

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٤٧١) .

(٤) المفردات: الأصفهاني (ص ٢٦٣ مادة: شفع).

(٥) النهاية: ابن الأثير (٤٨٥/٢ مادة: شفع) .

(٦) انظر فتح القدير: الشوكاني (٨٢/١) .

ما أثبتوه من شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته يوم الآخر، وشفاعة غيره ممن يأذن الله له من النبيين والصديقين والملائكة، لتضافر الأدلة في ذلك في الكتاب والسنة .

قال تعالى: (( يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ))(١)

ومعنى الآية - كما قال الشوكاني -: (( أي إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، وكان له قول يرضى. ومثل هذه الآية قوله تعالى: (( وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ))(٢)، وقوله: (( لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ))(٣) ))(٤)

وقال تعالى عن المقام المحمود الذي هو شفاعة رسوله صلى الله عليه وسلم للناس يوم القيامة: (( عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ))(٥)

رجّح الشوكاني القول بأن المقام المحمود هو شفاعته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للناس، قال: (( وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال: الأول: أنه المقام الذي يقومه النبي صلى الله عليه وسلم للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه، وهذا القول هو الذي دلت عليه الأدلة الصحيحة في تفسير الآية، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل، قال الواحدي: وإجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة ... ))(٦)

وأنكر على صاحب الكشاف الذي فسّر المقام المحمود بأنه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات، فأجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة، فالمصير إليها متعيّن .(٧)

ومن تلك الأحاديث كما أوردها الشوكاني: ما أخرجه أحمد وابن جرير والحاكم وصححه عن كعب بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود . ))(٨)

---

(١) سورة طه، آية ١٠٩ . (٢) سورة الأنبياء، آية ٢٨ . (٣) سورة مريم، آية ٨٧ .
(٤) فتح القدير، الشوكاني (٣٨٧/٣) . (٥) سورة الإسراء، آية ٧٩ .
(٦) فتح القدير، الشوكاني (٢٥١/٣، ٢٥٢)، وانظر تفسير الطبري (١٤٤/١٥، ١٤٥) .
(٧) انظر فتح القدير (٢٥٢/٣)، وانظر الكشاف للزمخشري (٦٨٧/٢) .
(٨) أخرجه أحمد في المسند (٤٥٦/٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥١/٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وابن جرير في تفسيره (١٤٦/١٥)، والحاكم في المستدرك (٣٦٣/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا السياقة . وأقره الذهبي .

وما أخرجه البخاري وغيره من ابن عمر رضي الله عنهما قال: (( إنّ كلّ أمّة يوم القيامة تتبع نبيّها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود. ))(١)

ومن أحاديث الشفاعة التي أورها الشوكاني ما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (( أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لها خالصا من قلبه ))(٢)

قال الشوكاني: (( فيه دليل على أنّ قائل هذه الكلمة ( لا إله إلّا الله ) هو أسعد الناس بالشفاعة النبوية، لكن مقيّداً بأن يقول ذلك خالصا، لا إذا قالها من دون خلوص، وفيه أراد بالشفاعة بعض أنواعها، وأمّا الشفاعة العظمى فأسعد الناس من يدخل الجنة بغير حساب ))(٣)

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً ثابتة في الصحيحين وغيرهما.(٤)

قال الشوكاني: (( ولا خلاف بين المسلمين أنّه يجوز طلب الشفاعة من المخلوقين فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا، وقد ثبت بالسنة المتواترة واتّفاق جميع الأمّة أنّ نبينا صلى الله عليه وآله وسلم هو الشافع المشفع، وأنّه يشفع للخلائق يوم القيامة، وأنّ الناس يستشفعون به، ويطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربّه ... ولم يقل أحد من المسلمين بنفيها قط. ))(٥)

قلت: ما ذكره الشوكاني هنا من الشفاعة هي الشفاعة العظمى لأهل الموقف، وهي الخاصّة بنبيّنا صلى الله عليه وسلم من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وهذه الشفاعة متّفق عليها بين الأمّة، ولم ينكرها أحد ممن يقول بالحشر.

وقد ذكر العلماء أنواع الشفاعة(٦) واستقصوها في ثمانية أنواع، منها ما هو خاصّ بالنبي صلى الله عليه وسلم، ومنها ما هو مشترك بينه وبين غيره، وقد أشار الشوكاني إلى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل، باب: عسى أن يبعثك ربّك مقاما محمودا ( الفتح ٢٥١/٨ برقم ٤٧١٨ ).

(٢) تقدّم تخريجه في صفحة (٢٠٩). (٣) تحفة الذاكرين: الشوكاني (ص ٢٩٠).

(٤) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢٥٥/٣). (٥) الدر النضيد: الشوكاني (ص ٧).

(٦) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة (٥٨٨/٢)، والشريعة للآجري (ص ٣٣٨-٣٥١)، وشرح النووي - لمسلم (٣٥/٣)، والنهاية في الفتن والملاحم لابن كثير (٢٠٢/٢-٢٤٨)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي (ص ٢٥٣-٢٦٠)، والفتح لابن حجر (٤٣٥/١١، ٤٣٦)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢١١/٢)، وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري (ص ١٨٧)، وشرح العقيدة الواسطية للدكتور صالح فوزان الفوزان (ص ١٥٧، ١٥٨).

بعض هذه الأنواع في بعض مؤلفاته[1]. وفيما يلي أذكرها ملخصة :

١ ـ الشفاعة العظمى، وهي شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الموقف حتى يقضي الله بينهم بعد طول الموقف عليهم ، وبعد مراجعتهم الأنبياء للقيام بها، فيقوم بها نبينا صلى الله عليه وسلم بعد إذن ربّه ، وهذه الشفاعة هي المقام المحمود المذكور في الآية .

٢ ـ شفاعته صلى الله عليه وسلم في دخول أهل الجنّة الجنّة بعد الفراغ من الحساب .

٣ ـ شفاعته صلى الله عليه وسلم في عمّه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه ،وهي خاصّة به ،وخاصّة لأبي طالب، وهذه الأنواع الثلاثة من الشفاعة خاصّة بنبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم .

٤ ـ شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن استحقّ النار من عصاة الموحّدين أن لا يدخلها.

٥ ـ شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن دخل النار من عصاة الموحّدين أن يخرج منها.

٦ ـ شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات بعض أهل الجنة فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم .

٧ ـ شفاعته صلى الله عليه وسلم في قوم استوت حسناتهم وسيّئاتهم أن يدخلوا الجنّة ، وهم أهل الأعراف على قول جمع من العلماء[2] .

٨ ـ شفاعته صلى الله عليه وسلم في دخول بعض المؤمنين الجنة بغير حساب ولا عذاب، كشفاعته صلى الله عليه وسلم في عكاشة بن محصن رضي الله عنه حيث دعا له النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون من السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .[3]

وهذه الأنواع الخمسة الأخيرة يشارك النبي صلى الله عليه وسلم فيها غيره من الأنبياء والملائكة والصدّيقين والشهداء .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذه الشفاعة كلّها،ويثبتونها لثبوت أدلّتها في الكتاب والسنة .

وقد خالف أهل البدع من الخوارج والمعتزلة أهل السنة في الشفاعة ،فأنكروا بعض أنواع الشفاعات، كشفاعته صلى الله عليه وسلم وشفاعة غيره فيمن استحقّ النار من أهل

---

(١) انظر :نيل الأوطار (١٠٨/٢) ،وتحفة الذاكرين (ص٢٩٠) ،وكشف الأستار في إبطال القول بفناء النار ( ورقة ٤) ( مخطوط ) .

(٢) ذكر الحافظ ابن حجر أنّ أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيّئاتهم (انظر الفتح ١١/ ٤٣٦) ،وانظر تفسير ابن كثير (٢٢٥/٢) فقد ذكر أنّ هذا القول نصّ عليه حذيفة ،وابن عبّاس، وابن مسعود ،وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله .

(٣) تقدّم نصّ الحديث في صفحة (٢٤١ هامش رقم ٢) .

الكبائر أن لا يدخلها، أو فيمن دخلها منهم أن يخرج منها .[1] بناء على قولهم المشهور: إنّ صاحب الكبيرة مخلّد في النار كما تقدّم . وردّوا على الأحاديث الواردة في ذلك بأنّها منقولة بطريق الآحاد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنّها لا يصحّ بها الاحتجاج .[2] وهو قول باطل، والأدلة على بطلانه من القرآن والسنة أشهر من أن تذكر .

وقد احتجّوا فيما ذهبوا إليه بالآيات التي فيها نفي الشفاعة، كقوله تعالى: (( فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ))[3]، وقوله تعالى: (( مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ))[4]، وقوله تعالى: (( وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ))[5]، وأمثال ذلك من الآيات التي تتضمّن نفي الشفاعة . وهو احتجاج غير صحيح، لأنّ الشفاعة المنفية هنا هي الشفاعة في أهل الشرك، فهم الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، أمّا المؤمنون فهم الذين تنفعهم الشفاعة بشروطها، لثبوت الأدلة عليها من الكتاب والسنة .

وقد ذكر الله تعالى شرطين للشفاعة لا تتحقق إلا بهما .

الشرط الأوّل: إذن الله للشافع أن يشفع، فإنّه لا يشفع أحد حتى يأذن الله له . كما قال تعالى: (( وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ))[6]

قال الشوكاني - رحمه الله -: (( أي لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع، من الملائكة، والنبيين، ونحوهم، من أهل العلم والعمل، ومعلوم أنّ هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة، لا للكافرين . ))[7]

ومثل هذه الآية قوله تعالى: (( مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ))[8]، وقوله تعالى: (( مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ))[9]

قال الشوكاني في معنى الآية الثانية: (( في هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أنّ أحداً من عباده يقدر على أن ينفع أحداً منهم بشفاعة أو غيرها، والتقريع والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدفع في صدور عبّاد القبور، والصدّ في وجوههم، والفتّ في أعضادهم، ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه . ))[10]

---

(١) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبّار (ص ٦٨٨، ٦٨٩)، وانظر أيضاً الإرشاد للجويني (ص ٣٩٣-٣٩٥)، والمواقف للإيجي (ص ٣٨٠)، ومجموع فتاوى لابن تيمية (١/١١٤، ١٤٨ - ١٥٠)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ (ص ٢٦٠)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/٢١٢).

(٢) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٦٩٠). (٣) سورة المدّثر: آية ٤٨ .

(٤) سورة غافر: آية ١٨ . (٥) سورة البقرة: آية ١٢٣ .

(٦) سورة سبأ: آية ٢٣ . (٧) فتح القدير: الشوكاني (٤/٣٢٤، ٣٢٥) .

(٨) سورة يونس: آية ٣ . (٩) سورة البقرة: آية ٢٥٥ .

(١٠) فتح القدير: الشوكاني (١/٢٧٢) .

الشرط الثاني: رضا الله سبحانه وتعالى عن المشفوع له، كما قال تعالى: (( وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ))(١) أي لأهل التوحيد.(٢)

وقد أخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن جابر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى: (( وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى )) قال: (( إنّ شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي ))(٣).

ويجمع الشرطين قوله تعالى: (( وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ))(٤) والمعنى - كما قال الشوكاني -: (( التوبيخ للكفار بما يتمنّون ويطمعون فيه من شفاعة الأصنام، مع كون الملائكة مع كثرة عبادتهم وكرامتهم على الله لا تشفع ... ( إلا من بعد أن يأذن الله ) لهم بالشفاعة ( لمن يشاء ) أن يشفعوا له ( ويرضى ) بالشفاعة له، لكونه من أهل التوحيد، وليس للمشركين في ذلك حظ، ولا يأذن الله بالشفاعة لهم ولا يرضاها، لكونهم ليسوا من المستحقّين لها. ))(٥)

## المبحث العاشر: الجنّة ونعيمها

ومن الايمان باليوم الآخر الايمان بالجنّة وأنّها حقّ لا ريب فيها .

والجنّة هي دار النعيم التي أعدّها الله تعالى لعباده المؤمنين المتّقين المشتملة على أصناف النعيم والبهجة والسرور، وكلّ ما لذّ وطاب .

وقد أكثر الله سبحانه وتعالى من ذكر نعيم الجنّة في كتابه الكريم، من ذلك:

قوله تعالى: (( إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ، كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ، يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ))(٦)

وقوله تعالى: (( مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٢٨ . (٢) ذكر الشوكاني هذا المعنى عن ابن عبّاس، وقتادة، ومجاهد، وغيرهم (انظر فتح القدير ٤٠٦/٣، وانظر تفسير الطبري ١٦/١٧، وتفسير البغوي ٢٤٢/٣، وتفسير الفخر الرازي ١٦٠/١١، قال: وهذه الآية من أقوى الدلائل في اثبات الشفاعة لأهل الكبائر.

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٤٠٦/٣) والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٨٢/٢) قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط مسلم، والبيهقي في البعث والنشور (ص ٥ برقم ١)، وصحّحه الألباني في مشكاة المصابيح (١٥٥٨/٣ برقم ٥٥٩٩) .

(٤) سورة النجم: آية ٢٦ . (٥) فتح القدير: الشوكاني (١١٠/٥) .

(٦) سورة الدخان: آية ٥١ - ٥٧ .

مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ))(١)

أمّا الأحاديث الدالّة على نعيم الجنة وما فيها من الفضل العظيم فكثيرة جدّاً منها :

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (( يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ))(٢) قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: (( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ))(٣)

وقد تحدّث الشوكاني - رحمه الله تعالى - عن الجنة ونعيمها، ولا سيّما في تفسيره للآيات وردّ على من أثبت اللذّة الروحانية دون اللذّة الجسمانية في نعيم الجنة، وناقشه، ودحض شبهه، كما تقدّم بيانه(٤) .

وقال رحمه الله في وصف أهل الجنة في قوله تعالى: (( لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ))(٥): (( أي لا يمسّهم تعب وإعياء لعدم وجود ما يتسبّب عنه ذلك في الجنّة، لأنّها نعيم خالصة، ولذّة محضة، تحصل لهم بسهولة، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد، بل بمجرّد خطور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفواً عفواً. ( وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ) أبداً، وفي هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذّة وكمال النعيم، فإنّ علم من هو في نعمة ولذّة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغّص نعيمه وتكدّر لذّته. ))(٦)

ومثل هذا قوله تعالى: (( وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ))(٧): (( أي دائمون، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس، وتلذّبه الأعين، كما قال سبحانه: (( وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ))(٨)(٩)، وقوله تعالى: (( وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ))(١٠) والمعنى: (( ما تشتهيه أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ونحوهما مما تطلبه النفس وتهواه كائناً ما كان، وتلذّ الأعين من كل المستلذّات التي تستلذّ بها وتطلب مشاهدتها. ))(١١)

ومما أورد الشوكاني من الأحاديث والآثار في وصف الجنة ونعيمها ما أخرجه أحمد

---

(١) سورة محمد : آية ١٥ .
(٢) تقدّم تخريجه في صفحة (٥٦٨) .
(٣) سورة السجدة : آية ١٧ .
(٤) راجع صفحة (٥٦٥ - ٥٦٩) .
(٥) سورة الحجر : آية ٤٨ .
(٦) فتح القدير : الشوكاني (١٣٤/٣) .
(٧) سورة الأنبياء : آية ١٠٢ .
(٨) سورة فصّلت : آية ٣١ .
(٩) فتح القدير : الشوكاني (٤٢٩/٣). (١٠) سورة الزخرف : آية ٧١ .
(١١) فتح القدير : الشوكاني (٥٦٣/٤) .

والترمذي وصحّحه من معاوية بن حَيْدة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (( في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثمّ تشقّق الأنهار منها ))[1]، وما روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: (( ليس في الدنيا مما في الجنّة شيء إلا الأسماء ))[2]

هذا وقد قرّر الشوكاني - رحمه الله - مذهب السلف أهل السنة في أنّ دخول الجنّة يكون بفضل من الله ورحمته، لا بمجرّد العمل.[3] فقال في قوله تعالى: (( وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ))[4]: (( أي في جنّته ودار كرامته، عبّر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أنّ العمل لا يستقلّ بدخول صاحبه الجنّة، بل لا بدّ من الرحمة، ومنه حديث: (( لن يدخل أحد الجنّة بعمله ))[5] وهو في الصحيح. ))[6].

وخالف في هذا المعتزلة بناء على قولهم بوجوب الثواب على الله[7]، فذهبوا إلى أنّ دخول الجنّة يكون بالأعمال لا بالتفضّل، وأنّ الجزاء مرتّب على الأعمال ترتّب العوض. واستدلّوا بآيات منها قوله تعالى: (( جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ))[8]، وقوله: (( وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ))[9] قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ( بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ): (( أي بسبب أعمالكم، لا بالتفضّل كما تقول المبطلة. ))[10]

وقد نقل الشوكاني هذا الكلام في تفسيره وأنكر عليه قائلا:

(( أقول: يا مسكين، هذا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما صحّ عنه:

---

(١) فتح القدير، الشوكاني (٣٦/٥) والحديث أخرجه أحمد في المسند (٥/٥)، والترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة (٦٠٣/٤ برقم ٢٥٧١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والدارمي في كتاب الرقاق، باب في أنهار الجنة (٤٣٥/٢ برقم ٢٨٣٦)، والبيهقي في البعث والنشور (ص ١٦٩ برقم ٢٣٩) عن حكيم بن معاوية عن أبيه .

(٢) المصدر السابق (٥٥/١) والأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٧٤/١)، وذكره البغوي في تفسيره (٥٦/١)، وكذلك ابن كثير في تفسيره (٦٦/١) .

(٣) انظر: عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص ٩٣، ٩٤) تحقيق/بدر البدر، ومجموع فتاوى لابن تيمية (٧٠/٨، ٧١)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ (ص ٤٩٥)، والفتح لابن حجر (٣٠١/١١، ٣٠٢) ونقل هذا الكلام عن جمع من العلماء، كابن بطّال، والقاضي عياض، وابن الجوزي، والكرماني، وابن القيم، والنووي، والمازري، وغيرهم .

(٤) سورة آل عمران: آية ١٠٧ .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (الفتح ٣٠٠/١١ برقم ٦٤٦٧) ولفظه: لا يُدْخِل أحدا الجنّة عمله، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنّة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢١٧٠/٤، ٢١٧١ برقم ٢٨١٦-٢٨١٨) بألفاظ متقاربة .

(٦) فتح القدير: الشوكاني (٣٧٠/١) .

(٧) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٦١٤، ٦١٥)، والكشّاف للزمخشري (٥٥٧/١).

(٨) سورة السجدة: آية ١٧، والأحقاف: آية ١٤، والواقعة: آية ٢٤ . (٩) سورة الأعراف: آية ٤٣ .

(١٠) الكشّاف للزمخشري (١٠٦/٢) ولا يخفى أنّه يقصد بالمبطلة أهل السنة القائلين بأنّ دخولها بالفضل والرحمة، لا بمحض الأعمال .

(( سدّدوا وقاربوا، واعلموا أنّه لن يدخل الجنّة بعمله، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا ، إلا أن يتغمّدني الله برحمته.))[1] والتصريح بسبب لا يستلزم نفي سبب آخر، ولولا التفضّل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلا، فلو لم يكن التفضّل إلا بهذا لإقدار لكان القائلون به محقّة لا مبطلة ( كما قال الزمخشري ) وفي التنزيل : (( ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ))[2]، وفيه :(( فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ))[3] [4]

وقال في قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام حين دعا ربّه :(( وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ))[5]، (( فهذه الآية منادية بأعلى صوت وأوضح بيان بأنّ دخول الجنّة التي هي دار المؤمنين بالتفضّل منك لا بالعمل منهم ،كما قال رسولك الصادق المصدوق ... فإذا لم يكن إلا تفضّلك الواسع فترك طلبه منك عجز، والتفريط في التوسّل إليك بما لا يصال إليه تضييع.))[6]

قلت : ما ذهب إليه الشوكاني مقرّرا لمذهب أهل السنة في هذه المسألة هو الحقّ الذي لا يجوز اعتقاد غيره ،لما دلّت عليه نصوص الكتاب والسنة .

وقد جمع شارح الطحاوية بين الآيات والحديث في هذه المسألة فقال:(( بأنّ الباء التي في النفي غير التي في الإثبات، فالمنفي في قوله صلى الله عليه وسلم :( لن يدخل الجنّة أحد بعمله ) باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل الجنّة ،كما زعمت المعتزلة أنّ العامل مستحقّ دخول الجنّة على ربّه بعمله ، بل ذلك برحمة الله وفضله . والباء التي في قوله تعالى:( جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ) وغيرها باء السبب، أي بسبب عملكم ،والله تعالى هو خالق الأسباب والمسبّبات، فرجع الكلّ إلى محض فضل الله ورحمته.))[7]

## المبحث الحادي عشر: رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة

إنّ أعظم نعيم ينالها المؤمنون في الجنّة هو رؤية الله عزّ وجلّ بأبصارهم ، وهي ثابتة

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (٦١٢) . (٢) سورة النساء : آية ٧٠ .
(٣) سورة النساء : آية ١٧٥ . (٤) فتح القدير: الشوكاني (٢٠٦/٢) .
(٥) سورة النمل : آية ١٩ . (٦) فتح القدير: الشوكاني (١٣١/٤) .
(٧) شرح العقيدة الطحاوية :ابن أبي العزّ الحنفي(ص ٤٦٥) ،وانظر مجموع فتاوى: ابن تيمية (٧٠/٨، ٧١) .

بالكتاب والسنة المتواترة، واتّفق على القول بها جميع الصحابة والتابعين، وجميع أئمّة الاسلام المعروفين بالامامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبين الى أهل السنة والجماعة.[1]

وقد قرّر الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ هذه المسألة، واستدلّ لها بأدلّة كثيرة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة، وأنكر على أهل البدع النفاة للرؤية، وأبطل حججهم، ودحض شبههم وتأويلاتهم المختلفة.

وقد أفرد ـ رحمه الله ـ هذه المسألة في مؤلّف مستقلّ سمّاه: البغية في مسألة الرؤية، وهي ما تزال مخطوطة[2].

ومما ذكره من الأدلّة التي استدلّ بها أهل السنة والجماعة على ثبوت الرؤية يوم القيامة: قوله تعالى: (( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ))[3]

هذه الآية صريحة الدلالة على رؤية المؤمنين ربّهم يوم القيامة، لا تقبل تحريفا ولا تأويلا.

قال الشوكاني[4]: (( والنظر بمعنى الرؤية والابصار، لا سيّما مع اقترانه بالوجوه. أي تنظر اليه، هكذا قال الجمهور أهل العلم، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أنّ العباد ينظرون ربّهم يوم القيامة، كما ينظرون الى القمر ليلة البدر. قال ابن كثير: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف الأمّة، كما هو متّفق عليه بين أئمّة الاسلام وهداة الأنام.))[5]

وقوله تعالى: (( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ))[6]، ومثله قوله تعالى: (( لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ))[7]

فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين ومن بعدهم تفسير

---

(١) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة (٥٤٨/٢)، ومجموع فتاوى لابن تيمية (٣٣٧/٢)، وحادي الأرواح الى بلاد الأفراح لابن القيم (ص ٤٠٢) تحقيق/ يوسف علي بديوي ومحيي الدين مستو، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي (ص ٢٠٤).

(٢) في ( ٢٣ ) ورقة، وتوجد في مكتبة الجامعة الاسلامية، تحت رقم (١٤٤٣) ميكروفيلم (توحيد) وهي مصوّرة من مكتبة دار العلوم ندوة العلماء بلكناو. بدون تاريخ.

(٣) سورة القيامة، آية ٢٢، ٢٣.

(٤) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني ( ورقة ١٩ ) ( مخطوط ).

(٥) فتح القدير: الشوكاني (٣٣٨/٥)، وانظر تفسير ابن كثير (٤٨٠/٤).

(٦) سورة يونس: آية ٢٦. (٧) سورة ق: آية ٣٥.

الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنّة .(١)

قال الشوكاني - بعد أن ساق الأقوال في معنى الزيادة في الآية -:

" والحقّ هو القول بأنّها النظر إلى وجه الله ، لما ورد فيه من أحاديث ثابتة ."

وذكر أحاديث كثيرة في هذا الصدد(٢)، منها :

حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية :(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ) قال:(( إذا دخل أهل الجنة الجنة ،وأهل النار النار ،نادى مناد يا أهل الجنة ،إنّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ،فيقولون: وما هو؟ ألم يثقِّل موازيننا، ويبيِّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة ،ويجرنا من النار ؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه. قال: فوالله ما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه ،ولا أقرَّ لأعينهم .))(٣)

ومن آثار الصحابة من أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في الآية قال:(( الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله .))(٤)

قال الشوكاني بعد سرد الروايات :(( وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات في الزيادة ،غالبها أنّها النظر إلى وجه الله سبحانه ، وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،فلم يبق حينئذ لقائل مقال، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهّرة ما ينتفعون به ، فإنّهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم . والله المستعان .))(٥)

---

(١) قال ابن كثير ،وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن أبي بكر الصدّيق، وحذيفة بن اليمان ،وعبد الله بن عبّاس،وسعيد بن المسيّب،وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط،ومجاهد ،وعكرمة ،وعامر بن سعد ،وعطاء ،والضحّاك،والحسن،وقتادة ، والسدى،ومحمد بن اسحق،وغيرهم من السلف والخلف.وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (تفسير ابن كثير ٤٢٩/٢) ،وانظر أقوالهم عند اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤٥٥/٣-٤٦٩) بأسانيدها، وكذلك في حادي الأرواح لابن القيم (ص ٤٠٦ - ٤٠٩) .

(٢) انظر فتح القدير ، الشوكاني (٤٤١/٢) وانظر أيضاً (٧٩/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ،باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربّهم سبحانه وتعالى. (١٦٣/١ برقم ١٨١) ،وأحمد في المسند (٣٣٢/٤) واللفظ له .

(٤) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٢٠٦/١ برقم ٤٧٣،٤٧٤) ،وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٢٥٦/١،٢٥٧ برقم ٤٧٠،٤٧١) ،وابن جرير في تفسيره (١٠٤/١١،١٠٥) ،وابن خزيمة في التوحيد (٤٥٣/١ برقم ٢٦٥ مكرر) ،والآجري في الشريعة (ص ٢٥٧) ،والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٩٠) قال الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة (ص ٢٠٦) : حديث موقوف صحيح .

(٥) فتح القدير ، الشوكاني (٤٤٢/٢) .

ومن الأدلة القرآنية قوله تعالى: (( كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ))(١)

استدل الشوكاني بهذه الآية على ثبوت الرؤية قال: (( في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، وقال جل ثناؤه: (( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ))(٢) فأعلم جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون، وأعلم أن الكافرين محجوبون عنه.))(٣)

وقد روي عن الامام الشافعي - رحمه الله - في هذه الآية قال: (( فيها دلالة على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة.))(٤) اذ لو حُجب أولياؤه فأي فضيلة لهم على أعدائه.

ومن الأدلة القرآنية أيضا قوله تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام: (( قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ . الآية ))(٥)

احتج بها الشوكاني على وجهين:

١ ) إن موسى عليه السلام سأل الرؤية، ولو امتنع كونه تعالى مرئيا لما سأله، لأنه ان علم امتناعه فالعاقل لا يطلب المحال، وان جهله فالجاهل بما لا يجوز على الله لا يجوز أن يكون نبيا.

٢ ) إنه علق تعالى الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل أمر ممكن عقلا، وما علق على الممكن ممكن، اذ لو كان ممتنعا لأمكن صدق اللازم بدون الملزوم، وهو محال.(٦)

أما الأدلة من الأحاديث فهي كثيرة جدا تصل الى حد التواتر كما صرح بها العلماء(٧) منهم الشوكاني في مواضع من مؤلفاته.(٨)

وقد ذكر - رحمه الله - أن أحاديث الرؤية مروية في جميع دواوين الاسلام من طرق كثيرة، حتى رووه من طريق زيد بن علي، وفي الصحيحين منها ثلاثة عشر حديثا اتفقا منها على ثمانية أحاديث، وانفرد البخاري بحديثين، ومسلم بثلاثة أحاديث، وقد استوفى الحافظ

---

(١) سورة المطففين: آية ١٥ . (٢) سورة القيامة: آية ٢٢، ٢٣ .
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٥/٤٠٠) .
(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/٤٦٨ برقم ٨٠٩) .
(٥) سورة الأعراف: آية ١٤٣ . (٦) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ١٥) (مخطوط) .
(٧) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/٣٤٨)، ومجموع فتاوى له (٣/٣٩٠، ١٦/٨٤)، وحادي الأرواح لابن القيم (ص ٤١٦)، وتفسير ابن كثير (٤/٤٧٩، ٤٨٠)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٢٠٩)، والفتح لابن حجر (١٣/٤٣٦) .
(٨) انظر تحفة الذاكرين (ص ٣٦١)، وفتح القدير (١/٨٧، ٥٣٣)، والبغية في مسألة الرؤية (ورقة ١٣، ١٤، ١٩) (مخطوط) .

العلوي اليمني[1] في كتابه شرح الأربعين أحاديث الرؤية، ورواها من طريق نحو خمسين صحابياً، وهكذا ابن القيم في حادي الأرواح، وكلها مصرحة برؤية المؤمنين له يوم القيامة ..... والقدح في حديث منها لا يستلزم القدح في جميعها .[2]

ومن الأحاديث التي أوردها الشوكاني ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال الناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تُضارّون [3] في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل تُضارّون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه كذلك . الحديث .))[4]

والمراد من التشبيه في هذا الحديث كما فسره علماء السلف رحمهم الله هو تشبيه الرؤية بالرؤية[5]، من حيث الوضوح والحقيقة وعدم التكلف والتزاحم حال الرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي، لأن الله تبارك وتعالى: (( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ))[6]

قال شارح العقيدة الطحاوية: (( وفيه (أي الحديث السابق) دليل على علو الله على خلقه، وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة؟ ومن قال: يُرى لا في جهة (وهم الأشعرية)[7] فليراجع عقله !! فإما أن يكون مكابراً لعقله، وفي عقله شيء، وإلا فإذا قال: يرى لا أمام الرائي، ولا خلفه، ولا عن يمينه، ولا عن يساره، ولا فوقه، ولا تحته، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة .))[8]

---

(١) لعله هو يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي اليماني صاحب الأنوار المضيئة شرح الأربعين السليقة، وقد تقدمت ترجمته في صفحة (٤٤٤) وانظر تاريخ اليمن للواسعي (ص ٢٠١)

(٢) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ١٣، ١٤) (مخطوط) .

(٣) روي: تضارون، بتشديد الراء وتخفيفها والتاء مضمومة فيهما، ومعنى المشدد: هل تضارون غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها لخفائه؟ ومعنى المخفف: هل يلحقكم في رؤيته ضير، وهو الضرر. (شرح النووي لمسلم ١٨/١، وانظر النهاية لابن الأثير ٨٢/٣ مادة: ضرر) .

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٣٤٠/٥)، والبغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ٩) (مخطوط) والحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (الفتح ٤٣٠/١٣ برقم ٨٤٣٧)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٦٣/١، ١٦٤ برقم ١٨٢) .

(٥) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية (١٠٧/٥، وأيضاً ٨٤/١٦) . (٦) سورة الشورى: آية ١١ .

(٧) انظر: الانصاف للباقلاني (ص ٢٥٢)، والمواقف للايجي (ص ٣٠٠، ٣٠٨)، وشرح العقائد النسفية للتفتازاني (ص ٥٣) تحقيق/ أحمد حجازي السقا، وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري (ص ١١٥) - وقد استوفى شيخ الاسلام ابن تيمية الرد عليهم . انظر مجموع فتاوى (٨٤/١٦ - ٨٩)، وبيان تلبيس الجهمية (٣٥٩/١ - ٣٦٨) .

(٨) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص ٢١١) وانظر البغية: الشوكاني (ورقة ٨، ٩)

فهذه الآيات والأحاديث التي ذكرتها وغيرها مما لم أذكره فيها دلالة صريحة لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من ثبوت الرؤية لله تعالى حقيقة يوم القيامة .

أمّا المنكرون للرؤية فهم أهل البدع والأهواء من الجهمية ومن تابعهم من المعتزلة والرافضة وأكثر الفرق الخارجة عن الاسلام .[(١)]

وقد تعرّض الشوكاني ـ رحمه الله ـ لاستدلالاتهم النقلية والعقلية ، وبيّن أنّهم لم يتمسّكوا بشيء يصلح للتمسّك به ، لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .
أمّا ما تمسّكوا به من الأدلّة العقلية فهو السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .[(٢)]

وسأذكر هنا بعض الأدلّة النقلية التي استدلّوا بها ، والتي تكلّم عليها الشوكاني رحمه الله تعالى .

الدليل الأوّل : قوله تعالى : (( لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ))[(٣)]

قالوا : إنّ الادراك المسند إلى الابصار إنّما هو الرؤية ، أو هما متلازمان ، والآية نفت أن تراه الأبصار ، وذلك يتناول جميع الأبصار ، بواسطة اللام الاستغراقية ، والوقوع في سياق النفي في مقام المبالغة في جميع الأوقات .[(٤)]

واعترض الشوكاني على هذا الاستدلال بوجوه :

١ ـ منها : أنّ الادراك هو الاحاطة بجوانب المولى ، إذ هو في الأصل النيل والوصول والبلوغ ، ثم نقل إلى الرؤية المحيطة لكونها أقرب إلى تلك الحقيقة ، وهذه الرؤية المكيّفة بكيفية الاحاطة أخصّ مطلقا من الرؤية المطلقة ، وسلب الأخصّ لا يستلزم سلب الأعمّ .

٢ ـ أنّ الآية محمولة على نفي الرؤية في الدنيا لا في الآخرة ، جمعا بين الأدلّة ، وذلك لأنّها وإن عمّت في الأشخاص ... فهي لا تعمّ في الأزمان ، لأنّها سالبة مطلقة ، لا موجّهة

---

(١) انظر البغية في مسألة الرؤية ، للشوكاني (ورقة ٢) ( مخطوط ) ، وانظر : مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٥٨/٨،٣٩١/٢) ، وحادي الأرواح ، لابن القيم (ص ٤٠٢) ، وشرح العقيدة الطحاوية ؛ لابن أبي العز الحنفي (ص ٢٠٤) .
(٢) انظر مناقشة الشوكاني لاستدلالاتهم واعتراضه عليها في : البغية في مسألة الرؤية ( من ورقة ٢ ـ ٨ ) ، وانظر تحفة الذاكرين (ص ٣٦١) .
(٣) سورة الأنعام ؛ آية ١٠٣ .
(٤) البغية في مسألة الرؤية ، للشوكاني (ورقة ١٠) (مخطوط) ، وانظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٢٣٣،٢٣٤) ، والابانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (ص ٥٥،٥٦) ـ تحقيق / د . فوقية حسين محمود .

دائمة .

٣ ـ أنّ عموم الآية مخصّص بالأحاديث البالغة رتبة التواتر، كما صرّح به ابن الوزير في الروض الباسم[1] والسيوطي في البدور السافرة في أمور الآخرة[2] حتى جزم الامام المذكور أنّها تزيد على ثمانين حديثا من طريق ثلاثين صحابيّا .[3]

وقد ذكر الشوكاني أيضا هذه الوجوه الاعتراضية في تفسيره للآية ، وقال إنّ المنفي في الآية هو هذا الادراك الذي هو الاحاطة لا مجرّد الرؤية . وأيضا قد تقرّر في علم البيان والميزان أنّ رفع الايجاب الكلّي سلب جزئي، فالمعنى: لا تدركه بعض الأبصار، وهي أبصار الكفّار، هذا على تسليم أنّ نفي الادراك يستلزم نفي الرؤية ، فالمراد به هذه الرؤية الخاصّة ، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب، والأوّل تخلفه الجزئية ، والتقدير: لا تدركه كلّ الأبصار بل بعضها،وهي أبصار المؤمنين، والمصير الى أحد الوجهين متعيّن،لما عرّفناك من تواتر الرؤية في الآخرة ،واعتضادها بقوله تعالى: (( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ))[4]

الدليل الثاني: استدلّوا بقوله تعالى: (( وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي ))[5]

قالوا :إنّ ( لن ) في الآية ( لن تراني ) لتأبيد النفي وتأكيده ،كما صرّح بذلك الزمخشري في مؤلفاته[6].

قال الشوكاني:(( وأجيب عن ذلك بما ذكره ابن مالك[7] من أنّها لو كانت للتأبيد لما قُيّد منفيها باليوم في ،(( فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ))[8] ،ولم يصحّ التوقيت في:(( لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ))[9] ، ولكان ذكر الأبد في:(( وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ

---

(١) انظر الروض الباسم في الذبّ عن سنة أبي القاسم (ص ١٤٦) ط/ السلفية بالقاهرة ١٣٨٥هـ.
(٢) انظر (ص ٤٧٧ ـ ٤٨٧) تحقيق/ مصطفى عاشور،ط/ مكتبة القرآن،القاهرة .
(٣) البغية في مسألة الرؤية ،الشوكاني (ورقة ١٣) ( مخطوط ) .
(٤) انظر فتح القدير ، الشوكاني (١٤٨/٢) . (٥) سورة الأعراف ، آية ١٤٣ .
(٦) البغية في مسألة الرؤية ،الشوكاني (ورقة ١٨) (مخطوط) ،وانظر :الكشّاف للزمخشري (٢/ ١٥٤) ،وانظر أيضا شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٢٦٤) .
(٧) جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائي النحوي،صاحب التصانيف المشهورة المفيدة ،ومنها: الألفية ،والكافية الشافية ،وشرحها،كان اماما في اللغة والنحو والقراءات، توفّي (٦٧٢هـ) (البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٤/١٣ ،وبغية الوعاة للسيوطي ١٣٠/١ ،ومفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ١٣١/١) .
(٨) سورة مريم ، آية ٢٦ . (٩) سورة طه ، آية ٩١ .

أَبَدًا ))[1] تكرارا ، اذ الأصل عدمه.))[2]

فثبت أنّ ( لن ) لا تقتضي النفي المؤبّد[3]، وأنّ هذه الآية لا حجّة لهم بها،بل هي حجّة لأهل السنة في ثبوت الرؤية كما تقدّم بيانه. وقد فسّر الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره الآية أنّ سؤال موسى للرؤية يدلّ على أنّها جائزة عنده في الجملة ، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها ، والجواب بقوله : ( لن تراني ) يفيد أنّه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه ، أو أنّه لا يرى ما دام الرائي حيًّا في دار الدنيا، أمّا رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لا يخفى على من يعرف السنة المطهّرة ، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة .[4]

وقد أوّل المنكرون أدلة أهل السنة بتأويلات عديدة ،منها : قولهم إنّ النظر في الآية ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ) والحديث بمعنى الانتظار ،لا بمعنى النظر ،كما قال صاحب الأصول الخمسة[5] : النظر بمعنى الانتظار ،فكأنّه قال :وجوه يومئذ ناضرة لثواب ربّها منتظرة .[6]

وهذا تأويل بعيد ، وقد اعترض عليه الشوكاني وبيّن معنى النظر في الآية فقال :

(( نقول: النظر في اللغة جاء بمعان :

١ـ بمعنى الانتظار ، ويستعمل بغير صلة ،بل يتعدّى بنفسه ، قال تعالى:(( انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ))[7] ،وقال:(( مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ))[8] أي ينتظرون،ومعنى قوله :(( فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ))[9] أي منتظرة .

٢ـ وجاء بمعنى التفكّر والاعتبار ، ويستعمل حينئذ بفي، يقال: نظرت في الأمر الفلاني،أي تفكّرت .

---

(١) سورة البقرة : آية ٩٥ . (٢) البغية في مسألة الرؤية ،الشوكاني (ورقة ١٨ )(مخطوط).

(٣) انظر شرح الكافية الشافية لابن مالك(١٥١٥/٣ ،١٥٣١)تحقيق:د/عبد المنعم أحمد هريدي، وانظر حادي الأرواح لابن القيم (ص ٤٠٩ ) ،وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص ٢٠٨).

(٤) انظر فتح القدير : الشوكاني (٢٤٣/٢) .

(٥) هو أبو الحسن عبد الجبّار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمداني الأسدأبادي،قاض، أصولي،كان شيخ المعتزلة في عصره ،وهم يلقّبونه قاضي القضاة ،ولا يطلقون هذا اللقب على غيره ،له تصانيف كثيرة منها: المغني في أبواب التوحيد والعدل ،وشرح الأصول الخمسة ، وتنزيه القرآن عن المطاعن،توفّي(٤١٥هـ)(انظر: تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ١١٣/١١) وطبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٢١٩/٣ ،ومقدمة كتاب شرح الأصول الخمسة ) .

(٦) البغية في مسألة الرؤية : الشوكاني (ورقة ٢١ ) ،وانظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبّار (ص ٢٤٥ ) ،والكشّاف للزمخشري (٦٦٢/٤) .

(٧) سورة الحديد ،آية ١٣ .(٨) سورة يس، آية ٤٩ .(٩) سورة النمل: آية ٣٥ .

٣ـ وجاء بمعنى الرأفة والتعطف، ويستعمل حينئذ باللام، يقال: نظر الأمير لفلان، أي رأف به.

٤ـ وجاء بمعنى الرؤية، ويستعمل بالى. قال الشاعر:

نظرت الى من حسّن الله وجهه … فيا نظرة كادت على وامق تقصر

والنظر في الآية موصول بالى مقرون بالوجوه، فوجب حمله على الرؤية البصرية، فتكون واقعة في ذلك اليوم، وهو فرع الصحة.))[1]

وهكذا أبطل الشوكاني - رحمه الله تعالى - حججهم ودحض شبههم، وفيما ذكرته غنية لمن أراد الحق. وقد نهج الشوكاني منهج أهل السنة الذي تؤيده الأدلة الصريحة والصحيحة من الكتاب والسنة، وهي قطعية الدلالة. وقال:

(( ولا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها، دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها الا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب.))[2].

## المبحث الثاني عشر: النار وعذابها

ومن الايمان باليوم الآخر الايمان بوجود النار، وأنها حق لا ريب فيها.

والنار هي دار أعدها الله سبحانه وتعالى لأعدائه ولمن عصاه وخالف أمره، وهي دار العقوبة في الآخرة، ودار الذل والهوان والعذاب.

وقد وردت الآيات والأحاديث في النار ووصفها ووصف عذابها وصفات أهلها أكثر من أن تحصى.

قال تعالى: (( وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ))[3]

وقال تعالى: (( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ))[4]

وقال تعالى: (( وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ))[5]

---

(١) البغية في مسألة الرؤية، الشوكاني (ورقة ٢١) ( مخطوط ).
(٢) فتح القدير، الشوكاني (٨٧/١).   (٣) سورة آل عمران: آية ١٣١.
(٤) سورة التحريم: آية ٦.   (٥) سورة النساء: آية ٥٥، ٥٦.

ومن السنة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في وصف النار: (( ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم ، قيل يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال: فُضِّلَتْ عليهنّ بتسعة وستّين جزءاً، كلّهنّ مثل حرّها . ))(١)

وقال عليه الصلاة والسلام في وصف أخفّ العذاب في النار:

(( انّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص(٢) قدميه جمرة يَغْلي منها دماغه . ))(٣)

وقد تحدّث الشوكاني – رحمه الله تعالى – عن النار وعذابها من خلال تفسيره للآيات.

فقال في قوله تعالى: (( فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ))(٤) : (( أي ( فاتّقوا النار ) بالإيمان بالله، وكتبه، ورسله، واليوم بفرائضه، واجتناب مناهيه ، والمراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها، لأنّهم قرنوا أنفسهم بها في الدنيا، فجعلت وقوداً للنار معهم ، ويدلّ على هذا قوله تعالى: (( إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ))(٥) أي حطب جهنّم ، وقيل المراد بها حجارة الكبريت. وفي هذا من التهويل ما لا يقدّر قدره من كون هذه النار تتّقد بالناس والحجارة ، فأوقدت بنفس ما يراد احراقه بها، والمراد بقوله: ( أعدّت ) جعلت عدّة لعذابهم وهيّئت لذلك. ))(٦)

وقال في قوله تعالى: (( وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ))(٧) : (( أي لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا ويستريحوا من العذاب، بل كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب . وهذه الآية هي مثل قوله تعالى: (( لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ))(٨) . أي لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه(٩)(١٠) .

وقوله تعالى عن عذاب أهل النار: (( وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ))(١١) أي تأتيه أسباب الموت من كلّ جهة من الجهات، أو من كلّ موضع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنّها مخلوقة (الفتح ٣٨١/٦ برقم ٣٢٦٥) واللفظ له، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدّة حرّ نار جهنّم الخ ( ٢١٨٤/٤ برقم ٢٨٤٣ ) .

(٢) الأخمص من القدم: الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء. ( النهاية لابن الأثير ٨٠/٢ مادة: خمص ) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ( الفتح ٤٢٤/١١ برقم ٦٥٦١) – واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً (١٩٦/١ برقم ٣٦٣) .

(٤) سورة البقرة، آية ٢٤ . (٥) سورة الأنبياء، آية ٩٨ . (٦) فتح القدير، الشوكاني (٥٣/١).

(٧) سورة فاطر: آية ٣٦ . (٨) سورة طه: آية ٧٤، وسورة الأعلى: آية ١٣ .

(٩) فتح القدير، الشوكاني (٣٥٤/٤). (١٠) المصدر السابق (٣٧٦/٣).

(١١) سورة إبراهيم: آية ١٧ .

من مواضع بدنه. ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ أي والحال أنه لم يمت حقيقة فيستريح .[1]

وقال في قوله تعالى عن أهل النار: (( لَا بِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ))[2]: (( أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، وكلما مضى حقب جاء حقب، والأحقاب: الدهور. ))

واختلفوا في مدة الحقب الى عدة أقوال، قال الشوكاني: والأولى ما ذكرناه أولاً من أن المقصود بالآية التأبيد لا التقييد. ( لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ) أي أنهم لا يذوقون في جهنم أو في الأحقاب بردا ينفعهم من حرّها، ولا شرابا ينفعهم من عطشها. ( إلا حميما ) وهو الماء الحار. ( وغساقا ) وهو صديد أهل النار.[3]

فنعوذ بالله من جهنم وما قرب اليها من قول أو عمل .

## المبحث الثالث عشر: الجنة والنار باقيتان لا تفنيان

خلود الجنة والنار وبقاؤهما ببقاء الله لهما، وأنهما لا تفنيان أبدا، ولا يفنى من فيهما، ثابت بالكتاب والسنة ، والأدلة عليهما كثيرة جدًا .

قال تعالى في الجنة وأهلها: (( وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ))[4]

وقال تعالى: (( وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ))[5]

ومعنى الخلود – كما قال الشوكاني –: هو البقاء الدائم الذي لا ينقطع، أي أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها .[6] لقوله تعالى: (( لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ))[7].

وقال تعالى في النار وأهلها: (( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ))[8]

وقال تعالى: (( إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يَجِدُونَ

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (١٠١/٣). (٢) سورة النبأ: آية ٢٣ – ٢٥ .
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٣٦٦/٥). (٤) سورة النساء: آية ٥٧ .
(٥) سورة التوبة: آية ١٠٠ . (٦) انظر فتح القدير: الشوكاني (٥٥/١) وأيضا (٤٧٥/٣) .
(٧) سورة الدخان: آية ٥٦ . (٨) سورة النساء: آية ١٦٨، ١٦٩ .

وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ))(١)

وقال تعالى: (( وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ))(٢)

وغيرهذا من الآيات، وحسبك أنّ الله سبحانه سمّاها دار الخلد إذ قال: (( ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ))(٣)

ومن الأحاديث الدالّة على أبديّة الجنة والنار وخلود أهلهما فيهما: حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (( يُدخل الله أهل الجنة الجنة، ويُدخل أهل النار النار، ثمّ يقوم مؤذّن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كلّ خالد فيما هو فيه. ))(٤)

فهذا الحديث وأمثاله يدلّ دلالة واضحة على أبديّة الجنّة والنار ودوامهما، وخلود أهلهما فيهما، لا إلى غاية، ولا إلى أمد.

وهذا ما أجمع عليه السلف أهل السنة والجماعة.

يقول الصابوني - رحمه الله تعالى - في كتابه: عقيدة السلف أصحاب الحديث(٥):

(( ويشهد أهل السنة ويعتقدون أنّ الجنّة والنار مخلوقتان، وأنّهما باقيتان لا تفنيان أبدا، وأنّ أهل الجنة لا يخرجون منها أبدا، وكذلك أهل النار الذين هم أهلها، خلقوا لها، لا يخرجون منها أبدا، ويؤمر بالموت فيذبح على سور بين الجنة والنار، وينادي المنادي يومئذ: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.))(٦) اهـ

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: (( وقد اتّفق سلف الأمّة وأئمّتها وسائر أهل السنة والجماعة على أنّ من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلّية، كالجنّة، والنار، والعرش، وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلّا طائفة من أهل الكلام المبتدعين، كجهم بن صفوان، ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل، يخالف

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٦٤، ٦٥. (٢) سورة البقرة، آية ١٦٧. (٣) سورة فصّلت، آية ٢٨.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب (الفتح ١١/ ٤١٤ برقم ٦٥٤٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبّارون الخ (٤/ ٢١٨٩ برقم ٢٨٥٠) واللفظ له.

(٥) صفحة ٦٦ تحقيق/ بدر البدر. (٦) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (الفتح ١١/ ٤٢٣ برقم ٦٥٤٨) من حديث ابن عمر بلفظ مقارب بدون قوله: (خلود)، ومن حديث أبي هريرة برقم (٦٥٤٥)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجبّارون الخ (٤/ ٢١٨٨، ٢١٨٩ برقم ٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد، وبرقم (٢٨٥٠ مكرر) من حديث ابن عمر.

كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع سلف الأمة وأئمتها .))[1]

وقد نسب القول بفناء النار إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله تعالى ـ.[2]

أمّا نسبته إلى شيخ الإسلام فهي نسبة غير صحيحة ،لعدم البرهان عليها، فإنّه ـ رحمه الله ـ أنكر أشدّ الإنكار على من قال بفناء النار ، وحكى إجماع سلف الأمة وجماهير المسلمين على تضليل صاحب هذا القول ،كما تبيّن من كلامه السابق، وكما تبيّن من كلامه الصريح في عدة مواضع من كتبه[3].

وأمّا تلميذه ابن القيم فقد صرّح بدوام النار في كثير من مؤلفاته[4] كما جاء في كتابه حادي الأرواح[5] حاكيا له بأنّه قول أهل السنة مستدلاً به على أهل البدع حيث قال:

(( وقد خلقت الجنة وما فيها ،وخلقت النار وما فيها،خلقهما الله عزّوجلّ ،وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدا، فإن احتجّ مبتدع أو زنديق بقول الله عزّوجلّ :(( كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ))[6] ونحو هذا من متشابه القرآن ،قيل له : كلّ شيئ مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا )) اهـ .

وكما جاء في كتابه الوابل الصيّب[7] قال :(( ولمّا كان الناس على ثلاث طبقات: طيّب يشينه خبث، وخبيث لا طيّب فيه ، وآخرون فيهم خبث وطيّب،كانت دورهم ثلاثة :دار الطيّب المحض، ودار الخبيث المحض، وهاتان الداران لا تفنيان، ودار لمن معه خبث وطيّب، وهي الدار التي تفنى،وهي دار العصاة ، فإنّه لا يبقى في جهنّم من عصاة الموحّدين أحد ، فإنّهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ، ولا يبقى إلا دار الطيّب المحض،ودار الخبث المحض .)) اهـ .

ففي هذين النصّين الصريحين دليل واضح على أنّه رحمه الله يقول بدوام النار

---

(١) مجموع فتاوى : ابن تيمية (٣٠٧/١٨) .

(٢) انظر كتاب،رفع الأستار لإبطال أدلّة القائلين بفناء النار للصنعاني،بتحقيق الألباني.

(٣) انظر ،مجموع فتاوى (٣٠٤/٣، ٨/٢٨٠، ١٢/٤٥، ١٤/٣٤٨) ،وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (٢٢٧/١، ٢٢٨) ،وبيان تلبيس الجهمية (١٥٢/١، ١٥٧) ،ودرء تعارض العقل والنقل (٣٨/١، ٣٠٤، ٣٠٥)، و ١٥٧/٣، ١٥٨، و ٣٤٥/٨) .

(٤) انظر أيضا،اجتماع الجيوش الإسلامية (ص ٩١) ط/ السلفية ،وطريق الهجرتين(ص ٢٥٤، ٢٥٥) ـ تحقيق/عبدالله إبراهيم الأنصاري،وزاد المعاد (٦٦/١ـ ٦٨)تحقيق/شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

(٥) صفحة (٧٩، ٨٠) تحقيق/يوسف على بديوى،ومحيى الدين مستو .

(٦) سورة القصص ، آية ٨٨ . (٧) صفحة (٣٢) تحقيق/ مصطفى بن العدوي .

وخلود الكفار فيها . وهذا هو الأولى بأن ينسب إليه وأن يجعل هو رأيه في هذه المسألة ، لاتفاقه مع قواطع الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة قاطبة ، وهو - رحمه الله - من أعظم الدعاة إلى ذلك .

وقد حقق هذه المسألة كثير من الباحثين[1] ، وأثبتوا بالأدلة القوية اتفاق الشيخين على القول بأبدية النار المتفق مع قواطع الكتاب والسنة وعقيدة سلف الأمة .

ولست بصدد الحديث عن الشيخين الجليلين ، وإنما حديثي عن الشوكاني الذي وافق أهل السنة في هذا الموضوع وقرره في عدة مواضع من تفسيره ، بل أفرده بالتأليف في رسالة بعنوان : كشف الأستار في إبطال قول من قال بفناء النار[2] ردا على سؤال ورد إليه في هذا الموضوع . ويقصد بمن قال بفناء النار الجهمية ومن تابعهم ، كما صرح في أول الرسالة ، ولم أره تعرض فيها للشيخين كما زعمه بعض الباحثين[3] . فإن كلامه من أولها إلى آخرها يدور حول معنى الآية (١٢٨) من سورة الأنعام ، والآية (١٠٧، ١٠٨) من سورة هود ، والآية (٢٣) من سورة النبأ ، كما سيأتي تفصيله . وقال في آخر الرسالة ما نصه :

(( وقد أفرد جماعة من متأخري العلماء هذه المسألة بالتصنيف[4] ولم نقف عند تحرير هذا

---

(١) منهم الدكتور علي بن علي جابر الحربي اليماني في كتابه : كشف الأستار لإبطال ادعاء فناء النار المنسوب لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم . ط/ دار طيبة مكة ، وخليل بن عثمان السبيعي في مقدمته لكتاب : توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين لمرعي يوسف الحنبلي (من ص ١٥ - ٣٠) ط/ دار طيبة الرياض ، والدكتور بكر أبو زيد في كتابه : ابن القيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٤٨) ط/ المكتب الإسلامي ، والدكتور عبد الله محمد جار النبي في كتابه : ابن القيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف (ص ٥٦٧ - ٥٧٥) ط/ مؤسسة مكة للطباعة ، والدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي ، والدكتور أحمد عطية الغامدي في مقدمتهما لكتاب : الصواعق المنزلة لابن القيم (ج ١ من ص ١٢ - ٢٠) ط/ الجامعة الإسلامية .

(٢) وهي ما تزال مخطوطة في (١١ ورقة) ، وتوجد في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، تحت رقم (٢٢) ضمن مجموع (٥٩) متوكلية ، بخط الإمام الشوكاني ، بدون تاريخ ، ولعل هذه الرسالة هي ما أشار إليها الشوكاني عند تفسيره لقوله تعالى : ( إلا ما شاء ربك ) قال بعد ذكر الأقوال في معنى الاستثناء ، وقد أوضحت ذلك في رسالة مستقلة جمعتها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام . ( فتح القدير ٢/ ٥٢٥ ) .

(٣) ذكر الدكتور محمد حسن الغماري في كتابه : الإمام الشوكاني مفسرا (ص ٩٤) هذه الرسالة ضمن مؤلفات الشوكاني ، وعلق عليها قائلا : وقد رد على ابن تيمية وابن القيم وغيرهما في ذلك . ولست أدري من أين له هذا مع أنه لم يشر إلى هذه الرسالة ، ولم ينقل منها عند كلامه عن موقف الشوكاني من فناء النار (انظر ص ١٤١ - ١٤٣) مما يدل على أنه لم يطلع عليها . والله أعلم .

(٤) أذكر منهم : شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في قاعدة في الرد على من قال بفناء الجنة والنار ، كما ذكره ابن عبد الهادي في كتابه : العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٤٩) أثناء سرده لمؤلفاته ، ومنهم الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) في : جزء في صفة النار وبقائها . كما أشار إليها ابن الوزير في إيثار الحق على الخلق (ص ٢٠٧) ، وذكره محقق سير أعلام

الجواب على شيء من ذلك، فمن وجد فيها غير ما أوردناه ههنا فليعط النظر حقه، ويستعمل من الانصاف ما لا بد منه، ويذهب الى ما يرجحه، ولكنا لم نقف على شيء يصلح للتمسك به غير ما حررناه، وحسبنا الله ونعم الوكيل ٠ ))[1]

ويدلنا هذا النص على أن الشوكاني - رحمه الله - لم يطلع على الكتب المؤلفة في هذا الموضوع، وبالتالي أنه لم يطلع على ما ذكرفي بعضها من نسبة القول بفناء النار الى شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كما في كتاب: رفع الأستار لابطال أدلة القائلين بفناء النار للعلامة الأمير الصنعاني، ولو اطلع عليه لذكره في هذه الرسالة، فانها خالية عنه ٠

وقد أورد الشوكاني كثيرا من أدلة أهل السنة التي تدل على أبدية النار وخلود الكفار فيها، منها ما ذكرته في أول البحث[2]. ومما ذكره في رسالته في هذا الصدد قوله :

(( ٠٠٠ وقد جاء الدليل الدال على عدم خروج الكفار من النار بحال من الأحوال، كمثل قوله تعالى: (( يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ))[3] فان في هذه الآية الشريفة دليلين جليلين على عدم خروجهم منها بحال من الأحوال ٠

الأول: قوله: ( وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ) فان هذا النفي المؤكد يفيد أنه لا خروج لهم منها، فلو فرض في وقت من الأوقات أو حال من الأحوال أنهم يخرجون منها لم يكن هذا الخبر مطابقا للواقع، واللازم باطل بالاجماع فالملزوم مثله، وهكذا لو فرض أن النار نفسها تفنى فانه يصدق عليهم أنهم قد خرجوا منها، لأن مفارقتها خروج منها، وذلك يستلزم أن لا يكون هذا الخبر مطابقا للواقع، واللازم باطل بالاجماع فالملزوم مثله ٠

وأما الدليل الثاني من هذه الآية فقوله: ( وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ) فانه يدل على أن هذا العذاب مقيم عليهم مستمر لهم، فلو خرجوا من النار في وقت من الأوقات أو فنيت النار، لم يكن عذابها مقيما عليهم، ومثل هذه الآية الآيات التي فيها نفي العفو عنهم، والآيات التي نفي المغفرة[4] والآيات التي فيها استمرار غضب الله

---

==== النبلاء (٧٦/١) ضمن مؤلفاته، ومنهم التقي السبكي (ت ٧٧١هـ) في: الاعتبار ببقاء الجنة والنار. كما أشار اليه الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٢٢/١١)، ومرعي بن يوسف الحنبلي (ت ١٠٣٣هـ) في: توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين (مطبوع)، والأمير الصنعاني (ت ١١٨٢هـ) في رفع الأستار لابطال أدلة القائلين بفناء النار ( مطبوع) ٠

(١) كشف الأستار: الشوكاني (ورقة ١١) (مخطوط)

(٢) انظر أيضا فتح القدير (٥٥/١، ٥٦، ١٦٦، و ٣٣٥/٢) ٠ (٣) سورة المائدة : آية ٣٧ ٠

(٤) كقوله تعالى: (( إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ )) (سورة النساء: آية ٤٨ وأيضا ١١٦) ٠

عليهم ، ودوام سخطه .[1] وهي كثيرة جدًا في الكتاب العزيز ... وهكذا يدلّ على ذلك الآيات التي فيها أنّهم كلّما أخرجوا منها أعيدوا فيها [2]، وكلّما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلودا غيرها [3]، وكلّما استغاثوا أغيثوا بكذا [4]، مما ذكره الله . فانّ هذه الآيات تدلّ على أنّهم لا يزالون كذلك، ولا ينفكّون عن هذه الأمور التي أثبتها الله لهم ، ولو فرض ما زعم القائلون بأنّهم يخرجون من النار ، أو أنّها تفنى عنهم لكانت هذه الأخبار غير مطابقة للواقع، واللازم باطل بالاجماع فالملزوم مثله .))[5]

كما أورد ـ رحمه الله ـ أدلّة المخالفين لأهل السنّة التي استدلّوا بها على فناء النار وانقطاع عذاب أهلها، قال :

(( اعلم أنّ جملة ما استدلّ به القائلون بذلك الفناء ثلاث آيات من كتاب الله العزيز :

الأولى : الآية التي في الأنعام وهي قوله تعالى :(( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ))[6]

والآية الثانية :قوله تعالى في سورة هود :(( يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ،فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ،خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ، وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ))[7]

والآية الثالثة : قوله تعالى في سورة عمّ :(( لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ))[8]

ووجه استدلالهم هو معنى الاستثناء في آية الأنعام ، وفي آية هود استدلّوا بها من وجهين:

١ ـ قوله :( مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ) هذا دليل على أنّ خلودهم وهو مدّة عقابهم مساوية لمدّة بقاء السموات والأرض، ولا خلاف أنّ مدّة بقاء السموات والأرض متناهية ،فلزم

---

(١) كقوله تعالى :(( وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ))(سورة النحل :آية ١٠٦)
(٢) وهي قوله تعالى :((كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ))(سورة السجدة :آية ٢٠).
(٣) وهي قوله تعالى :((كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ))( سورة النساء : آية ٥٦)
(٤) وهي قوله تعالى :((وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ))( سورة الكهف : آية ٢٩)
(٥) كشف الأستار للشوكاني( ورقة ٥،٦)(مخطوط). (٦) سورة الأنعام : آية ١٢٨ .
(٧) سورة هود : آية ١٠٥ ـ ١٠٨ . (٨) سورة النبأ : آية ٢٣ .

أن تكون مدة عقابهم متناهية .

٢ ـ الاستثناء بقوله: ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فإنه استثناء عن مدة عقوبتهم ، وهو يدل على زوال ذلك العقاب في وقت هذا الاستثناء .

أما آية النبأ فاستدلوا بقوله: ﴿ أَحْقَابًا ﴾ حيث إن لبثهم في ذلك العقاب لا يكون إلا أحقابا معدودة ، وقد تقرر أن أفعالا هو من جموع القلة المعروفة .

قال الشوكاني: (( وهذا حاصل ما استدلوا به من النقل، ولم يكن في السنة المطهرة ما يصلح للتمسك به . ))(١)

واستدلوا من الآثار بما روي عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (( لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه )) وفي سنده مقال(٢) . وروي نحو هذا عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وجابر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهم .(٣)

وقد أجاب الشوكاني عن هذه الاستدلالات كلها .

ففي الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أورد ـ رحمه الله ـ أقوال المفسرين في معنى الاستثناء(٤)، واختار القول بأن الاستثناء راجع إلى أهل الإيمان، أي إلا ما شاء الله من خروج الموحدين .

ومثل هذا ما ذكره في معنى الاستثناء في الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾(٥) قال:

(( إن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين، وإنهم يخرجون بعد مدة من النار، ويكون

---

(١) كشف الأستار : الشوكاني ( ورقة ١، ٢) ( مخطوط ) .

(٢) قال الشوكاني: أخرجه ابن المنذر (كما في الدر المنثور للسيوطي ٤٧٨/٤)، وقال ابن القيم في حادي الأرواح (ص ٤١١): رواه عبد بن حميد. وحاول تقويته وهو ضعيف، وعلته الحسن البصري، فإنه لم يدرك عمر رضي الله عنه، فالسند منقطع. وروى ابن الجوزي نحوه في الموضوعات (٢٦٨/٣) من أبي أمامة مرفوعا: يأتي على جهنم يوم ما فيها من بني آدم واحد، تخفق أبوابها كأنها أبواب الموحدين. قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع محال. وقد تكلم الصنعاني على هذا الأثر من حيث الرواية والدراية في كتابه: رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار (ص ٦٥ـ٦٧)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٧٣/٢)، وشرح العقيدة الطحاوية بتحقيقه (ص ٤٨٤ هامش رقم ١) .

(٣) انظر: كشف الأستار للشوكاني (ورقة ٤) (مخطوط)، وفتح القدير له (٥٢٧/٢)، وانظر أيضا حادي الأرواح لابن القيم (ص ٤٩١)، وتفسير ابن كثير (٤٧٧/٢)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٨٤).

(٤) ذكر الشوكاني في فتح القدير (١٦٢/٢) خمسة أقوال، وفي كشف الأستار (ورقة ٢) ثمانية أقوال.

(٥) اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة، انظر حكاية هذه الأقوال في: تفسير الطبري (١١٧/١٢ـ١١٩)، وزاد المسير لابن الجوزي (١٦٠/٤، ١٦١)، وتفسير الفخر الرازي (٦٥/١٨ـ٦٧)، وتفسير القرطبي (٩٩/٩ـ١٠٢)، وحادي الأرواح لابن القيم (ص ٤٨٠ـ٤٨٢).

الاستثناء من خالدين ... وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضروري بأن يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصصا لكل عموم.))(١)

ويؤيد هذا القول بروايات كثيرة عن السلف، منها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله سبحانه: ( فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ) قال: هم من أهل الكبائر من أهل هذه القبلة، يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم، ثم يأذن في الشفاعة لهم، فيشفع لهم المؤمنون، فيخرجهم من النار، فيدخلهم الجنة، فسماهم أشقياء حين عذبهم في النار (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ) حين أذن في الشفاعة لهم، وأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة وهم هم. (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا) يعني بعد الشقاء الذي كانوا فيه ( فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ) يعني الذين كانوا في النار.(٢)

وروي نحو هذا عن قتادة، والضحاك، وخالد بن معدان(٣)، وغيرهم.(٤)

وهو الراجح الذي اختاره الطبري(٥)، والفخر الرازي(٦)، وابن كثير(٧)، والصنعاني(٨)، وكثير من العلماء قديما وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة.

قال الشوكاني: (( ومما يقوي هذا المسلك الذي سلكناه وما تقرر بإجماع أهل النظر أن الجمع مقدم على الترجيح، وأن إعمال الأدلة جميعها أولى من إهمال بعضها ....... وقد ثبت تواترا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يبقى في النار إلا من حبسه القرآن من الكفار، فكان من عداهم من أهل التوحيد بخلافهم، فيكون الاستثناء في الآيتين(٩)

---

وشرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٨١، ٤٨٢)، وفتح القدير للشوكاني (٢/٥٢٥).

(١) فتح القدير، الشوكاني (٢/٥٢٥).

(٢) قال الشوكاني: أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه. (كشف الأستار (ورقة ٥) وفتح القدير (٢/٥٢٦)). وقد تقدم بيان معنى الراجح لهاتين الآيتين في (ص ٤٧٩).

(٣) قال الحافظ ابن حجر: خالد بن معدان الكلاعي الحمصي، أبو عبد الله، ثقة عابد يرسل كثيرا من الثالثة (أي الطبقة الوسطى من التابعين) مات سنة (١٠٣هـ)، وقيل بعد ذلك، أخرج له الجماعة. (التقريب ص ١٩٠ برقم ١٦٧٨).

(٤) انظر: كشف الأستار: الشوكاني (ورقة ٦) (مخطوط)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٥٢٦، ٥٢٧)، وانظر أيضا تفسير الطبري (١٢/١١٨، ١٢٠)، وزاد المسير لابن الجوزي (٤/١٦٠)، وتفسير القرطبي (٩/٩٩)، وتفسير ابن كثير (٢/٤٧٦، ٤٧٧).

(٥) انظر تفسير الطبري (١٢/١١٩، ١٢١)، ونقل عنه الشوكاني في كشف الأستار (ورقة ٤).

(٦) انظر تفسير الفخر الرازي (١٨/٦٦).

(٧) انظر تفسير ابن كثير (٢/٤٧٦، ٤٧٧)، ونقل عنه الشوكاني في كشف الأستار (ورقة ٤).

(٨) حسنه في كتابه: رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار (انظر ص ٩٧، وأيضا ١٠٨، ١٠٩).

(٩) يقصد بهما الآية (١٢٨) من سورة الأنعام، والآية (١٠٧) من سورة هود. والصحيح أنه يقصد بهما الآيتين (١٠٧، ١٠٨) من سورة هود.

متوجّها الى أهل التوحيد ، فانّهم بعض من شمله المستثنى منه ، وأمّا التعبير بلفظ ما في الآيتين عن العقلاء وهي لغير العقلاء ،فهذا ان كان هو الأعمّ الأغلب،لكنّه قد ورد كثيرا التعبير بأحد الحرفين عن الآخر في مواضع من كتاب الله [1] وفي كثير من كلام الفصحاء ، وكان هذا محمولا عليه ، لا سيّما اذا ألجأ الى ذلك الدليل الصحيح فانّ المصير اليه متعيّن . )) [2]

أمّا استدلالهم بقوله تعالى: ( مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ) فأجاب الجمهور بجوابين ، ذكرهما الشوكاني في رسالته :

الأوّل: أنّ المراد : سموات الآخرة وأرضها، والدليل على أنّ في الآخرة سموات وأرضا قوله تعالى: (( يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ )) [3]، وقوله : (( وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ )) [4]، وأيضا لا بدّ لأهل الآخرة مما يقلّهم ويظلّهم وذلك هو الأرض والسموات .

والثاني:أنّ العرب يعبّرون عن الدوام والأبد بقولهم : ما دامت السموات والأرض، كما يقولون:ما اختلف الليل والنهار ، فخاطب الله العرب في هذه الآية على عرفهم ،وبما تقتضيه لغتهم . )) [5]

وأمّا الآية الثالثة التي استدلّوا بها على فناء النار وانقطاع العذاب عن أهلها،وهي قوله تعالى عن أهل النار : ( لَا بِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ) فأجاب الشوكاني بأنّه خاصّ لمن هو عقابه متناه من أهل التوحيد ، كما روي عن خالد بن معدان في هذه الآية وفي قوله تعالى: ( إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ) : أنّهما في أهل التوحيد من أهل القبلة . ) [6]

قال - رحمه الله تعالى - : (( واذا عرفت هذا الجمع بالنسبة الى ما في سورة الأنعام وسورة هود فهكذا ما في سورة عمّ ، فانّه يجعل ذلك خاصّا لمن عقابه متناه كما سلف،أو يقال إنّه مقيّد لما بعده ،وهو : ( لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ) [7] أي اذا انقضت تلك

---

(١) مثال التعبير بلفظ ما عن العقلاء قوله تعالى: (( فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ )) (سورة النساء: آية ٣) ،ومثال التعبير بلفظ من عن غير العقلاء قوله تعالى: (( وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ )) ( سورة النور: آية ٤٥ ) .

(٢) كشف الأستار : الشوكاني ( ورقة ٩ ) (مخطوط) .

(٣) سورة ابراهيم : آية ٤٨ . (٤) سورة الزمر : آية ٧٤ .

(٥) كشف الأستار : الشوكاني(ورقة ٣ )(مخطوط) ،وانظر أيضا فتح القدير : الشوكاني(٢/٥٢٥) .

(٦) المصدر السابق(ورقة ٥ ) ،وفتح القدير : الشوكاني(٥/٣٦٨)والأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٢/٣٠) .

(٧) كشف الأستار : الشوكاني ( ورقة ١٠ ) ( مخطوط ) .

الأحقاب صار لهم من العذاب أنواع غير ذلك .

وقد اختلف العلماء في مدّة الحقب إلى أقوال كثيرة لا مجال هنا لذكرها [1]، والأولى ما قاله جمهور المفسّرين[2] إنّ المقصود بالآية التأبيد لا التقييد، ومعنى الآية: أي ماكثين في النار أزماناً ودهوراً، كلّما مضى حقب تبعه حقب آخر، وهكذا إلى الأبد من غير انقطاع.

وقد روي عن الحسن قال في الآية: (( أمّا الأحقاب فليس لها عدّة إلّا الخلود في النار ))[3]، ومثل هذا ما روي عن قتادة قال: (( الأحقاب: ما لا انقطاع له، كلّما مضى حقب جاء حقب بعده . ))[4]

وهذا ما فسّره الشوكاني عند تفسيره للآية[5] خلافاً لما قرّره في رسالته .

ولا شكّ أنّه يقصد في هذا التفسير الكفّار، لأنّ نارهم أبديّة، ويقصد في رسالته هنا ك العصاة من أهل الإيمان، بناء على القول إنّ الأحقاب تفيد التناهي، ولا تفيد التأبيد .

وأمّا استدلالهم بالآثار المنقولة عن بعض السلف فأجاب عنه الشوكاني قائلاً :

(( إنّه لم يصحّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيء من ذلك، وأمّا ما روي عن بعض الصحابة فقد قالوا بما فهموه من التقييد بالمشيئة، وليس ذلك حجّة على غيرهم، وأيضاً قد خالف هذا البعض من الصحابة بعض آخر، فقالوا بالتأويل لتلك المشيئة، فلو كان قول البعض منهم يجب المصير إليه لكان قول البعض الآخر كذلك، فيستلزم القول بالشيء ونقيضه، وهو باطل، وما يستلزم من الباطل باطل مثله، وهكذا قول من بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمّة لا حجّة في ذلك على أحد من الناس، ولا سيّما وقد خالفهم الجمهور الكبير والسواد الأعظم، وعلى كلّ حال فالموافق للدليل الحقّ هو الأسعد بالحقّ، سواء وافقه غيره أو خالفه، فلا اعتبار بغير الدليل . ))[6]

قلت : ما قاله الشوكاني صحيح ومقبول إذا ثبتت هذه الآثار عنهم رواية ودراية، وقد

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/٣٠، ١٢)، وتفسير البغوي (٤٣٨/٤)، وتفسير الفخر الرازي (٣١/ ١٣)، وتفسير القرطبي (١٧٨/١٩، ١٧٩)، وتفسير ابن كثير (٤٩٤/٤، ٤٩٥)، وفتح القدير (٥/ ٣٦٦ ـ ٣٦٨)، وكشف الأستار: الشوكاني (ورقة ٥ و٧) (مخطوط) .

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٨/٩) قال: وهذا قول ابن قتيبة والجمهور، وتفسير الفخر الرازي (١٤/٣١)، وتفسير القرطبي (١٧٧/١٩) .

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١/٣٠)، وذكره البغوي نحوه معلّقاً بدون إسناد في تفسيره (٤٣٨/٤) .

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١/٣٠).

(٥) انظر فتح القدير (٣٦٦/٥) وتقدّم نصّه في آخر المبحث السابق صفحة (٦٢٣) .

(٦) كشف الأستار: الشوكاني ( ورقة ١٠) (مخطوط) .

ضعّفها كثيرمن أهل العلم [١] كما سبق بيان ذلك في أثرعمر [٢]، وعلى فرض ثبوتها فهي في حقّ عصاة الموحّدين الذين استحقّوا دخول النار بذنوبهم كما دلّت عليه الأدلة الصحيحة المعروفة. [٣]

يقول البغوي رحمه الله تعالى ـ عقب ذكر أثر ابن مسعود وأبي هريرة : (( ليأتين على جهنّم زمان ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابا.)) ـ :

(( ومعناه عند أهل السنة إن ثبت: أن لا يبقى فيها أحد من أهل الايمان، وأمّا مواضع الكفّار فممتلئة أبدا.)) [٤]

ومثل هذا ما قاله الحافظ ابن حجر في أثر عمر [٥] .

وهذه الآثار صريحة في الخروج لا في الفناء الذي هو محلّ النزاع، فلو ثبتت لا تدلّ على فناء النار وذهابها، وانّما تدلّ على بقاء النار بعد خروج من يخرج منها من أهل التوحيد، وعلى هذا فلا تصحّ نسبة القول بفناء النار إلى هؤلاء .

هذا وقد حكينا اتّفاق سلف الأمّة وأئمّتها على أبديّة الجنّة والنار وخلود أهلهما فيهما، فالحمل على ذلك متعيّن جمعا بين الأدلة. والله أعلم .

---

(١) انظر: رفع الاستار لابطال أدلّة القائلين بفناء النار للصنعاني (ص ٦٧ ـ ٦٩ و ٧٧ ـ ٨٢) وتعليق الألباني عليها. وانظر أيضا: كشف الاستار لابطال ادّعاء فناء النار للدكتور علي بن علي جابر الحربي (ص ٨٤) .

(٢) انظر صفحة (٦٢٩) هامش رقم ٢ .

(٣) راجع مبحث: حكم مرتكب الكبيرة صفحة (٤٧٤ ـ ٤٨٠) .

(٤) تفسير البغوي (٤٠٣/٢) .

(٥) انظر الفتح (٤٢٢/١١) .

# الخاتمة

## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أمّا بعد :

فقد انتهيت بعون الله وتوفيقه من إتمام هذا البحث وإكماله ، وفي هذه الخاتمة أحبّ أن أجمل أهمّ النتائج والفوائد التي توصّلت إليها في النقاط التالية :

١ ـ عاش الشوكاني رحمه الله تعالى (١١٧٣ ـ ١٢٥٠هـ) في فترة كانت البلاد الاسلامية فيها تعاني من تفكّك ومن ضعف شديد ، وكانت الصراعات المذهبية والطائفية والقبلية تسود المجتمعات الاسلامية بصفة عامّة ومجتمع اليمن ( مسقط رأسه ) بصفة خاصّة ، وقد عاصر رحمه الله المذاهب والفرق والطوائف الدينية المختلفة ،كالرافضة ، والزيدية ،والصوفية ،والمعتزلة ،وغيرهم ، ورأى ما فيهم من التعصّب والجمود ، ومن الانحراف العقدي والسلوكي المتناقض لتعاليم الاسلام ،كما رأى ما وقع فيه الناس حوله من الفساد ،والشرور ،والبدع ،والشركيات ،وجهلهم بأمور الدين ، ورأى قعود العلماء والحكّام عن أداء واجباتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورأى الظلم الاجتماعي الذي ساد المجتمع اليمني عموما، تبدّت مظاهره في سلوكيات القضاة والعمّال والحكّام ..... هذه الأمور التي تكوّنت منها بيئة الشوكاني لها أثر بالغ في ظهوره وقيامه بالاصلاح .

٢ ـ نشأ الشوكاني رحمه الله في بيت علم حيث كان والده من العلماء الكبار ،وكان له أكبر الأثر في تكوين الشوكاني، حيث هيّأ له فرصة التفرّغ للعلم ،وكفل له وسائل الحياة المعيشية ، فبدأ حياته العلمية منذ الصغر ، وتتلمذ على عدد كبير من علماء صنعاء في عصره ،ولم يرحل منها . وكان أكثرهم تأثيرا فيه شيخه عبد القادر بن أحمد الكوكباني، والحسن بن اسماعيل المغربي،وعبد الله بن اسماعيل النهمي. ودرس جميع العلوم الشرعية والعربية ونبغ فيها، بل درس العلوم الفلسفية الشائعة في ذلك الوقت،كالمنطق،والطبيعة ، والرياضة ،وغير ذلك،وقد بلغ مرتبة من التفوّق المبكّر جعلته يدرّس وهو في أثناء طلبه العلم ، ويفتي وهو في العشرين من عمره ، ثم يتولّى بعد ذلك القضاء العام وهو في السادسة والثلاثين من عمره ، ووجد في قضائه فرصة متاحة له لنشر مذهبه في الاجتهاد ونبذ التقليد ،والدعوة الى طريق السلف الصالح ، وظلّ متوليا منصب القضاء حتى توفّي بصنعاء عام ١٢٥٠هـ .

٣ ـ خلّف الشوكاني رحمه الله تعالى ـ مع انشغاله بالأعمال الكثيرة ـ عددا كبيرا من المؤلفات والرسائل القيمة في مختلف العلوم ، ولم يزل معظم هذا التراث مخطوطا وتجدر العناية بتحقيقه ، ودراسته ، وتسهيل السبل الى طبعه ، حتى تتحقّق الفائدة .

٤ ـ تفقّه الشوكاني رحمه الله على مذهب الزيدية ، الا أنّه لم يلبث أن تخلّى عن التقليد والتمذهب ، وأصبح لا يتقيّد بفرقة من الفرق أو مذهب من المذاهب ، بل اعتمد اعتمادا مباشرا على الكتاب والسنة ، وأصبح من المجتهدين في البحث عن الحكم الشرعي والرأي العقائدي من خلال الأدلة والبراهين ، لا من طريق التقليد والتلقين ، وقد وصل الى هذه المرتبة وهو دون الثلاثين من عمره ، وكانت دعوته الى الاجتهاد ونبذ التقليد والرجوع بالتشريع الى طريق السلف تمثّل امتدادا لأدوار من سبقه من المجدّدين والمصلحين ، كالامام مالك ، وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وشيخ الاسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، وكابن الوزير ، والمقبلي ، والأمير الصنعاني ، والامام محمد بن عبد الوهّاب ، ونظائرهم ، رحمهم الله . وقد تعرّض في سبيل هذه الدعوة لأذى كثير من المتعصّبين والمقلّدين في عصره ، واتّهموه بالدعوة الى هدم مذهب أهل البيت ، وهو بريء من هذه التهمة ، وهذا شأنهم مع كلّ عالم مجتهد آخذ بالدليل .

٥ ـ أورد الشوكاني رحمه الله تعالى أحاديث ضعيفة ومنكرة في فضائل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في بعض كتبه ، وألّف في آخر عمره كتابه : الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، حيث بيّن فيه نكارة كثير من تلك الأحاديث . وهذا يدلّ على أنّه لم يتبيّن له ما في تلك الأحاديث من النكارة ، ولمّا نضج علمه توصّل الى هذه النتيجة في الحكم عليها ، وهو أمر يدلّ على تطوّر في علمه بعلوم الحديث ، شأنه كشأن غيره من العلماء المجتهدين .

٦ ـ من خلال دراستي لمنهج الشوكاني في العقيدة تبيّن لي أنّه وافق السلف أهل السنة في جميع أركان الايمان الستة ، وهي : الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر ، ولم يخالفهم الا في مسائل قليلة ، وكان رأيه في بعضها مضطربا بين كتاب وآخر ، كما في بعض الصفات . وفيما يلي أذكر تلك المسائل مختصرا :

أ ) في توحيد الألوهية :

أجاز التوسّل بالذات والجاه وجعله كالتوسّل بالعمل الصالح ، وهذا مخالف لما قرّره ودعا اليه في عدد من كتبه من محاربة الشرك وسدّ الذرائع المؤدّية اليه .

ب ) في أسماء الله تعالى :

ذهب الى جواز تسمية الله بما ثبت من صفاته، سواء ورد التوقيف بهما أو لم يرد. غير أنّي لم أقف على تطبيق الشوكاني هذه القاعدة، لا في تفسيره، ولا في غيره .

ج ) في صفات الله تعالى :

١- أوّل بعض الصفات الالهية في تفسيره «فتح القدير» تأويلا أشعريّا. والصفات التي أوّلها هي: الوجه، والعين، واليدان، والمجيء، والاتيان، والمحبّة، والغضب، والعلوّ، على التفصيل الذى ذكرته في الرسالة. وهذا التأويل مناقض لمنهجه في رسالته التحف في اثبات الصفات على ظاهرها من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل. وهو مذهب السلف رضوان الله عليهم .

٢- نهج منهج أهل التفويض في صفة المعية في رسالته التحف، فلم يفسّرها بمعيّة العلم، بل زعم أنّ هذا التفسير شعبة من شعب التأويل المخالف لمذهب السلف. وهذا مخالف لما ذهب اليه في تفسيره وفي كتابه تحفة الذاكرين من أنّ هذه المعية معيّة العلم، وفسّرها هنا تفسير السلف .

٣- ذهب مذهب الواقفية في مسألة خلق القرآن، فلم يجزم برأى هل هو مخلوق أو غير مخلوق .

د ) في نواقض التوحيد :

١- أجاز تحرّى الدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين باعتبارها أماكن مباركة يستجاب الدعاء فيها . وهذا مخالف لما قرّره ودعا اليه في عدد من كتبه من سدّ الذرائع الى الشرك في الأموات .

٢- جعل الحلف بالقرآن كالحلف بمخلوق من مخلوقات الله .

هـ ) في النبوّات :

يرى التوقّف في مسألة التفضيل بين الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

هذا وقد سلك الشوكاني رحمه الله تعالى طريقة السلف في الاستدلال لكل مسألة من مسائل العقيدة التي أثبتها، فيقدّم الأدلة النقلية على العقلية، ويقدّم المعنى الظاهر من النصوص على معنى المجاز منها، كما في كتابه التحف، لا في مسألة المعيّة كما تقدّم إيضاحه في فقرة (٢)، وكذلك في تفسيره لمسألة الاستواء وغيرها من الصفات التي أثبتها في تفسيره ولم يؤوّلها . أمّا ما يظهر في كتبه من اضطراب وتناقض في هذا الباب وغيره وخالف فيه السلف أهل السنة فيمكن الاعتذار عنه بأنّه نشأ وترعرع في بيئة زيدية، وكانت دراسته داخلها ولم يخرج منها، فلعلّ الظروف المحيطة بهذه البيئة لم تتهيّأ له كثيرا للاطّلاع على كتب أئمّة السلف أهل السنة والجماعة .

هذا وقد أخطأ الشوكاني فيما أخطأ، ولا ندّعي له العصمة، ولا نقول عنه إلا أنّه من البشر، والبشر يخطئون ويصيبون، وكما قال هو نفسه :

(( إنّ الخطأ شأن البشر، وكلّ أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم، والأهوية تختلف، والمقاصد تتباين، وربّك يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون . ))(١)

ورحمه الله إذ قال :

فكّرت في علمي وفي أعمالي ونظرت في قولي وفي أفعالي

فوجدت ما أخشاه منها فوق ما أرجوه فطاحت عندذا آمالي

ورجعت نحو الرحمة العظمى التي ما ارتجى من فضل ذي الافضال

فغدا الرجاء والخوف يعتلجان في صدري وهذا منتهى أحوالي (٢)

وأخيرا أحمد الله تعالى وأشكره الذي أعانني على إتمام هذا البحث وإخراجه بهذه الصورة، وإنّني معترف هنا بالتقصير، فإن كان ما ذكرته في بحثي هذا وما عرضته فيه حقّا وصوابا فهذا من فضل الله وحده، فله الحمد والشكر أوّلا وآخرا، وما كان منه من خطأ وزلل فهو منّي ومن الشيطان، وأستغفر الله من ذلك وأتوب إليه .

وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا اتّباع كتابه وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم اتّباعا سليما نقيّا خاليا من البدع والأهواء كما كان عليه سلف هذه الأمّة وأن يجنبنا الزلل ومزالق الأهواء، وأن يغفر لي ولوالدي ولمشايخي ولجميع المسلمين إنّه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) البدر الطالع : الشوكاني (١١١/٢، ١١٢) عند ترجمته للحافظ الذهبي .
(٢) نيل الوطر : محمد زبارة (٣٠٢/٢) .

# الفَهَارِس

وتشمل:

فهرس الآيات القرآنيّة

فهرس الأحاديث النبويّة

فهرس الآثار

فهرس الأعلام والفرق

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

# فهرس الآيات القرآنية

# فهرس الآيات القرآنية

| الآيـــة | رقمها | الصفحة |
|---|---|---|
| ( سورة الأنعام ) | | |
| ( ثمّ قضى أجلا وأجل مسمّى عنده ) | ٢ | ١٧٤، ١٨٠ |
| ( وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم ... ) | ٤ | ١٢١ |
| ( أغير الله أتّخذ وليّا ... ) | ١٤ | ٢٠٥ |
| ( وهو القاهر فوق عباده ) | ١٨، ٦١ | ٣٢٧ |
| ( وأوحي إليّ هذا القرآن ... ) | ١٩ | ٤١٠ |
| ( وإن كان كبر عليك إعراضهم ... ) | ٣٥ | ١٨٤ |
| ( وما من دابّة في الأرض ولا طائر ... ) | ٣٨ | ١٠٩، ٥٤٥، ٥٩٩ |
| ( من يشأ الله يضلله ... ) | ٣٩ | ١٥١ |
| ( قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله ... ) | ٤٠ | ٤٠٤ |
| ( وما نرسل المرسلين إلا مبشّرين ومنذرين ) | ٤٨ | ٥١٤ |
| ( وعنده مفاتيح الغيب ... ) | ٥٩ | ٣٠٣، ٣٨٩ |
| ( وهو الذي يتوفّاكم بالليل ) | ٦٠ | ٥٨٠ |
| ( الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ... ) | ٨٢ | ٣٧١، ٤٥٧ |
| ( وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم ... ) | ٨٣ـ٨٦ | ٤٩٢ |
| ( ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ) | ٨٨ | ٣٧٠ |
| ( وهذا كتاب أنزلناه مبارك ... ) | ٩٢ | ٥٤٦ |
| ( فالق الحبّ والنوى ) | ٩٥ | ٢٨٩ |
| ( وهو الذي جعل لكم النجوم ... ) | ٩٧ | ٣٩٠، ٣٩١ |
| ( وخلق كلّ شيء وهو بكلّ شيء عليم ) | ١٠١ | ١٣١ |
| ( لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ) | ١٠٣ | ٦١٨ |
| (وكذلك نصرّف الآيات وليقولوا درست ولنبيّنه لقوم يعلمون ) | ١٠٥ | ١٨٨ |
| ( ولو شاء الله ما أشركوا ) | ١٠٧ | ١٥١ |
| ( ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة ... ) | ١١١ | ١٥٠ |
| ( وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّا ... ) | ١١٢ | ٥٤٩ |
| ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ... ) | ١٢٥ | ١٥٤، ١٨٩، ٣٠٨ |
| ( ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجنّ ... ) | ١٢٨ | ٦٢٨ |
| ( يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل منكم ) | ١٣٠ | ٥٥٠ |
| ( لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ... ) | ١٤٨، ١٤٩ | ١٤٤، ١٩٣ |
| ( وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتّبعوه ... ) | ١٥٣ | ٤١٧ |

| الآيـــــــــــــة | رقمها | الصفحة |
|---|---|---|
| ( هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ... ) | ١٥٨ | ٣٤٧،٣٤٦ ٥٨٤،٣٤٩ |
| ( قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين ... ) | ١٦٣،١٦٢ | ٢٢٦،١٩٧ |
| ( سورة الأعراف ) | | |
| ( والوزن يومئذ الحقّ فمن ثقلت موازينه ... ) | ٩،٨ | ٦٠١ |
| ( وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ) | ٢٢ | ٣١٢ |
| ( ربّنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ) | ٢٣ | ٥٠٩ |
| ( إنّه يراكم هو وقبيلـه ... ) | ٢٧ | ٥٥٢ |
| ( كمـا بدأكم تعودون ) | ٢٩ | ٥٥٦ |
| ( قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده ... ) | ٣٢ | ٤٢٩ |
| ( قل إنّمـا حرّم ربّي الفواحش ) | ٣٣ | ١٩٢ |
| ( فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) | ٣٤ | ١٧٨،١٧٧،١٧٥ |
| ( ونودوا أن تلكم الجنّة أورثتموهـا ... ) | ٤٣ | ٦١٢ |
| ( ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم ) | ٥٢ | ٣٤٩ |
| ( إنّ ربّكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيّام ... ) | ٥٤ | ٣١٧،١٩٣ ٣٤٤،٣٤٣ |
| ( ادعوا ربّكم تضرّعا وخفية ... ) | ٥٥ | ٢١٧،٢٥٠ |
| ( وادعوه خوفا وطمعـا ) | ٥٦ | ٢٢٣،٢١٧ |
| ( وهو الذي يرسل الرياح بشرا ... ) | ٥٧ | ٥٦٠،١٩١ |
| ( يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ) | ٥٩ | ٢٠٥،٢٠٤ ٢٢٧،٢٠٦ |
| ( قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ... ) | ٧٠ | ٢٠٦ |
| ( ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات ... ) | ٩٦ | ٤٥٧ |
| ( كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ) | ١٠١ | ١٥٦ |
| ( فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ... ) | ١٣١ | ٣٩٢ |
| ( اجعل لنا الها كما لهم آلهة ... ) | ١٣٨ | ٤٠١ |
| ( ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربّ أرني أنظر اليك ... ) | ١٤٣ | ٦١٩،٦١٦،٣١٣ |
| ( قال يا موسى إنّي اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ... ) | ١٤٤ | ٣١٣،٣١٢ |
| ( الذين يتّبعون الرسول النبي الأمّـي ... ) | ١٥٧ | ٥٢٥ |
| ( قل يا أيها الناس إنّي رسول الله اليكم جميعا ) | ١٥٨ | ٥٤٥،٥١٦ |
| ( واذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم ... ) | ١٧٣،١٧٢ | ١١٢ |

| الآيـــــــــــــــــة | رقمها | الصفحـــة |
|---|---|---|
| ( ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه .. | ١٨٠ | ٢٣٣، ٢٦١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩٢، ٣٦٧ |
| ( يسألونك عن الساعة أيان مرساها ) | ١٨٧ | ١٨١، ١٨٢ |
| ( قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرّا ) | ١٨٨ | ٢٤٦ |
| ( أيشركون ما لا يخلق شيئا ... ) | ١٩١، ١٩٢ | ٣٦٥ |
| ( سورة الأنفال ) | | |
| ( إنّما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ... ) | ٢ــ٤ | ٤٥٤، ٤٥٩، ٤٦٢ |
| ( اذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم ... ) | ٩ | ٢٢٥، ٥٣٨ |
| ( وما رميت اذ رميت ولكنّ الله رمى ) | ١٧ | ١٤٣ |
| ( وأنّ الله مع المؤمنين ) | ١٩ | ٣٥١ |
| ( واصبروا إنّ الله مع الصابرين ) | ٤٦ | ٣٥١ |
| ( وان استنصروكم في الدين ... ) | ٧٢ | ٢٢٥ |
| ( سورة التوبة ) | | |
| ( وان أحد من المشركين استجارك ... ) | ٦ | ٣١٢ |
| (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ... ) | ٧ | ٣٥٥ |
| ( قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم ... ) | ٢٤ | ٢٢٠ |
| ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ... ) | ٢٩ | ٥٥٨ |
| ( قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ) | ٥١ | ١٥٩ |
| ( وأعدّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ... ) | ١٠٠ | ٦٢٣ |
| ( واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه ايمانا ... ) | ١٢٤، ١٢٥ | ٤٦٠ |
| ( سورة يونس ) | | |
| ( إنّ ربّكم الله الذي خلق السموات والأرض ... ) | ٣ | ٢٠٢، ٦٠٩ |
| (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربّهم بايمانهم ... ) | ٩ | ٤٥٨ |
| ( واذا مسّ الانسان الضرّ ... ) | ١٢ | ١١١، ١١٢ |
| ( قل لوشاء الله ما تلوته عليكم ) | ١٦ | ٣٢١ |
| ( ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ... ) | ١٨ | ١٠٣، ١٩٠، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩ |
| ( وما كان الناس الا أمّة واحدة ... ) | ١٩ | ١٠٠ |
| ( هو الذي يسيّركم في البرّ والبحر ... ) | ٢٢ | ١١٢، ٤٠٣ |
| ( أتاها أمرنا ليلا أونهارا ... ) | ٢٤ | ١٩٠ |
| ( للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ) | ٢٦ | ٣٣٠، ٦١٤ |

| الآيـــــــة | رقمها | الصفحة |
|---|---|---|
| ( ولقدبعثنا في كلّ أمّـة رسولا أن اعبدوا اللهوا جتنبوا الطاغوت ) | ٣٦ | ١٥١،١٠٤،٤ ٢٠٥،١٩٨،١٩١ ٤٩٧،٤٨٩،٣٦٨ ٥١١ |
| ( إنّما قولنا لشيئ اذا أردنا هأن نقول لهكن فيكـون ) | ٤٠ | ١٩٠ |
| ( يخـافون ربّهم من فوقهــــم ... ) | ٥٠ | ٢٢٢ |
| ( ولله المثل الأعـلى ... ) | ٦٠ | ٢٥٧ |
| ( والله فضّـل بعضكم على بعـض في الرزق ) | ٧١ | ١٨٤ |
| ( ويعبدون من دون اللـــــه ما لايملك لهم رزقا ... ) | ٧٣ | ٢٠٠ |
| ( فـلا تضربوا لله الأمثـــال ) | ٧٤ | ٢٦٩ |
| ( ضـرب الله مثـلا عـبدا مملوكـــا ... ) | ٧٥ | ٢٠٢ |
| ( ونزّلنا عليك الكتاب تبيانـا لكـلّ شيئ ) | ٨٩ | ٥٤٥ |
| ( إنّ الله يأمر بالعـدل والاحســان ... ) | ٩٠ | ٥٢٩،١٩٠ |
| ( من عمل صالحـا من ذكرأو أنثـى ... ) | ٩٧ | ٥١٤،٤٥٧ |
| ( ولكن من شـرح بالكـفر صـدرا ) | ١٠٦ | ٤١٠ |
| ( وما ظلمنا هم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ) | ١١٨ | ١٤٦ |
| ( إنّ الله مع الذين اتّقوا ... ) | ١٢٨ | ٣٥١ |
| ( سورة الاســـراء ) | | |
| (سبحان الذي أسـرى بعبده ليلا ... ) | ١ | ٥٣٥ |
| ( فاذا جاء وعـد أولاهـما بعثنا عليكم عبادا لنا ... ) | ٥ | ١٩١ |
| ( وما كـنّا معـــذّبين حتى نبعـث رسـولا ) | ١٥ | ٤١٠،١٥٧،١١٤ ٤٨٩،٤١١ |
| ( وقضـى ربّك ألا تعبدوا الا ايّاه ... ) | ٢٣ | ١٩٨،١٩٠،١٢٨ ٤٧٢،٢٢٧ |
| ( كلّ ذلك كـــان سـيّئه عند ربّك مكـروها ) | ٣٨ | ١٩٣ |
| ( وربّك أعلم بمن في السموات والأرض ... ) | ٥٥ | ٤٩٣ |
| ( أولئك الذين يدعـون يبتغون الى ربّهم الوسيلة ... ) | ٥٧ | ٢٣١ |
| ( واذا مسّكم الضـرّ في البحر ضـلّ من تدعون الا ايّاه ... ) | ٦٧ | ٤٠٤،١١٢ |
| ( ولقدكرّمنا بني آدم وحملنا هم في البـرّ والبحـر ... ) | ٧٠ | ٥٤١ |
| ( عسى أن يبعثك ربّك مقاما محمـودا ) | ٧٩ | ٦٠٦ |
| ( ونـنزّل من القرآن ما هو شـفاء ورحـمة للمؤ منين ) | ٨٢ | ٥٤٦ |
| ( قل لئن اجتمعت الانس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ... | ٨٨ | ٥٢٩ |

| الآيــــة | رقمها | الصفحــة |
| --- | --- | --- |
| ( لا يعزب عنه مثقال ذرّة ... ) | ٣ | ١٣٥ |
| ( ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ) | ٤ | ١٨٦ |
| ( ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ) | ٢٣ | ٦٠٩ |
| ( وما أرسلناك إلا كافّة للناس ) | ٢٨ | ٤٩٦، ٥١٦ |
| ( ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة ... ) | ٤٠، ٤١ | ٤٠٨ |
| ( سورة فاطر ) | | |
| ( يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله ) | ٣ | ٢٠٥، ٢٢٥ |
| ( فأحيينا به الأرض بعد موتها ... ) | ٩ | ٥٥٧ |
| ( فلله العزّة جميعا ) | ١٠ | ٢٨٧ |
| ( وما يعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره ... ) | ١١ | ١٧٣، ١٧٤، ١٨٠ |
| ( والذين كفروا لهم نار جهنّم ... ) | ٣٦ | ٦٢٢ |
| ( إنّ الله عالم غيب السموات والأرض ... ) | ٣٨ | ٣٨٩ |
| ( وما كان الله ليعجزه من شيئ ... ) | ٤٤ | ٣٠٦ |
| ( سورة يس ) | | |
| ( وكلّ شيئ أحصيناه في إمام مبين ) | ١٢ | ١٦٧ |
| ( ما ينظرون إلا صيحة واحدة ... ) | ٤٩ ــ ٥١ | ٥٩٦، ٦٢٠ |
| ( سلام قولا من ربّ رحيم ) | ٥٧ | ٣١٢ |
| ( ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ... ) | ٦٠، ٦١ | ٢٠٥ |
| ( أولم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ... ) | ٧١ | ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٩ |
| ( أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر ... ) | ٨١ | ٣٠٦ |
| ( إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ) | ٨٢ | ٣٠٢، ٣٠٧، ٣١٧، ٣١٨ |
| ( سورة الصافات ) | | |
| ( وحفظا من شيطان مارد ) | ٧ | ٣٩١ |
| ( فاهدوهم إلى صراط الجحيم ) | ٢٣ | ١٥٧ |
| ( أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ) | ٩٥، ٩٦ | ١٤٧ |
| ( فلولا أنّه كان من المسبّحين ... ) | ١٤٣، ١٤٤ | ١٥٨ |
| ( سورة ص ) | | |
| ( إن هذا إلا اختلاق ) | ٧ | ٣١٨ |
| ( فاستغفر ربّه وخرّ راكعا ..... ) | ٢٤، ٢٥ | ٥٠٨ |
| ( وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ) | ٢٧ | ١٨٣ |
| ( وخذ بيدك ضغثا ) | ٤٤ | ٣٣٦ |
| ( وإنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ) | ٤٧ | ٤٨٥ |

| الآيــــة | رقمهـا | الصفحــة |
|---|---|---|
| ( سورة النازعات ) | | |
| ( يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفـــة ) | ٦،٧ | ٥٩٥،٥٩٧ |
| ( أنا ربّكم الأعلى ) | ٢٤ | ٣٦٤ |
| ( أأنتم أشدّ خلقا أم السماء بناها ) | ٢٧ | ٥٥٩ |
| ( سورة التكوير ) | | |
| ( وإذا الوحوش حشرت ) | ٥ | ٥٩٩ |
| ( لمن شاء منكم أن يستقيم ،وما تشاءون إلا أن يشاء الله ... ) | ٢٨،٢٩ | ١٥٠،١٣٥ |
| ( سورة الانفطار ) | | |
| ( وإنّ عليكم لحافظين ... ) | ١٠ـ١٢ | ٥٤٣ |
| ( سورة المطفّفين ) | | |
| ( كلا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون ) | ١٥ | ٦١٦ |
| ( سورة البروج ) | | |
| ( فعّال لما يريد ) | ١٦ | ١٣١ |
| ( سورة الطارق ) | | |
| ( فلينظر الإنسان ممّ خلق ... ) | ٥ | ١١٩ |
| ( سورة الأعلى ) | | |
| ( سبّح اسم ربّك الأعلى ... ) | ١ | ٢٨٤،٣٢٢ |
| ( والذي قدّر فهدى ) | ٣ | ١٥٧ |
| ( بل تؤثرون الحياة الدنيا ... ) | ١٦ـ١٩ | ٥، ٥٦٤ |
| ( سورة الفجر ) | | |
| ( وجاء ربّك والملك صفّا صفّا ) | ٢٢ | ٣٤٧،٣٤٨،٣٤٩ |
| ( سورة الشمس ) | | |
| ( قد أفلح من زكّاها ... ) | ٩ ـ ١٠ | ١٥٢ |
| ( سورة الليل ) | | |
| ( فأمّا من أعطى واتّقى ..... ) | ٥ ـ ١٠ | ١٥٣ |
| ( لا يصلاها إلا الأشقى ... ) | ١٥ـ١٧ | ٤٨٠ |
| ( سورة القدر ) | | |
| ( إنّا أنزلناه في ليلة القدر ) | ١ | ١٢٩ |
| ( سورة البينة ) | | |
| ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله ... ) | ٥ | ١٢٦،١٨٦،١٩٧، ٢١٢،٢١٤،٢٢٧ |
| ( إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ) | ٧ | ٨٧،٤٥٧ |
| ( سورة القارعة ) | | |
| ( فأمّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ) | ٦ ـ ٩ | ٦٠١ |
| ( سورة العصر ) | | |
| ( والعصر إنّ الإنسان لفي خسر ... ) | ١ ـ ٣ | ٤٥٦،٤٥٧ |
| ( سورة الكوثر ) | | |
| ( فصلّ لربّك وانحر ) | ٢ | ٢٢٦ |
| ( سورة الإخلاص ) | | |
| ( قل هو الله أحد ..... ) | ١ ـ ٤ | ٢٥٧،٢٦٩ |
| ( سورة الناس ) | | |
| ( قل أعوذ بربّ الناس ... ) | ١ ـ ٣ | ٢٠٣ |

# فهرس الأحاديث النبوية

## فهرس الأحاديث النبوية

# فهرس الآثار

# فهرس الآثار

# فهرس الأعلام

# فهرس الفرق

## فهرس الأعلام المترجم لهم

## فهرس الفرق والطوائف

# فهرس المصادر والمراجع

## فهرس المصادر والمراجع

### المخطوطات

١ ـ بحث في كون أسباب التفرّق في الدين هو علم الرأي للشوكاني. ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٣٣ـ٢٣٥) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ بصنعاء بخطه بدون تاريخ . (×)

٢ ـ بحث في مستقر أرواح الأموات للشوكاني . ضمن مجموع (٧) ( ص ١١ـ١٤) مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ بخطه بدون تاريخ . (×)

٣ ـ بحث في وجود الجنّ للشوكاني . ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٣١ـ٢٣٣) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ بخطه بدون تاريخ . (×)

٤ ـ البغية في مسألة الرؤية للشوكاني. تحت رقم (١٤٤٣) ميكروفيلم ( توحيد ) مكتبة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة بدون تاريخ .

٥ ـ التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح للشوكاني وتوجد صورة منها في مكتبة الشيخ حمّاد الأنصاري بالمدينة المنورة بتاريخ (١٢١٨هـ)

٦ ـ رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّوجلّ للشوكاني . تحت رقم (٩٢٥) وأيضا (٧٢٤) ـ ميكروفيلم ( توحيد ) مكتبة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة . بدون تاريخ.

٧ ـ الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد للشوكاني . تحت رقم (٥٦٢) ميكروفيلم ( مناظرة ) مكتبة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة. بتاريخ (٢٢ رجب ١٢٠٥هـ) .

٨ ـ العذب النميري في جواب مسائل عالم بلاد عسير للشوكاني. وهي تشتمل على مسائل مختلفة منها : وجوب توحيد الله عزّوجلّ، وخلق أفعال العباد ، وحديث افتراق الأمّة ، والحروب بين علي ومعاوية ، وعدالة الصحابة ، وغيرها . وقد حرّرها في ( شوّال ١٢٢٢ هـ) . (×)

٩ ـ كشف الأستار في إبطال كلام من قال بفناء النار للشوكاني . ضمن مجموع (٥٩) ـ رقم (٢٢) (ص ١٦١ـ١٧١) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ بخطه بدون تاريخ. (×)

### المطبوعات

( أ )

١ ـ الابانة عن أصول الديانة ؛ أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) تحقيق/د. فوقية حسين محمود ط ١٣٩٧/١هـ ـ ١٩٧٧م دار الأنصار بالقاهرة .

٢ ـ الابانة عن شريعة الفرق الناجية ؛ ابن بطة (ت ٣٨٧هـ) تحقيق/ رضا بن نعسان معطي ط ١٤٠٩/١هـ ـ ١٩٨٨م دار الراية بالرياض .

٣ ـ اتحاف الأكابر باسناد الدفاتر ؛ الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ط/ ١٣٢٨هـ مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ـ حيدرآباد ـ الهند .

٤ ـ اثبات صفة العلوّ ؛ ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ) تحقيق/د. أحمد بن عطية الغامدي ط/١ـ ١٤٠٩هـ مؤسسة علوم القرآن بيروت ـ مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة.

٥ ـ اجتماع الجيوش الاسلامية ؛ ابن القيم (ت ٧٥١هـ) ط/ المكتبة السلفية المدينة المنورة.

٦ ـ الاحسان في تقريب صحيح ابن حبّان (ت ٣٥٤هـ) ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان (ت ٧٣٩هـ) تحقيق/شعيب الأرناءوط، ط/١ـ ١٤٠٨هـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

---

(×) وتوجد صورة منها في مكتبة الأخ الدكتور سعود عبد العزيز الخلف بالمدينة المنورة.

٧ ـ أحكام الجنائز وبدعها : محمد ناصر الدين الألباني ط١/١٣٨٨هـ المكتب الإسلامي بيروت.

٨ ـ إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) وبذيله كتاب المغني في تخريج ما في الإحياء من الأخبار للحافظ العراقي (ت ٨٠٦هـ) دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ .

٩ ـ الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية : ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ضمن عقائد السلف، نشر: د/علي سامي النشار، عمار رجمعي الطالبي، منشأة المعارف ـ الإسكندرية ١٩٧١هـ .

١٠ـ أدب الطلب ومنتهى الأرب : الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) تحقيق/محمد عثمان الخشت، مكتبة الساعي ـ الرياض .

١١ـ إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات : الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ط١/١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٢ـ إرشاد السائل إلى دلائل المسائل : الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ط/١٣٤٨هـ ضمن الرسائل السلفية، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٣ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) دار المعرفة .

١٤ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل : محمد ناصر الدين الألباني ط٢/١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م المكتب الإسلامي ـ بيروت .

١٥ـ الأسماء والصفات : البيهقي (ت ٤٥٨هـ) دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٦ـ الإشارات والتنبيهات : ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) وشرحها لنصر الدين الطوسي تحقيق/سليمان دنيا، دار المعارف ـ القاهرة .

١٧ـ الإشاعة لأشراط الساعة : الشريف محمد البرزنجي (ت ١١٠٣هـ) دار الكتب العلمية .

١٨ـ أصول الدين : عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ) ط١/١٤٠١هـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

١٩ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٢هـ) طبعة دار الإفتاء بالرياض ١٤٠٣ هـ .

٢٠ـ إظهار الحق : رحمت الله الهندي (ت ١٣٠٨هـ) تحقيق/د : أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي للطباعة والنشر .

٢١ـ الاعتصام : الشاطبي (ت ٧٩٧هـ) ط/١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م دار المعرفة ـ بيروت .

٢٢ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) دار الكتب العلمية .

٢٣ـ الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد : البيهقي (ت ٤٥٨هـ) تعليق/كمال يوسف الحوت ط ١/١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م عالم الكتب ـ بيروت .

٢٤ـ الأعلام : الزركلي (ت ١٢٩٥هـ) ط ١٩٨٤/٦م دار العلم للملايين ـ بيروت .

٢٥ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان : ابن القيم (ت ٧٥١هـ) تحقيق/محمد حامد الفقي ، دار المعرفة ـ بيروت .

٢٦ـ أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات : مرعي بن يوسف الكرمي (ت ١٠٣٣هـ) تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، ط١/ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

٢٧ـ الاقتصاد في الاعتقاد : أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ط١/١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية .

٢٨ـ اقتضاء الصراط المستقيم : ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) دار الحديث .

٢٩ـ آكام المرجان في أحكام الجان : القاضي بدر الدين الشبلي (ت ٧٦٩هـ) تعليق/عبد الله محمد الصديق، ط/ كراجي ـ نور محمد كارخانة تجارت كتب .

٣٠ـ الإمام الشوكاني حياته وفكره : د/عبد الغني قاسم الشرجي ط/١٤٠٨هـ مؤسسة الرسالة .

٣١ـ الانصاف، الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) تحقيق/عماد الدين أحمد حيدر، ط/١ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م عالم الكتب ـ بيروت .

٣٢ـ إيثار الحقّ على الخلق، ابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠هـ) ط/٢ـ ١٤٠٧هـ دار الكتب العلمية .

٣٣ـ الايمان، ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ) تحقيق/ الألباني، ط٢/١٤٠٥هـ دار الأرقم ـ الكويت.

٣٤ـ الايمان، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) تحقيق/ الألباني ط١٤٠٥/٢هـ دار الأرقم .

٣٥ـ الايمان، ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ط١٤٠٣/١هـ ـ ١٩٨٣م دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٣٦ـ الايمان، أبو عمر العدني (ت ٢٤٣هـ) تحقيق/حمد بن حمدي الحربي، ط١/ ١٤٠٧هـ الدار السلفية ـ الكويت .

٣٧ـ الايمان، ابن منده (ت ٣٩٥هـ) تحقيق/د. علي بن ناصر الفقيهي، ط/١ ـ ١٤٠١هـ الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .

( ب )

٣٨ـ الباعث على انكار البدع والحوادث، أبو شامة الشافعي (ت ٦٦٥هـ) تحقيق/عادل عبد المنعم أبو العباس، مكتبة الساعي ـ الرياض .

٣٩ـ بحث في أنّ اجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء، الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ضمن أمناء الشريعة تحقيق/د. ابراهيم ابراهيم هلال، دار النهضة العربية ـ القاهرة .

٤٠ـ بحث في وجوب محبّة الله، الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ضمن أمناء الشريعة، تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال، دار النهضة العربية ـ القاهرة .

٤١ـ البحر الزخار، أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ) دار الحكمة اليمانية ـ صنعاء ١٤٠٩هـ .

٤٢ـ بدائع الفوائد، ابن القيم (ت ٧٥١هـ) تصحيح/محمود غانم غيث، ط١٣٩٢/٢هـ مكتبة القاهرة .

٤٣ـ البداية والنهاية، ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) اعتناء/عبد العزيز النجار، مكتبة الأصمعي الرياض.

٤٤ـ البدر الطالع، الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ط ١٣٤٨/١هـ دار المعرفة ـ بيروت .

٤٥ـ البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، السكسكي (ت ٦٨٣هـ) تحقيق: د/سام علي سلامة العموش، مكتبة المنار ـ الاردن ـ ط ١٤٠٨/١هـ ـ ١٩٨٨م .

٤٦ـ البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، اسماعيل بن علي الأكوع ط ١٤٠٨/٢هـ مؤسسة الرسالة .

٤٧ـ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) تحقيق/ محمد ابن عبد الرحمن بن قاسم .

( ت )

٤٨ـ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٤٩ـ تاريخ اليمن، عبد الواسع بن يحيى الواسعي (ت ١٣٧٩هـ) ط ١٤٠٤/٤هـ الدار اليمنية للنشر والتوزيع .

٥٠ـ تاريخ اليمن الثقافي، أحمد حسين شرف الدين ط/١٣٨٧هـ مطبعة الكيلاني المغير .

٥١ـ تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) تحقيق/عبد القادر أحمد عطا، ط١٤٠٨/١هـ ـ ١٩٨٨م مؤسسة الكتب الثقافية .

٥٢ـ التبصير في الدين، أبو المظفر الاسفراييني (ت ٤٧١هـ) تحقيق/كمال يوسف الحوت، ط/ ١ـ ١٤٠٣هـ عالم الكتب .

٥٣ـ تبيين كذب المفتري، ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٥٤ ـ تجريد التوحيد المفيد : المقريزي (ت ٨٥٤هـ) ضمن عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة ، تقديم / عبد الله الحاج ، شركة السلام العالمية .

٥٥ ـ تحذير الساجد من اتّخاذ القبور مساجد : محمد ناصر الدين الألباني ط٤/١٤٠٣هـ المكتب الاسلامي .

٥٦ ـ تحفة الذاكرين : الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٥٧ ـ التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية : فالح بن مهدي آل مهدي ط٢/١٤٠٥هـ مكتبة الحرمين ـ الرياض .

٥٨ ـ التحف في مذاهب السلف : الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ضمن الرسائل السلفية ـ دار الكتب العلمية ١٣٤٨ هـ .

٥٩ ـ تذكرة الحفّاظ : الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تصحيح / عبد الرحمن المعلمي ، دار احياء التراث العربي .

٦٠ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة : القرطبي (ت ٦٧١هـ) المكتبة السلفية .

٦١ ـ ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان : ابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠هـ) ط١ / ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٦٢ ـ الترغيب والترهيب : المنذري (ت ٦٥٦هـ) تحقيق / مصطفى محمد عمارة دار الآخاء ـ بيروت .

٦٣ ـ تطهير الاعتقاد من أدران الالحاد : الأمير الصنعاني (ت ١١٨٢هـ) ضمن : عقيدة الفرقة الناجية ، تقديم / عبد الله الحاج ، شركة السلام العالمية .

٦٤ ـ التعرّف لمذهب أهل التصوّف : الكلاباذي (ت ٣٨٠هـ) تحقيق / محمود أمين النواوي ط١/ ١٣٨٨هـ مكتبة الكليات الأزهرية .

٦٥ ـ التعريفات : الجرجاني (ت ٨١٦هـ) ط١/١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٦٦ ـ تعظيم قدر الصلاة : المروزي (ت ٢٩٤هـ) تحقيق : د/ عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي ط١/١٤٠٦هـ مكتبة الدار ـ المدينة المنورة .

٦٧ ـ تفسير البغوي المسمّى معالم التنزيل : البغوي (ت ٥١٦هـ) تحقيق / خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار ، ط ٢/١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م دار المعرفة ـ بيروت .

٦٨ ـ تفسير القرآن العظيم : ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) تقديم / د : يوسف عبد الرحمن المرعشيلي ط ٢/١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م دار المعرفة ـ بيروت .

٦٩ ـ التفسير الكبير : الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) الطبعة الثالثة ، دار احياء التراث العربي .

٧٠ ـ التفسير الكبير : ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) تحقيق : د/ عبد الرحمن عميرة ط١/١٤٠٨هـ ١٩٨٨م دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٧١ ـ تقريب التهذيب : ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) تحقيق / محمد عوامة ، ط١/١٤٠٦هـ دار الرشيد ـ سوريا .

٧٢ ـ تلبيس ابليس : ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٧٣ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد : ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) طبع وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية ـ تحقيق / جماعة من العلماء .

٧٤ ـ تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصه من الدلائل : الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ـ ضمن أمناء الشريعة ـ تحقيق : د / ابراهيم ابراهيم هلال ، دار النهضة العربية ـ القاهرة .

٧٥ ـ التوسّل أنواعه وأحكامه : محمد ناصر الدين الألباني ط٥/١٤٠٦هـ المكتب الاسلامي .

٧٦ ـ تهذيب اللغة : الأزهري ( ٣٧٠هـ) تحقيق / عبد السلام هارون وغيره ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٨٤ هـ .

٧٧ – تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله (ت ١٢٣٣هـ) ط٣/١٣٩٧هـ المكتب الإسلامي.

٧٨ – تيسير الكريم الرحمن: عبد الرحمن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ) تحقيق/محمد زهري النجار طبع دار الإفتاء – الرياض ١٤٠٤هـ.

( ج )

٧٩ – جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) دار الكتب العلمية – بيروت.

٨٠ – جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ط/١٤٠٨هـ دار الفكر.

٨١ – الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي (ت ٢٩٧هـ) تحقيق/أحمد محمد شاكر وغيره، دار الكتب العلمية – بيروت.

٨٢ – جامع العلوم والحكم: ابن رجب (ت ٧٩٢هـ) ط٤/١٣٩٣هـ مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

٨٣ – الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (ت ٦٧١هـ) دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٨٤ – الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) ط/١٣٧٢هـ دائرة المعارف العثمانية: الهند.

٨٥ – جمهرة الأولياء وأعلام التصوّف: محمود المنوفي، ط١/١٣٨٧هـ مؤسسة الحلبي وشركاه – القاهرة.

٨٦ – الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) مطابع المجد التجارية.

٨٧ – الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: ابن القيم (ت ٧٥١هـ) تحقيق/سعيد محمد اللحام ط١/١٤٠٧هـ مكتبة المعارف – الرياض.

( ح )

٨٨ – حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ابن القيم (ت ٧٥١هـ) تحقيق/ يوسف علي بديوي تقديم/محيي الدين مستو. ط١/١٤١١هـ مكتبة دار التراث – المدينة المنورة.

٨٩ – حاضر العالم الإسلامي: لوثروب ستودارد الأمريكي، ترجمة/عجاج نويهض ط٤/١٣٩٤ هـ دار الفكر – بيروت.

٩٠ – الحجّة في بيان المحجّة: أبو القاسم إسماعيل الأصبهاني (ت ٥٣٥هـ) تحقيق: د/محمد بن ربيع المدخلي – ومحمد بن محمود أبو رحيم ط١/١٤١١هـ ١٩٩٠م دار الراية – الرياض.

٩١ – الحسنة والسيئة: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) تقديم/د: محمد جميل غازي، دار الكتب العلمية.

٩٢ – حلية الأولياء: أبو نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ) دار الكتب العلمية.

( خ )

٩٣ – خلق أفعال العباد: البخاري (ت ٢٥٦هـ) ضمن: عقائد السلف، نشر/د: علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧١م.

( د )

٩٤ – درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) تحقيق: د/رشاد محمد سالم ط/١٤٠٢ هـ مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٩٥ – الدرّة البهية: عبد الرحمن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ) ط/١٤٠٦هـ مكتبة المعارف – الرياض.

٩٦ – درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) تحقيق: د/حسين بن عبد الله العمري ط١/١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م دار الفكر – دمشق.

٩٧ – الدر المنثور في التفسير بالمأثور: السيوطي (ت ٩١١هـ) ط٢/١٤٠٣هـ دار الفكر – بيروت.

٩٨ – الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) تحقيق/محمد جاد الحق دار الكتب الحديثة – مصر. ط ٢/١٣٨٥ هـ.

٩٩ – الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) مكتبة الصحابة الإسلامية: الكويت.

١٠٠ ـ دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) مكتبة ابن تيمية .

١٠١ ـ دلائل النبوة، البيهقي (ت ٤٥٨هـ) تحقيق: د/عبدالمعطي قلعجي ط١/١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة .

١٠٢ ـ دلائل التوحيد، جلال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) ط١/١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية .

١٠٣ ـ الدواء العاجل في دفع العدو الصائل، الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ضمن الرسائل السلفية .

١٠٤ ـ الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبدالغفور عطار، ط١/١٤٠١هـ مكة المكرمة .

١٠٥ ـ الدين الخالص، محمد صديق حسن خان (ت ١٢٠٧هـ) تحقيق/محمد زهري النجار، مكتبة دار التراث ـ القاهرة .

١٠٦ ـ الدين، د/محمد عبدالله دراز ط/١٤٠٠هـ دار القلم، الكويت .

( ذ )

١٠٧ ـ ذم التأويل، ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ) تحقيق/بدر البدر، الدار السلفية ـ الكويت ١٤٠٦هـ

١٠٨ ـ الذيل على طبقات الحنابلة، ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) تصحيح/محمد حامد الفقي مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٢هـ .

( ر )

١٠٩ ـ رسالة الارادة والأمر، ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، دار احياء التراث العربي .

١١٠ ـ الرسالة القشيرية، عبدالكريم القشيري (ت ٤٦٥هـ) تحقيق/ د، عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة ـ مصر .

١١١ ـ الرد على الجهمية والزنادقة، الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) تحقيق: د/عبدالرحمن عميرة ط٢/١٤٠٢هـ ١٩٨٢م دار اللواء ـ الرياض .

١١٢ ـ الرد على الجهمية، الدارمي (ت ٢٨٠هـ) ضمن عقائد السلف، نشر/د، علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي، منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧١م .

١١٣ ـ رفع الأستار لابطال أدلة القائلين بفناء النار، الصنعاني (ت ١١٨٢هـ) تحقيق/محمد ناصر الدين الألباني ط١/١٤٠٥هـ المكتب الاسلامي .

١١٤ ـ الروح، ابن القيم (ت ٧٥١هـ) تحقيق/محمد اسكندر يلدا ط١/١٤٠٢هـ دار الكتب العلمية .

( ز )

١١٥ ـ زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ط٤/١٤٠٧هـ المكتب الاسلامي، بيروت .

١١٦ ـ زاد المعاد، ابن القيم (ت ٧٥١هـ) تحقيق/شعيب وعبدالقادر الأرناءوط ط٧/١٤٠٥هـ ١٩٨٥م مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

( س )

١١٧ ـ السحر بين الحقيقة والخيال، د/أحمد بن ناصر ط/١٤٠٨هـ مكتبة التراث ـ بمكة المكرمة .

١١٨ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني ط٤/١٤٠٨هـ مكتبة المعارف بالرياض، والمكتب الاسلامي بيروت ـ دمشق .

١١٩ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف بالرياض والمكتب الاسلامي بيروت ودمشق .

١٢٠ ـ السنة، ابن أبي عاصم (ت ٢٨٧هـ) تحقيق/الألباني ط١/١٤٠٠هـ المكتب الاسلامي، بيروت .

١٢١ ـ السنة: ابن الخلال (ت ٣١١هـ) تحقيق:د/عطية الزهراني ط١/١٤١٠هـ دار الراية الرياض.

١٢٢ ـ السنة: عبدالله بن الامام أحمد (ت ٢٩٠هـ) تحقيق:د/محمد سعيد القحطاني ط١/١٤٠٦ هـ ـ دار ابن القيم ـ الدمام .

١٢٣ ـ سنن أبي داود (ت ٢٧٥هـ) ومعه كتاب معالم السنن للخطابي (ت ٣٨٨هـ) اعداد وتعليق/ عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، ط١/١٣٩٣هـ دار الحديث ـ سورية .

١٢٤ ـ سنن الدارمي (ت ٢٥٥هـ) تحقيق/فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي ط١/١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م دار الريان للتراث ـ القاهرة .

١٢٥ ـ السنن الكبرى: البيهقي (ت ٤٥٨هـ) دار الفكر ـ بيروت .

١٢٦ ـ سنن ابن ماجة (ت ٢٧٥هـ) تحقيق/محمد فؤاد عبدالباقي المكتبة العلمية ـ بيروت.

١٢٧ ـ سنن النسائي (ت ٣٠٣هـ) ترقيم/عبدالفتاح أبو غدة، ط٢/١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م مكتب المطبوعات الاسلامية بحلب .

١٢٨ ـ سير أعلام النبلاء: الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق/مجموعة من المحققين، ط١/١٤٠١هـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

١٢٩ ـ السيل الجرار المتدفّق على حدائق الأزهار: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) تحقيق/ محمود ابراهيم زايد ط١/١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

( ش )

١٣٠ ـ شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) دار المسيرة ـ بيروت .

١٣١ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: اللالكائي (ت ٤١٨هـ) تحقيق:د/أحمد سعد حمدان دار طيبة للنشر والتوزيع ـ الرياض .

١٣٢ ـ شرح الأصول الخمسة: القاضي عبدالجبّار (ت ٤١٥هـ) تحقيق:د/عبدالكريم عثمان ط٢/ ـ ١٤٠٨هـ مكتبة وهبة ـ القاهرة .

١٣٣ ـ شرح جوهرة التوحيد للشيخ ابراهيم اللقاني (ت ١٠٤١هـ) شرح الشيخ ابراهيم البيجوري (ت ١٢٧٧هـ) ط١/١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٣٤ ـ شرح السنة: البغوي (ت ٥١٦هـ) تحقيق/شعيب الأرناؤوط: المكتب الاسلامي ١٩٧١م .

١٣٥ ـ شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ضمن الرسائل السلفية .

١٣٦ ـ شرح العقائد النسفية: التفتازاني (ت ٧٩٣هـ) تحقيق/د أحمد حجازي السقا، ط١/١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة .

١٣٧ ـ شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٢هـ) تحقيق/جماعة من العلماء تخريج/ الألباني، ط٤/١٣٩١هـ المكتب الاسلامي .

١٣٨ ـ شرح العقيدة الواسطية لشيخ الاسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) شرح/محمد خليل هراس، ط٨/ ـ الجامعة الاسلامية، وشرح/د.صالح الفوزان الفوزان ط٤/١٤٠٧هـ مكتبة المعارف الرياض.

١٣٩ ـ شرح القاشاني على فصوص الحكم لابن عربي (ت ٦٣٨هـ) ط٢/١٣٨٦هـ مصطفى البابي الحلبي.

١٤٠ ـ شرح كتاب الفقه الأكبر للامام أبي حنيفة (ت ١٥٠هـ) شرح الملا علي القاري (ت ١٠١٤هـ) ط١/١٤٠٤هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٤١ ـ شرح المقاصد: التفتازاني (ت ٧٩٣هـ) تحقيق:د/عبدالرحمن عميرة، ط١/١٤٠٩هـ عالم الكتب

١٤٢ ـ شرح النووي لصحيح مسلم: النووي (ت ٦٧٦هـ) المطبعة المصرية ومكتبتها القاهرة ١٣٤٩هـ

١٤٣ ـ الشريعة: الآجري (ت ٣٦٠هـ) تحقيق/محمد حامد الفقي، ط١/١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية .

١٤٤ ـ شعب الايمان: البيهقي (ت ٤٥٨هـ) تحقيق/محمد السعيد زغلول، ط١/١٤١٠هـ دار الكتب العلمية .

١٤٥ ـ الشفا: القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) تحقيق/علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٤٦ ـ شفاء العليل: ابن القيم (ت ٧٥١هـ) تحرير الحساني حسن عبد الله، دار التراث، القاهرة.

١٤٧ ـ الشوكاني مفسّراً: د/محمد حسين الغماري، ط١/١٤٠١هـ ١٩٨١م دار الشروق.

( ص )

١٤٨ ـ الصحاح: الجوهري (ت ٣٩٣هـ) تحقيق/أحمد عبد الغفور عطار ط٢/١٤٠٢هـ.

١٤٩ ـ صحيح الجامع الصغير وزياداته: الألباني، ط٢/١٤٠٦هـ المكتب الاسلامي.

١٥٠ ـ صريح السنة: ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) تحقيق/بدر بن يوسف المعتوق، ط١/١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م دار الخلفاء للكتاب الاسلامي.

١٥١ ـ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ) تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي ط/١٤٠٣هـ دار الفكر.

١٥٢ ـ الصفات: الدارقطني (ت ٣٨٥هـ) تحقيق: د/علي بن محمد ناصر الفقيهي، ط١/١٤٠٣ هـ.

١٥٣ ـ صفة الصفوة: ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) تحقيق/محمود فاخوري ود/محمد روّاس ط٣/١٤٠٥ هـ ـ دار المعرفة ـ بيروت.

( ض )

١٥٤ ـ ضعيف الجامع الصغير وزياداته: الألباني ط٢/١٣٩٩هـ المكتب الاسلامي.

١٥٥ ـ الضوء اللامع: السخاوي (ت ٩٠٢هـ) دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

( ط )

١٥٦ ـ طبقات الحنابلة: ابن أبي يعلى (ت ٥٢٥هـ) دار المعرفة ـ بيروت.

١٥٧ ـ طبقات الشافعية: عبد الرحمن الأسنوي (ت ٧٧٢هـ) ط١/١٤٠٧هـ دار الكتب العلمية.

١٥٨ ـ طبقات الشافعية الكبرى: السبكي (ت ٧٧١هـ) تحقيق/ محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ـ طبعة الحلبي ١/١٣٨٣هـ.

١٥٩ ـ طبقات الصوفية: أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢هـ) ط/نور الدين شريبة ـ القاهرة ١٩٥٣هـ.

١٦٠ ـ طبقات فقهاء اليمن: عمر بن علي الجعدي (ت ٥٨٦هـ) تحقيق/فؤاد سيد، ط٢/١٩٨١هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٦١ ـ الطبقات الكبرى: ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) دار صادر ـ بيروت.

( ع )

١٦٢ ـ العبودية: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ط٥/١٣٩٩هـ المكتب الاسلامي.

١٦٣ ـ العقائد الاسلامية: سيد سابق. دار النصر للطباعة ـ ط٢/١٣٨٧هـ.

١٦٤ ـ العقد الثمين في اثبات وصاية أمير المؤمنين: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) الرسالة الثانية ضمن الرسائل اليمنية، ط/ المنيرية ١٣٤٨هـ. القاهرة.

١٦٥ ـ عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ضمن أمناء الشريعة تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال دار النهضة العربية ـ القاهرة.

١٦٦ ـ عقيدة السلف أصحاب الحديث: الصابوني (ت ٤٤٩هـ) تحقيق/بدر البدر ـ ط١/١٤٠٤هـ ـ الدار السلفية ـ الكويت.

١٦٧ ـ عقيدة المسلم: أبو بكر الجزائري ط/١٤٠٥هـ دار الكتب السلفية ـ القاهرة.

١٦٨ ـ العقيدة النظامية: امام الحرمين (الجويني) (ت ٤٧٨هـ) تحقيق/د: أحمد حجازي السقا ط١/١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م مكتبة الكليات الأزهرية.

( غ )

١٦٩ ـ غاية الأماني في أخبار القطر اليماني: يحيى بن الحسين (ت ١٠٩٩هـ) تحقيق/ سعيد عبدالفتاح عاشور ط/١٩٦٨م القاهرة .

١٧٠ ـ غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: الألباني ط٣/١٤٠٥هـ المكتب الاسلامي.

١٧١ ـ غاية المرام في علم الكلام: الآمدي (ت ٦٣١هـ) تحقيق/حسن محمود عبداللطيف/المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ القاهرة .

( ف )

١٧٢ ـ فتح الباري: ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) تحقيق/محبّ الدين الخطيب، وترقيم/محمد فؤاد عبدالباقي ط٤/١٤٠٨هـ المكتبة السلفية ـ القاهرة .

١٧٣ ـ فتح القدير: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ط٢/١٣٨٣هـ مصطفى البابي الحلبي ـ مصر .

١٧٤ ـ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ تحقيق: محمد حامد الفقي ط/ لاهور .

١٧٥ ـ الفتوحات المكية: ابن عربي (ت ٦٣٨هـ) ط/ بولاق ١٨٧٦م .

١٧٦ ـ الفتوى الحموية الكبرى: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) نشر: محبّ الدين الخطيب ط٣/١٣٩٨هـ السلفية ـ القاهرة . وأيضاً ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، دار احياء التراث العربي .

١٧٧ ـ الفردوس بمأثور الخطاب: الديلمي (ت ٥٠٩هـ) تحقيق: محمد السعيد زغلول ط١/١٤٠٦هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٧٨ ـ الفرق بين الفرق: البغدادي (ت ٤٢٩هـ) تحقيق: لجنة احياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ط٥/١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

١٧٩ ـ فرق الشيعة: النوبختي (ت ٣١٠هـ) ط٢/١٤٠٤هـ دار الأضواء ـ بيروت .

١٨٠ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) تحقيق/د: محمد ابراهيم نصر، د: عبدالرحمن عميرة ط/١٤٠٥هـ دار الجيل ـ بيروت .

١٨١ ـ فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد للبخاري (ت ٢٥٦هـ) شرح: فضل الله الجيلاني تحقيق/ محبّ الدين الخطيب ط٣/١٤٠٧هـ المكتبة السلفية ـ القاهرة .

١٨٢ ـ الفهرست: ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) دار المعرفة ـ بيروت .

١٨٣ ـ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) تحقيق/عبدالرحمن ابن يحيى المعلمي اليماني دار الكتب العلمية ـ بيروت .

( ق )

١٨٤ ـ قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) تحقيق: د/ربيع بن هادي المدخلي ط١/١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م مكتبة لينة .

١٨٥ ـ قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة: د/عبدالعزيز المقالح ط/١٩٨٢م دار العودة، بيروت.

١٨٦ ـ قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) تحقيق: د/ ابراهيم ابراهيم هلال دار احياء التراث العربي ـ بيروت .

١٨٧ ـ القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) تحقيق: محمد عثمان الخشت مكتبة القرآن ـ القاهرة .

( ك )

١٨٨ ـ الكامل في التاريخ: ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) ط٤/١٤٠٣هـ دار الكتاب العربي بيروت.

١٨٩ - كتاب البعث والنشور للبيهقي (ت ٤٥٨هـ) تحقيق/عامر أحمد حيدر ط١/١٤٠٦هـ مركز الخدمات والأبحاث الثقافية - بيروت .

١٩٠ - كتاب التوحيد لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) تحقيق: د/محمد السيد الجليند ط٣/١٤٠٧هـ دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة .

١٩١ - كتاب التوحيد لابن خزيمة (ت ٣١١هـ) تحقيق: د/عبد العزيز الشهوان ط١/١٤٠٨هـ دار الرشد - الرياض .

١٩٢ - كتاب العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ) تحقيق/ رضاء الله المباركفوري ط/ ١- ١٤١١هـ دار العاصمة - الرياض .

١٩٣ - كتاب الفتاوى للعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) تحقيق: عبد الرحمن عبد الفتّاح ط١ / ١٤٠٦هـ مكتبة المعارف بالرياض .

١٩٤ - الكتاب المقدّس ( أي كتب العهد القديم والعهد الجديد ) دار الكتاب المقدس ( جمعية الكتاب المقدس سابقا ) - القاهرة .

١٩٥ - كتاب النبوّات لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ط/١٤٠٢هـ دار الكتب العلمية - بيروت .

١٩٦ - الكشّاف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) وبذيله أربعة كتب أخرى، ترتيب وتصحيح/مصطفى حسين أحمد ط٣/١٤٠٧هـ دار الريان للتراث - القاهرة .

١٩٧ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس لإسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢هـ) تحقيق/ أحمد القلاش ط٤/١٤٠٥هـ مؤسسة الرسالة .

١٩٨ - كشف الشبهات عن المشتبهات للشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ضمن الرسائل السلفية .

( ل )

١٩٩ - لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ) دار صادر - بيروت .

٢٠٠ - لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) دار الفكر للنشر والتوزيع - بيروت .

٢٠١ - لطائف المعارف لابن رجب (ت ٧٩٥هـ) دار الجيل - بيروت .

٢٠٢ - لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ) ط٤/١٣٩٥هـ المكتب الإسلامي .

٢٠٣ - لوامع الأنوار البهية للسفاريني (ت ١١٨٨هـ) ط/ المدني - القاهرة .

( م )

٢٠٤ - مائة عام من تاريخ اليمن الحديث: د/حسين عبد الله العمري ط١/١٤٠٥هـ دار الفكر دمشق

٢٠٥ - المجددون في الإسلام: د/عبد المتعال الصعيدي مكتبة الآداب - القاهرة .

٢٠٦ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي (ت ٨٠٧هـ) ط٣/١٤٠٢هـ دار الكتاب العربي بيروت .

٢٠٧ - مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ط١/١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية .

٢٠٨ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن قاسم وابنه .

٢٠٩ - محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية: د/عبد الله الصالح العثيمين ط ١/١٤١١ هـ .

٢١٠ - مختار الصحاح للرازي مكتبة لبنان ١٩٨٦م .

٢١١ - مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (ت ٧٥١هـ) اختصار: محمد بن الموصلي ط١/١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية .

٢١٢ - مختصر العلو للعلي الغفار للذهبي (ت ٧٤٨هـ) اختصار: الألباني المكتب الإسلامي ١٤٠١هـ

٢١٣ - مدارج السالكين لابن القيم (ت ٧٥١هـ) ط١/١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية .

٢١٤ ـ المدارس الاسلامية في اليمن: اسماعيل بن علي الأكوع ط١٤٠٦/٢هـ مؤسسة الرسالة .

٢١٥ ـ مسائل الايمان: أبويعلى (ت ٤٥٨هـ) تحقيق/ سعودبن عبدالعزيز الخلف ط١٤١٠/١ هـ ـ دار العاصمة ـ الرياض .

٢١٦ ـ المستدرك على الصحيحين: الحاكم (ت ٤٠٥هـ) وبذيله التلخيص للذهبي (ت ٧٤٨هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٢١٧ ـ المسند: الامام أحمدبن حنبل (ت ٢٤١هـ) المكتب الاسلامي ط ١٤٠٥/٥هـ وبتحقيق/ أحمد شاكر. دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٤م .

٢١٨ ـ مشكاة المصابيح: التبريزي (ت ٧٤١هـ) تحقيق/ الألباني ط١٤٠٥/٢هـ المكتب الاسلامي.

٢١٩ ـ المصنّف: عبدالرزّاق الصنعاني (ت ٢١١هـ) تحقيق/حبيب الرحمن الأعظمي ط١٤٠٣/٢هـ المكتب الاسلامي .

٢٢٠ ـ معارج القبول: الحافظ الحكمي (ت ١٣٧٧هـ) تحقيق/عمربن محمود أبوعمر ط١٤١٠/١ هـ دار ابن القيم ـ الدمام .

٢٢١ ـ معتزلة اليمن/ دولة الهادي وفكره: علي محمدزيد ط١٤٠٦/٢هـ دار الكلمة ـ صنعاء.

٢٢٢ ـ المعجم الأوسط: الطبراني (ت ٣٦٠هـ) تحقيق: د/محمود الطحان ط١٤٠٥/١هـ مكتبة المعارف ـ الرياض .

٢٢٣ ـ معجم البلدان: الياقوت الحموي (ت ٦٣٦هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٢٢٤ ـ معجم طبقات الحفّاظ والمفسّرين: عبدالعزيز السيروان ط١٤٠٤/١هـ عالم الكتب، بيروت.

٢٢٥ ـ المعجم الكبير: الطبراني (ت ٣٦٠هـ) تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي ط١٤٠٠/١هـ ـ مطبعة الوطن ـ بغداد .

٢٢٦ ـ معجم المؤلفين: عمررضا كحالة دار احياء التراث العربي ـ بيروت .

٢٢٧ ـ مفتاح السعادة: طاش كبرى زادة (ت ٩٦٧هـ) ط١٤٠٥/١هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٢٨ ـ المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) تحقيق: محمدسيدكيلاني دار المعرفة ـ بيروت .

٢٢٩ ـ مقارنة الأديان بين اليهودية والاسلام: د/عوض الله حجازي ط١٤٠١/٢هـ دار الطباعة المحمّدية ـ القاهرة .

٢٣٠ ـ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين: أبوالحسن الأشعري (ت ٣٣٠هـ) تحقيق/محمد محيى الدين عبدالمجيد ط ١٣٨٩/٢هـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

٢٣١ ـ الملل والنحل: الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) تحقيق/محمدسيدالكيلاني ط/١٣٩٦هـ ـ مصطفى البابي الحلبي ـ مصر .

٢٣٢ ـ مناهج الأدلة في عقائد الملة: ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) تحقيق/محمودقاسم: الطبعة الثالثة/ مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة .

٢٣٣ ـ منهاج السنة النبوية: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) تحقيق: د/محمدرشاد سالم ط١٤٠٦/١هـ ـ جامعة الامام محمدبن سعود الاسلامية ـ الرياض .

٢٣٤ ـ منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) ط/١٤٠١ هـ الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .

٢٣٥ ـ موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ط١٤٠٥/١هـ ـ ١٩٨٥م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢٣٦ ـ المواقف في علم الكلام: عضدالدين الايجي (ت ٧٥٦هـ) عالم الكتب، وشرحه للشريف

==== الجرجاني (ت ٨١٦هـ) ط/ دار الطباعة العامرة .

٢٣٧ ـ الموضوعات: ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) تحقيق/ عبد الرحمن محمد عثمان ط٢/١٤٠٧ هـ ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة .

٢٣٨ ـ الموطأ: الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي ط/دار الحديث

٢٣٩ ـ ميزان الاعتدال: الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق/ علي محمد البجاوي وفتحية علي البجاوي دار الفكر العربي .

( ن )

٢٤٠ ـ النجاة: ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) ط/١٣٣١هـ مطبعة السعادة بمصر .

٢٤١ ـ نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف: محمد بن محمد زبارة (ت ١٣٨١هـ) ط/١٣٧٦هـ ـ السلفية ـ القاهرة .

٢٤٢ ـ نقض أبي سعيد عثمان الدارمي على بشر المريسي: الدارمي (ت ٢٨٠هـ) ضمن عقائد السلف، نشر: د/علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي، منشأة المعارف بالإسكندرية .

٢٤٣ ـ نقض المنطق: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) تصحيح/محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية القاهرة .

٢٤٤ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) تحقيق/طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة .

٢٤٥ ـ النهاية في الفتن والملاحم: ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) تحقيق: د/طه زيني، الطبعة الأولى دار الكتب الحديثة ـ مصر .

٢٤٦ ـ نيل الأوطار: الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد ومصطفى محمد الهواري، مكتبة الكليات الأزهرية .

٢٤٧ ـ نيل الوطر: محمد بن محمد زبارة (ت ١٣٠٣هـ) المطبعة السلفية ١٣٤٨هـ .

( و )

٢٤٨ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب: ابن القيم (ت ٧٥١هـ) تحقيق/مصطفى بن العدوي ط ١/١٤١٠هـ دار الصحابة للتراث .

٢٤٩ ـ وفيات الأعيان: ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) تحقيق/ إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت .

( هـ )

٢٥٠ ـ هدية العارفين: البغدادي (ت ١٣٣٩هـ) ط/ استانبول ١٩٥١ م .

( ي )

٢٥١ ـ اليمن عبر التاريخ: أحمد حسين شرف الدين ط ٤/١٤٠٦هـ الرياض .

٢٥٢ ـ اليهودية: د/ أحمد شلبي ط ٧/١٩٨٣م مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

٢٥٣ ـ اليهودية والمسيحية: د/ محمد ضياء الرحمن الأعظمي مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط/ ١٤٠٩ هـ .

# فهرس الموضوعات

# فهرس الموضوعات